

# الحركة الصليبية

صفحة مشروقة في تاريخ الجهاد العربي  
في العصور الوسطى

## الجزء الأول

بتأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح حجازي

أستاذ كرمي بتاريخ العصور الوسطى  
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٧١

ملنزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فتى - القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٢٢٨ لسنة ١٩٧١

مطابع سجل العرب

# إِهْدَاءُ الْكِتَابِ

إِلَى

الْمُؤْمِنِينَ بِفِلَسْطِينَ الْعَرَبِيَّةِ  
وَحَقَّوقِ أَصْحَابِهَا الْعَرَبِ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

« لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية »

( الحاقة ، ١٢ )



(١)

ترجع أهمية الحروب الصليبية بالنسبة لنا إلى أنها تشكل تجربة في تاريخ العرب والإسلام جميعاً ، سواء في المشرق أو في المغرب . وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج ، وإنما هي تجربة كبرى خطيرة مليئة بالدروس والعظات ، مما يتطلب منا أن نتأملها ونبحثها في كل وقت — الآن وفي المستقبل — لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها ، ونواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها ، وبذلك نحفظ للعرب حقوقهم وللعروبة كيانها ، ونضمن لأبنائنا حياة حرة كريمة في وطننا العزيز .

ثم إن ذبول الحروب الصليبية انتهت في القرن الخامس عشر تقريباً لتفصح عن نتائج غريبة متناقضة بالنسبة للشرق العربي والمغرب الأوربي . فإذا كانت هذه الحروب صفحة مثيرة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، فما السر في أنها انتهت بتدهور وركود وانحلال استمر طويلاً عقبها في البلدان العربية ، في حين صحبت هذه الحروب وأعقبها مباشرة نهضة شاملة في الغرب الأوربي هي أساس نهضته الحديثة ؟ ؟ الواقع إن هذه الظاهرة تسترعى الانتباه وتستحق منا التفكير العميق . فقد تكون الحروب الصليبية في حد ذاتها مسئولة عن الانهيار الذي تعرضت له البلدان العربية في أواخر العصور الوسطى بعد أن استنفدت جهود هذه البلدان في الدفاع عن كيانها ، وكرست مواردها ونشاطها للقضاء على الأخطبوط الصليبي الذي ثبت أقدامه في بقعة هي بمثابة القلب من الوطن العربي ، وأخذ يسعى من ذلك المركز المتوسط إلى تهديد بقية الشام والعراق ومصر والحجاز فضلاً عن المغرب والأندلس . ولعله من الواضح أنه كان من الصعب على العرب وسط ذلك الخطر الذي أحرق بهم في صميم بلادهم أن يشتغلوا بالإنشاء والتعمير والنشاط الحضاري . على أنه ثمة حقيقة يجب أن

نذكرها دائماً من باب الأمانة التاريخية ، هي أن مظاهر الضعف والانحلال السياسي والتأخر الحضارى بدت فعلاً في بعض أجزاء الوطن العربى قبل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق بكثير ، وقبل بداية حركة الاسترداد في أسبانيا بكثير أيضاً . وإن من يتأمل أحوال المشرق العربى منذ القرنين التاسع والعاشر للميلاد ليسترعى نظره كثرة الثورات والخلافات المذهبية التى قامت في جوف الدولة العباسية ، فضلاً عن الانقسامات التى تعرضت لها تلك الدولة مما أدى إلى قيام دويلات مستقلة على حسابها في المشرق والشام ومصر وشمال إفريقيا . ولا شك في أن وقوع الخلفاء العباسيين أنفسهم تحت سيطرة البويهيين ثم السلاجقة إنما هو دليل واضح على ضعف الخلافة وانحلال المشرق العربى قبل بداية الحروب الصليبية بأمد طويل . فإذا انتقلنا إلى الأندلس ، فإننا نلاحظ أيضاً أن الضعف أخذ يسرى جثيثاً في جسم خلافة قرطبة منذ أوائل القرن الحادى عشر ، مما شجع القوى المسيحية في شمال أسبانيا على أن تعمل لطرد المسلمين من الأندلس .

فجنود الضعف امتدت في الوطن العربى إلى ما قبل الحروب الصليبية ، وليس حقيقة أن تلك الحروب وحدها هى المسئولة مسئولية تامة عن حالة الذبول التى تعرضت لها البلدان العربية في أواخر العصور الوسطى . وربما كان أقرب إلى الحقيقة أن نعترف بأن عوامل الضعف ومظاهره كانت موجودة فعلاً قبل بداية الحروب الصليبية ، ثم جاءت هذه الحروب لتستنفد ما بقى للوطن العربى من طاقة وجهد ، مما جعل معظم البلدان العربية — وبخاصة في الشرق الأدنى — تسقط فريسة سهلة أمام العثمانيين وحكمهم الرجعى المظلم .

أما عن أن الحروب الصليبية انتهت بنهضة الغرب الأوروبى نهضة كبرى ، شاملة ، فهذه حقيقة ثابتة يؤكدها التاريخ . وإذا كانت بدور النهضة الأوربية

الحديثة قد بدأت قبل بداية الحركة الصليبية بقليل . فإن الحقيقة التي لاشبهة فيها ولا جدال حولها ، هي أن تلك البذور نمت نتيجة للاتصال بالحضارة العربية الإسلامية . فهذه الحضارة التي كانت باعتراف جميع الباحثين أعظم حضارة شهدتها العالم في الشرق والغرب طوال العصور الوسطى ، هي التي غذت بذور النهضة الأوروبية وأمدتها بما كانت تفتقر إليه تماماً من علوم ودراسات وفنون ومناهج بحث .

ومن المعروف أن هناك معابر أساسية انتقلت عنها حضارة العرب إلى الغرب الأوربي ، ولكن الثابت أن حركة ترجمة العلوم والمعارف العربية إلى اللاتينية نشطت بالذات على عصر الحروب الصليبية ، وأن المركز الأول لتلك الحركة كان أسبانياً حيث أخذ المسيحيون يحاربون المسلمين في قوة وعنف . وكما استولى المسيحيون على بلد إسلامي وجدوا أنفسهم أمام ثروة ضخمة من آلاف المخطوطات العربية في العلوم والفنون والآداب وغيرها من الدراسات . وهذا هو التفسير الصحيح لحقيقة النهضة الأوروبية الغربية التي صحبت الحركة الصليبية والتي ازدادت نمواً في أعقاب تلك الحركة مباشرة . هذا كله بالإضافة إلى أن الحروب الصليبية ألهمت الغرب الأوربي نظرة جديدة واسعة إلى الحياة ، وكان هذا الاتساع في الأفق والخروج بغرب أوربا من نطاق العزلة الواضحة التي عاش فيها المجتمع الأوربي في العصور المظلمة ، هو أهم ما أفادته أوربا من الحركة الصليبية ، فضلاً عن نمو روح الكشف والمغامرة عند الأوربيين .

## (٢)

وسواء كان التاريخ يعيد نفسه أو لا يعيد ، فمن الواضح أن الأوضاع التي تحيط بالعالم العربي في الشرق الأدنى اليوم تجعلنا نشعر بأننا في وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الذي عاش فيه أجدادنا العرب منذ ثمانية قرون ونصف ، الأمر الذي يتطلب منا دراسة الحركة الصليبية دراسة علمية دقيقة .

فإذا كنا نقف اليوم وجهاً لوجه أمام خطر إسرائيل التي أقامها الاستعمار في أرض فلسطين والتي يحرص الغرب دائماً على مساندتها وإمدادها بالمال والسلاح والرجال ليمكنها من المضي في غيها وعدوانها ؛ فإن أجدادنا في نهاية القرن الحادى عشر وجدوا أنفسهم أمام دولة غريبة قامت في البقعة نفسها من أرض الشام ، وحرص الغرب أيضاً على تزويدها بالرجال والسلاح والمساعدات ليضمن لها البقاء والاستمرار .

وإذا كانت إسرائيل تستهدف الآن — تحت ستار إقامة وطن قومي لليهود — السيطرة على جميع البلدان العربية في منطقة الشرق الأدنى ، مما يضمن إقامة دولة للصهيانية تمتد من النيل إلى الفرات ؛ فإن الصليبيين في العصور الوسطى لم يكادوا يثبتون أقدامهم في فلسطين حتى شرعوا يتوسعون شرقاً في إقليم الجزيرة والفرات وجنوباً في اتجاه مصر والنيل ، بل لقد ركبوا البحر الأحمر ووصلوا إلى شواطئ الحجاز لهدم الكعبة في مكة ومقام الرسول في المدينة .

وإذا كان التاريخ لا يبرأ حكام الدول العربية وساستها الذين استكانوا للاستعمار الغربى وإسرائيل ، وتآمروا على فلسطين وأبنائها حتى تمكنت إسرائيل من الوقوف على قدميها ، فإن التاريخ أيضاً لا يغفر لحكام المسلمين في مصر والشام والعراق « عدم اكثرأهم بالفرنج » عند وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام ، حتى أن

المؤرخ أبا الحاسن يتساءل عن السبب في عدم خروج بعضهم لدفع الصليبيين «مع قدرتهم في المال والرجال !» .

وإذا كانت البلدان العربية قد ابتليت اليوم ببعض الحكام الرجعيين الذين دفعهم الحرص على مصالحهم الخاصة إلى الاعتراف بإسرائيل عن طريق غير مباشر ، ومهادنتها علناً أو مخالفتها سرا ضد القضية العربية الكبرى ، وطلب معونتها — ومن ورائها الاستعمار الغربي — لضرب الحركات التحررية في الوطن العربي ؛ فإننا نسمع في عصر الحروب الصليبية عن معين الدين أنر حاكم دمشق الذي دفعته شهوة الحكم والخوف من تيار الوحدة الذي أوشك أن يعصف بملكه إلى مخالفة الصليبيين في بيت المقدس وطلب معونتهم ضد المنادين بوحدة الصف لمواجهة الخطر الصليبي ؛ بل لقد بلغ الأمر بمعين الدين أنر — وهو الحاكم المسلم — أن زار الصليبيين في مدنها وحصونهم ليبارك جرائمهم ضد أبناء وطنه ودينه . وما يقال عن معين الدين أنر في دمشق يقال أيضاً عن ضرغام وشاور — وهما من وزراء الخلافة الفاطمية المتداعية في مصر — وعن الصالح إسماعيل الأيوبي صاحب دمشق ، وكلهم حالفوا الصليبيين وطلبوا معونتهم ضد القضية العربية . وإذا كان أشد ماتخشا إسرائيل — ومن ورائها الدول الغربية الاستعمارية اليوم — هو قيام وحدة عربية تجمع بين صفوف العرب وتضيف إلى وحدة الهدف وحدة الصف ؛ فإن الصليبيين في العصور الوسطى استماتوا في منع تحقيق وحدة الصف العربي ، وقاوموا حركة الوحدة العربية ، أولاً بين مدن بلاد الشام الإسلامية والعراق ، حتى إذا ما فشلوا في ذلك ورأوا أن نور الدين محمود نجح في ضم دمشق وتوحيد صف المسلمين في بلاد الشام ، استدار الصليبيون نحو مصر وحاولوا بمختلف الطرق منع الوحدة بين مصر والشام والعراق ، لأنه إذا تمت هذه الوحدة «فإن يبق لهم (الصليبيين) في بلادهم مقام» على قول أحد المؤرخين المعاصرين .

وإذا كان الاستعمار الغربي قد حرص بعد الحرب العالمية الأولى على أن يجعل إقليم الأردن تحت سيطرته ليستغل تلك المنطقة الشرقية من فلسطين في الفصل بين العراق والجزيرة العربية والشام ومصر ، وبذلك يحول دون قيام أية وحدة عربية في المنطقة ، ويجعل الوطن العربي في الشرق الأدنى دائماً أبداً ممزق الأوصال ، مما يفتح للاستعمار وصنيعته إسرائيل أن يلعبوا وفقاً لمصائر الأمة العربية ؛ فإن الصليبيين ما كادوا يقيمون دولتهم في فلسطين حتى قاموا بالمحاولة نفسها فسعى ملكهم بلدوين إلى السيطرة على الأردن ووادي عربة ، وشيد حصن الشوبك جنوبي البحر الميت ، ومن ذلك المركز سعى الصليبيون دائماً إلى قطع الاتصال بين مصر والجزيرة العربية والعراق والشام .

وهكذا يبدو أن التجارب التي تمر بها الأمة العربية اليوم ليست جديدة عليها ، فقد سبق أن تعرضت هذه الأمة للأساليب نفسها من الخيانات والألاعيب والدسائس والمؤامرات في عصر الحروب الصليبية . وبقي علينا اليوم أن نستفيد من هذه التجارب ، مما يتطلب مناداة الحركة الصليبية دراسة علمية أمينة ، لتتعظ من دروس الماضي وتأخذ منها عبرة ، تعيننا في التغلب على أفدح خطر يواجه الأمة العربية اليوم ، وهو خطر إسرائيل وأعوانها من القوى الاستعمارية والرجعية .

### ( ٣ )

والواقع إن الوطن العربي شهد في عصر الحروب الصليبية مؤامرات عدة : مؤامرات من الغرب الأوربي لسلب العرب حريتهم وأرضهم . ومؤامرات من الصليبيين بالشام ضد وحدة الصف العربي . ثم مؤامرات من بعض حكام المسلمين



أنفسهم ضد إخوانهم في الوطن والدين . ولكن هل نجحت هذه المؤامرات ؟  
وإلى أى حد كان نجاحها أو فشلها ؟

إن نتيجة أى عمل هى التى تحدد مقدار ما أصابه هذا العمل من نجاح أو فشل .  
وهنا نجد الحروب الصليبية انتهت — بعد عدة قرون من الجهود الجبارة التى بذلها  
الدخلاء وصنائعهم — بالفشل ، وبطرد الصليبيين طرداً تاماً من الشام ، وتطهير  
الأرض الطيبة من أطماع الطامعين ، وعودة البلاد إلى أيدي أصحابها من العرب  
ومهما تعددت الأسباب التى أدت إلى هذه النتيجة ، فإننا يجب أن نذكر فى  
مقدمتها وعى الشعب العربى ، وهو ذلك الوعى الذى برز قويا وبوضوح فى كتابات  
المؤرخين المعاصرين ، أمثال ابن الأثير وأبى شامة وابن شداد وابن واصل ، ثم  
أبى الحسن والمقرئى وغيرهم . وإن من يدرس تاريخ الحركة الصليبية يستوقف  
نظره أحيانا نجاح الصليبيين فى تفرقة الصف العربى عن طريق تخويف بعض  
الحكام العرب من إخوانهم ؛ ولكن ذلك كله لم يجد أمام إيمان العرب بوحدة  
الهدف ، تلك الوحدة التى غذاها شعور الإيمان بالله ثم الإيمان بالحق المنتصب .

وهكذا لم يرِض أى جزء من الشعب العربى أن يحكمه حاكم خائن يخالف  
الصليبيين ويتآمر على حياة العرب وأرض العرب . نعم ؛ لم يرِض أهل دمشق  
عن حاكمهم معين الدين أنز الذى آثر أن يضرب عرض الحائط ببناء الضمير ،  
فرفض دعوة الوحدة وحالف الصليبيين فى سبيل الاحتفاظ بملكه . وكان أن نار  
الأبرار من أهل دمشق على ذلك الوضع المشين ، واتصلوا سرّاً بنور الدين محمود  
وأقروه على أن يتسلم بلادهم تحقيقاً للوحدة الشاملة وتمهيدا للقيام بحركة الجهاد  
الكبرى ضد الصليبيين .

وعندما حاول الصالح إسماعيل صاحب دمشق أن يتآمر مع الصليبيين لغزو مصر (١٢٤٠ - ١٢٤٤)، وجمع جيشاً من أهل الشام سار به جنبا إلى جنب مع الجيش الصليبي لغزو أرض النيل، حدثت المفاجأة التي تتكرر اليوم عندما تابعاً بعض القوى الرجعية في الوطن العربي إلى ضرب الحركات التحررية. ذلك أن الجيش الشامي لم يكده يصل قرب غزة ويرى أمامه الجيش المصري، حتى انفض أهل الشام عن حاكمتهم الخائن ورفضوا أن يشتركوا مع العدو الدخيل ضد إخوانهم في العروبة « فسأقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائفة، ومالوا جميعاً على الفرنج فهزمهم !! »<sup>(١)</sup>.

وبفضل هذا الإيمان بوحدة الهدف والتمسك بوحدة الصف، أمكن للشعب العربي أن ينتصر في معركة الحروب الصليبية في العصور الوسطى. وعندما ينضج هذا الوعي أيضاً سيأتي عن قريب اليوم الذي يتمكن الشعب العربي المتحرر من أن ينتصر في معركته ضد إسرائيل والاستعمار والرجعية.

وسواء يبدأ تيار الوحدة من الفرات إلى النيل — كما حدث في القرن الثاني عشر — أو يبدأ من النيل إلى الفرات — كما يحدث اليوم — فالهم هو أن يكون هذا التيار نابعا من جوف الوطن العربي وليس دخيلا عليه أو مفروضا على أبنائه في صورة أحلاف ينظمها الدخلاء والعملاء لخدمة أغراضهم وتنفيذ مشاريعهم الخبيثة. وقد أثبت التاريخ دائماً أن هذه الوحدة المنبثقة من صميم الواقع العربي، المعبرة عن أمانى الأمة العربية في تحقيق سلامتها والحفاظة على

---

(١) انظر: المقرئى، السلوك ج ١ ص ٣٠٥، أبو الحسن: النجوم ج ٦ ص ٣٢٣

كياتها وطرده الدخلاء الغاصبين من محيطها ، لابد وأن تنتصر في تحقيق أهدافها رغم ما يصادفها من عقبات يحرص الدخلاء وأذنابهم على وضعها في طريق المؤمنين الأحرار .

والواقع إن أهم ما يسترعى انتباهنا عند دراسة تاريخ الحقبة الصليبية هو ذلك التوافق الشديد بين أجزاء الوطن العربي ، وتلك الاستجابة السريعة التي أحس بها كل عضو من أعضاء ذلك الجسد الكبير نحو بقية الأعضاء : فلا يكاد الصليبيون يغزون الشام حتى تخرج الجيوش من العراق لمنازلة الغزاة المعتسدين ، ولا يكاد الصليبيون يتحركون ضد مصر حتى تسرع جيوش الشام للذود عنها ، ولا يكاد الناصر صلاح الدين يثبت قدميه في مصر حتى يستخر جميع مواردها البشرية وطاقتها المادية لطرده الصليبيين من الشام ؛ ولا يكاد أرنأط حاكم الكرك الصليبي يخرج في البحر الأحمر لتهديد الحجاز حتى تشيد السفن في مصر وتحمّل على ظهور الجبال إلى البحر الأحمر لدفع الخطر عن الحرمين ؛ ولا تكاد الأخبار تصل إلى القاهرة بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد نزل سنة ١٢٧٠ على رأس جيوشه في تونس حتى تتخذ الإجراءات السريعة لدفع عادية البغاه والاحتفاظ للمغرب بعرويته وحرية .

وهكذا ظل التجاوب سريعا وتاما بين جميع أجزاء الوطن العربي مشرقه ومغربيه ، الكل شعب واحد يحس بإحساس واحد ، بحيث لا يشكو عضو إلا استجاب له بنية الأعضاء في سرعة وإيمان . وهذا هو السر في انتصار العرب في المعركة الصليبية ، ونجاحهم في طرد الدخلاء من أراضيهم .

( ٤ )

وفى هذا الكتاب حاولت أن أقوم بدراسة علمية أمينة للحركة الصليبية  
بمختلف أدوارها ومراحلها ، معتمدا على ما أمكننى الوصول إليه من وثائق  
ومخطوطات ومراجع معاصرة — عربية وغير عربية — فضلا عن المؤلفات  
الأوربية الحديثة .

والواقع إنه لمن المؤسف حقاً أن تظل المكتبة العربية حتى اليوم خلوّة من  
مؤلف واحد شامل يتناول تاريخ الحركة الصليبية ، مع ما لهذه الحركة من أثر  
بالغ وأهمية عظيمة فى تاريخ الشعب العربى وعلاقته بغرب أوروبا فى العصور  
الوسطى . وفى الوقت الذى تطالعنا قوائم دور النشر فى أوروبا وأمريكا كل عام  
بكتب جديدة عديدة تحمل اسما واحدا هو « الحروب الصليبية » ؛ إذا بالمكتبة  
العربية لا يوجد فيها حتى اليوم مؤلف حديث واحد يعالج تاريخ الحركة الصليبية  
بأكملها — من بدايتها حتى نهايتها — علاجا أميناً يعبر عن وجهة النظر العربية .

وكل ما هنالك هو بعض الكتب المترجمة إلى العربية عن اللغات الأوربية ،  
والتي تقف عند حد سرد آراء مؤلفيها من الأوربيين ووجهات نظرهم ؛ فضلا  
عما فى بعضها من أخطاء وتحريفات لعدم الدقة فى ترجمة أسماء المواضع والأعلام  
ووضعها فى صيغتها العربية السليمة .

وإننى إذ أقدم لقراء العربية هذا الكتاب ليسد فراغا ملموساً فى المكتبة  
العربية ، أرجو أن يقبلوا عذرى فى تأخر صدوره . ذلك أننى وعدت قرائى بإصدار  
هذا الكتاب فى أقرب فرصة منذ خمس سنوات . ويشهد الله على أننى لم أتخل  
عن وعدى طوال هذه السنوات الخمس ، وإنما هى طبيعة الموضوع وكثرة أبحاثه

وصعوبة تقسيمه وتبويبه ، وتشعب وثاقفه وأصوله ، هي التي استأثرت بكل جهدي ووقتي طوال هذه السنوات .

ولا أدعى أنني وفيت هذا الموضوع حقه من البحث ، وإنما هي محاولة أولى لدراسة تاريخ عصر من أهم عصور التاريخ العربي ، وأرجو أن تتبعها محاولات أخرى حتى يستوفي هذا الموضوع الهام حقه من الدراسة على أيدي المؤرخين العرب مثلاً استوفى حقه من البحث على أيدي المؤرخين الأوروبيين .

وقد دفعته رغبتي في تسهيل مهمة من يتابع دراسة موضوع الحروب الصليبية إلى تذييل هذا الكتاب بقائمة كاملة للمراجع التي اعتمدت عليها في البحث ، فضلاً عن تدعيم الكتاب بعدد لا بأس به من الخرائط والملاحق والجداول المفيدة . وبؤسفى أنني لاحظت في بعض الكتب العربية الحديثة التي تعرضت لنواح من تاريخ الحروب الصليبية أن مؤلفيها أخطأوا في كتابة أسماء بعض المدن والأعلام الجغرافية لأنهم نقلوها نقلاً حرفياً من المراجع الأوروبية دون أن يحاولوا البحث عن أصولها العربية . لذلك أوردت في نهاية الكتاب كشافاً مرتباً ترتيباً أبجدياً بأسماء المدن والمواقع الجغرافية ، كما وردت في الحوليات غير العربية والمراجع الأوروبية ، وحققت اسم كل منها كما ورد في المراجع العربية المعاصرة تحقيقاً دقيقاً يستطيع أن يعتمد عليه من يبحث في موضوع الحروب الصليبية .

وكل ما أرجوه هو أن أكون قد وفقت فيما قصدته من خدمة الأمة العربية وتاريخها بإبراز صفحة من أروع صفحات البطولة التي يعتز بها كل عربي .

والله ولي التوفيق .

سعيد عبد الفتاح عاشور



## الباب الأول

### فلسفة الحركة الصليبية

« لكل نأ مستقر وسوف تلامون »  
( الأنعام ، ٦٧ )





## الفصل الاول

### ماهية الحركة الصليبية

أحوال الغرب الأوربي عند بداية الحركة الصليبية :

اعتاد المؤرخون أن يبدءوا الكلام عن الحروب الصليبية بالإشارة إلى أحوال الشرق الأدنى في القرنين العاشر والحادي عشر ، فيتعرضون للدولة العباسية أيام ضعفها حتى كان ظهور السلاجقة ، ثم ينتقلون إلى الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين في آسيا الصغرى ، وكيف أدت استغاثة البيزنطيين بالغرب الأوربي وبالبابوية عقب موقعة مانزكرت إلى إثارة الحروب الصليبية .

ومع اعترافنا بوجاهة اتخاذ أحوال الشرق الأدنى مدخلا للحروب الصليبية ، إلا أننا نرى أن المدخل الطبيعي للموضوع يأتي من ناحية الغرب ، لا الشرق . حقيقة إن الاستغاثات ضد المسلمين أتت من الشرق ، ولكن البواعث التي دفعت الغرب الأوربي إلى تلبية تلك الاستغاثات ، والإسراع بالاستجابة لها والرد عليها رداً عملياً ، هذه البواعث كلها غربية ولا يمكن فهمها إلا بالوقوف على أوضاع الغرب الأوربي وقت قيام الحروب الصليبية . ولا أقل من إلقاء نظرة سريعة على غرب أوروبا في العصور الوسطى لنستطيع فهم البواعث التي حركت الحركة الصليبية .

أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية في غرب أوروبا على أيدى الجرمان سنة ٤٧٦ فترة قائمة امتدت حتى القرن الحادي عشر ، وأطلق بعض المؤرخين ( م ٣ - الحروب الصليبية )

على تلك الفترة في التاريخ الأوربي اسم « العصور المظلمة » . ولم تقتصر مظاهر التأخر والانحلال التي أصابت المجتمع الأوربي في تلك الفترة على الانحلال السياسي ، وإنما امتد التدهور إلى الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية . وإذا كانت غرب أوروبا قد شهدت صحوة ملحوظة على أيام شارلمان في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع ، فإن هذه الصحوة جاءت قصيرة العمر . ولم تلبث جموع الفايكنج أن أخذت تنزح من الشمال لتغير على مواطن الحضارة وتدمرها في غرب أوروبا ، في الوقت الذي أوغل الهنغاريون في وسط القارة حتى شرق ألمانيا ، يخربون ويفسدون . وفي وسط تلك الأزمات تحايل الغرب الأوربي بالنظام الإقطاعي للحصول على قدر من الأمان والحماية ، فأنحلت السلطات المركزية منذ القرن التاسع ، واضطر الأباطرة والملوك إلى التنازل عن كثير من حقوقهم وسلطاتهم لأمراء الإقطاع . ولكن إذا كان كبار الأمراء الإقطاعيين قد نجحوا في حماية رعايائهم من الهجمات الخارجية ، فإن أولئك الرعايا دفعوا الثمن غالياً في ظل نظام اعتمد في نلاحة الأرض على الإقنان وعبيد الأرض وقام على أساس تحكم القوى في الضعيف .

ولم يكن في استطاعة البابوية والكنيسة الغربية أن تسهم بأي جهد لتعديل تلك الأوضاع ، لأن الكنيسة نفسها — التي ظلت منذ سقوط الامبراطورية الغربية في أواخر القرن الخامس تمثل أكبر قوة في المجتمع الغربي — تعرضت هي الأخرى لموجة جارفة من الانحلال والذبول في القرنين التاسع والعاشر ، فجرف التيار الإقطاعي رجال الدين وتصدع سلطان البابوية ، وانحط المستوى الخلقى لرجال الكنيسة<sup>(١)</sup> .

على أن تلك الغمة لم تلبث أن أخذت تنكشف في القرن الحادى عشر .

ويميل بعض الباحثين إلى إعطاء سنة ١٠٠٠ للميلاد أهمية خاصة في تاريخ أوروبا، على أساس أن هذه السنة تمثل نقطة تحول كبرى في تاريخ الغرب الأوربي<sup>(١)</sup>. ومع أننا لا نؤيد مبدأ اختيار سنة بعينها لتحديد بداية حركة حضارية في التاريخ، إلا أنه لا يمكننا أن نتجاهل الصحوّة الكبرى التي تعرض لها غرب أوروبا منذ القرن الحادى عشر، وهى الصحوّة التي بلغت ذروتها في القرن الثانى عشر واستمرت بعد ذلك حتى نبت منها النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر<sup>(٢)</sup>. ويطلق المؤرخون على هذه الصحوّة التي تعرض لها المجتمع الغربى منذ القرن الحادى عشر اسم « نهضة القرن الثانى عشر ». وليس هذا مجال الخوض في تفاصيل هذه النهضة، وإنما تكفى الإشارة إلى أنها مست جميع أركان الحياة في غرب أوروبا. ففي المجال السياسى بدأت أوروبا تشعر بنوع من الاستقرار بعد أن انتهت إغارات الفيكينج، فأخذ ملوك الغرب يسعون سعياً حثيثاً لتدعيم سلطانهم في بلادهم. وفي المجال الثقافى أخذ الأوربيون يعملون في نههم لتحصيل أكبر قدر من العلوم والمعارف التي استقوها وترجموها عن الكتب العربية، وبالتالي تمتد بدأ التطور الذى نبتت منه الجامعات لأول مرة في غرب أوروبا. وفي المجال الاقتصادى ظهر نشاط المدن وبخاصة في شمال إيطاليا، وصحب هذا النشاط هجرة كثير من أقنان الأرض إلى المدن للعمل فيها مما أدى إلى تطور اجتماعى خطير<sup>(٣)</sup>.

ثم إن هذه الصحوّة الكبرى التي تعرض لها المجتمع الأوربى منذ القرن الحادى عشر كان لها أيضاً مظهرها الواضح في مجال الدين. ذلك أن

---

(1) Archer : The Crusades, p. 14.

(٢) سعيد عاشور : النهضة الأوربية ص ١١١ — ١١٢

(٣) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٩٢ وما بعدها.

الكنيسة تعرضت عندئذ لحركة إصلاح شاملة تعرف باسم الحركة الكلوونية . وقد بدأت هذه الحركة بقصد إصلاح الحياة الديرية في القرن العاشر ، ولكن لم يلبث أن اتسع نطاقها في القرن الحادى عشر حتى أصبح هدفها الرئيسى إصلاح الكنيسة بوجه عام وعلاج الأمراض الخطيرة التى شكت منها الكنيسة عندئذ ، وأهمها السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى<sup>(١)</sup> . وإذا كانت الكنيسة قد أفلحت فى علاج السيمونية وزواج رجال الدين داخليا عن طريق عدة مجامع عقدت فى القرن الحادى عشر ، فإن السعى لحل مشكلة التقليد العلمانى أوقع الكنيسة فى صراع عنيف مع السلطة العلمانية ، وهو الصراع الذى نطاق عليه النزاع بين البابوية والإمبراطورية فى العصور الوسطى<sup>(٢)</sup> . وقد بدأت أولى حلقات هذا النزاع سنة ١٠٧٦ — أى قبل الحملة الصليبية الأولى بنحو عشرين عاماً — واستمر بعد ذلك سنوات طويلة ؛ وفيه جشدت كل من البابوية والإمبراطورية جميع قواها وإمكاناتها للتغلب على الطرف الآخر .

وخلاصة القول أن النهضة التى بدأت مظاهرها فى غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر أمدت الغربيين بطاقة هائلة وأمدت الكنيسة بقوة جبارة كان لابد من استنفادها . ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن النزاع بين البابوية والإمبراطورية إنما جاء وسيلة لاستنفاد الطاقة التى تزود بها المجتمع الغربى منذ القرن الحادى عشر . على أنه كان من المتعذر أن تستنفد هذه الطاقة كلها محليا وفى صراع داخلى ، وصار لابد من البحث عن منفس خارجى لتوجيه قدر من تلك الطاقة إليه . وعندئذ ظهرت فكرة الحرب

(١) Thompson : The Middle Ages, vol. I, pp. 427-428.

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٤٥ وما بعدها .

الصليبية تهيء للغرب الأوربي ميدانا واسعا يستغل فيه نشاطه المكبوت  
وحماسته المنطلقة .

### ماهية الحركة الصليبية :

ولعل السؤال الذى يواجهنا بعد ذلك هو : ما المقصود بالحركة الصليبية ؟  
الواقع إن الإجابة على هذا السؤال تعددت بتعدد النوافذ التى أطل منها المؤرخون  
على الموضوع ، فهناك من المؤرخين من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حلقة  
من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وهو الصراع التتليدى القديم الذى  
ظهر بوضوح فى النزاع بين الفرس واليونانيين ثم بين الفرس والروم . ومن الواضح  
أن هذا الصراع القديم بين الشرق والغرب لا يمكن ربطه بأى عامل دىنى ،  
حيث أنه دار فى عصور كان الشرق والغرب جميعاً وثنيين ؛ وربما بدا من  
الأرجح ربطه بالعامل الحضارى بوصفه صراعا بين حضارتين مختلفتين وعتلتين  
متباينتين وأسلوبين فى الحياة متباعدين . ويرى أنصار هذا الرأى أن الصراع  
بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حيناً ويثور أحياناً ، حتى كانت نهاية القرن  
الحادى عشر فاشتد غليانه وثورانه ، وعندئذ وجد منفساً فى الحرب الصليبية .  
وزاد من حدة ثوران البركان فى تلك المرة أنه وجد سبباً جديداً قويا للخلاف  
بين الشرق والغرب ، هو الخلاف الدينى بين الإسلام والمسيحية .

وهناك فريق آخر من المؤرخين رأى أن الحركة الصليبية وما ارتبط بهامان  
محاولات كبرى ومشاريع عديدة لغزو الوطن العربى — وبخاصة فى الشرق  
الأدنى — ليست فى حتمية أمرها إلا الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهجرات الكبرى التى  
صحبت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية<sup>(١)</sup> . ذلك أن سقوط تلك الإمبراطورية

(1) Rig : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 15.

سنة ٤٧٦ أعقبت موجات من الهجرات التي قام بها المواطنون في بلاد الإمبراطورية الغربية . وقد تفاوتت هذه الهجرات في مداها الزماني وفي اتجاهاتها وأثرها ، ولكنها كلها أتت نتيجة الشعور بالفرع والقلق الذي نجم عن سقوط الإمبراطورية ، ودخول عناصر جديدة من الجرمان داخل أراضيها . وكان الناس في غرب أوروبا في العصور الوسطى يتصورون الإمبراطورية في صورة دعامة كبرى لا بد للعالم منها ولا حياة لهم بدونها ، لأنها تعنى الاستقرار والنظام والأمن والحضارة . وفي ضوء هذه العقيدة يمكننا أن نفسر شعور الفرع والرب والقلق الذي انتاب الناس عندما سقطت الإمبراطورية في الغرب ، إذا رأوا في ذلك نذيراً بنهاية العالم وفنائه ، وظنوا أن الساعة لا بد وأن اقتربت . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يلاحظ أن سقوط الإمبراطورية الغربية جاء مصحوباً بتدفق جموع الجرمان وقبالهم داخل أراضي الإمبراطورية ، الأمر الذي ترتب عليه زعزعة أركان المجتمع الروماني القديم وقيام مجتمع جديد هو خليط من الرومان والجرمان . ولم يلبث الجرمان أن إعتنقوا المسيحية ، فأمدوا العالم الروماني بروح جديدة وحيوية دافقة ظهر أثرها في كثير من الهجرات التي اتجهت إلى شمال أفريقية ، و إنجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا . وينادى بعض الباحثين بأن الحركة الصليبية في حد ذاتها ليست إلا الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس .

وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرى أن الحركة الصليبية ليست إلا إنطلاقة كبرى *decumanus fluctus* نتجت عن عملية الإحياء الديني التي بدأت في غرب أوروبا في القرن العاشر والتي بلغت أشدها في القرن الحادي عشر ، كما سبق أن أشرنا . ذلك أن حركة الإصلاح الكلوونية كانت في حقيقة أمرها حركة إحياء ديني بكل معاني الكلمة ، ترتب عليها عودة البابوية إلى سطوتها القديمة السابقة ، وتحقيق نوع من الإشراف المركزي الدقيق على كافة الكنائس الغربية ، وتقوية

الجهاز الكفسي وتدعيمه ، وربط أطرافه بالمركز الرئيسي في روما ، ثم إثارة نوع من الحماسة الدينية بوجه عام في الغرب الأوربي . ومهما يكن من أسباب الحرب بين البابوية والإمبراطورية ، وعنفت تلك الحرب ، فإن الاتجاه المتزن نادى دائماً بالألا يحارب الأخ أخاه . ولذلك ظهر شعور قوى في القرن الحادى عشر بالرغبة في العثور على منفس خارجى تستهلك فيه تلك الطاقة الهائلة التى نجمت عن حركة الإحياء الدينى فى غرب أوروبا فى القرنين العاشر والحادى عشر . وإذا كان الغرييون قد عرفوا الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالشام منذ القرنين الرابع والخامس ، إلا أن مشاريع الحج ظلت فردية ، وإذا خرجت جماعة من غرب أوروبا للحج فإن عدد أفرادها كان لا يتجاوز غالباً أصابع اليد الواحدة<sup>(١)</sup> . أما القرن الحادى عشر فقد عرف لأول مرة ظاهرة الحج بالجملة « en masse » ، فكان يخرج للحج بضعة مئات تحت زعامة أسقف أو نبيل ، ويتجهون سوياً من غرب أوروبا فى صورة مظاهرة دينية سلمية قاصدين الأراضى المقدسة بالشام<sup>(٢)</sup> . ومن أبرز هذه الجماعات الكبرى ، تلك التى خرجت من نور منديا سنة ١٠٦٤ بزعامة رئيس أساقفة مينز ، ثم تلك التى خرجت بزعامة روبرت الأول أمير فلاندرز سنة ١٠٨٩<sup>(٣)</sup> .

ويرى هذا الفريق من المؤرخين أن الحروب الصليبية التى بدأت الدعوة لها سنة ١٠٩٥ ليست إلا استمراراً لحركة الحج الجماعى إلى بيت المقدس ، مع حدوث تطور فى الأسلوب ، وهو أن الحج الجماعى صار حربياً بعد أن كان سلمياً . ويدلل أصحاب هذه النظرية على رأيهم بأنه إذا كان عدد الحجاج الذين خرجوا سنة ١٠٦٤ مع رئيس أساقفة مينز قد بلغوا سبعة آلاف حملوا معهم بعض الأسلحة

(1) logra : Hist. des Croisades, pp. 3 - 11.

(2) setton : A Hist. of the Crusades, vol 1. p. 76.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 269,

للدفاع عن أرواحهم في الطريق ، فهل هناك فارق بين ذلك الموكب وأية حملة صليبية تالية سوى في الأسلوب الذي اتبعه كل فريق في بلاد الشام ؟ أما ذلك التطور في الأسلوب، فمرجه تلك الأخبار التي أخذت تصل إلى الغرب الأوربي عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين بعد استيلاء السلاجقة على بيت المقدس سنة ١٠٧١م استيلاهم على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وطرده البيزنطيين منها ، مما جعل الغرب يؤمن بأنه لا بد من استخدام القوة لتأمين عملية الحج إلى الشام <sup>(١)</sup> .

وأخيراً فإن هناك رأى رابع أخذ به بعض الباحثين ، ورأى في الحروب الصليبية الوسيلة التي تمحىل بها الغرب الأوربي للخروج من أوضاع العصور الوسطى والانطلاق إلى حياة أوسع أفقاً . ذلك أن الغربيين ظلوا طوال العصور الوسطى يعيشون داخل دائرة معينة حددت أفعها الكنيسة تحديداً ضيقاً . وكان كل من يحاول الخروج عن هذه الدائرة يتعرض لغضب الكنيسة وطرده من رحمتها ، وبئس المصير . على أن الاتصالات التي تمت بين الغرب الأوربي والمسلمين — سواء المسلمين في الأندلس أو في المشرق — أظهرت للأوربيين أن الحياة أوسع أفقاً مما يظنون ، فأخذت نسبة كبيرة من الناس في غرب أوربا تشعر بضيق الحياة وشدة وطأة الكنيسة ورجالها . وهكذا جاءت بشائر النهضة الأوربية الوسيطة في القرن الحادى عشر مصحوبة برغبة الناس في التخلص من القيود المفروضة عليهم وتطلعهم إلى حياة أفضل . وكان من المتعذر في الظروف التي أحاطت بالناس في غرب أوربا في ذلك الوقت تحقيق أمنيتهم إلا بالمشاركة في حركة ضخمة — مثل الحركة الصليبية — تدعو لها البابوية وتؤيدها الكنيسة ، وفي الوقت نفسه تمكّنهم من الخروج إلى أرض الله الواسعة للوصول إلى حياة دينوية أفضل . وبعبارة أخرى

---

(1) Setton : op. cit., vol. I, p. 78.



فقد كانت الحروب الصليبية خير فرصة أتيحت للغربيين للجمع بين الخلاص في الدنيا والثواب في الآخرة .

هذه هي أهم النوافذ التي أطل منها الباحثون على الحروب الصليبية . ونستطيع نحن في ضوء الآراء السائدة وغيرها أن نعرف الحركة الصليبية بأنها :

« حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربي للمسيحي في العصور الوسطى ، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها . وقد انبثقت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والإقتصادية والدينية التي سادت غرب أوربا في القرن الحادي عشر ، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق » .

### أدوار الحركة الصليبية ومراحلها الزمنية :

جرى الوضع في كتب التاريخ على تحديد المدى الزمني للحركة الصليبية بين سنتي ١٠٩٥ ، ١٢٩١ . ولكن هذا التحديد في الواقع لا يعنى سوى الدور الحاسم التتليدي في تلك الحركة ، وهو الدور الواقع بين الدعوة للحملة الصليبية الأولى وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام . وسنرى أن الحركة الصليبية بمعناها الواسع لها جذور ومقدمات سبقت سنة ١٠٩٥ زمنياً ، كما أن التيار الصليبي استمر بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ ، الأمر الذي ترتب عليه عدم توقف الحرب الصليبية طوال القرن الرابع عشر وشطر كبير من القرن الخامس عشر . ومن هذا يبدو أن تحديد المدى الزمني للحركة الصليبية بين سنتي ١٠٩٥ ، ١٢٩١ إنما هو تحديد خاطيء لا يقوم على أساس سليم ولا يعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة ، وإنما يكتفى بعلاج مبتور يشمل جزءاً من تلك الحركة ، لا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية ولا عن ذيلها وبقاياها من ناحية أخرى .

ومن ناحية أخرى يلاحظ عدم صحة ما جرى العرف عليه من تحديد عدد الحملات الصليبية التي خرجت من الغرب إلى الشرق في المدة الواقعة بين نهاية القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر بثمان حملات . والواقع أنه غير معروف بالضبط لماذا فازت بعض الحملات بترقيم عددى فى التاريخ دون البعض الآخر . فنجد وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٧ ، لم يرمع واحد دون مجيئ جموع صليبية جديدة ، وبعض هذه الجموع فاقت فى كثرة أعدادها وفى أهمية مآحقته من نجاح الحملات الصليبية المألوفة التى فازت بأرقام فى التاريخ ، ومع ذلك فإن معظم هذه الجموع أو الحملات لم تمنح أرقاماً تضى عليها قسطاً من الأهمية فى التاريخ .<sup>(١)</sup>

أما الحملات الثمان التى فازت بأرقام عديدة ميزتها فى التاريخ ، فقد أجهت أربع منها نحو الشام ( الأولى والثانية والثالثة والسادسة ) واثنان ضد مصر ( الخامسة والسابعة ) وواحدة ضد القسطنطينية ( الرابعة ) ، وأخرى نزلت بشمال افريقية ( الثامنة ) . ولا يعرف على وجه التحديد السبب فى تمييز هذه الحملات بإعطائها أرقاماً عديدة دون غيرها من الحملات ، وإن كان يبدو أن السرفى هذا التمييز إنما يرجع إلى مآحصلت عليه من شهرة بسبب مآحقته من نجاح فى الأراضى المقدسة ( مثل الحملة الأولى ) أو ما كان لها من اتجاه خاص جديد غير مألوف فى غيرها من الحملات الصليبية ( الرابعة والخامسة )؛ أو لخروجها تحت زعامة كبار ملوك الغرب ( الثانية والثالثة والسادسة والسابعة والثامنة ) .

---

(1) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 3.

## الفصل الثاني

### بواعث الحركة الصليبية

يتضح من تعريفنا للحركة الصليبية أن هذه الحركة دفعتها بواعث حقيقية وأسباب قوية ، انبثقت من صميم المجتمع الأوربي الغربي . حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين عندما تعرضوا لضغط السلاجقة وغزوه لأراضي الإمبراطورية استعانوا بالبابوية وطلبوا النجدة العاجلة من الغرب الأوربي ؛ ولكن لو لم يكن لدى الغرب عندئذ أسباب قوية جعلته يتحرك لمسا لبي نداء الاستغاثة ولما استجاب لدعوة الامبراطورية البيزنطية في تلك السرعة والقوة .

وسنحاول في هذا الفصل أن نلقي نظرة سريعة على البواعث التي أدت بغرب أوروبا إلى القيام بحركة من أهم الحركات في تاريخ البشرية بوجه عام ، وفي تاريخ العصور الوسطى على وجه التحديد .

#### الباعث الديني :

اعتاد مؤرخو المدرسة القديمة أن ينظروا إلى الحروب الصليبية من زاوية واحدة هي زاوية الدين ، وأن يعالجوها علاجا مبتورا في ضوء العامل الديني وحده ؛ متجاهلين ما فاضت به الحركة الصليبية من بواعث سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية . من ذلك أن ريان Riant عرف الحروب الصليبية بأنها « حروب دينية/استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام » .<sup>(1)</sup>

(1) Archives de l'Orient Latin, I, ps. 2, 22,

حقيقة إن الحركة الصليبية لها في اسمها وطريقة الدعوة لها والروح التي  
كيفت بعض أحداثها ما يجعل الصفة الدينية واضحة فيها ؛ ولكن ليس معنى  
هذا أن التيار الديني هو المسئول الوحيد عند إثارة تلك الحركة والقوة الوحيدة  
الموجهة لها . وإن المدقق في تاريخ الحروب الصليبية ليستري نظره أن الروح  
الصليبية ذاتها كثيراً ما فترت في بعض حلقاتها ، وأن الباعث الديني كثيراً  
ما ذاب وسط التيارات السياسية والاقتصادية بوجه خاص <sup>(١)</sup> .

وللوقوف على قيمة الباعث الديني في الحركة الصليبية يجدر بنا أن نتأمل  
أوضاع الحياة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى ، وما اعترى تلك الأوضاع  
من تطورات حتى أواخر القرن الحادي عشر ، وذلك حتى لا ننزل في الطريق  
نفسه الذي انزل في كثير من المؤرخين السابقين ؛ وهم الذين اعتادوا أن  
يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة في سوء أحوال المسيحيين في  
البلاد الإسلامية في العصور الوسطى وما تعرضوا له من اضطهادات وحشية ،  
وكيف أن كنائسهم خربت ، وأديرتهم أغلقت ، وطقوسهم عطلت . . . فضلاً  
عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات ، وما تعرضوا له من معاملة  
سيئة من حكام البلاد الإسلامية التي مروا بها .

ومن الواضح أن هذا المدخل للحروب الصليبية مدخل مضلل بعيد عن  
الحقيقة والتاريخ ، ليس فقط بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات معظمها  
لا أساس له من الصحة ؛ بل أيضاً لأن الدخول إلى تاريخ الحركة الصليبية  
من هذا الباب الوهمي كفيلاً بأن يصرف الباحث عن المدخل الحقيقي للموضوع .  
فالقول بأن الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون -  
الشرقيون والغربيون - في البلدان الإسلامية ، إنما هو إدعاء باطل لا يتفق وروح

الإسلام وطبيعة الدعوة إليه ، وما أحاط به القرآن أهل الكتاب من رعاية وعناية ، وما أمر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة « فإن أسلموا فقد إهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد <sup>(١)</sup> » .

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً في كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة هائلة ، تشهد عليهم الرسالة التي بعث بها يهودسيوس بطريرك القسطنطينية ، والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم إلى زميله إجناتيوس بطريرك القسطنطينية ، والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق ، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أى تدخل في شئونهم الخاصة . وذكر بطريرك القسطنطينية بالحرف الواحد في رسالته : « إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لائق منهم أى أذى أو تعنت » <sup>(٢)</sup> حقيقة إن التاريخ يشير إلى تعرض المسيحيين أحياناً في بعض البلدان الإسلامية لنوع من الضغط أو الاضطهاد ، ولكن هذه حالات فردية . شذت عن القاعدة العامة التي حرص الإسلام دائماً عليها ، وهى التسامح المطلق مع أهل الكتاب . وإذا كان بعض المؤلّنين الأوربيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية وأرادوا أن يتخذوها دليلاً على تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين في عصر الحروب الصليبية ، فإلعل هؤلاء الكتاب نسوا أو تناسوا ما صاحب إنتشار المسيحية ذاتها من اضطهادات ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى . وحسبنا ما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على إعترافهم بالمسيحية ، وما قام به شارلمان في القرن الثامن من فرض المسيحية

(١) « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم فى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ؛ وقل آمنا بما أنزل الله من كتاب . وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لا حجة بيننا وبينكم ؛ الله يجمع بيننا وإليه المصير » . (سورة الشورى ١٥١)

(2) Thompson: Economic and Social Hist. vol. 1, p. 385.

على السكسون والبالفارين والآفار بجدا السيف، حتى أنه قتل من السكسون وخدمهم في مذبحه فردن الشهيرة أكثر أربعة آلاف فرد جملة واحدة؛ وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولتهم نشر المسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين والتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطئ البحر البلطي<sup>(١)</sup>. هذا كله فضلاً عما أتاه المبشرون الجزويت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند<sup>(٢)</sup>.

ويضيف أحد كبار المؤرخين الأوربيين إن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن العاشر بالذات لا يصح أن تتخذ بأي حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سمح لهم أيضاً بتشيد كنائس وأديرة جديدة جمعوا في مكنتها كتباً دينية متنوعة في اللاهوت<sup>(٣)</sup>. ومن الواضح أن مثل هذه الروح السامية التي عومل بها المسيحيون في البلدان الإسلامية لا ينتقص من قدرها إطلاقاً ما قام به رجل عرف بشذوذه — مثل الخليفة الحاكم بأمر الله — من تصرفات تجاه أهل الذمة. ولم يكد الحاكم يموت سنة ١٠٢١ إلا وعاد المسيحيون في مصر والشام يحظون بما ألفوه دائماً من رحابة صدر الإسلام والمسلمين، كما عقد الصلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية، وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة التيامة في بيت المقدس، ثم وفد الحجاج كعادتهم يزورون الأماكن المقدسة في أمن وسلام<sup>(٤)</sup>.

(١) سعيد عاشور: أوروبا المعصور الوسطى ج ١ ص ٣٩، ١٩٤، ٦٤٣، ٦٤٩.

(٢) توماس أربولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣١.

(٣) Vasiliev: Byzantine Empire, I, p. 393.

(٤) Seton. op. cit, vol. I, p. 74.

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادى عشر قد دأبوا على الدعاية لحركتهم فى غرب أوربا عن طريق المناداة بأن أحوال المسيحيين فى آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة ، فإن هناك أكثر من مؤرخ أوروبى مسيحى منصف قرروا فى صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئاً من أوضاع المسيحيين فى الشرق ، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا فى قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها ؛ « وأن ما اعترى المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى من متاعب فى ذلك العصر ، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لأنه لا يوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم <sup>(١)</sup> » .

ولكن هل معنى كل ذلك أن الباعث الدينى ليس له أى أثر فى تحريك الحروب الصليبية ؟ وهل يفهم من كلامى السابق أن العامل الدينى يصح إهماله تماماً عند الكلام عن التسوى التى وجهت الحركة الصليبية منذ القرن الحادى عشر ؟ الواقع أننى لم أقصد ذلك مطلقاً وإنما أردت أن أضح اعتبارين طالما وقع فيهما كثيرون عند معالجة موضوع الحركة الصليبية . أما الإعتبار الأول فهو أنه ليس من الصواب إطلاقاً القول بأن هناك اضطهاد فريد فى نوعه حل بالمسيحيين فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن الحادى عشر مما يصح أن يكون سبباً لا ستنارة الغرب الأوروبى . وإذا كان بعض دعاة الحملة الصليبية الأولى - وعلى رأسهم البابا أوربان الثانى نفسه - قد استغلوا فكرة الاضطهاد هذه للاستهلاك الحلى فى الدعاية لمشروعهم فى غرب أوربا ، فإن عامة الناس فى مختلف بلدان الغرب الأوروبى لم يكن يهمهم كثيراً أمر إخوانهم المسيحيين الشرقيين فى البلدان الإسلامية . والاعتبار الثانى هو أنه لاصحة إطلاقاً للفكرة الخيالية

---

(1) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, vol. I; p. 391.

التي ظلت سائدة أمدا طويلا والتي صورت الصليبيين الذين أخذوا يفدون من غرب أوروبا إلى الشرق الأدنى منذ نهاية القرن الحادى عشر فى صورة المسيحيين المخلصين، الذين جرفهم شعور التقوى والورع إلى هجرة الوطن والأهل والأحباب فى سبيل تحقيق رسالة دينية سامية ، وأنهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من أجل غرض واحد هو خدمة الصليب والاستشهاد فى سبيله .

حقيقة إن العصور الوسطى فى الغرب الأوروبى عرفت فى التاريخ باسم «عصور الإيمان» ، وحقيقة إننا نسمع الكثير عن سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس فى غرب أوروبا فى تلك العصور ؛ وحقيقة إن التاريخ يثبت أن الكنيسة الغربية ممثلة فى شخص زعيمها البابا الذى دعت للحرب الصليبية سنة ١٠٩٥، وأن هذه الدعوة ترتب عليها ماحدث من خروج الناس أفواجا فى شكل حملات صليبية ضخمة متلاحقة إلى الشرق الأدنى . ولكن فكرة شن حرب دينية على المسلمين واستخلاص الأراضى المقدسة منهم لم تكن الباعث الأول الذى دفع البابوية إلى القيام بتلك الدعوة ، ودفع جموع الناس - من أمراء وعامة - إلى تلبية نداء البابا فى سهولة ويسر، والخروج أفواجا من غرب أوروبا قاصدين الشرق الأدنى .

أما عن البابوية فكانت قد بلغت فى القرن الحادى عشر درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ، مافتح أمامها آفاقا واسعة لتجمل سلطاتها عالمية ، بمعنى أن يكون البابا - بوصفه خليفة المسيح والتديس بطرس - الزعيم الروحي لجميع المسيحيين فى الشرق والغرب<sup>(١)</sup> . والمعروف أن البابوية ظلت دائما ترغب فى إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لزعامتها ، ولكن النزاع الذى استحكمت حلقاته بين الأباطرة البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى، جعل من



المتعذر حتى ذلك الوقت التيام بمحاولة جدية لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وإزالة ما بينهما من شقاق<sup>(١)</sup> : وأخيرا جاء استنجد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوربي ضد السلاجقة في القرن الحادى عشر لتييح فرصة ذهبية للبابا للظهور في صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحى كافة في صراعه ضد المسلمين ، ولحاولة إدماج الكنيسة الشرقية في الكنيسة الغربية تحت زعامة خليفة القديس بطرس ، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين<sup>(٢)</sup> .

هذا عن البابوية ، أما عن جمهرة الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الأدنى ، فلم يكن الهدف الدينى هو الباعث الرئيسى الذى دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة في الحركة الصليبية . وقد اعترف كثير من المؤرخين الأوربيين الذين عالجوا هذا الموضوع بأن غالبية الصليبيين الغربيين النابئين أسهموا في الحركة الصليبية تركوا بلادهم إما بدافع الفضول أو لتحقيق أطماع سياسية ، وإما للخلاص من حياة الفقر التى كانوا يحونها في بلادهم في ظل النظام الإقطاعى ، وإما للهرب من ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها ، وإما فرارا من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم ، وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في بلاد الشرق<sup>(٣)</sup> . وأى وازع دينى كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الرابعة ، والذين اتجهوا نحو القسطنطينية — وهو البلد المسيحى الكبير — لينهبوا كنائسها ، ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب وهم جميعا إخوانهم في الدين ؟؟ وهكذا يبدو أنه إذا أردنا أن

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٥٢-١٥٦ ، ٤٣٦-٤٣٧ .

(2) Ostrogorsky : Hist. of Byzantine State, p. 320.

(2) Thompson : op. cit., vol. I, p. 302

نعرف الأسباب الحقيقية للحركة الصليبية ، فعلياً بالبحث في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في غرب أوروبا في القرن الحادى عشر .

### الباعث الاقتصادى

أثبتت الأبحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادى وأهميته في تمريك كثير من الهجرات والحروب الهامة في التاريخ . ونحن مع اعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية ، نميل إلى تأكيد أهمية العامل الاقتصادى بالذات في تلك الحركة .

ذلك أن جميع الوثائق المعاصرة تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا — وبخاصة فرنسا — في أواخر القرن الحادى عشر . فال مؤرخ المعاصر جيوبرت نوجنت Guibert Nogent يؤكد أن فرنسا بالذات كانت تعاني مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، فندرج وجود الغلال وارتفعت أثمانها ارتفاعاً فاحشاً مما ترتب عليه حدوث أزمة في الخبز . وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفسر لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشتركين في الحملة الصليبية الأولى أكبر من الوافدين من أى بلد آخر من بلدان غرب أوروبا .

ومهما يقال من أن هذه الأزمة كانت مفتعلة ، افتعلها التجار المستغلون — وجلهم من اليهود — فالذى يهمنا هو أنه كانت هناك أزمة اقتصادية فعلاً في الغرب الأوروبى عند الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، وأن هذه الأزمة ألجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش<sup>(١)</sup> . وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية في الغرب الأوروبى في ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين ، وهى الحروب التى لم تنجح الكنيسة أو الملوك في وقفها ، مما أضر بالتجارة وطرقها

والزراعة وحتوتها أبلغ الضرر . وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى فى غرب أوربا باباً جديداً للهجرة ، وطريقاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التى عاشوا فيها داخل أوطانهم .

ولم يكن عجباً أن ضمت الحملة الصليبية الأولى جموعاً غفيرة من المعدمين والفقراء والمساكين وطريدى القانون . وجميعهم كانوا يفكرون بوحى من بطونهم لا بوحى من دينهم ، بدليل ما أتوه طوال طريقتهم إلى النمطنطينية من أعمال العدوان والسلب والنهب ضد الشعوب المسيحية التى مروا بأراضيها ، مما يتعارض مع أى وازع دينى .

ثم إن الباحث فى تاريخ الحركة الصليبية يلحظ حماسة منتطعة النظير من جانب المدن التجارية — فى إيطاليا وغير إيطاليا من الغرب الأوروبى — للمساهمة فى تلك الحركة ، سواء بعرض خدماتها لنقل الصليبيين عن طريق البحر إلى الشرق ، أو فى نقل المؤن والأسلحة وكافة الإمدادات إلى الصليبيين بالشام ، أو مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على الموانئ البحرية ببلاد الشام ، وتقديم المعونة البحرية للدفاع عن هذه الموانئ ضد هجمات الأساطيل الإسلامية . وهنا أيضاً نستطيع أن نقرر أن جمهوريات إيطاليا البحرية لم تكن مدفوعة إلى تقديم جميع تلك المساعدات للصليبيين بوازع دينى ، وإنما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة ، ورأت فى الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اقتناصها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً<sup>(١)</sup> . وسنرى فى صفحات هذا الكتاب أن البندقية لم تتورع عن تضليل حملة صليبية كبرى ، فوجتها نحو غزو النمطنطينية — وهو البلد المسيحى الآمن — بدلا من أن تتركها تسير

---

(١) Heyd : Hist du Commerce, I, pp. 131 - 133.

في طريقها الطبيعي الرسوم لها ضد المسلمين . وكان ذلك عندما رأت البندقية أن مصالحها المادية الصرنة تتطلب مهاجمة القسطنطينية وليس غزو مصر .

والواقع إن الصليبيين بالشام كانوا لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة أساطيل « الثلاثة الكبار » — البندقية وجنو ويزا — حيث أن هذه الأساطيل قامت بدور فعال في ربط بلاد الشام الصليبية بالغرب الأوربي . وإذا كانت هذه الجمهوريات الإيطالية قد قدمت المساعدة المطلوبة للصليبيين ، فإنها لم تفعل ذلك إكراما للكنيسة وابتغاء لرضا الله ، وإنما مقابل معاهدات عقدتها مع القوى الصليبية بالشام وحصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية هامة . ففي معظم موانئ الشام ومدنه الكبرى التي استولى عليها الصليبيون ، تمتعت المدن الإيطالية التجارية بإعفاءات خاصة ، فضلا عن شوارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجار المدينة الإيطالية التي قدّمت خدماتها لحاكم الإمارة الصليبية التي يتبعها الميناء . ولم تلبث مرساليا بجنوب فرنسا أن أخذت حذو المدن الإيطالية فحصلت على امتيازات كبيرة لتجارها في حديد المدن الصليبية بالشام ، إذ منح الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس تجار مرساليا حياً خاصاً بهم في مدينة القدس ذاتها سنة ١١١٧ ، ثم أعفاهم الملك نوالك من الضرائب بعد ذلك ، حتى لجأ الملك بلدوين الثالث سنة ١١٥٢ إلى منحهم امتيازات وإعفاءات من الضرائب في كافة الموانئ الصليبية في فلسطين .

وهكذا اصطفت الحركة الصليبية من أول أمرها بصيغة اقتصادية استغلالية واضحة . فكثير من المدن والجماعات والأفراد الذين أيدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا إلى الشرق ، لم يفعلوا ذلك نلدمة الصليب وحرب المسلمين ، وإنما جريا وراء المال وجمع اثروات وإثامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب الوطن العربي ، بغية استغلال موارده والمتاجرة فيه ، والحصول على أكبر قدر ممكن من

الثروة . حقيقة أن الإستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالاه إلا بعد الإنقلاب الصناعى فى القرن الثامن عشر ، ولكن ليس معنى ذلك أن العالم لم يعرف الاستعمار منذ أيام الفينيقيين واليونانيين القدماء . وفى العصور الوسطى كانت الحروب الصليبية « أول تجربة فى الاستعمار الغربى قامت بها الأمم الأوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق » ؛ وذلك على قول أحد المؤرخين الحديثين (١) .

وليس أدل على سيطرة النزعة الاستعمارية الاستغلاية على عقول كثير من أسهموا فى الحركة الصليبية مما نشأ من منازعات ومخاضات — بل حروب أهلية — بين الصليبيين بعضهم وبعض فى بلاد الشام . وقد استمرت هذه الحروب وبخاصة بين الثلاثة الكبار — البندقية وجنوا وبيزا — فى أشد الأوقات حرجا بالنسبة للصليبيين ؛ أى فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر عندما أخذت البتايا الصليبية بالشام تتساقط فى أيدي المسلمين واحدة بعد أخرى .

وعبثا ذهبت صيحات القتلاء من البوابات ورجال الدين وملوك قبرص ليوحد الصليبيون صفوفهم أمام الخطر الذى يوشك أن يعصف بهم جميعاً ؛ فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين الاستعماريين بعضهم وبعض أعمق جذوراً وأقوى أثراً وأكثر نفعا من شعور الولاء للدين والكنيسة .

### الباعث الاجتماعى :

تألف المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى من ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين — من الكنسيين والديرين — ، وطبقة المحاريين — من النبلاء

(1) Thompson : Economic and Social Hist. I, p 397.

والفرسان — ، وطبقة الفلاحين من الأقنان ورقيق الأرض . وكانت الطبقتان الأولتان أقلية تمثل في مجموعها الهيمنة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الإجتماعية ، في حين ظلت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية للغلبة على أمرها ، والتي كان على أفرادها أن يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة الطبقتين الأولتين <sup>(١)</sup> .

والواقع إن آلاف الفلاحين عاشوا في غرب أوروبا عيشة منحطة في ظل نظام الضيعة ، حيث شيدوا لأنفسهم أكواخاً قذرة من جذوع الأشجار وفروعها غطيت سقوفها وأرضيتها بالطين والقش ، دون أن تكون لها نوافذ أو بداخلها أثاث ، عدا صندوق صغير من الخشب وبعض الأدوات الفخارية والمعدنية <sup>(٢)</sup> . وكان معظم أولئك الفلاحين من العبيد والأقنان الذين ارتبطوا ارتباطاً وراثياً بالأرض التي يعملون عليها ، وقضوا حياتهم محرومين من أبسط مبادئ الحرية الشخصية ، فكل ما يجمعه القن يعتبر ملكاً خاصاً للسيد الإقطاعي لأن القن محروم ، حتى من الملكية الشخصية <sup>(٣)</sup> .

ثم إن أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات ، فكان عليهم أن يقدموا خدمات معينة للسيد الإقطاعي مثل فلاحه أرضه الخاصة ، فزلاعن تسخيرهم في أعمال شاقة مثل إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر . كذلك كان على الفلاحين دفع مقررات معينة مثل ضريبة الرأس التي يتعين على كل قن دفعها سنوياً رمزاً لعبوديته ، هذا عدا الضرائب المفروضة

---

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٦٣ .

(٢) Boissonade : Life and Work in Med. Europe. p 85

(٣) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٧٧ — ٧٩ .

على ماشيته وما تنتجه أرضه من خضروات<sup>(١)</sup>. فإذا أضفنا إلى ذلك الاحتكارات العديدة التي أئزم الفلاحون بقبولها ، أدركنا مدى الهوان والذلة التي عاشت فيها غالبية الشعب الأوربي في القرن الحادى عشر . فالسيد الإقطاعى صاحب الضيعة هو الذى يمتلك طاحونة وفرنا ومعصرة بل أحيانا البئر الوحيد فى الضيعة. وفى هذه الحالة يصبح كل قن ملزما باحضار غلته إلى طاحونة السيد لطحنها، ويحمل خبزه إلى فرن السيد لطبخه ، وكرومه وزيتونه وتفاحه إلى معصرة السيد لعصرها ... كل ذلك مقابل أجور معينة يقدمها الأبقان والفلاحون لسيدهم الإقطاعى ، وهم صاغرون . فإذا امتك فلاح طاحونة يدوية أو غير ذلك من الأجهزة التى من حق السيد الإقطاعى وحده أن يحتكرها ، صار ذلك جرما خطيرا يحاكم عليه<sup>(٢)</sup> .

وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس فى غرب أوروبا يقيمون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان. وكان ذلك فى الوقت الذى علت الدعوة للحرب الصليبية ، فوجدت تلك الألوف من البؤساء فى الغرب الأوربي فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت ترسف فيه من ذل العيش ونكد الدنيا . ومهما يكن فى الدعوة الجديدة من أخطار ، فإن أخطارها هانت أمام الفاقة والهوان والذلة التى كتب على جمهرة العوام أن يعيشوا فيها فى غرب أوروبا دون أمل فى الخلاص . فإذا ماتوا فى تلك الحرب الصليبية الجديدة فإن الموت كان أحب إليهم من حياة الجوع والذل والعبودية . وإن وصلوا إلى الأراضى المقدسة سالمين فإن حياتهم الجديدة لن تكون بأى حال أسوأ من حياتهم التى يقيمونها فعلا فى بلادهم الأصلية .

---

(1) Heston : Economic Hist. of Europe, p: 95

(2) Painter : Med. Society, p: 51

ومن هذا يبدو جلياً أنه إذا كانت ألوف العامة من أهل غرب أوروبا قد أسهموا في الحركة الصليبية ، فإنما دفعتهم إلى ذلك عوامل اجتماعية واقتصادية هامة ، فوجدوا في تلك الحركة منفذاً إلى حياة أفضل . ونستطيع أن نقرر أنه لو تيسرت لتلك الجموع في بلادهم الأصلية حياة حرة وقدرًا مناسباً من كرامة العيش ، لما غامروا بترك أوطانهم جرياً وراء وعود خيالية أسرفت الكنيسة في تقديمها .

### الباعث السياسي :

ولكن إذا كانت الفاقة والحرمان والذل والهوان هي التي دفعت الغالبية العظمى من الصليبيين إلى الترحيب بالدعوة الجديدة والمشاركة في الحركة الصليبية بحثاً عن حياة أفضل ، فما الدافع الذي دفع عدداً لا بأس به من ملوك أوروبا وأمراءها وفرسانها إلى المشاركة في تلك الحركة ؟ .

أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا في الحروب الصليبية مثل فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس وفردريك الثاني ، فيثبت التاريخ أن معظمهم لم يخرج من بلاده لحرب المسلمين إلا تحت ضغط البابوية وإلحاحها ، بل تهديدها . وربما كان هذا الحكم بعيداً عن الصحة في حالة واحدة هي حالة لويس التاسع ملك فرنسا ، الذي اشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى لقبه معاصروه بالقدس ، والذي أراد أن يعبر عن حماسه الدينية تعبيراً عملياً بالمشاركة في الحركة الصليبية مشاركة فعالة . أما من عداه فإن تاريخ البابوية وتاريخ غرب أوروبا وتاريخ الحركة الصليبية يشهد على السفارات العديدة التي دأب البابوات على إرسالها بين حين وآخر إلى ملوك أوروبا يلحون عليهم في الخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين .



وإن من يدرس تاريخ الغرب الأوربي في تلك الفترة من العصور الوسطى يعرف جيداً مدى قوة البابوية وعظم سلطتها ، وأن ملكاً من ملوك الغرب كان لا يستطيع أن يعصى لها أمراً أو يرد لها طلباً ، وإلا تعرض للحرمان والطرده من الكنيسة ورحمتها ، فلا يستطيع الاحتفاظ بعرشه أو بولاء شعبه . وأبرز مثل لدينا الإمبراطور فردريك الثاني الذى أخذ البابوات واحداً بعد آخر يلحون عليه فى الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين . ولم يجد الإمبراطور دافعاً يدفعه للقيام بتلك الخطوة فظل يماطل مرة بعد أخرى والبابوية تتوعد وتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان ؛ وعندئذ خرج الإمبراطور — مكرهاً لا بطلاً — على رأس فئة قليلة من رجاله قاصداً الشام ، وبادر بمجرد وصوله إلى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبي ليشرح له موقفه وأنه « ماله غرض فى القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرجحان »<sup>(١)</sup> .

هذا عن الملوك ، أما الأمراء الذين أسهموا فى الحركة الصليبية ، فمعظمهم كان يجرى وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم إلى الشام وبعد استقرارهم فيه . والمعروف أن النظام الإقطاعى ارتبط دائماً بالأرض ، وبتدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بتدر ما تكون مكانة الأمير سامية فى المجتمع . وفى ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التى يمكن أن تواجه الأمير أو الفارس هي عدم وجود إقطاع أو أرض له ، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ . وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعى فى الغرب الأوربي إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض ، لأنه من التواعد الأساسية فى هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذى يرث الإقطاع ، فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن هذا المبدأ يعنى بقاء

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٤٩

هتية الأبناء بدون أرض ، وهو وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي ؛ الأمر الذي جعل الفرسان والأمراء الحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع أو الالتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع . وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان الحرومين من الأرض في غرب أوروبا ، فلبوا نداء البابوية وأسرعوا إلى المساهمة في تلك الحركة لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق تعوضهم عما فاتهم في الغرب . حتى أولئك الأمراء الذين كانت لهم إقطاعاتهم وأراضيهم في بلادهم الأصلية ، وجدوا في المشاركة في الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم .

ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الأمراء الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية من الخلافات التي كثيراً ما دبت بينهم وبين بعض ، مما أنزل بالغ الضرر بالصالح الصليبي . وسنرى بين صفحات هذا الكتاب كيف أن أمراء الحملة الصليبية الأولى أخذوا يتسمون الغنime وهم في طريقهم إلى الشام ، أى قبل أن يستولوا على الغنime فعلاً ، وكيف استحكم النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية من أجل رغبة كل منهم في الفوز بها ، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً في الطريق قنع بذلك الكسب وتخلي من مشاركة إخوانه الصليبيين في الزحف على بيت المقدس ، وهو الهدف الأساسي للحملة . كذلك سنرى أن الصليبيين بعد أن استقروا في بلاد الشام كثيراً ما دب الخلاف فيما بينهم حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة . وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض بعض تلك المشاكل وتذكر الأمراء الصليبيين بالشام أن المسلمين يحيطون بهم ، وأن الواجب يستدعى تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم . ولكن تلك الصيحات ذهبت مع الريح لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً ، ولم يكن يهمهم كثيراً رضا البابا أو سخطه . بل إن بعض الأمراء الصليبيين بالشام لم يحجموا — كما سنرى — عن





## الباب الثاني

### المسلمون والمسيحيون حتى نهاية القرن الحادي عشر

«لنجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود  
والذين أشركوا ولنجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين  
قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم  
لا يستكبرون» .

( المائدة ، ٨٢ )



## الفصل الأول

# الإسلام والمسيحية

الأستاذ الدكتور  
محمد بن عبد الله

### التوسع الإسلامي وأثره في العالم المسيحي

شهد القرن السادس للميلاد حدثاً خطيراً في تاريخ البشرية، هو مولد خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام، ثم بعثه للتبشير بديانة جديدة شعارها [ لا إله إلا الله — محمد رسول الله ]. ولم تلبث هذه الدعوة أن نجحت في وضع حد للفوضى الاجتماعية والسياسية التي عاش فيها عرب شبه الجزيرة قروناً عديدة، فصاروا يخضعون جميعاً لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد في أجو من الوئام والألفة .

ولكن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم، لأن الله سبحانه وتعالى أرسل محمداً شاهداً ومبشراً ونبياً ليهدى الناس كافة إلى الإسلام. ولذلك غدت مهمة الرسول بعد أن استقرت له الأمور في شبه الجزيرة العربية أن يدعو بنية الأمم لاعتناق الإسلام والإيمان برسالته . ويبدو أن بعض السفراء الذين أوفدهم النبي عليه الصلاة والسلام إلى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا إعراضاً وأذى مما جعل النبي يعد العدة للجهاد، وإن كانت موجة الفتوح العربية لم تشتد وتوسع إلا بعد وفاة النبي نفسه سنة ٦٣٢ (١) .

وكان أن أخذ العرب يهاجمون الفرس والروم في وقت واحد، وهم أصحاب أكبر امبراطوريتين شهدها التاريخ في ذلك الوقت . وإذا كان الاحتكاك بين

المسلمين والروم قد بدأ فعلا في بادية الشام سنة ٦٢٩. إلا أن الحرب بين الطرفين لم تتخذ طابعا جديا إلا في عهد الخليفة أبي بكر الذي عهد إلى أبي عبيدة الجراح بمحاربة الروم وغزو الشام سنة ٦٣٢. وقد حاول هرقل امبراطور الروم إرسال قوة بقيادة أخيه تيودور لإيقاد موقف الامبراطورية المتداعى في فلسطين، ولكن القائد العربي خالد بن الوليد - الذي كان يعمل ضد الفرس في العراق - أتى مسرعا مما أدى إلى إنزال هزيمة ساحقة بالتوات البيزنطية في موقعة أجنادين سنة ٦٣٤<sup>(١)</sup>. وعندما توفي أبو بكر في السنة السابقة خلفه عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) الذي اتسعت الفتوح الإسلامية في عهده، فاستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل. وهنا أدرك هرقل خطر تلك الحركة الجديدة، فحشد ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب. ولكن خالدا أنزل هزيمة جديدة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦<sup>(٢)</sup>. وقد خيل لهرقل في تلك المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطي بنفسه ضد المسلمين، ولكنه سرعان ما أحس بعجزه عن النهوض بذلك الحمل الشاق بعد أن جاوز الخمسين من عمره ودب الخور في جسده. وإذا كان هرقل قد قضى سنتي ٦٣٥، ٦٣٦ في جبهة الشام، إلا أنه أيقن صعوبة مقاومة العرب، فترك بيت المقدس تقع في أيديهم (٦٣٧ - ٦٣٨). ولم تلبث المدن والمعقل الهامة الموجودة في أطراف العراق والشام - مثل ماردين والرها وميافارقين - أن سقطت في قبضة العرب (٦٣٨ - ٦٣٩) ثم استولى العرب على قيسرية سنة ٦٤٠، وبذلك فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى طرسوس<sup>(٣)</sup>.

وبعد ذلك جاء دور مصر ففتحها عمرو بن العاص سنة ٦٤١. ويعتبر فتح مصر بالذات دليلا واضحا على مدى نجاح تلك القوة الجديدة، كما يتخذ برهاناً

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ١٣ هـ.

(٢) الواقدي: فتوح الشام ج ١ ص ١٦٥.

(3) Vasiliev: op. cit., 1. p. 211



قويًا على مدى ضعف الإمبراطورية البيزنطية وانحلالها السياسي<sup>(١)</sup>. وبعد أن فتح العرب برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح العربية قليلا بسبب ما قام في جوف الدولة الإسلامية الناشئة من فتنة انتهت بقيام الخلافة الأموية في دمشق سنة ٦٦٠، ومن ثم استأنف العرب فتوحاتهم بنفس القوة والنشاط. ثم أخذ العرب في فتح ولاية إفريقية سنة ٦٦٤، حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة البلاد «فدخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان»<sup>(٢)</sup>. وكانت حروب المسلمين في إفريقية طويلة وشاقة، لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش البيزنطية فحسب، بل كان عليهم أيضاً إخضاع البربر المعروفين بقوة المراس. ومهما يكن من أمر فإن قرطاجة سقطت أخيراً في يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧؛ وإن كان نفوذ الخلافة الإسلامية لم يستقر تماماً في شمال إفريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير. على أن المسلمين لم يقنعوا بفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي، وإما تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا سنة ٧١١، كما عبر طارق بن زياد المضيق الذي عرف باسمه واستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتي ٧١١، ٧١٣<sup>(٣)</sup>. وفتح أسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية، إذ فقدت بلاداً ارتبطت بها أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر، فضلاً عن بلاد أخرى كانت بمثابة أعضاء أساسية في العالم المسيحي مثل شمال إفريقية وأسبانيا. وفي جميع البلاد التي فتحها العرب أقبلت نسبة كبيرة من الأهالي على اعتناق الإسلام «عن اختيار وإرادة حرة»، كما يقول أحد المستشرقين<sup>(٤)</sup>.

(1) Butler ; The Arab Conquest of Egypt, p. 205

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٠ هـ .

(3) Dozy ; Moslems in Spain, p. 232

(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٥١ .

والمعروف أن الإسلام احترم المسيحية احتراماً بالغاً ، وكرم نبيها عيسى بن مريم عليه السلام تكريماً لم يحظ به أحد غيره من الأنبياء السابقين ، فنادى القرآن بالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً . ولكن المسيحيين المعاصرين لم يفهموا طبيعة الديانة الجديدة التي بشر بها محمد عليه الصلاة والسلام ، وكل ما أدر كوه هو أن أتباع محمد خرجوا من شبه الجزيرة العربية ليبتلعوا بلداً بعد آخر من البلدان التي كانت المسيحية قد سبقت إليها ، وانتشرت فيها ، وصارت تعزّز ببقائها في حوزتها . وبعبارة أخرى فإن الكنيسة ورجالها لم يروا في الإسلام والمسلمين إلا خطراً جاثماً هددهم وهدد كيانهم ، فراحت الكنيسة تدعى أن الإسلام إنما انتشر بحمد السيف ، وأن الغزوات الإسلامية إنما استهدفت إجبار الناس على اعتناق الديانة الجديدة . وهكذا خلطت الكنيسة ورجالها بين انتشار الديانة الإسلامية وانتشار نفوذ العرب السياسى ، وتجاهلت حقيقة كبرى اعترف بها جمهرة المستشرقين اليوم ، هي أن نفوذ العرب السياسى هو الذى انتشر بحمد السيف ، أما الديانة الإسلامية نفسها فلها من سلامة المنطق وقوة الحجّة ما جعل غالبية أهل البلاد المفتوحة يدخلون في دين الله أفواجا<sup>(١)</sup> . ولو حاول رجال الكنيسة المعاصرون أن يتفهموا طبيعة الديانة الإسلامية وروحها لوجدوا أكثر من آية في القرآن الكريم — وهو دستور الإسلام والمسلمين — تأمر الرسول بأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتي هي أحسن « فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » . ومهما يكن من أمر ، فإن رجال الكنيسة لم يستطيعوا حتى نهاية العصور الوسطى أن ينسوا الخسارة التي لحقت بهم وبكنيستهم نتيجة لانتشار الإسلام ، مما جعلهم يشعرون دائماً بالرغبة في الانتقام من الإسلام والمسلمين .

### الصراع بين المسلمين والبيزنطيين في القرن العاشر :

وكانت الدولة البيزنطية — أو دولة الروم — أقرب القوى المسيحية إلى حدود المسلمين ، إذ ربطتها بالدولة الإسلامية الناشئة علاقات مباشرة وفصلت بينهما حدود مباشرة أيضاً ، مما جعل الاحتكاك لا يتقطع بين القوتين . وعندما وجد المسلمون أن خصومهم يمتلكون قوة بحرية كبيرة هددت شواطئ دولتهم الجديدة ، أسرعوا إلى ممارسة ركوب البحر والاهتمام بأمر الأساطيل البحرية . ولم يلبث أن أصبح العرب قوة بحرية لها حسابها في البحر المتوسط ، فغزوا جزيرة قبرص سنة ٦٤٨ وأغاروا على الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى عدة مرات ، حتى تمكنوا من إنزال هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطي في موقعة ذات الصواري سنة ٦٥٥ (١) .

وإذا كانت الظروف التي تعرضت لها الدولة الإسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام العرب بمهاجمة القسطنطينية نفسها عقب موقعة ذات الصواري مباشرة ؛ فإن الأمويين لم يلبثوا أن استأنفوا مهاجمة الدولة البيزنطية براً وبحراً على نطاق واسع ، حتى وصلت إغارتهم إلى بحر إيجه سنة ٦٦٥ . ويبدو أن المسلمين كانوا قد أحرزوا عندئذ خبرة كافية بفنون البحر ، جعلتهم يعبرون إلى تراقيا (٦٦٨ — ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها . كذلك أفاد العرب من استيلائهم على قبرص ورودرس وغيرها من المواقع البحرية الحصينة في بحر إيجه ، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات (٦٧٣ — ٦٧٨) ، ولم ينقذ عاصمة الامبراطورية البيزنطية عندئذ من السقوط في أيدي المسلمين سوى اختراع النار الإغريقية التي أنزلت بالسفن الإسلامية غرراً جسيماً (٢) .

(1) Ostrogorsky ; Hist. of the Byzantine State, p- 104.

(2) Vasiliev ; op. cit., vol. I, p. 214.

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية براً وبحراً حتى كان أوائل القرن الثامن ، وعندئذ اعتقد الخليفة الاموى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) أن الوقت حان للقيام بحملة كبرى تمكن المسلمين من الإستيلاء على القسطنطينية والإحاطة بالإمبراطورية البيزنطية . وقد اختار الخليفة أخاه مسلمة ليكون على رأس تلك الحملة التي شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته إلى الشاطئ الأوروبى سنة ٧١٧ . وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر ، أحكم الأسطول الإسلامى حصاره على المدينة من ناحية البحر حتى كادت القسطنطينية تقع فى أيدي المسلمين لولا صعود الإمبراطور ليو الأيسورى واستعانته بالنار الإغريقية التى لعبت دورها مرة أخرى فى تشتيت سفن المسلمين . وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف القوات الإسلامية « أرسل إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالتفول بمن معه من المسلمين » ، فانسحب المسلمون سنة ٧١٨ ، بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام (١) .

ويبدو أن فشل المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن شجع البيزنطيين على دفع خطر المسلمين تدريجياً عن آسيا الصغرى ، حتى غامر الامبراطور قسطنطين الخامس بشن هجوم على الشام سنة ٧٤٥ متهزأً فرصة الضعف الذى أمست فيه الخلافة الأموية فى خريف عمرها . وفى العام التالى أحرز البيزنطيون نصراً بحرياً على المسلمين واستردوا منهم جزيرة قبرص (٢) . ثم لم تلبث سنة ٧٥٠ أن شهدت سقوط الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية فى بغداد . وهنا نلاحظ أن اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزاً لهم جعلهم قريبين من آسيا الصغرى والأراضي البيزنطية ، بحيث كان الخطر الإسلامى على الدولة البيزنطية

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ٩٩ هـ

(2) Cam. Med. Hist. vol 4, p. 12.

تهديداً وملحوساً في العصر الأموي . ولكن اتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل الدولة البيزنطية وأراضيها أكثر بعداً عن قلب الدولة الإسلامية، ومن ثم قل تهديد المسلمين لحدود الدولة البيزنطية بصورة واضحة في العصر العباسي .

وليس معنى هذا أن العداء توقف بين المسلمين والبيزنطيين بعد سنة ٧٥٠، إذ نسمع أن الامبراطور البيزنطي ليو الرابع هاجم المسلمين شرق الأناضول سنة ٧٧٨، فرد عليه الخليفة المهدي العباسي بمهاجمة أراضي البيزنطيين في العام التالي<sup>(١)</sup>. ثم اشتدت إغارات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية في عهد الخليفة هارون الرشيد، فاجتاحت الجيوش العباسية آسيا الصغرى سنة ٧٨٦ حتى بلغت البسفور، دون أن تستطيع الامبراطورة إيرين التغلب على ذلك الخطر، مما دفعها إلى شراء الصلح من المسلمين مرة بعد أخرى متابل تعهدا بدفع جزية سنوية ضخمة من المال .

وقد رفض الإمبراطور البيزنطي ثقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١) الاستمرار في دفع الجزية التي تعهدت بها إيرين، مما جعل العباسيين يجددون هجماتهم على الدولة البيزنطية<sup>(٢)</sup>. وفي ذلك الوقت استطاع مسلمو الأندلس الاستيلاء على جزيرة كريت (٨٢٣ - ٨٢٥)، فظلت الجزيرة بأيدي المسلمين مدة تربو عن قرن وربع دون أن يستطيع الآباطرة البيزنطيون استرداد الجزيرة. ومن الواضح أن ضياع جزيرة كريت جاء ضربة قاسية للتجارة الامبراطورية في بحر إيجه، لاسيما وأن المسلمين من شمال أفريقيا غزوا جزيرة صقلية سنة ٨٢٧، مما مكنهم من

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ١٦٣ هـ، سنة ١٦٥ هـ .

(٢) يروي ابن الأثير أن ثقفور بعد أن استتب له الأمور كتب إلى الرشيد يقول « من ثقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن المصلحة التي كانت قبل إقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق؛ فحمت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً تحمل أضعافه إليها، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن؛ وإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها؛ وافتد نفسك بما تقع به المصادرة . وإلا فالسيف بيننا وبينك » .

السيطرة على طريق الملاحة في البحر المتوسط<sup>(١)</sup>. هذا إلى أن المسلمين الذين سيطروا على كريت استغلوا موقع تلك الجزيرة في تهديد قلب الامبراطورية البيزنطية كما حدث سنة ٩٠٤ عندما خرجت السفن الإسلامية من كريت لغزو مدينة سالونيك في البلقان ، ونجح المسلمون فعلا في السيطرة على هذه المدينة بعض الوقت في أوائل القرن العاشر<sup>(٢)</sup>.

وعندما ظن الامبراطور البيزنطي ثيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢) أن العباسيين أمسوا بعد وفاة الرشيد في حالة من الضعف لا تمكنهم من الدفاع عن دولتهم، أخذ يهاجم الدولة العباسية ، واستفز الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) بأبواء بعض الهاريين من وجه الخليفة ، مما أثار حربا متقطعة بين الطرفين استمرت أكثر من ثلاثين سنة . وقد بدأ الخليفة المأمون بغزو الجهات القريبة من الدولة البيزنطية حتى وصلت جيوشه هرقله سنة ٨٣١ ، في الوقت الذي أغارت الأساطيل العباسية على الجزر القريبة من الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى<sup>(٣)</sup> ويبدو أن حماسة الخليفة المأمون لحرب البيزنطيين دفعتة إلى أن يتولى بنفسه قيادة ثلاث حملات في آسيا الصغرى ، فاستولى على ممرات طوروس ثم على مدينة الطوانة ( Tyana ) العظمية التي اتخذها قاعدة لعملياته الحربية في تلك الجهات<sup>(٤)</sup> . على أن حسن حظ الامبراطور شاء أن يموت المأمون في تلك المرحلة بعد أن أرسل إليه ثيوفيل رسلا يطلبون الصلح ، فانسحبت الجيوش الإسلامية إلى طرسوس بعد أن أخلت البلاد التي فتحتها وراء جبال طوروس<sup>(٥)</sup>.

---

(1) Ostrogorsky ; op. cit, p. 182, 185.

(2) Schlumberger ; Recits de Byzance et des Croisades 1, pp. 13 - 23.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنئ ٢١٥ هـ ، ٢١٦ هـ .

(4) Cam. Med. Hist. vol. 4, ps 36, 128.

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢١٨ هـ .

وكان أن ظهر ضعف الخلافة العباسية واضحا في عصر الخليفة المعتصم ، وعندئذ استطاع ثيوفيل أن يتحول من الدفاع إلى الهجوم ، فهاجم أعلى الشام وماين النهرين حتى بلغ زبطرة وقتل من فيها من المسلمين ، وأغار على ملطية وغيرها من المدن والحصون المجاورة « وسبي المسلمات ومثل بمن صار في يده من المسلمين ، وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وأذانهم » . ولم تلبث جرأة البيزنطيين في مهاجمة أراضي الدولة الإسلامية وإغاراتهم على مدينة زبطرة - مستقر رأس الخليفة المعتصم - أن استتارت الخليفة ، فنزل بنفسه إلى ميدان المعركة سنة ٨٣٨ على رأس جيش كثيف ، بعد أن أقسم على تدمير مدينة عمورية - مستقر رأس الامبراطور وأسرته - « وهى أشرف عندهم من القسطنطينية » . وقد أسرع ثيوفيل لإنتاذ بلدته ، ولكن الهزيمة حلت بجيوشه ، واستطاع المسلمون الاستيلاء على عمورية وقتل عدة آلاف من أهلها ، فضلا عن عدد كبير من أعيان الروم ساقهم المعتصم إلى سامرا (١) .

على أن وصول الجيوش الإسلامية إلى جوف آسيا الصغرى في النصف الأول من القرن التاسع لم تعبه مضاعفات خطيرة على الإمبراطورية ، لأن المعتصم اكتفى بالانتقام لمدينة زبطرة ثم قفل راجعا من حيث أتى ، وبذلك عادت الإمبراطورية واستردت أراضيها في آسيا الصغرى حتى جبال طوروس . ولم يلبث أن ساعدت مشاغل كل من الخليفة المعتصم والامبراطور ثيوفيل على عقد هدنة بين الطرفين استمرت حتى وفاة الاثنين سنة ٨٤٢ (٢) .

---

(1) Diehl, Marçais ; Le Monde Oriental, pp. 312 - 313. &

ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٢٢٣ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 131.

### ضعف الدولة الإسلامية وانقسامها :

على أن الموقف بين البيزنطيين والعباسيين في الشرق الأدنى لم يلبث أن تبدل في نهاية القرن التاسع ، عندما قدمت الخلافة العباسية هيبتها وانحلت قوتها . ذلك أن الخليفة المعتصم العباسي ، أفرط في الاعتماد على الترك ، الأمر الذي جعله يهجر بغداد وينقل عاصمته إلى سامرا سنة ٨٣٦ . ولم يلبث أن أصبح الخلفاء العباسيون أداة سهلة في أيدي أمراء الأتراك ، حتى غدت السلطة الفعلية في القرن العاشر في يد كبير أولئك الأمراء الذي اتخذ لقب «أمير الأمراء»<sup>(١)</sup> وزاد من ضعف الدولة العباسية عندئذ كثرة الثورات والخلافات الدينية مثل الحركة الخرمية التي تزعمها بابك الخرمي (٨١٦ - ٨٣٧) وحركة المعتزلة ، فضلا عن نشاط الشيعة في جوف الدولة . فإذا أضفنا إلى ذلك ثورة الزنج في جنوب العراق (٨٧٧ - ٨٨٣) وثورة القرامطة قرب واسط بالعراق سنة ٨٩٠ ، استطعنا أن نكون فكرة عامة عن عوامل انحلال الخلافة العباسية ومظاهر هذا الانحلال<sup>(٢)</sup> .

وليس أدل على ضعف الخلافة العباسية وتفككها في تلك الفترة من الحركات الانفصالية التي قامت في جسم الدولة ، والتي أدت إلى ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب الخلافة ، مثل الدولة السامانية (٩٧١ - ٩٩٨) والدولة الزيارية (٩٢٨ - ١٠٤٧) والدولة الغزنوية (٩٦٢ - ١١٨٦) والدولة الحمدانية ، (٩٢٩ - ١٠٠٣) والدولة البويهية (٩٣٢ - ١٠٥٥) . ويهمنان هذه البيوت في المشرق السامانيون والبويهيون . أما السامانيون فقد غدت لهم السيطرة على الجزء الشرقي من بلاد فارس ، أعنى خراسان وبلخ وما وراء النهر فضلا عن فرغانة وخوارزم . وقد اتخذ السامانيون بخارى وسمرقند مركزين

(١) Diehl, Marçais : op. cit. pp 378 - 381

(٢) Cam. Med. Hist. vol 4, p. 276.



لحكمهم ، واستمروا يحكمون تلك المنطقة الفسيحة حكماً مستقلاً معظم القرن العاشر . وأما البويهيون — وهم من أصل فارسي أيضاً — فقد سيطروا على الجزء الغربي من بلاد فارس — أعنى عراق العجم وكرمان وخوزستان — كما سيطروا على العراق العربي بما فيه بغداد بين سنتي ٩٤٥ ، ١٠٥٥ . وفي تلك الفترة اتخذ أمراء بني بويه لقب إمرة الأمراء ، وسلبوا لأنفسهم كل ما للخلفاء العباسيين من سلطان ونفوذ ، حتى صار أمير الأمراء من بني بويه هو الحاكم الفعلي في الدولة<sup>(١)</sup> .

على أنه يلاحظ أن كلا من هذين البيتين — السامانيون والبويهيون — كانوا من أصل فارسي ، ومن ثم وجهوا جل عنايتهم نحو الأقاليم الفارسية من الدولة العباسية ، ولم يهتموا بالأقاليم العربية كالجزيرة وبلاد الشام ومصر . والواقع إن بلاد الشام ومصر لم تكونا أقل تعرضاً للقوضى والانتقام من بقية أجزاء الخلافة . ذلك أن الإخشيديين استقلوا بمصر والجزء الأكبر من بلاد الشام — حتى طرابلس ويبروت شمالاً — ( ٩٣٥ — ٩٦٩ ) . أما شمال الشام وإقليم الموصل فقد استقل بهما الحمدانيون ( ٩٢٩ — ١٠٠٣ ) الذين ظلوا في منازعات مستمرة مع البويهيين من ناحية والإخشيديين من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup> . وزاد من القوضى التي تعرضت لها بلاد الشام في تلك الفترة انتفاضة القبائل العربية ، فسيطر العرب الجنوبيون أو اليمينيون على جنوب الشام ووسطه حيث صارت الغلبة في فلسطين لبني طي وفي وسط الشام لبني كلب . أما عرب الشمال أو القيسيون فقد سيطروا على شمال الشام والجزيرة حيث ظهر من قبائلهم بنو كلاب وبنو نمر وبنو عقيل . وجميع هذه القبائل

(١) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٣٢١ هـ .

العربية ربطتها علاقات بالقرامطة ، بل إن بنى طى وبني كلب شاركوا فى ثورة القرامطة التى حدثت فى مستهل القرن العاشر<sup>(١)</sup> .

أما الخلافة العباسية نفسها فاستمرت تنتقل أوضاعها فى القرن التاسع من سىء إلى أسوأ ، حتى تولى منصب الخلافة فى مدى ثمان سنوات ( ٨٦١ — ٨٦٩ ) أربع خلفاء مات منهم إثنان مقتولين ، هما أبو عبد الله محمد المعتز بالله ، وأبو اسحق محمد المهتدى بالله .

### صورة الدولة البيزنطية فى القرن العاشر :

ولعل ذلك الانحلال الذى أصاب الخلافة العباسية والتفكك الذى اعترى وحدة الدولة الإسلامية هو الذى مكن الأباطرة البيزنطيين منذ منتصف القرن التاسع من الوقوف موقفاً أكثر حزمًا وصلابة من جيرانهم المسلمين . ولم يلبث أن تحول موقف الإمبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر من الدفاع إلى الهجوم ، وذلك عندما أدرك البيزنطيون أنهم لا يواجهون على حدودهم الشرقية دولة إسلامية موحدة مثلما كان الحال أيام الأمويين والعباسيين الأوائل ، وإنما صاروا لا يرون إلا دولة مفككة أضعفتها الإنقسامات السياسية والمذهبية . وكان ذلك فى الوقت الذى استولت على العرش فى القسطنطينية أسرة من أقوى الأسر فى التاريخ البيزنطى ، هي الأسرة المقدونية التى نفخت فى الدولة روحاً جديدة بفضل ماوفرتة لها من استقرار داخلى وقيادة رشيدة<sup>(٢)</sup>

وهنا نلاحظ أن البلقان لم يعد فى ذلك العصر مركز الروح الهلانية فى العالم البيزنطى ، بعد أن اجتاحت أراضي البلقان كثير من الشعوب السلافية ، فضلا

(١) Setton : A Hist. of the Crusades, p. 87.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤١٧ وما بعدها .

عن البلغار . وكان أن ظهرت الأقاليم الآسيوية لتخلف البلدان وتصبح مركزاً للروح الهلينية منذ القرن التاسع . ففي آسيا الصغرى بالذات ظلت التقاليد البيزنطية قائمة خالصة ، ومن آسيا الصغرى استمدت الإمبراطورية البيزنطية مواردها المالية والبشرية . ثم إن آسيا الصغرى هي التي أمدت الإمبراطورية بجيرة البيوت الحاكمة والقادة الأقوياء مثل آل فوقاس وآل شمشقيق وآل كومنين<sup>(١)</sup> .

وكان أن بدأت جهود الدولة البيزنطية للتوسع على حساب المسلمين في أطراف آسيا الصغرى والشام في عهد قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩) ثالث أباطرة الأسرة المتدنية . من ذلك أن الجيوش البيزنطية استطاعت تحت قيادة قائد أرميني الأصل — إسمه حنا كوركواس John Curcuas — الاستيلاء على أدرزوم من المسلمين ، كما أجبرت حكام ملطية وديار بكر وميفارقين على دفع إتاوة للبيزنطيين<sup>(٢)</sup> . وعند ما ثارت ملطية على ذلك الوضع دمرها كوركواس سنة ٩٣٤ واستولى على الجهات المحيطة بها<sup>(٣)</sup> . وفي سنة ٩٤١ - ٩٤٢ استولى البيزنطيون على ميفارقين ، وعندئذ أسرع حاكم الرها المسلم إلى شراء مسألة حنا كوركواس . ولم يلبث البيزنطيون أن استولوا على مرعش (٩٤٨ - ٩٤٩) ، كما استطاع القائد البيزنطي الجديد ليفوقاس الاستيلاء على طرسوس عاصمة إقليم قيليقية ، ثم على ديار بكر وسميساط سنة ٩٥٨ . وهكذا لم تحل سنة ٩٥٩ إلا وكان ليفوقاس قد وصل على رأس الجيوش البيزنطية إلى ما وراء نهر دجلة<sup>(٤)</sup> .

على أن تلك الحروب لم تكن سوى مقدمة لحركة شاملة أزمعت الدولة البيزنطية القيام بها للانتقام من المسلمين مما حل بها على أيديهم طوال القرون

(١) Brehier : Vie et Mort. de Byzance, pp. 179 - 180

(٢) ابن الأثير : الكامل سنة ٣١٥ هـ .

(٣) Vasiliev : op. cit. I, p. 306.

(٤) Ostrogorsky : op. cit., p. 250

الثلاثة السابقة . وكان أن نجح القائد تنفور فوقاس في طرد المسلمين من جزيرة كريت سنة ٩٦١ ، ثم قام بغزو إقليم قيليقية الذي كان تابعا لسيف الدولة الحمداني ، واستولى سنة ٩٦٢ على مركزين من أهم مراكز ذلك الإقليم هما عين زربة وسيس ؛ ومن هناك اتجه إلى أطراف بلاد الشام لينتزع من سيف الدولة عين تاب ومنبج<sup>(١)</sup> . ثم اختار تنفور فوقاس ألا يعطى خصومه فرصة للاستعداد ، فزحف مباشرة — وبصحبه القائد حنا شمشقيق — على حلب ، واستولى عليها في أواخر ديسمبر سنة ٩٦٢ . وعند ما عجز تنفور فوقاس عن الاستيلاء على قلعة حلب ، اكتفى بتدمير المدينة « وأحرق المساجد » ، ثم قفل راجعا إلى قيليقية ومعه عدد كبير من أسرى المسلمين<sup>(٢)</sup> .

وبعد أن عاد تنفور إلى القسطنطينية حيث توج إمبراطورا ؛ رجع إلى الشام مرة أخرى ليغزو الحمدانيين سنة ٩٦٤ . وفي ذلك الوقت بالذات تعرض الحمدانيون لطعنة من الخلف من جانب بني بويه ، إذ قام أمير الأمراء معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه بانتزاع الموصل ونصيبين من الحمدانيين ، ولم يرد الموصل إليهم إلا بعد أن تسلم مبلغا طائلا من المال<sup>(٣)</sup> . وهكذا ظهر جليا أن الظروف في العالم الإسلامي صارت مواتية لأن يقوم الإمبراطور البيزنطي بهجوم جديد ، فأرسل إنذارا إلى الخليفة العباسي في بغداد يهدده بالويل والثبور وينذره بأن الجيوش البيزنطية لن تلبث أن تستولى على بلاد العراق والشام ومصر ، وأنه من الخير للخليفة أن ينسحب إلى بلاد الحجاز ويترك تلك البلاد لأصحابها القدامى من البيزنطيين ! ويهمننا في هذا الإنذار أنه كان يفيض بالروح الصليبية ، إذ ضمنه

---

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ٥٣١ هـ .

(٢) Schlumberger : Nicephore Phocas, pp. 232 — 251. &

ابن الأثير : الكامل سنة ٣٥١ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنئ ٣٤٧ — ٣٤٨ هـ .

الإمبراطور عبارات دينية حماسية ، وتهديد صريح بهدم الكعبة ونشر المسيحية في الشرق والغرب جميعاً<sup>(١)</sup> .

وكان جديراً بالمسلمين في تلك الظروف أن يقيموا لأنفسهم ويتنبهوا لخطيئة الروح الجديدة التي أخذ يعمل بها البيزنطيون ، ولكن المسلمين ظلوا غارقين في خلافاتهم الداخلية التي أنهكتهم وأضعفت قواهم . من ذلك أن السامانيين في خراسان أرسلوا نجدة عاجلة إلى الحمدانيين لتساعدهم في صد الخطر البيزنطي ، ولكن بدلا من أن يستغل الحمدانيون تلك النجدة في غرض الجهاد ، أرادوا استخدامها في محاربة خصومهم أمراء بني بويه ، وعندئذ خمدت حماسة أولئك الخراسانيين وتفرقوا دون أن يشتركوا في قتال . وهكذا ثبت أن الخلافات الداخلية بين أمراء المسلمين كانت أقوى من أن تؤلف بين قلوبهم بدافع مواجهة الخطر المسيحي ؛ وفي ضوء تلك الانقسامات يمكن أن نفسر الانتصارات التي أحرزها البيزنطيون في القرن العاشر ، ثم تلك التي أحرزها الصليبيون الغربيون منذ نهاية القرن الحادي عشر<sup>(٢)</sup> .

أما تقفور فوقاس ، فقد أرسل أحد قواده لاسترداد جزيرة قبرس من المسلمين (٩٦٤ - ٩٦٥) ، حتى إذا ما تم له ذلك ، عاد مرة أخرى إلى غزو قيليقية بغية القضاء على نفوذ الحمدانيين فيها ، فاستولى على المصيصة وطرسوس<sup>(٣)</sup> . والواقع أن هاتين المدينتين لم تسقطا في أيدي البيزنطيين إلا بعد حصار طويل (١٣ يولية ٩٦٥) ، وعندئذ أرسل الإخشيدون نجدة لإنقاذ الموقف ، ولكن النجدة وصلت بعد فوات الأوان . وفي سنة ٩٦٦ عاد تقفور فوقاس إلى الإغارة

(١) Schlumberger ; Nicephore Phocas, pp. 427 - 430

(2) Grousset ; Hist. des Croisades, I, p. XIII.

(٣) ابن الأثير : الكامل سنة ٣٥٤ هـ . وروى ابن الأثير أن تقفور فتح المصيصة عنوة بالسيف « فقتل منهم مقتلة عظيمة » في حين استولى على طرسوس صلحا « فلقبهم بالجيل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون »

على بلاد النهرين ، فهاجم آمد « ولم يمكنهم فتحها » ، فانصرف إلى دارا وقارب نصيبين حيث صادف البيزنطيون قافلة للمسلمين آتية من ميفارقين فتهبوا . ثم اتجه نفقور إلى أطراف الشام حيث « نازلوا أنطاكية فأقاموا عليها مدة طويلة يتناولون أهلها ، فلم يمكنهم فتحها ، فخرجوا بلدها ونهبوه وعادوا إلى طرسوس »<sup>(١)</sup> . وفي تلك الأثناء توفي سيف الدولة الحمداني في يناير سنة ٩٦٧ ، وخلفه في حكم حلب ابنه سعد الدولة أبو المعالي شريف (الأول) الذي عجز عن صد خطر البيزنطيين ، فضلا عن المنازعات التي دبت في تلك الفترة بين أبناء البيت الحمداني<sup>(٢)</sup> .

. وفي سنة ٩٦٨ عاد نفقور فوقاس إلى الشام « فلم يمنعه أحد ولا قاتله » فأغار على معرة النعمان وكفر طاب وشيزر التي أحرق مسجدها وحوله إلى رماد . ثم استولى على حماة وحمص وأحرقهما أيضا . وبعد أن عاث نفقور فوقاس فسادا في حوض نهر العاصي ، عبر الجبال إلى ساحل لبنان فاستولى على جبلة وعرقه وانظرطوس . أما اللاذقية فقد أسرع إليها باعلان خضوعه للامبراطور الذي لم يلبث أن عاد بعد قليل إلى القسطنطينية وصحبته خمسة آلاف أسير ، بعد أن « أقام في الشام شهرين ، يقصد أى موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد »<sup>(٣)</sup> . وعند عودة نفقور ترك خلفه في بلاد الشام قوة كبيرة قرب أنطاكية . ولم تلبث هذه القوة أن تمكنت من الاستيلاء على أنطاكية في أول نوفمبر سنة ٩٦٩ فطرده البيزنطيون أهل أنطاكية المسلمين « وأخرجوا المشايخ والعجايز والأطفال من البلد وقالوا لهم : اذهبوا حيث شئتم » ، وأحلوا محلهم جموعا غفيرة من المسيحيين<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٥٥ هـ .

(٢) Cam. Med. Hist. vol. 5. ps. 246, 250

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٥٨ هـ .

(٤) Schlumberger : Un Empereur Byzantin au Dixieme Siecle, Nicéphore Phocas p. 723 &

ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٥٩ هـ .

وكان لاستيلاء البيزنطيين على أنطاكية دوى هائل فى العالم المسيحى - الشرق والغربى - نظراً لما لهذه المدينة من مكانة فى تاريخ المسيحية . وباستيلاء البيزنطيين على أنطاكية بلغوا قمة حركتهم التوسعية على حساب المسلمين فى القرن العاشر . وكان المفروض أن يأتى دور حلب بعد ذلك ، ولا سيما أن النزاع الداخلى بين صاحب الحق الشرعى فى الحكم - سعد الدولة الحمدانى - ومقتصب السلطة فيها - قرغوية (مولى سيف الدولة) - أثر تأثيراً خطيراً فى أحوال حلب . ولكن يبدو أن أمر حلب استعصى على البيزنطيين ، فصالحوا قرغوية فى يناير سنة ٩٧٠ «على هدنة مؤبدة» بشرط أن يدفع لهم مالا معيناً ويسهل لهم تموين جيوشهم فى حالة خروجهم لغزو الشام<sup>(١)</sup> . ثم إن نفقور إستولى فى السنة نفسها على ملاز كرد من أعمال أرمينية « فضيقوا على من بها من المسلمين وملكوها عنوة » . وهكذا لم يمت نفقور فوقاس إلا بعد أن دخل الجزء الشمالى من بلاد الشام بأكمله تحت سيطرة البيزنطيين الذين قويت هيبتهم « وعظمت شوكتهم وخائفهم المسلمون فى أقطار البلاد »<sup>(٢)</sup> .

وشاءت الظروف أن يشهد العالم الإسلامى فى ذلك الوقت تطوراً خطيراً ، إذ نجح الفاطميون فى غزو مصر سنة ٩٦٩ والتضاء على حكم الإخشيديين فيها ، وبذلك أصبحت مصر - وملحقاتها فى الشام حتى دمشق - مركزاً لخلافة شيعية منافسة لخلافة بغداد السنية . وهكذا قدر للعالم الإسلامى أن يظل طوال قرن (٩٦٩-١١٧٩) منتسماً على نفسه بين خلافتين ومذهبين مختلفين ، الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة ، مما ترك أثراً خطيراً فى قوة المسلمين فى الشرق الأدنى ظهرت نتائجه فيما بعد على عصر الحروب الصليبية<sup>(٣)</sup> .

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي : التاريخ ١٣٤ - ١٣٦ ، ابن الأثير : الكامل . حوادث سنة ٣٥٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل . حوادث سنة ٣٥٩ .

(3) Setton : A Hist. of the Crusades, vol. I. p.p. 85-86

وقد أعقب ثقفور فوقاس في عرش القسطنطينية الإمبراطور حنا شمشقيق (زمسكيس) الذي وجد في حروب سلفه ضد المسلمين سائمة إسقند إليها. وصادف حسن حظ ذلك الإمبراطور أن الفاطميين واجهوا عندئذ متاعب جمة في ممتلكاتهم بالشام، مما قلل من خطرهم على البيزنطيين في ذلك الدور. هذا إلى أن دمشق وقعت سنة ٩٧٤ في قبضة أحد المغارين الأتراك - واسمه افتكين - الذي كان تابعا للخليفة العباسي في بغداد، ثم تظاهر بالدخول في طاعة الفاطميين (١)، حتى رأى أخيرا أن يستفيد من الخصومة بين العباسيين والفاطميين فيعمل لحسابه الخاص ويستقل بدمشق لنفسه. (٢) ومن الواضح أن تلك الأحداث وما نجم عنها من فرقة في العالم الإسلامي أمدت الإمبراطور حنا الشمشقيق إمبراطور القسطنطينية الجديد (٩٦٩ - ٩٧٥) بفرصة مناسبة لتحقيق أطباعه.

وقد قام حنا بحملته الحربية الأولى في آسيا الصغرى سنة ٩٧٤، فبلغ حدود أرمينية التي كانت تحكمها عندئذ أسرة ملكية إقطاعية. وعندما علم ملك أرمينية - آشوت الثالث - بنية الإمبراطور البيزنطي في القيام بحرب صليبية ضد المسلمين، أظهر رغبته في مشاركة الإمبراطور مشاريعه وجهوده، وقدم للإمبراطور قوة حربية ضخمة تألفت من عشرة آلاف جندي لمساعدته في حملته (٣). وكان أن اتجه الإمبراطور حنا على رأس تلك القوة المسيحية الضاربة إلى أطراف بلاد النهرين في خريف سنة ٩٧٤، حيث اضطرت ميافارقين وديار بكر إلى دفع إتاوة، ثم دخل البيزنطيون نصيبين في ١٢ أكتوبر بعد أن هجرها أهلها

---

(١) «وكاتب المعز» (الفاطمي) مكتابة على سبيل المدح والمغالطة والمدح والتعظيم والالتقياد له والطاعة لأوامره» (ابن القلانسي ص ١٢).

(٢) محمد جمال الدين سرور: مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ١٢٢.

(٣) ويثبت الخطاب الذي أرسله حنا الشمشقيق إلى حليفه ملك أرمينية عندئذ أن الإمبراطور البيزنطي كان يصدد القيام بحملة صليبية فعلا ضد المسلمين، ليسترد بيت المقدس وكنيسة القيامة من المسلمين (Vasiliev, op cit., 1, p. 310).



« فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد » (١) هذا في الوقت الذي اضطر أمير الموصل أيضاً إلى دفع إناوة للامبراطورية البيزنطية. وهكذا حقق الإمبراطور حنا الشمشتيق كثيراً من المكاسب دون عناء ، مما جعله يحلم حينئذ بالزحف على بغداد والاستيلاء عاها (٢) .

وفي ربيع سنة ٩٧٥ اتجه حنا الشمشتيق نحو الشام ، فغادر أنطاكية في إبريل مخترقاً وادى نهر العاصي ، وعندئذ بادرت حمص إلى دفع الإناوة دون مقاومة. أما بعلبك التي أبدت نوعاً من المقاومة فقد عاقبها الامبراطور في قسوة ، ومنها اتجه صوب دمشق . وكانت دمشق - كما سبق أن أشرنا - تحت سيطرة الأمير افتكين التركي الذي ظل يتأرجح بين إعلان ولائه للفاطميين حيناً وللعباسيين أحياناً ، حتى إذا ما أحس باقتراب البيزنطيين من مدينته ، رأى في تلك القوة الجديدة ما يمكنه من التخلص من نفوذ الفاطميين والعباسيين جميعاً ، فأعلن ولاءه للامبراطور البيزنطي وتعهّد بدفع الجزية له (٣) . ولأسك في أن هذه الخطوة من جانب افتكين ساعدته على الوقوف في وجه أطاع الفاطميين بوجه خاص ، في حين غدت سيادة الامبراطور البيزنطي على الأجزاء الداخلية من بلاد الشام شبه تامة بعد أن اعترفت له دمشق بالسيادة ودخلت انطاكية تحت سيطرته الفعلية ، كما أعلنت حلب تبعيتها للامبراطورية البيزنطية (٤) . ومن دمشق اتجهت الجيوش البيزنطية صوب طبرية ، حيث اتخذ الزحف البيزنطي طابعا صليبيّا واضحاً ظهر بجلاء في الرسالة التي أرسلها الامبراطور حنا إلى ملك أرمينية آشوت الثالث ، والتي ذكر له في عبارات عاطفية كيف أن رجاله

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٦١ هـ .

(2) Ostrogorsky : op. cit., P. 263.

(٣) يحيى بن سميد الأنطاكي : التاريخ ص ١٤٥

(٤) عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ص ١٤١ — ١٤٤ .

يزحفون نحو الأرض المقدسة التي شهدت مولد المسيح والتي دفن فيها ، مما ثبت صدق الروح الصليبية في تلك الحملة<sup>(١)</sup> . وكان أن شق حناطريقه إلى بيت المقدس دون أن يصادف مقاومة تذكر ، فتمهدت عكا بدفع الأموال للإمبراطور رمزا للتبعية ، وستطت قيسارية في قبضة القوات الإمبراطورية . وإذا كانت الحامية الفاطمية في بيروت قد قاومت إلا أنه نجح في إخضاعها وأسر جزءاً كبيراً منها ، وبعد ذلك اتجه الإمبراطور صوب صيدا التي بادرت بدفع الأموال وإعلان الخضوع . ولم يستعص على الإمبراطور سوى طرابلس بسبب حصانة موقعها ، إذ أنزلت حامية المدينة بمعاونة الأسطول الفاطمي الهزيمة بالجيش الإمبراطورية فعبّر حنا الشمشقيق عن غضبه بإتلاف الضياع المحيطة بها وتدمير بساتين الكروم والزيتون<sup>(٢)</sup> . على أن الإمبراطور حنا لم يستطع الوصول إلى بيت المقدس ، فاكتمل بإخضاع بعض القلاع والمراكز مثل بانياس ، ثم عاد إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية حيث مات في أوائل سنة ٩٧٦ . وكانت أقصى نقطة وصل إليها في بلاد الشام جنوباً هي مرج ابن عامر<sup>(٣)</sup> .

ومن الواضح أن الحرب التي شنها البيزنطيون على المسلمين سنة ٩٧٥ لم تحقق هدفها الصليبي سوى تحقيقاً جزئياً . نعم إنها أدت إلى سيطرة الإمبراطورية البيزنطية على أطراف حوض نهر العاصي فضلاً عن دمشق وطبرية والجزء الشمالي من ساحل بلاد الشام ؛ ولكن الإمبراطور البيزنطي حنا شمشقيق ارتد مسرعاً قبل أن يؤمن هذه المكاسب ويصل إلى بيت المقدس ، ، فضلاً عن بناء طرابلس — ذات الموقع الهام — في أيدي الفاطميين . لذلك ظلت الفكرة السائدة طوال

---

(1) Grousset : Hist. de l'Arménie, p. 484 f. &

Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 148.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي : التاريخ ص ١٤٦

Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 148.

(3) Cam. Med. Hist. vol 4, p. 148, & vol. 5, p. 249.

عصر الحروب الصليبية هي أن الصليبيين الغربيين وحدهم هم أصحاب الفضل في استرداد بيت المقدس من المسلمين ، وليس للبيزنطيين أى فضل سابق في ذلك .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الحملات المبتورة التي قام بها الأباطرة البيزنطيون ضد المسلمين في القرن العاشر أدت إلى إشكالات ومناقشات قانونية طويلة فيما بعد ( ١٠٩٨ - ١٠٩٩ ) عندما اشتد النزاع بين البيزنطيين والصليبيين الغربيين حول ملكية المدن الكبرى ببلاد الشام . وإذا كان البيزنطيون قد استطاعوا إثبات حقهم الشرعي في ملكية أنطاكية بحكم فتحهم لها في القرن العاشر ، فإنهم لم يستطيعوا بحال من الأحوال تطبيق هذا المبدأ على طرابلس وبيت المقدس (٢) .

أما عن الإمبراطورية البيزنطية ، فإن الإمبراطور باسل الثاني - خليفة حنا الشمشيق - قنع بالسيطرة المباشرة على أنطاكية وسيادته غير المباشرة على حلب . وقد استطاع سعد الدولة الحمداني أن يتغلب على منافسيه داخل حلب ، ولكنه لم يستطع مقاومة النفوذ البيزنطي ، فاعترف هو الآخر بالتبعية للدولة البيزنطية . وربما رأى الحمدانيون عندئذ في تلك التبعية ضمانا كافيا لحمايتهم أنفسهم من مطامع الفاطميين (٣) .

وفي ذلك الدور أخذ الفاطميون يشددون هجماتهم على دمشق ، الأمر الذي جعل افتككين يستنجد بالحسن بن أحمد زعيم القرامطة . ولكن الخليفة العزيز الفاطمي خرج بنفسه إلى الشام - ومعه القائد جوهر - واستطاع أن يزل الهزيمة بتوات افتككين والقرامطة عند الرملة سنة ٩٧٨ ، وبذلك سقط افتككين ونجح الفاطميون في تثبيت نفوذهم في دمشق . وبعد أن نجح الفاطميون في بسط سيطرتهم

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. XV.

(2) Cam. Med. Hist. vol 5, p. 250.

على دمشق وجنوب الشام، شرعوا في القيام بعدة هجمات ضد حلب ، ولكن البيزنطيين هموا أميرها سعد الدولة ثم ابنه وخليفته سعيد الدولة أبو الفضائل<sup>(١)</sup> . وهكذا تطور النزاع بين الحمدانيين والفاطميين إلى نزاع بين البيزنطيين والفاطميين . ويبدو أن مشاغل باسل الثاني في البلقان — وبخاصة من ناحية البلغار الذين هددوا الامبراطورية عندئذ تهديداً خطيراً — جعلته يحرص على عدم الدخول في حرب مكشوفة ضد الفاطميين ، فسعى لعقد هدنة سنة ٩٨٧ لمدة سبع سنوات مع الخلافة الفاطمية ، وتعهد باطلاق سراح من لديه من أسرى المسلمين ؛ فضلا عن الدعاء للخليفة العزيز الفاطمي في جامع القسطنطينية<sup>(٢)</sup> . على أن هذه الهدنة لم تستمر طويلا ، إذ أمر الخليفة العزيز قائده منجوتكين بالزحف على حلب بعد قليل ، فتعرضت حلب لحصار الجيوش الفاطمية حتى اضطر صاحبها سعيد الدولة أبو الفضائل إلى الاستنجاد مرة أخرى بالامبراطور البيزنطي باسل الثاني ، فكتب إليه يستثيره ويقول : « متى أخذت أنطاكية أخذت حلب ، ومتى أخذت حلب ، أخذت قسطنطينية »<sup>(٣)</sup> وكان باسل الثاني قد فرغ عندئذ من مشاكلة في البلقان واطمأن مؤقتاً إلى جانب البلغار ، فحضر بنفسه إلى الشام سنة ٩٩٥ (٣٨٥ هـ) واستولى على شيزر من الفاطميين ، كما استولى على حصص ودمرها وكذلك أنطارطوس ، في حين صمدت طرابلس تلك المرة أيضاً واستطاعت حمايتها الفاطمية الدفاع عنها<sup>(٤)</sup> .

(١) قائمة الحمدانيين في حلب :

٩٤٤ — ٩٦٧	سيف الدولة أبو الحسن على
٩٦٧ — ٩٩١	سعد الدولة أبو المعالي شريف (الأول)
٩٩١ — ١٠٠١	سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد

( أنظر زامباور : معجم الأنساب ص ٢٠١ ) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥١ — ١٥٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي : كتاب التاريخ ص ١٦٦ .

ولكن لم يكد الإمبراطور باسل الثانى يرجع إلى بلاده ، حتى تمكنت الجيوش الفاطمية من إنزال هزيمة بحاكم أنطاكية البيزنطى ، مما استدعى عودة باسل الثانى إلى الشام سنة ٩٩٩ ، فاسترد شيزر ووطن فيها جالية من الأرمن ، وأحرق حمص واستولى على بعلبك . ولم يصادف باسل الثانى توفيقاً فى الأعمال الحربية التى قام بها بعد ذلك ضد المدن الساحلية ، كما فشل مرة أخرى أمام طرابلس<sup>(١)</sup> . وكان أن ارتد الإمبراطور البيزنطى إلى أرمينية ، وفى تلك المرة أتر عقد الصلح مع الفاطميين ليتفرغ مرة أخرى لخطر البلغار . وقد تم الصلح بين الطرفين فعلاً ، وإن ظلت العلاقة سيئة بين الإمبراطورية البيزنطية من ناحية والخلافة الفاطمية من ناحية أخرى بسبب سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله تجاه أهل الذمة . وهكذا ظلت العلاقات بين البيزنطيين والفاطميين تتحسن حيناً وتسوء أحياناً حتى قيام الحروب الصليبية<sup>(٢)</sup> .

والواقع أن جهود باسل الثانى فى الشام تعتبر خاتمة للحرب الصليبية التى قام بها البيزنطيون فى القرن العاشر ، وهى الحرب التى حالت دون امتداد النفوذ الفاطمى بالشام إلى ما وراء أنطاكية ، مع احتفاظ البيزنطيين بنوع غير واضح من السيادة على إقليم حلب . ويبدو أن سياسة التماس التى اتبعتها الدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر أدت إلى تمكين الفاطميين من فرض سيادتهم على حلب سنة ١٠١٥ ، وظل النفوذ الفاطمى قائماً فيها حتى استطاع أحد زعماء قبيلة بنى كلاب - وهو صالح بن مرداس - أن يطرد الفاطميين منها ويؤسس ملكاً لبني مرداس فيها سنة ١٠٢٣ (٣) . وقد ظل بنو مرداس يسيطرون على حلب

(1) Cam. Med Hist. vol. 4, p. 149 & Setrou : op' cit., I, ps. 75, 90.

(2) Vasiliev, op. cit; I, p. 311.

(٣) محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٢٥ ،

من سنة ١٠٢٣ حتى سنة ١٠٧٩ ، أى قرابة نصف قرن ، لم تبطل فيه المنازعات بينهم وبين الفاطميين بسبب السيادة على حلب . أما البيزنطيون فقد فقدوا كل نفوذ لهم فى حلب ، لا سيما بعد أن استطاع شبل الدولة المرداسى أن ينزل هزيمة بالجوش البيزنطية سنة ١٠٣٠ « وغنم المسلمون جميع ما كان معهم » (١) .

على أن أحد القادة البيزنطيين - وهو جورج مانيا كس Georges Maniakes حاكم سميساط - نجح فى أن يحول دون امتداد نفوذ بنى مرداس إلى أنطاكية (٢) ولم يلبث هذا القائد البيزنطي أن استغل فرصة المنازعات الداخلية فى الرها - حيث تولى الحكم فرع آخر من بنى كلاب - ليستولوا عليها من المسلمين سنة ١٠٣١ ، وعندئذ « قتل الروم المسلمين وخرّبوا المساجد » (٣) ولم تفلح النجدة السريعة التى أرسلها الفاطميون وبنو مرداس لإتقاذ الرها ، إذ تمكن القائد البيزنطي من تحقيق نجاح سريع بفضل المعونة الفعالة التى قدمها له أهل الرها من المسيحيين ، وهم خليط من السريان والنساطرة والأرمن . وهكذا ظلت الرها من الناحية العملية فى حوزة الإمبراطورية البيزنطية حتى وصول الصليبيين فى أواخر القرن الحادى عشر ، مما أثار حول ملكيتها مشكلة فقهية بين البيزنطيين والصليبيين ، لا تقل تعقيداً عن مشكلة أنطاكية .

على أنه يجدر بنا أن نشير إلى أن قوة الفاطميين لم تكن العامل الوحيد الذى صرف البيزنطيين منذ أوائل القرن الحادى عشر عن بلاد الشام ، وإما كان هناك عامل آخر يتمثل فى انشغال الإمبراطورية البيزنطية بشئون أرمينية . وكان ملوك أرمينية يحكم جوارهم للخلافة العباسية من ناحية وللدولة البيزنطية من ناحية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٢١ هـ .

(2) Cam. Med. Hist; op. cit, 4, p. 150.

(3) Vasiliev : op. cit; I. p. 312 &

ابن الأثير . الكامل ، حوادث سنة ٤٢١ هـ .

أخرى يقسمون ولا هم بين الطرفين<sup>(٦)</sup>. وعلى الرغم مما انتاب أرمينية من ضعف وانحلال سياسى ، إلا أن هذه المملكة بلغت فى أواخر القرن العاشر درجة من الرخاء لم تتحقق لدولة أخرى مجاورة فى الشرق . وقد ظهر أثر هذا الرخاء فى التقدم الحضارى الذى أحرزته أرمينية فى تلك الفترة ، وبخاصة فى ميادين العمارة والأدب والشعر وتدوين التاريخ...<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن هذا الرخاء كان من العوامل التى أغرت الإمبراطور البيزنطى باسل الثانى على السعى فى ضم أرمينية إلى ممتلكاته . وقد ساعد باسل الثانى على تحقيق غرضه المنازعات والخلافات الداخلية فى أرمينية من ناحية ، وتخوف الأرمن من الأتراك السلاجقة الذين أخذوا يهددون الحدود الشرقية لبلادهم من ناحية أخرى ، مما جعل أرمينية تلقى بنفسها بين أحضان الإمبراطورية البيزنطية ١٠٢١<sup>(٢)</sup> . وقد تبدو هذه الخطوة مصدر قوة للطرفين ، وضماناً لحماية أرمينية من خطر السلاجقة ، ولكن الحقيقة هى أن أرمينية ألفت عبئاً جديداً على الإمبراطورية البيزنطية ، فى الوقت الذى ترتب على وضع أرمينية الجديد عدم استطاعتها القيام بأى إجراء سريع لمواجهة الأخطار المهددة لها دون الرجوع إلى القسطنطينية ، مما جعلها طريقاً سهلاً مفتوحاً أمام الغزاة الوافدين من الشرق إلى جوف آسيا الصغرى .

### الحروب الصليبية فى الأندلس :

لم تعبر الروح الصليبية عن نفسها تعبيراً عملياً فى الشرق الأدنى فحسب ، بل ظهرت واضحة فى المغرب أيضاً ، حيث دارت منذ القرن الحادى عشر حرب بين

(1) Vasiliev : op. cit; vol. I, p. 314.

(٢) Grousset : Hist. de l'Arménie, p. 517 f.

(3) Ostrogorsky : op. cit; p. 278 & Vasiliev : op. cit; I, p. 315.

المسلمين والمسيحيين في الأندلس لم تنته إلا بعد عدة قرون بطرد المسلمين من أسبانيا .

ومن الملاحظات التي استرعت نظرنا أن المؤرخ ابن الأثير حرص على أن يفتتح كلامه عن الحروب الصليبية واستيلاء الصليبيين على أنطاكية سنة ٤٩١ هـ بالإشارة أولاً إلى الحروب بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس وصقلية ، مما يوضح أن هذا المؤرخ الواسع الأفق ربط ربطاً قوياً بين أطراف الحركة الصليبية في أسبانيا وصقلية وشمال إفريقيا والشام ، واتخذ الحروب الصليبية في الأندلس مدخلاً للحروب الصليبية بالشام (١) ،

والواقع إن إستيلاء المسلمين على أسبانيا في أوائل القرن الثامن للميلاد ، وإقامة دولة إسلامية قوية فيها ، كان أمراً لا يمكن أن ترضى عنه الكنيسة الغربية أو شعوب أوروبا المسيحية . فأسبانيا كانت من أولى البلاد الأوربية التي وصاتها المسيحية ؛ وغدت تحتل مكانة ظاهرة في العالم المسيحي الغربي بفضل ما صار فيها من أماكن مقدسة جعلت المسيحيين يحجون إليها من مختلف أنحاء الغرب الأوربي . لذلك ظلت القوى المسيحية في غرب أوروبا تتحين الفرصة المناسبة لاسترداد ذلك الجزء المفقود من الوطن المسيحي . وحسبنا ما قام به شارلمان من حرب ضد المسلمين في أسبانيا في أواخر القرن الثامن للميلاد ، وهي

---

(١) قال ابن الأثير الجزري في حوادث سنة ٤٩١ هـ : « وكان ابتداء ظهور دولة الفرنج واستبداد أمرهم وخروجهم إلى الإسلام وبلادهم واستيلائهم على بعضها — سنة ٤٧٨ هـ ، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس — وقد تقدم ذكر ذلك — ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها — وقد ذكرته أيضاً — وتطرفوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم ، ثم ملكوا غيره على ما تراه ، فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام » . (المكمل — حوادث سنة ٤٩١ هـ) .



الحرب التي حرصت أغنية رولان في القرن الحادى عشر على اكسابها طابعاً صليبيّاً واضحاً (١).

والمحوظ أن المسلمين في الأندلس لم يستطيعوا مطلقاً في وقت من الأوقات أن يسيطروا سيطرة تامة على جميع أنحاء شبه جزيرة أيبيريا ، وإنما ظلت بعض الجهات - وبخاصة في الشمال الغربى - خارجة عن نفوذ المسلمين ، قامت بها أربع دويلات مسيحية هى : مملكة ليون ومملكة نافارى وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة (٢) . ومن هذه الوحدات المسيحية انبعث الخطر الذى هدد المسلمين في الأندلس ، في الوقت الذى تدهورت الخلافة الأموية في قرطبة حتى سقطت فعلاً سنة ١٠٣١ (٣) . ولم يلبث أن بلغ التوسع المسيحى على حساب المسلمين بالأندلس درجة خطيرة في عهد ألفونس السادس (الأذفونش) ملك ليون وقشتالة (١٠٦٥ - ١١٠٩) ، وهو الذى أوغل في وادى نهر تاجة حتى استولى على مدريد ثم على طليطلة نفسها سنة ١٠٨٥ ، وبذلك خسر المسلمون معتقلاً من أهم معانقهم في الأندلس (٤) .

وكان لسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ دوى هائل في جميع أرجاء العالم المسيحى الغربى ، إذ استثار الشعور والحماسة لطرده المسلمين كلية من أسبانيا . أما في الجانب الإسلامى فإن ضياع تلك المدينة - التى هى « من أكبر البلاد وأحصنها » (٥) - هز المسلمين جميعاً في المشرق والمغرب ، وجعل مسلمى الأندلس يفكرون في طريقة فعالة لوقف الخطر المسيحى من ناحية واسترداد ما فقدوه من أراضي

(١) سعيد عاشور: أوروبا بالعصور الوسطى ج ١ ص ١٩٢ - ١٩٣ ، ج ٢ ص ٢٤٨

(٢) Tont : The Empire and the Papacy. p. 366.

(٣) Dozy : Spanish Islam, pp 589-592.

(٤) Chapman : A Hist. of Spain p. 72.

(٥) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٧٨ هـ .

وبلاد من ناحية أخرى . وهنا لم يتردد ملوك الطوائف في الاستعانة بالمرابطين في شمال إفريقيا ، وهم أقرب قوة إسلامية يمكنها أن تدفع خطر المسيحيين عن مسامى الأندلس<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن عبر يوسف بن تاشفين - ملك المرابطين - مضيق جبل طارق سنة ١٠٨٦ على رأس جيش كبير من البربر الأشداء، حيث التقى مع ألفونس السادس في موقعة الزلاقة في أكتوبر سنة ١٠٨٦ . وفي تلك الموقعة حلت الهزيمة ساحقة بالقشتاليين ، ففر ألفونس السادس مع فلول جيشه، تاركا خلفه عدة آلاف من القتلى والأسرى ، في حين قفل يوسف بن تاشفين راجعا إلى شمال إفريقيا<sup>(٢)</sup> .

وقد أدى تجدد الخطر المسيحي على المسلمين بالأندلس من ناحية ، واتساع الخلاف بين ملوك الطوائف المسلمين من ناحية أخرى إلى عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة ١٠٩٠ ليشن حربا على ملوك الطوائف المسلمين، فضلا عن المسيحيين . ولم يلبث المرابطون أن استولوا على بلاد الأندلس الإسلامية بأكملها، عدا مدينة طليطلة . وعندما دالت دولة المرابطين وحلت محلها دولة الموحدين في شمال إفريقيا ، فكر الموحدون - بوصفهم ورثة المرابطين - في ضم الأندلس إلى ملكهم ، واستطاع قائدهم عبد المؤمن أن ينجح في ذلك سنة ١١٤٦<sup>(٣)</sup> .

(1) Dozy : op. cit, p. p. 694-695.

(2) Cam. Med. Hist: vl 6, p. p 398-399, & Watts : Spain. P- 67 &

حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٧٦ .

(3) Cam. Modern Hist., vol. 6- p 407.

وفي ذلك الوقت كان المسيحيون في أسبانيا قد وجدوا بطلاً جديداً في شخص ألفونس الأول ملك أرغونه (١١٠٤ — ١١٣٤) . وقد استطاع ألفونس الأول هذا أن يواصل إغاراته العنيفة على المسلمين في الأندلس ، حتى وفاته أمام أسوار بلنسية سنة ١١٣٤<sup>(١)</sup> . ولم تقتصر جهود المسيحيين في تلك الفترة على ما قامت به أرغونه وملوكها ، إذ استطاع ريمون برنجار الرابع — كونت برشلونة — أن يغزو طرطوشة سنة ١١٤٨ . أما في الجبهة الغربية ، فقد تمكن ألفونس الأول ملك البرتغال من التوغل داخل الأراضي الإسلامية وراء نهر تاجة<sup>(٢)</sup> .

وثمة أهمية خاصة للجهود الصليبية التي قام بها ألفونس الأول هذا ضد المسلمين بالأندلس ، هي أنه استعان سنة ١١٤٧ بأسطول صليبي يحمل جماعة من الإنجليز والفرنكيين والألمان — كانوا في طريقهم إلى الشام للمشاركة في الحملة الصليبية الثانية — فاستوقفهم ألفونس الأول ، وتمكن بمساعدتهم من طرد المسلمين من لشبونة التي غدت عاصمة مملكة البرتغال الناشئة<sup>(٣)</sup> . وهكذا لم يقتصر ميدان الحروب الصليبية في ذلك العصر على المشرق والأراضي المقدسة ، بل شمل أيضاً المغرب وأسبانيا ؛ فأسهم الصليبيون الوافدون من إنجلترا وألمانيا في فتح لشبونة ، كما اشترك الصليبيون الفرنسيون في مساعدة برنجار كونت برشلونة وبروفانس ؛ هذا في الوقت الذي مد فرسان الداوية والاسبتارية نشاطهم إلى وادي نهر إيرو بأسبانيا ، فضلاً عن بلاد الشام<sup>(٤)</sup> . ولم تلبث هيئة الرهبان السترشيان أن أقامت لنفسها مركزاً في أسبانيا سنة ١١٤٩ ، حيث أقاموا قوة حربية للدفاع عن مصالحهم

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 470.

(2) Stephenson : Portugal, p. p. 18-19 & Chapman, op. cit. 76.

(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 194.

(4) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 133

من ناحية والحرب المسلمين من ناحية أخرى . ثم تكاثرت بعد ذلك في أسبانيا المنظمات الدينية ذات الصبغة العسكرية ، مثل هيئة القديس جوليان التي أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢ ، والتي اتخذت بعد ذلك — سنة ١٢١٨ — اسم منظمة القنطرة ، وذلك عندما استولى المسيحيون على بلدة القنطرة الواقعة على نهر تاجة واتخذها أولئك الفرسان مركزاً لنشاطهم <sup>(١)</sup> .

ولم تتردد البابوية في تشجيع تلك المنظمات التي نهضت في أسبانيا بالدور نفسه الذي قامت به الإسبترارية والداوية والتيتون في بلاد الشام . بل إن الفضل يرجع إلى البابا اسكندر الثالث والبابا أنوسنت الثالث في قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفتها أسبانيا ، وهي منظمة سنتياجو . وبفضل نشاط هذه الهيئات وجهودها اشتدت حماسة المسيحيين في حرب المسلمين في الأندلس ، كما أخذ الطابع الديني يغلب على هذه الحرب ليجعل منها حرباً صليبية مقدسة لا تقل أهمية في نظر الأوروبيين المعاصرين عن الحرب الصليبية الدائرة عندئذ في المشرق <sup>(٢)</sup> . وهكذا دخل الصراع بين المسيحيين في أسبانيا دوراً جديداً لم يعد فيه مجرد حروب محلية متفرقة بين حكام الفريقين ، وإنما أصبح صراعاً شاملاً بين حضارتين مختلفتين وديانتين سماويتين متباينتين ، ظلاً يتقاسمان النفوذ ويقنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبي الغربي من أوروبا طوال عدة قرون <sup>(٣)</sup> .

وفي هذه الحروب أظهر الموحدون مقاومة عنيفة ، حتى أنزلوا هزيمة ساحقة بألفونس التاسع ملك قشتالة في موقعة الأرك سنة ١١٩٥ <sup>(٤)</sup> . على أن البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) — وهو صاحب الفضل في إثارة الحماسة الصليبية

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 471.

(2) Chapman : op. cit. p. p. 94-96.

(3) Tout op cit. p. 471

(4) Cam. Med. Hist. vol. 6. p. 409.

في أسبانيا وتشجيع المتطوعين من أهالى البلاد الغربية على المشاركة في الحرب الدينية ضد المسلمين - لم يستطع أن يسكت على هزيمة الأرك . ولم يلبث هذا البابا أن أعلن الحرب الصليبية ضد مسلمى الأندلس ، فاجتمع عدد كبير من فرسان أوروبا للمشاركة في تلك الحرب تحت زعامة رئيس أساقفة نابون<sup>(١)</sup> . وكان أن تضافرت في تلك الحرب جهود ملك أرغونة وملك نافارى وملك قشتالة ، مما ساعد على إنزال هزيمة كبرى بالموحدين في موقعة العتاب سنة ١٢١٣<sup>(٢)</sup> .

ولم تقم قائمة للموحدين بعد ذلك بالأندلس ، فأخذت المدن والمعاقل الإسلامية تتساقط واحدة بعد أخرى في قبضة المسيحيين بحيث لم يبق للمسلمين في أسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة الصغيرة في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة . وفي تلك الرقعة الضيقة بين جبال نيفادا والبحر ، قدر لبتايا دولة المسلمين أن تعيش فترة أخرى من الزمان بلغت نحو من قرنين ونصف<sup>(٣)</sup> .

---

(١) Painter : op. cit. p 195.

(2) Cam Med Hist, vol 6, p. 410

(٣) لين بول : العرب في أسبانيا ص ١٨٤ — ١٨٥ .

## الفصل الثانى

### الأتراك وإحياء قوة المسلمين

ظهور الإسلامفة — طغرل بك :

فى الوقت الذى تنازعت السيادة على المسلمين فى الشرق الأدنى خلافتان ، إحداهما فاطمية شيعية والأخرى عباسية سنية ، وفى الوقت الذى ساءت أحوال هاتين الخلافتين ، الأولى بسبب سياسية الخليفة الحاكم بأمر الله وازدياد نفوذ الوزراء العظام ، والثانية بسبب تفاقم سلطان بنى بويه الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين سيطرة تامة ؛ فى ذلك الوقت ظهرت قوة فتية على مسرح الشرق الأدنى — هى قوة الأتراك — لتبث فى العالم الإسلامى روحا جديدة ، مما أدى إلى تغيير ميزان القوى مرة أخرى بين المسلمين والبيزنطيين فى الشرق الأدنى<sup>(١)</sup> .

والمحوظ أن بنى بويه اعتراهم الضعف منذ أواخر القرن العاشر للميلاد بسبب المنازعات بين أمراءهم . وكان ذلك عندما ظهرت قوة أخرى فى إيران — هى قوة الغزنويين الأتراك — الذين استطاعوا أن يقضوا على آخر الأمراء السامانيين سنة ٩٩٩ . ولم يلبث أن تمكن محمود الغزنوى (٩٩٨ — ١٠٣٠) من السيطرة على إقليم خراسان بأكمله ، كما اقتزع من البويهيين جزءاً من عراق العجم ، مما يشير إلى ازدياد نفوذ العنصر التركى فى العالم الإسلامى<sup>(٢)</sup> . وبينما واصل الغزنويون فتوحاتهم فى شرق إيران والهند ، إذا بقبيلة أخرى — هى

(1) Cam, Med. Hist, vol 4, p. 302.

(2) Setton : A Hist. of the Crusades, vol. 1, p. p. 139 - 140.

قبيلة السلاجقة - تخرج من منطقة الإستبس المحيطة ببحر آرال لتوغل في إقليم خراسان .

والسلاجقة قوم من الأتراك الغز ، نسبوا إلى جدّهم سلجوق بن تلقاق وعاشوا أول أمرهم في إقليم تركستان حتى نزحوا إلى بلاد الإسلام على حدود نهر سيحون ، وهناك اعتنقوا الديانة الإسلامية . وبعد وفاة سلجوق رحل السلاجقة إلى إقليم بخارى حيث ظلموا يتبعون الغزنويين تبعية غامضة ، حتى ثاروا عليهم في نهاية الأمر ، واستطاع زعيمهم طغرل بك الاستيلاء على نيسابور عاصمة خراسان سنة ١٠٣٨ (٤٢٨هـ) في الوقت الذي كان الغزنويون مشغولين عن تلك الأحداث بفتح حاتم الجديدة في الهند<sup>(١)</sup> . وأخيراً تنبه السلطان مسعود الغزنوي إلى خطر السلاجقة ، فحاول أن يقضى على ذلك الخطر ولكن بعد فوات الأوان ، إذ أنزل به طغرل بك الهزيمة في مابو سنة ١٠٤٠ وغنم السلاجقة « من العسكر السعدي ما لا يدخل تحت الإحصاء » ؛ وبذلك تمت سيطرة السلاجقة على خراسان ، واقتصر نفوذ الغزنويين على أفغانستان<sup>(٢)</sup> . وعندما أدرك مسعود الغزنوي أنه من الصعب إخضاع السلاجقة عن طريق القوة ، حاول استمالتهم ودفع خطرهم بالحيلة والسياسة ، فكتب إليهم يعدم « بالمواعيد الجميلة والخلع النفيسة ، وأمرهم بالرحيل إلى آمل الشط - وهي مدينة على جيحون - ونهاهم عن الشر والفساد » ولكن السلاجقة استخفوا بالرسول ، ولم يطمئنوا إلى نوايا السلطان مسعود ووعدوه ، وقالوا « نحن لا نطيعه ولا نثق إليه<sup>(٣)</sup> » .

وفي ذلك الوقت اختار بتمية زعماء السلاجقة من أسرة طغرل بك أن يعمل كل منهم لحسابه الخاص ، فأخذوا يتوسعون على حساب المسلمين والبيزنطيين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

(2) Cam. Mcd. Hist. vol 4, p. p. 303-304

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

جميعا ، ونجحوا فعلا في بسط سيطرتهم على أجزاء واسعة من فارس وشمال العراق وأرمينية وآسيا الصغرى . أما طغرل بك نفسه فقد نظم دولته الجديدة وأقر النظام فيها ، كما استولى على الرى سنة ١٠٤٢ — ١٠٤٣ ، وعلى أصبهان سنة ١٠٥٠ ، واتخذ الأخيرة حاضرة لدولته<sup>(١)</sup> . ومن ذلك المركز الجديد ، أخذ طغرل بك يتدخل في شئون الخلافة العباسية .

والواقع إن الخلافة العباسية كانت تمر عندئذ بمحنة قاسية ، بعد أن ظلت قرابة قرن — أى منذ سنة ٩٤٥ — ترزح تحت وصاية بنى بويه وسيطرتهم . ذلك أن بنى بويه عملوا على الحد من نفوذ الخليفة العباسي في بغداد ، فضلا عن البلاد الأخرى التابعة للدولة العباسية . ثم إن اعتناق بنى بويه للمذهب الشيعي وتعصبهم لذلك المذهب وإرغامهم السنين على الاشتراك في أعياد الشيعة ، كل ذلك أدى إلى انتشار الفتن المذهبية في العراق<sup>(٢)</sup> . وكان أمير الأمراء من بنى بويه في أواسط القرن الحادى عشر هو الملك الرحيم أبو النصر خسرو فيروز (١٠٤٨ — ١٠٥٥) ، الذى ترك مقاليد الأمور لفئة من أعوانه ، ظهر منهم رجل مغامر اسمه المظفر أبو الحرث أرسلان المعروف بالبساسيري<sup>(٣)</sup> . ولم يتورع البساسيري هذا عن تدبير مؤامرة للقضاء على الخلافة العباسية وإدخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية ، بل إنه راسل فعلا الخليفة المستنصر الفاطمي في هذا الشأن<sup>(٤)</sup> . وإزاء ذلك الخطر لم يسع الخليفة القائم بأمر الله العباسي سوى أن يستنجد بالسلاجقة السنين ، لمساعدته في إقراض الخلافة العباسية . وفي الوقت الذى قصد البساسيري

---

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٣٤ هـ ، سنة ٤٤٢ هـ .

(٢) يروى ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤٥ هـ ( في هذه السنة في الحرم زادت الفتنة بين أهل السكرخ وغيرهم من السنة ، وكان ابتداءها أواخر سنة أربع وأربعين فلما كان الآن عظم الشر وأطاحت المراقبة للسلطان واختلط الفريقين طوايف من الأتراك )  
(٣) وصفه ابن القلانسي (ص ٨٧) بأنه ( واحد من الثلمان الأتراك عظم أمره واستفحل شأنه ... واستولى على العباد والبلاد » .

(٤) جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٩٨ — ١٠٠ .



دار الخلافة في بغداد « ونهبها وأحرقها وتقض أبنيتها واستولى على كل ما فيها » سار طغرل بك إلى بغداد سنة ١٠٥٥ ليقضى على البساسيري ويقتله. وهكذا حل السلاجقة محل البويهيين في الوصاية على الخلافة العباسية « وتقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطرغل بك بجوامع بغداد ، فخطب له يوم الجمعة » <sup>(١)</sup>.

ولا شك في أن ما قام به طغرل بك من إنقاذ الخلافة العباسية والمذهب السني أضفى عليه مكانة خاصة في العالم الإسلامي. هذا إلى أن طغرل بك استطاع بتلك الخطوة أن يحقق للمسلمين قدراً كبيراً من الوحدة هم أحوج ما يكونوا إليها عندئذ؛ فصارت إيران والعراق تؤلف وحدة كبيرة دانت بالزعامة الروحية للخليفة العباسي وبالزعامة الدنيوية للسلطان السلجوقي <sup>(٢)</sup>. أما طغرل بك نفسه فقد خلع عليه الخليفة العباسي وأضفى عليه ألقاب التشريف ، كما زوجه الخليفة من ابنته <sup>(٣)</sup>. وهكذا تبدل الموقف في العالم الإسلامي عند وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣ ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٧ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol.4, p. 304

(٣) يلاحظ أنه إذا كان السلاجقة قد ظلوا في ذلك الدور الأول من تاريخهم قوة واحدة كبرى ، إلا أنهم لم يلبثوا أن انقسموا داخل هذا الإطار إلى خمسة بيوت :

١ — بيت طغرل بك وتسمى دولته دولة السلاجقة الكبرى ، وقد ملكوا خراسان والري والعراق والجزيرة وفارس والأهواز ، واستمرت دولتهم من سنة ١٠٣٩ (٤٢٩ هـ) حتى سنة ١١٢٧ (٥٢٢ هـ) عندما سقطت على يد الخوارزمية.

٢ — بيت سلاجقة كرمان ، وهم عشيرة قاروت بك بن داود بن ميسكائيل بن سلاجوق ، وهو أخو ألب أرسلان . واستمرت دولتهم من سنة ١٠٤١ (٤٣٢ هـ) حتى سقطت على يد الغز التتركان سنة ١١٨٧ (٥٨٣ هـ) .

٣ — سلاجقة عراق العجم وكرديستان ، وقد استمرت دولتهم من سنة ١١١٧ (٥١١ هـ) حتى سقطت على يد الخوارزمية سنة ١١٩٤ (٥٩٠ هـ) ،

٤ — سلاجقة الشام ، وهم من بيت تنش بن ألب أرسلان ، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٩٤ (٤٨٧ هـ) واستمرت حتى سنة ١١١٧ (٥١١ هـ) .

٥ — سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، وكانوا من بيت قنلمش بن إسرائيل بن سلاجوق ، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٧٧ (٤٧٠ هـ) ولم تسقط إلا على يد الأتراك العثمانيين سنة ١٣٠٠ (٧٠٠ هـ) وبذلك كانت أطول دول السلاجقة عمراً .

(٦ م - الحروب الصليبية)

فبعد أن كانت الامبراطورية البيزنطية تجدد على حدودها الشرقية في القرن العاشر دولة إسلامية منحلة سياسياً ، ومنقسمة على نفسها مذهبياً وحربياً ، إذا بالعنصر التركي الذي ظهر على مسرح الأحداث في القرن الحادى عشر ييث في الدولة الإسلامية ، روحاً جديدة وعزيمية قوية ، ويهيمىء للمسلمين في الشرق الأدنى قدراً من الوحدة مكنتهم من استئناف التوسع من جديد ، وبخاصة على حساب جيرانهم البيزنطيين .<sup>(١)</sup> وكان ذلك في الوقت الذي دخلت الدولة البيزنطية دور ركود جديد ، بعد الصحوه التي مرت بها في القرن العاشر ؛ مما أتاح فرصة مواتية للسلاجقة للتوسع على حساب البيزنطيين في آسيا الصغرى توسعاً آمناً مطرداً في القرن الحادى عشر .<sup>(٢)</sup>

على أنه ينبغي ألا نعتقد أن الغزو الساجوق لأراضى الدولة البيزنطية اتخذ طابعاً إجماعياً مفاجئاً . ف منذ النصف الأول للقرن الحادى عشر اعتادت الدولة البيزنطية أن تتعرض بين حين وآخر لغزوات قام بها بعض المغامرين من الأتراك السلاجقة ؛ أمثال ابراهيم بن أينال وقتلمش . من ذلك ما قام به إبراهيم بن أينال سنة ١٠٤٨ من غزو أرمينية - التي كان الأباطرة البيزنطيون قد ضموا إلى دولتهم كما سبق أن أوضحنا - فأوغل السلاجقة في الأراضى البيزنطية حتى وصلوا إلى ملاز كرد وأرزن وبلغوا طرابزون على شاطئ البحر الأسود ، وعندئذ أكثر السلاجقة من « القتل في الروم وهزمهم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقهم »<sup>(٣)</sup> . ومع ذلك فإنه يبدو أن طغرل بك لم يكن راغباً في فتح باب العداء عندئذ مع التسطيطينية ، فأمر باطلاق سراح القائد البيزنطى الذى أسره ابراهيم

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 302

(2) Vasiliev, op. cit., I, p. 355

(3) Grousset ; Hist. de l'Arménie, p. p. 595 - 596 &

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٤ هـ .



ابن أئينال<sup>(١)</sup> ، وأرسل بعثة إلى القسطنطينية ، لعقد الصالح<sup>(٢)</sup> . وليس معنى ذلك أن الأمور هدأت سريعاً بين السلاجقة والبيزنطيين ، إذ استمر المغامرون من السلاجقة يشعلون نار الحرب مع البيزنطيين ، فاجتاح السلاجقة إقليم قرس سنة ١٠٥٢ ، بل إن طغرل بك نفسه غزا أرمينية سنة ١٠٥٤ ودمر ما صادفه من قرى ومزارع فيما بين بحيرة فان وجورجيا وأرزن<sup>(٣)</sup> ؛ وإن كانت الجيوش البيزنطية لم تتمكن بأى حال من الاستيلاء على ما نذكرت ، فاكتمت بأن « حصرها وضيق على أهلها ، ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها »<sup>(٤)</sup> .

ومع أن الأتراك السلاجقة استطاعوا في عهد قسطنطين التاسع ( ١٠٤٢ - ١٠٥٤ ) مد إغاراتهم إلى جميع أنحاء أرمينية بغية السلب والنهب ، إلا أنهم لم ينجحوا في احتلال مركز قوى يثبتون فيه . على أن الموقف تغير عند ما اشتدت هجمات السلاجقة على أراضي الدولة البيزنطية بين سنتي ١٠٥٧ ، ١٠٨١ ، فاجتاحوا كبادوكيا ونهبوا ملطية ( أكتوبر ١٠٥٧ )<sup>(٥)</sup> . وفي سنة ١٠٥٩ أوغل السلاجقة حتى سيواس وذبخوا فريقاً من أهلها ثم عادوا محملين بالأسلاب والغنائم . ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن إغارات السلاجقة استمرت حتى وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣ تستهدف غالباً السلب والنهب دون أن يحاولوا الاستقرار وإقامة دولة لهم داخل أراضي الدولة البيزنطية<sup>(٦)</sup> .

(١) يذكر ابن الأثير أن طغرل بك أسر « قاربط ملك الأبخاز ، فبذل في نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بماية ألف فلم يجبه إلى ذلك » ( حوادث سنة ٤٤٠ هـ ) .  
(٢) ويقول المقرئ أن ملك الروم هو الذي أرسل يطلب الهدنة من طغرل بك وهدايه « وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك » ( السلوك ج ١ ص ٣٢ ) .

(3) Grousset ; Hist. de l'Arménie, p. p, 596 - 597.

(٤) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٤٦ هـ .

(5) Setton . op, cit., I, p. p. 144-147.

(6) Grousset ; Hist. des Croisades, I, p. XXX,

### ألب أرسلان وموقعة مانزكرت:

وبوفاة طغرل بك وقيام خليفته ألب أرسلان (١٠٦٣-١٠٧٢) مكانه في الحكم ، دخلت سياسة السلاجقة تجاه الدولة البيزنطية دوراً جديداً ، إذ غدت هذه السياسة تستهدف الاستيلاء على أراضي تلك الدولة وامتلاكها ، بدلا من مجرد القيام بإغارات محدودة للسلب والنهب . في سنة ١٠٦٥ استولى ألب أرسلان على آنى ثم على قرص ، وهما العاصمتان القديمتان لأرمينية ، والمركزان الأساسيان لقوة البيزنطيين ونفوذهم في الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى <sup>(١)</sup> . وبعد أن دمر السلطان ألب أرسلان مدينة آنى اضطر إلى العودة إلى فارس لينخضع بعض أقربائه الذين ثاروا ضده . ومنذ ذلك الوقت غدا الطريق مفتوحا أمام السلاجقة إلى داخل الأناضول ، بعد أن استولوا على قلب أرمينية ، فاستمروا منذئذ — دون أن يرتبطوا بخطة حربية معينة — يمتاحون القرى والضيايع ، متجنبيين بمقدر الاستطاعة المراكز القوية المحصنة ، حتى دمروا إقليم كابادوكيا بأكمله ، ثم وصلوا إلى قيصرية ففخروا بها سنة ١٠٦٧ ، واعتدوا على كنيسة القديس باسل <sup>(٢)</sup> . كل ذلك والامبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٩-١٠٦٧) جامد لا يتحرك ، ولا يحاول إنقاذ البناء الكبير الذي شيده أسلافه في القرن العاشر ، وبخاصة باسل الثاني .

على أنه لم يلبث أن تولى عرش الامبراطورية بعد ذلك رجل نشيط على جانب من الكفاية الحربية ، هو رومانوس الرابع (١٠٦٧-١٠٧١) فبدأ بإصلاح الأوضاع الداخلية في الدولة ، ثم أعاد تنظيم الجيش البيزنطي الذي غدت الفرق الأساسية فيه تتألف من جنود مرتزقة من النورمان الإيطاليين والتركمان الآسيويين

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٦ هـ .

(2) Vasiliev : op. cit., I, p. 355.

فضلا عن الفرنجة الغربيين . وبذلك الجيش غير المتجانس شرع الامبراطور رومانوس الرابع في استرداد الأناضول حتى الفرات شرقاً من جموع السلاجقة . وعلى الرغم من الظروف القاسية التي أحاطت برومانوس ومهمته ، إلا أنه نجح إلى حد كبير في تحقيق غرضه . هذا وإن كانت خفة الأتراك السلاجقة وسرعة حركتهم لم تمكنه من تنفيذ برنامجه وفق ما كان يشتهي <sup>(١)</sup> .

وقد سلك رومانوس الرابع طريق سيواس وقيصريّة للوصول إلى مرعش على الحدود بين الشام وقيليقية ( سنة ١٠٦٨ ) . ولم تسكد تنتهى تلك السنة حتى كان الامبراطور قد وصل إلى منبج « في عسكر كثيف » على الضفة الغربية لنهر الفرات - وهناك ترك حامية في أرتاح شرقي أنطاكية <sup>(٢)</sup> . ولكن جموع السلاجقة لم توقف نشاطها في تلك الأثناء ، وإنما واصلوا إغاراتهم المدمرة حتى نهبوا عمورية في قلب فريجيا ، وبذلك لم تعد أرمينية تقف حاجزا بين السلاجقة وقلب آسيا الصغرى ، وصارت مسالك تلك البلاد مألوفة لهم <sup>(٣)</sup> . على أنه إذا كان السلاجقة قد أوغلوا بهذه الصورة في قلب آسيا الصغرى ، إلا أنهم حرصوا دائماً على عدم الاصطدام بالجيش الامبراطوري ، حتى أنهم كثيراً ما كانوا يتركون خلفهم ما جمعوه من مغانم ومكاسب . ثم كان أن استطاع رومانوس الرابع - على الرغم من ثورة أحد زعماء النورمان المرتفة في قيليقية - أن يطارد السلاجقة حول قيصرية وأن يوغل في غرب أرمينية ، وإن كان قد قلل من شأن هذه الانتصارات الهزيمة التي أنزلها السلاجقة بحاكم ملطية البيزنطي ، ثم استيلاء السلاجقة على تلك المدينة . وفي سنة ١٠٧٠ أنزل السلاجقة هزيمة

(1) Ostrogorsky : op. cit: p. 304.

(2) Grousset ; Hist. de l' Armenie, p. 626. &

ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٣ هـ .

(3) Vasiliev : op. cit. I, p. 355

أخرى بالفائد البيزنطى مانويل كومنين قرب سيواس وأسروا ذلك القائد . هذا مع ملاحظة أن الرها — فى بلاد النهرين — ظلت طوال تلك الأثناء فى قبضة البيزنطيين ، فصمدت لجميع الهجمات التى تعرضت لها من جانب السلاجقة <sup>(١)</sup> .

أما ألب أرسلان فكان قد انتهى فى ذلك الوقت من تصفية المشاكل الداخلية فى دولته ، فعاد من إيران وقد صمم على اتباع سياسة الجهاد الدينى العالم ضد الروم . وكان أن استولى ألب أرسلان على ملاز كرد (مانزكرت) سنة ١٠٧٠ ، وهى تقع شمالى بحيرة فان ، وكانت من البقايا الأخيرة التى تبقت للدولة البيزنطية فى أرمينية ، ثم اتبع ذلك باسترداد ملطية مرة أخرى من البيزنطيين . وأخيراً قصد الرها « فحصرها فلم يظفر منها بطائل » ، وعندئذ اتجه ألب أرسلان على رأس قواته ضد حلب — وأميرها وقتئذ رشيد الدولة محمود المرداسى — فخضعت حلب للسلاجقة ، وأعلن بنو مرداس تبعيتهم لألب أرسلان الذى « خلع على محمود (المرداسى) وأعادته إلى بلده » <sup>(٢)</sup> .

وفى تلك الأثناء شرع رومانوس الرابع فى القيام بمحاولة جديدة لاسترداد أرمينية — وكان ذلك فى ربيع سنة ١٠٧١ — فخرج على رأس جيش ضخم يتألف من مائة ألف مقاتل ، وإن كان معظم هذا الجيش مؤلفاً من مرتزقة من النورمان والتركمان ، مما جعله مفتقراً إلى حسن التنظيم . وعند وصول رومانوس الرابع إلى أرزن ارتكب خطأ كبيراً بتقسيم قواته ، فأرسل جزءاً من جيشه لمهاجمة مدينة خالاط ، فى حين سار هو على رأس بنية الجيش تجاه مانزكرت واستولى عليها فعلاً . ولم يكده ألب أرسلان يسمع تلك الأخبار حتى ترك حلب قاصداً أرمينية ، حيث اتبع السياسة التقليدية للسلاجقة ، وهى تجنب الإصطدام

(1) Grousset : L'Empire de Levant, p. 165.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٦٣ هـ

بالجيوش البيزنطية . وعندما أرسل ألب أرسلان إلى الإمبراطور رومانوس الرابع يطلب مهادنته ، رد الإمبراطور قائلاً « لاهدنة إلا بالرى » أى أنه ينوى غزو بلاد السلاجقة حتى يصل إلى قلب دولتهم بالرى ؛ وعندئذ انزعج السلطان ألب أرسلان ، ولم يعد هناك مفر من القتال <sup>(١)</sup> .

وفي ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١ التقى ألب أرسلان بخصمه رومانوس الرابع جنوبى ملاز كرد ( مانزكرت ) ، وأعلى وجه التحديد بين مانزكرت وخلاط . وفي الموقعة الحاسمة التى دارت بين الطرفين حلت الهزيمة بالبيزنطيين ، ووقع الإمبراطور رومانوس الرابع نفسه أسيراً « وقتل من الروم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى » <sup>(٢)</sup> . ويقال إن الإمبراطور البيزنطى أبلى بلاء حسناً وحارب بشجاعة وبسالة حتى سقط فرسه قتيلاً من تحته ؛ ولكن الخيانة لعبت دورها عندئذ فى إضعاف قوة البيزنطيين ، إذ انفض عنهم جنودهم المرتزقة من التركمان واستجابوا لنداء رابطة الدم فانضموا إلى جانب السلاجقة . بل إن بعض القادة البيزنطيين تخلوا عن إمبراطورهم فى تلك اللحظة الحرجة فأشاعوا خبر الهزيمة والمعركة مازالت دائرة ، وعندئذ فر الجند تاركين الإمبراطور يقع فى قبضة أعدائه <sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن موقعة ملاز كرد ( مانزكرت ) كانت أكبر كارثة حلت بالإمبراطور البيزنطية حتى نهاية القرن الحادى عشر . وليس هذا مجال الإفاضة فى أثر الموقعة فى التاريخ البيزنطى ، وإنما تكفى الإشارة إلى أنها جاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية فى حماية المسيحية من ضغط الإسلام ؛ وفى حراسة الباب الشرقى لأوروبا من غزو الأسيويين ، وبذلك صار على الغرب

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٣٣ هـ .

(٢) المرجع السابق والسنة نفسها .

(3) Vasiliev : op. cit. I, p 356.



الأوربي أن يقوم بدوره في هذا المضمار بدلا من اعتماده حتى ذلك الوقت على الإمبراطورية البيزنطية . وبعبارة أخرى فإن موقعه مائز كرت تبرر — في نظر كثير من المؤرخين — ما حدث سنة ١٠٩٥ من دعوة للحرب الصليبية في الغرب الأوربي ، على أساس أن هذه الدعوة إنما جاءت رد فعل للكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١<sup>(١)</sup> .

على أنه ثمة حقيقة أخرى أ كسبت موقعة ملازكرد ( مائز كرت ) أهميتها الخطيرة في التاريخ ، هي أن المجتمع البيزنطي كان قد بلغ عندئذ درجة من الانحلال جعلته لا يقدر خطورة تلك الكارثة . حقيقة إن انتصار السلاجقة في ملازكرد كان لا يعنى — بالنسبة لأقبحهم الحدود في ذلك الوقت — أكثر من امتلاكهم أرمينية ثم أنطاكية والرها . وفي ضوء هذه الحقيقة عامل السلطان ألب أرسلان أسيره الإمبراطور رومانوس الرابع معاملة طيبة ، فأحسن وفادته ثم أطلق سراحه بعد ثمانية أيام من أسره ، وأعادته إلى بلاده معززا ؛ بعد أن جهزه بعشرة آلاف دينار يستعين بها على السفر<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن كل ما كان يطمع فيه ألب أرسلان هو أن تقف الإمبراطورية البيزنطية موقف الحياد إزاء جهود السلاجقة لتوحيد الدولة الإسلامية في الشرق الأدنى ، وأن يقوم الإمبراطور برد خصوم السلطان الفارين من وجهه إلى الأراضي البيزنطية<sup>(٣)</sup> . وهكذا بدلا من أن يستغل ألب أرسلان انتصاره في محاولة احتلال بقية آسيا الصغرى ، إذا به يتجه سنة ١٠٧٢

(1) Ostrogorsky, op. cit. p. 305

(٢) يروى ابن العبري أن ألب أرسلان عندما رأى الإمبراطور الأسير وبخه وقال له: « ألم أرسل لك في المهادنة فأبيت ؟ » فقال: دعنى من التوبيخ وافعل ما تريد. فقال السلطان « ما عزمت أن تفعل بى إن أسرتنى ؟ » فقال « القبيح ! » قال له : « فما تظن أننى أفعل بك ؟ » قال « إما أن تقتلنى وإما أن تشهرنى في بلادك ، والآخرى بعيدة وهى العفو وقبول الأموال واصطناعى نائباً عنك » . قال « ما عزمت على غير هذا » . ففداه بألف ألف دينار وأن يطلق كل أسير عنده من المسلمين . ( ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٨٥ ) .

(3) Setton : op. cit. ps. I; 149, Ig3.

إلى الأطراف الشرقية من دولته لإخضاع بلاد ما وراء النهر ( جيحون )<sup>(١)</sup> .  
ولكن البيزنطيين — بانشقاقهم وانقسامهم على أنفسهم — هم الذين وسعوا  
الخرق وضاعفوا من خطر الهزيمة ؛ فلم يكفهم ضياع أرمينية ، وإنما تسببوا في  
فتح أبواب آسيا الصغرى على مصاريحها أمام السلاجقة . ذلك أن أخبار كارثة  
ملازكرد لم تكد تصل إلى القسطنطينية حتى أعلن ميخائيل السابع امبراطورا  
( ١٠٧١ — ١٠٧٨ ) . وعند إطلاق سراح رومانوس الرابع ألقى القبض عليه  
وسملت عيناه ، وعلى تلك الصورة توفي رومانوس بعد ما أبداه من شجاعه في  
مانزكرت<sup>(٢)</sup> .

أما ألب أرسلان فقد قتل سنة ١٠٧٢ أثناء حروبه في بلاد ما وراء النهر  
( جيحون ) ، فخلفه ابنه ملكشاه ( ١٠٧٢ — ١٠٩٢ ) الذي ثبت دعائم دولة  
السلاجقة حتى اتسعت في عهده وامتدت من حدود الصين شرقا حتى بحر مرمرة  
غربا .<sup>(٣)</sup> ومع ذلك فإنه من الخطأ الاعتقاد في أن امتداد دولة السلاجقة غربا  
على عهد ملكشاه إنما جاء ثمرة جهوده الشخصية ، لأنه من الحقائق التي تسترعى  
انتباهنا أن هذا السلطان لم تطلأ قدمه أرض الأناضول ، وإنما قام بمواصلة  
الحرب ضد البيزنطيين أحد أقارب ملكشاه وهو سليمان بن قتلمش الذي تمكن من  
بسط نفوذ السلاجقة على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى تقريبا<sup>(٤)</sup> . وساعد سليمان

(١) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٣ — ٤٦٥ هـ .

(٢) Vasiliev : op. cit, I, p. 356.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٥ هـ . ابن العبري ص ١٨٦

(٤) حدث في أواخر أيام السلطان طغرل بك أن انشق عليه أحد أبناء عمومته  
وهو قتلمش بن إسرائيل بن سلاجوق ، ونزح إلى المنطقة الجبلية الواقعة جنوبي بحر قزوين ومعه  
بعض التركمان . ولم يلبث قتلمش أن أعلن الثورة على ألب أرسلان ، واختار أبناء قتلمش — ومع  
كل منهم عصبية من التركمان — أن يحتموا ببحال آسيا الصغرى وفيافها . وقد ظهر من هؤلاء  
الأبناء سليمان بن قتلمش الذي أخذ يعمل على التوسع في آسيا الصغرى لحسابه الخاص  
ضد ملكشاه والبيزنطيين جميعاً ؛ مما يعتبر مقدمة لدولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى .

« Setton ; op. cit, I p. 150 » .

ابن قنلمش في تحقيق سياسته الحالة التي أمست عليها آسيا الصغرى من انحلال اجتماعى ونقص فى السكان ، بعد أن هجر كثيرون أرضهم ، وبخاصة فى الجهات الشرقية والشمالية من شبه الجزيرة ، مما ترك الطريق مفتوحا أمام السلاجقة لاحتلال الضياع الخربة التى هجرها أصحابها من البيزنطيين فى آسيا الصغرى .

### توسع السلاجقة فى آسيا الصغرى :

ثم كان أن قامت حرب أهلية جديدة داخل الدولة البيزنطية ، مكنت السلاجقة من الاستيلاء على فريجيا وبيتينيا حتى بحر مرمرية ، ومن الاستيلاء على ليديا وأيونيا حتى بحر إيجه . وحسبنا دليل على انحلال أوضاع الامبراطورية البيزنطية فى القرن الحادى عشر أنه تولى عرش الامبراطورية فى مدى ست وخمسين سنة ( ١٠٢٥ - ١٠٨١ ) ثلاثة عشر امبراطورا منهم امرأتان ، بمعدل أربع سنوات تقريبا لكل امبراطور ، مما يشهد على حالة عدم الاستقرار التى كانت تعيش فيها الامبراطورية فى ذلك العصر . ثم إن جميع أولئك الآباطرة — باستثناء واحد أو اثنين — كانوا على قدر ضئيل من المقدرة والكفاية ، مما أتاح فرصة طيبة للطامعين من حكام المدن والولايات للثورة والاستقلال عن الحكومة المركزية فى القسطنطينية<sup>(١)</sup> .

وقد حدث فى مستهل سنة ١٠٧٨ أن خرج نفقور ( Nicephorus Botaneiates ) - حاكم إقليم عمورية فى فريجيا - على الأمبراطور ميخائيل السابع دوкас . ولم يتردد نفقور التأثير فى إعلان نفسه إمبراطورا باسم نفقور الثالث ، بل إنه استعان بالسلاجقة الذين تدفقوا على غرب آسيا الصغرى واستولوا باسم الحاكم التأثير على كثير من المدن مثل نيقية ونيقوميديا وخليقدونيا والبسفور . وكانت هذه أول مرة يحتل فيها السلاجقة نيقية بوصفهم حماة الأمبراطورية ، أى باسم الإمبراطور

(١) Chalandon ; Regue d'Alexis Comnenie, p. 1, f.

نقفور الثالث (١٠٧٨).<sup>(١)</sup> وإذا كانت تلك المدن قد ظلت من الناحية الشكلية تابعة للامبراطورية البيزنطية ، إلا أن الحاميات الامبراطورية الجديدة التي قامت فيها جاءت من نوع غريب ، إذ تألفت من رجال يدينون بالإسلام ويجدون لذة في الإغارة على القرى والضياع المجاورة للنهب والتدمير ، فضلاً عن أنهم قطعوا الاتصال بين القسطنطينية وداخلية الأناضول . ولم تكبد تنهيه سنة ١٠٧٨ إلا وكانت حامية نيقية الساجوقية قد رفعت راية العصيان في وجه نقفور الثالث الذي أقامها في تلك المدينة .<sup>(٢)</sup> وفي تلك المرة لم يعدم السلاجقة وسيلة للعثور على خائن بيزنطى جديد — اسمه نقفور أيضاً Nicephorus Melessenus — عمدة اتفاقية مع سليمان بن قتلش ، فتعهد الأخير بمساعدة الثائر في الاستيلاء على القسطنطينية مقابل حصول السلاجقة على نصف المدن والأقاليم التي سبق أن ساعدوا نقفور الثالث في الإستيلاء عليها<sup>(٣)</sup> .

وكان أن أقبل نقفور الثائر من كوس سنة ١٠٨١ ومعه جموع جديدة من السلاجقة ، فاحتلوا نيقية ويثينا بأكملها . وكان احتلال السلاجقة لتلك المراكز وغيرها نهائياً وثابتاً في تلك المرة . ولكن إذا كان السلاجقة قد باشرُوا نشاطهم الحربى عندئذ بوصفهم حلفاء لنقفور الثائر ، إلا أنه حدث في السنة نفسها (سنة ١٠٨١) أن صفت الامبراطورية مشاكلاً الداخلية بإعلان ألكسيوس كومنين امبراطوراً أوحداً ، ودخول نقفور الثائر في طاعة الامبراطور الجديد ، وعندئذ رفض السلاجقة وزعيمهم سليمان بن قتلش الاعتراف بأى حق للامبراطورية البيزنطية في المدن والأراضى التي احتلوها في آسيا الصغرى .<sup>(٤)</sup> وقد اختار سليمان بن قتلش الساجوقى مدينة نيقية لتكون مركزاً له ، وهى المدينة التي أصبحت

(1) Vasiliev : op. cit., I, p- 357.

(2) Ostrogorsky ; op. cit., p. p. 308-309

(3) Ostrogorsky : op. cit., p. 308

(4) Vasiliev. op. cit. I, p. 357.

أول عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم في الأناضول ، حتى حلت محلها قونية فيما بعد ( ١٠٨١ — ١٣٠٢ ) . كذلك خسر البيزنطيون في ذلك الوقت نيقوميديا التي لم يستطع الامبراطور ألكسيوس كومنين استردادها إلا بعد أن توفي سليمان سنة ١٠٨٦ م<sup>١</sup> . كان أن احتل الأتراك السلاجقة مدينة أزمير على بحر إيجه ، فقام أميرها التركي زاخاس بإنشاء أسطول مكنه من غزو الجزر الكبيرة القريبة من شاطئ آسيا الصغرى ، بل لتد هدد القسطنطينية ذاتها<sup>(١)</sup> . وفي الشمال الشرقى من شبه الجزيرة استطاعت أسرة دانشمند التركمانية تأسيس إمارة قوية حول قيصريه وسيواس وأماسيا ، وكانت هذه الإمارة مستقلة عن سلطنة الروم وتابعة للسلطان ملكشاه مباشرة<sup>(٢)</sup> . ولا شك في أن هذه الإمارات العديدة التي نشأت في ظل حركة التوسع السلجوقي ، والتي أخذت كل منها تعمل لحسابها الخاص تحت ستار سلجوقي عام ، أقول إن هذه الإمارات جعلت مهمة استرداد آسيا الصغرى صعبة وشاقة أمام المسيحيين<sup>(٣)</sup>

وهكذا كان الأتراك — عند قيام ألكسيوس كومنين امبراطوراً على الدولة البيزنطية سنة ١٠٨١ — هم السادة الحقيقيون في آسيا الصغرى من الفرات شرفاً حتى بحر مرمرة غرباً<sup>(٤)</sup> . على أنه من المهم أن نلاحظ أنه لم توجد وحدة تربط أولئك الأتراك ، وإنما ظل الأمراء المحليون — مثل زاخاس أمير أزمير ، ودانشمند في كابا دو كيا — لا يعترفون بالطاعة لسليمان بن قتلمش . وبعبارة أخرى فقد ظلت آسيا الصغرى دون سلطة سياسية موحدة تسيطر عليها حتى قيام سلطنة قونية سنة ١٠٩٢ على يد قلعج أرسلان الأول ، ابن سليمان<sup>(٥)</sup>

(1) Ostrugorsky : op cit, p 319.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p p. 170 - 173.

(3) Cam Med, Hist, vol. 4, p. 331

(4) Setton : op. cit: vol 1, p. 213.

(5) Cam. Med. Hist, vol. 4, p. p. 331-332.

أما سواحل آسيا الصغرى - السواحل الشمالية المطلة على البحر الأسود بما فيها طرابيزون ، والسواحل الجنوبية المطلة على البحر المتوسط حتى قيليقية - فقد ظلت في قبضة البيزنطيين . ولعله مما يسترعى انتباهنا أنه بينما كانت نيقية على مشارف البسفور بيد الأتراك السلاجقة منذ سنة ١٠٨١ ، فإن هناك مدن أخرى متطرفة في الشرق - في الشام مثل أنطاكية، وشرقي الفرات مثل الرها - بقيت تابعة للدولة البيزنطية ، فقامت بها حاميات بيزنطية وزعماء من الأرمن يعترفون بالسيادة للتسطنطينية ، واستمرت أنطاكية على ذلك الوضع حتى سنة ١٠٨٥ والرها حتى سنة ١٠٨٧<sup>(١)</sup>.

ولم تلبث أن أخذت المدن الكبرى في آسيا الصغرى تستسلم واحدة بعد أخرى للأتراك بعد أن خربت الأراضي المحيطة بها بسبب كثرة ما تعرضت له من هجمات، مما جعل كثيراً من أهالي المدن والضياع البيزنطيين يهجرونها ويتركونها قاعاً صيفياً ليحتلها الأتراك . ويبدو أن سليمان بن قتلمش حرر كثيراً من عبيد الأرض الذين كانوا يفلحون ضياع كبار الملاك البيزنطيين في آسيا الصغرى ، وبذلك اكتسب ولاء تلك الفئة التي طالما قاست الكثير من الاستعباد والظلم . ولعل هذه الحقائق كلها هي التي جعلت من الصعب على آل كومنين وعلى رجال الحملات الصليبية التي أخذت تغد من الغرب منذ أواخر القرن الحادى عشر استرداد أراضي الأناضول من الأتراك، بعد أن انتشرت فيها قبائل السلاجقة والتركمان وضربوا فيها خيامهم حتى غدت وكأنها قطعة من مراعى القرعيز<sup>(٢)</sup>.

---

(1) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. 12

(2) Grousset : L'Em ,

## الفصل الثالث

### الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادى عشر

#### النورمانه فى آسيا الصغرى :

استعان الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع بمجموع من النورمان المرتزقة ،  
الوافدين من صقلية وجنوب إيطاليا ، وكان يرجو أن يتمكن بفضل هذه القوة من  
صد خطر السلاجقة فى آسيا الصغرى<sup>(١)</sup> . وقد برز من هؤلاء للغامرين النورمان  
رجل طموح اسمه رسل باليل *Roussel de Bailleul* أراد أن يستغل الصراع  
بين البيزنطيين والسلاجقة فى الشرق لتحقيق مكاسب خاصة لنفسه ، ففكر  
فى إنشاء دولة مستقلة فى الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً<sup>(٢)</sup> .  
ولم يلبث رسل باليل أن أعلن عصيانه سنة ١٠٧٣ فأخضع لحسابه الخاص الجبهات  
المحيطة بقونية وأقره ، وأخذ يوجه هجماته ضد البيزنطيين حيناً والسلاجقة أحياناً .  
وهكذا وجد القائد البيزنطى اسحق كومنين - الذى كان مكلفاً بمحاربة السلاجقة  
فى آسيا الصغرى - نفسه بين نارين مما أوقعه أسيراً فى قبضة السلاجقة<sup>(٣)</sup> .

ولم يستطع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع السكوت عن خيانة رسل ،  
وهو المفروض أن يكون أجيراً للامبراطورية خاضعاً لها مطيعاً لأوامرها ، فأرسل  
الإمبراطور حملة جديدة ضد رسل بقيادة حنادوقاس عم الإمبراطور . ولكن هذه  
الحملة منيت هى الأخرى بالهزيمة جنوبى عمورية ، وأسر القائد البيزنطى تلك المرة

(1) Sefton : op, cit. I, p. 200

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance I, p. 283

(3) Schumberger : Recits de Byzance et des Croisades, p. 82.

أيضاً<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن ازداد بأس رسل وبطشه بعد أن شعر بقوته وتفوقه على الإمبراطورية الهزيلة ، فشق طريقه إلى البسفور في مواجهة القسطنطينية ؛ حيث أحرق بعض القرى البيزنطية . ثم إن رسل لجأ إلى إعلان أسيره حنا دوقاس إمبراطوراً حتى يكسب نفسه وحكمه صبغة شرعية<sup>(٢)</sup> .

وهنا خشي الامبراطور ميخائيل السابع أن يفعل النورمان بالأناضول مثلما فعلوا في البلقان ، لذلك استنجد بالسلاجقة ضد النورمان مما أنزل أبلغ الضرر بالنفوذ البيزنطي ، لما ترتب على ذلك من تثبيت أقدام الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى<sup>(٣)</sup> . ذلك أن سليمان بن قتلش عقد اتفاقية مع الامبراطور البيزنطي سنة ١٠٧٤ تعهد فيها السلاجقة بتقديم المساعدة المطلوبة للإمبراطورية ، بشرط استيلائهم على الأراضي التي يفتحونها . ولم يكن مع رسل دى باليل أكثر من ثلاثة آلاف من المغامرين النورمان ، فلم يستطع الصمود في وجه السلاجقة وحلت به الهزيمة ، وإن كان قد استطاع أن يحتفظ لنفسه برقعة ضيقة من الأرض قرب سيواس ، ومن هناك أخذ يحاول مرة أخرى ضرب البيزنطيين بالسلاجقة وتهديد موانئ البحر الأسود . وصادف عندئذ وصول قائد ساجوق جديد إلى الأناضول — هوتش — الذي أخذ بدوره يساعد البيزنطيين ، فاستدرج رسل باليل حتى قبض عليه ثم سلمه للقائد البيزنطي الجديد في آسيا الصغرى ، وهو ألكسيوس كومنين الذي غدا امبراطوراً فيما بعد<sup>(٤)</sup> .

وهكذا استسلم أتباع رسل من النورمان في آسيا الصغرى ، وفشلت تلك المحاولة التي قام بها النورمان لإقامة دولة لهم في الأناضول ، وذلك قبل أن يقيم

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 307.

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 284

(3) Schlumberger : Recits de Byzance, p. p. 84 - 85

(4) Brehier : op. cit. p. 284



الصلبيون النورمان إمارتهم في أنطاكية بعشرين سنة . ومهما يكن من أمر ، فإن أهمية حركة رسل باليل ترجع إلى كونها أول محاولة قام بها بعض الغربيين لتثبيت أقدامهم في الشرق الأدنى في عصر الحروب الصليبية ، فضلا عما ترتب عليها من ازدياد نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى (١) .

### دولة الأرمن الأولى في طوروس :

اتخذت حركة انتشار السلاجقة في آسيا الصغرى اتجاهها أقيماً من الشرق إلى الغرب ، عبر أرمينية وكبادوكيا وفريجيا وبثينيا وأيونيا ، حتى شملت جميع الجهات الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة . أما الأقاليم الجنوبية والشرقية من آسيا الصغرى — حول طوروس وملطية ثم الرها وأنطاكية — فلم يتجه إليها السلاجقة في أول الأمر ، مما أدى إلى عزل تلك المنطقة عن بقية بلاد الإمبراطورية البيزنطية ، ثم وقوعها بين شقي الرعي في الصراع التأم بين البيزنطيين والسلاجقة في آسيا الصغرى . ولم تلبث هذه الأقاليم أن أصبحت مركزاً لحركة إحياء أرمينية فريدة في نوعها وذات أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ، لأنها تفسر لنا السهولة التي استطاع بها الصليبيون بعد عشرين سنة الوصول إلى الجزيرة والشام والاستيلاء على الرها وأنطاكية (٢) .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد منحت ملوك أرمينية وأمراءها ضياعاً واسعة في إقليم كبادوكيا ، مما ترتب عليه هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى ذلك الإقليم في شرق آسيا الصغرى (٣) . ولكن توسع الأتراك السلاجقة في كبادوكيا واستقرارهم في ذلك الإقليم ، جعل أولئك الأرمن يبحثون عن مأوى

(١) Grousset : L'Empire du Levant p. p. 168-169

(٢) Grousset : Hist. de l'Arménie, p. 554.

(٣) Setton : op. cit p. 179.

جديد، فاتجهوا نحو إقليم قيليقية الجبلى فى جنوب شرق آسيا الصغرى، وتركزوا فى الجهات المحيطة بملطية والرها وأنطاكية (١).

وليس هناك من شك فى أن تلك الهجرة الأرمينية ترتب عليها تغيير معالم المنطقة، فضلاً عن أن الحكومة البيزنطية — رغم عداؤها التتليدى للأرمن بسبب الخلاف المذهبي بين الكنيستين (٢) — استطاعت أن تجد فى ذلك الركن الجنوبي الشرقى من آسيا الصغرى جنوداً اعتمدت عليهم فى مواجهة الغزو الساجوقى. ويأتى فيلاريتوس براخاموس Philaretos Brakhamios (٣) على رأس زعماء الأرمن الجسورين الذين أفادوا من عجز الإمبراطورية البيزنطية عن حماية أراضيها فى جنوب شرق آسيا الصغرى. وكان هذا القائد الأرمنى قد عمل تحت قيادة الإمبراطور رومانوس الرابع، حتى إذا ما حلت هزيمة مانزكرت بذلك الإمبراطور سنة ١٠٧١، رفض فيلاريتوس الاعتراف بالإمبراطور الجديد ميخائيل السابع (٤).

وهنا يلاحظ أن الأرمن فى شرق آسيا الصغرى استنخفوا بالبيزنطيين بعد هزيمة مانزكرت سنة ١٠٧١. وفى الوقت نفسه عمل الأرمن على استرضاء السلاجقة بقدر المستطاع ومهادنتهم (٥). ولم يلبث فيلاريتوس أن دعم مركزه حول مرعش ورعبان والإبلستين، حيث أقام إمارة قوية مستقلة عن الحكومة البيزنطية، ازدادت منعة بعد أن نجح فى استرداد ملطية التى كان السلاجقة قد استولوا عليها سنة ١٠٦٩. وعندما ظهرت قوة فيلاريتوس واتضحت أهميته، دخل فى تبعيته بعض زعماء الأرمن المجاورين؛ الذين كانوا بدورهم قد انتزعوا أجزاء متفرقة من قيليقية. وهكذا أصبح فيلاريتوس يسيطر على ثلاث مدن رئيسية

---

(1) Iorga : L'Arménie Cilicienne p. p. 87 - 88

(2) Idem, p 89.

(٣) أطلق عليه ابن الأثير اسم القلادروس ( السكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ )

(4) Brehier: op. cit. p. 284,

(5) Cam. Med. Hist, vol, 2, p. 260

في قيليقية، هي طرسوس والمصيصة وعين زربة. وفي سنة ١٠٧٧ أرسل فيلاريتوس أحدر جاله للاستيلاء على الرها من البيزنطيين، فحاصرها ستة أشهر، حتى استسلمت له المدينة أخيراً بفضل مساعدة من بداخلها من الأرمن. أما أنطاكية فقد قتل آخر حاكم بيزنطى عليها سنة ١٠٧٨، فخشي أمراء المدينة وأهلها — ومعظمهم من الأرمن — أن يستولى السلاجقة المسلمون عليها؛ ولذلك سلموها مختارين لفيلاريتوس<sup>(١)</sup>.

والواقع إن المسيحيين في أنطاكية والرها وغيرها من المدن والأقاليم الشرقية التابعة للدولة البيزنطية، وجدوا أنفسهم وسط محيط واسع من الأتراك السلاجقة، بعد أن قطع الطريق بينهم وبين قلب الامبراطورية البيزنطية، مما تعذر معه وصول نجدات إليهم من القسطنطينية. لذلك لم يجدوا أمامهم مخرجاً سوى تكوين إمارات صغيرة مستقلة تحت زعامة الأرمن وقيادتهم، وهم الفريق الوحيد بين المسيحيين الشرقيين في تلك المنطقة الذين احتفظوا بكيانهم وروحهم الحربية<sup>(٢)</sup>.

وهكذا وضع فيلاريتوس أساس دولة أرمنية جديدة في جنوب شرق آسيا الصغرى، وهى الدولة التى اكتمل نموها فيما بعد — أى في القرن الثالث عشر — على عصر روبان وهيثوم ملوك أرمنية الصغرى<sup>(٣)</sup>. حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين — وأعلى وجه التحديد — الثلاثة الأوائل من آل كومنين (١٠٨١-١١٨٠) استردوا جزء من تلك الدولة الأرمنية التى وضع أساسها فيلاريتوس؛ ولكن ذلك لم يحل دون استمرار دولة الأرمن في طوروس<sup>(٤)</sup>. ولم يلبث الامبراطور تقيفور الثالث (١٠٧٨-١٨٠١) أن اتبع سياسة حكيمة استهدفت تدعيم

(1) Brehier : op. cit. p. 285.

(2) Grousset : L'Empire du Levant. p. 180

(3) Loga : L'Arménie Cilicienne. p. 89.

(4) Vasiliev : op. cit. vol. 2. p. 415.

العلاقات الطيبة مع ذلك الزعيم الأرمني ، في الوقت الذي أظهر فيلاريتوس من جانبه إعتدالا وحكمة ، فاعترف بسيادة الامبراطورية ، وإن كان قد ظل مستقلا من الناحية العملية . ثم إن فيلاريتوس كان حذراً تجاه جيرانه المسلمين ، فاعترف في حكمه للجهات القريبة من الموصل بالتبعية لبني عقيل ؛ وهم أمراء الموصل العرب <sup>(١)</sup> . ويذكر المؤرخ ميخائيل السرياني أن فيلاريتوس أراد أن يؤمن ممتلكاته من ناحية السلطان ملكشاه أيضا ، وأنه كان مستعدا - إذا دعى الأمر - لاعتناق الإسلام في سبيل خدمة مصالحه الخاصة <sup>(٢)</sup> .

على أن السلاجقة كانوا لا يمكن أن يفضوا البصر تماما عن تلك الإمارة الأرمنية التي اعترضت طريق توسعهم إلى الشام . لذلك انتهز سليمان ابن قتلمش الساجوقى فرصة الاضطراب الذي حدث في دولة فيلاريتوس نتيجة لتآمر ابنه ضده ، وباغت أنطاكية « وملكها سرقة » سنة ١٠٨٥ ، أى قبل استيلاء رجال الحملة الصليبية عليها بثلاث عشرة سنة <sup>(٣)</sup> . وهنا نلاحظ أن قصر المدة بين استيلاء السلاجقة المسلمين على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وفتح الصليبيين لها سنة ١٠٩٨ أمر له دلالة بالنسبة لدارس تاريخ الحروب الصليبية ، لأن تلك الفترة القصيرة لم تكف لمحو معالم الحكم البيزنطى وإزالة بقايا الإدارة البيزنطية

(١) سبطار العقيبايون على الموصل سنة ٩٩٦ على يد الأمير حسام الدين المقدسى ، وظلوا يحكمون هذه المدينة حتى سنة ١٠٩٦ عندما انتزعها منهم كربنسا ( لربوقا ) الساجوقى . وفي الفترة التي تسلك منها كان حاكم الموصل من بني عقيل وهو شرف الدولة أبو المكارم مسلم أمير الموصل من سنة ١٠٦١ حتى ١٠٨٥ .

(٢) كذلك يؤكد المؤرخ ابن الأثير أن فيلاريتوس ( القلادروس ) مثل بين يدي السلطان ملكشاه ، وأن الأخير « أمره على أنرها فلم يزل عليها حتى مات وأخذها الأمير نزار ( بزاق ) » .

( الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٠ هـ ) .

(٣) ابن الفلانى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٧ .

من المدينة ، مما جعل الدولة البيزنطية تتمسك بحقوقها الشرعية في أنطاكية ، وتصر على ذلك الحق منذ اليوم الأول الذي قامت فيه إمارة أنطاكية الصليبية<sup>(١)</sup>

وثمة ملاحظة أخرى هي أن الإمارة الأرمينية التي أقامها فيلاريتوس لم تندثر تماماً من صفحة التاريخ في عصر الحروب الصليبية ، لأنه في الوقت الذي سقطت أنطاكية في أيدي المسلمين ثم الصليبيين ، احتفظ أحد الأرمن من رجال فيلاريتوس — واسمه جبريل — بملطية ، وإن كان قد أعلن ولائه للسلطنة<sup>(٢)</sup>. ومثل ذلك حدث أيضاً في الرها ، فباستثناء فترة قصيرة احتل فيها الأمير التركي بوزان ( ١٠٨٧ — ١٠٩٤ ) مدينة الرها ؛ استطاع ثوروس — وهو قائد أرمني آخر كان أبوه من رجال فيلاريتوس — أن يحكم المدينة حتى وصول الصليبيين<sup>(٣)</sup> حقيقة إن تنقش — أخو السلطان ملكشاه — استولى على الرها سنة ١٠٩٤ ، ولكنه أقر ثوروس في حكم المدينة<sup>(٤)</sup>.

وهكذا مهد الحكم الأرمني في شرق آسيا الصغرى وأطراف العراق والشام لحكم الصليبيين الغربيين ، كما سيتضح لنا عند دراسة تاريخ الحملة الصليبية الأولى وتأسيس إمارة الرها الصليبية سنة ١٠٩٧ . كذلك مهد ذلك الحكم الأرمني لنشأة مملكة أرمينية الصغرى الصليبية في أواخر القرن الثاني عشر ، وهي المملكة التي قامت في الركن الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى ، ونهضت بدور بارز في تاريخ الحروب الصليبية بل في تاريخ الشرق الأدنى في تلك الحقبة ، كما سنشرح ذلك بالتفصيل فيما بعد .

(1) Grousset : Hist. des Croisades I. p. XL III.

(2) Setton, op. cit., I. p. 299

(3) Chalandon : Hist. de la Première Croisade, p. 175 &

Runciman : A Hist. of the Crusades, I. p. 75.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦

### السلامة وبلاد الشام :

يلاحظ أن استيلاء الأتراك على أنطاكية لم يتم دون إثارة عدة خلافات في صفوف المسلمين في الشرق الأدنى . ذلك أن فيلاريتوس رضى بأن يحكم أنطاكية بوصفه تابعا للأمير الموصل شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ، وأن يدفع لهذا الأمير جزية ، إشارة لتلك التبعية . ويبدو أن شرف الدولة أراد أن يستفيد من حالة عدم الاستقرار السائدة في المنطقة المحيطة به لإقامة دولة قوية تمتد من كردستان إلى شمال الشام ؛ ولذلك تحالف مع السلاجقة سنة ١٠٧٨ للاستيلاء على حلب من بني مرداس ، وهم القبيلة العربية المنافسة الذين ظلوا يحكمون حلب منذ نصف قرن <sup>(١)</sup> .

وفي ذلك الوقت حضر إلى الشام الأمير السلجوقي تاج الدولة أبوسعيد تنش ابن السلطان العادل ألب أرسلان ، وأخو ملكشاه <sup>(٢)</sup> . وكان سبب حضوره إلى الشام أن أخاه ملكشاه « أقطعه الشام ومايفتحه في تلك النواحي » <sup>(٣)</sup> . وكان أن بدأ تنش بمحاصرة حلب بمساعدة الأمير شرف الدولة مسلم ، ولكن مسلم لم يلبث أن أدرك خطورة سياسته لما يترتب عليها من تثبيت أقدام السلاجقة في بلاد الشام . لذلك أسرع مسلم العقيلي إلى التخلي عن تنش الذي لم يستطع الاستيلاء على حلب بمفرده فرفع الحصار عنها وأجبه جنوبا صوب دمشق .

وقد أسرع مسلم من الاستفادة من الموقف في شمال الشام عقب انسحاب تنش ، فاستولى على حلب سنة ١٠٧٩ من صاحبها سابق المرداسي ، وبذلك أصبح مسلم

---

(١) كان أمير بني مرداس في حكم حلب عندئذ هو أبو الفضائل سابق بن محمود ، وهو آخر أمراء تلك الأسرة (١٠٧٦ - ١٠٧٩) .

(٢) انظر زامباور : معجم الأنساب والأمراء الحاكمة ص ٢٠٤ .

(٣) ياقب ابن القلانسي تاج الدولة تنش بلقب السلطان (ذيل تاريخ دمشق ص ١١٢) .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣١ ، ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٤٧١ هـ .

العقيلي سيد حلب والموصل، واعتقد أن في استطاعته مقاومة السلاجقة والحد من نفوذهم. ثم إن الأمير مسلم لم يكتف بأب خدع تنش أخا السلطان ملكشاه واستولى على حلب عن طريق تلك الخدعة، وإنما دخل أيضاً في صراع مكشوف مع سليمان بن قتلمش الذي سبق أن رأينا جهوده في فتح الأناضول. ذلك أن سليمان استولى في أوائل سنة ١٠٨٥ على أنطاكية من فيلاريتوس، وهي المدينة التي أدعي بنو عقيل أحقيتهم في ملكيتها، وبذلك بدأ الصراع بين سليمان بن قتلمش من جهة والأمير شرف الدولة مسلم من جهة أخرى، وهو الصراع الذي لم ينته إلا باستيلاء السلاجقة على الشام<sup>(٣)</sup>. وقد دارت معركة ضخمة بين الطرفين المتنازعين قرب أنطاكية في صيف سنة ١٠٨٥ انتهت بهزيمة الأمير مسلم ومقتله، وعندئذ اتجه سليمان بن قتلمش مباشرة لحصار حلب<sup>(٢)</sup> التي قاومت الحصار بقيادة الشريف حسن الحنيتي<sup>(٣)</sup>.

أما تنش — أخو ملكشاه — فكان في تلك الأثناء قد استولى على جزء كبير من بلاد الشام، فاتجه بعد فشله في الاستيلاء على حلب إلى دمشق سنة ١٠٧٩ حيث وجد أنصارا للسلاجقة.

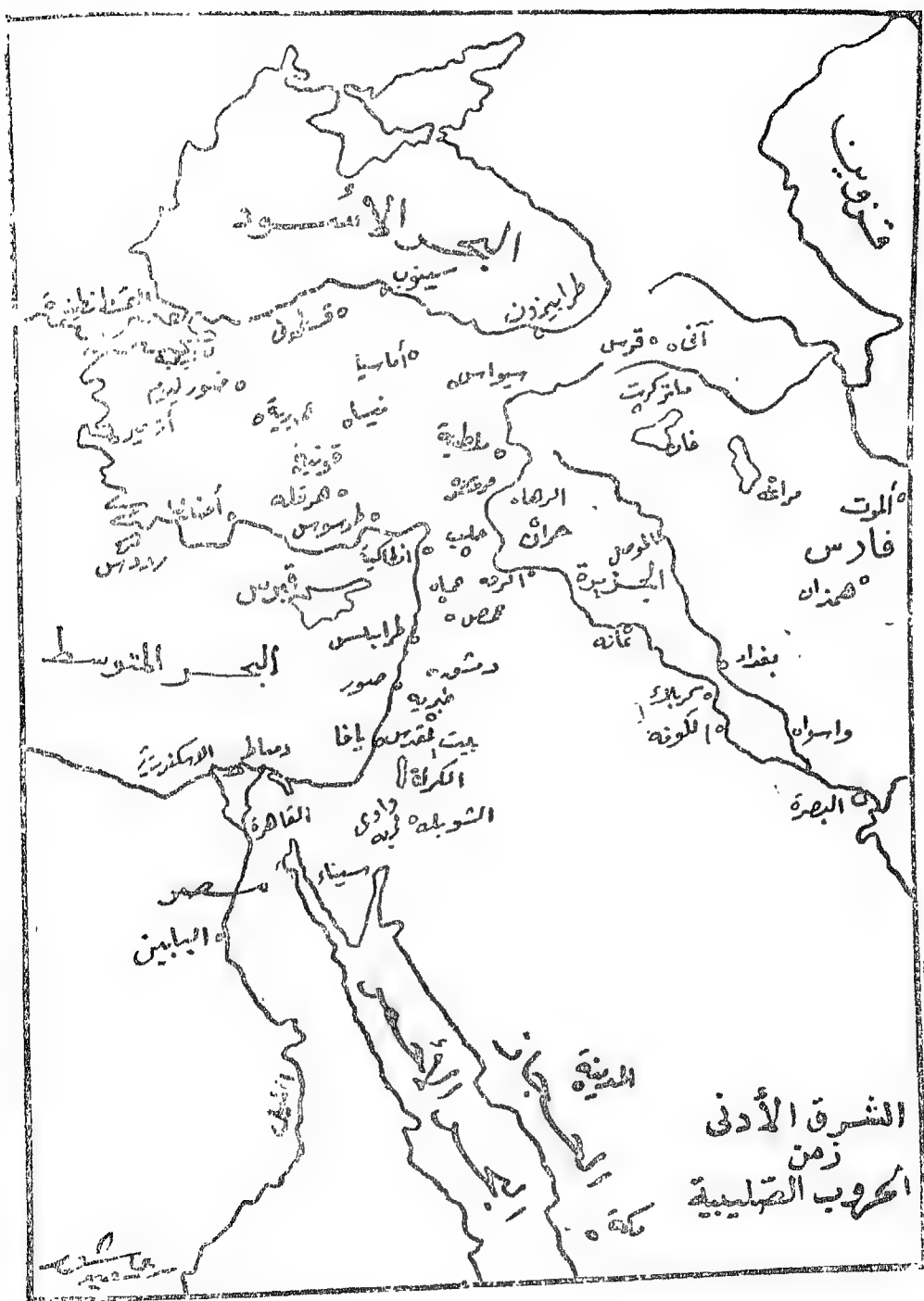
ذلك أن أحد القادة الأتراك من أتباع السلطان ألب أرسلان — واسمه أئسز ابن أوق — كان قد قام قبل ذلك بسبع سنوات بغزو فلسطين ودمشق لحسابه الخصاص<sup>(٤)</sup>. ولم تنته سنة ١٠٧١ إلا وكان أئسز قد استولى من الفاطميين على الرملة وبيت المقدس وفلسطين بأكملها، عدا أرسوف. وفي سنة ١٠٧٥-١٠٧٦ استولى أئسز أيضاً على دمشق والمنطقة المحيطة بها. وعندما ثارت بيت المقدس

(1) Setton : op. cit. I, p. p. 150-152.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٩١ -- ٩٢ (مطبوع)

(٣) وهو الشريف أبو علي الحسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحنيتي.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ — ٩٩.





ضده وأعلنت تبعيتها للخليفة الفاطمي ، أخضعها أئسز في عنف وأحدث فيها  
مذبحة رهيبة سنة ١٠٧٦ - ١٠٧٧

على أن أئسز لم يلبث أن فشل في محاولته غزو مصر سنة ١٠٧٧ بعد أن  
تصدى له أمير الجيوش بدر الجمالي وأنزل به الهزيمة<sup>(١)</sup> . ويبدو أن هذا النصر  
الذي أحرزه بدر الجمالي شجعه على إرساله حملة لاسترداد دمشق ، فشرع الفاطميون  
في حصارها فعلا ، في الوقت الذي أخذ تتش يزحف من حلب إلى دمشق ، مما  
جعل الداطميين يؤثرون الانسحاب ، في حين رحب أئسز بتمقدم تتش « وخدمه  
وبذل له الطاعة والمناصفة وسلم البلد إليه »<sup>(٢)</sup> . ومع ذلك ، فإن تتش لم يرض  
بأن يكون أئسز إلى جانبه في دمشق ، ففكر في التخلص منه ، وقتله فعلا سنة  
١٠٧٩ ، وبذلك لم يعد هناك من ينافس تتش في دمشق « فأحسن السيرة في أهله  
وعدل فيهم » . وبذلك صار تتش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام ،  
وكان ذلك في الوقت الذي استنجد به أهل حلب سنة ١٠٨٦ ضد سليمان  
بن قتلمش الذي أخذ يحاصر مدينتهم في شدة وعنف<sup>(٣)</sup> .

وهكذا أصبحت المعركة المقبلة في شمال الشام محصورة بين اثنين من أمراء  
السلالة ، أحدهما سليمان بن قتلمش فاتح الأناضول من نيقية إلى انطاكية ، والثاني  
هو تتش أخو السلطان ملكشاه نفسه . وكان أن اضطجبت تتش قائده ارتق  
بن اكسب — الذي أقطعه بيت المقدس — واتجه نحو حلب لمنازعة سليمان تلك

(1) Settin ; op. cit. I. p. 94.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠٩ - ١١٢ . ويروي الزويري أن  
أئسز صاحب دمشق أرسل إلى تتش « يستنجد على المساكر المصرية لأنهم أقدموا حاصرتهم  
بدمشق ، من قبل أمير الجيوش بدر الجمالي » .

(نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٢) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥ (مطبوع) .

المدينة الهامة . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين قرب حلب، انهزمت قوات سليمان الذي خر قتيلا في المعركة سنة ١٠٨٦<sup>(١)</sup> . ومن الواضح أن مقتل سليمان بن قتلش ترتبت عليه نتائج خطيرة بعيدة الأثر . ذلك أنه لم يخلف سوى طفلا صغيرا هو قلعج أرسلان داود ، مما جعل الأناضول يبقى بين سنتي ١٠٨٦، ١٠٩٢ دون حاكم قوى من السلاجقة ، فأتاحت الفرصة لصغار الأمراء من التركمان للظهور . ثم إن عدم وجود رجل قوى من زعماء السلاجقة في الأناضول في تلك الفترة بالذات أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحملة الصليبية الأولى، لأنه مكن الصليبيين عند وصولهم إلى آسيا الصغرى من أن يشقوا طريقهم في غير صعوبة كبيرة إلى الشام ، فاستولوا على نيقية ، وأحرزوا انتصارهم على السلاجقة في موقعة ضور ليوم ، كما سيلي . هذا كله بالإضافة إلى أن مقتل سليمان بن قتلش عند حلب أثار الفرقة في صفوف السلاجقة ، وجعل سلاجقة الروم لا يغفرون لأقربائهم سلاجقة فارس والشام ذلك الجرم . ولذلك لم يقدر للسلاجقة مطلنا أن يتحدوا جميعا لمواجهة الخطر الصليبي ، ولم يحاول أبناء بيت ملكشاه وتتش أن يتعاونوا مع سلاجقة الروم — وهم خلفاء سليمان بن قتلش — لإقامة جبهة قوية تحول دون وصول الصليبيين إلى الشام . وهكذا شاء حسن حظ الصليبيين أن يواجهوا كل فرع من بني سلاجق على انفراد ، مما مكنهم من إنزال الهزيمة بكل بيت من بيوتهم على حدة<sup>(٢)</sup> .

أما عن تتش فيبدو أن انتصاره أمام حلب جعله سيد الموقف في بلاد الشام بأكملها . هذا وإن كان أخوه الأكبر السلطان ملكشاه قد أخذ يتخوف من اتساع نفوذه ، ولذا لم يتركه ينعم بالشام منفردا . وقد استغل ملكشاه فرصة إصرار أهل حلب على ألا يسلموا مدينتهم إلا للسلطان ملكشاه نفسه ، واتجه من

(١) ابن المديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ (مطبوع) .

عاصمته أصبهان إلى حلب عن طريق الموصل ، وذلك ليقوم بتنظيم أوضاع بلاد الشام<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن استولى على قلعة جعبر وعلى منبج<sup>(٢)</sup> ، حتى إذا ما اقترب ملكشاه من حلب رأى تتش أنه من الحكمة أن يبتعد عنها<sup>(٣)</sup> . وكان أن دخل السلطان ملكشاه حلب ليعيد توزيع الإمارات الشامية ، ففتح حلب لحاجبه الخلفاء قسيم الدولة آقسنقر مؤسس البيت الزنكي (سنة ١٠٨٧) « فعمرها وأحسن السيرة فيها »<sup>(٤)</sup> ؛ ثم توجه ملكشاه بعد ذلك إلى أنطاكية ، فقسلمها من الحسن ابن طاهر وزير سايان بن قتلش . ثم اتجه إلى السويدية — وهي ميناء انطاكية القريب — فصلى على شاطئ البحر « وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب »<sup>(٥)</sup> :

أما الرها فقد منحها ملكشاه لقائد آخر من الأتراك اسمه بوزان (بزان) ، في حين صارت أنطاكية التي ظلت دون حاكم منذ وفاة سايان بن قتلش — من نصيب قائد تركي آخر هو مؤيد الدولة ياغي سيان<sup>(٦)</sup> . وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وفلسطين ، كما ظلت بيت المقدس بيد الأمير أرتق ، الذي خلفه بعد وفاته سنة ١٠٩١ ابنه سكان الأول . وهكذا استطاع ملكشاه أن يمنع أخاه تتش من إقامة دولة كبيرة موحدة بالشام<sup>(٧)</sup> . وكما أن ظهور تتش

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٠ (مطبوع) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٧٩ هـ .

(٣) يروي ابن واصل أن الأمير أرتق أشار عندئذ على تاج الدولة تتش « بأن يكبس السلطان » ؛ ولكن تتش رد قائلا « لا أكسر جاه أخى الذى أنا مستظل بظله ، فإنما يعود على بالوهن أولا » .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨ — (مطبوع) .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٧٩ هـ .

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠١ (مطبوع) .

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٩ (مطبوع) .

على مسرح الأحداث في شمال الشام سنة ١٠٨٦ أدى إلى مقتل سليمان بن قتلمش مما ترتب عليه حرمان آسيا الصغرى من رجل قوى يتزعم السلاجقة ضد خطر الصليبيين المقبل ، فكذا جاء تدخل ملكشاه بعد ذلك ضد تنش حائلا دون قيام سلطنة للأتراك في الشام ، مما جعل هذه البلاد تعانى الكثير من فوضى الانقسامات . وفي كلتا الحالتين استفاد الصليبيون من ذلك النزاع والانقسام بين أمراء آسيا الصغرى والشام. هذا بالإضافة إلى أن السلطان ملكشاه اصطحب معه عند عودته إلى فارس الأمير الصغير قلاج أرسلان بن سليمان بن قتلمش<sup>(١)</sup> .

على أن تلك الأوضاع لم ترض تنش ، فليجأ إلى السياسة ، وتوجه إلى أخيه السلطان ملكشاه في بغداد سنة ١٠٩١ واسترضاه، وأستأذنه في التوسع ببلاد الشام على حساب الفاطميين، وعندئذ أذن له ملكشاه بالعود ، « وأمر آقسنقر صاحب حلب وتوران ( بوزان ) صاحب الرها أن يسيرا في خدمة أخيه ( تنش ) بعساكرهما إلى أن يستولى على ما هو المستنصر العلوى صاحب مصر بساحل الشام ، ويتوجه معه إلى مصر ليملكها ! »<sup>(٢)</sup> وكان أن بدأ تنش بمحاصرة حمص حتى استولى عليها من صاحبها ابن ملاعب « وكان الضرر به وبأولاده عظيما على المسلمين » وأمر ابن ملاعب نفسه وولديه ، ثم استولى تنش على عرقه وأقاميه وحاصر طرابلس ، ولكنه لم يلبث أن انصرف عنها<sup>(٣)</sup> .

وهكذا غرقت بلاد الشام في بحر من الفوضى بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم وبعض ، وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين كل من السلاجقة والفاطميين

(١) استطاع قلاج أرسلان بن سليمان بن قتلمش العودة بعد ذلك إلى ملكه الذي ورثه عن أبيه بآسيا الصغرى ؛ وقد عرف قلاج هذا في النار بـ « اسم » ابن سليمان « كما أطلقت عليه الحوليات الصليبية المعاصرة اسم « سليمان » . انظر :

Setton : op cit; vol. I, p. 163.

(٢) النورى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٢ (مخطوط) .

(٣) المرجع السابق ورقة ٣٢-٣٣ .

من ناحية والبيوت العربية التي كونت لنفسها إمارات مستقلة ببلاد الشام من ناحية أخرى . وزاد من خطورة تلك الفوضى التي عمت بلاد الشام عندئذ ، أنها جاءت في الوقت الذي أخذ الخطر الصليبي يلوح في سماء الوطن العربي في الشرق الأدنى .

### نظمت دولة السلجوقية :

يبدو أن ملكشاه كان يحلم وهو في حلب سنة ١٠٨٧ بإقامة دولة إسلامية واسعة تركية — عربية ، على غرار الدولة العباسية بجناحيها العربي والفارسي — أيام ازدهارها ونضرتها . وكان أن عهد ملكشاه فعلاً بشئون الحكم في دولته إلى أحد رجاله المؤمنين بهذه الفكرة ، وهو الوزير الشهير نظام الملك أبو علي الحسن بن اسحق الطوسي . على أن هذا الوزير اعتمد على العنصر التركي في تنفيذ سياسته ، وهؤلاء الأتراك كانوا سنيين متشدين ، مما أغضب العنصر الفارسي الشيعي في الدولة . وهكذا لم يهدأ الشيعة إلا بعد مقتل نظام الملك في خريف سنة ١٠٩٣ بيد رجل ديارى من الباطنية ، مما أحدث فراغاً ضخماً ؛ بل هزة عنيفة بجسم دولة السلجوقية <sup>(١)</sup> ، وذلك « لما كان عليه ( الوزير نظام الملك ) من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفتة والقرآن والعلم ، وحب الخير وحميد السياسة » <sup>(٢)</sup> . أما ملكشاه فكان قد زوج ابنته للخليفة العباسي المقتدى ، وأنجبت هذه الزيجة طفلاً صغيراً اسمه جعفر <sup>(٣)</sup> ، مما أثار في نفس ملكشاه رغبة قوية في أن يتولى هذا الطفل الخلافة فيجمع بين ملكي العباسيين والسلجوقية . ولتحقيق هذه الأمنية اكتفى ملكشاه بأن جعل أصبهان مقره الصيفي ،

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٢ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٠ هـ

في حين نقل مقره الشتوى إلى بغداد ، ثم لم يلبث أن دعا الخليفة العباسى إلى التنازل عن الخلافة لإبنه جعفر . ولم تمض على هذه الدعوة بضعة أيام إلا وتوفى ملكشاه في نوفمبر سنة ١٠٩٢ ، وقيل إن الخليفة العباسى دس له السم <sup>(١)</sup> .

وقد جاءت وفاة السلطان ملكشاه إيذاناً بتفكك إمبراطورية السلاجقة . ذلك أن السلطان ملكشاه كان له ثلاثة أبناء أشقاء هم بروكياروق ( بركيارق ) ومحمد وسنجر . على أن ملكشاه كان قد تزوج زوجة جديدة أنجبت له سنة ١٠٨٧ إبناً رابعاً هو محمود الذى كان فى الخامسة من عمره تقريباً عند وفاة أبيه . وسرعان ما دب النزاع بين محمود الصغير وأمه تركان خاتون من ناحية ، وبركياروق ( بركيارق ) أكبر أبناء ملكشاه — وكان فى الخامسة عشر من عمره — من ناحية أخرى <sup>(٢)</sup> . وانتهى النزاع بأن احتفظ محمود بأصبهان وفارس ، على أن تكون بتمية الدولة السلاجقية بما فيها لقب السلطنة من نصيب بركياروق . على أن محمود وأمه لم يلبثا أن توفيا بعد قليل — خلال سنة ١٠٩٤ — وعندئذ اتجه بركياروق « فى الحال إلى أصبهان فدخلها وملكها » <sup>(٣)</sup> .

ولكن الخطر الأكبر الذى هدد بركياروق جاء من ناحية عمه تنش ، الذى لم يرض عن التنظيم الذى أجراه أخوه ملكشاه فى بلاد الشام سنة ١٠٨٦ — ١٠٨٧ . ففي الوقت الذى كان تنش يؤمل أن تكون بلاد الشام كلها من نصيبه ؛ إذا بالسلطان ملكشاه — كما مر بنا — يعطى حلب لحاجبيه آقسنقر ، وبذلك لم يبق لتنش سوى دمشق وأواسط الشام . لذلك لم يسكد تنش يسمع

(١) اختلفت روايات المؤرخين فى سبب وفاة ملكشاه ، فذكر ابن الأثير مثلاً ( حوادث سنة ٤٨٥ هـ ) أنه خرج للصيد فماد مريضاً ، وأن سبب مرضه أنه أكل من لحم الصيد دون أن يستوفى اللحم المضجج « فثقل مرضه ، وكانت سمى محرقة » . انظر أيضاً ابن العبرى ص ١٩٤ .

(٢) عن أحداث هذا النزاع ، انظر ابن الأثير : حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

بوفاته أخيه ملكشاه حتى أسرع إلى الاستفادة من حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي أُمست فيها الدولة السلجوقية لتحقيق مطامعه ، فاستولى على هيت « وعاد إلى دمشق يتجهز لطلب السلطنة » <sup>(١)</sup> . وبعد أن جمع تنش عساكره « وأخرج الأموال » اتجه نحو حلب حيث طلب من أفسنقر الاستسلام له . وعلى الرغم مما كان يضمره آقسنقر من عداوة لتنش ، إلا أنه لم يجرأ على المعارضة ، لأنه رأى « اختلاف أولاد صاحبه ملكشاه وصغيرهم ، فعلم أنه لا يطيق دفع تنش فصالحه وصار معه ، وأرسل إلى ياغي سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران ، يشير عليهم بطاعة تاج الدولة تنش حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه » <sup>(٢)</sup> وهكذا خضع آقسنقر وياغي سيان وبوزان — أي حلب وأنطاكية والرها — للأمر بتنش « وخطبوا له في بلادهم » ؛ فجمع تنش هذه القوى الثلاثة وزحف بها على فارس يبغي الحصول على السلطنة . وفي الطريق استولى تنش على الرحبة « وخطب لنفسه بالسلطنة » ، ثم صار إلى نصيبين « ففتحها عنوة وقهراً وقتل من أهلها خلقاً كثيراً » ( فبراير ١٠٩٣ ) كما عزل إبراهيم ابن قريش العقيلي أمير الموصل واستولى عليها ( أبريل ١٠٩٣ ) وبذلك انتهت أسرة ابن عقيل في الموصل <sup>(٣)</sup> . كذلك استولى تنش على ميفارقين من حكمها بني مروان والأكراد <sup>(٤)</sup> ، وبعد ذلك دخل فارس عن طريق أذربيجان خلج بركياروق .

ولم يكد تنش يقترب من خصمه حتى حدثت المفاجأة ، إذ تخلى عنه آفسنقر

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ . ويذكر ابن الأثير أن تنش كان في طريقه إلى بغداد لمقابلة أخيه ملكشاه ، وبينما هو في هيت بلغته وفاة أخيه السلطان فعاد إلى دمشق .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٨ .

(٤) كان آخر حكام بني مروان في ميفارقين هو أبو المظفر منصور ، ( ١٠٧٩ —

١٠٩٣ ) — انظر زامباور : معجم الأنساب ص ٢٠٧ .

أمير حلب وبوزان أمير الرها « وسار إلى بركياروق » ، وبذلك لم يبق مع تنش إلا ياغي سيان أمير أنطاكية . وكان انسحاب آقسنقر وبوزان محطما لخطة تنش، الذي آثر أن ينسحب بسرعة عائدا إلى الشام في حين « انبسطت يد بركياروق واستقامت أحواله » ودخل بغداد دخول الظافر في نهاية سنة ١٠٩٣ (١).

وكان أول ما فكر فيه تنش عند عودته إلى الشام هو الانتقام من آقسنقر أمير حلب وبوزان أمير الرها، بعد أن خاناه وتحليا عنه وقت الشدة . لذلك بدأ تنش بمهاجمة حلب في صيف سنة ١٠٩٤ ، وعندئذ اتحد آقسنقر وبوزان ، في حين أرسل بركياروق إليها نجدة قوية بقيادة الأمير كربغا (كربوقا) . (٢) ولم تلبث أن دارت المعركة بين الطرفين قرب حلب ، فانتصر تنش انتصارا حاسما ووقع آقسنقر في يده فقتله على الفور (٣)، في حين فرت فلول الجند المنهزمين إلى حلب حيث اعتصموا بها وأرسلوا إلى السلطان بركياروق يطلبون النجدة . على أن تنش أسرع إلى اللحاق بهم فاستولى على حلب ، وعندئذ وقع في يده كربغا وبوزان ؛ فضربت عنق بوزان صاحب الرها وحمل كربغا أسيرا إلى حمص (٤).

وبعد أن قضى تنش في حلب بضعة أيام زحف على الفرات ، فاستولى على حران والرها ، ثم « سار إلى الديار الجزرية فملكها جميعا ، ثم ملك ديار بكر و خلاط » ؛ وبعد ذلك قصد فارس لمنازلة بركياروق فنخضت له أذربيجان واحتل

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٩ — ١١٠ (مطبوع) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٥ (مطبوع) .

(٣) روى ابن العديم أنه عندما وقع آق سنقر في يد تنش، سأله الأخير « لو ظفرت بي ما كنت صنعت ؟ » قال : « كنت أقتلك » فقال له : « فأنا أحكم عليك بما كنت تحسب على » فقتله .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٧ (مطبوع) .



هذه ذات والرى (١). وكان الموقف حاسماً بالنسبة لبركياروق ، فاتجه من أصفهان إلى الرى لمواجهة خصمه ، ودارت المعركة قرب الرى فى أوائل سنة ١٠٩٥ . وللمرة الثانية تعرض تتش لخيانة بعض أعوانه المقربين إليه « فانهزم عسكر تاج الدولة تتش واستبيح ونهب ، وقتل فى ذلك اليوم تاج الدولة وخواصه فى الحرب » . (٢) وهنا نلاحظ أن أعوان تتش وأمرأه كانوا يتخلون عنه ساعة الشدة لتسوته وعنفه وبأسه ، مما جعلهم يخشون على أنفسهم وعلى مطامعهم منه . وعلى العكس أدى ضعف بروكياروق ولين عريكته إلى اتجاه الأمرأ نحوه؛ حيث أن شخصيته ستمكنهم من تحقيق مطامعهم الشخصية . وهكذا جاء انتصار بركياروق إيذاناً بانحلال قوة السلاجقة فى الوقت الذى بدأت الاستعدادات للحرب الصليبية تجرى فى الغرب الأوروبى (٣) .

ثم إن بركياروق (بركيارق) اكتفى بحكم فارس وبغداد ، دون أن يحاول ضم بلاد الشام إليه . وكان تتش قد ترك ولدين هما فخر الملوك رضوان وشمس الملوك دقاق ، فأخذ الأول ملك حلب وأخذ الثانى ملك دمشق (٤) ، وذلك دون أى اعتراض أو تدخل من جانب بركياروق . وكان كل ماطلبه بركياروق من رضوان هو إطلاق سراح كربغا الذى كان تتش قد سجنه بعد أسره . ولم يكده يفرج عنه حتى حصل كربغا على إذن من بروكياروق

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٤ (مخطوط) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١١٩ (مطبوع) .

ويروى ابن القلانسى أن رأس تتش قطع «وطيف به فى العسكر، ثم حمل إلى بغداد وطيف به فيها» (ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠) .

(3) Grousset ; Hist. des Croisades, I, p. LI.

(٤) قتل رضوان أخويه أبا طالب ومهرام. أما أخوه الثالث دقاق فقد راسله ساوكتكين الخادم — نائب تتش فى دمشق — ودعاه لتسلم المدينة . وكان أن غادر دقاق حلب سراً « وهرب إلى دمشق من غير أن يعلم به أحد »؛ وعندئذ أرسل رضوان قوة للحاق به ، ولكن تتش وصل سالماً « وصارت دمشق وبلادها بحكمه » (ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢١ — مطبوع) .

للاستيلاء على الموصل فحاصرها بضعة أشهر واستولى عليها من آخر أمرائها العرب من بني عتيل ، وهو الذى كان نقش قد تركه بالموصل . أما فى القطاع الشرقى من دولة السلاجقة ، فقد منح بروكياروق أخاه سنجر ملك خراسان وماوراء النهر<sup>(١)</sup> .

وهكذا لم تحل سنة ١٠٩٦ إلا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة ، هى : سلطنة فارس (أصبهان) وعلى رأسها السلطان بروكياروق نفسه الذى كانت له السيطرة على بغداد ؛ ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها أبو الحرث سنجر ؛ ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن نقش ؛ ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن نقش ؛ وأخيراً سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلعج أرسلان بن سليمان بن قتمش . هذا مع ملاحظة أن بيت دانشمند التركمانى فى كابا دوكيا أفاد من الفترة التى قضاها قلعج أرسلان فى الأسر لتحقيق استقلال ذاتى ، مما زاد من حدة الانقسام فى آسيا الصغرى . وخلاصة القول أنه إذا كان السلاجقة قد أثبتوا فى وقت من الأوقات أنهم سيوف الإسلام الزائدون عنه ، فإن هذه القوة لم تلبث أن انفكت وتفتت عند فجر الحركة الصليبية ، مما صار له أكبر الأثر فى نجاح الحملة الصليبية الأولى<sup>(٢)</sup> .

وليت الانقسام والانحلال الداخلى فى دولة السلاجقة قد وقف عند ذلك الحد بل لقد حدث سنة ١٠٩٩ أن ثار محمد تبر وهو أخ ثالث لبركياروق<sup>(٣)</sup> ؛ مما جعل بلاد فارس والعراق مسرحاً للحروب بين الأخوين ، حتى انتهى الأمر بالصلح بينهما فى أوائل سنة ١١٠٤ ، فاحتفظ بروكياروق بأصبهان وفارس وعراق العجم على أن تكون

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

(٢) Gibb : The Damascus Chronicle, p. 14.

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

« السلطنة له » ، وأخذ محمد تبر أذربيجان وأرمينية وديار بكر والموصل <sup>(١)</sup> ؛ في حين ظل الأخ الثالث - وهو أبو الحرث سنجر - يحكم خراسان وما وراء النهر <sup>(٢)</sup> . ولا شك في أن تلك الحروب الطويلة بين الإخوة دت إلى تخطيط البيت السلجوقي من ناحية ، وبقاء سلطنة فارس مقسمة بين ملكيات ثلاث مستقلة من الناحية العملية من ناحية أخرى . أما الخليفة العباسي في بغداد فقد انتهز فرصة الصراع بين بركياروق وأخوته ، وما نجم عن ذلك الصراع من إضعاف قوة الطرفين ، وعمل على تحرير نفسه من سيطرة السلاجقة جميعاً ، « وقطع دعوة الترك من بغداد » <sup>(٣)</sup>

ومن جهة أخرى فإن قبيلة بنى مزيد البدوية على الضفة الغربية لنهر الفرات استغلت الظروف التي أحاطت بالسلطان بركياروق واستقلت عن سلطانه . وقد بنى شيخ هذه القبيلة - وهو صدقة بن منصور بن ديبس بن مزيد الأسدي - منزلة الحلة سنة ١١٠١ واتخذها مقراً له . وبذلك قامت إمارة عربية امتدت من هيت إلى الكوفة وواسط ، وصارت خطراً هدد الأتراك وحال دون استمرار سيطرتهم على العروبة وأرضها <sup>(٤)</sup> . ولم يتردد أمراء الحلة في سبيل تحقيق هذه الغاية في مخالفة الصليبيين ، كما سيلي فيما بعد .

أما في بلاد الشام ، فإن السيادة السلجوقية أخذت تنحسر سريعاً . ذلك أن ابني تنش - وهما رضوان صاحب حلب ( ١٠٩٥ - ١١١٣ ) ودقاق صاحب

(١) ذكر ابن العري أن ممتلكات محمد تبر هي « ديار بكر والجزيرة والموصل والشام » ومن الواضح أن ذكر الشام هنا غير صحيح حيث كانت دمشق وحلب في حوزة ابني تنش . ( تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ ) .

(٢) ابن القلانبي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٧ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(٣) النوبري : نهاية الأرب ٢٥ ورقة ٢٧ .

(٤) المرجع السابق ورقة ١٢ .

دمشق (١٩٠٥—١٠١٤) لم يتمتعاً بالمقدرة السياسية التي تمكنهم من مواجهة الأوضاع القلقة التي عاشت فيها بلاد الشام في أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر. ولعل أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة فى بلاد الشام والعراق وغيرها عندئذ هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة لا تجمعها رابطة إلا الاتصال بالبيت السلجوقى. ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابكة؛ وبعض هذه الوحدات صغير جداً لا يتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة. وأتابك لفظ تركى معناه «مربى الملك»، فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب إمعاناً فى تكريمه<sup>(١)</sup>. ومن أظهر تلك الأتابكيات أتابكية دمشق، ومؤسسها ظهير الدين طفتكين الذى كان مملوكاً ثم قائداً لللك تنش، وأتابكا لابنه دقاق أى مريباً له. وقد استمرت هذه الأتابكية من سنة ١١٠٤ حتى سنة ١١٥٤. أما أتابكية الموصل فمؤسسها عماد الدين زنكى بن آقسنقر، وقد استمرت من سنة ١١٢٧ حتى سنة ١٢٦٢<sup>(٢)</sup>. وعدا ذلك وجد عدد كبير من الأتابكيات التى أخذت تظهر تباعاً على أقطاض دولة السلاجقة فى الشام وسنجار والجزيرة وأربل وأذربيجان وفارس وغيرها<sup>(٣)</sup>.

أما فلسطين، فقد سبق أن أشرنا إلى أن تنش كان قد أقطعها قائده التركمانى أرتق، الذى خلفه سنة ١٠٩١ ولداه سقمان (سكان) وإيلغازى (إيل غازى). ولكن حدث سنة ١٠٩٨ أن أفاد الفاطميون من تعرض السلاجقة لغزو الصليبيين، فخرج من مصر جيش فاطمى تحت قيادة الوزير الأفضل نفسه لمحاصرة بيت المقدس «ونصب عليه المناجيق»، حتى اضطر الأراتقة إلى الانسحاب من المدينة فى

(١) Setten : op. cit, vol. I, p. 162.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٣٤ وما بعدها.

(٣) Gibb : op. cit, p. 23,f.

أغسطس من العام نفسه . ولم تلبث بقية فلسطين أن سقطت بعد ذلك في أيدي الفاطميين <sup>(١)</sup> . هذا إلى أن الوزير الأفضل أرسل من مصر إلى رضوان ملك حلب يدعوه إلى طاعة الخليفة المستعلى بالله الفاطمي وإقامة الدعوة له ، ووعد الأفضل رضوان أن يمدّه بالمساعدة ضد خصومه ، فاستجاب رضوان لذلك « وتقدم بالدعوة للمصريين على سائر منابر الشام التي بيده ... للمستعلى ثم للأفضل ثم لرضوان ... » هذا ، وإن كان رضوان لم يستمر على ذلك الوضع سوى بضعة أسابيع أعاد بعدها الدعوة « للامام المستظهر (العباسي) ثم للسلطان بركياروق ثم لنفسه <sup>(٢)</sup> » .

ومن جهة أخرى فإن الفاطميين استغلوا تفوقهم البحري على السلاجقة وظلوا يسيطرون على ساحل الشام <sup>(٣)</sup> . هذا وإن كان الفاطميون قد خسروا طرابلس قرب منتصف القرن الحادى عشر عندما استقل بها أحد أتباعهم ، وهو القاضي الشيعي ابن عمار أبو طالب . وقد استطاع ابن عمار هذا وخليفته جلال الملك أبو الحسن على (ت ١٠٩٨) ثم اخير الملك أبو على عمار (١٠٩٨ — ١١٠٨) أن يجعلوا من طرابلس إمارة غنية اشتهرت بمدارسها التي حوت مكتبة ضمت عشرة آلاف مجلد . على أن قيام هذه الإمارة البحرية الصغيرة لا يخفى الحقيقة الواقعة ، وهى زيادة تفتت بلاد الشام سياسياً . ولا شك في أن عملية التجزئة التي تعرضت لها بلاد الشام على ذلك الوجه ؛ في الوقت الذى شق الصليبيون طريقهم إلى بلاد الشام ، كانت من العوامل الرئيسية التي ساعدت الصليبيين في تحقيق أطماعهم . وقد أدرك هذه الحقيقة وذكرها المؤرخ الصليبي وليم الصوري <sup>(٤)</sup> .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلاب ج ٢ ص ١٢٩ ( مطبوع ) .

(٣) يذكر ابن الأثير ( الكامل ، حوادث سنة ٤٨٢ هـ ) أن الجيش الفاطمي الذى خرج من مصر في تلك السنة استولى على صور وصيدا وعكا وجبيل « واستعمل أمير الجيوش على هذه البلاد الأمراء والعمال » .

(4) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. Occid II.) 1015-1016.

ولم يكن ملك السلاجقة في الأناضول أقل تفتتاً عندئذ من بقية دول السلاجقة في الشرقيين الأدنى والأوسط . ذلك أن مملكة السلاجقة في آسيا الصغرى لم تلبث أن تدهور بها الحال عقب اختلعة المؤلفة لحياة مؤسسها سليمان بن قتمش ، وهو الذى قتله تنش — كما سبق أن ذكرنا — سنة ١٠٨٦ . ومنذ تلك السنة حتى سنة ١٠٩٣ ظل ابن سليمان الصغير ، وهو قلعج أرسلان ، شبه أسير في فارس ، تحت رقابة ملكشاه . وفي تلك الفترة التى قضتها آسيا الصغرى دون سلطان ، عمل الأمراء المحليون — مثل أبى القاسم أمير نيقية وزاخاس أمير أزمير والملك غازى بن دانشمند أمير كبادوكيا — على الإستئثار عملياً <sup>(١)</sup> . وكانت نيقية عاصمة السلاجقة في الأناضول ، ومن ثم فقد أخذ أميرها أبو القاسم يحلم بأن يحل محل بيت سليمان بن قتمش في حكم آسيا الصغرى . ولم تقف أحلام أبى القاسم عند هذا الحد ، بل بات يحلم أيضاً بالإستيلاء على القسطنطينية ، وشيد أسطولا لهذا الغرض ولكن البيزنطيين حطموا أسطوله <sup>(٢)</sup> .

وعندما استرعت أطباع أبى القاسم السلطان ملكشاه ، أرسل ضده حملة حاصرته في نيقية سنة ١٠٨٦ ، مما جعل أبا القاسم يستنجد بالإمبراطور البيزنطى . ألكسيوس كومنين . وبعد ذلك بقليل عاد ملكشاه وأرسل إلى الأناضول حملة كبيرة على رأسها بوزان أمير الرهالة قضاء على أبى القاسم والإستيلاء على نيقية <sup>(٣)</sup> . وقد حاول بوزان أن يقنع ألكسيوس كومنين بالتخلي عن مساعدة أبى القاسم مقابل التعهد برد بعض الأراضى التى فى حوزة السلاجقة للبيزنطيين <sup>(٤)</sup> . ولكن ألكسيوس أدرك أنه من الخير أن يجاوره أمير صغير مثل أبى القاسم بدلا من السلطان ملكشاه ، وفعل أقدم الإمبراطور البيزنطى مساعدته لأبى القاسم ، وبفضل هذه

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4. p. 331.

(2) Setton: op. cit, vol I, p. 215-216.

(3) Chalandon, Alexis Comnene, p. 102.

(4) Idem. p. 125.

للمساعدة تمكن الأخير من الدفاع عن نيقية ؛ ورفع حصار بوزان عنها .  
ولم يلبث أبو القاسم أن طلب عفو ملكشاه ودخل في طاعته ، فقتله الأخير  
سنة ١٠٩٢<sup>(١)</sup> .

وعند وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ أطلق خليفته بركياروق سراح قلعج  
أرسلان بن سليمان بن قتلش ، الذي غدا حاكم نيقية وزعيم سلاجقة الروم .  
وإذا كان الامبراطور ألكسيوس كومنين قد نجح في تلك الفترة في انتزاع بعض  
مراكز من السلاجقة في آسيا الصغرى ، فإن زاخاس أمير أزمير كان أكثر خطورة  
على الامبراطورية البيزنطية ، إذ شيد أسطولا واستولى به على عدة جزر هامة مثل  
لسبوس وخيوس وساموس ورودرس . ولم يلبث أن ازداد الخطر على الدولة البيزنطية  
عندما تزوج قلعج أرسلان من ابنة زاخاس أمير أزمير . على أن اسحق كومنين  
استطاع بسياسته الماكرة أن يفرق بين الطرفين ، أى بين قلعج أرسلان وحميه ،  
وأن يجعل قلعج أرسلان ينتقل ضد حميه ، في الوقت الذي كان زاخاس يحاصر  
أبيدوس ، وهي مفتاح الدردنيل . ولم يلبث أن استدرك قلعج أرسلان زاخاس وقتله ، وبعد  
ذلك تم الوصول إلى تسوية بين قلعج أرسلان من ناحية والامبراطور ألكسيوس  
كومنين من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup> .

أما الركن الشمالى الشرقى من آسيا الصغرى فلم يكن فيه لقلعج أرسلان أى  
نفوذ ، إذ قامت هناك إمارة الدانشمند ( ١٠٦٣ — ١١٧٤ ) التى أسسها الأمير  
التركانى أحمد غازى ، والتى قامت على حساب الممتلكات البيزنطية فى كابادوكيا  
وأماسيا وجانجرا ونكسار (قيصرية الجديدة)<sup>(٣)</sup> . وكان الدانشمند يعترف بالتبعية

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 331.

(2) Vasiliev : op. cit., I, p. 385 & Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 304.

(3) Setton : op. cit. vol. I. p. p. 163 - 164.

للسلطان ملكشاه سلطان السلاجقة في فارس ، وبالتالي لم يعترف مطلقا بسيادة سليمان بن قتلمش . وقد قام ابن الدانشمند وخليفته الملك غازي بجشتكين ( ١٠٨٤ — ١١٢٦ ) بالاستيلاء على قسطنطين من البيزنطيين . وكان التنافس وسوء العلاقات مستحكما دائما بين السلاجقة في الأناضول من ناحية ، وإمارة الدانشمند التركمانية من ناحية أخرى ، بحيث لم تتحد القوتان إلا عندما أحسنا بأن الجيوش الصليبية توشك أن تعصف بهما جميعا <sup>(١)</sup> .

وهكذا نخرج مما سبق بأن توسع السلاجقة جهة الغرب توقف حوالى سنة ١٠٩٥ ، مما جعل الظروف مناسبة لأن تسترد الدولة البيزنطية سيادتها على الأقل على الجهات الساحلية في يثنيا وأيونيا . وكان البيزنطيون والأتراك متعادلين في القوة في ذلك الوقت على الرغم من انقسام الأتراك على أنفسهم . ولكن بوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق لمساعدة البيزنطيين بدأت كفة المسيحيين ترجح على كفة الأتراك المسلمين .

### الشقاق بين المسيحيين الشرقيين:

وإذا كان الانقسام بين البيوت العربية والتركية في العالم الإسلامي قد مهد لانتصار الصليبيين ؛ فإن الشقاق في العالم المسيحي بين الكنائس الشرقية سهل وقوعها تحت حماية الكنيسة الرومانية الغربية ، أو بعبارة أخرى ساعد هذا الشقاق الأخير على قيام دولة للصليبيين الكاثوليك في الشرق . ذلك أن العداء المذهبي بلغ أشده بين البيزنطيين والأرمن والسرمان اليعاقبة ، وذلك عقب حركة التوسع البيزنطية في الشرق في القرن العاشر ، مما جعلهم يتعرضون جميعا لكارثة

(١) Grousset : Hist. des Croisades I, p.p. LVII - LVIII.



مشتركة في القرن الحادى عشر ، ولا يستفيد من هذا الموقف سوى الغربيين الكاثوليك<sup>(١)</sup> .

من ذلك أنه لم يكد يمضى قليل على ضم أنطاكية للامبراطورية البيزنطية في عهد حنا شمشقيق ، إلا وبدأ رجال الدين البيزنطيون حملة اضطهاد ضد إخوانهم رجال الدين الأرمن . كذلك حدث بعد أن اتخذ الأرمن آنى عاصمة لهم<sup>(٢)</sup> ، أن تعرض بطرس الأرمنى ثم ابن أخيه جاجك الأول ( ٩٩٠ - ١٠٢٠ ) لمتاعب جديدة بقصد إجبارهم على التسليم بمبادئ الكنيسة الأرثوذكسية . أما الملوك الذين تخلوا عن ممالكهم الوراثة للامبراطورية البيزنطية ليأخذوا بدلها منها إقطاعات في كابا دو كيا ، فقد وجدوا أنفسهم فريسة لضغط الأباطرة البيزنطيين حتى يعتنقوا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية . ولذلك نجد المؤرخين المعاصرين من الأرمن - مثل متى الزهاوى - يظهرون ارتياحهم للكارثة التي حلت بالبيزنطيين في مانز كرت ، بل لقد بلغ بهم الأمر إلى مديح ملكشاه والاطراء عليه لما حققه من راحة بال للأرمن<sup>(٣)</sup> . وقد اتهم البيزنطيون القوات الأرمينية التي اشتركت في موقعة ملاز كرت بأنها تقهقرت ولم تثبت ، كما أنه حدث بعد موقعة مانز كرت أن انتقم المهاجرون الأرمن في كابا دو كيا باضطهاد رجال الدين الأرثوذكس . من ذلك أن جاجك الثانى ملك آنى السابق قبض على مطران قيصرية الأرثوذكسى وحبسه في جوال محكم ومعه كلب شرس حتى قضى نحبه . وكان أن رد

(١) عن أصول الانشقاق بين السكيسيين الأرمينية والبيزنطية انظر :

Grousset : *L'Empire du Levant* p.p. 76 - 78.

(٢) كانت مدينة آنى أول عاصمة للأرمن في مقرهم الجديد في جنوب شرق آسيا الصغرى قبل أن ينقلوا عاصمتهم إلى سييس فيما بعد ، وما زالت بعض أسوار هذه المدينة وآثارها قائمة تشهد على رقى مستواهم الحضارى في القرنين العاشر والحادى عشر . انظر

Schlumberger : *Recits I*, p. 127 & Vassiliev, op. cit. I. p. 314.

(3) Mathieu d'Edesse (*Rec. Hist. Cr. Doc. Arm.* p.p. 46 - 48).

البيزنطيون على ذلك بأن نصبوا كميناً للملك جاجك الثاني حتى تصيدوه . وقتلوه سنة ١٠٧٩<sup>(١)</sup> .

ولم يكن حقّ المسيحيين السريان على البيزنطيين أقلّ شدة ، لاسيما بعد أن استرد البيزنطيون أنطاكية والرها . وهنا أيضاً أساء رجال الدين البيزنطيون إلى الكنيسة المحلية . لذلك لم يتمالك ميخائيل السرياني نفسه من الفرح عندما حلت الهزيمة بالامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث على يد المسلمين قرب حلب سنة ١٠٣٠<sup>(٢)</sup> . وتعبّر كتابات ميخائيل السرياني تعبيراً صادقاً عن استيائه لأن البيزنطيين يضطهدون السريان واليعاقبة ، وقال إنه لذلك يفضل سيطرة الأتراك السلاجقة على حكم البيزنطيين لأن الأتراك يهبون ويسلبون ولكنهم لا يتعرضون للعقيدة ، في حين أن اضطهاد البيزنطيين لحرية العقيدة أشدّ نكاية وأسوأ أثراً .

وهكذا يبدو كيف أن الحركة التي قامت بها الامبراطورية البيزنطية في القرن العاشر لاسترداد أراضيها وتوطيد نفوذها في شرق آسيا الصغرى وفي بلاد الشام أدت إلى استياء مختلف العناصر التي كان من الممكن أن تظل حليفاً طبيعياً للامبراطورية ضد الصليبيين الكاثوليك . وقد كان لهذا الشعور أثره في تسهيل قيام الامارات اللاتينية في الشرق ، لأن الأرمن والسريان واليعاقبة لم يشعروا بنفور من الصليبيين الغربيين مثلما نفروا من البيزنطيين الأرثوذكس . وكان أن نظر الأرمن في قيليقية والرها إلى الصليبيين الغربيين على أنهم محرروهم وحلفاؤهم ، كما أن عصر الحروب الصليبية شهد تقارباً ملحوظاً بين الكنيسة الأرمنية والبابوية<sup>(٣)</sup> هذا في الوقت الذي أحسن الصليبيون

(1) Gréusset ; Hist. de l'Arménie, p.p. 620 - 622.

(2) Runciman : A History of the Crusades, I, p. 75.

(3) Iorga : L'Arménie Cilicienne, p. 91.

الغرييون معاملة الأرمن والسريان بوجه عام ، ووجدوا فيهم حلفاء طبيعيين ليس ضد المسلمين فحسب ، بل ضد البيزنطيين<sup>(١)</sup> .

### الدولة البيزنطية بين السلاجقة والنورمان:

لم تقتصر الكوارث التي تعرضت لها الدولة البيزنطية في النصف الثاني من القرن الحادى عشر على ما فعله الأتراك بالأقاليم الآسيوية للإمبراطورية ، وإنما تعرضت الأقاليم الأوربية فى ذلك الوقت أيضاً لخطر النورمان ، مما أوقع القسطنطينية بين نارين .

والمعروف أن القرن الحادى عشر شهد هجرة جموع غفيرة من النورمان الوافدين من دوقية نورماندى فى غرب فرنسا إلى جنوب إيطاليا ووسطها فضلاً عن صقلية . وكان زعيم تلك الجموع سنة ١٠٤٢ ولیم هوتفيل ، ولكن الفضل يرجع إلى روبرت جويسكارد فى تأسيس دولة النورمان فى إيطاليا وصقلية ، بعد أن تم إعلانه دوقاً على أبوليا وكالبريا سنة ١٠٥٩<sup>(٢)</sup> . وحسب روبرت جويسكارد هذا أنه انتزع من البيزنطيين آخر معاقلم فى إيطاليا مثل أوترنتو وبرنديزى سنة ١٠٦٢ ثم بارى عاصمتهم سنة ١٠٧١ ، أى فى نفس الوقت الذى تعرضت الجيوش البيزنطية فى آسيا الصغرى لكارثة مازكرت على أيدى السلاجقة<sup>(٣)</sup> . ولعل هذه الحقيقة الهامة هى التى جعلت المؤرخ فاسليف يقرر خطورة سنة ١٠٧١ بالذات فى التاريخ البيزنطى بأجمعه<sup>(٤)</sup> . وبعد أن نجح النورمان أيضاً فى انتزاع صقلية من المسلمين ، أخذوا يوجهون أبصارهم نحو الشاطئ الشرقى للبحر الأدرياتي للاستيلاء على أيروس ومقدونيا ، بل لقد طمعوا فى القسطنطينية نفسها ، ثم باتوا

(1) Setfou : A Hist. of the Crusades, vol. 2, p. 634.

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٣٠ — ٣٣١ :

(3) Haskins : The Normans in European History, p 200, f.

(4) Vasiliev, op. cit, I, p. 361.

يحلون بمواصلة الحرب ضد المسلمين في الشرق ، إتماماً لحربهم ضد المسلمين في صقلية <sup>(١)</sup> .

وفي الوقت الذي نزل فريق من النورمان بزعامة وليم هوتفيل وروبرت جويسكارد في إيطاليا البيزنطية ، اتجه فريق آخر من المغامرين النورمان نحو الدولة البيزنطية نفسها ودخلوا في خدمتها جنداً مرتزقة . وقد رأينا كيف أفاد هذا الفريق الأخير من الكارثة التي حلت بالبيزنطيين على أيدي السلاجقة ، وحاولوا أن يؤسسوا لأنفسهم إمارات مستقلة في آسيا الصغرى . وأوضح مثل لهذا النوع من المغامرين النورمان رسل باليل الذي سبق أن أشرنا إليه ، والذي صار في وقت ما مهيمناً على إقليم كبادوكيا والجهات المجاورة (١٠٧٣ - ١٧٠٤) <sup>(٢)</sup> . وكان أن حاول روبرت جويسكارد أن يحدو حذو رسل باليل ، ويقيم دولة نورمانية في الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً . لذلك أنزل روبرت قواته في صيف سنة ١٠٨١ عند افلونا ومنها اتجه إلى دورازو حيث هزم قوات ألكسيوس كومنين واستولى على ذلك الموقع الهام في أوائل سنة ١٠٨٢ <sup>(٣)</sup> . وبعد ذلك زحف روبرت على القسطنطينية مباشرة ولكنه اضطر أثناء زحفه عليها إلى العودة إلى إيطاليا حيث كانت أحوالها تستدعي وجوده ؛ فترك قيادة قواته في البلقان في صيف سنة ١٠٨٢ لابنه بوهموند الذي صار فيما بعد بطلاً من أبطال الحملة الصليبية الأولى <sup>(٤)</sup> .

وقد استطاع بوهموند أن ينزل الهزيمة بألكسيوس كومنين أكثر من مرة ، كما استولى على عدة مراكز هامة في أيرروس ومقدونيا وتساليا ، بحيث أوشكت الامبراطورية على السقوط في أيدي النورمان ، مما جعل ألكسيوس كومنين

---

(1) Longnon : Les Français d'Outremer au Moyen - Age , p. p. 26 - 28.

(2) Grousset : L'Empire du Levant , p. p. 168 - 169.

(3) Cam. Med. Hist. vol 4, p. 329.

(4) Ostrogorsky ; op. cit, p. 317.

يسرع إلى الاستنجاد بـسليمان بن قتلمش زعيم سلاجقة الروم ، الذى أمد الإمبراطور بسبعة آلاف رجل . وبفضل هذه النجدة استطاع الإمبراطور البيزنطى أن يواجه الموقف وأن يحرز انتصاراً على بوهيموند فى تساليا ، فعاد بوهيموند إلى إيطاليا لإحضار إمدادات جديدة ( سنة ١٠٨٣ )<sup>(١)</sup> .

ولم يلبث أن حاول روبرت جويسكارد وابنه بوهيموند معاودة الكرة ، وتحدياً للأسطول البندقى — الحالف للبيزنطيين — قرب كورفو<sup>(٢)</sup> ؛ ولكن الحرب طالت بين الطرفين على سواحل ايروس حتى توفى روبرت فى صيف ١٠٨٥ ، فانسحب النورمان بعد ذلك من البلقان عائدين إلى إيطاليا<sup>(٣)</sup> .

ومع ذلك فإن خلفاء روبرت من ملوك النورمان — وبخاصة بوهيموند — لم ينسوا مطلقاً طريق الشرق ، وهو الطريق الذى لم تلبث الحروب الصليبية أن أمدتهم بفرصة طيبة لاختراقه . والواقع إن المشاركة فى الحركة الصليبية كانت بالنسبة لبوهيموند تجديداً لملحة ١٠٨١ ، ومحاولة أخرى لتأسيس مملكة للنورمان فى المشرق ، وهو الأمر الذى تحقق فعلاً باستيلاء النورمان على أنطاكية ، وإقامة إمارة لهم فيها .

---

(1) Vasiliev; op. cit, II, p. 381.

(2) Chalandon ; Regne d'Alexis Comnene, p.p. 70 - 71.

(3) Cam. Med. Hist, vol. 4, p. 330.



## الباب الثالث

### الحملة الصليبية الأولى

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد »

[إبراهيم : ١٥]





# الفصل الأول

## الدعوة للحملة

البابا أوربان الثاني وإعلان الحرب الصليبية :

أوضحنا فيما سبق أن الحروب الصليبية بمعناها الشامل بدأت فعلا قبل القرن الحادى عشر ، أى قبل أن يدعو البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ للحملة التى عرفت فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى . فمذ توسع المسلمون فى حوض البحر المتوسط ، والحروب لم تنقطع بينهم وبين المسيحيين الأوربيين . وقد اتخذت تلك الحروب صبغة دينية فى كثير من أدوارها ، واشتهر من بين ميادينها آسيا الصغرى وأسبانيا وشمال أفريقيا وصقلية ، فضلا عن بعض جزر البحر المتوسط ، مثل صقلية وكريت (١) .

على أنه بحلول القرن الحادى عشر واتجاه الغرب الأوروبى نحو إرسال حملات كبرى لاسترداد بيت المقدس من المسلمين ، بدأت المرحلة النشطة فى الحركة الصليبية . والواقع أنه منذ كارثة مانزكرت التى حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١ وأباطرة الدولة الرومانية الشرقية لا يقطعون عن طلب النجدة العاجلة من البابوية ضد السلاجقة المسلمين . من ذلك أن الإمبراطور ميخائيل السابع ( ١٠٧١ — ١٠٧٩ ) ألح على البابا جريجورى السابع ( ١٠٧٣ — ١٠٨٥ ) فى إرسال نجدة سريعة لإتقاذ الإمبراطورية البيزنطية وأراضيها فى آسيا الصغرى ، ووعد ميخائيل بأن يرد الجليل للبابوية بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية (٢) .

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 15. & L'Arménie Cilicienne, p p. 16 - 17.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 270.

ويقال إن البابا جريجورى السابع — بما عرف عنه من حماسة دينية فائقة — استجاب لتلك الدعوة ، وأرسل إلى ملوك أوروبا وأمرائها يوضح لهم سوء موقف المسيحيين فى الشرق ، ومآل بنيهم الإمبراطورية البيزنطية من آلام وأخطار نتيجة لتوسع الأتراك المسلمين ؛ ولكن دعوة البابا ذهبت مع الريح. هذا إلى أن البابوية شغلت فى ذلك الدور بالصراع ضد هنرى الرابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة حول مشكلة التقليد العلماني ، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تقف وحيدة أمام خطر السلاجقة <sup>(١)</sup> . وهكذا استمرت الأوضاع حتى عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٩ ، وحل محله الإمبراطور نيقفور الثالث (١٠٧٩ — ١٠٨١) ، الذى أطاحت به هو الآخر ثورة قام بها الجيش وانتهت بإعلان ألكسيوس كومنين إمبراطورا (١٠٨١ — ١١١٨) <sup>(٢)</sup> .

وكان الإمبراطور ألكسيوس رجلا قديراً ، حاول أن يعالج مختلف المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهت الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت . وعندما واجه ألكسيوس مشكلة السلاجقة وجد أنه لا قبل له بهم ، فاتجه من جديد نحو البابوية ، واتبع سياسة تجاه البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ — ١٠٩٩) تتصف بالرونة المطلقة واللباقة الفائقة <sup>(٣)</sup> . وهنا يبدو أن فكرة إرسال حملة صليبية إلى الشرق — بالصورة التى تم عليها الأمر فعلاً — هذه الفكرة لم تكن من ابتكار الإمبراطور ألكسيوس كومنين أو بطرس الناسك ، وإنما الذى يرجع إليه الفضل فى ابتكار هذه الفكرة وتنفيذها هو البابا أوربان الثانى نفسه . ففى ضوء ما سمعه هذا البابا عن اضطهاد الأتراك السلاجقة للمسيحيين والحجاج ، بدأ أوربان الثانى يفكر فى مشروع لطرد المسلمين من آسيا ، بنفس

(١) Vasiliev, op. cit; I, p. 358.

(٢) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p.p: 47 - 50.

(٣) Ostrogorsky : op cit; p.p: 316 - 320.

الجهد والعزيمة التي يجرى بها طردهم من أسبانيا . هذا بالإضافة إلى ماسبق أن  
أُشِرنا إليه من وصول البابوية عندئذ إلى درجة كبيرة من سعة النفوذ والسلطان ،  
مما جعلها تفكر في انتهاز فرصة تلك الحرب ضد السلاجقة لبسط سيطرتها  
على الكنيسة الشرقية<sup>(١)</sup> .

والواقع إن البابا أوربان الثاني كان أصلح شخصية معاصرة لتنفيذ المشروع  
الصامبي الجديد ؛ إذ كانت لديه الجرأة على الدعوة للحرب الصليبية ورعايتها ،  
فضلا عما عرف به من بعد النظر ومقدرة في اختيار الرجال وتوجيههم والتأثير  
عليهم . ثم إن البابا أوربان الثاني لم يقل مرونة عن الإمبراطور البيزنطي  
ألكسيوس كومنين ، فلم يكذ ذلك البابا يلي منصب البابوية حتى فتح باب  
المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطي لتسوية المشاكل المعلقة بين الطرفين ،  
كما رفع قرار الحرمان الذي كان موقعا على ذلك الإمبراطور<sup>(٢)</sup> الأمر الذي  
أدى إلى نوع من التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وإلى منح الكنائس  
الكاثوليكية في البلاد الأرثوذكسية قسما من الحرية في تصريف شئونها .  
وفي سنة ١٠٩٠ أرسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين سفارة إلى البابا أوربان  
الثاني تحمل له اخلاص الإمبراطور ومحبة<sup>(٣)</sup> .

على أن تبادل السفارات والمجاملات لم يكف لتخليص آسيا الصغرى من  
خطر السلاجقة ، لذلك أراد الإمبراطور البيزنطي استغلال تلك العلاقات الطيبة  
مع البابوية للحصول على مساعدة عملية من الغرب ضد المسلمين ، فانهز فرصة  
عقد مجمع ديني برئاسة البابا في بيا كنزا - بشمال إيطاليا - في مارس سنة ١٠٩٥ ،  
وأرسل بعثة من القسطنطينية لحضور الجمع وطلب مساعدة البابا<sup>(٤)</sup> . وقد نجح

(1) Setton : op. cit; I. p.p. 226 - 227.

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 307.

(3) Runciman : op. cit. I, p p. 101 - 102.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. 156.

مبعوثو الإمبراطور في إقناع البابا بأن السلاجقة لا يهددون الدولة البيزنطية وحدها وإنما يهددون المسيحية جمعاء ، وأن قوتهم أخذت في الضعف والانهلال بحيث تكفي ضربة واحدة قوية للأجهزة عليهم ، وأنه لولا حاجة الإمبراطورية البيزنطية إلى الرجال ومسئولياتها الجسيمة في حماية حدودها على امتداد الدانوب ، لقامت وحدها بتوجيه ضربة قاضية ضد السلاجقة . وكان أن آمن البابا أوربان الثاني بضرورة معاونة الإمبراطورية البيزنطية ضد المسلمين ؛ فضلا عما وجده في هذه الفكرة من توجيه جهود الأمراء والفرسان وجبة صالحة تخفف من الحروب والمنازعات المحلية الدائرة بينهم في غرب أوروبا . وازداد إيمان بقية رجال الكنيسة الغربية بتلك الفكرة عندما سمح للمندوبين البيزنطيين بالكلام في الجمع للتدليل على وجهة نظرهم<sup>(١)</sup> .

على أن البابا أوربان الثاني اختار أن يحيط مشروعه الجديد بالسرية التامة ، وأخذ يقلب الفكرة في ذهنه ، وهو في طريقه إلى كليرمونت لعقد مجمع ديني للنظر في بعض المسائل الكنسية المتباينة ، ومن جملة ما توقع عقوبة الحرمان على ملك فرنسا فيلب الأول . وعندما انعقد هذا المجمع الديني في كليرمونت في نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، افتضت الأيام التسعة الأولى منه في مناقشة المسائل الكنسية المتعددة ، حتى إذا ماتم ذلك وجه البابا دعوته في اليوم العاشر إلى المسيحيين جميعاً للاتحاد لاستخلاص الأراضي المقدسة من المسلمين<sup>(٢)</sup> . وقد عرض البابا على المجتمعين - في أسلوب بلاغي جذاب - مدى ما تعانيه الأراضي المقدسة وحجاجها من متاعب بسبب سيطرة المسلمين عليها ، الأمر الذي صار يتطلب من المسيحيين الغربيين الإسراع لنجدة إخوانهم في الشرق . ونلاحظ أن أوربان الثاني وجه دعوته هذه للقادرين والفقراء سواء ، ليرك الجميع مشاغلهم في غرب أوروبا ويوجهون

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 272.

(2) Michaud : Hist. des Croisades. I, p.p. 92 - 94.

جهودهم ضد المسلمين في الشرق ، حيث يرعاهم الله ويبارك جهودهم ويغفر ذنوبهم ؛ ثم نادى البابا بالإسراع في تقديم النجدة بحيث يكون جميع المتطوعين على أهبة الرحيل إلى الشرق مع بداية فصل الصيف <sup>(١)</sup> .

وخلاصة القول أننا نخرج من أقوال المؤرخين المعاصرين الموثوق فيهم أن فكرة الحرب الصليبية نبتت من خطبة البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت ، ولم تنشأ — كما ظن البعض — من دعوة بطرس الناسك ومواعظه . ذلك أن نداء البابا لم يلبث أن صادف استجابة من جمهور الحاضرين في كليرمونت ، فصاحوا جميعاً صيحة رجل واحد : « هذه مشيئة الله Deus Io volt » ، وجاءت هذه الصيحة إيذاناً ببداية صفحة جديدة في تاريخ الحركة الصليبية قدر لها أن تستمر عدة قرون <sup>(٢)</sup> .

ولم يكد البابا أوربان الثاني يفرغ من خطبته التي دعا فيها لحرب المسلمين ، حتى جثأ أدهار — أسقف بوى Puy — أمام قدمي البابا راجياً أن يكون له شرف المساهمة في الحرب المقدسة ضد المسلمين ، وبذلك صار ذلك الأسقف أول من افتتح قائمة المتطوعين ، واختاره البابا أوربان مندوباً بابوياً في الحملة الأولى <sup>(٣)</sup> . وكان معنى حرص البابوية على تعيين مندوب عنها يرافق الصليبيين في رحلتهم إلى الشرق ، أنها أرادت تحقيق إشرافها وسيطرة الكنيسة على الحركة الصليبية وعلى الأراضي التي سيفتحها الصليبيون . وفعلا حدث بعد ذلك — عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس — أن نادى المطران دايمبرت Daimbert بأن هذه المدينة إنما من نصيب البابوية ، ودخل في نزاع بسبب ذلك الموضوع مع بلدوين الأول مؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية <sup>(٤)</sup> .

1 - Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p. p. 37 — 41

2 - Vasiliev : op. cit; II, p. 402.

3 - Cam. Med. Hist., vol 5. p. 273.

4 - Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 4

وجدير بالملاحظة أن أحداً من كبار الأمراء العلمانيين لم يكن حاضراً مجمع كليرمونت ليبدى استعداداه للمشاركة في تلك الحرب المنتظرة ضد المسلمين في الشرق . وقد أحس البابا أوربان الثانى من أول الأمر بأن مشروعه الصليبي في حاجة إلى تأييد من القوى العلمانية ، فجمع الأساقفة وأصدر المجمع قراراً بأن كل من يشترك في الحرب المقدسة تغفر له ذنوبه ، فضلاً عن أن ممتلكات الصليبيين ستوضع تحت حماية الكنيسة ورعايتها طوال مدة غيابهم <sup>(١)</sup> . كذلك استقر الرأي على أن يحيك كل محارب صليباً من القماش الأحمر على رداءه الخارجى من ناحية الكتف رمزاً للحركة التي اشترك فيها والفكرة التي خرج ليحارب من أجلها . ثم إن كل من يضع هذا الصليب بغية المشاركة في الحرب المقدسة ، عليه أن يتجه فوراً إلى الشرق ، فإذا تردد وعاد دون أن يؤدي واجبه أو أظهر تقاعساً عن تأدية ذلك الواجب ، فانه يتعرض لعقوبة الحرمان <sup>(٢)</sup> .

ولكن هيمنة الكنيسة على تلك الحركة الصليبية لم تلبث أن تعرضت لهزة عنيفة عندما أعلن أحد كبار أمراء فرنسا — وهوريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس (١٠٨٨ — ١١٠٥) — عزمه على المشاركة في المشروع الصليبي الذي دعا له البابا . ولم تكن هذه المرة الأولى التي أعلن فيها ذلك الأمير الحرب على المسلمين ، إذ سبق له أن شارك في حربهم في أسبانيا ، كما يروى ميخائيل السرياني أن ريموند سبق أن حج إلى بيت المقدس <sup>(٣)</sup> . وهكذا تجهعت عوامل كثيرة لتجعل الزعامة العسكرية للحملة الصليبية المقبلة لريموند ، على أن تبقى الزعامة الروحية للمندوب البابوي أدهمار .

أما عن البابا أوربان الثانى فلم يكتف بما قاله في كليرمونت ، وإنما أخذ ينقل

1 - Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p p. 44 — 45.

2 - Runciman : op. cit. I, p. p. 108 — 109.

3 - Michel Le Syrien : (Rec. Hist. Cr. Doc. Arm.) I, p. 327.

بين المدن والبلدان داعياً للحرب الصليبية ، فعقد مجمعاً في ليموج Limoges (ديسمبر ١٠٩٥) ، وكرر الدعوة نفسها في أنجرز ومان وتورز وبواتيه وبوردو وتولوز وغيرها (يناير — يونيو ١٠٩٦) . وأخيراً اصطحب البابا معه الأمير ريموند الرابع في مجمع نيم (يولييه ١٠٩٦) مما يثبت أن هذا الأمير قام مع البابا بدور جذري في الإعداد للحملة الصليبية الأولى ، وإن لم يعين رسمياً قائداً لتلك الحملة<sup>(١)</sup> ثم إن ريموند هو الذي نبه البابا إلى ضرورة الاعتماد على مساندة قوة بحرية لتنفيذ مشروع الحرب الصليبية ، فأرسل أوربان الثاني مبعوثين إلى جنوا طالباً مشاركتها في المشروع الصليبي الكبير . ولم يلبث الجنوية أن استجابوا لدعوة البابا ، فأعدوا اثنتي عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة ، فضلاً عن ناقلة كبيرة<sup>(٢)</sup> . وبذلك حققت جنوا لنفسها سبقاً كبيراً مكنها من اكتساب حقوق في بلاد الشام ، وهي حقوق لم يستطع البيازنة أو البنادقة الظفر بها إلا بعد جهد طويل<sup>(٣)</sup> .

وأخيراً عاد البابا أوربان الثاني إلى إيطاليا في أواخر سنة ١٠٩٦ بعد أن تأكد من نجاح مشروعه الصليبي ، إذ أقبل بعض الأمراء وكثير من الناس على المشاركة في الحركة الجديدة ، ليس فقط من البلدان القريبة — مثل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا — بل أيضاً من البلدان البعيدة مثل سكتلند ودانمرك وغيرها<sup>(٤)</sup> .

### صمرت العامة، الدعاة :

أثارت دعوة البابا أوربان الثاني حركة شعبية ضخمة ترتبط في التاريخ عادة باسم بطرس الناسك . ذلك أنه إذا كان البابا قد طلب من الأساقفة الدعوة

1 - Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 273.

2 - Heyd : Hist du Commerce, I, p. 133.

3 - Setton : op. cit., I, p. 252.

4 - Runciman, op. cit., I, p. 112.

للحرب الصليبية ، فإن الأمر لم يقتصر عليهم ، وإنما ظهرت طائفة جديدة من الدعاة قاموا بمجهود كبير واسع النطاق في الدعاية لشروع الحرب المقدسة . ويذكر التاريخ دائماً على رأس هؤلاء الدعاة اسم بطرس الناسك ، وهو رجل متقدم في السن حاول أن يقوم بالحج إلى بيت المقدس ولكنه تعرض في الطريق لضغط الأتراك فعاد إلى بلده دون أن يحقق أمنيته ، مما ترك أثراً في نفسه<sup>(١)</sup> . ويبدو أن حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيئته الغريبة - بثيابه المهلهلة وقدميه العساريتين وحماره الأعرج - جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العامة والدعاة في غرب أوروبا ، بحيث أنهم كانوا لا يكادون يستمعون لحديثه حتى تغلب عليهم الحماسة ، فيجتمعون في سرعة غريبة ويشرعون في الزحف صوب الشرق ، دون إعطاء البابا والأمراء أدنى فرصة لتنظيم الحركة الصليبية تنظيمًا جدياً من الناحيتين السياسية والحربية<sup>(٢)</sup> .

وقد مضى بطرس الناسك في دعوته بقوة ، فطاف بمختلف أقاليم فرنسا مثل أورليان وشامبني واللورين ، وخرج من هذه الأقاليم بعدد ضخم من الأتباع - حوالى خمسة عشر ألفاً - اصطحب بعضهم نساءهم وأطفالهم . وهنا نكرر أن فصاحة بطرس الناسك وقوة تأثيره لم تكن وحدها العوامل التي أدت إلى استجابة تلك الجموع الفقيرة من الفقراء والمعلمين للدعوة الصليبية . فهناك الظروف القاسية التي عاش فيها الفلاحون في غرب أوروبا في تلك الفترة ، والتي كان لها أكبر الأثر في ترحيبهم بالدعوة الصليبية بوصفها طريقاً للخلاص مما كانوا يقاسون من أهوال . فكثير من الأراضي الزراعية تعرضت للخراب نتيجة لغزوات الفيكينج وغيرهم من البرابرة ، فقلت الأقوات في الوقت الذي ازدادت أعداد السكان . ثم إن الحروب والنزاعات بين الأمراء والإقطاعيين أسهمت في الإخلال

1 - Setton : op. cit; I, p. 78.

2 - Grousset : Hist des Croisades, I, p. 5.



بالأمن وتعريض أرواح الناس للهلاك وممتلكاتهم للنهب ، مما جعل الغالبية العظمى من أهالي غرب أوروبا يعيشون في حال يرثى له من الفقر والحرمان والخوف دون أن يجدوا أى ضمان لحماية أرواحهم وممتلكاتهم وأرزاقهم<sup>(١)</sup> . فإذا أضفنا إلى ذلك كله النكبات الطبيعية والاقتصادية التى عانى منها الغرب الأوروبى وقت الدعوى للحرب الصليبية ، أدركنا السر الحقيقى لإقبال كثير من الفلاحين والمعلمين على المشاركة فى تلك الحرب ، إذ لا داعى للخوف من الموت ومن حرب المسلمين وهم فى حال أقرب إلى الموت فعلا . وكل ما هنالك هو أنه بدلا من أن يموت الرجل من الجوع فى بلده محملا بما عساه ارتكبه من ذنوب فى حياته ، فإن من الأفضل أن يموت فى حرب متدسة مما يضمن له غفران ذنوبه ودخوله الجنة<sup>(٢)</sup> .

وفى الوقت الذى كان بطرس الناسك ماضيا فى دعوته فى الغرب الأوروبى، ظهر زعيم آخر من زعماء العامة اسمه والتر الملقب بالفلس . وسرعان ما قاد والتر أتباعه عبر هنفاريا ثم أراضى الدولة البيزنطية . وفى الطريق نست تلك الجوع أنهم يفترقون بلادا مسيحية ، فأخذوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالى الآمنين<sup>(٣)</sup> . ومع ذلك فقد رحب الحكام البيزنطيون فى البلقان بتلك الجوع الصليبية رغم مظهرها الرث الذى يدل على سوء تنظيمها وجهل أفرادها بأبسط مبادئ القتال . وهكذا شق الصليبيون طريقهم إلى صوفيا وأدرنة حتى بلغوا القسطنطينية فى يولييه سنة ١٠٩٦ ، وهناك سمح لهم الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول بطرس

1 - Michaud : op. cit, Tome, I, p. p. 105 - 106.

2 - Runciman : op. I, p. p. 114 - 115.

3 - Vasiliev : op. cit; vol. II, p. 404.

الناسك . ولا بد أن يكون الامبراطور قد تأكد في تلك الأثناء من سوء استعداد أولئك الصليبيين وحاجتهم إلى التنظيم<sup>(١)</sup> .

أما بطرس الناسك فقد غادر كولونيا في إبريل سنة ١٠٩٦ على رأس جموعة مخترقاً ألمانيا وهنغاريا ، حتى وصلوا إلى الحدود الهنغارية البيزنطية . وقبل أن يغادر الصليبيون بلدة سملين Semlin الهنغارية وقع خلاف بينهم وبين الهنغارين بسبب الحصول على الميرة اللازمة لهم ، فلم يكن من الصليبيين إلا أن أحدثوا مذبحة رهيبة في تلك البلدة الهنغارية أسفرت عن قتل أربعة آلاف من أهلها الأبرياء<sup>(٢)</sup> . ولا شك في أن هذه الجريمة البشعة التي أتاها الصليبيون كان لها أثرها في إثارة رغبة البيزنطيين وتشككهم في تلك الجموع التي أتت إلى الشرق لتتحارب باسم المسيح والمسيحية ، وفي الوقت نفسه لم تتورع عن ذبح آلاف المسيحيين الأبرياء . لذلك رأى الإمبراطور البيزنطي ألا يترك لأولئك الصليبيين فرصة للعبث بأراضي الإمبراطورية ومدنها ، ووضع خطة استهدفت تخليص الإمبراطورية البيزنطية من شرهم في أقصر مدة ممكنة . وفعلا تولى بعض الموظفين البيزنطيين قيادة الصليبيين سريعا صوب القسطنطينية ، وإن كان أتباع بطرس الناسك قد استمروا في طريقهم إلى البسفور يهبون ويسلبون كل ما وصل إلى أيديهم ، فتهبوا بلجراد ونيش وغيرها من المدن والقرى الأهلة ، حتى وصلوا في نهاية المطاف إلى أسوار القسطنطينية في أول أغسطس سنة ١٠٩٦ حيث وجدوا والتر المفلس وجوعه في انتظارهم<sup>(٣)</sup> .

وعلى الرغم من البوادر السيئة التي بدرت من الصليبيين أثناء عبورهم أراضي الإمبراطورية الشرقية ، إلا أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين أحسن

1 - Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 61 - 62.

2 - Albert d'Aix : Hist. Occid, IV, p. 276.

3 - Cam. Med. Hist, vol 5, p. p. 275 - 276.

استقبال بطرس الناسك، وقدم له ولأتباعه النصح بالاعتصام في العصور إلى آسيا الصغرى قبل أن تصل إليهم إمدادات وقوات نظامية من الغرب تساعدهم على الصمود في وجه الأتراك السلاجقة<sup>(١)</sup>. على أن انتظار تلك الجموع أمام أسوار القسطنطينية لم يلبث أن سبب متاعب جمة للدولة، إذ أخذ الصليبيون يواصلون نهب القرى والضياع المجاورة، ويعتدون على الأهالي ويسلبونهم أقواتهم وأمتعتهم، بل إن الكنائس لم تسلم من اعتداءات أولئك الرعايا<sup>(٢)</sup>.

وهكذا أحس الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين وشعبه بخيبة أمل واضحة، بعد أن طلبوا من البابوية إمدادهم بجيوش حربية منظمة تساعدهم في دفع خطر المسلمين، فإذا بهم يفاجئون بوصول آلاف من الدهماء، دخلوا أراضي الإمبراطورية ليحصلوا على الغذاء والكساء إن لم يكن بالطريق السلمي فليكن عن طريق السلب والنهب والاعتداء على رعايا الإمبراطور الآمنين<sup>(٣)</sup>. وأمام ذلك الخطر الجديد بدأ ألكسيوس كومنين يعيد النظر في سياسته، فدفعه الخوف على عاصمته إلى الإسراع بنقل الصليبيين إلى الشاطئ الآسيوي للبسفور، وبدأت هذه العملية فعلا في أوائل أغسطس سنة ١٠٩٦. ومع ذلك فإن الإمبراطور ألكسيوس استمر يحسن النصح للصليبيين، فأشار عليهم بالتجمع والانتظار عند أحد المراكز الحصينة قرب البسفور، حتى تأنيهم الإمدادات والجيوش النظامية من الغرب<sup>(٤)</sup>. ولكن جموع العامة لم يستطيعوا ضبط أنفسهم والكف عن النهب والسلب، فاستمروا يعتدون على المزارع والضياع والقرى والكنائس القريبة، وأخذوا يوسعون دائرة نشاطهم دون أن يدروا أن نقيصة — قاعدة

(1) Chalandon : *Première Croisade*, p p. 76 - 77.

(2) Brehier : *Vie et Mort de Byzance* p. 310.

(3) Runciman : *op. cit*; I, p.p. 115 - 116.

(4) Cam. Med. Hist; vol. 5, p. 276.

السلطان قلعج أرسلان بن سليمان بن قتلش — على بعد عدة كيلو مترات فقط منهم <sup>(١)</sup> .

ولم تلبث أن بدأت المناوشات بين الصليبيين من جهة والأتراك السلاجقة من جهة أخرى . وقد أحرز الصليبيون بعض انتصارات محلية في تلك المناوشات الأولى ، مما جعلهم يغترون بقوتهم ويتmadون في الإغارة على أراضي السلاجقة . وفي أكتوبر سنة ١٠٩٦ انتهز الصليبيون فرصة ذهاب بطرس الناسك إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور البيزنطي وقرروا الزحف على نيتية <sup>(٢)</sup> . وكانت عدة الصليبيين خمسة وعشرون ألفاً منهم خمسمائة فارس فقط على أكثر تقدير ، والباقيون من المشاة المعدمين الذين لا يربطهم نظام ولا توحد بين صفوفهم قيادة . وعندما باغت السلاجقة الصليبيين أثناء زحفهم ، لم تستطع غالبية العامة المقاومة ، فأعمل فيهم السلاجقة ذبحاً وتقتيلاً بحيث لم ينج من ذلك الجمع الحاشد من الصليبيين إلا نحو ثلاثة آلاف . وقد أسرع الإمبراطور ألكسيوس كومنين — عندما سمع نبأ الكارثة — إلى إرسال بعض سفنه الحربية تحمل إمدادات إلى الصليبيين ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ؛ فحملت فلول الصليبيين إلى القسطنطينية حيث ظلوا في رعاية الإمبراطور حتى وصول حملة الأمراء <sup>(٣)</sup> .

وهكذا أخفقت حملة العامة التي قادها بطرس الناسك والوتر المفلس . ولم تكن بقية الحملات المماثلة التي قادها فولكمار Volkmar وجوتشوك Gottschalk وإميش Emich أحسن حالا ، بل على العكس صارت كلها وصمة سوداء في تاريخ الحركة الصليبية <sup>(٤)</sup> .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 8.

(2) Vasiliev : op. cit; II, p. 405.

(3) Ostrogorsky : op. cit, p. 321.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 9.

### الصليبيون واليهود :

انتشر اليهود على هيئة جاليات عديدة على طول الطرق التجارية في غرب أوروبا . وقد ظل هؤلاء اليهود طوال العصور الوسطى على صلة وثيقة بإخوانهم يهود الشرق - في البلدان الإسلامية أو في الدولة البيزنطية - مما قوى مركزهم التجارى والاقتصادى ، ومكنهم من القيام بنشاط مالى كبير وتأسيس عدة بيوت لإقراض الأموال للأمرء والفرسان وغيرهم<sup>(١)</sup> . ومن المعروف عن اليهود في كل زمان ومكان أنهم لا يرحمون من يتعامل معهم ، فوقع في شباكه عدد كبير من المدنيين في أوروبا العصور الوسطى ، وهؤلاء ساءت أحوالهم المادية نتيجة للفوائد الباهظة التى فرضها اليهود عليهم . ثم جاءت الحروب الصليبية لتضيف إلى قائمة المدنيين عدداً كبيراً من الفرسان ، الذين اضطروا إلى اقتراض المال لإعداد العدة وتجهيز أنفسهم بالسلاح اللازم للحرب المقدسة ؛ مما أثار نوعاً من الاستياء العام ضد أولئك المرابين المستغلين في غرب أوروبا على عصر الحركة الصليبية<sup>(٢)</sup> .

ثم إن موقف اليهود أنفسهم من مشروع الحرب الصليبية كان موقفاً معادياً . ففي ديسمبر سنة ١٠٩٥ كتب اليهود في شمال فرنسا إلى إخوانهم في ألمانيا يحذرونهم من أن الحركة الصليبية ستعود بالضرر على اليهود ؛ وبالتالي فقد أخذ اليهود - عن طريق خلاياهم وجالياتهم المنبثة في مختلف أجزاء الغرب الأوروبى - يعرقلون جهود الصليبيين . وكان أن انتشرت إشاعات مؤداها أن جودفرى بوايون - الذى كان يعد عدته للمشاركة في الحرب الصليبية - قد أقسم على أن ينتقم للمسيح بقتل جميع اليهود . وعندما انتشرت هذه الشائعة ، لجأ يهود

---

1 - Pirene : Economic and Social Hist. of Med. Europe. p. 133.

2 - Thompson : Economic and Social Hist. of the Middle Ages p. 394.

مميز وكولونيا في حوض الراين إلى أسلوبهم الرخيص الذي لا يعرفون غيره حتى اليوم ، فجمعوا الأموال وقدموها لجودفري<sup>١</sup> بوايون على سبيل الرشوة ليعدل عن نواياه<sup>(١)</sup>.

على أن مثل هذه الحلول كانت لا يمكن أن تنجح في جعل أتباع الكنيسة — وهم في موجة حماسهم الدينية — ينفرون لليهود مسلكهم تجاه المسيحيين والمسيحية . وإذا كانت الحركة الصليبية قد أيقظت في المسيحيين روح الانتقام من أعدائهم ، فلماذا يختص المسيحيون المسلمين بذلك العداء ويتركون اليهود ؟ أليس اليهود هم الذين صلبوا المسيح عليه السلام ؟ ألم يكن اليهود هم الذين حاولوا سحق المسيحية وهي في المهد ؟ أليسوا هم الذين اضطهدوا المسيحيين الأوائل وشردوهم وحرصوا عليهم الحكام الرومان ليعملوا فيهم قتلا وتذبيحاً ؟<sup>(٢)</sup> وهكذا لم يكن منتظراً أن تمر موجة الحماسة الصليبية بسلام دون أن يصيب اليهود في أوروبا شيئاً من رشاشها .

وكان أن تجتمع في حوض الراين في إبريل سنة ١٠٩٦ جمع من الصليبيين الألمان ، زاد عددهم على عشرة آلاف ، تحت قيادة فولكار ، ومن هناك شرعوا في الزحف شرقاً للحاق ببطرس الناسك . وفي الوقت الذي شنت تلك المجموعة طريقها نحو براغ ، إذا بمجموعة أخرى تتكون بعد قليل في حوض الراين برعامة الأمير إميخ Emich<sup>(٣)</sup> . وقد استهل إميخ هذا نشاطه الصليبي في أوائل مايو سنة ١٠٩٦ بمهاجمة اليهود في مدينة سبير Spier ونهب أموالهم وقتل اثني عشر يهودياً ، في حين لم ينقذ الباقي سوى أسقف المدينة الذي استغلهم بحمايته . ولم يكد إميخ وجوعه يصلون بعد ذلك إلى ورمز حتى انتشرت إشاعة بأن اليهود قتلوا

1 - Runciman : op. cit; I, p. p. 135 — 136

2 - Cary : A Hist. of Rome, p p. 589 — 590.

3 - Setton : op cit, I, p. p. 263 — 265.

مسيحيًا وحفظوا اجثته في إناء به ماء ليستخدموا ذلك الماء في تسميم آبار المدينة<sup>(١)</sup>.  
وسرعان ما أدى انتشار هذه الإشاعة إلى اشتراك الفلاحين من الجهات والضواحي القريبة مع رجال إميخ في إحداث مذبحه كبرى باليهود (٢٠ مايو) ، هلك فيها أكثر من خمسمائة يهودي<sup>(٢)</sup>. ثم اتجه إميخ بعد ذلك إلى مينز حيث أغلق رئيس الأساقفة أبواب المدينة في وجه الصليبيين . على أن اقتراب رجال إميخ من مينز أدى إلى حركة ضد اليهود قتل أثناءها أحد اليهود ، وعندئذ فتح الناس أبواب المدينة للصليبيين الذين اقتحموا المباني التي اختبأ فيها اليهود وقتلهم ، في حين أعلن بعضهم اعتناقه المسيحية لينجو من ذلك المصير الرهيب . وقد قدر عدد قتلى اليهود في حوادث مينز وحدها بألف قتيل<sup>(٣)</sup> . ولم تكن حوادث مينز هي الأخيرة بالنسبة لليهود في حوض الراين ؛ وإنما اتجه إميخ ورجاله بعد ذلك صوب كولونيا حيث قتلوا بعضهم ، ثم قصدوا القسطنطينية بعد ذلك عن طريق هنغاريا .  
وسرعان ما وصلت أخبار ما فعله إميخ باليهود إلى مسامع بعض الجماعات الصليبية التي سبقت إلى الشرق ، ففعل فولكار وأتباعه باليهود في براغ مثلما فعله إميخ بهم في مدن الراين ( ٣٠ يونيو ) . وقد حاول فولكار أن يكرر التمثيلية ضد اليهود في مدن هنغاريا ، ولكن الهنغارين لم يسمحوا له بذلك ، وهاجموه وأعوانه من الصليبيين ففرقوهم وقتلوا كثيرا منهم . وعندما أتى بعد ذلك إميخ ورجاله إلى هنغاريا ، قابلهم الهنغاريون بنفس الأسلوب ، مما أدى إلى تدمير حلفي إميخ وفولكار في هنغاريا<sup>(٤)</sup> .

---

١ - Grousset : Hist: des Croisades, I, p. 10.

٢ - Cam. Med. Hist., vol 5, p 277.

٣ - Albert d'Aix, IV. p. p. 292 - 293.

٤ - Runciman : op. cit; I, p. p. 134 - 141.

هذا ، وقد استمر شعور العداء تجاه اليهود في غرب أوروبا طوال عصر الحروب الصليبية . ولم تكن البايوية نفسها أقل عداء لليهود ، فأصدر البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ مرسوماً بابوياً يحد من استغلال اليهود للصليبيين سواء في عمليات الإقراض أو رهن الممتلكات أو غير ذلك<sup>(١)</sup> .



## الفصل الثاني

### الأمراء الصليبيون والدولة البيزنطية

جودفرى بوابورد وألكسيوس كومنين :

فى الوقت الذى أخذت حملات العامة من المدمين والغوغاء يذبجوف فى اليهود ويعتدون على الشعوب الأوربية المسيحية التى سلكوا أراضىها ، جرى تنظيم الشطر الثانى من الحملة الصليبية الأولى - وهو الشطر المعروف بحملة الأمراء - وإعداد ه إعداداً رتيباً . والواقع إن الشطر الخاص بالأمراء فى الحملة الصليبية الأولى تألف من عدة حملات أو جموع ، لكل منها طابعها المميز الذى لازمها منذ أول الأمر ، وميز نشاطها فى الشرق <sup>(١)</sup> . وبعبارة أخرى فإن الروح الإقطاعية بدت واضحة فى الشطر النظامى من الحملة الصليبية الأولى ، إذ تولى زعامتها عدة أمراء لكل منهم اتجاهاته وجنده وسياسته الخاصة ، مما جعل تلك الحملة فى حقيقة أمرها عبارة عن عدة حملات ربما عملت أحياناً فى اتجاهات متعارضة <sup>(٢)</sup> .

أما المجموعة الأولى من حملة الأمراء فكان على رأسها جودفرى بوايون أمير لوثرنجيا وبرفته أخوه بلدوين البولونى ، فضلاً عن عدد آخر من كبار الأمراء <sup>(٣)</sup> . ويبدو أن المكانة البارزة التى تمتع بها جودفرى بوايون فى الإمبراطورية المقدسة ، وأهمية الإمارات التى شارك أصحابها فى تلك الحملة ، جعلت لها مكانة خاصة دفعت كثيراً من الفرسان إلى الانضمام إليها ، فاكسبت طابعاً مميزاً من أول

(1) Cam, Med. Hist. vol. 5, p. p. 279-280.

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٦٥

(٣) Michand : Hist des Croisades, I, p. p. 146-147.

(م ١٠ - الحروب الصليبية)

الأمر<sup>(١)</sup>. هذا مع ملاحظة أن معظم المشتركين في هذه الحملة كانوا من القطاع اللاتيني في الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ولم يكن من القطاع الألماني سوى القليل ، مما جعل الطابع العام لحملة جودفري بوايون فرنسيا . وقد ظهر أثر ذلك عندما استقر أولئك الصليبيون ببلاد الشام ، إذ سرعان ما ذبلت العلاقات القطاعية التي ربطتهم بإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وأقاموا ملكية جديدة في بيت المقدس وفق النظم والتقاليد الفرنسية<sup>(٢)</sup>

وكانت حملة جودفري بوايون أول حملة صليبية نظامية شقت سبيلها إلى الشرق . وقد سلكت طريق هنجاريا — مثل حملات العامة التي سبقتها — في وقت كان الهنغاريون مازالوا يحملون كثيرا من الحقد والضعف للصليبيين ، بعد الضرر الذي لحق بهم على أيدي جموع بطرس الناسك وفولكمار وإمميخ<sup>(٣)</sup> . لذلك رأى جودفري أن يبذل تلك المخاوف عند الهنغاريين قبل أن يعبر بلادهم ، فعقد اجتماعا مع كولمان ملك هنجاريا على الحدود الهنغارية الألمانية . وفي ذلك الاجتماع قدم جودفري أخاه بلدوين البولوني ليظل رهينة لدى الملك الهنغاري حتى يتم انتقال قواته عبر الأراضي الهنغارية . وفي الوقت نفسه أصدر جودفري أوامر مشددة لرجاله ليحول بينهم وبين أعمال النهب والعدوان على الأهالي أو ممتلكاتهم<sup>(٤)</sup> .

وبوصول جودفري بوايون إلى الحدود البيزنطية في أواخر نوفمبر سنة ١٠٩٦ بدأت « المسألة الصليبية » في تاريخ الدولة البيزنطية . ففي ذلك الدور بالذات وضع الإمبراطور ألكسيوس كومنين سياسة ثابتة تجاه الصليبيين ، وهي السياسة

(١) Runciman : op. cit; I, p. 147.

(٢) Grousset : op. cit; I, p. 12.

(٣) Setton : op. cit; I, p. 268.

(٤) Albert d'Aix, IV, p. p. 299-305.

التي لم يتخل عنها خلفاؤه أباطرة القسطنطينية طوال قرن من الزمان . ذلك أن ألكسيوس كومنين أراد أن يستغل الحركة الصليبية ويسخرها لتحقيق أهدافه ومصالح دولته الخاصة ، فلما فشل في ذلك انقلبت سياسته تجاه الصليبيين إلى عدااء صريح <sup>(١)</sup> . وقد بدأ الإمبراطور البيزنطي بإرسال رسل إلى جودفري بوايون لاستقباله فيما بين بلغراد ونيس ، وهناك عقدوا معه اتفاقية تمهيدية باسم الإمبراطور ، تعهد فيها جودفري بمنع رجاله من القيام بأي عمل من أعمال السلب والنهب داخل أراضي الإمبراطورية ، مثلاً فعل أتباع بطرس الناسك وغيرهم من جموع العامة . وفي مقابل ذلك تعهدت الإمبراطورية بإمداد الصليبيين بكل ما يلزمهم من تموين ، حتى وصولهم إلى جبهة الحرب ضد السلاجقة <sup>(٢)</sup> . وعلى أساس الاتفاقية السابقة استأنف الصليبيون طريقهم حتى وصلوا إلى شاطئ بحر مرمرة حيث توقفوا قليلاً للراحة على شاطئه عند بلدة سليمبريا Selymbria ، وكان ذلك حوالى منتصف ديسمبر سنة ١٠٩٦ . على أنه حدث في ذلك المكان أن أفلت زمام الصليبيين فترة من يد جودفري ، وفقدوا روح النظام التي تحلوا بها حتى ذلك الوقت ، فقام رجال جودفري بنهب سليمبريا <sup>(٣)</sup> . ومهما يكن من أمر ، فإن أهم ما كان يعنى الإمبراطور البيزنطي في ذلك الدور هو تحديد الجانب القانوني للعلاقة بينه وبين الصليبيين . فالحرب الصليبية جاءت شيئاً جديداً على الغرب الأوربي ، في حين كان الصراع ضد المسلمين أمراً مألوفاً للبيزنطيين منذ القرن السابع . وهكذا أراد الإمبراطور البيزنطي أن يتصور حملة جودفري بوايون في صورة نجدة سريعة وصلته وسط معركة طويلة لمضد المسلمين ، لنصرة المسيحية وطرد السلاجقة من الأراضي التي احتلوها في آسيا <sup>(٤)</sup> .

(1) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. 164-165.

(2) Albert d'Aix, IV, p. 299-305.

(3) Idem, p. 304-305.

(4) Brehier : op. cit; p. 310

والواقع أنه منذ وصول حركة الفتوح الإسلامية إلى شواطئ البحر المتوسط في القرن السابع ، والدولة البيزنطية في صراع ضد المسلمين لا يكاد يهدأ قليلاً حتى يشتد طويلاً . ومنذ توسع السلاجقة في الشرق الأدنى ، والدولة البيزنطية تتحمل وحدها الضربة تلو الأخرى من جراء ذلك التوسع . وبعبارة أخرى فإن الدولة البيزنطية — وليس الغرب الأوربي — هي التي تولت عبء الدفاع عن الأماكن المقدسة في الشرق ضد المسلمين طوال عدة قرون ؛ فلا أقل من أن يتولى الإمبراطور البيزنطي قيادة الجيوش الصليبية التي أخذت تغد من الغرب الأوربي منذ أواخر القرن الحادي عشر لمحاربة المسلمين <sup>(١)</sup> .

وربما أراد الإمبراطور ألكسيوس كومنين أن يجعل من جودفري بوايون صورة للقائد النورمانى رسل باليل الذى سبق أن حضر على رأس جموعه لمحاربة السلاجقة تحت راية الإمبراطور البيزنطي . وكل ما هنالك هو أن جودفري جاء أكثر قوة وعتاداً من سلفه رسل باليل ، مما جعله يبدو أعظم فعلاً للإمبراطورية البيزنطية وأكثر قدرة على خدمة أغراضها . وفي الوقت نفسه أدرك ألكسيوس أن قوة جودفري من الممكن أن تجعله أكثر خطراً على الإمبراطورية ومصالحها <sup>(٢)</sup> . ولعل الدرس الذى أخذه الإمبراطورية من ثورة رسل باليل عليها واغتصابه أراضيها وانضمامه إلى السلاجقة ضدها ، هذا الدرس لم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد نستته بعد عندما وصل جودفري بوايون على رأس جيوشه إلى أراضي الإمبراطورية في أواخر القرن الحادي عشر . لذلك حرص الإمبراطور ألكسيوس على ألا تتكرر مأساة رسل باليل ، وبدأ يتصرف تجاه جودفري في شيء من الحزم ، فطلب منه أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور ، بمعنى أن يقسم القائد الصليبي أن يكون تابعاً للإمبراطور البيزنطي .

(1) Grousset, op. cit., I, p. 16.

(2) Chalandon : Première Croisade, p p. 119-121.

في الأراضي الآسيوية التي عساه ينجح في استردادها من المسلمين<sup>(١)</sup>.

هذه هي وجهة نظر الإمبراطور ألكسيوس كومنين - ويبدو أنه لم يستهدف أي هدف آخر عدا إقناع جودفري بالولاء للإمبراطورية ورد الأراضي التي يستردها من السلاجقة في آسيا. وهذا الأمر وحده كان كافياً لتحديد العلاقة بين الإمبراطورية البيزنطية من ناحية والصليبيين الغربيين من ناحية أخرى. وكان الإمبراطور ألكسيوس - عندما سمع بما فعله الصليبيون في سليمان - قد أرسل إلى جودفري طالباً منه ردع قواته عن النهب، والحضور ومعه رجاله أمام أسوار القسطنطينية، فحضر جودفري على رأس قواته وعسكروا أمام سور العاصمة في ديسمبر سنة ١٠٩٦، وعندئذ أرسل ألكسيوس إلى جودفري مرحباً داعياً إياه لمقابلته، ليتسم له يمين الولاء<sup>(٢)</sup>. على أن جودفري بوايون رفض تلك الدعوة، لأنه بحكم مركزه في الإمبراطورية المقدسة، وبحكم تبعيته للإمبراطور الغربي كان يتعذر عليه أن يقسم يمين التبعية والولاء للإمبراطور البيزنطي<sup>(٣)</sup>. وكيف كان يستطيع أمير أن يوزع ولاءه بين الإمبراطور هنري الرابع في الغرب والإمبراطور ألكسيوس كومنين في الشرق، مع ما بين الإمبراطوريتين من تنافر؟ وأخطر من هذا، كيف يستطيع جودفري - وهو الأمير الكاثوليكي الذي وفد على رأس حملته تنفيذاً لدعوة البابا أوربان الثاني - أن يقدم ولاءه

(1) Runciman : op. cit; I. p. 149

(2) Chalandon : Alex s Comnene, p. 176.

(٣) أشار ابن الأثير إشارة سرية إلى ما نشأ من خلاف بين زعماء الحملة الصليبية الأولى والإمبراطور البيزنطي، واشترط الإمبراطور على أولئك الزعماء تسليمه ما يفتحونه من بلاد وعلى أن يقسموا له يمين الولاء. فقال في حوادث سنة ٤٩١ هـ : « فلما عزم الفرنج على قصد الشام ساروا إلى القسطنطينية ليعمروا الحجاز إلى بلاد المسلمين ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم. فلما وصلوا إليها؛ منهمم ملك الروم من الاجتياز ببلاده، وقال : لا أمسككم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا أنكم تسلموا إلى أنطاكية. »

(الكامل؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ).

للإمبراطور البيزنطي حامى الكنيسة الأرثوذكسية ، مع ماين الكنيستين الشرقية والغربية من شقاق ونفور ؟ فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة جودفرى فى عدم توريط زملائه الأمراء الصليبيين اللاحقين به ، أدركنا حرج موقفه وأسباب تمنعه عن تلبية دعوة الإمبراطور البيزنطي<sup>(١)</sup> . لذلك أخذ جودفرى يماطل فى تحديد موعد المقابلة مع الإمبراطور حتى تصل بقية الجيوش الصليبية من الغرب ، فيتخذ الأمراء الغربيون موقفاً موحداً تجاه الإمبراطور البيزنطي ويضطرونه إلى التنازل عن مطالبه . وهذا وإن كانت بعض المراجع تعلق تمنع جودفرى عن مقابلة الإمبراطور بأنه كان يخشى على نفسه من غدر الإمبراطور ، وأنه طلب رهاشاً تبقى لدى رجاله لحين عودته إليهم سالمًا ، وهو الطلب الذى اعتبره الإمبراطور إهانة له ، وماسا بشرفه<sup>(٢)</sup> .

وعندما ضاق ألكسيوس بقسوف جودفرى ، وأدرك أنه يماطل لكسب الوقت اتخذ قراراً خطيراً هو منع تموين الصليبيين ، فرد الصليبيون على ذلك بنهب الضياع والضواحي المحيطة بالقسطنطينية مما جعل الإمبراطور يعدل بسرعة عن قراره<sup>(٣)</sup> . وفى الوقت نفسه عمل الإمبراطور على استرضاء الصليبيين بالسماح لهم بالإقامة فى ضاحية بيرأ Pera - من ضواحي القسطنطينية - حتى يحتموا بها من قسوة الشتاء من ناحية ، وحيث يسهل على الإمبراطور مراقبتهم والإشراف عليهم من ناحية أخرى<sup>(٤)</sup> .

على أن هذه الإجراءات من جانب ألكسيوس لم تحل المشكلة ، إذ ظل جودفرى بوايون طوال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٠٩٧ قابلاً مع جنوده

(1) Runciman : op. cit; I, P. p. 149-150.

(2) Gam, Med Hist vol. 5, p 281.

(3) Brehier : op. cit; p. 311.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. p. 178-179.

في ييرا ، ورفض أن يؤدي عيمين الولاء للإمبراطور البيزنطى أو حتى يقبل دعوته لمقابلته . وعندما أحس الإمبراطور بأن الصليبيين النورمان تحت قيادة بوهيموند في طريقهم من إيطاليا إلى القسطنطينية عن طريق مقدونيا ، فكر في إجراء سريع للحيلولة دون التقاء هاتين المجموعتين من الصليبيين ، فنع التموين عن قوات جودفرى مرة أخرى ( أوائل إبريل سنة ١٠٩٧ ) مما أدى إلى صدام جديد بين البيزنطيين والصليبيين . وكان أن هاجم الصليبيون البيزنطيين في ييرا ، وبعد ذلك انسحبت قوات جودفرى منها بعد أن نهبتها وأحرقتها وأخذت تعيثُ فساداً في المناطق القريبة من القرن الذهبي ، بل لقد هاجمت أسوار القسطنطينية نفسها <sup>(١)</sup> . وإزاء ذلك اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى أن يأمر جيشه بمهاجمة الصليبيين لدفع خطرهم ، ففر رجال جودفرى ولم يستطيعوا الصمود أمام الجيش البيزنطى . وهكذا أدرك جودفرى بوايون حقيقة قوته ولم يجد بداً من مسألة الإمبراطور <sup>(٢)</sup> .

وأخيراً اضطر جودفرى بوايون إلى قبول شروط الكسيوس كرمين ، فقصده القصر الإمبراطورى لتقديم ولاءه للإمبراطور البيزنطى وإعلان وضع حملته الصليبية في خدمة الامبراطورية لاسترداد الأراضي التي اغتصبها السلاجقة من الإمبراطورية <sup>(٣)</sup> . وبعبارة أخرى فقد تعهد جودفرى بوايون بتسليم الامبراطور جميع الأراضي التي كانت ملكا للامبراطورية البيزنطية قبل موقعة مانزكرت ، والتي سيستردها الصليبيون من السلاجقة . ومعنى ذلك أن الاتفاق لا يشمل فقط البلاد والمدن الواقعة في الأناضول مثل نيقية ، بل يشمل أيضاً البلاد والمدن الواقعة في أطراف الشام والعراق مثل أنطاكية والرها . وهكذا جاءت تلك الاتفاقية

---

(1) Albert d'Aix, p. p. 307-308.

(2) Runciman : op. cit; I, p. 151.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. p. 87-88.

التي تمت في أبريل سنة ١٠٩٧ واضحة حاسمة ، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تعتمد عليها وتمسك بها في المطالبة بحقوقها من الصليبيين طوال القرن الثاني عشر . وزاد من تعقيد المشكلة أن الإمبراطورية البيزنطية اختارت ألا تفسر الاتفاقية السابقة في ضوء ما كان للإمبراطورية من ممتلكات في القرن الحادي عشر - على عهد باسل الثاني - وإنما في ضوء ما كان للإمبراطورية قديماً من أملاك واسعة في الشرق على عهد الإمبراطور جستنيان . وفي تلك الحالة لم تكثف الإمبراطورية بالمطالبة بحقوقها في أنطاكية والرها ، وإنما طالبت أيضاً ببيت المقدس وطرابلس . على أننا سنرى أن الصليبيين ما كادوا يثبتون أقدامهم في تلك المدن ويستولون عليها ، حتى تناسوا كل ما للإمبراطورية من حقوق وكل ما قدموه لها من وعود مما أثار مشاكلاً طويلة بين الجانبين طوال القرن الثاني عشر<sup>(١)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن يمين الولاء الذي أقسمه جودفري بوايون جعل منه - ولو من الناحية الأدبية - تابعاً للإمبراطورية البيزنطية . وكان أن غمر الإمبراطور ألكسيوس الأمير جودفري بالهدايا الثمينة والخيول المطهّمة ، كما غالى في إمداد الجيش الصليبي بالإمدادات السخية<sup>(٢)</sup> . وفي عاشر أبريل سنة ١٠٩٧ أمر ألكسيوس كومنين بنقل جودفري وجيشه إلى الشاطئ الآسيوي حيث انتظر جودفري وصول الحملة النورمانية . ولم يكد يتم نقل جيش جودفري إلى البر الآسيوي حتى وصل جيش النورمان بقيادة بوهيموند إلى أسوار القسطنطينية ، وبذلك يكون ألكسيوس كومنين قد نجح في تنفيذ خطته الخاصة بعدم اجتماع الحملتين - حملة جودفري وحملة بوهيموند - أمام أسوار عاصمته ، ليتمكن من مفاوضة كل فريق على حدة<sup>(٣)</sup> .

(1) Grousset : op. cit. I, p 19.

(2) Michaud : Hist. des Croisades. I, p. 176.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 183.



### برهيموند النورمانى وألكسبوس كومنين :

كان ذلك فى مستهل سنة ١٠٩٦ عندما أخذ بوهيموند النورمانى — أكبر أبناء روبرت جويسكارد — يحاصر مدينة أمالفى التى ثارت ضد النورمان فى إيطاليا . وفى تلك الأثناء ترامت إلى مسامع بوهيموند أن جيوشاً غفيرة خرجت من فرنسا ولوثرنجيا وألمانيا فى طريقها إلى بيت المقدس<sup>(١)</sup> . ولم يكد بوهيموند يتأكد من طبيعة تلك الحركة وأهدافها حتى ترك حصار أمالفى وأزمع هو الآخر الخروج إلى الشرق على رأس حملة نورمانية كبيرة ، وبصحبة ابن أخته تنكرد وغيره من أمراء النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية . وفى نوفمبر سنة ١٠٩٦ نزلت الحملة النورمانية فى أفلونا Avlona على شاطئ ألبانيا ، ومنها اخترقت البلقان شرقاً عن طريق تراقيا إلى القسطنطينية<sup>(٢)</sup> .

على أن حملة النورمان الصليبية مرعان ما سببت فزعاً للبلاط البيزنطى أكثر من حملة جودفرى . فهل حقيقة أن الحملة النورمانية الكبيرة ليست إلا مجرد حملة صليبية استهدفت حرب المسلمين ، أم أن لها أغراض وأهداف وأطاع أخرى فى قالب الدولة البيزنطية نفسها ؟ إن النورمان بالذات لهم سوابق خطيرة فى الهجوم على الإمبراطورية البيزنطية ، فضلاً عن أن هذه الحملة جاء على رأسها ابن روبرت جويسكارد الذى ما زالت محاولته لغزو الدولة البيزنطية وتهديد القسطنطينية نفسها سنة ١٠٨١ ماثلة فى أذهان البيزنطيين<sup>(٣)</sup> . هذه هى المخاوف التى أثارها حملة بوهيموند فى نفوس المعاصرين داخل الإمبراطورية البيزنطية ، وهى مخاوف أثبتت الأحداث بعد قليل عدم صحتها ، لأن بوهيموند

(1) Setton : op. cit, p. 155.

( ) Runciman : op. cit, I, p 155

(3) Cam Med. Hist, vol, 5, p. 282.

نفسه كان يدرك تماماً عدم مناسبة الوقت للقيام بمحاولة توسعية جديدة على حساب الدولة البيزنطية في البلقان ، وأن أية محاولة من هذا النوع تحت ستار الحرب الصليبية ستقابل بالاستهجان في جميع أنحاء العالم المسيحي وستسبى إلى النورمان إساءة بالغة . وربما كان أقرب إلى الصواب القول بأن بوهيموند رأى في الحروب الصليبية في الشرق فرصة تمكنه من تحقيق ما فشل رسل باليل فيه ، وهو إقامة إمارة للنورمان في آسيا على حساب السلاجقة والبيزنطيين جميعاً ؛ ولتكن هذه الإمارة الجديدة في أنطاكية<sup>(١)</sup> !

وهكذا سار بوهيموند على رأس جموعه قاصداً القسطنطينية ، وفي أثناء سيرهم في البلقان نجح بوهيموند في كبح جماحهم ، فمنعهم من الاعتداء على الأهالي وأموالهم ، بل على العكس كثيراً ما أظهر البيزنطيون وأهل البلقان عداوتهم للنورمان ، في الوقت الذي قابل بوهيموند تلك الإساءات بشئ من ضبط النفس والتسامح حتى لا يثير شكوك الإمبراطورية<sup>(٢)</sup> . وبهذه السياسة الحكيمة نجح بوهيموند في كسب ثقة الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، الذي أمر بإمداد القوات النورمانية بكل ما احتاجت إليه من ميرة طوال طريقها إلى القسطنطينية<sup>(٣)</sup> .

وعندما اقترب النورمان من القسطنطينية في أبريل سنة ١٠٩٧ طلب بوهيموند مقابلة الإمبراطور ألكسيوس ليصالحه ويعبر له عن إخلاصه ونواياه الطيبة ، فوافق الإمبراطور على شرط أن يدخل بوهيموند القسطنطينية بمفرده ويترك جيشه خارجها . والواقع إن بوهيموند بالذات كان أخطر الزعماء الصليبيين في نظر الإمبراطور البيزنطي ، ليس بسبب التجارب المريرة السابقة التي ذاقتها الإمبراطورية البيزنطية من النورمان ومطامعهم فحسب ؛ وإنما أيضاً

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 21.

(2) Chalandon : Première Croisade, p.p. 133-136.

(3) Gesta Francorum, p. p. 20-21.

بسبب كفاية قوات بوهيموند وحسن إعدادها وتنظيمها وقوة تسليحها ، مما جعل الحملة النورمانية تبدو قوة رهيبة داخل أراضى الدولة البيزنطية<sup>(١)</sup>.  
على أن تطور الأمور سرعان ما أظهر أن شيئاً من هذه المخاوف لم يتحقق ، إذ أطاع بوهيموند رغبة الإمبراطور وتقدم إلى القسطنطينية بمفرده تاركا قيادة الجيش النورمانى لابن أخته تنكرد . والواقع إن بوهيموند أظهر حكمة بالغة فى ذلك الدور ، إذ كان يدرك قوة الإمبراطورية البيزنطية ، وأن الصليبيين دون مساعدتها لن يستطيعوا تحقيق هدف واحد من أهدافهم فى الشرق ، فضلا عن أن النزاع بين الصليبيين والبيزنطيين لن يعود إلا بالخسارة على الطرفين ، فى حين من الممكن أن يحقق التحالف بين الطرفين نتائج مفيدة للمسيحيين أجمعين . هذا كله بالإضافة إلى ما كان يرمى إليه بوهيموند من كسب مساعدة الإمبراطور البيزنطى ليتمكن عن طريق هذه المساعدة من تحقيق أطماعه فى الشرق ، وهى المطامع التى تتلخص فى فرض نوع من الزعامة على بقية زعماء الصليبيين من ناحية ، وفى إنشاء مملكة لبوهيموند فى الشرق تغنيه عن المنازعات التى دبت فى إيطاليا وصقلية بين أفراد البيت النورمانى عقب وفاة أبيه روبرت جويسكارد ، من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup> .

وكان أن تمت المقابلة بين بوهيموند والإمبراطور ألكسيوس كومنين فى جو مشبع بالود والتفاهم . وسرعان ما أقسم بوهيموند يمين الولاء للإمبراطور وأعلن تبعيته له ، فغمره — هو الآخر — بالأموال والهدايا الثمينة . ولما كانت هذه التبعية تحمل بين طياتها مبدأ الحد من أطماع بوهيموند ونشاطه فى الشرق ، لأنه سيفتح ما يفتحه من بلاد باسم الإمبراطور البيزنطى ، فإن بوهيموند رأى أن يحتاط لنفسه ومستقبله ، فطلب من ألكسيوس منحه إقطاعاً كبيراً فى

(1) Runciman : op. cit, I, p. 157.

(2) Chalandon : Premiere Croisade, p. 132.

إقليم أنطاكية . وهنا لبي الإمبراطور طلب بوهيموند ، فوعده بمنطقة واسعة حول أنطاكية طولها مسيرة خمسة عشر يوماً وعرضها مسيرة ثمانية أيام<sup>(١)</sup>. وبذلك تكون هذه الاتفاقية قد حددت مولد إمارة أنطاكية النورمانية ، وهي الإمارة التي صار لها شأن كبير فيما بعد في تاريخ الصليبيين بالشام .

أما ما طلبه بوهيموند من الإمبراطور بخصوص تعيينه قائداً عاماً للقوات الإمبراطورية في آسيا ، فإن ألكسيوس كومنين لم يمكنه أن يحقق ذلك الطلب بحكم تشككه في الصليبيين عامة والنورمان خاصة . ولذلك أجاب على بوهيموند بأن الوقت لم يحن بعد للبت في ذلك الموضوع وأنه من الممكن أن يصل بوهيموند إلى تحقيق رغبته هذه عن طريق إثبات ولائه وحسن نيته<sup>(٢)</sup>.

وبفضل سياسة بوهيموند وحسن تصرفه وبعد نظره ، سارت الأمور بين السلطات البيزنطية من ناحية والنورمان من ناحية أخرى على خير ما يرام ، فانتقلت حملة النورمان إلى الشاطئ الآسيوي في ٢٦ أبريل لتحتل مكانها إلى جانب حملة جودفري بوابون . هذا مع ملاحظة أن بقية زعماء الحملة النورمانية — وبخاصة ريتشارد دي سالرنو وتنسكرد — تجنبوا قسم يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي ، وعبروا البسفور على رأس الجيش النورمانى إلى آسيا الصغرى دون أن يرتبطوا بأى رباط مع الإمبراطور<sup>(٣)</sup>.

### ريموند دى تولوز وألكسيوس كومنين :

أما المجموع الصليبية الوافدة من إقليم بروفانس ، فقد وصلت إلى الأراضى

(1) *Gesta Francorum*, p. 31.

(2) *Brehier* : op. cit; p. 312.

(3) *Cam. Med. Hist.* vol. 5, p. 282.

البيزنطية في الوقت نفسه تقريبا الذي شهد وصول حملة النورمان . وكانت هذه الحملة البروفنسالية تحت زعامة ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس . ولما كانت البابوية تطمع دائما في الاحتفاظ بسيطرتها على الحركة الصليبية ، فقد أوفد البابا مع ريموند الرابع الاسقف أدهار — أسقف بوى — ليكون مندوبا يمثل البابوية في زعامة الصليبيين بالشرق<sup>(١)</sup> . وقد بارحت تلك الحملة الغرب في أكتوبر سنة ١٠٩٦ فاجتازت شمال إيطاليا إلى كرواتيا فدلماشيا وألبانيا ومقدونيا ثم القسطنطينية ، دون أن تصادف عقبات كثيرة في الطريق فيما يختص بناحية التكوين . وكل ما هنالك هو أن الأهالي في الإمبراطورية البيزنطية أظهروا أحيانا شعور العداء تجاه الصليبيين ، لاسيما وأن قوات ريموند نفسها كانت غير منظمة وجنحت للنهب والعدوان مما جعل البيزنطيين لا يترددون في ردهم<sup>(٢)</sup> .

وعندما اقتربت الحملة من القسطنطينية دعا الإمبراطور ألكسيوس كومنين زعيمها ريموند لمقابلته بمفرده في العاصمة ، فتمت المقابلة في أواخر إبريل سنة ١٠٩٧ ، وعندئذ طلب الإمبراطور من ريموند أن يقسم له يمين الولاء والتبعية مثما فعل من سبقه من زعماء الجوع الصليبية . وهنا وجد ريموند نفسه في مركز لا يحسد عليه . ذلك أنه كان يطمع في الحصول على زعامة الصليبيين جميعا في الشرق بحكم صلته بالبابوية ومراقبته المندوب البابوي لحملة ، وهو شرف لم تحظ به بقية الحملات الصليبية السابقة . ولكن هذه الزعامة التي اعتمدت على تأييد البابوية لا يمكن أن تتفق ويمين الولاء للإمبراطور البيزنطي ، راعى الكنيسة الأرثوذكسية . هذا إلى أن ريموند كان يرى في بوهيموند النورمانى غريمه ومنافسه الأول . فإذا كان هذا المنافس قد نجح فعلا في اكتساب صداقة

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 51.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 24-25.

الإمبراطور البيزنطى وتأيدته ، فإن معنى قبول ريموند أن يقسم يمين الولاء  
للالامبراطور هو أنه سيضطر فى المستقبل إلى قبول العمل تحت زعامة غريمه بوهيموند ،  
وهو ما لا يمكن أن يقبله<sup>(١)</sup> . لذلك كله رفض ريموند بشدة تلبية رغبة  
الامبراطور ، وقالها فى صراحة أنه لم يحمل الصليب ليخضع لسيد غير السيد المسيح ،  
ولم يغادر بلاده ليحارب من أجل سيد غير السيد المسيح<sup>(٢)</sup> . ثم إن ريموند  
استنكر أن يدخل فى تبعية الامبراطور ، فى حين يظل الأخير قابعا فى القسطنطينية  
لا يريد أن يرافق الصليبيين فى حرب المسلمين . لذلك أعلن ريموند أنه مسنمدا  
لإعلان تبعيته لالامبراطور البيزنطى إذا خرج الامبراطور على رأس الصليبيين  
بنفسه وتولى قيادتهم فى الحرب الصليبية<sup>(٣)</sup> .

ويسرعان ما نأزِم الموقف بين ريموند من جهة والامبراطور ألكسيوس من جهة  
أخرى ، مما أُنذِر بحُدُوث صدام مسلح بين الطرفين . وهنا تدخل جودفرى بوايون  
وقال لريموند أنه من الحماقة أن يفكر فى شن الحرب على المسيحيين فى القسطنطينية ،  
فى الوقت الذى يربط السلاجقة المسلمون على بعد عدة كيلو مترات قليلة من  
نيقية<sup>(٤)</sup> . أما بوهيموند النورمانى الذى كان قد سمى أمورهم مع الامبراطور ، فقد  
أعلن فى صراحة وقوفه إلى جانب ألكسيوس كومنين فى حالة وقوع صدام مسلح  
بين الطرفين . وأخيرا اضطر ريموند تحت تأثير الضغط الواقع عليه إلى الوصول إلى  
اتفاق مع الامبراطور البيزنطى ، حقيقة إن ريموند أبى بتنا أن يقسم يمين الولاء والتبعية  
لالامبراطور ، ولكنه وافق على أن يقسم على احترام حياة الامبراطور وشرفه ،  
وَألا يقوم هو ورجاله بعمل يسىء إلى الامبراطور<sup>(٥)</sup> .

(1) Runciman : op. cit; I, p. 163.

(2) Raymond d'Aigles (Hist. Occid. III), p. 238.

(3) Cam Med. Hist, vol. 5, p. 283.

(4) Raymond d'Aigles p. 238.

(5) Cam. Med. Hist, vol. 5, p. 283.

ولم تلبث أن تحسنت العلاقات بين الامبراطور البيزنطى وريموند بفضل جهود  
أدهمار المندوب البابوى<sup>(١)</sup>. هذا إلى أن ريموند أتاحت له فرصة عقد اجتماع منفرد  
مع ألكسيوس كومنين، وفى ذلك الاجتماع صرح الامبراطور بتخوفه من بوهيموند  
والنورمان، وأنه لا يمكن أن يقلد بوهيموند زعامة القوات الامبراطورية فى آسيا.  
وعندما سمع ريموند تلك التصريحات من فم الامبراطور طاب قلبا وهذا نفسا،  
وبدأ يدرك أنه من الممكن أن يجد فى الامبراطور البيزنطى حليفا قويا ضد بوهيموند  
وأطماعه. ومنذ تلك اللحظة تبدلت سياسة ريموند تجاه الامبراطورية البيزنطية  
تبدلا تاما<sup>(٢)</sup>.

الأستاذ الدكتور

الدكتور  
الشيخ

الحملة الفرنسية والكبوس كومنين :

وأخيرا وصلت مجموعة رابعة من الصليبيين لتلتقى مع بقية الجموع الصليبية على  
شاطئ السفور. وقد تألفت هذه الحملة من الفرنسيين تحت زعامة روبرت أمير  
نورمانديا — وهو ابن وليم الفاتح —، وصهره إيتين (ستفن) أمير بلوا وشارتر<sup>(٣)</sup>.  
وبعد أن مرت الحملة بإيطاليا حيث باركها البابا أوربان الثانى، استقلت السفن من  
برنديزى إلى البلقان فى أوائل ابريل سنة ١٠٩٧، فأرست فى دورازو ومنها  
اخرقت البلقان إلى القسطنطينية. ويبدو أن ألكسيوس كومنين لم يواجه من تلك  
الحملة متاعب وصعوبات مثلما لاقى من الحملات السابقة<sup>(٤)</sup>. ولم يمانع زعيما هذه  
الحملة — كونت نورمانديا وكونت بلوا — مطلقا فى أن يقسمائهم بين الولاء والتبعية

(1) Setton : op. cit., I, p. p. 287-288.

(2) Runciman, op. cit; I, p- 164.

(3) Michaud : Hist des Croisades, I, p. 178.

(4) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), P. p. 331-332.

للإمبراطور البيزنطي ، ولذا حرص الإمبراطور على أن يفدق عليهما وعلى رجالهما الإمدادات والمؤن والإغاثات فضلا عن الأموال والخيول المطهمة<sup>(١)</sup> . وبعد أن قضى هؤلاء الصليبيون أسبوعين في القسطنطينية ، عبروا البسفور إلى آسيا الصغرى وأسرعوا في اللحاق ببقية الصليبيين الذين كانوا قد شرعوا فعلا في حصار نيقية<sup>(٢)</sup> .

---

(1) Chalandon : *Alexis Comnene*, p. p. 188-189.

(2) Brehier : *op. cit*; p. cit; p. 312.



## الفصل الثالث

### الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة الروم

الاستيلاء على نيقية وتسليمها للبيزنطيين :

أقسم جميع زعماء الحملة الصليبية الأولى — باستثناء ريموند وتنكرد —  
يمين الولاء والتبعية للامبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين ، وتعهدوا له برد  
كافة الممتلكات البيزنطية القديمة التي يستطيعون استردادها من السلاجقة ، من  
نيقية حتى أنطاكية . وفي مقابل ذلك تعهد الامبراطور البيزنطي بمساعدة الصليبيين  
في مهمتهم بكل قواه ، وأن يسهم هو الآخر بدوره في الحرب الصليبية ، وأن  
يمدهم بفرق من الجيش البيزنطي في حالة عدم تمكنه من مراقبتهم شخصيا<sup>(١)</sup> .  
ويميل بعض المؤرخين إلى الظن بأن اتفاقية شاملة بهذا المعنى تم إبرامها في منتصف  
مايو سنة ١٠٩٧ بين الامبراطور ألكسيوس كومنين والأمير بوهيموند ، الذي  
كان يحاول الظهور دائما في صورة الخليف الأول للامبراطور البيزنطي<sup>(٢)</sup> .

وأخيرا تجمعت القوات الصليبية كلها على الشاطئ الآسيوي قرب أنزير ،  
حيث حضر بطرس الناسك لمقابلة الأمراء ومعه حطام حملة العامة . وهناك تم  
الاتفاق على أن يبدأ الصليبيون بالهجوم على مدينة نيقية ، المركز الرئيسي لقلج  
أرسلان الأول ومقر حكمه . ومن الواضح أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضى  
في جوف آسيا الصغرى تاركين خلفهم نيقية بأيدي السلاجقة ، مما يهددهم ويهدد  
خطوط مواصلاتهم مع الامبراطورية البيزنطية لخطر جسيم . لذلك صدرت

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 27.

(2) Chalandon : Alexis Comnene p. 188.

الأوامر إلى الصليبيين في أواخر ابريل سنة ١٠٩٧ بالزحف على نيقية لاستخلاصها من السلاجقة . وقد أمد الامبراطور البيزنطي الصليبيين بآلات الحصار والطعام والمؤن ، ولكن لم تشارك سوى فرقة صغيرة من القوات البيزنطية في حصار نيقية ، وهى المدينة القوية التحصين<sup>(١)</sup> .

وفي ذلك الوقت كان قلق أرسلان متغيبا عن نيقية : حيث دخل في نزاع في كبادوكيا مع بنى دانشمند حول مدينة ملطية . ويبدو أن قلق أرسلان لم يهتم كثيرا بأنباء الغزو الصليبي ، إذ ظن أن الأمر لا يعدو وصول بعض جموع أخرى من العامة غير المدربين ، من عينة أتباع بطرس الناسك الذين قضى عليهم السلاجقة في سهولة تامة<sup>(٢)</sup> هذا إلى أن عيون الإمبراطور البيزنطي وجواسيسه أعطوا قلق أرسلان صورة غير حقيقية عن الخلافات المستحكمة بين الامبراطور من جهة والأمراء الصليبيين من جهة أخرى ، مما جعل السلطان السلجوقي يطمئن إلى أن الصليبيين لن يصلوا بأى حال إلى نيقية ، بدليل أنه ترك زوجته وأولاده وأمواله داخل أسوار المدينة ولم يحاول نقلهم منها<sup>(٣)</sup> .

ولكن قلق أرسلان لم يلبث أن أدرك جدية الأمر ، وأن جيوش الصليبيين تلك المرة غير جيوش بطرس الناسك في المرة السابقة ، فأرسل قوة على عجل للدفاع عن نيقية وإتقاذها . على أن تلك القوة لم تصل نيقية إلا بعد فوات الأوان ، لأن الصليبيين كانوا قد أدركوا نيقية في ٦ مايو سنة ١٠٩٧ وحاصروها ، وأخذوا يهاجمونها بعد أسبوع<sup>(٤)</sup> . ثم كان أن حضر السلطان قلق أرسلان نفسه في حوالي ٢١ مايو وبدأ بمهاجمة الصليبيين فور وصوله ، ولكنه أدرك بعدمعركة قصيرة أنه من الخير له أن ينسحب لأن قوة الصليبيين أعظم مما كان يتوقع . وإذا

(1) Cam. Med Hist, vol. 5. p. 285

(2) Setton : op. cit; I, p. p. 288-289.

(2) Runciman ; op. cit; I, p. 176-177

(4) Grousset : Hist. des Croisades I p. 29.

كانت خسارة السلاجقة قد جاءت كبيرة في تلك المعركة ، فإن خسارة الصليبيين كانت فادحة أيضاً ، ومع ذلك فإن انتصارهم أحيى روحهم المعنوية وبث فيهم قوة جديدة<sup>(١)</sup> .

وفي تلك الأثناء لم يتقاعس الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بالمؤن والزاد ، كما أرسل أسطولاً صغيراً من السفن إلى البحيرة التى تقع عليها مدينة نيقية لتسهيل تزويد الصليبيين بالمؤن والإمدادات<sup>(٢)</sup> . وعندما يؤست حامية نيقية من وصول إمدادات إليها من قلج أرسلان بدأت تفكر فى الاستسلام. ولكن أهل نيقية من الأتراك خشوا عنف الصليبيين وانتقامهم ، فأخذوا يتصلون سرا برجال الامبراطور البيزنطى لعله يكون أكثر رحمة بهم من الصليبيين . هذا فى الوقت الذى كان ألكسيوس كومنين متخوفاً من نوايا ريموند وتنكرد — بعد أن رفضا أن يقسما له يمين الولاء والتبعية — وخشى أن يعارض هذان الأميران فى تسليم نيقية عقب سقوطها للامبراطورية أو يتعرض الصليبيون للمدينة بالسلب والتدمير<sup>(٣)</sup> . لذلك تدخل الإمبراطور البيزنطى بسرعة ، وفاوض حامية نيقية على أساس تأمين أرواح أهل المدينة من الأتراك . ولم يلبث أن فوجئ الصليبيون بارتفاع الأعلام البيزنطية فوق نيقية دون أن يعلموا شيئاً عن المحادثات السرية التى دارت بين حامية المدينة من ناحية والامبراطور البيزنطى من ناحية أخرى . وبذلك عادت نيقية إلى أحضان الدولة البيزنطية فى ٢٦ يونية سنة ١٠٩٧ ، أى بعد ستة عشر عاماً من احتلال السلاجقة لها<sup>(٤)</sup> .

(1) Albert d'Aix, p p. 320-321.

(2) Gesta Francorum, p. 37.

(3) Chalandon : Alexis Comnène, p. 190

(4) Brehier : op. cit, p. 312.

ولم يستطع الصليبيون إخفاء استيائهم من مسلك الإمبراطور البيزنطي  
تجاة أسرى نيقية ، إذ ضايقهم تسامح الإمبراطور مع الأسرى واستعداده  
لإطلاق سراح زوجة قلعج أرسلان وأولاده دون فدية. وكان الإمبراطور ألكسيوس  
— من معاملاته العديدة مع المسلمين — يدرك أهمية العفو عند المقدرة ، ويقدر  
قيمة التسامح مع خصمه المغلوب ، ولكن الصليبيين الغربيين لم يفهموا ذلك المنطق  
واعتبروا مسلك الإمبراطور خيانة لهم وللقضية الصليبية <sup>(١)</sup>.

وقد أسرع الإمبراطور ألكسيوس كومنن إلى دعوة زعماء الحملة  
الصليبية — غداة الاستيلاء على نيقية — للاجتماع به قبل أن يأذن لهم بالتوغل  
في آسيا الصغرى . وفي ذلك الاجتماع جدد الزعماء الصليبيون يمين الولاء  
للإمبراطور. وكان بوهيموند أسبق الأمراء الصليبيين إلى تلبية دعوة الإمبراطور  
والاستجابة له ، في حين امتنع تنكرد وريموند عن الارتباط بيمين الولاء  
للإمبراطور <sup>(٢)</sup> . ويبدو أن جميع زعماء الصليبيين — باستثناء تنكرد وريموند —  
أدركوا أهمية الإمبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم في مشروعهم الخطير <sup>(٣)</sup>.  
حقيقة إن الإمبراطور ألكسيوس لم يرافق الصليبيين بنفسه أثناء زحفهم على  
قونية ، ولكنه أمدهم بفرق من الجيش البيزنطي لمؤازرتهم وإرشادهم ، فضلا  
عن تقديم الإمدادات والمؤن لهم. وفيما عدا ذلك يبدو أن الصليبيين والبيزنطيين  
تقاسموا مهمة محاربة الأتراك في الأناضول ، فبينما انصرف الصليبيون إلى محاربة  
السلجقة في فريجيا واختاروا الزحف على ضور ليوم وقونية ، إذا بالإمبراطور  
ألكسيوس كومنن يوجه جهوده نحو طرد الأتراك من الشواطئ الغربية لآسيا  
الصغرى أي من أقاليم ميسيا Mysie وأيونيا وليديا <sup>(٤)</sup>.

(1) Runciman, op. cit, I. p. p. 180 — 182.

(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 193.

(3) Chalandon : Premiere Croisade. p. 167.

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 31.

وخلاصة القول أنه مهما يقال في استياء الصليبيين من مسلك الامبراطور البيزنطى - سواء عند الاستيلاء على نيقية أو عند توزيع الأسلاب والغنائم وفيما يختص بمعاملة أسرى المسلمين - فإن سقوط نيقية نفخ في الصليبيين روحا وعزيمة شجعهم على المضى قدما في طريقهم ، بعد أن أدركوا خرافة الفكرة القائلة بأن السلاجقة لا يهزمون<sup>(١)</sup> . ثم إن الغرب الأوروبى قابل أنباء سقوط نيقية بالفرح الكبير ، فتشجع من كان محجما عن المشاركة في الحركة الصليبية ، وأخذت الإمدادات تترى تباعا على الصليبيين وهم في طريقهم إلى الشام . أما المدن الإيطالية التى ظلت حتى ذلك الوقت تقف موقفا حذرا من الحركة الصليبية ، فلم تلبث أن تشجعت ونظرت إلى الأمر نظرة جدية جعلتها تسهم إسهاما فعليا في تلك الحرب<sup>(٢)</sup> .

### موقعة ضورليوم والاستيلاء على قونية :

ثم كان أن غادر الصليبيون نيقية واستأنفوا سيرهم عبر فريجيا في أواخر يونيه سنة ١٠٩٧ ، وهم يفيضون حماسة وقوة . ولم يلبث الصليبيون أن انقسموا إلى شعبتين ، وذلك لتسهيل عملية التموين أثناء الزحف من ناحية ، وللقضاء على نفوذ سلاجقة الروم في أكبر مساحة ممكنة من ناحية أخرى ؛ فسارت إحدى الشعبتين في الاتجاه الشمالى الشرقى والأخرى في الاتجاه الجنوبى الشرقى ، على أن يلتقيان في ضورليوم . وقد ضمت الشعبة الأولى النورمان جميعا ، أى نورمان إيطاليا بزعامة بوهيموند وتنكرد ، ونورمان في فرنسا بزعامة روبرت ؛ في حين كان على

(١) ويقال إن الإمبراطور ألكسيوس كومنين حرص على ألا تعرض نيقية لعدوان الصليبيين ونهبهم إياها فلم يسمح لهم بدخول المدينة إلا على هيئة جماعات صغيرة ولمدة محددة .

• Cam, Med. Hist. vol 5, pp. 285.

(2) Runciman : op. cit; I, pp. 182-183. & Setton : op. cit;

I p. 291.

رأس الشعبة الثانية المتدوب البابوى أدهار ومعه من الأمراء جودفرى بوايون وريموند .

ولم يكد الفريق النورمانى من الصليبيين يصل إلى مرتفعات ضورليوم حتى وجد نفسه فى مأزق خطير<sup>(١)</sup> . ذلك أن سقوط نيقية جعل البيتين الكبيرين من الأتراك فى آسيا الصغرى - وهما البيت السلجوقى وبنودانشمند - يعقدان هدنة فيما بينهما لمواجهة ذلك الخطر المشترك الجديد ، فاتخذ السلطان قلعج أرسلان مع الأمير غازى بن دانشمند لسد الطريق فى وجه الصليبيين . وهكذا اجتمعت جميع قوى الأتراك فى آسيا الصغرى لمهاجمة الصليبيين فى سهول ضورليوم (٣٠ يونية) ، فوجد بوهموند نفسه فى خطر محقق جعله يطلب النجدة على عجل من بقية الجيوش الصليبية التى تعمل فى الأناضول<sup>(٢)</sup> . على أن وصول جودفرى بوايون ثم بقية القوات الصليبية تباعاً ، غير مصير المعركة المقبلة وقلبها رأساً على عقب ، إذا دارت الدائرة فى أول يوليو سنة ١٠٩٧ على الأتراك وانتصر الصليبيون وغنموا كميات ضخمة من المئون والغنائم . ولا تخفى علينا أهمية موقعة ضورليوم ، إذا جاءت بمثابة إعلان آخر للعالم بظهور قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى هى قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوقهم الحربى على القوة التى طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية ، وهى قوة السلاجقة<sup>(٣)</sup> .

وبعد أن استراح الصليبيون يومين عند ضورليوم ، واصلوا زحفهم فى ٤ يوليو فى الاتجاه الجنوبى الشرقى عبر فريجيا . ويبدو أن الصليبيين صادفوا كثيراً من المتاعب فى تلك المرحلة بسبب صعوبة الأرض وقلة الزاد وندرة الماء وارتفاع درجة حرارة الصيف ، حتى هلكت معظم خيولهم ودوابهم ، ولم يجدوا ما يحمل متاعهم

(1) Albert d'Aix, p. p. 328-329.

(2) Guillaume de Tyr I p. p. 129-130.

(3) Grousset : op. cit I 35.

وأثقالهم<sup>(١)</sup>. ومع ذلك استمر الصليبيون يقاسون الأمرين في زحفهم حتى وصلوا أخيراً — حوالى منتصف أغسطس سنة ١٠٩٧ — إلى سهول قونية الغنية بكلها وشجرها .

ولم ير الصليبيون ما يدل على أن السلاجقة اعتزموا الدفاع عن قونية ، وإنما ظهر أن الخطة التي وضعها قلعج أرسلان عقب الكارثة التي حلت بجيوشه في صورليوم ، استهدفت الانسحاب إلى الداخل وإخلاء المدن أمام الصليبيين . وكان أن دخل الصليبيون قونية ليجدوها خالية الوفاض من الناس والزاد ؛ اللهم إلا من بعض الأرمن الذين قدموا النصيح للصليبيين بأخذ كميات كافية من الماء قبل أن يقبلوا على اجتياز الصحراء المقفرة الواقعة بين قونية وهرقلة<sup>(٢)</sup> .

وقد حاول السلاجقة القيام بمحاولة أخيرة لصد الصليبيين عندهر قلة ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل<sup>(٣)</sup> . وبعد أن استراح الصليبيون بضعة أيام قليلة في هرقلة انقسموا مرة أخرى إلى شعبتين ، فانشق تنكردومعه بلدين — شتيق جودفرى بوايون — واتجهوا في حوالى منتصف سبتمبر سنة ١٠٩٧ صوب تيليتية في الركن الجنوبي الشرقى لآسيا الصغرى ، في حين اتخذ بتيه الصليبيين — وعلى رأسهم المندوب البابوى وجودفرى نفسه وبوهيموند وريموند — طريقاً شمالياً شرقياً صوب قيصرية التي استولوا عليها في ٢٧ سبتمبر سنة ١٠٩٧<sup>(٤)</sup> ومن قيصرية اتجه الصليبيون صوب الجنوب الشرقى ، فاستولوا في أوائل أكتوبر على بلاكنتيا — وهى قلعة أرمنية في جبال طوروس ذات موقع هام — كان بنو دانشمند يحاصرونها عندما أنقذها الصليبيون . وقد طالب القائد البيزنطى المرافق للصليبيين

(1) *Gesta Francorum*, p. 55.

(2) *Gesta Francorum*; p. p. ٤5-57

(3) *Setton* : op. ; vol I; p. 295.

(4) *Gesta* : *Francorum*, p. 61.

الدرية

الاسود

سبته

البحر

الجزيرة

يكاه

البحر

سواس

كاسادونا

انطانية الرام

عقابه

سحلا

عقابه

البحر

الجزيرة

السورية

الحلة الصليبية الاولى

في

آسيا الصغرى

قبرس

الارمن

سيرة

البحر



تسليمه تلك القلعة باسم الامبراطور ، فوافق الصليبيون على ذلك ، مما يثبت وفاءهم بتعهداتهم للامبراطور حتى تلك المرحلة (١) .

وبعد أن مر الصليبيون ببعض القرى والضياع الأرمنية حيث رحب بهم الأرمن وأظهروا لهم الود والصدقة ، اخترقوا مجموعة من سلاسل طوروس العالية للوصول إلى مرعش . وكانت مرعش مدينة أرمنية معظم سكانها من الأرمن ، فرحبوا بالصليبيين عند وصولهم إليها في ١٣ أكتوبر سنة ١٠٩٧ ، واعتبروهم منقذين لهم وحماة للمسيحية في تلك الجهات . وهناك أيضاً حافظ الصليبيون على كلمتهم وساموا مرعش للسلطات البيزنطية (٢) . ومن مرعش اتجه الصليبيون نحو الشام ، فوصلوا جسر الحديد على نهر العاصي شرق أنطاكية في ٢٠ أكتوبر ، وبذلك بدأ الغز والصليبي للشام (٣) .

وقبل أن تنتبع الغزو الصليبي للشام ، يصح أن نلقى نظرة سريعة على جهود الامبراطور ألكسيوس كومنين في استرداد أيونيا وفريجيا ، وجهود تنكرد وبلدوين البولوني في قيليقية وإقليم الرها .

### صملة ألكسيوس كومنين في أيونيا وفريجيا :

لا شك في أن سقوط نيقية عاصمة قلعج أرسلان ، ثم هزيمة قلعج أرسلان نفسه في موقعة صورليوم بعد ذلك ، كان بمثابة طعنة قاتلة لهيبة تلك الأسرة السلجوقية ومكانتها في الأناضول . وكما أن سقوط نيقية في أيدي السلاجقة سنة ١٠٨١ أدى إلى استيلائهم في سهولة على جميع الأجزاء الغربية من الأناضول ،

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades. I; p. 38.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p 287.

(3) Michaud : op cit; p. p. 237-239.

فكذلك جاء استيلاء البيزنطيين على هذه المدينة سنة ١٠٩٧ بداية لاسترداد الامبراطورية البيزنطية لذلك الجزء الغربى من الأناضول برمته (١).

وعندما أوغل الصليبيون فى قلب دولة قليج أرسلان دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، وجد صفار الأمراء الأتراك على شاطئ بحر إيجه - مثل أمير أزمير وأمير إفسوس - أنفسهم مقطوعين عن الدولة الساجدية ، فلم يستطيعوا المقاومة طويلا (٢). ولا شك فى أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين هو الذى أفاد من تلك الأوضاع ، فلم يلبث غداة الاستيلاء على نيقية أن أرسل إلى أيونيا جيشا يقوده صهره حنا دوقاس وأسطولا تحت قيادة كازباكس Kaspax (٣). كذلك صحب جيشه السابق مجموعة من أسرى السلاجقة فى نيقية ، وبصفة خاصة زوجة السلطان قليج أرسلان نفسه . ولم تلبث هذه الخطة أن أفلحت وأحرزت نجاحا كبيرا ، إذ استسلم فوراً أمير أزمير ثم تبعه أمير إفسوس (٤).

وفى ربيع سنة ١٠٩٨ بدأ حنا دوقاس يعمل لاسترداد إقليم ليديا وغرب فريجيا من الأتراك . وبعد أن نجح القائد البيزنطى فى استرداد تلك الجهات حتى أضاليا ، اتجه صوب الشمال الشرقى حيث أنزل هزيمة بالأتراك عند بلوادين Bulwadin . وفى تلك الأثناء كان الإمبراطور البيزنطى قد احتل بثنيا التى أخلاها الأتراك عقب موقعة صورليوم . وهكذا تم للبيزنطيين استرداد الجزء الغربى من الأناضول (يونية ١٠٩٨) ، ولم يبق أمام الإمبراطور ألكسيوس كومنين سوى الاتجاه نحو قيليقية والشام للحاق بالصليبيين الغربيين أمام أنطاكية (٥).

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p.41.

(2) Chalandon : Alexis Comnene. p. 195.

(3) Runciman : op. cit; I, p. 194,

(4) Chalandon : Alexis Comnene. p. p. 196-198.

(5) Brehier : op. cit, p. p. 312-313.

وهنا نلاحظ أن نجاح الدولة البيزنطية في استرداد الأناضول إنما يعتبر نتيجة مباشرة من نتائج الحملة الصليبية الأولى ، وهي نتيجة لها من الأهمية التاريخية ما لا يقل عن غزو فلسطين نفسها على أيدي الصليبيين . وتبدو هذه الأهمية بوضوح عند المقارنة بين ما كانت عليه خريطة الشرق الأدنى سنة ١٠٩٥ ، وبين ما صارت إليه سنة ١٠٩٨ . ففي سنة ١٠٩٥ كانت الحدود التركية البيزنطية تمر بمدينة نيقية ونيقوميديا ، أى على مسافة قصيرة من بحر مرمرة والبسفور ، في حين آل حكم أزمير وإفسوس إلى أمراء من الأتراك . أما في سنة ١٠٩٨ فكان قد تم طرد الأتراك من بونيا وأيونيا وليديا وفريجيا ، ومن ثم عادت إلى هذه الأقاليم الحياة البيزنطية والحضارة البيزنطية لتعيش في ظلها من جديد مدة ثلاثة قرون ونصف . ويكفي للدلالة على الأهمية التاريخية لهذا التطور أن نشير إلى أنه عندما سقطت القسطنطينية سنة ١٢٠٤ في أيدي رجال الحملة الصليبية الرابعة ، لم تجد الحضارة البيزنطية والتراث البيزنطي مأوى تأوى إليه وتعيش فيه سوى تلك الأقاليم الآسيوية التي تم استردادها نتيجة لجهود الحملة الصليبية الأولى .

وهكذا كانت الحملة الصليبية الأولى خير أداة استطاعت أن تثرأ بها الدولة البيزنطية لنفسها مما حل بها على يد السلاجقة منذ موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١<sup>(١)</sup> .

## الفصل الرابع

### تأسيس إمارة الرها الصليبية

نجاح تنكرد وبلدوين البولوني في استرداد قيليقية :

رأينا كيف اختار بلدوين البولوني — أخو جودفري بوايون — ، ومعه تنكرد ابن أخت بوهيموند النورمانى — أن ينفضا في ١٤ سبتمبر سنة ١٠٩٧ عن بقية الجموع الصليبية لغزو قيليقية وانتزاعها من الأتراك السلاجقة<sup>(١)</sup> .

والواقع أن هذين الأميرين اشتهرا بأنهما أكثر أمراء الحملة الصليبية الأولى حبا للمخاطرة والمجازفة ، حتى أن الحرب الصليبية كانت في نظرهما لا تعدو مجرد مغامرة سياسية وحرية لغزو الشرق . وقد رأى هذان الزعميان أنه من الخطأ اتخاذ الطريق الطويل حول كبادوكيا مارين بقيصرية ومرعش ؛ لأن هذه الدورة الطويلة ليس لها إلا مبرر واحد هو الرغبة في تنفيذ الاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين وتحطيم قوة الأتراك تماما في الأناضول ، وتمكين الإمبراطورية البيزنطية من بسط سيطرتها على الأقاليم التي عرفت فيما بعد اسم «أرمينية الصغرى» التي كانت تسكنها عناصر مسيحية .

على أن تنكرد كان لا يزال حتى ذلك الوقت ممتنعاً عن الاعتراف بالاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين ، ومن ثم كان حراً في تصرفاته<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن بلدوين البولوني شارك تنكرد في كثير من آرائه ووجهة نظره ، ومن ثم تجنب الإثنان طريق كبادوكيا واتجها مباشرة نحو سهول قيليقية الخصبية التي كانت دائماً موضع

(١) Chalandon : *Premiere croisades*, p. ١72.

(٢) Setton : *op. cit* I. P, 29٦.

نزاع بين زعماء الأرمن في طوروس من ناحية وأمراء السلاجقة من ناحية أخرى، بصرف النظر عن حقوق الدولة البيزنطية نفسها في تلك المنطقة<sup>(١)</sup>.

وكان إقليم قيليقية، الذي طالما دمرته الحروب بين البيزنطيين والمسلمين، قد عمرته هجرة أرمينية ضخمة في القرن الحادى عشر، عندما اضطرت جموع غفيرة من الأرمن - أمام غزو السلاجقة - إلى هجرة بلادهم حول بحيرة فان في أواخر القرن الحادى عشر والاتجاه جنوباً صوب قيليقية. ولم يلبث أن صار ذلك الإقليم فيما بين سنتي ١٠٧٧، ١٠٨٣ جزء من ممتلكات فيلاريتوس. - المغامر الأرمنى الذى سبق الكلام عنه - والذى استطاع أن يؤسس أول دولة أرمينية في تلك المنطقة<sup>(٢)</sup>. وبستوط دولة فيلاريتوس استطاع الأتراك السلاجقة أن يخضعوا الجزء الأعظم من سهول قيليقية، وبخاصة مدينتي المصيصة وطرسوس. ومع ذلك فقد تم - لكن بعض زعماء الأرمن الاحتفاظ باستقلالهم محتمين بجبال طوروس، ومن هؤلاء روبان Roupen الذى كان من رجال كاكج الثانى آخر ملوك الأرمن، وانتهى به الأمر إلى أن استقر حوالى سنة ١٠٨٠ داخل جبال طوروس إلى الشمال الشرقى من سيس. وبعد روبان خلفه ابنه قسطنطين الأول (١٠٩٢ - ١١٠٠) الذى استطاع أثناء قيامه بمطاردة الأتراك أن يوسع منطقة نفوذه في جميع أنحاء قيليقية. وثمة زعيم آخر من زعماء الأرمن الذين لاذوا بجبال طوروس في تلك الفترة هو أوشين (ت ١١١٠) مؤسس بيت هيثوم الشير في تاريخ أرمينية الصغرى؛ وكان هذا الزعيم الأخير يسيطر على مدينة أذنه<sup>(٣)</sup>.

وعلى هذه الصورة وجدته كرد وبلدوين البولونى قيليقية عند وصولها إليها في أواخر سنة ١٠٩٧، وبصحبتهما بعض الأعوان والمرشدين الأرمن الذين سهلوا

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 43 .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 43.

لها مهمة الزحف<sup>(١)</sup> . وربما كانت كثرة الأرمن المسيحيين في قيليقية من العوامل الرئيسية التي سهلت مهمة تنكرد وبلدوين البولوني ، لأن معظم سكان المدن والقلاع في ذلك الإقليم — كما لاحظ المؤرخ الصليبي وليم الصوري — كانوا من الأرمن ، حتى ولو كانت تلك المدن والقلاع خاضعة للاتراك وبها حاميات تركية<sup>(٢)</sup> .

لذلك كان أول ما فعله تنكرد عندما شرع في حصار مدينة طرسوس هو الاتصال بأهلها الأرمن ( ٢١ سبتمبر سنة ١٠٩٧ ) . ويبدو أن وصول جموع أخرى من الصليبيين بزعامة بلدوين البولوني قد أفزع حامية المدينة التركية ، فانهزت فرصة الليل وفرت منها ، وعندئذ أسرع سكان المدينة — من الأرمن والبيزنطيين — إلى دعوة الصليبيين إلى دخول مدينتهم . وللمرة الأولى تردد تنكرد في تسليم طرسوس لنبذى الامبراطور البيزنطي — أسوة بما فعل الصليبيون حتى ذلك الوقت في كافة المدن التي استولوا عليها — لأن تنكرد كان يطمح في فتح قيليقية لحسابه الخاص ، لاسيما وأنه لم يقيد نفسه بالانفاقية التي عقدها الصليبيون مع الدولة البيزنطية<sup>(٣)</sup> .

والواقع أنه بوصول الصليبيين إلى قيليقية ، بدأت تظهر في وضوح أطماع الأمراء في تأسيس إمارات خاصة لهم في الشرق . من ذلك أن بلدوين البولوني عز عليه أن يتفرد تنكرد بمدينة طرسوس وأراد أن ينازعه ملكية هذه المدينة ، عندما نصحه أحد الأرمن المرافقين له بأن يترك طرسوس لتنكرد ويتجه هونحو إقامة إمارة لنفسه في مدينة الرها . على أن تنكرد كان أسبق إلى التنازل والتسامح

---

(1) Raoul de Caen : (Hist. Occid, Tome III) p. 634 & Albert d'Aix : Hist, Occid, IV. p. 683.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 140.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 46.

فترك طرسوس واتجه صوب أذنه<sup>(١)</sup> . وكان هناك نحو ثلثمائة رجل من أنباع تنكرد قد تحافوا عند طرسوس ، فرفض بلدوين أن يسمح لهم بدخول المدينة أو أن يمسدهم بالزاد ، وأجبرهم على المبيت في ضيعة قريية مكشوفة حيث دهمهم الأتراك أثناء الليل وقتلواهم عن آخرهم<sup>(٢)</sup> . وقد أثارت هذه الكارثة حنق الصليبيين جميعا على بلدوين البولوني وجماعته بوصفهم المسئولين عما حل بتلك المجموعة من الصليبيين من قتل على يد الأتراك.

على أنه مما دعم نفوذ بلدوين في تلك الفترة وصول أسطول قوى إلى شاطيء قيليقية ، يحمل مجموعة كبيرة من الصليبيين ، معظمهم من الأراضي المنخفضة بزعماء وبنمار البولوني Winemar of Bologne - وهو قرصان محترف - قدم لبلدوين البولوني ثلثمائة جنديا لمساعدته ، ثم أبحر بعد ذلك ليساعد تنكرد في الاستيلاء على الاسكندرونة<sup>(٣)</sup> أما تنكرد فكان في تلك الأثناء قد انصرف من طرسوس إلى أذنه ، ومنها إلى المصيصة التي كانت في قبضة الأتراك رغم أن غالبية سكانها من الأرمن (أوائل أكتوبر ١٠٩٧)<sup>(٤)</sup> . وعند المصيصة ظهر التنافس مرة أخرى بين تنكرد من جهة وبلدوين البولوني من جهة أخرى ، إذ لم يلبث أن ظهر الأخير أمام المصيصة لينافس تنكرد في الاستيلاء عليها<sup>(٥)</sup> . ولكن تنكرد كان قد استولى على المصيصة فعلا بمساعدة أهلها من الأرمن ، فأغلق أبوابها في وجه بلدوين الذي اضطر إلى المrapطة بقواته خارجها . وكان أن حدث صدام بين القوتين ، ولكنه انتهى بالصلح السريع<sup>(٦)</sup> .

وهنا نؤكد مرة أخرى أن النزاع بين تنكرد وبلدوين البولوني إنما كان

(1) Cam. Hist. vol 5. p. 288.

(2) Albert d'Aix, Hist. Occid, IV, p. p. 346-347.

(3) Riant : Les Scandinaves en Terre Sainte, p. 134.

(4) Cam : Med. Hist. vol 5, p. 288.

(5) Chalandon : Hist. de la Première Croisade, p. p. 172-173

(6) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 22.

يحمل بين طياته معنى خفيا ، وهو بداية محاولات أمراء الصليبيين لإنشاء إمارات لهم في الشرق <sup>(١)</sup> . ذلك أن المفروض - حسب الاتفاقية الموقعة بين الامبراطور ألكسيوس وزعماء الصليبيين - أن تسلم قيليقية للامبراطورية ، وبناء على ذلك لم يحتفظ الصليبيون في المدن الأرمينية الرئيسية الثلاث في قيليقية - وهي طرسوس وأذنه والمصيصة - سوى بحاميات قليلة العدد والأهمية . وحوالى سنة ١١٠٠ أرسل الأمبراطور ألكسيوس كومنين حملة تسلمت المدن الثلاث السابقة . وإذا كان تنكرد قد إستولى على هذه المدن مرة أخرى سنة ١١٠١ ، فإن البيزنطيين عادوا فاحتلوا هاسنة ١١٠٤ <sup>(٢)</sup> وهكذا استمر الحال ، حتى أدى النزاع بين زعماء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية ، وبينهم وبين البيزنطيين من ناحية أخرى ، إلى تمكين الأرمن من إقامة دولة قومية خاصة بهم في الطرف الجنوبي الشرقى من آسيا الصغرى ، وهي مملكة أرمينية الصغرى .

### بلدوين البولونى وأمراء الأرمن في طوروس والجزيرة :

لم يحاول بلدوين البولونى أن ينفذ في قيليقية مشروعه الخاص بإنشاء إمارة صليبية أرمينية يتولى حكمها ؛ وإنما ظل محتفظاً لنفسه بسرية المشروع حتى منتصف أكتوبر سنة ١٠٩٧ عندما التقى بأخيه جودفرى بوايون وبقية الجيش الصليبي الكبير عند مرعش . ولم يلبث بلدوين أن انشق بعد يومين عن بقية الصليبيين تحت ستار حماية ميسرة الصليبيين الزاحفين على أنطاكية ، ليبحث لنفسه عن إمارة جديدة صالحة في البلاد الأرمينية <sup>(٣)</sup> .

والمحوظ أنه إذا كانت هجرة الأرمن في القرن الحادى عشر قد غيرت

(1) Setton : op. cit; vol, I, p 296.

(2) Chalandon : Alexis Comnene. p. p. 221-223.

(3) Albert d'Aix : Hist. Occid. III, p XXVII.



وجه قيليقية ، إلا أن أثر تلك الهجرة كان أقل وضوحاً في الأجزاء الشرقية الممتدة حتى الجزيرة وشمال الفرات ، أى في الجهات المحيطة بملطية وميساط ومرعش وعين تاب وتل باشر والرها . على أنه لا ينبغي أن يفوتنا أن هذه المنطقة كانت قبل قليل جزءاً من الإمارة الأرمنية التي أقامها فيلاريثوس والتي سبق أن أشرنا إليها ، حتى إذا ما سقط فيلاريثوس ، حل محله في تلك البلاد بعض زعماء محليين من أتباعه <sup>(١)</sup> وفي ذلك الميدان صمم بلديون على أن يعمل ، لا سيما وأن أمراء الأرمن المحليين فرحوا بمجيء الصليبيين واعتبروا أن العناية الإلهية قد أرسلتهم لإنقاذهم مما يلاقونه من ضغط المسلمين المحيطين بهم . وإذا كان هناك ثمة احتمال بأن اتجه بلديون إلى تلك المنطقة الأرمنية لم يكن اعتباطاً ، وإنما جاء بناء على رغبة حكام الإمارات الأرمنية فيها واتصال بعضهم ببلديون أثناء وجوده في قيليقية ، فإن هذا الاحتمال يقويه أن الأرمن كانوا دائماً تواقين إلى الحصول على مساعدة الغرب والبابوية ، بدليل ما هو معروف من إرسالهم أحد الأساقفة الأرمن إلى البابا جريجورى السابع — قبل ذلك بعشرين سنة — لطلب مساعدته ، عندما بلغهم أن ذلك البابا يفكر في إرسال حملة لمساعدة المسيحيين في الشرق <sup>(٢)</sup> . ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الأرمن ، في تلك المنطقة الممتدة من شمالي الشام إلى شمال الجزيرة ، لنذكر الأساس الذي قامت عليه أولى الإمارات الصليبية في منطقة الشرق الأدنى .

أما ملطية فقد انتقلت السلطة فيها إلى أحد أولئك المغامرين الأرمن من رجال فيلاريثوس ، واسمه جبريل . وقد حاول جبريل هذا أن يحتفظ بحسن العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية ، فاعتنق المذهب الأرثوذكسى ليجمع بين

---

(1) Grousset : L'Empire du Levant; p.p. 182—183.

(2) Ranciman : op. cit. I. p.p. 202—203.

جنسه الأرمني ومذهبه الشرقي البيزنطي<sup>(١)</sup>. على أن السلاجقة لم يلبثوا أن أحاطوا بأراضيهم من جميع النواحي ، مما دفع جبريل إلى الإسراع بالدخول في تبعية السلطان الساجوق والخليفة العباسي . ولهذا الغرض أرسل جبريل زوجته إلى بغداد لإعلان تلك التبعية ، وعادت الزوجة وهي تحمل زوجها تأكيداً بضمان بقائه في إمارته<sup>(٢)</sup>. ثم إن جبريل لم يتردد في مقاومة الأتراك عندما هددوا إمارته . ومن ذلك أنه حدث سنة ١٠٩٦ أن تعرضت ملطية لحصار قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، وعندئذ أبى جبريل في إصرار تسليم مدينته . وإذا كان السريان في ملطية قد أظهروا دائماً عداً للحكم البيزنطي الأرمني ، حتى أن حنا سعيديزيم السريان في ملطية اتصل فعلاً بالسلاجقة ، إلا أن جبريل أحبط تلك المحاولة وأعدم حنا في أوائل يولية سنة ١٠٩٦<sup>(٣)</sup>. وهكذا حتى تعرض السلاجقة لضغط الصليبيين ، ونزلت الكوارث تترى على قلج أرسلان في نيقية وضورليوم وغيرها ، فخفف ضغط السلاجقة مؤقتاً عن ملطية ليهدها الخطر التركي من ناحية أخرى ، هي ناحية التركان من بني دانشمند في سيواس . ذلك أن صاحب سيواس — الملك غازي كشتكين — لم يلبث أن انتهمز فرصة ماحل بالسلاجقة من مصائب ليحاول أن ينفرد هو بملطية . وقد استمر الملك غازي يهدد ملطية ثلاث سنوات متتالية ، مما جعل حاكم ملطية يتجه نحو الصليبيين طالباً المساعدة<sup>(٤)</sup>.

أما مرعش فقد رأينا كيف سلمها الصليبيون لنندوني الإمبراطور البيزنطي بعد أن خاصوها من الأتراك في أكتوبر سنة ١٠٩٧ . على أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين أدرك أن المدينة أرمنية قلباً وقلباً ، ومن ثم رأى أن

---

(1) Guillaume de Tyr (Hist. Occid.) Tome, lp. 437.

(2) Michel Le Syrien, III, II, p. 179.

(3) Grousset : Hist. des Crisades I, p. 50.

(4) Michel Le Syrien, p. 167.

يعهد بحكمها إلى أحد الزعماء الأرمن واسمه ثانول Thatoul — الذى ظل يحكم  
مرعش حتى انتزعها منه الصليبيون سنة ١١٠٤<sup>(١)</sup>.

وفى شرقى مرعش ظهر مغامر أرمنى آخر — هو كوغ باسيل — الذى  
بسط سيادته على قلعتى كيسون (كيسوم) ورعبان، قرب بهسنى. وكوغ باسيل  
هذا أخو باكراد الذى رافق بلدوين البولونى بعد نيقيّة<sup>(٢)</sup>، والذى وجه نظره  
نحو تلك المنطقة الأرمينية. ويبدو أن هذين الأخوين كانا يتمتعان بنفوذ واسع  
ومكانة خاصة فى تلك المنطقة<sup>(٣)</sup>.

أما الرها فكان يحكمها زعيم أرمنى آخر هو ثوروس Thoros ابن هيثوم؛  
الذى كان أيضاً من رجال فيلاريتوس. وكانت الرها بعد وفاة فيلاريتوس قد  
خضعت للسلاجقة فترة عصبية من تاريخها عندما منحها السلطان ملكشاه للأمر  
بوزان سنة ١٠٨٧. على أن النزاع الذى استحكم فى تلك الفترة بين أمراء  
السلاجقة مكن ثوروس من الوصول إلى حكم الرها سنة ١٠٩٥، وإن كان قد  
تجنب الدخول فى صراع مباشر مع السلاجقة أنفسهم، ولو بشراء مساعدة بعض  
قبائلهم بالمال<sup>(٤)</sup>. وفى الوقت نفسه اعتمد ثوروس على سند شرعى فى حكم الرها  
هو الاعتراف بالتبعية للإمبراطور البيزنطى<sup>(٥)</sup>. ومع كل ذلك فإن الرها ظلت  
مهدة باستمرار من جانب السلاجقة نظراً لإحاطتهم بها، مما جعل ثوروس ينظر  
بعين الرضا إلى وصول الصليبيين إلى الشرق الأدنى.

هذا من ناحية الأرمن، أما من ناحية الصليبيين فيلاحظ أنهم أيضاً كانوا

(1) Chalandon : Les Comnènes, II, p. 105.

(١) يذكر ابن العبرى أن كوغ باسيل معناها «الاص باسيل لأنه سرق عدة قلاع  
من الثغور فتملكها الارمن إلى الآن».   
(ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩).

(3) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 23.

(4) Guibert de Nogent, III, p. 156.

(5) Matthieu d'Edesse (Doc. Arm), I, p. 35.

في حاجة ماسة إلى مساعدة الأرمن في تلك المنطقة . وهكذا وقف المسيحيون الأرمن على مشارف الشام ليفتحوا أبواب الوطن العربي في الشرق الأدنى أمام الصليبيين ، لاسيما وأن معظم سكان الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة كانوا فعلا من الأرمن المسيحيين ، رغم تفوق الأتراك الحربى والسياسى في تلك الجهات<sup>(١)</sup> . وكانت هذه الظاهرة أشد ماتكون وضوحا في منطقة تل باشر - على الطريق بين الرها وأنطاكية - وفي منطقة الراوندان على الطريق بين مرعش وأنطاكية . وإلى هذه المنطقة بالذات اختار باكراد - الرفيق الأرمنى لبلدوين البولونى - أن يوجهه عند ماترك الأخير مرعش<sup>(٢)</sup> .

### بلدوين البولونى والرها:

استطاع الأمير بلدوين أن يحرز تقدما كبيرا ، وأن يستولى على كثير من المواقع والمدن والقلاع في شمال الجزيرة ، وذلك بفضل مساعدة العنصر الأرمنى الذى كانت له السيادة في تلك الجهات ، والذى نظر إلى تقدم الصليبيين بعين الرضا للخلاص من حكم الأتراك المسلمين<sup>(٣)</sup> . وهكذا لم يصادف بلدوين البولونى صعوبة ، في الاستيلاء على تل باشر والراوندان ، بفضل مساعدة الأرمن وثورتهم ضد الحاميات التركية من ناحية وضعف تلك الحاميات من ناحية أخرى . وقد أراد بلدوين أن يكافئ رفيقه الأرمنى باكراد ، فمنحه حكم الراوندان ، ولكنه عاد وتشكك في ولاء باكراد له فاعتقله<sup>(٤)</sup>

وفي تلك الأثناء كان ثوروس حاكم الرها قد سمع بنجاح الصليبيين في

(1) Guillaume de Tyr : I. p. 153.

(2) Stevenson : op. cit. p. 23.

(3) Ibid

(4) Michaud : op. cit, I, p. 228.

الاستيلاء على تل باشر من السلاجقة ، فأرسل إلى بلدين يدعوهم للحضور إلى الرها لمساعدته ( فبراير ١٠٩٨ ) . وكان ثوروس رجلاً مسناً ، ليس له ولي يرثه في أمارته ، فخشى أن تضيق الرها من يد المسيحيين ويستولى عليها الأتراك المسلمون <sup>(١)</sup> . وزاد من مخاوف ثوروس أن كربغا ( كربوقا ) صاحب الموصل كان يعد عندئذ جيشاً كبيراً لإتقاذ إنطاكية من الخطر الصليبي ، مما جعل ثوروس يتخوف من أن يكتسح ذلك الجيش — وهو في طريقه إلى الشام — الرها وغيرها من الإمارات الأرمنية <sup>(٢)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الاستغاثة صادفت هوى في نفس بلدين البولوني ، لما فيها من تحقيق لأطماعه السياسية ، فأسرع إلى الرها في فبراير سنة ١٠٩٨ على رأس قوه صغيرة من ثمانين فارساً ؛ واستطاعت تلك القوة أن تفلت من الوقوع في قبضة حامية سميساط التركية . وكانت فرحة أهل الرها وحاكمها بتلك النجدة عظيمة ، فاستقبلوها استقبالاً حافلاً <sup>(٣)</sup> كما استقبلها رجال الدين الأرمن بغبطة بالغة ، مما يشير إلى أنه لم تكن هناك فجوة واسعة بين الكنيستين الأرمنية واللاتينية ، مثلما كان بين الكنيسة الأرمنية من ناحية والأرثوذكسية اليونانية من ناحية أخرى <sup>(٤)</sup> .

والواقع إن سميساط — بمن فيها من أتراك — كانت العدو اللدود لإمارة الرها الأرمنية . ولذلك طلب ثوروس حاكم الرها من بلدين أن يبدأ بمهاجمة تلك المدينة ، فاستجاب بلدين لذلك الطلب وأخذ يهاجم سميساط في النصف

(1) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar.), I. p. 35.

(2) Runciman: op. cit, I. p. p. 203-204.

(3) Matthieu d'Edesse, I. 36.

(4) Guillaume de Try. I. p. 156.

وجدير بالذكر أن ابن الأثير عندما أشار إلى امتلاك الصليبيين الرها قال «إنهم ملكوا مدينة الرها بمكاتبة من أهلها لأن أكثرهم أرمن ، وليس بها من المسلمين إلا القليل » .

( السكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ ) .

الثانى من فبراير سنة ١٠٩٨ . وقد ساعد بلدوين فى تلك العملية جيش من الأرمن ، وتمكن بفضل هذه المساعدة من الاستيلاء على الضياع المكشوفة التابعة لسميساط . وبينما المحاربون المسيحيون مشغولين بنهب تلك الضياع ، إذا بقوة من الأتراك تباغتهم وتقتل نحو ألف من الأرمن <sup>(١)</sup> .

ويبدو أنه من الصعب تحديد موقف بلدوين البولونى من ثوروس أمير الرها فى تلك المرحلة ، وإن كان من الراجح أن فرار جنود الرها من معركة سميساط جعل بلدوين يفكر فى ضرورة تحويل إمارة الرها الأرمنية إلى إمارة لاتينية — أرمنية . أما ثوروس فكانت فكرته الأولى عند ما استنجد ببلدوين هى أن يجعل منه قائد الجيش وأن يجعل من الصليبيين جنداً مرتزقة يعملون تحت إمرته ، ويدافعون عنه وعن بلده مقابل ثمن يتفق عليه . ولكن بلدوين كان لا يمكن أن يرضى بذلك الوضع الذى يتعارض مع أطماعه وآماله . ويقال إن البحث فى هذا الموضوع بالذات كان قد تم أثناء وجود بلدوين فى تل باشر قبل حضوره إلى الرها ، وأن بلدوين اشترط عندئذ أن يقبناه ثوروس ويتخذة إبناً ووريثاً وشريكاً له فى حكم الرها . ولم تكن هذه الشروط قاسية بالنسبة لثوروس لعدم وجود أبناء له يرثونه فى حكم الرها من ناحية ؛ ولتقدم سنه من ناحية أخرى <sup>(٢)</sup> . ولما كان ثوروس أشد ما يكون حاجة إلى مساعدة بلدوين ، فقد انتهى الموقف بأن تبني ثوروس بلدوين ونادى به وريثاً له فى حكم الرها ، وتمت مراسيم التبنى وفقاً للتقاليد المعمول بها فى الكنيسة الأرمنية فى القرن الحادى عشر <sup>(٣)</sup> .

وهكذا صار هناك نوع من الوصاية الصليبية اللاتينية على إمارة الرها الأرمنية ؛ وبحكم هذه الوصاية أصبح العنصر اللاتينى هو الوريث الطبيعى

(1) Grousset : op. cit, I, p. 55.

(2) Runcimen : op. cit, I, p. 204.

(3) Guibert de Nogent : Hist. Occid, IV. p. 165.

للعنصر الأرمني في حكم الرها. على أنه يبدو أن الأرمن كانوا منقسمين على أنفسهم داخل الرها ، بل لقد نقم بعضهم على ثوروس بسبب اعتناقه المذهب الأرثوذكسي واعترافه بنوع من التبعية للامبراطور البيزنطي. هذا فضلاً عن عجز ثوروس عن حماية محاصيل الأهالي ومتاجرهم من عدوان السلاجقة ، وتعسفه في جمع الضرائب والأموال من الأهالي الخاضعين<sup>(١)</sup> . ولم تلبث أن أتاحت الفرصة لأهل الرها للتعبير عن استيائهم بوصول بلديون إليهم ، فقامت ثورة عارمة في الرها في مارس سنة ١٠٩٨ ، وهي الثورة التي انتهت بقتل ثوروس وانتقال مقاليد الأمور في الرها إلى يد بلديون البولوني.

ومع أن أقوال المؤرخين المعاصرين تشهد كلها على أن تلك الثورة كانت داخلية ، حركها وأشعلها فريق من أهل المدينة الأرمن<sup>(٢)</sup> ، إلا أننا لا يمكن أن نبرأ بلديون تماماً من تهمة المشاركة — ولو بنصيب محدود — في تحريض الثوار ، ومن تهمة التفريط في حياة ثوروس ودمه ، وعدم القيام بواجبه كاملاً في حمايته. ولا أدل على صحة هذا الاتهام من سياسة بلديون في الرها ، إذ حرص دائماً على أن يكتسب مكانة شعبية في نفوس الأهالي ، فضلاً عن أنه لم يحاول أن يسرع لإنقاذ ثوروس من يد الثوار ، بل على العكس نصحه بالتسليم<sup>(٣)</sup> وبالإضافة إلى كل ذلك فقد أشارت بعض المراجع إلى اتصال المتآمرين على حياة ثوروس ببلديون سراً في ليلة من ذات الليالي ، وأنهم عرضوا عليه تفاصيل مؤامرتهم ، ووعدوه بتسليمه زمام الحكم في المدينة عقب التخلص من ثوروس<sup>(٤)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فقد أدت ثورة مارس سنة ١٠٩٨ إلى أن أصبح

(1) Michaud : op. cit, I, 233.

(2) Albert d'Aix, p. p. 354-355  
& Guillaume de Try; I, p. 206.

(3) Runciman : op. cit, I, p. 206.

(4) Matthieu d'Edesse, I, p. p. 37-38.

بلدوين البولونى سيد الرها وحاكمها وصاحب السلطان فيها . وهكذا استطاع بلدوين أن يحقق آماله وأن يصل إلى أهدافه ، بل إنه كان أول أمير بين زعماء الحملة الصليبية الأولى استطاع أن يمكن لنفسه فى الشرق ويحقق أطباعه السياسية بتأسيس إمارة لنفسه يتفرد بحكمها . حقيقة إن الرها لم تكن فى الأراضى المقدسة ذاتها ، ولكن أهميتها فى تاريخ المسيحية الأول معروفة<sup>(١)</sup> . هذا فضلا عن أن موقعها فى شمال الجزيرة جعل تلك الإمارة الصليبية الجديدة على جانب كبير من الأهمية فى حماية ممتلكات الصليبيين بالشام ضد أى هجوم يأتى من الشرق .

ومن الواضح أن بلدوين لم يكن حريصا على الوفاء بتعهداته للامبراطور البيزنطى ، فتناسى أنه وريث ثوروس الذى ربطته بالإمبراطورية البيزنطية علاقة تبعية واضحة<sup>(٢)</sup> . ثم إن الظروف التى أصبح فيها بلدوين البولونى سيد الرها ساعدته على اتخاذ هذا الموقف من الامبراطورية البيزنطية ، لأنه تولى مقاليد الأمور فى الرها نتيجة لثورة شعبية وبتفويض من أهل المدينة ، مما جعله يتحلل من أى قيد يربطه بالعرش البيزنطى ، فى الوقت الذى كان بلدوين متحررا فعلا من التزامات الاتفاقية التى عقدها زعماء الصليبيين فى القسطنطينية ، مع الامبراطور ألكسيوس كومنين . وهكذا يبدو أنه إذا كانت حكومة ثوروس انصفت بمسحة بيزنطية أرمنية ، فإن حكومة بلدوين صارت ذات صبغة لاتينية أرمنية . وتبدو أهمية ذلك كله فى أن اتفاقية القسطنطينية بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطى تم خرقها فعلا فى الرها ، قبل أن يستولى الصليبيون على

---

(١) كانت مدينة الرها من أول البلدان التى قامت بها جالية مسيحية كبيرة فى الشرق الأدنى ، كما ترجمت فيها أجزاء من العهد الجديد إلى اللغة السريانية فى القرن الثانى للميلاد انظر :

( Burkit : Early Eastern Christianity ).

(2) Runciman : op. cit, I, p. 206.



أنطاكية ويدخلوا في نزاع حول ملكيتها مع الامبراطورية البيزنطية<sup>(١)</sup>. أما الامبراطور ألكسيوس كومنين فلم يكن عندئذ في مركز يسمح له بتأكيد حقوقه في الرها، لبعدها عن مركز قوة الامبراطور، ولذلك فضل ألكسيوس أن يتغاضى مؤقتاً عما جرى في الرها من أحداث وعن استقلال بلديين بها حتى تمكنه الظروف في المستقبل من تأكيد حقوق الامبراطورية في تلك المنطقة بصورة عملية<sup>(٢)</sup>.

وسرعان ما أحس بلديون بضرورة القيام ببعض الأعمال التي تعلو من شأنه في نظر رعاياه الجدد من الأرمن وتضفي على حكمه في الرها قسطاً من الشرعية والأهمية. لذلك أخذ بلديون يحدد جهوده للاستيلاء على سيميساط، وهي المدينة التي كان وقوعها على الضفة المقابلة للفرات، مهدداً للرها. وكان أن وفر أمير سيميساط التركي على بلديون عناء الحرب؛ إذ أدرك ذلك الأمير صعوبة الدفاع عن إمارته بعد أن تبدلت الأوضاع في الرها، فعرض على بلديون شراء سيميساط مقابل عشرة آلاف دينار من الذهب. ولم يجد بلديون صعوبة في الحصول على هذا المبلغ إذ كان في خزانة أمير الرها الراحل - ثوروس - مبالغ طائلة، دفع منها بلديون الثمن المطلوب واستولى على سيميساط. وقد وجد بلديون في قلعة سيميساط عدداً كبيراً من الأسرى والرهائن الأرمن — معظمهم من أبناء الرها — فردهم إلى أهلهم وذويهم، مما أكسبه شعبية كبيرة بين أهل الرها<sup>(٣)</sup>.

على أن أهل الرها لم يقتنعوا بالاستيلاء على سيميساط وإعما طمعوا في إخضاع مركز آخر قريب في الجنوب الشرقي، هو حصن سروج على بداية الطريق الموصل إلى حلب. وكان صاحب تلك القلعة عندئذ هو نور الدولة بلك بن بهرام ابن

(1) Grousset: op. cit, I, p. p. 60-61.

(2) Setton: op. cit, vol. I, p. 304.

(3) Guillaume de Try, I, p. 159.

أرتق ، أى أنه انتهى إلى الأرائقة وهم بيت من التركمان ظلوا يسيطرون على بيت المقدس ، حتى إذا ما تعرضوا لضغط الفاطميين نزحوا إلى الشمال الشرقى ، حيث أسسوا عدة إمارات فى ديار بكر وشمال الجزيرة<sup>(١)</sup> . ويبدو أن تلك لم يدرك طبيعة الإمارة الصليبية الجديدة التى قامت فى الرها ، وظن أن بلدوين لا يعدو أن يكون مغامراً من نوع رسل باليل ، فأرسل إليه يطلب منه المعونة ضد رعاياه من العرب الذين رفضوا دفع ماعليهم من أموال . وكان أن زحف بلدوين على سروج ومعه آلات الحصار ، فخاف أهلها وأرسلوا رسلهم إليه يعلنون رغبتهم فى تسليم المدينة واستعدادهم لدفع الجزية . وهكذا استولى بلدوين على سروج ، فعزل تلك وضمها إلى أملاكه<sup>(٢)</sup> . ولا شك فى أن الاستيلاء على سروج جاء متمماً لفتح الرها ومؤمناً لهذه الإمارة الجديدة<sup>(٣)</sup> .

وقد أكمل بلدوين سيطرته على تلك المنطقة بالاستيلاء على البيرة سنة ١٠٩٩ ، وهى قلعة على نهر الفرات ذات موقع حربى هام ، على الطريق بين الرها وعينتاب (عين تاب)<sup>(٤)</sup> . على أنه لم يلبث أن تخلى عن البيرة لأحد زعماء الأرمن المحليين ، كما سنرى فيما بعد .

أما عن سياسة بلدوين فى حكم الرها فقد قامت على أساس الربط بين العناصر المختلفة التى صارت تتألف منها الإمارة ، وبخاصة الصليبيين الغربيين من

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ ، ٢٠٢ .

(2) Albert d'Aix (Hist. Occid IV) p. p. 356-357 & 445-446.

(٣) أما رواية ابن الأثير عن استيلاء بلدوين على سروج ، فيقول فيها إن النزاع لم يكن بين بلدوين وبلك بن بهرام ، وإنما بين بلدوين وسقمان (سكان) بن أرتق نفسه ، وهو الذى كان فى وقت ما صاحب بيت المقدس . ويذكر ابن الأثير أن سقمان هذا حاول غزو الرها بم جيش كبير من التركمان ، ولكنه هزم واستولى الفرنج على سروج ، وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم .

( ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ ) .

(4) Grousset ; L'Empire du Levant, p. 402.

ناحية والأرمن من ناحية أخرى . وقد ضرب بلديون نفسه مثلاً لهذا الترابط بزواجه من الأميرة أردا Arda ، وهي ابنة أحد زعماء الأرمن<sup>(١)</sup> . على أنه إذا كانت سياسة بلديون قد استهدفت الربط بين العنصرين ، إلا أنه من الواضح أن بلديون نفسه كان حريصاً في الوقت ذاته على أن يظل العنصر الأرمني خاضعاً للعنصر اللاتيني الغربي . لذلك جذب بلديون إلى الرها عدداً كبيراً من الصليبيين الغربيين وأغدق عليهم المنح والأموال . ولكن هؤلاء عاشوا بعيدين عن الاختلاط بالأرمن ، مما أساء كثيراً إلى شعورهم<sup>(٢)</sup> . ذلك أن الصليبيين الغربيين لم يلبثوا أن أصبحوا بمثابة أرستقراطية عسكرية في الرها ، تحكم شعباً من الأرمن يشتغل أفراده بالتجارة والزراعة . حقيقة إن هذه الأرستقراطية لم تضطهد الأرمن مذهبياً — مثلاً كان يفعل البيزنطيون — فظل التسامح الديني يسود العلاقات بين اللاتين والأرمن ، ولكن سرعان ما استولى الوافدون الجدد من الصليبيين على الضياع الزراعية التابعة للرها خارج أسوارها ، واضطر من عليها من الفلاحين الأرمن إلى العمل في ظل قيود النظم الاقطاعية المعروفة في الغرب الأوربي ، فضلاً عن أن الضرائب التي ظل يدفعها أهل الرها لم تخف عما كانت عليه أيام ثوروس<sup>(٣)</sup> .

لذلك لاعجب إذا استاء الأرمن من حكم الصليبيين ، وأخذوا يدبرون مؤامرة للتخلص من ذلك الحكم ، فاتصلوا بالأرانة مرأاً للحصول على المساعدة . ولكن هذه المؤامرة أحبطت وعوقب زعمائها عقاباً قاسياً في ٢٦ ديسمبر سنة ١٠٩٨<sup>(٤)</sup> .

(1) Guillaume de Tyr. p. 402.

(2) Michaud : op. cit. I. p. 235.

(3) Runciman : op. cit. I. p. 211.

(4) Albert d'Aix, p. 443. & Guillaume de Tyr p. 285.

## الفصل الخامس الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة فارس

الأمير الصليبيون أمام أنطاكية :

وفي الوقت الذي كان بلدوين البولوني يعمل في محيط الأرمن بالجزيرة ، زحف بقية الجيش الصليبي الكبير على شمال الشام قاصدا أنطاكية ، وهي العاصمة البيزنطية القديمة لذلك الإقليم . وقد أحدث وصول الصليبيين إلى مشارف الشام هلعا كبيرا في قلوب الأهالي ، لأن كثرة أعدادهم وطبيعة زحفهم جعلت الناس يشعرون أنهم أمام خطر جديد من نوع غير عادي . وعبر عن ذلك ابن القلانسي بقوله إن الصليبيين وصلوا « في عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الأنباء بذلك ، فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها . »<sup>(١)</sup> وكان الصليبيون قد غادروا مرعش في أكتوبر سنة ١٠٩٧ بعد أن تزودوا بالطعام والماء ثم استولوا على حصن بغراس وقلعة أرتاح في الطريق . ولم تلبث أن وصلت طلائع الجيش الصليبي بقيادة بوهيموند مدينة أنطاكية في ٢١ أكتوبر<sup>(٢)</sup> .

أما عن مدينة أنطاكية هذه فقد ذكرنا أن آخر حكامها من قبل الامبراطورية البيزنطية كان فيلاريتوس الأرمني ، حتى انتزعها منه زعيم سلاجقة الروم سليمان بن قتلش في فبراير سنة ١٠٨٥ . وعندما تغلب تنش أخو السلطان ملكشاه على سليمان هذا وقتله سنة ١٠٨٦ صارت أنطاكية من أملاك تنش ، حتى اختار أخوه السلطان ملكشاه أن يأخذها منه ويعطيها لأحد رجاله

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣١ ( مطبوع ) .

من التركمان ، وهو ياغي سيان سنة ١٠٨٧<sup>(١)</sup> . وكان ياغي سيان هذا على درجة من الكفاية مكنته من اكتساب رضاء تنش بعد وفاة ملكشاه ، حتى إذا ما توفي تنش ظل ياغي سيان محتفظاً بأنطاكية ، دون أن يستطيع ملك حلب — رضوان بن تنش — انتزاعها منه . وهكذا قدر لذلك الأمير التركمانى — ياغي سيان — أن يظل محتفظاً بأنطاكية ليتولى الدفاع عنها ضد جحافل الصليبيين<sup>(٢)</sup> .

ولم يكن الشقاق بين ياغي سيان أمير أنطاكية وسيد رضوان بن تنش . ملك حلب هو العامل الوحيد الذى سهل مهمة الصليبيين فى شمال الشام ؛ وإنما حدث فى السنة نفسها التى أخذت الجيوش الصليبية تتدفق من غرب أوروبا إلى الشرق ( ١٠٩٦ — ١٠٩٧ ) أن قامت حرب أهلية بين ابنى تنش — رضوان ملك حلب ودقاق ملك دمشق — بسبب رغبة الأول فى انتزاع دمشق من أخيه<sup>(٣)</sup> . وكان أن زحف رضوان — يصحبه ياغي سيان — على دمشق لطرد دقاق منها ، ولكنه فشل فى ذلك وارتد « عائداً إلى حلب خائباً فى الأمر الذى طلب<sup>(٤)</sup> » ولم يلبث أن ترك ياغي سيان جانب رضوان وانضم إلى أخيه وغريمه دقاق ، وأغراه على أن يقوم بمهاجمة رضوان فى حلب . ولكن دقاق فشل هو الآخر فى هجومه على حلب ، على الرغم من مساعدة ياغي سيان له<sup>(٥)</sup> .

---

(١) ذكرته بعض المراجع باسم ياغى بسان ؛ وقال الدكتور زكى محمد حسن : إن هذا النطق للاسم هو الأصح ( زامباور : معجم الانساب ص ٢٢١ )  
ومع اعترافنا بصحة هذا رأى ؛ إلا أننا آثرنا استخدام الصيغة الشائعة للاسم فى غالبية المصادر المعاصرة .

- (٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ١١١ — ١١٢  
(٣) « وقد كان الملك فخر الملوك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب مائلاً إلى دمشق ومحباً لها ومؤثراً للعود إليها ، ولا يختار عليها سواها ، لمعرفته بمحاسنها وترعرعه فيها » . ( ابن القلانسى : ١٣١ — ١٣٣ ) .  
(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٢

هذه هي بعض الأحداث التي كانت تجرى على مسرح الشام ساعة وصول الصليبيين إليها في أكتوبر سنة ١٠٩٧،<sup>(١)</sup> ومنها يتبين أن ياغى سيان بخيانته لسيدته ملك حلب حرم من الحصول على مساعدة أقرب القوى الإسلامية إليه عندما دهمه الخطر الصليبي في أنطاكية. ويقول ابن العديم أن استبداد ياغى سيان وتعسفه آثار استياء المسيحيين في شمال الشام وبخاصة في أرتاح، مما جعلهم يفرحون لظهور الصليبيين ويطلبون العون منهم<sup>(٢)</sup>.

أما مدينة أنطاكية نفسها فكانت من أقوى مدن ذلك العصر تحصيناً، بحيث لا يمكن مقارنتها في مناعتها وقوة تحصينها إلا بالقسطنطينية<sup>(٣)</sup>. ذلك أن الجبال العالية أحاطت بها من جهتي الجنوب والشرق، في حين كان يحدها من جهة الغرب مجرى نهري العاصي، ومن الشمال مستنقعات وأحراش، فضلاً عن قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها<sup>(٤)</sup>. وعندما وصل بوهيموند ومعه رجاله من النورمان إلى أنطاكية اتخذوا مواقعهم في الجهة الشمالية للمدينة، أي عند باب بولس. ثم جاء بعد ذلك روبرت أمير فلاندرز، وروبرت أمير نورمانديا، وهيو أمير فرمندوا، وستفن (إثنين) أمير بلوا، فأتخذوا جميعهم مواقعهم بين باب بولس وباب الكلب. أما ريموند والمندوب البابوي أدهار ومعهم فرسان بروفانس، فاستقروا أيضاً على مقربة من باب الكلب، إلى الجهة الغربية منه. وأخيراً عسكر جودفري بوايون في الجهة الشمالية الغربية، أي في مواجهة باب الجنيينة<sup>(٥)</sup>.

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ.

(٢) Stevenson ; The Crusaders, p. 25.

(٣) « وفعل أهل أرتاح مثل ذلك، واستدعوا المدد من الفرنج. وهذا كله لقبج سيرة ياغى سيان وظلمه في بلاده ».

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب ٢ ص ١٣١ — مطبوع.

(٥) Grousset ; Hist, des Croisades I, p. 72.

(٥) ذكر ياقوت الحموي عن أنطاكية « ولم تزل أنطاكية قصبة العواصم —

وكانت غالبية أهل أنطاكية في ذلك الوقت من السريان والأرمن . وعندما علم ياغى سيان صاحب أنطاكية باقتراب الصليبيين «خاف من النصارى الذين بها» ولذلك أخرجهم بحجة حفر خندق يحمى المدينة ؛ ولما أرادوا دخول أنطاكية ، عند العصر منعهم وتركهم يشتركون مع الصليبيين فى حصارهم ، فى حين تحفظ هو على أهلهم « وكف أيدي المتطوعة إليهم » (١) .

هذه هى الرواية العربية عن موقف أهل أنطاكية المسيحيين . أما الرواية اللاتينية فتختلف تماماً لأنها تقول إن «الأرمن والسريان الذين كانوا بداخل المدينة أسرعوا بالخروج والهروب منها تاركين خلفهم نساءهم وأولادهم بالمدينة ، فاستفسروا منا عن هدفنا وأمدونا بمعلومات عن كافة أسرار المدينة » (٢) . ومن هاتين الروايتين المتناقضتين يبدو لنا أن أهل أنطاكية ، من السريان والأرمن تنازعهم تياران متعارضان ، فقررروا الانتظار حتى يروا من المنتصر وعندئذ ينضمون إلى جانبه . هذا إلى أنه من المرجح أن يكون ياغى سيان قد اتخذ إجراءات تعسفية ضد المسيحيين فى أنطاكية عند ماعلم باقتراب الصليبيين ، فزج بالطرق فى السجن ، وطرد كثيراً من أعيان المسيحيين ، واستولى رجاله على كتدرائية القديس بطرس واتخذها اسطبلًا لخيوله (٣) .

ومهما يكن من أمر فإن حصار الصليبيين لأنطاكية ، استمر سبعة أشهر — من ٢١ أكتوبر سنة ١٩٠٧ حتى ٣ يونيو ١٠٩٨ (٤) — وكان من الممكن ألا

— من الثغور الشامية . وهى من أعيان البلاد وأمناتها . . . وأنطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل ، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس . . . وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل ببجل ، والسور يصعد مع الجبل إل قلته فتم الدائرة . . . »

( معجم البلدان ص ٢٦٧ — طبعة بيروت ) .

(1) Guillaume de Tyr I, p. p. 174-175.

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(3) Gesta Francorum, p. 69.

(4) Runciman : op. cit, I, p. 214.

تطول مدة الحصار على هذا النحو لو أن الصليبيين باغتوا المدينة بالهجوم فور وصولهم ولم يضيعوا وقتاً طويلاً في الانتظار والتفكير ، لاسيما وأن جميع الشواهد تشير إلى حالة الفزع والارتباك التي استولت على الأتراك في أنطاكية عند ما علموا بوصول الصليبيين . وزاد من موقف الصليبيين قوة أنهم أمنوا طريق الاتصال فيما بينهم وشاطئ البحر ، وذلك عند ما وصل إلى ميناء السويدية — عند مصب نهر العاصي — في حوالي ١٧ نوفمبر سنة ١٠٩٨ أسطول جنوى يحمل إمدادات هامة للصليبيين<sup>(١)</sup> .

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه بينما كانت الجيوش الصليبية تخرق الأناضول في طريقها إلى الشام ، دأبت الأساطيل الإيطالية والفلمنكية والسكندنافية على مساعدة الصليبيين<sup>(٢)</sup> . من ذلك أن المغامر ونمار البولوني استطاع أن يستولى في أغسطس سنة ١٠٩٧ على ميناء اللاذقية من الأتراك . وبعد ذلك بعدة شهور — أي في ربيع سنة ١٠٩٨ — زار اللاذقية أسطول إنجليزي بقيادة إدجار اثلنج وروبرت جودفنس<sup>(٣)</sup> .

أما ياغي سيان ، فقد حاول في تلك الأثناء الحصول على مساعدة جيرانه المسلمين . وكان من الطبيعي ألا يطمع في مساعدة رضوان ملك حلب بعد أن تخلى عنه في العام السابق ، فأرسل ابنه شمس الدولة إلى دقاق ملك دمشق ، كما أرسل إلى جناح الدولة أمير حمص وكربغا أتابك الموصل ، فضلاً عن سلطان سلاجقة فارس والخليفة العباسي ، « وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجد والبعث على الخوف إلى الجهاد . وقصد تحسين أنطاكية وإخراج

(١) حدد ابن الأثير مدة الحصار بتسعة أشهر (الكامل - حوادث ٤٩١ هـ) .

(2) Raymond d'Agiles. (Hist. Occid. III), p. 242 & Carfo (Hist. Occid. V), p. 50.

(3) Heyd : Hist. du Commerce, I, p. 133.



النصارى منها»<sup>(١)</sup>. وفي الوقت نفسه أعد ياغى سيان عدته لحصار طويل، فشن القلاع بالجند والمقاتلين، واختزن داخل أسوار المدينة المأوى الكافية<sup>(٢)</sup>.

وعندما طال حصار أنطاكية، أخذ الصليبيون يوجهون جزءاً كبيراً من نشاطهم نحو القرى والضياع القريبة — وبخاصة في حوض نهر العاصى — لتهريبها والحصول على الميرة والغذاء. ويبدو أن ياغى سيان أحس بابتعاد تلك القوة من الصليبيين، فخرج فجأة من المدينة وقام بهجوم مباغت على بقية الصليبيين، وكاد ينجح في تفرقة شملهم لولا مهارة ريموند التى أنقذت الموتى، وعندئذ عاد ياغى سيان ورجاله إلى داخل المدينة<sup>(٣)</sup>. وفي ذلك الوقت تجمعت إقرب شيزر نجدة إسلامية لإنقاذ أنطاكية، على رأسها دقاق السلجوق ملك دمشق وبصحبه طغتكين أتابك، وأمير حمص العربى جناح بن ملاعب. وعندما علم هؤلاء الأمراء المسلمون أن جزءاً من الجيش الصليبي بقيادة بوهموند النورمانى وروبرت أمير الناندز — يزحف على امتداد نهر العاصى، قرروا الخروج للاقائهم، فدارت معركة بين الطرفين عند البارة في نهاية ديسمبر سنة ١٠٩٧<sup>(٤)</sup>. ويفهم مما ذكره ابن العديم أن المسلمين تفوقوا على الصليبيين في ذلك الاشتباك، وأنهم «قتلوا منهم جماعة»<sup>(٥)</sup>.

ويبدو أن تلك المعركة نهبت الصليبيين إلى عدم الانمارة بالابتعاد عن مراكزهم جنوباً، فاكتملوا بالإغارة شرقاً حتى معرة مصرين حيث «قتلوا من وجدوا وكسروا منبرها»<sup>(٦)</sup> على أن هذه الانتصارات الحليمية لم تحقق للصليبيين ما كانوا

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤.

(٢) Runciman : op. cit 1, p. 215.

(٣) Idem, p. 202.

(٤) Stevenon : op. cit, p. 56.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٢ (مطبوع).

(٦) المرجع السابق ج ٢ ص ١٣٢.

يرجونه من زاد وطعام، فعادوا إلى أنطاكية «منتصرين ولكن الأيدي خاوية»،  
على قول أحد المؤرخين الغربيين المعاصرين<sup>(١)</sup>. وهكذا أخذ شبح المجاعة يهدد  
الصلبيين أمام أنطاكية، ولم تكفهم المعونة المتقطعة التي كانت تأتيهم من قبرس  
والغرب حيناً، وتقطع أحياناً. وتحت تأثير الجوع والإنهاك نشبت الفوضى وسوء  
النظام بين الجند<sup>(٢)</sup>. وفي تلك الظروف الحرجة والأوضاع الصعبة، أخذ بعض  
الصلبيين يهرون من المعركة ويتسللون خفية. ولم تقتصر هذه الظاهرة على الجند  
المغمورين، بل إن بطرس الناسك نفسه ووليم النجار أمير ميلون Melun اختفيا  
خفية، فجد تنكرد في أثرهما حتى قبض عليهما وأعادهما إلى بوهيموند الذي وبخهما  
علناً لروبهما، وأخذ عليهما تعهداً بعدم ترك الجيش الصليبي حتى يتم الاستيلاء على  
بيت المقدس<sup>(٣)</sup>.

### بوهيموند ومشكلة أنطاكية:

وفي وسط تلك المخاطر والأوضاع الصعبة التي أحاطت بالصلبيين أمام  
أنطاكية، أخذ بوهيموند يبدو في صورة الرجل القوي الذي تركزت فيه آمال  
الصلبيين. ولكن بوهيموند لم يعمل في ذلك الدور لوجه الله والصلبيين فحسب،  
ولم يبذل ما بذله من جهود حرصاً على ولائه للامبراطور البيزنطي، وليساهمه إلى

(1) Raymond d'Aigles, (Hist. Occid., III), p. 245.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 188.

والعروف أن بطرق بيت المقدس السابق — وهوسيمون — كان مقياً عند دوق قبرس  
فدأب على إرسال المؤن واللا كولات والبيد من الجزيرة إلى الصليبيين أمام أنطاكية؛ لأنه  
رأى في انتصار الصليبيين الغربيين — رغم اختلاف المذاهب — انتصاراً للمسيحية، ونيلاً  
من المسلمين. انظر:

(Runciman: op. cit., I, p. p. 222—223)

(3) Gesta Francorum, p. p. 77—79.

ماشاء الله ثمار جهده وجهود الصليبيين. وإذا كان بوهيموند قد حافظ حتى ذلك الوقت على تعهده الذى قطعة على نفسه فى التسطنطينية للإمبراطور ألكسيوس كومنين ، وسلم للإمبراطور كل ما استولى عليه من بلاد فى آسيا الصغرى ؛ فإن هذه السياسة كانت لا يمكن أن تستمر . وهكذا أخذت سياسة بوهيموند تجاه ألكسيوس والإمبراطورية البيزنطية تتغير أثناء حصار أنطاكية ، وهو التغير الذى ترتب عليه حدوث تحول خطير فى تاريخ الحروب الصليبية . ذلك أن بوهيموند أدرك أن الإمبراطور البيزنطى لن يوافق مختاراً على منحه أنطاكية ، فلا مانع إذا من أن يحصل عليها رغم إرادة الإمبراطور<sup>(١)</sup> .

وقد نفذ بوهيموند خطته فى براعة فائقة ، فاختر أصعب أوقات الحصار وأشدها حرجاً — فى أوائل يناير سنة ١٠٩٨ — ليعلم أنه أزمع الانسحاب والعودة إلى إيطاليا ، وأنه لا يستطيع الاستمرار فى تلك العملية الحربية الطويلة التى لم يكن مستعداً لها ، ولا يمكنه أن يصبر على رؤية رجاله وفرسانه وخيوله ، وهم يتساقطون كل يوم صرعى من الجوع أمام أسوار أنطاكية<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن هذا التهديد الخطير كان يعنى تعريض الصليبيين جميعاً لكارثة محتمة ، لأن بوهيموند ورجاله صاروا بمثابة العمود الفقرى للتوات الصليبية المحاصرة لأنطاكية . لذلك أمرع جميع الزعماء الصليبيين — فيما عدا ريموند — ونوسلوا إلى بوهيموند حتى لا يتركهم أمام أنطاكية ، ووعدوه بتسليمه أنطاكية فور الاستيلاء عليها . وكان ذلك هو كل ما استهدفه بوهيموند من وراء مناورته ، فلم يبق له بعد ذلك سوى إظهار مقدرته وكفائته فى الاستيلاء على أنطاكية<sup>(٣)</sup> .

(١) أشار ابن القلانسى إلى نقص الصليبيين للمهد الذى فطموه على أنه سهم للإمبراطور البيزنطى ، ولكنه أخطأ فقال : إنهم امتنعوا عن تسليمه نيقية .

(ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥) .

(2) Grussat : Hist. des Croisades , p. 79.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 201 & Première Croisade.

ثم إن بوهيموند أدرك جيداً أن وجود قوات بيزنطية بقيادة تاتيكوس Tatikon أمام أنطاكية بحاجة مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على المدينة، سيفسد عليه خطته ، لأن القائد البيزنطي سيطلب عند سقوط أنطاكية بتنفيذ العهد الذي قطعه الزعماء الصليبيون على أنفسهم للإمبراطور البيزنطي<sup>(١)</sup> . لذلك أخذ بوهيموند يستفز القائد البيزنطي . وعندما ذهب تاتيكوس يشكو ويطلب المساعدة من بقية الزعماء الصليبيين ؛ كان بوهيموند قد أحكم خطته ، فاتهمه أولئك الزعماء بأنه يتآمر مع الأتراك سرّاً ضد الصليبيين وأنه يخون القضية الصليبية في الخفاء . وعندئذ لم يسع تاتيكوس سوى أن يفكر في النجاة بنفسه ، فانسحب فوراً عن طريق ميناء السوبدية إلى جزيرة قبرص<sup>(٢)</sup> . والواقع إن اتهم تاتيكوس كان يعنى اتهام الامبراطورية البيزنطية كلها ، فتحول شعور الصليبيين نحوها إلى عداوة ، وأخذوا في أزمتهم أمام أنطاكية يلقون باللوم على الإمبراطور البيزنطي ودولته ، ويقولون أنه لو كان الإمبراطور ساعدهم باخلاص لما وصلوا إلى الحالة السيئة التي أمسوا فيها ، ولوجدوا على الأقل ما يسد رمقتهم من زاد وميرة . وهكذا دفع هذا الشعور كافة الأمراء الصليبيين إلى التنكر لعودهم للإمبراطور البيزنطي ، على أساس أن البيزنطيين أنفسهم هم الذي بدءوا بتنقض اتفاقية القسطنطينية ، فتغولوا عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بما يحتاجون إليه من معونة ، فضلاً عن أن مندوب الامبراطور لم يثابر مع الصليبيين أمام أنطاكية ، وإنما تركهم ولاذ بالفرار<sup>(٣)</sup> . وبذلك نجح بوهيموند في إحكام خطته ولم يبق في طريقه ما يحول دون تسلمه أنطاكية فور سقوطها في أيدي الصليبيين .

(1) Brehier : op. cit. p. 312

(2) Setton : op. cit. I, p. p. 313—314.

(3) Runciman : op. cit. I, p. p. 224.

### مشروع النوائف بين الصليبيين والفاطميين :

على أن الشيء الذى يسترعى العجب حقاً ، هو أن المسلمين ظلوا حتى ذلك الوقت لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وهذها ، بدليل أن الفاطميين فى مصر فكروا فى مشروع للتحالف مع تلك القوة الجديدة التى ظهرت فى بلاد الشام ، ضد خصومهم من أهل السنة ، أعنى الخلافة العباسية فى بغداد والأتراك السلاجقة فى الشام <sup>(١)</sup> .

وكان صاحب السلطة الفعلية فى مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى الذى ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمى المستعلى (١٠٩٤-١٠١١) والعشرين سنة الأولى من حكم الخليفة الأمر ، أى حتى سنة ١١٢١ . ويبدو عدم إدراك الأفضل لحقيقة الحركة الصليبية من أنه عند مارأى الصليبيين يهاجمون الأتراك السلاجقة — أعداء الدولة الفاطمية الألداء — فكر فى أن يقيم تحالفاً بينه وبين الصليبيين ، بحيث تكون أنطاكية للصليبيين وتكون يث المقدس للفاطميين <sup>(٢)</sup> . وربما استند الأفضل فى تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية لأن الدولة البيزنطية أيام صعودها فى القرن العاشر لم تتعدأ ملاً كما فى بلاد الشام مدينة أنطاكية ، فظن الأفضل أن أولئك الصليبيين إنما أتوا فى نهاية القرن الحادى عشر ليفعلوا فى بلاد الشام مثما فعل تنفور فوقاس وحنا الشمشتميق فى نهاية القرن العاشر <sup>(٣)</sup> .

ولم يشأ الأفضل أن بضيع الوقت ، وإنما انتهز فرصة الفوضى التى أصابت العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر ، نتيجة لوصول

(1) Chalandon : *Premiere Croisade*, p. 196.

(2) Stevenson : *op. cit.*; I, p. 26.

(3) Guerges : *Hist. des Croisades*, I, p. 83.

الصليبيين ، وأرسل جيشاً تمكن من فتح بيت المقدس سنة ١٠٩٨ » وملكه وتسلم محراب داود من سكان»<sup>(١)</sup> . وفي تلك الأثناء كانت سفارة فاطمية من قبل الأفضل قد وصلت إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية (يناير — فبراير ١٠٩٨) . وهناك في المراجع ما يشير إلى أن الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين كان قد نصح الصليبيين منذ وجودهم في القسطنطينية ، بأن يحاولوا محاربة الفاطميين في مصر . ومع أنه لا يوجد لدينا دليل يثبت استجابة الصليبيين لتلك النصيحة في ذلك الوقت ، إلا أن بعض المراجع الصليبية أشارت إلى أنهم أرسلوا من نيقية سفارة إلى مصر<sup>(٢)</sup> . وإذا كان هذا الرأي ليس له ما يؤيده في بقية المراجع الصليبية ، إلا أن الصليبيين لم ينسوا نصيحة الإمبراطور البيزنطي مما جعلهم يرحبون بالسفارة التي أرسلها إليهم الأفضل في أوائل سنة ١٠٩٨ أمام أنطاكية<sup>(٣)</sup> . ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام العالم الإسلامي على نفسه في ذلك الحين بين سنة وشيعة ، وترك وعرب ، وماسبية — هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعاً ، الأمر الذي مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع . وتصور لنا المراجع اللاتينية المعاصرة هذا الانقسام بوضوح ، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث على أيدي الصليبيين<sup>(٤)</sup> .

ومهما يكن من أمر فقد صح حساب الأفضل في أول الأمر ، لأن الأتراك كانوا مشتغلين بالغزو الصليبي وإقامة جبهة في الشمال ضد الفرنجة الغزاة ، فلم يتمكنوا من إرسال نجدة لاقربائهم في بيت المقدس ترد عادية الفاطميين . وفي الوقت نفسه استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التي اتخذها الفاطميون ، لأن تهديد الأفضل لفلسطين وبيت المقدس سبب إرتباكاً للأتراك السلاجقة في

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .

(2) Runciman op. cit; I, p. p. 230.

(3) Riant : Inventaire des lettres des Croisades, I, p 162.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. p. 191—192.

أشد الأوقات حرجاً<sup>(١)</sup> . هذا فضلاً عن أن السفارة التي أرسلها الفاطميون إلى الصليبيين عند أنطاكية ، أكسبت أولئك الآخرين وضعاً سياسياً معترفاً به في ركن هام من أركان العالم الإسلامي . ويذكر ابن الأثير كيف أخذ الصليبيون ينهضون بدورهم في مهارة بالغة عندئذ ، فلم يكتفوا ببث شعور الطمأنينة في نفوس الفاطميين ، وإعطائهم صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم في بلاد الشام ، وإنما حاولوا أيضاً أن يسدلوا غشاوة على أبصار سلاجقة دمشق ؛ فأرسلوا إلى دقاق بطمئنوه على مصيره ، ويؤكدون له أنهم لا يطعمون إلا في استرداد الأماكن والبلدان التي كانت تابعة للبيزنطيين فيما مضى ؛ أي الرها وأنطاكية واللاذقية<sup>(٢)</sup> . وبعد هذه الخطوة حاول الصليبيون أيضاً استمالة رضوان ملك حلب ، حتى إذا ما فرغوا من أمره هو الآخر استطاعوا مواجهة القوى الإسلامية منفردة والتهام إمارة بعد أخرى ومدينة تلو مدينة من الإمارات والمدن الإسلامية بالشام .

### تدخل رضوان ملك حلب ، موقفه المسمى :

ويبدو أن تلك الخطوة الصليبية قد نجحت إلى حد كبير ، إذ هداً دقاق في دمشق ، وظل حيناً بعد هزيمته في البارة لا يحاول التدخل لدفع خطر الصليبيين عن أنطاكية . أما أخوه رضوان ملك حلب ، فعلى الرغم من علاقته السيئة مع ياغي سيان ، إلا أنه كان لا يستطيع أن يستمر طويلاً في موقفه السلبي تجاه أنطاكية . ذلك أن ياغي سيان كان قبل كل شيء تابعاً وفصلاً لرضوان ، في الوقت الذي

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 84-85.

(2) « وكان الفرنج قد كتبوا صاحب دمشق بأننا لا نأخذ ولا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم ولا نطلب سواها ، ثم كراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا أصحاب أنطاكية » . ( ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ ) .

كانت أنطاكية جزءاً من نصيب رضوان في الدولة السلجوقية<sup>(١)</sup> وكان ياغى سيان قد أرسل ابنه ليستحث القوى الإسلامية القريبة ويطلب منها العمل لإنقاذ أنطاكية ، فاتجه الابن إلى حلب لاسترضاء رضوان مرة أخرى والإعتذار له عما فات . وأخيراً وجد رضوان أنه لا بد أن يتناسى الماضي ، وصمم على أن يسرع إلى إنقاذ أنطاكية ، وصاحبه في حملته سكهان ( ستمان ) ابن أرتق من ديار بكر ، وأمير حمه ، فضلاً عن قوات أخرى من حمص ومن الأراقة في إقليم الجزيرة<sup>(٢)</sup> . وقد اجتمعت هذه القوات الإسلامية كلها في حارم وهي قلعة تقع على بعد ثلاثين كيلو متراً تقريباً من أنطاكية ، إلى الشرق منها . أما الخطة التي وضعها المسلمون فخلاصتها أن تهاجم تلك الجيوش أنطاكية فجأه في الوقت الذي تخرج جيوش ياغى سيان من المدينة لمهاجمة الصليبيين من الاتجاه المقابل ، وبذلك يقع الصليبيون بين نارين<sup>(٣)</sup> .

على أن المسيحيين في حلب وحارم — وبخاصة السريان والأرمن — علموا بتلك الخطة . فأرسلوا سراً إلى الصليبيين أمام أنطاكية في أوائل فبراير سنة ١٠٩٨ ليخبرونهم بكل تلك التفاصيل حتى لا يؤخذون على غره<sup>(٤)</sup> وكان أن وضع بوهيموند خطة سريعة لمواجهة الموقف فترك المشاهيرسون معسكر الصليبيين ويتابعون حصار أنطاكية في حين خرج هو على رأس حوالى سبعمائة فارس لصدد المسلمين ( ٨ فبراير ١٠٩٨ ) واختار الصليبيون موقعاً حصيناً بين بحيرة العمق من ناحية وبحرى نهر العاصي من ناحية أخرى<sup>(٥)</sup> . وفي اليوم التالي دارت الموقعة

---

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 315.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 86

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 194.

(5) Chalandon : Premiere Croisade p. p 195.



وانتهت في سرعة باندحار المسلمين الذين ارتدوا نحو حصن حارم ، وفي أعتابهم الصليبيون . وعند ما رأت حامية حارم حرج الموقف لاذت هي الأخرى بالفرار بعد أن أشعلت النار في الحصن ، وبذلك استولى الصليبيون على حارم بمساعدة أهلها من السريان والأرمن<sup>(١)</sup> . وكان استيلاء الصليبيين على حارم نصراً كبيراً نظراً لأهميتها في حماية أنطاكية من ناحية حلب<sup>(٢)</sup> .

وفي تلك الأثناء وجدت حامية أنطاكية بقيادة ياغي سيان أن الوقت مناسب للقيام بهجوم مفاجئ في غيبة الفرسان الصليبيين ، فخرج ياغي سيان فعلاً وقام بهجومه ، ولكن مشاة الصليبيين تصدوا له وقاوموه . واستمر الصراع حاداً بين الطرفين حين عودت الفرسان ظافرين يحملون رهوس ضحاياهم في معركة العمق ؛ فقدفوا بها داخل أسوار المدينة ليعلم ياغي سيان بما حل بحلفائه<sup>(٣)</sup> .

### سقوط أنطاكية

وعند ما رأى ياغي سيان أن الهزيمة حلت بالخليين مثلما حلت بالدماشقة من قبل ، أرسل نداءً جديداً إلى بركياروق سلطان سلاجقة فارس وتابعه كربوغا ( كربوفا ) أتاك الموصول . وسرعان ما انتشرت إشاعة بين الصليبيين تفيد بأن جيشاً كبيراً من الترك بقيادة كربوغا في طريقه إليهم ؛ مما جعل الصليبيين يفكرون في طريقة عاجلة للاستيلاء على أنطاكية بعد أن ثبت أن طول مدة الحصار ليس في صلاحهم<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ .

Guillaume de Tyr, I, p. 196.

(2) Stevenson : op. cit, p. 27.

(3) Cesta Francorum, p. p. 80—86.

(4) Michaud : op. cit, I, p. p. 264—267.

والواقع إن كربوغا كان قد أعد عدته فعلاً لنجدة أنطاكية ، ولكنه توقف في الطريق لمحاولة الاستيلاء على الرها من بلدوين ، وبذلك أضاع الأسابيع الثلاثة الأخيرة من شهر مايو في حصار الرها دون جدوى ، مما أعطى الصليبيين أمام أنطاكية فرصة طيبة من الوقت<sup>(١)</sup> . وكان أن شيد الصليبيون قلعة على تل قريب من أنطاكية كانت به مقابر للمسلمين ، فاستغلوا ما عليه من أحجار في بناء تلك القلعة التي مكنتهم من إحكام الحصار على المدينة<sup>(٢)</sup> . وعندما تم بناء القلعة في ١٩ مارس ، اكتمل حصار أنطاكية وأصبح من الصعب تسرب المؤن والإمدادات إليها أو خروج أهلها منها لرعى ماشيتهم في المراعى القريبة<sup>(٣)</sup> . وصادف عندئذ وصول أسطول انجليزى من عدة سفن إلى ميناء السويدية في ٤ مارس سنة ١٠٩٨ يحمل كثيراً مما افتقر إليه الصليبيون من زاد وسلاح وآلات الحصار ، كما وصل إلى نفس الميناء قبل ذلك — أى في أواخر نوفمبر من العام السابق — أسطول جنوى من ثلاث عشرة سفينة — مما يشير إلى ازدياد أهمية العامل البحرى تدريجياً في خدمة الصليبيين ومساعدتهم<sup>(٤)</sup> .

وفي تلك الأثناء لم تتوقف الاشتباكات بين الأتراك وحامية أنطاكية من جهة والصليبيين من جهة أخرى . ويبدو أن كفة الصليبيين كانت هى الراجحة في تلك الاشتباكات ، حتى اطمأنوا أخيراً إلى أن حصارهم لأنطاكية أصبح تاماً ، بعد أن أمنوا اتصالهم بالبحر عن طريق ميناء السويدية من جهة وبإمارة الرها التي غدا يحكمها واحد منهم ، هو بلدوين البولونى من جهة أخرى . ويشهد المؤرخون المسلمون بأن ياغى سيان لم يهمل الدفاع عن المدينة ،

(1) Runciman. op. cit.; I, p. 231.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 291.

(3) Runciman : op. cit; I, p. p. 228, & Cam. Med. Hist; vol 5, p. 292.

(4) Guillaume de Tyr, I. p. 108.

وأنه أظهر من الشجاعة « وجوده رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره »<sup>(١)</sup>. على أن الخيانة لم تلبث أن لعبت دورها في سقوط أنطاكية . ذلك أنه وجد في المدينة رجل اسمه نيروز — ويعرف بالزرد — كان ياغى سيان قد صادرة « وأخذماله وغلته ، فحمله الحق على أن كاتب يميند (بوهيموند)<sup>(٢)</sup> ». ويبدو أن نيروز هذا كان قد اعتنق الإسلام ونال ثقة ياغى سيان ، حتى عهد إليه بحراسة أبراج المدينة في الجهة الجنوبية . ولم يلبث ذلك الأرمني ، المسيحي الأصل ، أن غلبت عليه روح الخيانة فاتصل بأبناء جلدته من الأرمن ، وأمكنه عن طريق وساطة بعضهم مراسلة بوهيموند سرّاً<sup>(٣)</sup> ، فقال له « أنا في البرج الفلاني ، وأنا أسلم إليك أنطاكية إن أمنتني وأعطيني كذا وكذا » . وكان أن وافقه بوهيموند وبذل له « مالا وإقطاعاً »<sup>(٤)</sup> . على أن بوهيموند احتفظ لنفسه بسر المؤامرة ، ورفض أن يذيعه على الأمراء « وكتم أمره عن باقي الفرنج » ؛ كما أخذ يحسم للأمراء الصليبيين خطورة موقف الصليبيين ويطلب منهم الموافقة على تحقيق حلمه الكبير ، وهو إعطاؤه أنطاكية والسماح له بإنشاء إمارة لنفسه فيها ثمناً لجهوده في إنقاذهم من ذلك الموقف الخطير<sup>(٥)</sup> . ولم يلبث أن وافق الأمراء على طلبات بوهيموند تحت تأثير الظروف السيئة التي بات فيها الصليبيون ، فضلاً عن الخوف من الإشاعات التي انتشرت بين صفوف الصليبيين والتي أكدت أن كروبوا أنابك الموصل ترك حصار الرها وأخذ يزحف في طريقه إلى أنطاكية لتخليصها من الصليبيين (نهاية مايو) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٣ — ١٣٤ (مطبوع) .  
ويؤكد المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن نيروز الزرد هذا أرمني الأصل .

Guillaume de Tyr, I, p. 212.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٤ (مطبوع) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(٥) Gesta Francorum, p. 100.

ويبدو أن وصول تلك الأخبار إلى الصليبيين فت في عضدهم ، حتى بدأ كثيرون منهم يتسربون طالبين العودة إلى بلادهم<sup>(١)</sup> . ومن هؤلاء إثنين دى بلوا الذى اتجه إلى اسكندرونة في ٢ يونيه على رأس عدد كبير من رجاله الفرنسيين بعد أن ملوا طول الحصار في تلك الظروف الصعبة ، وعملوا حساباً للخطر الجديد الذى أوشك أن يحل بهم على يد كربوغا . ولو كان إثنين دى بلوا انتظر عدة ساعات لغير رأيه في الانسحاب ، إذ حدث مساء اليوم نفسه الذى انسحب فيه أن زحف الصليبيون على البرج الذى كان به الخائن نيروز الزراد . ولم يلبث الصليبيون أن دخلوا أنطاكية في صباح اليوم التالى بعد أن فتحت أمامهم أبوابها ، فهرع إليهم أهل المدينة من السريان والأرمن يرحبون بهم ويساعدونهم في التعرف على خفاياها وفي قتل من فيها من المسلمين<sup>(٢)</sup> . وقد حاول ياغى سيان نفسه الفرار مع جملة من فر من الأتراك ؛ ولكنه سقط عن فرسه « فقتله الأرمن وحملوا رأسه إلى الفرنج »<sup>(٣)</sup> . وكان أن تطرف الصليبيون في قتل من وجدوه بأنطاكية من المسلمين « فقتل وأسر وسبي من الرجال والنسوان والأطفال ما لا يدركه حصر »<sup>(٤)</sup>

هذا إلى أن خبر سقوط أنطاكية أثار موجة من الذعر في البلدان الإسلامية القريبة « فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن »<sup>(٥)</sup> . ولا شك في أن سقوط أنطاكية كان له دوى هائل في العالم المسيحى لا يفوقه إلا أثر سقوط بيت المقدس نفسها في أيدي الصليبيين . فأنطاكية مدينة قديمة لها تاريخها الحافل

(١) Runciman : op cit, I, p. p. 232—233.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ

Guillaume de Tyr I, p. 231.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٥ (مطبوع)

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٥ (مطبوع) .

وأهميتها الكبرى في نظر المسيحيين . ويكفي أنها كانت ثالث مدن العالم في عصر الإمبراطورية الرومانية ؛ فضلا عن أنها المدينة التي أطلق فيها على أتباع المسيح لأول مرة اسم المسيحيين ، والتي أسس فيها القديس بطرس أول أسقفية له . وقد ظلت أنطاكية تتمتع بشهرة واسعة حتى استولى عليها المسلمون في القرن السابع ، وعندئذ غدت ملتقى الحضارتين اليونانية والعربية ، والمركز الرئيسي للتبادل التجاري بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية<sup>(١)</sup> .

### تدخل صلاحية فاروق ، صليبي كبريغا

وأينا كيف أضع كربوذا عدة أسابيع في حصار الرها ، مما أعطى الصليبيين فرصة ثمينة مكنهم من الاستيلاء على أنطاكية . وقد دفع ذلك المؤرخ ولیم الصوري إلى القول بأن دفاع بلدوين أمير الرها ومقاومته هي التي أُنقذت الصليبيين أمام أنطاكية<sup>(٢)</sup> ، ولم يلبث أن وجد الصليبيون أنفسهم بخدانة استيلائهم على أنطاكية أمام مهام عاجلة خطيرة ، فأسرعوا إلى إعداد عدتهم للدفاع عن المدينة ضد هجوم كربوذا المنتظر ، وفي الوقت نفسه كان عليهم أن ينظفوا المدينة على عجل من أثر للذبح الرهيبة التي أحدثوها في أهلها من المسلمين ، فمجلوا بدفن جثث القتلى وموارثها في التراب حتى لا تكون سببا في انتشار الوباء<sup>(٣)</sup> ، وبينما الجند يقومون بتلك الأعمال ؛ عكف أدهمار — ومعه رجال الدين — على إعداد كتدراية

(١) « ودعى التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولا » .

( سفر أعمال الرسل ١١ ، ٢٦ ) .

(٢) Runciman : op. cit. ; 1, p. p. 213.

(٣) Guillaume de Tyr. I, p. p. 216—217.

(٤) تدرت الراجع الصليبية عدد المسلمين الذين ذبحهم الصليبيون في أنطاكية

بشرة آلاف .

(Michaud : op. cit. , 1, p. 292.)

القدس بطرس وغيرها من الكنائس التي سبق أن استولى عليها السلاجقة ،  
لنعود إلى وظيفتها الأولى بوصفها دور عبادة للمسيحيين ، كذلك أخرج البطرق  
الأرثوذكسي حنا الرابع من سجنه الذي وضعه فيه ياغي سيان . وأعيد إلى كرسي  
البطريركية في أنطاكية — رغم أنه يمثل الكنيسة الشرقية — وذلك حتى ترد  
تعليمات من البابوية في ذلك الشأن<sup>(١)</sup> :

ولم يكذ الصليبيون ينهضون بتلك الأعباء العاجلة عقب استيلائهم على  
أنطاكية ، حتى دهمهم الخطر المنتظر من جانب كربوغا . وكان كربوغا بعد مغادرته  
إقليم الفرات قد توقف قليلا عند مرج دابق حيث اجتمع مع دقاق بن تقش ملك  
دمشق وطفتكين أتابك وأرسلان تاش صاحب سنجار وسكان بن أرتق  
« وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم »<sup>(٢)</sup> أما رضوان ملك حلب فظل معاديا لأخيه  
دقاق في تلك الأوقات الحرجة التي شهدت تقرير مصير الشام الإسلامية . ولكي  
يرد كربوغا على موقف رضوان هذا ورفضه الانضمام إلى الحلف الإسلامي لإنقاذ  
أنطاكية ، ضم إليه الأمير العربي جناح الدولة حسين صاحب حمص ، وهو من قبيلة  
بنى ملاعب وكان قد تزوج أم رضوان أي أرملة تقش<sup>(٣)</sup> .

وهكذا اجتمع الجيش السلجوقي الكبير في مرج دابق ، ومنها أخذ يزحف  
على أنطاكية عن طريق نهر العاصي . وكان الصليبيون قد تركوا حامية صغيرة  
عند جسر الحديد — إلى الشمال الشرقي من أنطاكية — قتل المسلمون رجالها  
عن آخوهم في ٤ يونيو سنة ١٠٩٨<sup>(٤)</sup> ؛ ثم لم تلبث أن ظهرت طلائع الجيش

(1) Runciman, op. cit., I, p. 237.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(٣) ذكر ابن العديم أن رسل الملك رضوان كثر تردددهم في تلك الأناء على  
كربوغا ، الأمر الذي أخاف دقاق وأثار الظنون في نفسه .

( زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ — مطبوع ) .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ ( مطبوع ) .

السلجوقي أمام سور أنطاكية . وقد حاول السلاجقة اقتحام أنطاكية عن طريق قلعتها التي كانت لا تزال « باقية في أيدي المسلمين » وساعدهم في ذلك شمس الدولة بن ياغي سيان ، ولكن كربوغا فشل في تحقيق تلك الخطة<sup>(١)</sup> ، وعندئذ لجأ إلى تجويع الصليبيين داخل المدينة بإحكام الحصار عليها . ولتحقيق ذلك اختار كربوغا أن يعسكر في السهل الممتد جنوبي أنطاكية عند باب البحر<sup>(٢)</sup> ؛ كما ولى على قلعة أنطاكية أحمد بن مروان . وهكذا ظل الصليبيون محصورين داخل أسوار أنطاكية ، قرابة ثلاثة أسابيع ( ٨ — ٢٨ يونية ) ، فساءت حالتهم وبدأ بعض أعيانهم في الفرار ، في حين أخذت السفن الراسية بالسويدية تملأ عادة وعليها من استطاعت حمله من الفارين<sup>(٣)</sup> .

ولعله من الواضح كيف اذلت الوضع وصار الصليبيون محاصرين داخل أنطاكية والمسلمون خارجها يطوقونها ويعملون على تجويع من بداخلها ؛ وذلك بعد أن كن الصليبيون يحاصرون أنطاكية ويعملون على قطع الزاد عن ياغي سيان وحاميته من السلاجقة<sup>(٤)</sup> . وتشير المراجع إلى أن الصليبيين داخل أنطاكية تعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء والمؤن « فعدم التوت عندهم حتى أكلوا الميتة » ، وبلغ ثمن رغيف الخبز الصغير ديناراً والبيضة الواحدة دينارين . ولم تكن هذه الأسعار في متناول غالبية الصليبيين ، فاضطر بعضهم إلى العيش على أوراق الأشجار ، فضلاً عن « الميتات والدواب »<sup>(٥)</sup> . وفي وسط تلك الأزمة أخذ كثير

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ — ١٣٧ ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩١ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ (مطبوع) .

(٣) Cam. Med. Hist; vol. 5, p. 292.

(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٦ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ . أما ابن الأثير فيقول عن الصليبيين داخل أنطاكية عندئذ « ليس لهم ما يأكلونه ، وتقوت الأفوياء بدوابهم ، والضمضاء بالميتة وورق الشجر » .

( ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ ) .

من الفرسان يعبرون عن ندمهم على ترك بلادهم ، والحضور إلى الشرق ، بل لقد جاهر بعضهم بأن إيتين دى بلوا كان على حق عندما انسحب أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية وقفل راجعاً إلى بلاده<sup>(١)</sup> .

ولم يبق أمل للصليبيين في أنطاكية للخلاص من تلك الحنة التي أملت بهم سوى حضور الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين ليطنع كروغاجيوشه من الخلف . لذلك استنجد الصليبيون بالإمبراطور الذي استجاب لندائهم وخرج على رأس جيشه قاصداً أنطاكية مخترقاً آسيا الصغرى<sup>(٢)</sup> . ولكن لم يلبث أن التقى بالإمبراطور في آسيا الصغرى إيتين دى بلوا وبعض زملائه ، فأخبروه أن الأسلحة استردوا أنطاكية وأبادوا الصليبيين فعلاً ، وإنهم عندئذ في طريقهم إلى آسيا الصغرى لضرب الإمبراطور وحيوشه قبل أن يصل إلى أنطاكية<sup>(٣)</sup> . وكان أن اهتز الإمبراطور لتلك الأخبار ورأى أن يعدل خطته مريعاً ، لأن سلامة جيوشه وبلاده أهم بكثير من سلامة أنطاكية والصليبيين ، ولذلك قفل راجعاً ولم تفتح الجهود التي بذلت لمحله على المضي في طريقه إلى أنطاكية<sup>(٤)</sup> . ولا شك في أن عودة ألكسيوس كومنين جاءت ضربة خطيرة للصليبيين المحصورين داخل أنطاكية ، كما كان لتلك العودة أثرها في تشجيع كروغاجيوشه وسرعان ما بدأ اليأس ينتاب كثيراً من الصليبيين ، فاختارت قواهم وتسألوا من المواقع الأمامية ليحتموا بمنازل المدينة ودورها ، مما دفع الأمير بوهيموند إلى إشغال الغار في المدينة في ١٢ يونية ليحرق منازلها ويحجر الصليبيين القابعين داخلها على الخروج إلى المتاريس الأمامية للدفاع عن أسوار المدينة<sup>(٥)</sup> .

(1) Runciman op. cit, I, p. 238.

(2) Guillaume de Tyr p. p. 250-354 & Gesta Francorum, p. p. 141-147.

(3) Michaud : op. cit, I, p. p. 300-302.

(4) Gesta Francorum, p. p. 147-149.

(5) Guillaume de Tyr I, p. 255.



ويرى ابن القلانسي وابن العبري أن الصليبيين داخل أنطاكية بلغوا درجة من اليأس جعلتهم يفكرون في الاستسلام، ولكن كربوغا رفض أن يعطيهم الأمان ليخرجوا من أنطاكية، وقال لهم « لا تخرجون إلا بالسيف »<sup>(١)</sup>. وعندما مرض ريموند — القائد الأعلى للقوات الصليبية — خبل بحله بوهيموند في حوالي ٢٠ يونية، وعندئذ أخذ بوهيموند بحماسة المعروفة يرفع من الروح المعنوية للصليبيين ويعدم خلوص معركة فاصلة مع المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وليس معنى سوء حال الصليبيين داخل أنطاكية أن المسلمين تمتعوا بجمعة متماسكة؛ بل على عكس ظل المسلمون في ذلك الدور الحاسم يعانون خلا واضحا في صفوفهم مما عاد عليهم بالخسارة. ذلك أن رضوان ملك حلب رفض — كما سبق أن ذكرنا — المشاركة في الحلف الإسلامي للعمل على استرداد أنطاكية من الصليبيين؛ هذا على الرغم من أن تأمين مستقبله ومستقبل إمارته كان يحتم عليه أن يتخذ موقفا أكثر اتزاناً وحكمة؛ بعد أن صارت حلب واقعة بين الرها في الشرق وأنطاكية في الغرب، وكلاهما ستط في قبضة الصليبيين<sup>(٣)</sup>. ولعل عدم وجود رضوان مع المسلمين أمام أنطاكية، وعدائه لأخيه دقاق ملك دمشق الذي رافق كربوغا، كان من العوامل التي خلقت جواً من القلق والاستياء في صفوف المسلمين. ولما أحس كربوغا بحاجته إلى مساعدة رضوان، بدأ يسعى للاتصال به، وعندئذ « توهم دقاق من ذلك ا »<sup>(٤)</sup>. وفي الوقت نفسه أحس دقاق برغبته في العودة إلى دمشق لمراقبة توسع الفاطميين في فلسطين، وهو التوسع الذي سبب له قلقاً بالغاً<sup>(٥)</sup>. ومن جهة أخرى فإن جناح الدولة حسين — أمير

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول

ص ١٩٦.

(2) Michaud . op. cit; I, p. 304.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 93.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ (مطبوع).

(5) Runciman : op. cit; I, p. 246

(م ١٤ — الحركة)

حمص العربي الذي أسهم مع كروبوغا في حصار أنطاكية — ظل يشعر بقلق دائم بسبب الخوف من انتقام يوسف بن أبق أمير الرحبة ومنيج الذي كان على اتفاق مع رضوان . بل لقد بلغ الأمر بالمسلمين أمام أنطاكية أن انقسموا على أنفسهم، فظهر الشقاق بين أتراك كروبوغا من ناحية والعرب بزعامه وثاب بن محمود من ناحية أخرى « وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادية لأجلها . وتفرق كثير من التتركان بتدبير الملك رضوان ورسالته »<sup>(١)</sup> . أما المؤرخ أبو الفداء، فيعمل روح التباعد والفرقة التي سادت زعماء المسلمين أمام أنطاكية بأن « كروبوغا أساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والأمراء المذكورين، وتكبر عليهم ؛ فخبثت نياتهم على كروبوغا »<sup>(٢)</sup> .

وفي الوقت الذي كان معسكر المسلمين يعاني ذلك التصدع والشقاق ، أخذ بوهيموند ينفخ في الصليبيين روحاً جديدة . وكان أن أرسل بوهيموند سفارة من رجلين — أحدهما بطرس الناسك — إلى كروبوغا يوم ٢٧ يونية لإقناعه بترك الحصار ، ولكن كروبوغا — رغم ما كان يعانيه من تفكك في معسكره — أصر على استسلام الصليبيين دون قيد أو شرط<sup>(٣)</sup> . وبذلك لم يعد أمام بوهيموند سوى الحرب ، فأمر رجاله بالخروج من أنطاكية في ٢٨ يونية سنة ١٠٩٨ للدخول في معركة فاصلة ضد المسلمين . وكان من الممكن للمسلمين القضاء على الصليبيين عند خروجهم من أنطاكية جماعات صغيرة ، إذ « خرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك . فقال المسلمون لكروبوغا ينبغي أن تقف على الباب فقتل كل من خرج فإن أمرهم الآن وهم متفرون سهل ، فقال لا تفعلوا أمهلهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » . وبذلك أضع

(١) ابن العديم . زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ (مطبوع).

(٢) أبو الفداء : المختصر ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(٣) Chalandon : Première Croisade, p. 220.

كربوغا الفرصة ، إذ تكامل الصليبيون وأنزلوا الهزيمة بالمسلمين « لما عاملهم كربوقا أولاً من الاستهانة لهم والإعراض عنهم »<sup>(١)</sup> .

وهكذا حلت الهزيمة بجيش كربوغا ، فانفض عنه كثير من الأمراء ، وكان التركمان أول من « عاث في المعسكر فانهزم »<sup>(٢)</sup> ؛ في حين ظل سكران بن أرتق وجناح الدولة « آخر من انهزم » من الأمراء ، وعند فرارهما من الميدان لجأ كربوغاهو الآخر إلى الفرار ، وبذلك عمت الكارثة<sup>(٣)</sup> . ثم إن التعليمات التي صدرت إلى الصليبيين جعلتهم لا يلتفتون إلى الأسلاب والغنائم ، وإنما واصلوا مطاردة فلول المسلمين ، واشترك معهم في تلك المطاردة أهل المنطقة من السريان والأرمن ، فظلوا يتعقبون الجند المنهزمين ويعملون فيهم قتلاً ، حتى جسر الحديد وحارم شرقاً<sup>(٤)</sup> ، « ونهب من المسلمين من الآلات والخيام والسكرع والغلات ما لا يحصى ، ومن انقطع من المعسكر نهبه الأرمن »<sup>(٥)</sup> .

وبذلك لم يحقق الصليبيون انتصاراً على سلاجقة الروم وحدهم ، وإنما أيضاً على سلاجقة الشام وفارس ، فعاد كربوغا إلى الموصل نحو طه خيبة الأمل ، وعاد دقاق إلى دمشق يجر أذيال الفشل . أما أحمد بن مروان قائد قلعة أنطاكية فقد أدرك عبث المقاومة ولكنه رفض تسليم القلعة لريموند وأصر على تسليمها لبوهيموند نفسه<sup>(٦)</sup> .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ  
وقد ذكر ابن العديم أن بعض الأمراء أشاروا على كربوغا بأن لا يمكن للصليبيين من الخروج « ويقتلوا ولا فاولا فلم يرج المسلمون على شيء من ذلك لانهم أيقنوا بالظفر بالفرنج وخرجوا بأجمعهم في خلق عظيم » ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ

(4) Gesta Francorum, p. 159.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٧ (مطبوع) .

(٦) روى ابن العديم أن الصليبيين آمنوا أحمد بن مروان وأنزلوه في داراً بأنطاكية =

التنافس بين برهمونيد النورمانى وبريمونيد الصليبي حول أنطاكية :

تأكد استيلاء الصليبيين على أنطاكية وقلعتها بعد أن حلت الهزيمة بالجيش السلجوقي، واتضح عجز بركيارق سلطان سلاجقة فارس ودقاق ملك دمشق عن وقف الغزو الصليبي. وإذا كان بركياروق (بركيارق) قد هزم أدبيا في شخص تابعه كربوغا، فإن دقاق هزم شخصياً أمام أنطاكية. وبانتصار الصليبيين على سلاجقة فارس والشام أصبح الطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام الصليبيين، لأن أنطاكية بالذات تعتبر « مفتاح بلاد الشام » على قول بعض المؤرخين<sup>(١)</sup>. وكان يجب على الصليبيين — برا بقسمهم الصليبي — ألا يضيعوا وقتاً طويلاً وأن يبدؤوا بالزحف مباشرة على بيت المقدس، ولكنهم لم يفعلوا ذلك وأضاعوا ستة أشهر، وهم واقفون حيث هم في إقليم أنطاكية يبحثون في مشاكلهم الداخلية<sup>(٢)</sup>.

والواقع أن الصليبيين وجدوا أنفسهم أمام مشا كل ضخمة عقب انقضاء موجة الفرح الأولى التي عمتهم بعد الانتصار على خطر كربوغا وضمان الاستيلاء على أنطاكية. حقيقة إنهم استولوا على قلعة المدينة واستحكماتها وأسوارها سليمة، ولكن حماية تلك الأسوار الطويلة والحصون العديدة تتطلب عدداً كبيراً من الرجال المحاربين، في الوقت الذي تناقص عدد الصليبيين، فضلاً عن أنه كان مطلوباً منهم أن يحشدوا كل ماديهم من قوى للاستيلاء على بيت المقدس. ثم إن الصليبيين لم يجدوا في أنطاكية شيئاً من مخازن الميرة والمؤن التي ظنوا يحملون = « وأطلقوا أصحابه وسيروا معهم من يوصلهم إلى أعمال حاب، فخرج الارمن فأخذوا بعضهم وقتلوا بعضهم ولم يسلم منهم إلا القليل ».

( ابن المديم . زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ — ١٣٨ ) .

بها طويلاً . وبالإضافة إلى ذلك تمتد وجد الصليبيون بداخل أنطاكية عدداً كبيراً من المسيحيين الشرقيين ، وهؤلاء — وبخاصة السريان — لم يطعن الصليبيون إلى شعورهم وإحلاصهم<sup>(١)</sup> . وأخيراً فإن المشكلة الكبرى التي استنفدت كثيراً من الوقت والجهد كانت تحديد مصير أنطاكية نفسها . فلن نتقل ملكية هذه المدينة الهامة ؟ وهل تكون من نصيب الصليبيين أو البيزنطيين ؟ وإذا احتفظ بها الصليبيون فمن من إمرائهم أولى بها ؟<sup>(٢)</sup> .

والواقع إن حقوق الامبراطورية البيزنطية في إقليم أنطاكية ، كانت واضحة لا شبهة فيها ، ليس فقط لأن الدولة البيزنطية ظلت تمتلك إقليم أنطاكية حتى الغزو السلجوقي سنة ١٠٨٥ ، بل أيضاً وفقاً للاتفاقية المعقودة بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين في التسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، وهي الاتفاقية التي كان بوهيموند نفسه أول من أقرها<sup>(٣)</sup> . ولكن يبدو أن بوهيموند عندما تعهد سنة ١٠٩٧ برد أملاك الامبراطورية البيزنطية ومدها كان يأمل في أن يعينه ألكسيوس كومنين نائباً عنه في حكم بلاد الشام التي كانت قديماً جزءاً من الإمبراطورية ، فلما خاب أمل بوهيموند وأحس أنه تحمل العبء الأكبر في الاستيلاء على أنطاكية ، قرر في نفسه أن يتحطل من تعهده السابق للامبراطورية وأن يتخذ سياسة معادية للدولة البيزنطية ومصالحها<sup>(٤)</sup> .

وكان أن طلب بوهيموند في أواخر شهر يونيو سنة ١٠٩٨ من بقية زعماء الصليبيين تسليمه ما بأيديهم من أبواب المدينة وأبراجها وتحصيناتها ، فقبلوا جميعاً

(1) Runciman : op. cit, I, p. 236.

(2) Cam. Med. Hist. vol 5. p. p. 294-295.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p p 203-205.

(4) Vasilev : op cit; I, p. p. 408-409, &

Ostrogorsky : op. cit. p. 323. &

Cam. Med. Hist , vol. 5, p. 294.

باستثناء ريموند الصنجيلي الذي أخذ ينازع بوهيموند أنطاكية<sup>(١)</sup>. وقد أكد بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين أنه عقب أن حلت الهزيمة بكر بوغا، أطلق الصليبيون على بوهيموند لقب « أمير أنطاكية » اعترافاً منهم بأن الفضل الأول في الاستيلاء على المدينة من المسلمين إنما يرجع إليه<sup>(٢)</sup>.

ولكن ريموند الصنجيلي لم يكن أقل من بوهيموند والنورمانى في الاستئثار بأنطاكية، ولذلك رفض أن يتخلى عن المواقع التي احتلها رجاله في المدينة. وهكذا صارت أنطاكية، قسمة بين بوهيموند وريموند، فاحتل الأول الأجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من المدينة بما فيها القلعة، في حين احتل ريموند القطاع الجنوبي الغربي من المدينة<sup>(٣)</sup>.

على أن الانقسام الداخلي بين بوهيموند وريموند كان لا يخفى الوجه القانونى لمشكلة أنطاكية، أى أحقية الدولة البيزنطية في تملك المدينة وفقاً لاتفاقية القسطنطينية سنة ١٠٩٧. وإذا كان بعض زعماء الصليبيين قد نكثوا بعهدهم وطمعوا في الاستيلاء على أنطاكية، فإن الامبراطور البيزنطى نفسه لم يكن أقل تنكراً لعهده؛ لأنه لم ينفذ من جانبه شروط الاتفاقية السابقة ولم يحضر على رأس جيوشه لمساعدة الصليبيين الغربيين، وبخاصة في المحنة التي تعرضوا لها عندما دهمتهم جيوش كروغا أمام أنطاكية<sup>(٤)</sup>. لذلك عقد الصليبيون مجلساً في مستهل شهر يوليو سنة ١٠٩٨، حضره جميع زعمائهم، وقرر المجلس إيفاد رسولين إلى الامبراطور ألكسيوس كومنين لدعوته باسم الصليبيين للحضور لتسليم أنطاكية

(1) Raymond d'Agiles, p. 262.

وريموند هذا هو ريموند الرابع كونت تولوز وقد نسب إلى مقاطعه Saint-Gilles بفرنسا، فحرف العرب هذه النسبة الى الصنجيلي.

(2) Grousset : Hist. des Croisades. I, p. 109.

(3) Guillaume de Tyr p. 274.

(4) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 294.

وقال للاتفاقية المعقودة بين الطرفين . وقد هلك أحد هذين الرسولين في الطريق ، في حين وصل الآخر إلى القسطنطينية في أواخر يولييه <sup>(١)</sup> . على أنه يلاحظ أن رسالة الصليبيين إلى الامبراطور ألكسيوس كومنين كانت تحوى ركنين أساسيين متكاملين : فهي تعرض على الامبراطور استلام أنطاكية ، ولكنها تشترط عليه الحضور شخصيا على رأس حملة بين نظية لمساندة الصليبيين في الزحف على بيت المقدس <sup>(٢)</sup> .

ولو اغتمت الإمبراطور ألكسيوس كومنين تلك الفرصة الذهبية وقصد أنطاكية فورا على رأس جيشه لاستطاع أن يقضى على أطماع يوهيموند وريموند جميعا . ولا يخفى علينا أن الصليبيين عندئذ كانوا قد بلغوا أدرجة شهيدة من الوهن والضعف بعد ما لاقوه من مشاق أثناء زحفهم في آسيا الصغرى ، وما بذلوه من جهد وتضحيات أمام أنطاكية ، مما جعلهم في حاجة ماسة إلى إمدادات من الإمبراطور البيزنطي تعينهم على مواصلة الزحف على بيت المقدس <sup>(٣)</sup> . كذلك لا يخفى علينا أن موافقة بقية زعماء الصليبيين على تسليم أنطاكية للإمبراطور البيزنطي بالشروط السابق لم يكن الدافع إليها حرصهم على الوفاء بالالتزامات التي قطعوها على أنفسهم في القسطنطينية سنة ١٩٠٧ ، بقدر ما كان الأمل في الحصول من الامبراطور البيزنطي على المساعدة المحتاجين إليها مقابل إعطائه المدينة <sup>(٤)</sup> . والواقع إنه من الصعب تفسير موقف ألكسيوس كومنين السلبى من ذلك

(1) Cesta Francorum, p. 161.

ويلاحظ أن رواية ألبرت اختلفت عن الرواية السابقة، إذ قال: إن الرسولين اللذين أوفدهما الصليبيون إلى الامبراطور كلثا باخطاره أنه حثت بوعوده للصليبيين، وبناء على ذلك فانهم صاروا في حل من تعهداتهم له.

(Albert d'Aix, p. 434).

(2) Guillaume de Tyr, p. 277.

(3) Brehier : op. cit; p. 314

(4) Chalandon : Alexis Comnene; p, p, 204—205.

المرض السخى الذى يتسكنه من استرداد شمال بلاد الشام، فضلاً عن تمسكه من الإشراف على فتح بيت المقدس؛ لاسيما وأن تجربته حتى ذلك الوقت مع الصليبيين كانت ناجحة وأتاح له فرصة طيبة لاسترداد جزء كبير من أراضي الامبراطورية المفقودة فى الأناضول. ويبدو أنه اطمئن إلى تعهدات الصليبيين وقسمهم، وظن أنهم سيستعمرون فى سياستهم التى أتبعوها فى آسيا الصغرى؛ فيفتحون البلاد ليسلمونها للامبراطورية لقمة سائغة، وأعتقد أنه بعد أن يفرغ الصليبيون من فتح بلاد الشام وفلسطين، ستكون هذه البلاد — بحكم موقعها الجغرافى وروابطها التاريخية بالامبراطورية البيزنطية — تابعة للقسطنطينية، أو على الأقل سيكون حكمها من الصليبيين التابعين للامبراطور المعترفين له بالولاء. ولذلك اختار الامبراطور أن يصت مؤقثاً ولا يرد على رسالة الصليبيين<sup>(١)</sup>.

وأخيراً أفاق الإمبراطور ألكسيوس كومنين بعد فوات الفرصة. ذلك أن الصليبيين قرروا فى أبريل سنة ١٠٩٩ الزحف على بيت المقدس بعد أن ظلوا فى أنطاكية أكثر من تسعة أشهر. وفى الوقت الذى اتخذ الصليبيون قرارهم بالزحف على بيت المقدس، تلقوا رد الإمبراطور البيزنطى على رسالتهم<sup>(٢)</sup>. وفى تلك الرسالة أعلن الإمبراطور الموافقة على مشاركة الصليبيين فى الزحف على بيت المقدس إذا سلموه أنطاكية، ولكنه طلب منهم انتظاره حتى شهر يوليو<sup>(٣)</sup>. ومن الواضح أن رد الإمبراطور البيزنطى جاء متأخراً، أى بعد أن مرت أشهر طويلة استطاع خلالها بوهيموند أن يثبت مركزه فى أنطاكية، بحيث أصبح من الصعب على الإمبراطور البيزنطى زحزحته من ذلك المركز. هذا إلى أنه فى الوقت

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 112.

(2) Setton : op. cit. I, p. 329.

(3) Raymond d'Agiles, p. 286. & Guillaume de Tyr, p. 307



الذى أخذ الإمبراطور ألكسيوس كومنين يعيد الفرنجة بالحضور لمساعدتهم على انتزاع فلسطين من الفاطميين ، إذا به يعقد اتفاقاً سريعاً مع الفاطميين في مصر ضد الصليبيين . وشاء سوء حظه أن تقع رسالة بهذا المعنى موجهة من الإمبراطور إلى الوزير الأفضل في أيدي الصليبيين عقب موقعة عسقلان مباشرة <sup>(١)</sup> .

ومن الواضح أن الصليبيين الغربيين كانوا يتصرفون في حكمه بالغة تجاه الإمبراطورية البيزنطية . ولأدل على محاولة الفرنجة إثبات حسن نواياهم تجاه القسطنطينية من معاماتهم لطرق أنطاكية حنا الرابع الأرثوذكسى ، الذى عذبه الأتراك كثيراً وسجنوه طوال حصار الصليبيين للمدينة ، حتى إذا ماسقت أنطاكية في أيديهم احتفى به الصليبيون حفاوة بالغة ، وأقاموا حفلا كبيرا ثبته فيه رئيساً لكنيسة أنطاكية <sup>(٢)</sup> . كذلك لم يتعرض الصليبيون لأنبئاع المذهب الأرثوذكسى في البلاد التى استولوا عليها ، وإنما تركوا حرية العقيدة لجميع المسيحيين ، بما فى ذلك السريان والأرمن ، وسمحوا لهم باصلاح كنائسهم وزخرفتها بالفسيفساء والايقونات والصور وغيرها . أما رجال الدين الأرثوذكس أنفسهم ، فقد تركهم الصليبيون في مناصبهم ولم يتعرضوا لهم ، وكل ما هنالك هو أنهم عينوا بعض رجال الدين من الكاثوليك في الأسقفيات الشاغرة <sup>(٣)</sup> .

على أن هذه السياسة الوديدة تجاه الامبراطورية البيزنطية وكنيستها لم تلبث أن تبدلت عندما تكاسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين في الحضور إلى الشام لمساندة الصليبيين ؛ ثم عندما اكتشف الصليبيون اتصاله مع الفاطميين في مصر . من ذلك أن بوهيموند عندما ثبت مركزه في أنطاكية لجأ إلى خلع حنا الرابع بطرك أنطاكية الأرثوذكسى وأحل محله بطرقا كاثوليكياً <sup>(٤)</sup> .

(1) Chalandon : Alexis Comnene p. 207.

(2) Aldert d'Aix : p. 433.

(3) Guillaume de Tyr, p. 274.

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 114.

ومها يكن من أمر ، فإن الصليبيين بوجه عام رأوا أن ينتظروا الامبراطور  
الكيسوس كومنين ؛ حتى إذا ما حل يوم ٣ يولية ١٠٩٨ ولم يحضر ، عقد  
زعمائهم مجلساً لتحديد موعد الزحف على بيت المقدس ، واختير أول شهر نوفمبر  
لذلك ، حتى تكون حرارة الصيف قد خفت حدتها وأصبح الجو ملائماً لحركة  
الجيوش الصليبية <sup>(١)</sup> .

### المنزل البارة وصعرة النعمان :

تعرض الصليبيون للخمول خلال المدة الطويلة التي قضوها في شمال الشام ،  
فقرت الحماسة الصليبية في نفوسهم ، وظهر شعور عام بالاستكانة بينهم ؛ وبدأ  
كل واحد من أمرائهم يعتقد أن دوره في الحرب الصليبية ينتهى بتأسيس إمارة  
مناسبة لنفسه في الشرق ، مما هدد الحملة الصليبية الأولى بالتفتت في شمال الشام .  
وقد حرص بوهيموند في تلك المرحلة على أن يبدو دائماً في صورة أمير أنطاكية  
وحاكمها الأوحده ، فمنح الجنوية في ١٤ يولية براءة خواتهم الحق في سوق خاص  
بهم وكنيسة ، فضلاً عن ثلاثين بيتاً من بيوت أنطاكية . وبذلك ضمن مناصرة  
الجنوية له واعتماده عليهم وعلى مساعدتهم للإحتفاظ بمواصلاته مع صقلية  
وإيطاليا <sup>(٢)</sup> .

وربما كان الرجل الوحيد الذي ظل يوحد بين صفوف الصليبيين في ذلك  
الوقت دون أن تكون له مطامع الأمراء الشخصية هو المندوب البابوي أدهار ،  
الذي حرص على أن يؤلف بين قلوب أمراء الصليبيين ويوجههم نحو عمل يتفق  
وطبيعة المهمة الصليبية التي أتوا من أجلها إلى الشرق . على أن تعدد المعارك في

(1) Runciman : op. cit. I, p 250.

(2) Heyd : op. cit; Tome I, p. 134.

ساحة أنطاكية وكثرة القتلى والجيف ، نتج عنه انتشار وباء في معسكر الصليبيين ذهب ضحيته بضعة آلاف من الصليبيين من بينهم أدهمار نفسه (أول أغسطس سنة ١٠٩٨) . وقد دفع ذلك الوضع الصليبيين إلى القيام بغزوات وجولات قريبة خارج أنطاكية — ليبتعدوا عن منطقة الوباء <sup>(١)</sup> .

ومن تلك الغزوات الصغيرة التي قام بها الصليبيون عندئذ ، خروج فارس من أتباع ريموند الصنجيلي — إسمه ريموند بليه Raymond Pilet — على رأس قوة صغيرة في منتصف يولييه سنة ١٠٩٨ مخترقا طريق معرة مصرين بقصد احتلال معرة النعمان وتل منس (تلنس) ، وهي الجهات الواقعة إلى الجنوب الشرق من أنطاكية ، أي داخل نطاق ممتلكات رضوان ملك حلب السلجوقي . ويفهم من رواية ابن العديم أن الفارس ريموند كان على صلة بالسريان والأرمن في تلك النواحي قبل أن يقوم بحملته ، وأنهم شاركوه في الزحف ، مما سهل له مهمته <sup>(٢)</sup> . ولكن رضوان أسرع بإرسال « قطعة من عسكر حلب إليهم » ، فالتقى الحلبيون بالصليبيين بين تل منس ومعرة النعمان ، وعندئذ لم يقو الصليبيون على مقاومة الجيش الحلبي من جهة ، وحرارة الجو مع قلة الماء من جهة أخرى ، فانهزم الفرنج وبقى الرجال منهم ، قتل منهم زائدا عن ألف رجل ، وحملت رؤوسهم إلى معرة النعمان » ، في حين ارتد ريموند إلى تل منس .

أما جودفري بوايون فقد خشى على نفسه من الوباء الذي انتشر في أنطاكية ، فقصده أخاه بلدوين في الرها ، الذي أعطاه تل باشر والراوندان

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 295. & Michaud : op. cit: I, p, 333.

(٢) « وزحفوا مع أهل تلنس وجميع نصارى بلد المعرة على المعرة وقتلواها » . ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٨ (مطبوع)

Gesta Francorum, P. P. 162—165.

(أوائل أغسطس ١٠٩٨) <sup>(١)</sup>. هذا في حين اتجه بوهيموند إلى قيليقية حيث دعم الحاميات الصليبية التي تركها تتكرد في طرسوس وأذنة والمصيصة أو مرسين في الخريف السابق ، وتأكد من ولائها له ، مما يشير إلى أنه كان ينوى إدخال إقليم قيليقية في حيز الإمارة التي ينوى إقامتها لنفسه في أنطاكية <sup>(٢)</sup>.

وفي سبتمبر سنة ١٠٩٨ عاد جودفري بوايون إلى أنطاكية حيث نظم مع ريموند الصنجيلي حملة اكتسبت طابعاً غريباً ، لأن الصليبيين قاموا فيها بالدفاع عن عمر والى عزاز ضد رضوان ملك حلب <sup>(٣)</sup>. وكان حصن عزاز هذا يقع على بعد أربعين كيلوا متراً تقريباً شمالى حلب ، على الطريق الرئيسى بين أنطاكية من ناحية والرها وتل باشر من ناحية أخرى . وعندما عصى عمر والى عزاز سيده رضوان ، أرسل الأخير جيشاً محاصرة ، وعندئذ لم يسع عمر سوى طلب النجدة من جودفري <sup>(٤)</sup> ! وأكثر من هذا أن عمر أرسل ابنه محمود ليظل رهينة عند جودفري ضماناً لإخلاصه وإثبات عدم نيته في التفرير بالصليبيين <sup>(٥)</sup>. ولم يكن في وسع جودفري أن يشن حرباً على حلب دون الاستعداد الكافى ، فحصل على مساعدات قوية من بوهيموند ومن أخيه بلدوين فى الرها ، وعندئذ رفع رضوان الحصار عن عزاز وسحب قواته إلى حلب . على أن جودفري بوايون لم يقتنع بذلك وإنما رأى أمامه فرصة لتحقيق بعض الأطماع الصليبية فى شمال الشام ، ولذلك استمر فى طريقه إلى عزاز ، حيث خرج عمر والى الحصن لاستقباله ، وترجل أمامه من فوق فرسه ، وأعلن تبعيته له (منتصف سبتمبر ١٠٩٨) <sup>(٦)</sup>.

(1) Sett n : op. cit; I, p. 325.

(2) Runciman : op. cit; I, p. 254 & Stevenson : The Crusaders, p. 29.

(3) Setton : op. cit, I, p. 325.

(٤) ابن المديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ (مطبوع).

(5) Michand : op. cit; I, p. 339.

(6) Albert d'Aix, p. 439 & Guillaume de Tyr p. 283.

ولم يغفر رضوان صاحب حلب لعمر فعلته هذه ، فما زال به حتى أخذ عزاز منه وقتله في حلب (١) .

وفي نهاية سبتمبر قام ريموند الصنجيلي بحملة على البارة ، وهي مدينة تابعة لمملكة حلب تقع شرقي نهر العاصي بين جسر الشغور (الشغور) ومعرة النعمان (٢) . ويبدو أن رضوان لم يقم بأية محاولة للدفاع عن البلدة فاستولى عليها ريموند في حوالي ٢٥ سبتمبر «وعاقب الرجال والنساء واستصفي أموالهم وسبي بعضاً وقتل بعضاً» ؛ فضلاً عن أنه حول جامعها الكبير إلى كنيسة (٣) .

عل أن تلك الغزوات الحلية التي قام بها الصليبيون في ذلك الدور لم تكن في حقيقة أمرها إلا وسيلة لقضاء الوقت حتى يحين موعد الزحف على بيت المقدس . ولم تلبث أن تهيأت الظروف لذلك الزحف بانقضاء فصل الصيف واعتدال درجة الحرارة ، فعقد الصليبيون مجلساً في ٥ نوفمبر سنة ١٠٩٨ بكنيسة القديس بطرس بأنطاكية ، وأجمع الزعماء جميعاً على استئناف الزحف نحو بيت المقدس ، ما عدا بلدوين الذي كان مشغولاً بتنظيم إمارته في الرها (٤) .

ومن الواضح أن هذا القرار لم يلبث أن أثار أمم الصليبيين من جديد مشكلة أنطاكية ووضعها القانوني ، لاسيما وأن بوهيموند — يسانده معظم الأمراء — ظل متمسكاً بحقه في السيطرة على المدينة ، في حين نازعه ريموند ذلك الحق . حقيقة إن الصليبيين حاولوا التهرب مرة أخرى من تلك المشكلة وتأجيلها من جديد بأن أرسلوا إلى البابا في ١١ سبتمبر يخبروه بوفاة مندوبه أدهارويطيلبون منه الحضور شخصياً لزيارة كنيسة القديس بطرس في أنطاكية ، بوصف البابا

---

(١) ابن المديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ .

(2) Chalandon : *Première Croisade* p. p. 248—249.

(٣) ابن المديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١

*Gesta Francorum* p. p. 167—169.

(4) Michaud : *op. cit.* : I, p. 346—347.

ورث القديس بطرس في كرسية . ولكن الصليبيين أنفسهم كانوا واثنين من أن البابا لن يستطيع تلبية دعوتهم، ومن ثم لن تحل مشكلة أنطاكية على يد البابا، مما يتطلب التفكير في وضع حل لها على يد زعماء الصليبيين أنفسهم <sup>(١)</sup> .

وعندما أدرك بوهيموند أنه لن ينال أنطاكية برضاء الإمبراطور البيزنطي، صمم على أن يمتلكها رغم إرادة الإمبراطور، فتحولت سياسته من مهسادة الإمبراطورية واحترام حقوقها إلى معاداتها وسلب حقوقها، وعندئذ انقلبت سياسة ريموند هو الآخر فأصبح من المنادين بالتمسك بحقوق الإمبراطورية البيزنطية واحترام الاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع الإمبراطور البيزنطي سنة ١٠٩٧ <sup>(٢)</sup> . وهكذا انقلب الموقف رأساً على عقب، فصار بوهيموند — وهو أول من عقد اتفاقاً مع الإمبراطور البيزنطي تعهد فيه بالولاء — ينادى بالخروج عن ذلك الاتفاق، في حين أمسى ريموند — وهو الأمير الوحيد من أمراء الحملة الذي لم يتقيد بالاتفاقية السابقة ولم يقسم يمين الولاء للإمبراطور — هو المدافع عن حقوق الإمبراطورية والمنادي باحترام الاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع ألكسيوس كومنين . وبذلك أدت مشكلة أنطاكية إلى تعقيد الموقف بين الصليبيين والبيزنطيين، فضلاً عن تعقيد الموقف بين زعماء الحملة الأولى بعضهم وبعض <sup>(٣)</sup> .

وكان أن طال الجدل والنقاش بين زعماء الحملة الصليبية الأولى حول مصير أنطاكية، وعندئذ استاء الجند وبقية الفرسان، وأعلنوا أن الوقت قد حان ليبروا بقسمهم الصليبي ويستردوا بيت المقدس، فأنذروا الزعماء بأنهم إذا استمروا في منازعاتهم الخاصة حول المسألة الأنطاكية، فإن الصليبيين جميعاً سيتركونهم

(1) Runciman : op. cit; I, p. 256.

(2) Brehier : op. cit; p. 314.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 120.

في أنطاكية ويتجهون رأساً إلى بيت المقدس؛ ولكنهم لن يفعلوا ذلك إلا بعد أن يدمروا أسوار أنطاكية ويتركونها للزعميين المتنازعين — ريموند وبوهيموند — مكشوفة عارية أمام المسلمين والبيزنطيين جميعاً<sup>(١)</sup>.

ولاشك في أن هذا التهديد أثار مخاوف بوهيموند وريموند جميعاً، فضلاً عن بقية الأمراء الذين خشوا على مصيرهم ومستقبل الحملة، ومن ثم بدأت المساعي الجدية للوصول إلى حل لتلك الأزمة. ويبدو أن بوهيموند وريموند خشياً عندئذ أن ينفذ الصليبيون تهديدهم، فتوصلوا إلى اتفاق سريع في نهاية نوفمبر لشغل الصليبيين وتوجيههم وجهة تتفق ورغبتهم في مهاجمة المسلمين. أما هذه الوجهة فكانت معرة النعمان، التي سبق أن هاجمها الصليبيون في شهر يوليو وباء هجومهم بالفشل<sup>(٢)</sup>.

وعندما هاجم الصليبيون معرة النعمان استغاث أهلها بالملك رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص « فلم ينجدهم أحد »<sup>(٣)</sup>. ولم يكن للالهالي من القوة والإمكانات ما يمكنهم من المقاومة طويلاً، فاضطروا إلى التسليم للصليبيين في ١١ ديسمبر<sup>(٤)</sup>، وعندئذ لم يحترم الصليبيون الأمان الذي أعطوه لأهل معرة النعمان، وإنما « غدروا بهم ورفعوا الصليبان فوق البلد، وقطعوا على أهل البلد القطائع، ولم يفوا بشيء مما قرروه؛ ونهبوا ما وجدوه، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به »<sup>(٥)</sup>. وتضيف المراجع الصليبية إلى ذلك أن الصليبيين

(1) *Gesta Francorum*, p. 171.

(2) *Stevenson* : op. cit, p. 30.

(٣) ابن الاثير : الكامل ، سنة ٥٤٩١ هـ .

ابن المديم : زبدة العلب ح ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ .

(4) *Albert d' Aix*, p. 268 & *Gesta Francorum*, p. 175.

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ، وقد قدر ابن المديم عدد قتلى المسلمين في معركة معرة النعمان بأكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي؛ في حين قدرهم ابن الاثير بما يزيد عن مائة ألف.

أحرقوا المرة أولا عن آخر (١) .

على أنه على الرغم من اشتراك بوهيموند وريموندسور في الاستيلاء على معرة النعمان ، إلا أن الحزازات استمرت قائمة بين الرجلين بسبب مشكلة أنطاكية . ويبدو أن ريموند نفسه أدرك أن هذه المشكلة طالّت أكثر مما ينبغي وأنه لا بد من وضع حد سريع لها ، ولذلك دعا الأمراء إلى الاجتماع به في أوائل يناير سنة ١٠٩٩ ، وعرض عليهم مبالغ ضخمة من المال ليكتسبهم إلى جانبه ويعلنونه زعيما أو حدا للصليبيين جميعا ؛ ولكن عرضه قوبل بفتور من جانب الأمراء (٢) . وأخيرا رأى ريموند أن الموقف لم يعد يحتمل التأجيل بعد ما عم الاستياء جميع صفوف الصليبيين ، فخرج ريموند من معرة النعمان في ١٣ يناير سنة ١٠٩٩ على رأس جيوشه معلنا الزحف على بيت المقدس ، وتبعه بقية الصليبيين ، ما عدا بوهيموند الذي اختار البقاء بأنطاكية (٣) . وهكذا حلت المشكلة بين ريموند وبوهيموند بأن أصبح ريموند الزعيم الذي لا ينافسه أمير آخر في قيادة الحملة الصليبية ، في حين قنع بوهيموند بتحقيق حلمه في امتلاك أنطاكية (٤) .

وأخيرا تحرّكت الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس ، بعد أن ظلت قرابة خمسة عشر شهرا في شمال الشام ( أكتوبر ١٠٩٧ — ديسمبر ١٠٩٨ ) (٥) .

(1) Chalandon : *Premiere Croisade* . p. p. 249.

(2) *Gesta Francorum* . p 279.

(3) Michaud : *op. cit.* I. p. p. 345 - 347.

(4) *Cam. Med. Hist.* vol. 5. p. 295.

(5) *Sutton* : *op. cit.* I. p. 327.



## الباب الرابع

### سقوط بيت المقدس

« لتبلون في أموالكم وأنفسكم  
ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب  
من قبلكم ومن الذين أشركوا  
أذى كثيراً ، وإن تعسروا  
وتشقوا فإن ذلك من عزم  
الأمور » .

[ آل عمران : ١٨٦ ]



## الفصل الأول

الطريق إلى بيت المقدس

### الصلبيين والامارات العربية في اواسط بطر السام :

اتجه ريموند على رأس الصليبيين من معرة النعمان إلى كفر طاب، وهي قلعة على بعد عشرين كيلومتراً إلى الجنوب، حيث مكثوا هناك حتى ١٦ يناير ١٠٩٩، وفي تلك الفترة لحق بهم روبرت النورمانى وتذكر د. و بوصول الصليبيين إلى تلك المنطقة بدأت الاتصالات بينهم وبين البيوت العربية الصغيرة التي انتهزت فرصة انحلال قوى السلاجقة لتؤكد استيلائها ببعض المدن مثل حمص وطرابلس وشيزر<sup>(١)</sup>. وجدير بالذكر أن أولئك الأمراء العرب كان مسلكهم تجاه الصليبيين مختلفاً تماماً عن مسلك الأنراك الذين لم يعرفوا سوى السيف، في حين أدرك الأمراء العرب في الشام خطورة الموقف وعدم وجود قوة إسلامية كبرى قربهم تحميهم من ذلك الخطر، فأثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدموا به من عروض<sup>(٢)</sup>.

من ذلك أن الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ - صاحب شيزر (١٠٩٨ - ١١٥٤) - أجرى اتصالات مع ريموند عندما كان الأخير في كفر طاب، وتعهد له ألا يعترض طريق الصليبيين عند اختراقهم إقليم شيزر وأن يقدم لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وميرة، فضلاً عن أنه أرسل إليهم في ١٧ يناير سنة ١٠٩٩ دليلين ليرشدا الصليبيين في عبورهم إقليم العاصي. وقد تم

(1) Setten : op. cit , 1, P. P, 164 - 165,

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٦٥ ، ٨١ وما بعدها .

فعلا تنفيذ تلك الاتفاقية ، مما يدل على اتجاه الأمراء العرب في ذلك الدور نحو مساومة الصليبيين ، رغم ما تعرض له المسلمون من اعتداءات على أيديهم (١) . ثم كان أن اختار بعض الصليبيين - وعلى رأسهم ريموند الصنجلي - أن يتجهوا إلى الشمال الغربي ليستولوا على جبلة ، وهي مدينة ساحلية تقع جنوبي اللاذقية ، وكانت تابعة لصاحب طرابلس ابن عمار (٢) . وقد رأى هذا الفريق من الصليبيين أنه من الممكن الحصول على ما يحتاجون إليه من تموين وإمدادات - من قبرس والدولة البيزنطية فضلا عن الغرب الأوربي - إذا هم سلكوا طريق الساحل ، وذلك بفضل مساعدة الأساطيل الغربية التي اتخذت السويدية واللاذقية قواعد لها (٣) . ومعنى هذه الخطة أن يسلك الصليبيون إلى بيت المقدس طريق الساحل - وهو طريق طويل متعرج - فيستولون في طريقهم على جبلة وانظر طوس وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا .

ولكن تنكرد خالف ذلك الرأي بعد أن أدرك النقص الكبير في عدد الصليبيين بحيث لم يعد الجيش الصليبي يضم سوى ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة المسلحين (٤) . ومن الواضح أن اتخاذ الطريق الساحلي إلى بيت المقدس كان يستلزم حصار جميع الموانئ السابقة مما يستنفد تضحيات كثيرة ووقتا طويلا ، بحيث يصل الصليبيون في نهاية المطاف إلى بيت المقدس وقد تضاعل عددهم

(1) Guillaume de Tyr, p. 295 & Gesta Francorum, p. 181 & Raymond d'Agiles, p. p. 272-273.

ولم يذكر ابن الأثير هذه التفاصيل التي وردت في الزايف الغربية، وإنما اكتفى بعبارة «ورأسهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عاينها» .

(السكامل ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

(٢) كان يحكم طرابلس وقت النزول الصليبي لبلاد الشام جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن عمار الذي توفي سنة ١٠٩٩ هـ ، فخلفه أخوه أبو علي فخر الملك ابن عمار .

( انظر زامباور : معجم الأنساب ص ١٦٠ ) .

(3) Heyd : op, cit, I, p. 134.

(4) Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 253.

وأنهكهم التعب ، وأعطوا خصمهم وقتاً كافياً للاستعداد للملاقاتهم ، مما يجعل مهمتهم في الاستيلاء على بيت المقدس — وهى هدفهم الأساسى — من الصعوبة بمكان . أما إذا سلك الصليبيون الطريق الداخلى المباشر إلى بيت المقدس فإن سيّجنبون كثيراً من المشا كل السابقة ، حتى إذا ما استولوا على المدينة المقدسة سهل عليهم بعد ذلك اقتزاع بقية المدن الساحلية — مثل طرابلس وصور وعكا — واحدة بعد أخرى <sup>(١)</sup> .

وقد أدرك بقية الصليبيين أتران رأى تنسكرد ، فقررروا اتخاذ أقصر الطريق الداخلى إلى بيت المقدس ، مع الاقتراب بين حين وآخر من شاطئ البحر . استدعت ظروف التموين ذلك . وفعلاً استأنف الصليبيون زحفهم وفقاً لئلا الخطأ ، فروا بمصياف فى ٢٢ يناير سنة ١٠٩٩ ، وعندئذ خرج إليهم أمير العربى ، وعقد معهم اتفاقية . ثم اتجهوا نحو بعين ومنها إلى سهل البقاع ، فرح الصليبيون بما صادفوه من خيرات وفيرة . وقد احتفى أهالى تلك المنطة من العرب المسلمين بحصن الأكراد وسط ذلك السهل ، ومعهم ما استطاعوا من ثروة ومال ، فأتجه إليهم الصليبيون وحاصروهم حصاراً محكمًا حتى سقط الحصن فى أيديهم فى ٢٩ يناير سنة ١٠٩٩ . وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة أمير حمص ، الذين وفدوا محملين بالهدايا ليخطبوا ود الفرجة حتى لا يتعرضوا لبلدهم بسوء .

(1) Raymond d'Aigles p. 273

(2) Stevenson op. cit; I, p. 31.

(3) Gesta Francorum, p. p. 183-185.

وينذكر ابن الأثير أن الصليبيين «ساروا إلى حمص وحاصروها فصالحهم صاحب جناح الدولة». (الكمال، سنة ٤٩١ هـ).

### الحملة الصليبية الأولى وبنو عمار :

وبعد أن غادر الصليبيون حصن الأكراد اتجهوا نحو عرقة ، وهى مدينة صغيرة .  
تقع شمالى طرابلس وتقعها<sup>(١)</sup> . وكانت إمارة طرابلس عندئذ خاضعة لبنى عمار —  
كما سبق أن أشرنا — فأسرع صاحبها أبو على فخر الملك بإرسال الرسل إلى  
ريموند لعقد اتفاقية تعهد فيها الأمير العربى بدفع الأموال للصليبيين ، كما أسرع  
برفع أعلامهم على سور مدينته وغيرها من المواضع التابعة له إشارة إلى ولائه  
للصليبيين<sup>(٢)</sup> . أما ريموند الصنجيسى فقد أرسل من جانبه رسالا إلى طرابلس  
للاتفاق مع أميرها فخر الملك ؛ وعندئذ استرعى نظر رسل الصليبيين ثروة طرابلس  
وغناها ، وطمعوا فى زيادة الجزية ، وأشاروا على ريموند أن يهاجم عرقة التابعة  
لإمارة طرابلس ، كنوع من الضغط على أميرها فخر الملك حتى يزيد من قيمة  
الجزية التى تعهد بدفعها للصليبيين . وسرعان ما صادفت هذه الفكرة قبولا  
حسنا ، لاسيما وأن عرقة نفسها تتمتع بأهمية كبيرة لوقوعها وسط إقليم غنى  
بمياهه وثروته الطبيعية<sup>(٣)</sup> .

وفى الوقت الذى اتجه جزؤ من الجيش الصليبي لحصار عرقة ، اتجه فريق آخر  
نحو انظرطوس ، واستولوا عليها فى حوالى ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ . وكانت  
انظرطوس هذه ميناء صغير على شاطئ البحر ، تابع لبنى عمار ، وأدى استيلاء  
الصليبيين على ذلك الميناء إلى سهولة تموينهم بواسطة الأساطيل الإيطالية  
والبيزنطية<sup>(٤)</sup> . هذا فضلا عن أن الاستيلاء على انظرطوس ساعد الصليبيين بعد  
قائيل فى الاستيلاء على مرقية ، إلى الشمال منها .

(1) Michaud : op. cit, I. p. 349.

(2) Raymond d'Agiles, p. 275.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 132-133.

(4) Raymond d'Agiles, p. 276.

على أن الصليبيين لم يفتنوا بذلك ، وإنما حدث في الوقت الذي أخذ ريموند ورجاله يحاصرون عرقه ، أن اتجه جودفري بوايون وروبرت دي فلاندرز لحصار جبلة ، وهي التي كان مفروضا هي الأخرى أن تكون تابعة للأمير طرابلس ، ولكن القاضي أبو محمود عبيد الله بن منصور استطاع أن يستقل بها عن نفوذ بني عمار . وقد استمر حصار جبلة من ٢ إلى ١١ مارس ، وانتهى بعقد اتفاق بين أبي محمود قاضي جبلة والصليبيين<sup>(١)</sup> ، تعهد فيه الأول بدفع جزية من المال والخيل . وبعد ذلك اتجه جودفري وروبرت إلى عرقه تلبيةً لنداء ريموند الذي طلب مساعدتهما<sup>(٢)</sup> .

وعلى الرغم من أن الصليبيين جمعوا قواتهم أمام عرقه في ١٤ مارس ، وعلى الرغم من سهولة تموين الصليبيين عن طريق البحر ، ووفرة ما حصلوا عليه من خيرات في إقليم طرابلس ، إلا أن حصار عرقه طال دون نتيجة<sup>(٣)</sup> . وفي تلك الأثناء دأبت بعض جموع من الصليبيين على الإغارة على الضياع والقرى القريبة من طرابلس ، ثم تعود إلى عرقه محملة بالأسلاب . ولم يلبث أن اعترض جودفري بوايون على الاستمرار في حصار عرقه ، بعد أن « حصروها أربعة أشهر وثقبوا سورها عدة ثقوب ، فلم يقدروا عليها »<sup>(٤)</sup> . وقد نادى جودفري بأن الوقت الذي أضاعه الصليبيون في تلك العملية الحربية لا يعادل بأي حال من الأحوال الفائدة المرجوة من وراء الاستيلاء على تلك المدينة الصغيرة . لذلك أصر جودفري على أن يترك الصليبيون حصار عرقه في الحال ليواصلوا زحفهم على بيت المقدس<sup>(٥)</sup> . ومن الثابت أن ريموند أخذ في تلك المرحلة يندم على استعائته بجودفري

---

(1) Gesta ; Francorum, p. 187. & Albert d'Aix ; p. 453.

(2) Stevenson ; op. cit; I, p. 31;

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩١.

(4) Raymond d'Agiles, p. 278 & Albert d'Aix, p. p. 454-455.

وروبرت واستحضرهما من جيلة لعاوته . فحتى ذلك الوقت — ومنذ أن زحف الصليبيون من أنطاكية — كان ريموند هو زعيم الصليبيين الزاحفين على بيت المقدس ، حتى أن تنكرد نفسه اعترف له بتلك الزعامة مقابل مبلغ كبير من المال . أما وقد حضر جودفرى ، فإن نفوذه أخذ يطفئ على نفوذ ريموند ، وانضم تنكرد وروبرت إلى جانب جودفرى ، مما أضرباً بليغا بمركز ريموند الصنجيلي ومكاثته<sup>(١)</sup> .

وزاد الموقف توترا بين ريموند وجودفرى وصول بعثة من قبل الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين — فى حوالى ١٠ أبريل سنة ١٠٩٩ — تحمل رسالة منه إلى زعماء الصليبيين وهم رابضون أمام عرقه . وقد استهل الامبراطور رسالته بتذكير الصليبيين بالاتفاقية بينهم وبينه سنة ١٠٩٧ ، ثم عبر عن استيائه لأن بوهيموند نكث بعهده للامبراطور بعد أن كان أول من أقر الاتفاق معه ، فاستأثر بأنطاكية وأصر على أن يجعل من نفسه سيداً عليها . وأخيرا عرض الامبراطور على الصليبيين أن ينتظروه حتى أواخر يونيه ليحضر إليهم بنفسه ، ويشارك معهم فى الزحف على بيت المقدس ، ويتحمل عنهم كل أعباء الحرب ونفقاتها<sup>(٢)</sup> .

ومن الواضح أن هذا العرض من جانب الامبراطور البيزنطى بدا طيبا لأول وهلة ، لأنه سيؤدى إلى إنشاء جبهة مسيحية قوية فى الشرق الأدنى ، لا يستطيع المسلمون التغلب عليها أو مقاومتها . هذا فضلا عن أن حضور الامبراطور بنفسه سيهيب للصليبيين قيادة عليا قوية ، وهو الأمر الذى باتوا يفتقرون إليه منذ وفاة أدهمار — المندوب البابوى — فى أنطاكية . لذلك رحب ريموند الصنجيلي بفكرة انتظار الامبراطور ، وربما رأى فى ذلك الحل فرصة طيبة

(1) Runciman : op. cit, I, p. 271-272.

(2) Guillaume de Tyr, p. 307.



للاستعانة بالأمبراطور في توطيد زعامته على الصليبيين من ناحية<sup>(١)</sup> ، فضلا عن استخدام قوى الصليبيين أثناء فترة الانتظار في الاستيلاء على عرقه ليتخذها — بالإضافة إلى أنطرووس — نواة للإمارة التي أخذ يحلم بتأسيسها لنفسه في طرابلس<sup>(٢)</sup> ، من ناحية أخرى .

على أن غالبية الأمراء الصليبيين — وعلى رأسهم جودفري بوايون — عارضوا فكرة انتظار الأمبراطور البيزنطي ، ونادوا بالزحف فورا على بيت المقدس . وكانت حجبتهم في ذلك قوية وهي أن العرض البيزنطي جاء متأخرا بعد فوات الأوان ، فضلا عن أن الأمبراطور ألكسيوس كثيرا ما وعد وأخلف ، وطالما خدع الصليبيين بمساعدته ومنأهم بالأمانى المعسولة دون أن يحقق وعوده . وكان آخر ما يذكره الصليبيون للأمبراطور البيزنطي أنه وعدهم بالحضور لمساعدتهم في أنطاكية فانتظروه وأضاعوا الأشهر الطويلة ، ولكنه لم يحضر<sup>(٣)</sup> . هذا كله بالإضافة إلى أن الصليبيين أخذوا يحسون في ذلك الوقت بما كان هناك من اتصالات بين الامبراطور البيزنطي والفاطميين . ذلك أن الفاطميين دهشوا عندما وجدوا الصليبيين يتقدمون جنوبا صوب فلسطين ، فأرسلوا إلى الامبراطور ألكسيوس يسألونه عما إذا كانت تلك الحركة تعمل لحسابه ، ولكنه أنكر علاقته بها<sup>(٤)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن جودفري بوايون — يسانده روبرت دي فلاندرز — استطاعا إجبار ريموند الصنجيلي على احترام رأى جموع الصليبيين في الزحف دون إبطاء على بيت المقدس ، مما أكسب جودفري محبة الصليبيين وتقديرهم<sup>(٥)</sup>

(1) Chalandon ; Alexis Comnene , p. 214-215.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I; p 138.

(3) Michaud ; op cit; p. p. 361.

(4) Runciman: op. cit; I, p. 272.

(5) Albert d'Aix, P.P. 455 & Raymond d'Agiles P. 289.

وكان أن اضطر ريموند إلى رفع الحصار عن عرقه في ١٣ مايو سنة ١٠٩٩ ، وبذلك فشلت تجربته في استخدام الصليبيين في تأسيس دولة لنفسه على شاطئ الشام ، مثلما فعل بوهيموند في أنطاكية<sup>(١)</sup> .

ولاشك في أن إخفاق الصليبيين في الاستيلاء على عرقه بعد ذلك الحصار الطويل ، وما ظهر في صفوفهم من خلافات وتيارات متعارضة أثناء الحصار ، كل ذلك أدى إلى تقوية مركز أمير طرابلس ابن عمار ، الذي لم يلبث أن سحب عروضة السابقة على الصليبيين قبل أن يرفع هؤلاء حصارهم عن عرقه . ولكن قيام الصليبيين بالهجوم على طرابلس ، وإنزالهم الهزيمة بالمسلمين في أواخر شهر مارس وأوائل أبريل ، كل ذلك جعل ابن عمار يعود إلى رشده ويركن إلى مسألة الصليبيين ، فتعهد بالاستمرار في دفع الجزية ، كما دفع غرامة حرية باهظة<sup>(٢)</sup> لهم . وقد اكتفى الصليبيون بذلك ، فغادروا إقليم طرابلس في ١٦ مايو سنة ١٠٩٩ ، وتولى إرشادهم بعض الأدلاء من طرابلس نفسها حتى وصلوا مساء ١٩ مايو أمام بيروت<sup>(٣)</sup> .

### الفاطميون وبيت المقدس:

يعجب المؤرخ أبو الحسن من موقف الفاطميين وعدم مشاركتهم القوى الإسلامية التي نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين ، فيقول « ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر ، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال !! »<sup>(٤)</sup> . ثم يسترسل أبو الحسن في وصف سوء حال

(1) Stevenson : op. cit, P.32.

(2) Raymond d'Agiles P 285 & Guillaume de Tyr P. P. 308-309.

(3) Albert d'Aix, P. P, 458 & Gesta Francorum P. 193.

(٤) أبو الحسن :النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٧ .

الصلبيين عندما زحفوا على الشام ، وكيف أن المسلمين في العراق والشام حاولوا صدّهم ، « كل ذلك وعساكر مصر لم تهباً للخروج »<sup>(١)</sup> .

والحقيقة هي أن الفاطميين لم يفهموا الحركة الصليبية على حقيقتها — كما سبق أن أشرنا — وانتهزوا فرصة ماحل بالسلاجقة في شمال الشام ليستردوا فلسطين وبيت المقدس ؛ ظناً منهم أنه بات من الميسور تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة والبيزنطيين والصلبيين جميعاً . ولأقل لإثبات صحة هذا الرأي من إلقاء نظرة عامة سريعة على التطورات التي مرت بها فلسطين قبيل وصول الصليبيين مباشرة إلى بيت المقدس .<sup>(٢)</sup>

ذلك أننا رأينا كيف استطاع الأتابك أئسز بن أبق أن يستولى على بيت المقدس باسم السلطان ألب أرسلان من الفاطميين سنة ١٠٧١ ، ومن ثم ظل أئسز هذا يحكم فلسطين منذ تلك السنة حتى سنة ١٠٧٩ ، عندما آلت فلسطين إلى تقش الذي عين أحد رجاله التركان — وهو أرتق بن أكسب مؤسس بيت الأراتقة — حاكماً على بيت المقدس . وعندما وفاة أرتق هذا سنة ١٠٩١ حل محله ابنه سكران تحت سيادة تقش ثم تحت سيادة ابنه دقاق بن تقش ملك دمشق<sup>(٣)</sup> .

على أن الفاطميين لم يستطيعوا أن يسكتوا مطلقاً عن ضياع بيت المقدس من أيديهم ؛ وكذلك رحبوا بتقدم الصليبيين في منطقة الشرق الأدنى على حساب الأتراك ؛ ووجدوا في ذلك فرصة طيبة لاسترداد حقوقهم الضائعة في فلسطين . بل إن المؤرخ ابن الأثير لم يتردد في اتهام الفاطميين بأنهم هم الذين دعوا الفرنجة

---

(١) المرجع السابق ج ٥ ص ١٤٨ .

(٢) للوقوف على حقيقة موقف الدولة الفاطمية من الحركة الصليبية ، انظر :

معيد عبد الفتاح عاشور : شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية (بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ١٦ ، ١٩٦٩) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

إلى بلاد الشام ليساعدونهم ضد الأتراك السلاجقة<sup>(١)</sup>. وبعبارة أخرى فإن الفاطميين لم يروا في الانتصارات التي أحرزها الصليبيون في ضورليوم وأنطاكية كارثة عامة حلت بالمسلمين ، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة هي تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين الذين سادوه قرابة نصف قرن من الزمان ، استثاروا فيها كراهية العرب المسلمين جميعاً ، الشيعة والسنة سواء .

وهكذا أحس الفاطميون بالسعادة والغبطة في تلك اللحظة التي وجدوا نفوذ الأتراك قد انهار ، دون أن يستطيع رضوان ملك حلب أو دقاق ملك دمشق أو حتى السلطان بركياروق نفسه أن يمنع تقدمهم أو يقف في طريقهم . وربما اعتقد الفاطميون أن ساعة الانتقام من الأتراك قد أزفت ، الانتقام للعنصر العربي بوجه عام ، والشيعة بوجه خاص<sup>(٢)</sup> . ولم يكذب محل الصليبيون بإقليم أنطاكية ، حتى أسرع الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه — حاكم مصر الفعلي عندئذ (١٠٩٥-١١٢١) — إلى بذل كل جهد ممكن لعقد تحالف بين الفاطميين والصليبيين ضد العدو المشترك للطرفين ، وهم الأتراك السلاجقة ؛ ووصلت رسل الأفضل فعلاً إلى الصليبيين أمام أنطاكية أثناء حصارهم لها في أوائل سنة ١٠٩٨ . أما العرض الذي تقدم به الأفضل للصليبيين فكان واضحاً بسيطاً ، خلاصته أن يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة ، ثم تقسم الغنيمة بعد ذلك بينهما بحيث يكون القسم الشمالي (سوريا) للصليبيين ، والقسم الجنوبي (فلسطين) للفاطميين<sup>(٣)</sup> . وليس أدل من هذا العرض على جهل الفاطميين بحقيقة الحركة الصليبية وعدم إدراكهم أن الصليبيين لم يتركوا بلادهم في غرب أوروبا ويتحملوا ما تحمله في الشرق إلا لاستخلاص

(١) «وقيل: إن أصحاب مصر من البلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول القيسس (أتسز) إلى مصر وحصرها، خافوا فأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوها ويكونوا بينهم وبين المسلمين ! » (ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٠ هـ) .

(2) Crousset : Hist. des Croisades I, P. P. 144-145.

(3) Setton ; op. cit; I, P. 316.

الأراضي المقدسة في فلسطين . فلسطين بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص هما الهدف الأول للرئيسي للصليبيين . هذا وإن كان الصليبيون قد أظهروا مهارة سياسية ملحوظة حتى ذلك الوقت تجاه الفاطميين ، فاختاروا أن يتركوهم على عمامهم ولم يفصحوا لهم عن نواياهم تجاه فلسطين ، بل أرسل الصليبيون سفارة إلى القاهرة — ردا على سفارة الأفضل — تؤكد التعاون بين الطرفين للقضاء على العدو المشترك<sup>(١)</sup>.

على أن الوزير الأفضل لم يشأ أن ينتظر وصول الصليبيين إلى فلسطين ، وإنما اختار أن يعمل فوراً . وكان الأفضل قد استولى على مدينة صور « بالسيف » في ربيع سنة ١٠٩٧ من الأراقة ، ولكنه لم يحاول أن يهاجم بيت المقدس عندئذ وترك ذلك للوقت المناسب<sup>(٢)</sup>. ولم يلبث أن حان ذلك الوقت المناسب في صيف سنة ١٠٩٨ والصليبيون مازالوا متعثرين في منطقة أنطاكية ؛ فخرج الأفضل على رأس جيوشه ، واستطاع أن يسترد بيت المقدس من سكان (سقمان) الأرثو، وأخيه إيلغارى في ٢٦ أغسطس سنة ١٠٩٨<sup>(٣)</sup>. وقد « أحسن الأفضل إلى سقمان وإيلغارى ومن معهما وأجزل لهما العطاء » ، كما سمح لهما الأفضل بالخروج من بيت المقدس ، فاتجه الأخوان نحو دمشق ومنها إلى الجزيرة حيث استطاعا أن يؤسسا إمارة لبني أرتق هناك<sup>(٤)</sup> أما فلسطين فقد غدت جزءاً من الدولة الفاطمية ، ولم تسد تحل سنة ١٠٩٨ إلا وكانت حدود تلك الدولة قد امتدت إلى نهر الكلب شمالا ومجرى الأردن شرقاً<sup>(٥)</sup>.

---

(١) Michaud ; op. cit. I, P 362.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) هـ فساروا إلى دمشق ثم عبر الفرات ، فأقام سقمان ببلد الرها وسار إيلغارى إلى العراق » ( ابن الأثير : الكامل ؛ سنة ٤٩٢ هـ ) .

انظر كذلك ابن ميسر ، حوادث سنة ٤٩١ هـ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق

ص ١٣٥ — ١٣٨

(٥) Setton ; op. cit; vol; I; P. 316.

ولكن إذا كان الفاطميون قد ظنوا أنهم استفادوا من حالة الفوضى التي أمسى فيها العالم الإسلامي نتيجة لوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق ، فإن الحقيقة المرة لم تلبث أن صدمتهم . فالصليبيون والفاطميون تحالفوا ضد العدو المشترك وهم الأتراك ، ولكن باستيلاء الصليبيين على أنطاكية والفاطمين على بيت المقدس ، غدا الخليقان وجهاً لوجه ، ولا مناص من حدوث صدام بينهما . وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسي للصليبيين أرسل إليهم سnaire وصاتهم قرب طرابلس ، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين ؛ كما تحمل لهم عرضاً من الخليفة الفاطمي خلاصته أن يسهل لهم مهمة الحج على شكل مجموعات من مائتي أو ثلثمائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين<sup>(١)</sup> . ولكن الصليبيين ردوا عليه بأنهم سيتمكنون من الحج فعلاً ، ولكن بمعونة الله . وكان معنى ذلك بداية الحرب بين الصليبيين والفاطمين من أجل بيت المقدس<sup>(٢)</sup> .

### سقوط بيت المقدس :

بسط الفاطميون سيادتهم على فلسطين وساحل الشام جنوبي نهر الكلب ؛ ولكنهم — فيما يبدو — لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم في تلك الجهات والدفاع عنها ؛ وذلك باستثناء حامية بيت المقدس من ناحية وبعض المراکز الساحلية التي ظل الأسطول الفاطمي قادراً على إمدادها بالرجال والذخيرة من ناحية أخرى<sup>(٣)</sup> . وكانت هذه المراکز الأخيرة أول ما تعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم بها بعد أن غادروا طرابلس في طريقهم إلى بيت المقدس . وهنا نجد معظم تلك الموانئ

(1) Michaud ; op. cit, I, P. P. 362-363.

(2) Guillaume de Tyr, I, P. P. 305-306.

(3) Runciman, op. cit, I. P. 275.

الساحلية تحاول أن تحذو حذو طرابلس نفسها ، فتحصل على مسالة الصليبيين بأحسن الشروط الممكنة . من ذلك أن أهل بيروت عندما أحسوا باقتراب الصليبيين منهم ، عرضوا عليهم إمدادهم بالتموين فضلا عن تقديم مبلغ كبير من المال ، كل ذلك مقابل تعهد الصليبيين بعدم الاعتداء على البساتين ومزارع السكروم والغلال المملوكة للعرب (١). وأكثر من هذا فقد تعهد أهل بيروت بالدخول في طاعة الصليبيين والاعتراف بالتبعية لهم ، إذا هم نجحوا في احتلال بيت المقدس (٢). وهذا بعكس ما حدث عندما مر الصليبيون بصيدا ( ٢٠ مايو سنة ١٠٩٩ ) إذ اعتدت حامية صيدا على بعض الجند الصليبيين ، مما جعل هؤلاء يتلفون المزارع المجاورة ويعتدون على الضياع القريبة (٣) .

وبعد ذلك مر الصليبيون بصرفند وصور حيث انضم إليهم ( ٢٣ مايو سنة ١٠٩٩ ) بعض الفرسان النادمين من الرها وأنطاكية لمساعدتهم . وقد التزم الصليبيون طريق الساحل بعد صور ، فمروا بعكا التي قام حاكمها بتموين الصليبيين ، كما تعهد بالدخول في طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس (٤) . وهكذا مضى الصليبيون في تقدمهم فمروا بتميسارية في ٢٦ مايو ، ثم بأرسوف بعد ذلك بتليل (٥). ولم يحاول الصليبيون بعد ذلك الاتجاه إلى يافا ، وإنما اختاروا أن يتركوا الطريق الساحلي ويشقوا سبيلهم داخل البلاد إلى بيت المقدس مباشرة . ومع ذلك فإن الصليبيين كانوا حريصين دائما على ألا ينقطع الطريق بينهم وبين البحر ، فاحتلوا

(١) Setton ; op. cit. P. 341.

(٢) Albert d'Aix : P. 458.

(٣) Guillaume de Tyr. p 311.

(٤) تختلف رواية ابن الأثير عن ذلك ، إذ قال إن الصليبيين « حصروا عكا فلم يقدروا عليها » ( السكامل ، سنة ٤٩٢ هـ ) . والرواية الأولى هي التي أجمعت عليها المراجع الصليبية .

(٥) Albert d'Aix p. 460.

الرملة التي هجرها أهلها وتركوا فيها حامية صغيرة (١). وعلى مقربة من الرملة كانت اللد وبها كنيسة القديس جرجس (جورج) التي أقامها البيزنطيون. فلما علم أهل تلك الناحية باقتراب الصليبيين أحرقوا الكنيسة، ولكن الصليبيين رموها، وأقاموا أسقفا كاثوليكيًا على إقليم اللد والرملة، اتخذ كرسيه في كنيسة القديس جرجس (٢).

وأهم ما حدث في تلك الفترة التي قضاها الصليبيون في الرملة (أوائل يونية سنة ١٠٩٩)، أنهم عقدوا مجلسا للحرب، ناقشوا فيه عدة مسائل، أهمها الرأي القائل بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين في مصر، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلا في القاهرة، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة في بيت المقدس، فعليهم أن يؤمنوا أنفسهم بالاستيلاء على الدلتا (٣) وسنرى فيما بعد أن هذه الفكرة ظلت مهيمنة على عقول زعماء الحركة الصليبية طوال عصر الحروب الصليبية، حتى وضعت موضع التنفيذ أكثر من مرة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ولكن من الواضح أن الظروف التي أحاطت بالصليبيين فعلا في نهاية القرن الحادي عشر لم تسمح مطلقا بتلك المغامرة، لأن مملكة بيت المقدس لم تكن قد قامت بعد، ولأن أقدام الصليبيين لم تكن قد ثبتت في فلسطين مثلهما صار عليه الوضع في القرن الثالث عشر (٤).

وكان أن تقرر الزحف على بيت المقدس مباشرة، فترك الصليبيون الرملة في ٦ يونية سنة ١٠٩٩. وفي الطريق التقوا ببعض المسيحيين الواندين من

(1) Steven on : The Crusaders in the East, p. 33 .

ويقول أبو الحسن : إن الصليبيين أخذوا الرملة « وقت إدراك الغلة » أي وقت الحصاد .

( النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠ ) .

(2) Gesla Francorum; p. 193 & Guillaume de Tyr, p. 313.

(3) Raymond d'Agiles, p. 299

(4) Albert d'Aix, p. 292.



بيت لحم ، وهؤلاء استحثوا جودفرى بوايون على الإسراع إلى بيت المقدس ، لأن الفاطميين يتوعدون المسيحيين ويتأهبون للثأر منهم ، فضلا عن أنهم استحضروا عمالا من مصر لتقوية الاستحكامات في بيت المقدس <sup>(١)</sup> . لذلك أرسل جودفرى فرقة من الفرسان بقيادة تنكرد إلى بيت لحم ، حيث استقبلهم المسيحيون على اختلاف مذاهبهم استقبالا حافلا ، مهللين بأن ساعة الخلاص قد حانت ، وأنهم جميعا أتباع المسيح ورعاياه ، لا فرق بين كاثوليك وأرثوذكس وسريان <sup>(٢)</sup> . وبعد ذلك غادر تنكرد بيت لحم للملاقة بقية الجيش الصليبي ، بحيث لم يحل يوم ٧ يونيه ، إلا وكان الصليبيون جميعا أمام أسوار بيت المقدس . وهنا أفاض المؤرخون الصليبيون في وصف مشاعر الصليبيين وأحاسيسهم عندما وجدوا أنفسهم أمام تلك المدينة المقدسة ، وما أثارته رؤياها في نفوسهم من ذكريات حبيبة إلى قلوبهم <sup>(٣)</sup> .

وفي تلك الأثناء كان افتتاح الدولة — حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل <sup>(٤)</sup> — قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، فسمم الآبار ، وقطع موارد الماء وأخفى المواشى <sup>(٥)</sup> ، وطرد جميع من بالمدينة من المسيحيين ، فضلا عن اهتمامه بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار ، معتمدا في الدفاع عن بيت المقدس على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان <sup>(٦)</sup> .

ولم يكد الصليبيون يشرعون في حصار بيت المقدس في ٧ يونيه سنة ١٠٩٩ ،

(1) Ibid.

(2) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), pp. 354-355.

(3) Guillaume de Tyr, p. 318.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، أبو الحسن : النجوم ج ٥ ،

ص ١٤٨

(5) Gesta Francorum, p. 199, & Raymond d'Agiles p p. 293-294.

(6) Foucher de Chartres (Hist. Occid) III, p. 359.

(١٦ م — الحركة)

حتى أخذوا يهاجمون المدينة معتمدين على عدد كبير من آلات الحصار والهدم<sup>(١)</sup>. وفي حوالى منتصف يونية وصلت ميناء يافا بعض السفن الجنوبية التى استطاعت الاستيلاء على المدينة فى سهولة بعد أن هجرها أهلها من المسلمين عندما علموا باقتراب الصليبيين من أرسوف<sup>(٢)</sup>. ومن الثابت أن تلك السفن الجنوبية أضررت للصليبيين كثيراً مما كانوا يحتاجون إليه من عدد الحصار ومواد التموين<sup>(٣)</sup>، الأمر الذى جعلهم أمام بيت المقدس يحرصون على تأمين الطريق بينهم وبين يافا ليتمكنوا من الحصول على المساعدات التى تجلبها لهم الأساطيل الغربية<sup>(٤)</sup>. ولا شك فى أن تلك المعونة البحرية كان لها أثرها الفعال فى تدعيم مركز الصليبيين، وفى إمدادهم بما احتاجوا إليه، مما مكّنهم من مواصلة الحصار والهجوم، فى الوقت الذى كانت الحامية الفاطمية محصورة داخل أسوار بيت المقدس ومقطوعة من العالم الخارجى تماماً<sup>(٥)</sup>.

وكان أن طال حصار الصليبيين لبيت المقدس واشتدت حرارة الصيف، مما أثار أعصابهم وجدد المنازعات فيما بينهم حول مصير بيت المقدس وملكية بعض المراكز الهامة الأخرى مثل بيت لحم. ولم تلبث أن انتشرت إشاعة قوية بين الصليبيين مؤداها أن جيشاً فاطمياً كبيراً قد خرج من مصر فى طريقه إلى بيت المقدس لتخليصها، مما جعل الصليبيين يفكرون فى القيام بمحاولة قوية للاستيلاء على المدينة<sup>(٦)</sup>. وقد عمل الصليبيون برجين يطلان على سور المدينة، أحدهما بباب صهيون والآخر بباب العمود، فأحرق المسلمون البرج الأول وقتلوا من فيه. أما البرج الثانى فقد زحف به الصليبيون حتى ألصقوه بالسور « وحكموا به البلد وكشفوا من

(1) Gesta Francorum p. 195.

(2) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(3) Heyd : Hist. du Commerce, I, p. p. 134-135. & Cam. Med. Hist, vol. 5. p. 268.

(4) Gesta Francorum, p. 199.

(5) Chalandon : Premiere Croisade. p. p. 269-271.

(6) Runciman : op. cit; I. p. p. 283-284.

كان عليه من المسلمين ، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد ؛ فانهزم المسلمون . . » <sup>(١)</sup>

وقد حدث ذلك الهجوم الشامل الذى قام به الصليبيون على بيت المقدس ليلة ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ ، ثم اشتد الهجوم واتخذ طابعاً عنيفاً صباح اليوم التالى ، أى الجمعة ١٥ يوليو ، وهو اليوم الذى استطاعوا فيه اقتحام المدينة بعد حصار دام « نيفاً وأربعين يوماً » <sup>(٢)</sup> . ولم يسع الجند المدافعون عن بيت المقدس من المسلمين سوى الفرار عندئذ للاحتباء بالمسجد الأقصى والدفاع عنه ، فتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحاً وحشية رهيبة « حتى أن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم فى دماء المسلمين ! ! » <sup>(٣)</sup>

وفى الحال أخذ جودفرى بوايون يقسم العمل على الأمراء ، فأرسل بعضهم لفتح باب العمود حتى يدخل منه بقية الصليبيين إلى داخل المدينة ، فى حين قام البعض الآخر — مثل تنكرد — باحتلال قبة الصخرة . والمعروف أن قبة الصخرة كانت غنية بما فيها من تحف ثمينة سال لها لعاب الصليبيين فتهبوا عن آخرها <sup>(٤)</sup> . على أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لم يتم فى سهولة ودون مقاومة ، إذ صادف الصليبيون مقاومة شديدة فى القطاع الجنوبى . أما افتخار الدولة — حاكم المدينة الفاطمى — فقد احتوى مع طائفة من الجند بمحارب داود حيث « اعتصموا به وقتلوا فيه ثلاثة أيام » ، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(3) Gesta Francorum, p. p. 203-205.

(٤) « أخذوا (الصليبيون) من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة ، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامى ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً ، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء ... »

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، ابن الجوزى : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

أن « بذل لهم الفرنج الأمان »<sup>(١)</sup> . وفعلوا أطلق الصليبيون سراحهم وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان ، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين<sup>(٢)</sup> .

ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكف لحو أثر الجريمة البشعة التي اقترفها الصليبيون في بيت المقدس ، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب . ذلك أن الصليبيين لم يتركوا مسلماً في الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه واستباحوا دمه ، دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل . ولم يرع الصليبيون حرمة المسجد الأقصى فأجهزوا على كل من احتسب به من المسلمين وعددهم أكثر من سبعين ألفاً « منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان وجاوروا بذلك الموضع الشريف » ومهما يكن في هذا الرقم الذي ذكره المؤرخون من مبالغة ، فإن جميع الدلائل تشير إلى وحشية الصليبيين وعظم الجرم الذي اقترفوه في بيت المقدس<sup>(٣)</sup> .

ولم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم إنكار الحقيقة ، فذكروليم الصوري أن بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحه رهبة حتى أصبح البلد « مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشتمزأزم »<sup>(٤)</sup> . كذلك

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) المرجع السابق Gesta Francorum, p. 205. &

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) لم يذكر هذا الرقم من ضحايا المسلمين المؤرخون المسلمون - مثل ابن الأثير -

فحسب ، بل ذكره أيضاً المؤرخون المسيحيون الشرقيون مثل ابن العبري الملطي الذي ذكر بالنص الواحد « ولبت الفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً » (ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧) .

كذلك ذكر متى الرهاوي أن عدد من قتلهم الصليبيون من المسلمين زاد على خمسة وستين ألفاً .  
(Doc. Arm, I, p, 45)

5) Guillaume de Tyr, I, p. 354.

ذكر مؤرخ صليبي حضر تلك الأحداث أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التي أحدثها الصليبيون ؛ لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة ، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه <sup>(١)</sup> . ولم يكن اليهود أحسن حالا من المسلمين ، إذ « جمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم » <sup>(٢)</sup> .

ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين الأوروبيين المحدثين إلى الاعتراف بأن مذبحة يوليو سنة ١٠٩٩ كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى <sup>(٣)</sup> . وإذا كان المسلمون قد تطرفوا أحيانا - فيما بعد - في معاملة الصليبيين ، فإن هذا التطرف لم يكن إلا رد فعل لمذبحة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ، وهي المذبحة التي ظلت تثير الأذى في قلوب المسلمين حتى طرد الصليبيين نهائيا من الشام <sup>(٤)</sup> .

أما الدولة الفاطمية ، فقد تلقت تلك الأخبار في برود ، وظلت تغط في سباتها العميق . وكذلك بغداد حيث اتجه قاضي دمشق زين الدين أبو سعد الهروي ليخبر الخليفة العباسي بالكارثة التي حلت بالمسلمين في الشام . وهناك في بغداد اجتمع « المستنفرون » من دمشق ؛ « وحضروا في الديوان ( الخليفة ) وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا ، وقام القاضي في الديوان ، وأورد كلاما أبكى الحاضرين <sup>(٥)</sup> » . كل ذلك والخلافة العباسية لم تحرك ساكنا . وكذلك السلطان

---

(1) Raymond d'Agiles, p. 300.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

أبو المحاسن : الهجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠ .

Michaud : op. cit, I, p. p. 4 4 425.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 161 &

Runciman : op. cit. I p. 278.

(4) Runciman: op cit, I, p. 287.

(٥) ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

بركياروق « ووقع التقاعد »<sup>(١)</sup>.

والواقع أنه إذا كان ثمة خطر سيهدد الصليبيين فيما بعد ، فإن السحب التي  
انذرت بذلك الخطر لم تتجمع إلا بعد أن نجح الصليبيون في تثبيت أقدامهم  
في بلاد الشام .

---

(١) وقد قال أبو المظفر الأيوبردي شعراً في عدم أكثرات الخلافة العباسية، واعتماد  
المسلمين عندئذ على البكاء والنحيب :

وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايها بنى الإسلام إن وراءكم	وقائع تلحق الذرى بالمناسم
وكيف تنام المين ملء جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام أضحى مقيلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
أرى أمي لا يشرعون إلى العدى	رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى	ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعراب بالأذى	وينفضى على ذل كجاة الأعاجم

## الفصل الثاني

### تنظيم الفتح

بيت المقدس عاصمة دولة الصليبيين عليها :

أما نجاح الحملة الصليبية الأولى في تحقيق أهدافها الروحية والحربية مشكلة أساسية ، هي تحديد وضع البلاد التي فتحها الصليبيون ، وطريقة تنظيمها ، وكيفية بناء دولة غربية على أرض شرقية ، تتألف من تلك العناصر المشتتة المتباينة التي جرفها تيار الدعوة الصليبية من غرب أوروبا ليلقى بها جميعاً في صعيد واحد (١) . حقيقة إن الحملة الصليبية جاءت وليدة المصادفات التاريخية ، كما أن نجاحها أيضاً تم نتيجة المصادفات التاريخية ، إذ نبئت الدعوة الصليبية في الوقت الذي ضعفت الدولة البيزنطية وانحلت قوى الأتراك السلاجقة . ولكن كان لزاماً على الصليبيين الأوائل بعد ما حققوه من نجاح في الشام أن يتبعوا سياسة متكاملة بعيدة الهدف ، تخلق دولة ثابتة في بيت المقدس من تلك العناصر المتباينة التي تألفت منها الحملة الصليبية الأولى . وإذا كان من الصعب أن يتم هذا العمل بسهولة أو دفعة واحدة أو على يد فرد واحد ؛ فإن التاريخ يشهد على أن الفصل الأول في وضع أساس ذلك البناء يرجع بدون شك إلى بلدوين الأول ( ١١٠٠ — ١١١٨ ) . أما الفترة الواقعة بين سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٩ وقيام بلدوين الأول في حكمها سنة ١١٠٠ ، فكانت فترة انتقال ، أو على الأصح فترة توفيق بين الميول الانفصالية للأمرأء ورجال الدين من جهة والأوضاع

التي تتطلبها قيام ملكية مدعمة النفوذ والسلطان من جهة أخرى . وفي فترة الانتقال هذه ، قام جودفرى بوايون بالوصاية على بيت المقدس <sup>(١)</sup> .

وكانت المشكلة الداخلية الكبرى التي واجهت الصليبيين بعد أن انتهوا من ذبح جميع من في بيت المقدس من المسلمين ، هي عدم وجود زعيم أو رئيس أو قائد لهم يعترفون جميعاً بزعامته ، ويعهدون إليه بتنظيم جهودهم فضلاً عن تنظيم البلاد التي فتحوها <sup>(٢)</sup> . وهنا أحس الصليبيون بعظم الخسارة التي أصابهم ب وفاة أدهمار المندوب البابوي ، وهو الذي كان حتى وفاته يقوم بدور الزعيم الروحي للصليبيين ، فضلاً عن أنه كان يؤلف بين أمراء الصليبيين تحت زعامته . ولكن وفاة أدهمار في أنطاكية في أول أغسطس سنة - ١٠٩٨ - كما مر بنا - أدت إلى افتتار الحملة الصليبية الأولى إلى زعامة روحية ، كما أصبحت تلك الحملة من - الناحية السياسية - لانعدو مجرد حلف بين الأمراء يتصف بالفوضى وسوء النظام لعدم وجود رأس تتزعم الحلف وتنسق بين جهود أعضائه وآرائهم <sup>(٣)</sup> . ولم تلبث أن ظهرت الاتجاهات الشخصية قوية عند الأمراء ، فأخذ بعضهم يتخلى عن موكب الحملة ويتوقف في الطريق لتحقيق كسب خاص ، مثلاً فعل بلدوين البولوني في الرها وبوهيموند في أنطاكية ، وما أراد أن يفعله جودفرى بوايون في جبلة ، وريموند في عرقه <sup>(٤)</sup> .

وأخيراً لم يبق مع الحملة عند سقوط بيت المقدس سوى جودفرى بوايون ، لأن ريموند منعه من التوقف في جبلة ، وريموند لأن جودفرى بدوره منعه من التوقف في عرقه وطرابلس ؛ فضلاً عن تنكرد وروبرت دى فلاندرز وروبرت

(1) Grousset · Hist. des Croisades · I, pp. 164-165.

(2) Runciman · op. cit, I, p. 289.

(٣) Runciman : op. cit, I, p. 289.

(4) Chalandon : Première Croisade, p. 278-279,



النورمانى . وهؤلاء الأمراء هم الذين دخلوا كنيسة التيامة في بيت المقدس مساء يوم ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وأيديهم ملطخة بدماء ضحاياهم من أهل المدينة الأبرياء ليبتهلوا إلى الله ويطلبون حسن ثواب الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup> .

### موردرى والوصاية على بيت المقدس :

ثم كان أن اجتمع زعماء الحملة الصليبية في ١٧ يولية لتنظيم فتحهم الجديد . وهنا بدأت المشكلة الأولى وهي هل يكون زعيم الدولة الجديدة من العلمانيين أو الكنسيين ؟ ومن الواضح أن الكنيسة الغربية كان لها سند واضح في المطالبة بالإشراف على بيت المقدس ، لأن البابا أوربان الثانى هو صاحب الفضل في الدعوة للحرب الصليبية<sup>(٢)</sup> . ولو كان الزعيم الروحى للحملة الصليبية الأولى — وهو المندوب أدهار — حياً ، لأمكن أن يتولى الزعامة العليا في تلك الدولة الجديدة ، بحكم مكانته وشخصيته واتزانه من جهة ؛ وما قام به من دور بارع في توجيه الأمراء المشتركين في الحملة وحفظ التوازن بينهم من جهة أخرى<sup>(٣)</sup> . وشاءت الظروف أن يكون كرمى بيت المقدس خالياً عند سقوطها في أيدي الصليبيين ، لأن بطرق المدينة الأرثوذكسى — سيمون (سمعان أو شمعون) — مات في قبرس قبل استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، وبذلك أصبحت يد الصليبيين مطلقة في تعيين أحد رجال الدين الكاثوليك بطرقاً على بيت المقدس<sup>(٤)</sup> .

(1) Guillaume de Try, I, p. 357.

(2) Michaud op. cit, I, 428 429,

وقد توفي البابا أوربان الثانى في ٢٩ يولية سنة ١٠٩٩ ، أى بعد سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين بأسبوعين ، وذلك قبل أن يسمع الخبر الذى طالما تمناه منذ دعا للحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ .

(3) Setten : op. cit, I, p. 338.

(4) Albert d'Aix (Hist. Occid, VI); pp 489.

على أنه من الواضح أن فكرهم قيام حكومة دينية في بيت المقدس تخضع لإشراف الكنيسة وهيمنة رجال الدين وتوجيههم ، كانت فكرة خاطئة ، ولا يمكن تنفيذها ، وإذا نفذت كان لا يمكن لها البقاء . ذلك أن قيام دولة لاتينية من المسيحيين الغربيين في بقعة بمثابة القلب من العالم الإسلامي ، أمر يحتاج إلى قيادة حربية علمانية للدفاع عن هذه الدولة ضد أعدائها المحيطين بها . ولذلك سرعان ما استبعد الصليبيون من حسابهم هذه الفكرة ، لا سيما وأنه لم يكن صاحبهم الزعيم الديني الرشيد الذي يصلح لتلك الزعامة<sup>(١)</sup>.

وكان أن اتجهت الآراء نحو اختيار أحد الأمراء العلمانيين لينظم أمور الفتح الجديد . وهنا بدأت مشكلة أخرى ، هي أي الأمراء يفضل الآخريين ليكون زعيماً لدولة بيت المقدس الصليبية ؟ إن تعجل روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز العودة إلى غرب أوروبا ، جعل الأمر محصوراً بين اثنين ، هاريموند وجودفري<sup>(٢)</sup> . وليس هناك من شك في أن ريموند كان أوفر ثروة وأكثر قوة من منافسه ، هذا فضلاً عن قوة شخصيته ومرونته السياسية وبعد نظره الذي جعله يؤثر التحالف مع الدولة البيزنطية<sup>(٣)</sup> . على أن قوة هذا الأمير من ناحية وعدم حب الأمراء والفرسان له من ناحية أخرى ، جعلت الأمراء يتخوفون من اختياره . هذا إلى أن سياسته تجاه الإمبراطور ألكسيموس كومنين ، وإفراطه في التودد إليه والتحالف معه أثارت استياء كثير من الصليبيين ؛ حتى فرسانه ورجال جيشه . ومع ذلك فإن بعض المؤرخين الصليبيين يؤكدون أن تاج بيت المقدس عرض عليه ، ولكنه رفضه<sup>(٤)</sup> . وهكذا لم يبق هناك سوى جودفري

(1) Grousset : Hist. des Croisades I; pp. 166-167.

(2) Archer : The Crusades, p. 93.

(3) Runciman , op. cit. I. p. 291.

(4) Raymond d'Agiles, p. 301 & Albert d'Aix, p. 485.

دى بوايون الذى رفض هو الآخر هذا الشرف فى أول الأمر ؛ ولكن بقية الزعماء أجبروه على قبول حكم بيت المقدس فى ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩<sup>(١)</sup>.

ولم تكن مهمة جودفرى بوايون بالمهمة السهلة الهينة ، إذ كان عليه أن يعانى الكثير بسبب عدم إخلاص ريموند بوجه خاص . هذا إلى أن جودفرى لم تكن له من المؤهلات الموروثة أو المكتسبة ما يجعله يمتاز عن غيره من الأمراء الصليبيين ، بل على العكس لقد اختاره الأمراء ورجال الدين لما لمسوه فى أخلاقه من لين وسهولة تمكنهم من تحقيق مآربهم دون أن يخشوا خطرا من جانبه .

ومهما يكن من أمر ، فالملاحظ أن جودفرى لم يحمل لقب ملك بيت المقدس . وقد جرت الأساطير بأن التاج عرض عليه ولكنه « رفض أن يرتدى تاجا من الذهب فى المكان الذى ارتدى المسيح تاجا من الشوك »<sup>(٢)</sup> لذلك أكتفى جودفرى باتخاذ لقب متواضع هو « حامي بيت المقدس *Advocatus Sancti Sepulchri* »<sup>(٣)</sup> ومن الواضح أن اختيار جودفرى هذا اللقب جاء اعترافا منه بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحتة ، وأن لها صفتها الدينية التى تجعل للكنيسة نوعا من الإشراف عليها . وهكذا أدى تواضع جودفرى إلى تأخير قيام ملكية قوية منظمة تستطيع بيت المقدس فى ظلها أن تعيش وسط الأخطار الجسيمة المحيطة بها<sup>(٤)</sup>.

---

(1) Iorga : *Hist. des Croisades*, p. 67.

(2) Michaud : *op. cit*, I, p 436.

(3) Runciman *op. cit*, I pp. 292-293.

(4) Grousset : *op. cit*, I, p. 171.

### اختيار أرنولف مالسكورد بطريرقا على بيت المقدس:

وكان أن أخذ رجال الدين في بيت المقدس يزدادون قوة أمام ذلك الحاكم الطيب، بعد ما لسوء فيه من لين العريكة . وعندما اجتمع رجال الكنيسة في أول أغسطس سنة ١٠٩٩ لاختيار بطريرك لبيت المقدس ، وقع اختيارهم على أرنولف مالسكورد<sup>(١)</sup> . وقد احتج أبناء بروفانس من الصليبيين على ذلك الاختيار ، وحاولوا تجريح أرنولف، والقول بأن انتخابه غير قانوني لعدم صلاحيته ولسوء سلوكه أثناء زحف الصليبيين على بيت المقدس ؛ ولكن كل هذه الطعون لم تجد ، لاسمًا وأن عدم اختيار ريموند حاكم أضعف من مكانة رجاله أبناء لإقليم بروفانس<sup>(٢)</sup> .

على أن البطارق الجديد كان من جانبه معتدلا ، فاختر ألا يقحم نفسه في مشا كل مع جودفري ، وإنما قصر نشاطه على المسائل الكنسية . وقد وجه كل اهتمامه إلى إضفاء صبغة لاتينية على كرمى بيت المقدس ، فزود كنيسة القيامة بأجراس لإعلان مواعيد الصلاة — وهو أمر كان المسلمون قد حرموه على المسيحيين في بيت المقدس — ؛ واستبعد التساوسة الأرثوذكس من تلك الكنيسة ، مما أثار استياء أهل بيت المقدس من المسيحيين المحليين<sup>(٣)</sup> . وكان بعض التساوسة الأرثوذكس عند خروجهم من بيت المقدس أيام افتخار الدولة الفاطمية قد أخفوا صليب الصليبوت — أو الصليب الأعظم — الذى يقال إن المسيح عليه السلام قد صلب عليه ، ولكن أرنولف أجبرهم عند عودتهم على

---

(1) Richard : Le Royaume Latin. p. 93.

(2) Raymond d'Agiles. p. 302.

(3) Runciman, op. cit, I. p. 294.

إظهاره<sup>(١)</sup> . ولم يعد أمام الأرثوذكس في بيت المقدس سوى قبول ذلك الوضع الجديد بعد أن تفرق زعمائهم الدينيون، وأصبح من المستحيل عليهم تعيين بطرق لهم يستطيع الصمود أمام البطرق الكاثوليسكي الجديد<sup>(٢)</sup> .

---

(1) Raymond d'Agiles. p. 302.

(2) Michaud : op. cit. I, p. 438.

## الفصل الثالث

### إتمام غزو فلسطين

#### امتداد نابلس :

بعد أن استقرت الأمور للصليبيين في بيت المقدس على النحو الذي وضعناه ، صارت الخطوة التالية أمامهم هي الاستيلاء على بقية مدن فلسطين ، حيث لم يمتلكوا منها حتى ذلك الوقت سوى بيت المقدس وبيت لحم واللد والرملة ويافا<sup>(١)</sup> . ويبدو أن الصليبيين لم يصادفوا صعوبات كبيرة في تلك المهمة ، لأن سقوط بيت المقدس أحدث موجة من الرعب في نفوس أهالي المدن والقرى المجاورة ، فضلاً عن خلوت تلك المدن من وسائل الدفاع . وكان أن أسرع أهالي نابلس إلى الاستسلام ، وأرسلوا وفداً إلى الصليبيين يدعونهم لتسليم المدينة ، فتسلم تنسكرد نابلس في غير صعوبة في أواخر يوليو سنة ١٠٩٩<sup>(٢)</sup> .

ولم يكد تنسكرد يفرغ من تلك المهمة ، حتى تلقى رسالة عاجلة من جودفري بوايون في ٤ أغسطس - الذي كان في بيت المقدس - يطالب منه التوجه مباشرة صوب شاطئ البحر للتأكد من صحة الأخبار القائلة بأن حملة فاطمية وصلت من مصر إلى أرض فلسطين . لذلك أسرع تنسكرد ومعه فرسانه إلى قيسارية ، ومنها اتجهوا جنوباً على امتداد الشاطئ حتى الرملة للبحث عن الحملة الفاطمية ، حتى عثروا على عدد كبير من الكشافين الفاطميين فيما بين يافا والرملة ، فقبضوا عليهم وعرفوا منهم أن جيشاً فاطمياً كبيراً على رأسه الوزير الأفضل في طريقه

(1) Grousset ; L'Empire du Levant, p. 197.

(2) Gesta Francorum p. 209 & Guibert de Nogent; p. 304.

فعلا إلى عسقلان لاسترداد بيت المقدس . وفي الحال أرسل تنكرد رسالة عاجلة إلى جودفرى بوايون يطلب منه الحضور بسرعة ومعه كافة مقاتلي الصليبيين<sup>(١)</sup>.

موقعة عسقلان ١٢ أغسطس ١٠٩٩ :

والواقع أن الوزير الأفضل لم يكف عن الاستعداد لمقاتلة الصليبيين منذ أن سمع بزحفهم على بيت المقدس، فجمع رجاله وخرج من مصر ليحول دون استيلائهم عليها، ولكنه وصل عسقلان في ٤ أغسطس « وقد فات الأمر »، أى بعد أن استولى عليها الصليبيون بعشرين يوما<sup>(٢)</sup>. وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد في وقت ما أن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال الشام، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة. ولم يسع الأفضل عند وصوله عسقلان سوى أن يرسل « رسولا إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه »<sup>(٣)</sup>.

ولكن يبدو أن الوزير الأفضل لم يكن قديراً في ميدان الحرب بتدريما هو معروف عنه من مهارة سياسية وإدارية؛ إذ يروى صاحب مرآة الزمان أنه بعد وصوله إلى عسقلان أضع وقتاً ثميناً « ينتظر الأسطول في البحر والعرب »<sup>(٤)</sup>. وفي الوقت الذي كان الأفضل منتظراً في عسقلان اكتشف الصليبيون أمره فبادروا

(١) Gesia Francorum p. 209.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٣ . (Rec. Hist, Orient III)

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان ص ٥٢٠ (Rec Hist Orient III) &

وابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

وجدير بالذكر أن أبا المحاسن يقول : إن الأفضل جد في السير حتى وصل إلى القدس ثاني يوم فتحه « فقصده الفرنج وقاتلوه فلم يثبت لهم ودخل عسقلان بعد أن قتل من أصحابه عدد كبير » على أنه لا يوجد في بقية المراجع ما يؤيد رواية أبي المحاسن من أن الأفضل قصد بيت المقدس أولاً ثم ارتد عنها إلى عسقلان (أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٩) .

بالمهجوم لأنه خير وسائل الدفاع<sup>(١)</sup>. ولم يلبث أن أسرع جودفرى بوايون في الانضمام إلى تنكرد ، فخرج من بيت المقدس يوم ٩ أغسطس ومعه البطرق أنرولف وروبرت دى فلاندرز ، وقصدوا الرملة حيث تأكدوا من وصول الفاطميين إلى عسقلان . وبعد قليل لحق ببقية القوى الصليبية روبرت النورماندى وريموند الصنجيلى ومعهما رجالهما<sup>(٢)</sup>.

ولم يكد يجتمع شمل القوى الصليبية قرب الرملة في ١٠ أغسطس حتى أخذوا يزحفون جنوباً في اتجاه عسقلان حيث باغتوا القوات الفاطمية ، على قول ابن الأثير<sup>(٣)</sup>. وفي المعركة التي دارت بين الطرفين في ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ حلت الهزيمة بالفاطميين وتشقت شملهم بعد قليل ، حتى أن بعضهم لم يجسد مفراً سوى البحر ، فألقوا بأنفسهم في اليم حيث غرقوا ؛ في حين احتوى البعض الآخر « بشجر الجيز ، وكان هناك كثيراً ، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من كان فيه » . أما الوزير الأفضل فقد هرب إلى عسقلان ومعه بعض رجاله ومنها ركبوا سفينة في البحر فارين إلى مصر . وهكذا « تمكنت سيوف الإفرنج من المسلمين ، فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ، ونهب العسكر »<sup>(٤)</sup>.

ومن الواضح أن النصر المعنوى والأدبي الذي حققه الصليبيون في عسقلان فاق بكثير الغنائم المادية التي غنموها<sup>(٥)</sup> فكما أن الهزيمة التي حلت بكربوغا على أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٨ أخرجت السلاجقة من معركة الشام ، فكذلك أدى

(1) Stevenson : op cit, I, p 35

(2) Gesta Francorum, p 117 & Guillaume de Tyr, p 380

(٣) ابن الأثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٤ .

Gesta Francorum pp 217-219 & Alberi d'Aix p p 497

(5) Cam Med Hist vol 5 p 297



انتصار الصليبيين في موقعة عسقلان إلى القضاء على هيبة الفاطميين بفلسطين، فلم يحرّروا بعد ذلك على مهاجمة الصليبيين، وقبعوا في مصر يشاهدون مدن فلسطين وهي تتساقط واحدة بعد أخرى في أيدي الغزاة . وبعبارة أخرى فقد أصبحت يد الصليبيين طليقة في فلسطين منذ انتصارهم في عسقلان ، مثلما صارت يدهم طليقة في شمال الشام عقب انتصارهم على كربوغا<sup>(١)</sup> .

وكان أن بدأ جردفري بوايون بحصار عسقلان نفسها ، فوجد أهل عسقلان أنفسهم أمام الأمر الواقع ، وأرادوا الإستسلام فوراً دون مقاومة ، لولا أنهم خشوا أن يحل بهم ما حل بأهل بيت المقدس في الحرم الشريف من قتل وذبح . وكان أهل عسقلان قد لمسوا ما فعله ريموند الصنجيلي (Saint - Gilles) مع افتخار الدولة - القائد الفاطمي الذي احتفى مع فريق من رجاله في محراب داود ساعة سقوط بيت المقدس - ، إذ أؤمنهم ريموند حتى خرجوا سالمين إلى عسقلان<sup>(٢)</sup> . لذلك وثق أهل عسقلان في ريموند دون غيره من زعماء الصليبيين ، وأرسلوا إليه يطلبون منه تسلم بلدهم بشرط أن يؤمنهم على أرواحهم وحرياتهم<sup>(٣)</sup> . وعندما قبل ريموند الصنجيلي الدعوة ، خشي جودفري أن ياجأ ريموند إلى إنشاء إمارة لنفسه على شاطئ فلسطين في مواجهة بيت المقدس ، مما يحرم دولة بيت المقدس الناشئة من شواطئها الطبيعية على البحر ، وبالتالي يقطع الصلة بينها وبين الغرب . لذلك طلب جودفري من ريموند أن يتخلى عن عسقلان لأنها ستكون تابعة لبيت المقدس ، فاستاء ريموند الصنجيلي وفضل أن تبقى عسقلان في أيدي المسلمين عن أن يستولى عليها جودفري . وهكذا انسحب ريموند ، وحرص بقية الأمراء على الانسحاب معه ، بعد أن أوعز إلى أهل عسقلان

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 175.

(2) Setton : op. cit; I, p. p. 337.

(3) Runciman : op. cit; I, p. 297.

بإثبات والمقاومة . أما جودفرى فقد وجد نفسه وحيداً أمام عسقلان التى اشتد أهلها فى المقاومة ، فاضطر إلى أن ينسحب بدوره من أمامها<sup>(١)</sup> .

وفى تلك الأثناء انصرف ريموند الصنجيلى نحو أرسوف محاولاً الاستيلاء عليها عن طريق تأمين أهلها ، ولكن جودفرى ظل واقفاً له بالمرصاد ، فلحق به وأصر على أن أرسوف هى الأخرى تتبع بيت المقدس . وللمرة الثانية انسحب ريموند الصنجيلى نحو الشمال بعد أن حرض أهل أرسوف على المقاومة وعدم الاستسلام لجودفرى<sup>(٢)</sup> . ومن هذا يتضح كيف أدى انقسام الصليبيين على أنفسهم ، والمنافسة بين زعمائهم ، إلى عدم تمكينهم عندئذ من الاستيلاء على موانئ فلسطين ، بل إن بلداً مثل عسقلان كان من الممكن أن يستولى عليه الصليبيون فى سنة ١٠٩٩ لم يستطيعوا امتلاكه بعد ذلك إلا سنة ١١٥٣ !! . وطوال تلك السنوات ظلت عسقلان قاعدة للقوات المصرية ، تخرج منها الحملات للاغارة على بلاد الصليبيين القريبة . وربما كان المسئول عن كل ذلك هو تقاعس الصليبيين عن إقامة ملكية صليبية مهيبة الجانب فى بيت المقدس ، يطيعها الجميع ويأتمرون بأمرها<sup>(٣)</sup> .

ولم يلبث جودفرى أن ارتاح من منافسة بقية الأمراء المناوئين بعد أن أبحر كثير من الصليبيين عائدين إلى الغرب ، معتقدين أنهم أوفوا بتسميمهم الصليبي وأن مهمتهم انتهت بالاستيلاء على بيت المقدس<sup>(٤)</sup> . وعلى رأس هؤلاء كان روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز ، ومعهما جميع أتباعهما . أما الموانئ الهامة فى أواسط بلاد الشام — وهى عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس —

---

(1) Raoul de Caen (Hist. Occid, III). p. 703.

ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين لم يتخلوا عندئذ عن عسقلان إلا بعد أن « بذل لهم أهلها قطعة اثني عشر ألف دينار وقيل عشرين ألف دينار سم عادوا إلى القدس والله أعلم » .

(2) Albert d'Aix, p. 498.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 180.

(4) Stevenson : op. cit, p. 36.

قتد بقيت في أيدي المسلمين ، إذ سيطر الفاطميون أو أتباعهم على الموانئ الأربعة الأولى ، في حين كانت طرابلس في قبضة بني عمار . ومع ذلك فإنه يبدو أن موقعة عسقلان كان لها رد فعل قوى ، بحيث لم تتردد السلطات الإسلامية الحاكمة في تلك الموانئ في تقديم كافة التسهيلات للصليبيين ليحصلوا على ما يلزمهم من مواد تموينية ، وذلك قبل أن يستولى الصليبيون على جبلة واللاذقية<sup>(١)</sup> .

أما عن ريموند الصنجيلي ، فبعد أن وصل إلى اللاذقية ، اختار أن يبقى في شمال الشام ليعمل — بمساعدة حلفائه البيزنطيين — على الحد من قوة بوهيموند أمير أنطاكية . ومهما يكن من أمر ، فإنه لا يخفى علينا أن عودة كثير من الصليبيين إلى الغرب الأوربي في تلك المرحلة — أي عقب سقوط بيت المقدس مباشرة — ترك الدولة الجديدة التي ولدت في الشرق في حاجة ماسة إلى الرجال والمقاتلين ، في الوقت الذي أحاط بها أعداؤها من كل جانب<sup>(٢)</sup> .

### تذكر وامتداد إقليم الجليل :

وأخيراً لم يبق إلى جانب جودفرى بوايون سوى تنكرد؛ ذلك الأمير النورمانى الذى لم يتعجل العودة إلى إيطاليا وظل يعمل في فلسطين تحت رئاسة جودفرى . وكان أن عهد جودفرى إلى تنكرد بفتح إقليم الجليل واحتلاله ، على أن يعطيه إياه ويصبح أميراً عليه تابعاً لجودفرى<sup>(٣)</sup> .

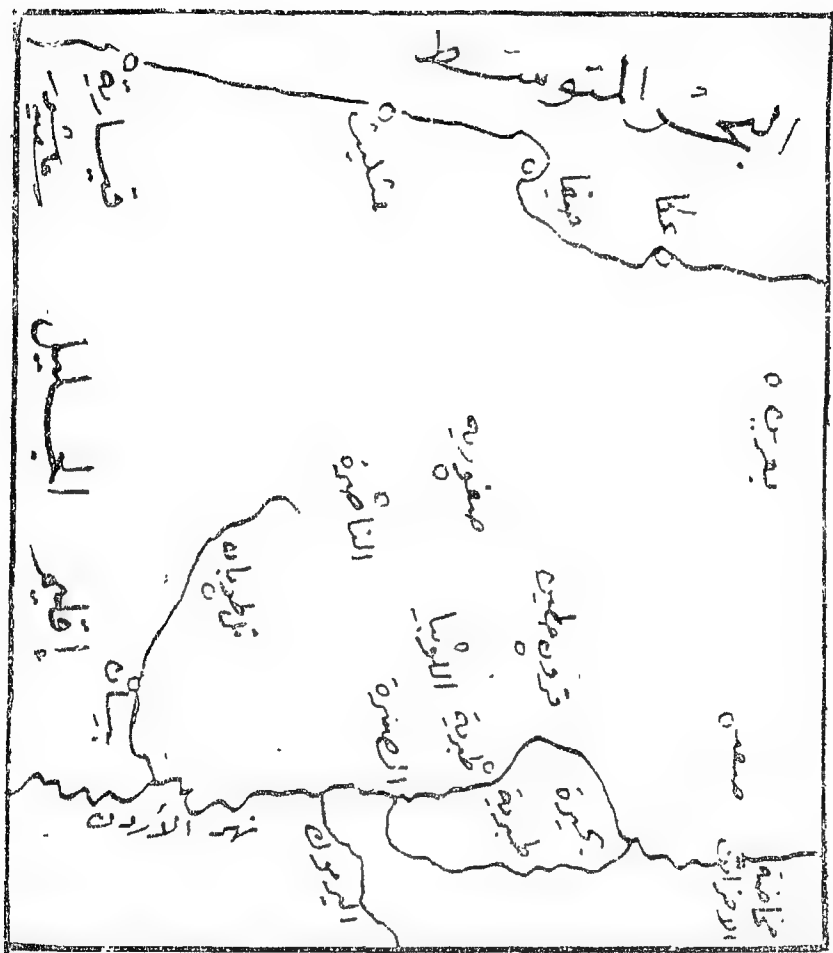
وكان إقليم الجليل قبيل وصول الصليبيين إلى فلسطين موضع نزاع وتنافس بين دقاق صاحب دمشق والفاطمين ، ولكن دقاق لم يتمكن من احتلال ذلك

---

(1) Albert d'Aix, p. 499-500.

(2) Iorga : Hist. des Croisades, p. 67.

(3) Raoul de Caen, p. 703 Guillaume de Tyr, I, p. 384.



الإقليم عقب هزيمة الفاطميين في عسقلان ، مما سهل مهمة تنكرد<sup>(١)</sup> . وهكذا استطاع الصليبيون فتح إقليم الجليل بسرعة ، على الرغم من قلة المقاتلين وحاجة تنكرد إلى الرجال ، فاحتلوا مدينة طبرية في سهولة بعد أن هرب منها أهلها المسلمون وظلت فيها أقلية من السريان ، ثم حصن تنكرد مدينة طبرية تحصيناً قوياً حتى يتخذها مركزاً لإمارته الجديدة<sup>(٢)</sup> . وفي الجنوب الشرقي من الجليل احتل تنكرد بيسان ، وهي مدينة حصينة ذات موقع هام يمكن الإشراف منها على الضفة الشرقية لنهر الأردن . وطوال تلك الأثناء لم يكف تنكرد عن القيام بإغارات عدوانية على البلدان الإسلامية المجاورة ؛ فتارة يعتدى على الجهات التابعة لسلاجقة دمشق ؛ وأخرى يعتدى على المدن والقرى التابعة للدولة الفاطمية<sup>(٣)</sup> . على أن تناقص الصليبيون يوماً بعد يوم جعل موقف جودفرى وتنكرد في غاية الخطورة ، إذ لم يبق لهما سوى بضعة مئات من الجند ؛ في حين أخذ الباقون ييجرون بالجملة عائدين إلى بلادهم في غرب أوروبا . وهكذا عاشت دولة بيت المقدس الصليبية في تلك المرحلة على ذكرى انتصارات الصليبيين في أنطاكية وبيت المقدس وعسقلان ، فلم تستطع أن تجعل احتلالها لفلسطين فعلياً ، واكتفى الصليبيون بوضع حاميات في المدن الرئيسية مثل بيت المقدس وبيت لحم والخليل والرملة واللد ويافا ونابلس وبيسان وطبرية والناصرية . أما الأراضي والقرى والمزارع المحيطة بتلك المدن ، فقد ظلت في أيدي أصحابها العرب . ويمكن تشبيه المراكز الصليبية في الشام عندئذ بالجزر الصغيرة المتناثرة وسط محيط واسع من الأعداء الذين ظلوا يتحينون الفرصة المناسبة للانتقام واسترداد حقوقهم المسلوبة من الدخلاء الغاصبين<sup>(٤)</sup> .

(1) Runciman : op. cit, I, p. 304.

(2) Albert d'Aix, p. p. 217—218.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. 384.

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 181.

## الاتفاقيات التجارية بين الصليبيين وموانئ فلسطين العربية :

لم يكن للدولة التي أقامها الصليبيون في بيت المقدس سوى منفذ واحد على البحر ، هو ميناء يافا . ولما كانت هذه الدولة محاطة بأعداء من الداخل ، فقد صار لزاما على جودفرى بوايون أن يقوى الصلة بين بيت المقدس والعالم الخارجي عن طريق البحر ، ولذلك أخذ يفكر في الاستيلاء على أرسوف - شمالي يافا - وهي التي لم يستول عليها الصليبيون في أغسطس سنة ١٠٩٩ نتيجة للنزاع بين جودفرى وريموند الصنجيلي<sup>(١)</sup> . على أن إمكانيات جودفرى كانت قد ضعفت كثيراً ، وتناقص رجاله بشكل ماحوظ ، في الوقت الذي افتقر إلى أسطول يحكم الحصار على أرسوف من ناحية البحر . ولذلك فشلت الحملة الصغيرة التي أرساها جودفرى في ديسمبر سنة ١٠٩٩ الاستيلاء على أرسوف وعادت تبحر أذيل الفشل مما يشهد على مدى ضعف الصليبيين في بيت المقدس عندئذ<sup>(٢)</sup> .

أما جودفرى فاكتمى بأن ترك في الرملة - على مقربة من أرسوف - بضعة مئات من رجاله لتهديد أرسوف بين حين وآخر ، وشن غارات عدوانية على ضواحيها . وكان أن استطاعت هذه القوة الصليبية أن تظفر في فبراير سنة ١١٠٠ ببعض أهالي أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السامي في مزارعهم القريبة ، فانتقم الصليبيون من أسرى المسلمين انتقاما وحشيا بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم<sup>(٣)</sup> . ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية ، فإن أهلها أرسلوا سفارة عاجلة إلى الوزير الأفضل لطلب المعونة ، وعندئذ اكتمى الأفضل بأن بعث إليهم قوة صغيرة من ثلثمائة جندي . وقد تشجع أهل أرسوف

(1) Stevenson : op. cit, p 39.

(2) Albert d'Aix, p. 507-511.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 182

عند وصول تلك النجدة إليهم عن طريق البحر وشرعوا في القيام بهجوم مضاد ضد الصليبيين ، ولكنهم وقعوا في كمين نصبه الصليبيون في مارس سنة ١١٠٠ ، مما جعل أهل أرسوف يؤمنون بعدم جدوى الحماية الفاطمية ، وأنه لا مفر من الدخول في تبعية الصليبيين ، حتى يتمكنوا من فلاحه أراضيهم القريبة . وهكذا انتهى الأمر بأن ذهبت سفارة من أهل أرسوف إلى جودفرى بوايون في أواخر مارس سنة ١١٠٠ تحمل إليه مفاتيح أبواب المدينة وقلاعها ، وتعرض عليه الدخول في تبعية ودفع جزية مالية رمزاً لهذه التبعية<sup>(١)</sup> .

وفي تلك الأثناء ، دأب الصليبيون منذ يناير سنة ١١٠٠ على العمل في تحصين يافا وتقوية استحكاماتها . وساعد جودفرى في هذه المهمة الأسطول البيزى<sup>(٢)</sup> . ولم تلبث يافا بعد تحصينها أن صارت لها السيطرة على شاطئ فلسطين بأكملها ، كما فاقت في قوتها مينائى عسقلان وعكا التابعين للدولة الفاطمية<sup>(٣)</sup> . وبعبارة أخرى فإن يافا أصبحت مركزاً لنشاط تجارى وحربى كبير بعد أن صارت الميناء الرئيسى لدولة بيت المقدس الصليبية ، فتمصدها السفن التجارية من مختلف أنحاء العالم المسيحى ، وبخاصة من جنوا والبندقية وبيزا ، لإحضار الحجاج من ناحية وإمداد بيت المقدس بما احتاجت إليه من إمدادات من ناحية أخرى<sup>(٤)</sup> .

على أن تحصين يافا على ذلك الوجه سبب متاعب خطيرة للممتلكات التابعة للدولة الفاطمية بجنوب فلسطين ، إذ اتخذ الصليبيون يافا مركزاً لشن إغارات مستمرة على تلك الممتلكات . وهكذا بدأ اليأس يدب في قلوب أهل المدن الإسلامية

(1) Albert d'Aix p. p. 513-514.

(2) Heyd : op. cit. I, p. 135.

(3) أشار ابن الأثير إلى جهود جودفرى في تحصين يافا فقال : إنه «عمر مدينة يافا وسلمها إلى قصص من الفرنج اسمه طنكرى (تكرد)» . الكامل : حوادث ٤٩٤ هـ .

(4) Grousset : Hist. des Croisades. I. p. 183. &

Heyd : op. cit. I, p. 136.

في فلسطين بعد أن تأكدوا من عجز الدولة الفاطمية عن حمايتهم ، فلم تمض مدة طويلة حتى أعلن حكام عسقلان وقيسارية وعكا تبعيتهم لدولة الفرنجة ، ودفعوا جزية مشتركة شهرية قدرها خمسة آلاف دينار رمزاً لتلك التبعية ، فضلاً عما تعهد المسلمون بتقديمه من مواشى وغللال وزيت وغيرها من الفروض العينية<sup>(١)</sup>. كذلك سارع كثير من مشايخ العرب وزعمائهم في الجهات الداخلية إلى عقد مثل تلك الاتفاقيات الودية مع حكومة بيت المقدس الصليبية ، ليضمنوا سلامة قوافلهم ومتاجرهم. وهنا نلاحظ أن جميع تلك الاتفاقيات التي عقدها المسلمون في فلسطين مع جودفري حاكم بيت المقدس سنة ١١٠٠ — سواء تلك التي أبرمتها المدن الساحلية أو شيوخ القبائل الداخلية — كان لها جانبها التجارى ، فضلاً عن الجانب السياسى ، مما جعل البضائع المختلفة — من توابل وغللال وبيض وطيور ومنسوجات ومواشى — تتدفق على بيت المقدس ويافا ؛ وبذلك توافر لدولة الصليبيين في بيت المقدس قسط وافز من الاستقرار والثبات<sup>(٢)</sup>.

على أنه يلاحظ أن هذه الاتفاقيات السياسية والتجارية التي عقدت بين العرب والصليبيين في فلسطين ، والتي حققت قسطاً من السلام المؤقت بين الطرفين ؛ لم تمتد لتشمل شئون البحر والملاحة . من ذلك ما ذكره بعض المؤرخين من أن الصليبيين حرموا على عرب فلسطين أى تبادل تجارى عن طريق البحر مع بقية العالم الإسلامى . واستطاع الصليبيون أن ينفذوا خطتهم هذه عن طريق بعض الاتفاقيات التي عقدها مع الجمهوريات الإيطالية صاحبة التفوق البحرى في البحر المتوسط عندئذ<sup>(٣)</sup>. وقد ترتب على ذلك عدم إمكان حصول موانئ فلسطين العربية على ما يلزمها من إمدادات ومؤن من دمياط والاسكندرية ؛ مما أدى

---

(1) Aldert d'Aix, p. 515.

(2) Albert d'Aix, p. 516.

(3) Hebd: op. cit. I, p. p. 134 - 136.



إلى إضعافها تم سقوطها في نهاية الأمر دون عناء في أيدي الصليبيين. وفي الوقت نفسه أفاد الصليبيون والتجار الإيطاليون من تلك السياسة لأنهم ضمنوا تركيز النشاط التجاري في بلاد الشام في أيديهم<sup>(١)</sup>. وكانت السفن الغربية التي تتولى حراسة شواطئ فلسطين تصيد كافة المراكب الإسلامية الوافدة من الاسكندرية ودمياط وتونس ، لتصادرها وتقتل بحارتها . ومع ذلك فإن تلك الاعتداءات البحرية على السفن الإسلامية لم تعكر صفو السلام الذي تم بين المسلمين والصليبيين سنة ١١٠٠ ، فأخذ عرب عسقلان يذهبون في أمان إلى مناطق الفرنجة للمتاجرة ، في حين كان المسيحيون يقصدون عسقلان لقضاء مطالبهم دون خوف<sup>(٢)</sup>.

### سيطرة الفرنجة على إقليم السواد :

وهكذا غدا جودفرى بوايون على درجة من القوة وثبات المركز مكنته — بمساعدة تنكرد — من بسط سيطرته على إقليم السواد (سواد طبرية) ، شرق بحيرة طبرية ، وهو الإقليم الذي كان تابعا لدقاق ملك دمشق . ذلك أن تنكرد استطاع في مايو سنة ١١٠٠ أن يخرج على رأس مائتين من فرسان الصليبيين وألف من مشاتهم ليقوم باغارات مدمرة في إقليم السواد ، استمرت ثمانية أيام وأنزلت كثيراً من الأضرار — في الأرواح والأموال — بأهل الإقليم من العرب<sup>(٣)</sup> . وعندما طلب أمير السواد — وهو الذي أطلق عليه الصليبيون اسم المزارع السمين — النجدة من سيده دقاق ملك دمشق ، أمدّه الأخير بنحو خمسمائة فارس ، فاستطاعت هذه القوة الصغيرة من الدماشقة أن تهاجم مؤخرة

(1) Runciman : op cit; I p. 310.

(2) Albert d'Aix, p. 516.

(3) Grousset : Hist des Croisades, 1. p. 186.

قوات تنكرد وجودفرى وأن تطلق سراح من لديهم من أسرى المسلمين . غير أن الدماشقة لم يستطيعوا مواصلة هجومهم فانسحبوا عائدين من حيث أتوا ، في حين عرج تنكرد على مدينة طبرية ليستريح فيها بضعة أيام قبل أن يقوم بهجومه التالى الذى لم يكتف فيه بتخريب إقليم السواد ، وإنما أوغل حتى اقترب من دمشق نفسها<sup>(١)</sup> .

وكان أن أرسل تنكرد سفارة من ستة فرسان إلى دمشق ، تحمل إنذاراً إلى دقاق باعتراف المسيحية أو ترك دمشق فوراً ، فاستاء دقاق من تلك الجرأة ورد عليه بأن أنذر الرسل بالقتل إن لم يعتنقوا الإسلام ؛ فقبل أحدهم ذلك وأعدم الخمسة الباقون . وعندما علم جودفرى وتنكرد بذلك ، خرجا على رأس جميع قواتهما ، واستمر الصليبيون يعيشون فساداً فى الجهات والضيايع والمزارع المحيطة بدمشق قرابة أسبوعين . وعندئذ أدرك أمير السواد أن دقاق عاجز عن حماية فاعترف بالتبعية لتنكرد ووافق على دفع جزية له<sup>(٢)</sup> .

وعند عودة جودفرى بوايون إلى بيت المقدس عن طريق الساحل مارا بعبكا وقيسارية ، أسرع أمير قيسارية — بوصفه تابعا لجودفرى — إلى إقامة وليمة حافلة له . وهكذا أصبحت دولة بيت المقدس الصليبية بمثابة ملكية فرنجية إقطاعية ، يحوطها عدد من الإمارات الإسلامية التابعة لها<sup>(٣)</sup> .

---

(1) Runciman : op. cit, I, p. 310—311.

(2) Albert d'Aix, p. p. 518—519.

(3) Grousset : op. cit, p. 187.

## الفصل الرابع

### بطرقيّة بيت المقدس

#### دايمبرت البيزى والحروب الصليبية :

كان من المتوقع عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس أن تقوم بها حكومة دينية يرأسها أحد رجال الكنيسة ، حيث أن البابوية هي التي دعت للحرب الصليبية وحددت للصليبيين الهدف الذي وصلوا إليه فعلا . ولكن ظهر أنه من الصعب تحقيق هذه الفكرة بعد وفاة المندوب البابوي أدهمار ، إذ لم توجد بين صفوف الصليبيين بالشام شخصية كنسية لها من المكانة والنفوذ ما يساعد على تحقيق ذلك الحلم . ومع ذلك فإن تلك الفكرة لم تمت تماما ، لاسيما وأن جودفري بوايون لم يتخذ لقب ملك وإنما اكتفى بلقب « حامي بيت المقدس » ، وبذلك استبعدت على الأقل فكرة قيام ملكية علمانية في بيت المقدس . وكان ذلك هو الموقف في فلسطين عندما وصل إلى الشام دايمبرت رئيس أساقفة بيزا<sup>(١)</sup> .

والمعروف أن البيزانة قاموا بدور ملحوظ في الحروب الصليبية منذ بدايتها ، فشاركوا مشاركة فعالة في حرب المسلمين بأسبانيا طوال القرن الحادى عشر<sup>(٢)</sup> . ثم كان أن وقف دايمبرت رئيس أساقفة بيزا إلى جانب البابا أوربان الثانى فى مشروعه الصليبي الكبير لاسترداد الأراضى المقدسة بالشرق . وسرعان ما أثبت دايمبرت كفاية سياسية ومهارة فادرة جعلته يحتل مكانة ظاهرة في

(1) Michaud : op. cit, II, p. 9

(2) Heyd : op. cit, I, p. p, 121 - 122.

الأحداث التي أخذت تجري عند نهاية القرن الحادى عشر . ذلك أنه قام بدور المندوب البابوى فى الحرب الصليبية التى شنها الفونس السادس ملك قشتالة على المسلمين فى أسبانيا . ويبدو أنه نجح فى القيام بذلك الدور، الأمر الذى جعل البابا أوربان الثانى يعينه مندوباً بابوياً فى الأراضى المقدسة بدلاً من أدهمار الذى توفى فى أنطاكية ، وذلك على الرغم مما أحاط بدايمبرت من شائعات عن عدم استقامته وانحراف مسلكه<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن خرج دايمبرت على رأس أسطول يبنى من مائة وعشرين سفينة فى صيف سنة ١٠٩٩ متجهاً نحو الشام . ومن الواضح أن جمهورية بيزا كانت تقف بأجمعها خلف دايمبرت ، إذ رأى البيازنة فى المهمة الجديدة التى أسندت إليه فرصة طيبة للحصول على قسط من الامتيازات ، ولا سيما إذا استطاع دايمبرت أن يسبق الصليبيين إلى فتح بيت المقدس . ولكنه لم يكد يصل على رأس سفنه إلى اللاذقية حتى كان كل شىء قد انتهى باستيلاء الصليبيين فعلاً على بيت المقدس فى ١٥ يوليو<sup>(٢)</sup> .

ومع ذلك فإن بوهيموند النورمانى أمير أنطاكية أسرع إلى الترحيب بالبيازنة، هو أراد أن يستغل تلك القوة الكبيرة فى بسط نفوذه على الأطراف الشمالية لبلاد الشام ؛ لاسيما وأن بوهيموند كان مفتقراً إلى قوة بحرية تمكنه من تقويض النفوذ البيزنطى من الجهات الساحلية<sup>(٣)</sup> ، حيث استطاع بعض حلفاء الدولة البيزنطية مثل الأمير الإنجليزى إدجار إيثلنج Edgar Aetheling وريموند الصنجبلى السيطرة على اللاذقية . لذلك عقد بوهيموند اتفاقاً مع دايمبرت للاستيلاء على اللاذقية ذات الموقع البحرى الهام . وتعتبر هذه الاتفاقية الحلقة الأولى من سلسلة الاتفاقيات

(1) Runciman I, p. 299.

(2) Grunetset : op. cit, I, p. 191

(3) Albert d'Aix, p. p. 500—501.

التي عقدتها بيزا مع الصليبيين في الشرق لتحقيق مكاسب واحتكارات تجارية<sup>(١)</sup>.

وفي ذلك الوقت وصل ريموند الصنجيلي وروبرت دي فلاندرز وروبرت النورمانى إلى جبلة ، فاستاءوا استياء بالغاً لهجوم بوهيموند ودايمبرت على اللاذقية ، لأن ريموند بالذات كره أية زيادة لنفوذ بوهيموند ، فضلاً عما يسببه الهجوم على اللاذقية من تعكير صفو العلاقات بين الصليبيين والإمبراطورية البيزنطية ؛ في الوقت الذي كان الصليبيون دائماً بدأفى حاجة إلى معونة البيزنطيين<sup>(٢)</sup> ولم يكن من الحكمة مطلقاً أن يبدأ المندوب البابوى دايمبرت أعماله في الشرق بالعدوان على الإمبراطورية البيزنطية ، مما يزيد شقة الخلاف بين الشرق والغرب المسيحيين ، وبين الدولة البيزنطية والصليبيين في الشام ، ثم بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية .

ولإزاء ذلك الاستياء الذى أبداه ريموندوزميلاه ، اضطربوهيموند ودايمبرت إلى رفع الحصار عن اللاذقية ، فدخلها ريموند وأعوانه ، حيث رحب به الأهالى ورفعوا علمه إلى جانب علم الأمبراطور البيزنطى<sup>(٣)</sup> . وبعد ذلك أبحر روبرت دي فلاندرز وروبرت النورمانى عائدين إلى الغرب عن طريق القسطنطينية ، في حين بقى ريموند الصنجيلي في اللاذقية<sup>(٤)</sup> .

---

(1) Heyd : op. cit., I. p. 135.

(2) Chalandon : Alexis Comnène, p. 218.

3) & uciman : op. cit., I. p. 301.

(4) Guibert de Nogent, p. 232.

### دايمبرت وبوهيموند في بيت المقدس

على أنه يلاحظ أن بوهيموند الأنطاكي لم يحقق حتى ذلك الوقت قسمه الصليبي الخاص بزيارة بيت المقدس ، لذلك لم يسكد يصل إلى أنطاكية عائداً من حصار اللاذقية حتى اصطحب دايمبرت واتجه الإثنان نحو بيت المقدس . ولا يستبعد أن يكون بوهيموند — بعد أن لمس المساعدة التي قدمها له البيازنة ضد البيزنطيين عند اللاذقية — قد وعد دايمبرت بمساندته في المناداة به بطرقا على بيت المقدس . ومن يدري ، فقد تكون البطريقة هي الخطوة الأولى للوصول بدايمبرت إلى حكم بيت المقدس نفسها وإقامة حكومة ثيوقراطية فيها ، ولا سيما وأن جودفري لم يعتمد في حكمه على حق وراثي شرعي ، فضلا عن ضعفه واعتلال صحته . ولما كان بلدوين أمير الرها قد شغل هو الآخر بإمارته عن الحج إلى بيت المقدس ، فقد دعاه بوهيموند لمصاحبته ، هو ودايمبرت ، فوعد بالالحاق بهما <sup>(١)</sup>

وكان أن خرج بوهيموند ودايمبرت من اللاذقية ، فاتبعوا الطريق الساحلي حتى يكونا على مقربة من الأسطول البيزي الذي سار بجذائهما . وبعد أن مرا بجبله التي كانت تابعة للأمير طرابلس ، أدركا بانياس ، حيث التقى بوهيموند ودايمبرت ببلدين ، ثم استأنف الأصحاب الثلاثة سيرهم جنوبا ، ومعهم عدد كبير من أتباعهم الرجال والنساء ، حتى قدر موكبهم ببضعة آلاف <sup>(٢)</sup> . وقد مروا بأنطارطوس ، وصادفوا في طريقهم كثيراً من المتاعب بسبب اشتداد البرد في جبال لبنان من جهة ، وبسبب الشعور العدائي الذي قوبلوا به والذي حرمهم من الحصول على ما يلزمهم من تموين من جهة أخرى . وهكذا حتى وصلوا

(1) Setton : op. cit I, p. 377.

(2) Falcher of Chartres, p. , 322 — 326.

إلى طرابلس فقدم لهم ابن عمار صاحب المدينة ما كانوا في حاجة إليه من ميرة وغذاء<sup>(١)</sup>. على أنه لا يوجد في المراجع ما يثبت أن حكام بيروت وصور وعكا التابعين للخلافة الفاطمية — فعلوا مثما فعل صاحب طرابلس ، فتعرض موكب الصليبيين مرة أخرى للعناء بسبب صعوبة الحصول على التموين ، واستمر الأمر على ذلك حتى وصلوا إلى بيت المقدس في ٢١ ديسمبر سنة ١٠٩٩<sup>(٢)</sup>.

وقد سر جودفرى عندما رأى ذلك العدد الضخم من الصليبيين يصلون إلى بيت المقدس ، لأنه كان فعلا في حاجة ماسة إلى الرجال ، وصار يأمل في إقناع بعض أولئك الصليبيين بالبقاء في بيت المقدس بعد الحج . ويبدو أنه نجح إلى حد كبير في ذلك، إذ اختار بعض الصليبيين أن يظلوا في خدمة جودفرى عقب عودته بوهيموند وبلدوين إلى الشمال<sup>(٣)</sup>.

على أن وصول بوهيموند وبلدوين ودايمبرت إلى بيت المقدس أمر له أهمية وخطورة في تاريخ الحركة الصليبية ، لأن هذا الحدث يشير إلى نهاية الفترة القلقة التي أعقبت وصول الصليبيين إلى الشام ، وهي الفترة التي تطلبت وضع الفتوح الصليبية في إطار معين ثابت . هذا إلى أن وصول أولئك الزعماء الثلاثة سويا أثار الشعور بوجود نوع من الترابط أو التفاهم بينهم ، فضلا عن أن ظهور دايمبرت والبيازنة على مسرح بيت المقدس جاء لإعلانا لسيادة الغربيين على البحر ودليلا على أن الصلة بين الفرنجة في الشام وبين العالم اللاتيني الغربي لن تنقطع<sup>(٤)</sup>.

---

(1) Archer : The Crusades, p. p. 98—99.

(2) Fulcher of Chartres, I, p. p. 326—332.

(3) Runciman : op, cit, I, p. 303,

(4) Grousset : Hist, des Croisades, I, p 193.

### دايمبرت بطريرك بيت المقدس :

وكانت المشكلة الأولى التي صار على زعماء الصليبيين حلها هي تحديد العلاقة بين جودفرى حامى بيت المقدس من ناحية ، وأميرى أنطاكية والرها من ناحية أخرى . فهل من حق حاكم بيت المقدس أن يباشر نوعاً من الأولوية والراسية على أميرى أنطاكية والرها ؟ إن جودفرى بوايون لم يتمتع بقلب ملك ، وإنما اكتفى — كما سبق أن ذكرنا — بقلب متواضع هو حامى بيت المقدس ؛ وهذا القلب فيما يبدو كان لا يمكن أن يخوله حق الزعامة على بنية الأمراء الصليبيين بالشام ؛ مما جعل العلاقة بين الجانبين تتميز بنوع من الغموض والميوعة حتى قيام مملكة بيت المقدس الصليبية فيما بعد <sup>(١)</sup> .

على أنه يلاحظ من جهة أخرى أن مجيء دايمبرت إلى بيت المقدس عاقب — ولو إلى حين — التطور نحو قيام ملكية صليبية فيها . حقيقة إن هذا التطور كان طبيعياً وأمرأ ضرورياً في دولة اعتمدت في بقائها على الحرب وعاشت في خوف دائم بسبب شعورها بأنها غريبة وسط مجتمع معاد يحيط بها . ولكن كان لابد لكي يتم هذا التطور من أن يكون بطرق بيت المقدس ضعيفاً ، حتى لا يقف في طريق السلطة العلمانية ونموها . وهنا تبدو أهمية وصول دايمبرت في ذلك الوقت بالذات ، لأنه أعلن في بيت المقدس أن انتخاب أرثولف مالدورن بطرقاً عمل باطل وغير قانونى ، مما أدى إلى عزله ، وشغور كرسي بطريركية بيت المقدس . ومن الواضح أن دايمبرت لا بد وأنه رسم تلك الخطوة مع بوهيموند أثناء الطريق من أنطاكية إلى بيت المقدس ، فاتفقا على الضغط على جودفرى الذى كان محتاجاً إلى معونة البيازنة البحرية من ناحية وإلى مساعدة بعض الفرسان الذين يمكن أن يمدّه بهم بوهيموند من ناحية أخرى <sup>(٢)</sup> .

(1) Richard : Le Royaume Latin de Jérusalem, p. p. 92 — 93.

(2) Setton : op. cit. I, p. p. 377.



وهكذا أتاحت الفرصة لدايمبرت ، فاعتمد على رجاله البيازنة فضلاً عن بوهيموند، حتى تم انتخابه بطرقاً على بيت المقدس في أواخر ديسمبر سنة ١٠٩٩<sup>(١)</sup>. ولم يلبث أن رجع جودفري وبوهيموند أمام البطرق الجديد — مثلما رجع الأفضال الإقطاعيون أمام سيدهم — طالبين منه تقليدهم حكم بيت المقدس وأنطاكية على التوالي<sup>(٢)</sup>. ومعنى ذلك أن بطرق بيت المقدس أصبح السيد الأعلى في البلاد المقدسة ، وممثل المسيح فيها ، وذلك بوصفه بطرقاً على تلك المدينة من ناحية ، ومنذوباً بابوياً اختاره البابا — وهو خليفة القديس بطرس — لينوب عنه في الأرض المقدسة من ناحية أخرى . وبذلك صار على بقية الأمراء العلمانيين أن يدينوا له بالطاعة والاحترام وأن يتسلموا منه تقاليدهم الخاصة بقيامهم في حكم إماراتهم . ثم إن بطرق بيت المقدس الجديد — وهو الرجل القوي الذي ساندته أساطيل بيزا وجيوش بوهيموند — لم يجد أمامه في بيت المقدس أميراً علمانياً قوياً يحده من نفوذه ويوقفه عند حده ؛ لأن جودفري نفسه كان معروفاً بضعفه وطيبته وحرصه على استرضاء الكنيسة ورجالها ، وربما ظن أن هذا هو الطريق الوحيد لإكساب حكمه صبغة شرعية ثابتة<sup>(٣)</sup>. وخلاصة القول، فإن اختيار دايمبرت بطرقاً على بيت المقدس جاء مظهرًا لقيام حكومة ثيوقراطية جديدة في المدينة المقدسة<sup>(٤)</sup>. وبعد أن تمت تلك الخطوة التي غيرت وجه الدولة الصليبية الجديدة في بيت المقدس ، عاد بلدوين وبوهيموند إلى أمارتيهما في الشمال في أول يناير سنة ١١٠٠. وقد حاول دقاق ملك دمشق أن يظفر بالأميرين عند بعلبك ، ولكنهما أفلتا من قبضته وعادا سالمين<sup>(٥)</sup>. وربما لم يكن لهذه المحاولة في حد ذاتها أهمية سوى أنها

(1) *Gesta Francorum*. (Hist. Occid., III, p. 519.

(2) Albert d'Aix, p. p 511-512 & Guillaume de Tyr, p. 387.

(3) Michaud : op. cit., II, p. p 9-10.

(4) Grousset : op. cit., I, p. 195.

(5) Guillaume de Tyr p. p. 387-388

نهت الصليبيين إلى أن بقاء دمشق وعكا وغيرها من المدن الواقعة في وسط بلاد الشام بأيدي المسلمين ، كان يشكل خطراً جسيماً على الصليبيين ، ويفصل بين الإمارات الصليبية في شمال الشام ، وبين القدس في الجنوب . أما بوهيموند فقد كسب كثيراً من وراء الدور الذي قام به في مساعدة دايمبرت ، لأنه ضمن تأييد بطرق بيت المقدس له في حالة تعرضه لهجوم من جانب الإمبراطور البيزنطي . وعلى أساس هذا التأييد ، اتخذ بوهيموند لنفسه لقب « أمير » أنطاكية ، كما اتخذ ابن أخته تنكرد لقب « أمير » الجليل ، إشارة منه إلا أنه لا يتبع جودفرى ، وإمبادايمبرت<sup>(١)</sup> .

ولم يلبث أن استحكم النزاع في بيت المقدس بين جودفرى ودايمبرت في فبراير سنة ١١٠٠ ، وذلك عندما أصر الأخير على أن يأخذ جزءاً من يافا وجزءاً من بيت المقدس<sup>(٢)</sup> . وقد وافق جودفرى على ذلك ، بل لقد وافق على أن يستولى البطرق على حكم المدينتين بعد وفاته أو بعد أن يستولى جودفرى على مدينتين بدلها من المسلمين . ولكن دايمبرت كان لا يستطيع الانتظار وأخذ يتعجل القضاء على كل أثر لنفوذ السلطة العلمانية في بيت المقدس<sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن جودفرى بوايون لم يلبث أن مرض بالحمى ، ثم مات بعد بضعة أشهر ، مما أثار مشكلة اختيار من يحل محله في المطالبة بحقوقه ولساطاته في بيت المقدس<sup>(٤)</sup> .

(1) Runciman : op. cit, I, p. 306.

(2) Michaud : op. cit; II, p. 10.

(3) Guillaume de Tyr, p. p. 388 - 390.

(٤) أجمعت المراجع الغربية والصليبية على أن جودفرى توفي بالحمى ، وهذا يخالف الرواية التي ذكرها ابن الأثير وهي أنه مات مقتولاً بسهم أصابه أثناء حصار عكا (الكمال ؛ حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .

## تشكرد وفتح صيفاً :

أما عن المسلمين في المدن الساحلية ، فقد قاموا في تلك الأثناء بإغارات من أرسوف وعسقلان على المراكز الصليبية القريبة . ولم تقو الحامية التي تركها الصليبيون في الرملة على الصمود أمام تلك التهديدات ، فأسرت إلى طلب المعونة من جودفري . وقد أسرع جودفري بوايون — بمساعدة البيازنة — إلى تحصين يافا في أوائل سنة ١١٠٠ . ويبدو أن تلك التجهيزات التي قام بها الصليبيون ، بالإضافة إلى مارآه المسلمون من مجيء بوهيموند ودايمبرت إلى بيت المقدس على رأس قوة كبيرة ، هي التي جعلت أمراء أرسوف وعسقلان وقيسارية وعكا يسارعون إلى طلب الصلح مقابل أموال معينة تعهدوا بدفعها <sup>(١)</sup> .

ولم يلبث أن وصل إلى يافا في يونيو سنة ١١٠٠ أسطول بندق من مائتي سفينة . ومن الواضح أن هذه الحملة البندقية الضخمة إنما أتت إلى الشرق للمشاركة في الحرب الصليبية من ناحية ولتحقيق ما يمكن تحقيقه من مكاسب للبندقية في الشرق من ناحية أخرى ، وذلك أسوة بما فعلته بقية الجمهوريات الإيطالية التجارية في عصر الحروب الصليبية <sup>(٢)</sup> . وقد عرض البنادقة خدماتهم على دولة بيت المقدس الصليبية للمساهمة في حرب المسلمين ، بشرط أن يكون لهم الثلث في كل مدينة يساعدون في الاستيلاء عليها ، ليتخذوا من ذلك الثلث حياً تجارياً لهم يباشرون منه نشاطهم التجاري . فإذا نجحوا في الاستيلاء على طرابلس كانت المدينة بأكملها لهم ، مع تعهدهم بدفع ضريبة سنوية رمزاً للتبعية لدولة بيت المقدس . وفي مقابل كل ذلك وضع البنادقة أنفسهم وخدماتهم تحت تصرف الصليبيين حتى ١٥ أغسطس <sup>(٣)</sup>

(1) Stevenson : op. cit, p. 40

(2) Ruuciman : op. cit, I, p. 312-313.

(3) Heyd; op. cit, I, 136.

وكان أن بدأ البنادقة يحاصرون عكا من ناحية البحر ، في الوقت الذي أخذ مرض الموت يزداد وطأة على جودفرى بوايون ، فقام داي مبرت بطرق بيت المقدس وتنكرد بالمساهمة في حصار عكا من ناحية البر<sup>(١)</sup> . ولم تلبث أن جاءت الأخبار بوفاة جودفرى في ١٨ يولية سنة ١١٠٠ وعندئذ اقترح داي مبرت وتنكرد على البنادقة ترك عكا وتوجيه الجهود ضد حيفا ، حيث أن هذه الأخيرة أقرب إلى بيت المقدس وأكثر نفعا للصليبيين . وكانت حيفا تابعة عندئذ للدولة الفاطمية ، وللفاطميين فيها حامية صغيرة ، ولكن معظم سكانها من اليهود الذين كرهوا المسيحيين كراهية شديدة ، ومن ثم أبدوا مقاومة عنيفة<sup>(٢)</sup> .

وعندما انتشرت الشائعات بأن حيفا أوشكت على السقوط في أيدي الصليبيين ، علم تنكرد بأن جودفرى بوايون أوصى قبل وفاته بأن تكون هذه المدينة من نصيب أمير آخر اسمه جالدمار ؛ وعندئذ هدد تنكرد بالانسحاب وأعلن أنه لن يعمل لحساب غيره ، لاسيما وأن حيفا كانت الثغر الطبيعي لإمارته في الجليل<sup>(٣)</sup> . ولكن البطرق داي مبرت استرضى تنكرد بسرعة ووعده بحيفا ، فضاعف تنكرد جهوده حتى سقطت حيفا في أيدي الصليبيين في أغسطس سنة ١١٠٠ . وبذلك اكتملت إمارة الجليل بعد أن حصلت على ثغر لها على البحر ، وإن كان تنكرد نفسه لم يهنأ طويلا بذلك النصر ، إذ لم تلبث الظروف أن اضطرتة إلى نقل نشاطه إلى مسرح آخر<sup>(٤)</sup> .

---

(1) Translatio Sancti Nicolai Venetiam (Hist. Occid. Tome V), P. p. 272-275.

(2) Albert d'Aix; p. 521.

(3) Setton : op. cit; I, p. 380.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 290.

## الباب الخامس

### تأسيس ملكة بيت المقدس الصليبية

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين  
أعمالا . الذين ضل سعيهم في  
الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم  
يحسنون صنعا ﴾

[ السكف : ١٠٣ - ١٠٤ ]



## الفصل الأول

### النزاع بين بلدوين وبطرق بيت المقدس

البيطرق دايمبرت يفرضه نفسه على دولة بيت المقدس :

كان حكم جودفرى بوايون فى بيت المقدس بمثابة حل وسط بين النظامين الملكى والثيوقراطى ، وفيه ترضية—ولو جزئية—لمطامع الأمراء ومطامع رجال الكنيسة ؛ ولذلك أثار موت ذلك الرجل مشكلة كبرى حول الوضع المقبل لدولة بيت المقدس الصليبية وكيف يكون نظام الحكم فيها<sup>(١)</sup> . ويقول المؤرخ وليم الصورى إن جودفرى بوايون أوصى قبل وفاته بأن يخلفه البطرق دايمبرت فى حكم بيت المقدس ، وذلك فى حالة عدم وجود ورثة مباشرين لجودفرى نفسه<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن تنفيذ هذه الوصية كان يعنى تحويل حكومة بيت المقدس إلى حكومة ثيوقراطية فعلا ، أى حكومة دينية ترتبط بالكنيسة ، وهو ماسعى إليه دايمبرت منذ أمد بعيد .

على أن قيام حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس واستبعاد كل فكرة تستهدف نظاما ملكيا وراثيا ، كان أمرا صعب التحقيق . ذلك أن المدة القصيرة التى تولى فيها جودفرى بوايون حكم بيت المقدس كانت كافية لتجعل فرسانه

(1) Stevenson : op. cit. p. 42.

(2) Guillaume de Tyr p. 403.

وهناك رأى آخر فى المراجع يؤكد أن جودفرى بوايون أوصى فعلا لأخيه بلدوين أمير الرها بأن يرثه فى حكم بيت المقدس . أنظر :

يؤمنون بضرورة قيام ملكية وراثية في بيت المقدس. هذا فضلا عن أن أرنولف مالكورن — البطرق السابق لبيت المقدس الذي خلفه دايمبرت — كان له انصاره من رجال الدين ، وهؤلاء شايعوا فكرة قيام ملكية علمانية وراثية في بيت المقدس ، لأشياء سوى التقشف في دايمبرت والوقوف في وجهه أطاعه وآماله<sup>(١)</sup>.

ومهما يكن من أمر ، فإن وجه الأهمية في ذلك الموقف هو أن المؤمنين بنظام الملكية الوراثية اتجهوا جميعا بأفكارهم وقلوبهم نحو بيت بوابون ، وأرادوا أن تكون الملكية المنشودة محصورة في ذلك البيت بالذات . وكان أن أحاطوا نواياهم بالسرية التامة المطلقة ، فأوفدوا من قبلهم أستف الرملة ومعه اثنتان من الفرسان لمقابلة بلديون أمير الرما لمطالبته بالحضور على وجه السرعة لاستخلاص حقوقه وتولى السلطة ، بوصفه الوريث الشرعى لدولة الفرنجة في بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفري<sup>(٢)</sup> .

وهنا فكر دايمبرت في وسيلة يضيع بها على بلديون فرصة الاستئثار بحكم بيت المقدس ، فلم يجد بداً من الاستفادة بأحد كبار الأمراء الصليبيين ممن يعتبرون أنداداً لبلديون نفسه . وفعلًا اتصل دايمبرت بصديقه بوهيموند أميراً نطاكية ، بوصفه القوة الوحيدة التي تستطيع أن تقف في وجه بلديون وبحول دون وصوله إلى حكم بيت المقدس . هذا فضلا عن أن دايمبرت كان له أنصار بين أمراء بيت المقدس أنفسهم ، من بينهم تنكرد ابن أخت بوهيموند<sup>(٣)</sup> . وقد عرف عن تنكرد هذا الحماسة وسرعة البت ، زيادة على أنه صار من أقوى أمراء دولة بيت المقدس بعد تأسيسه إمارة الجليل . وكان أن انفق تنكرد مع دايمبرت على عرض حكم

(1) Albert d'Aix : p. 5<sup>e</sup> 6.

(2) Michaud : op. cit; II, p. 19.

(3) Stevenson : op. cit; p. 42.



بيت المقدس على بوهيموند بوصفه القوة الكبرى التي يمكنها الوقوف في وجه بلديين من ناحية ثم مساعدة دايمبرت من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>. ويتضح من الرسالة التي بعث بها دايمبرت وتكرر إلى بوهيموند أن الغرض منها كان استثارة الأخير، وأنه لو قدر لخطة دايمبرت النجاح لأدت إلى إثارة حرب أهلية بين الصليبيين في بلاد الشام، أعنى بين بلديين أمير الرها من جانب وبوهيموند أمير أنطاكية من جانب آخر، مما يؤدي بالصليبيين جميعاً في الشرق إلى كارثة كبرى. وفي وسط تلك الإزمة إزداد وضوح الرأي الذي نادى به عتلاء الصليبيين، وهو ضرورة قيام ملكية قوية في بيت المقدس توحد بين صفوف الصليبيين من جهة وتحول دون فتك المسلمين أو البيزنطيين بهم من جهة أخرى<sup>(٢)</sup>.

ومهما يكن من أمر فإن حسن حظ الصليبيين شاء ألا تصل الرسالة التي بعث بها دايمبرت إلى بوهيموند، إذ وقع حامل الرسالة قرب اللاذقية في أيدي رجال ريموند الصنجيلي، المنافس للدود لبوهيموند<sup>(٣)</sup>. ولعلنا نذكر كيف أصر بوهيموند على حرمان ريموند من أي حق في أنطاكية عقب سقوطها، مما أثار شعور المرارة والكرهية في قلب الأخير. حقيقة أن بوهيموند علم بالأحداث الجارية في بيت المقدس عن طريق آخر، ولكن ذلك كان في الوقت الذي حلت به كارثة كبرى جعلته عاجزاً حتى عن مجرد الحركة. ذلك أنه حدث في شهر يوليو سنة ١١٠٠ — أي في الوقت الذي توفي جودفري بوايون — أن كان بوهيموند في طريقه إلى ملطية ليقدم النجدة لأميرها الأرمني ضد الأتراك من أتباع الملك

(1) Guillaume de Tyr, p. 406.

(2) Richard : Le Royaume Latin p. p 62-63.

(3) Albert d'Aix, p. 521

ويلاحظ أن ريموند نفسه لم يسكن موحداً عندئذ في بلاد الشام، وإنما كان متغيّباً في زيارة القسطنطينية، بناء على دعوة من الإمبراطور البيزنطي.

غازي كشتكين بن الدانشمند صاحب سيواس ، فوق بوهموند أسيراً في قبضة كشتكين ، ولم تفلح الجهود التي بذلها الصليبيون لإيقاظه <sup>(١)</sup>. وهكذا قدر لبوهموند أن يظل أسيراً ثلاث سنوات في قلعة نيكسار قرب شاطئ البحر الأسود <sup>(٢)</sup>؛ مما ترك الطريق ممهداً أمام بلدوين ليصل إلى عرش بيت المقدس والمعروف عن بلدوين أنه كان رجلاً ذكياً طموحاً لاتقوته فرصة الدعوة التي وصلتته من أنصاره في بيت المقدس ، فصمم منذ اللحظة الأولى على أن يضع خدماته وجهوده ويسخر شخصيته الفذة في خدمة دولة الصليبيين الناشئة في فلسطين ، مما جعله من أعظم الشخصيات الصليبية التي شهدتها بيت المقدس في عصر الحروب الصليبية <sup>(٣)</sup>

والواقع أن بلدوين امتلك من الشجاعة والقوة والإخلاص ، ما كفل له النجاح والتغلب على خصومه <sup>(٤)</sup>. وتبدولنا أخلاقه في وضوح من تصرفه عندما سمع بما حل ببوهموند على يد الملك غازي كشتكين بن الدانشمند أمير سيواس التركي. ذلك أن بوهموند عندما وقع في الأسر أرسل رسالة سرية إلى بلدوين أمير الرها مستنجداً به ، ومع الرسالة خصلة من شعره الذهبي لتكون دليلاً على صدق الرسول. ولم يكذب بلدوين يتأكد من صحة الخبر حتى أسرع على رأس عدد كبير من فرسانه في اتجاه ملطية لإدراك كشتكين وفك أسر بوهموند <sup>(٥)</sup> ولكنه لم يكذب يصل إلى ملطية حتى كان التركان قد أسرعوا بالانصراف عنها متجهين إلى سيواس ، ومنها إلى نيكسار قرب البحر الأسود. وكل ما استطاع بلدوين أن يفعله هو تخليص ملطية من التركان ، وعندئذ أعلن أمير ملطية الأرمني ولائه وتبعيته لبلدوين ، الذي ترك

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Hist. Or. III, p. 589 )

ويلاحظ أن ابن العديم ذكر أن بوهموند وقع أسيراً في معركة دارت بأرض مرعش .

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, P. 304,

(4) Setten : op. cit. P. 381

(5) Runciman : op cit. I, P 321.

بضعة مئآت من فرسانه لحماية ملطية ، ثم عاد إلى إمارته في الرها دون أن يستطيع أن يجازف بنفسه ويتبع التركمان في عقر دارهم لإقناذ بوهيموند<sup>(١)</sup>.

على أن بلدوين لم يكد يستقر في إمارته بالرها بعد عودته من الشمال حتى تلقى في أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر سنة ١١٠٠ الرسالة التي بعث بها أنصاره في بيت المقدس يخبرونه فيها بما كان من موت أخيه جودفري ، ويطلبون منه الحضور على وجه السرعة لتسلم مقاليد الأمور في المدينة المقدسة. وهنا أظهر بلدوين أسفه لموت أخيه أكثر من فرحه للاستيلاء على إرثه<sup>(٢)</sup>. ولم يشأ بلدوين أن يضع الفرصة التي أتاه القدر بها للفوز بحكم بيت المقدس ، فغادر الرها نحو المدينة المقدسة في ٢ أكتوبر سنة ١١٠٠ بعد أن عهد يشئون الرها إلى قريبه بلدوين دى بوج ، وترك له قوة كبيرة من الفرسان والمشاة للدفاع عن الإمارة إذا هدها خطر<sup>(٣)</sup>.

وهكذا ساعدت الظروف بلدوين على اتمام رحلته الموقفة إلى بيت المقدس ، إذ لو كان بوهيموند حراً طليقاً ووصلته رسالة دايمبرت ، لسبب له كثيراً من المضايقات. ولكن الأمر لم يتف عند حد أسر يوهيموند ووقوع الرسالة في يد رجال خصمه ريموند فحسب ، بل إن أهل أنطاكية من الصليبيين ، حملوا لبلدوين جيلاً كبيراً لمروءته ومحاولته فك أسر أميرهم<sup>(٤)</sup> ، لذلك لا عجب إذا استقبلت أنطاكية بلدوين — وهو في طريقه إلى بيت المقدس — استقبالا حماسياً طيباً ؛ فقضى بها ثلاثة أيام ثم غادرها في ١٥ أكتوبر متبعاً طريق الساحل ، فرباً بالاذقية حيث التقى بالمندوب البابوي موريس دى بورتو Maurice de Porto الذى

(1) Albert d'Aix, P. p. 525—526.

(2) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III). P. 373.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5 P. 301

(4) Grousset : Hist. des Croisades I. P 208.

كان قد وصل إلى الشام منذ قريب . ويبدو أن بلدوين واجه بعد أن غادر اللاذقية بعض الأخطار من جانب سلاجقة دمشق الذين حاولوا قطع الطريق عليه ؛ ولكنه مر بسلام حتى وصل إلى مدينة طرابلس في ٢١ أكتوبر بعد أن بلغ رجاله درجة خطيرة من الإعياء<sup>(١)</sup> . وفي طرابلس أكرمه أميرها العربي أبو علي بن عمار ، وأمدّه ورجاله بما كانوا في حاجة ماسة إليه من ميرة وغذاء ، وتعهد بأن يحيطه علماً بتحركات عدوها المشترك ، وهو دقاق ملك دمشق السلجوقي<sup>(٢)</sup> . وليس هذا مجال الخوض في العلاقات بين القوى الإسلامية ببلاد الشام في ذلك الوقت ، ولكن تكفي الإشارة إلى أن العداء الشديد استحكم عندئذ بين سلاجقة دمشق من ناحية وبني عمار في طرابلس من ناحية أخرى ، الأمر الذي دفع العرب في طرابلس إلى السعي لمخالفة القوى الصليبية الجاورة للوقوف في وجه سلاجقة دمشق<sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن بلدوين استطاع أن ينجو من شباك دقاق ملك دمشق بفضل مساعدة ابن عمار . وكان دقاق قد خرج وبصحبه جناح الدولة أمير حمص العربي ، لاصطياد بلدوين عند مصب نهر الكلب في مكان ضيق بين الجبال والبحر<sup>(٤)</sup> . ولكن المعركة انتهت بهزيمة الدماشقة ونجاة بلدوين ، الذي غنم قدراً لا بأس به من الغنائم والأسلحة والخيول<sup>(٥)</sup> . وهكذا استأنف بلدوين طريقه إلى بيت المقدس ، بعد أن أثرت هزيمة الدماشقة في أمراء الموانئ الفاطمية

(1) Guillaume de Tyr, I, P. 407 & Albert d'Aix, P. 528.

(2) Histoire d'Eracles I, P 407 & Gesta Francorum P 520

(3) Foucher de Chartres p 374-376

(4) Guillaume de Tyr p 407

(٥) يفهم من الإشارة الموجزة التي أوردها ابن الأثير عن تلك الموقعة أن دقاق هو الذي انتصر « على الفرنج » ؛ وهذا غير صحيح .  
( ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ ) .

على الساحل — مثل بيروت وصيدا وصور وعكا — فقدموا لبلدوين ما يحتاج إليه من زاد وميرة <sup>(١)</sup>.

### قيام مملكة بيت المقدس للصليبية

وأخيرا نجح بلدوين في الوصول إلى حيفا، وهي أول مدخل للصليبيين في فلسطين. وقد سبق أن أوضحنا أن حيفا كانت تابعة لتنكرد-حليف دايمرت — ولكن تنكرد كان لحسن الحظ متفيعاً عندئذ في بيت المقدس لمساعدة حليفه في السيطرة على المدينة المقدسة. ولم يستطع أتباع تنكرد في حيفا أن يمنعوا الزاد والتموين عن بلدوين أو معارضته — بوصفه على الأقل أميراً صليبيًا، فضلاً عن أنه أخو سيدهم السابق جودفرى — فحصل بلدوين على مالزمه من زاد، ثم اتجه إلى يافا، أكبر ثغر للصليبيين عندئذ في فلسطين <sup>(٢)</sup>. ومن يافا اتجه بلدوين إلى بيت المقدس، حتى إذا ما اقترب منها في حوالى ١٠ نوفمبر سنة ١١٠٠ خرج المسيحيون من أهل المدينة — على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم — لاستقباله استقبالا رائعا، بوصفه أخو جودفرى ووريثه؛ بل لقد نادوا جميعاً به — داخل المدينة المقدسة ذاتها — ملكاً وسيداً عليهم <sup>(٣)</sup>.

وهكذا لم يقدر للحكومة الثيوقراطية التي أراد البطرك دايمرت إقامتها في بيت المقدس أن تعيش أكثر من خمسة شهور، إذ لم يستطع دايمرت الوقوف أمام الرأي العام المسيحي، واضطر إلى الانسحاب إلى كنيسة جبل صهيون <sup>(٤)</sup> وكانت ساعة الثأر قد حانت بالنسبة لأرنولف مالكورن — بطرك بيت المقدس

(١) Albert d'Aix. p. p. 528-530

(٢) Foucher de Chartres, P. 377

(٣) Guillaume de Tyr. P. 410

(٤) Idem p. 411.

السابق الذى عزله دايمبرت — فجمع حوله رجال الدين لتقديم كل مساعدة ممكنة لبلدوين . على أن بلدوين كان من الحرص بحيث لم يشأ أن يتعجل عزل دايمبرت من كرسى بيت المقدس ، وذلك خوفاً من إحداث فتنة داخلية فى تلك الفترة الحساسة من تاريخ المملكة الوليدة ، وإنما اختار أن يقوم عندئذ بما أسماه المؤرخون نزهة حربية فى المناطق القريبة ، أى حول عسقلان والخليل وبيت لحم<sup>(١)</sup> . ذلك أنه خرج فى ١٥ نوفمبر على رأس مائة وخمسين فارساً وخمسمائة من المشاة ، فأدب العربان الذين دأبوا على تهديد طريق الحجاج إلى بيت المقدس ، كما أغار على بعض المراكز قرب البحر الميت . وأخيراً عاد إلى بيت المقدس فى ٢١ ديسمبر سنة ١١٠٠<sup>(٢)</sup>

وعند عودة بلدوين إلى بيت المقدس تم الصلح والاتفاق بينه وبين دايمبرت . وهنا نلاحظ أن دايمبرت كان رجلاً له مكانته وأهميته بالنسبة للصليبيين فى الشام ؛ فقد رأينا أنه قبل مجيئه إلى الشرق كان رئيس أساقفة بيزا ، أى الزعيم الروحى لتلك المدينة الإيطالية صاحبة الدور الهام فى قصة الحروب الصليبية . ولم يكن فى استطاعة الصليبيين فى الشام أن يستغنوا مطلقاً عن مساعدة الأسطول البيزى ، تلك القوة البحرية الضاربة التى كان فى وسعها الوقوف فى وجه السفن الفاطمية ومنعها من التردد على بيروت وصور وعكا وعسقلان وغيرها من الموانئ التى ظلت بأيدى المسلمين فى الشام حتى ذلك الوقت<sup>(٣)</sup> . هذه الاعتبارات وغيرها لم تغب مطلقاً عن فكر بلدوين ، وهو الرجل الحصيف البعيد النظر ، فأثر منذ اللحظة الأولى أن يقف موقفاً معتدلاً بعيداً عن التطرف من دايمبرت ، مما جعل

(1) Albert d'Aix p. p. 533 - 536.

(2) Stevenson : op. cit. p. p. 43 - 44.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 216.

الأخير يمنح تلقائياً نحو الاستسلام ويوافق على مبدأ التوقيع على معاهدة السلام في بيت المقدس .

وكان أن تم ذلك التوقيع في يوم عيد الميلاد في ديسمبر سنة ١١٠٠ في كنيسة العذراء بيت لحم ، فوضع دايمرت التاج على رأس بلدوين ليكون أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية<sup>(١)</sup> . وبتوقيع بلدوين تبذرت جميع آمال دايمرت ، وزالت نهائياً فكرة قيام حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس<sup>(٢)</sup> .

أما عن تنكرد ، فكانت وفاة جودفري ، وما أعقب تلك الوفاة من أحداث ، بمثابة كارثة حلت به . ذلك أن تنكرد الذي جعله جودفري أميراً على الجليل والذي استولى على حيفا بعد ذلك ، أصبح بدون شك الرجل الثاني في دولة بيت المقدس . على أن ظهور بلدوين على مسرح الأحداث بعد وفاة أخيه جودفري جاء في حد ذاته طالعاً سيئاً بالنسبة لتنكرد ، بسبب الخلاف بين تنكرد وبلدوين ، وهو خلاف قديم يرجع إلى أيام التنافس بينهما حول الاستيلاء على قيليقية والمصيصة سنة ١٠٩٧ . ثم كان أن راهن تنكرد على الحصان الخاسر ، فحاول أن يشد أزر دايمرت وأن يحول دون وصول بلدوين إلى بيت المقدس بمختلف الطرق ، ولكنه فشل في كل ذلك ، وانتهى الأمر بتسيام بلدوين ملكاً على بيت المقدس<sup>(٣)</sup> . وهكذا صار من الصعب على تنكرد أن يصبح تابعاً لبلدوين ، وأن يعلن ولاءه له بعد ما أظهره نحوه من ألوان العداء والخصومة الشديدة ؛ بل إنه رفض الحضور لمقابلة الملك الجديد عندما استدعاه أكثر من مرة لمقابلته في يناير سنة ١١٠١<sup>(٤)</sup> .

(1) Stevansen : op. cit. p. 44.

(2) Richard : Le Royaume Latin. P 63.

(3) Setton : op. cit. I, P. 381

(4) Runciman : op. cit; I. P 325

وفي وسط تلك الأزمة المستحكة بين بلدوين وتنكرد ، تلقى الأخير رسالة في مارس سنة ١١٠١ من الصليبيين في أنطاكية ، يطلبون منه الحضور إليهم للقيام بالوصاية على إمارتهم أثناء أسره خاله بوهيموند . وكانت هذه الدعوة حلانا جاً للعوقف ، إذ رحب تنكرد بتلك الفرصة التي ستخلصه من موقفه الحرج مع بلدوين ، وفي الوقت نفسه ستمكنه من بسط سيادته على شمال الشام . ولم يلبث أن تم الصلح بين تنكرد وبلدوين ، فتنازل تنكرد لملك بيت المقدس عن الجليل وطبرية وحيفا ، بشرط واحد هو أن يسترد تلك المناطق مرة أخرى إذا عاد قبل انقضاء ثلاث سنوات وثلاثة أشهر . وهكذا غادر تنكرد فلسطين في مارس سنة ١١٠١ ليباشر نشاطاً من نوع آخر في شمال الشام<sup>(١)</sup> .

---

(١) Albert d'Aix; p. p. 537-538.



## الفصل الثاني

### بلدوين الأول والفاطميون

#### مناعب الصليبيين في الشام :

أجمع المؤرخون على أن جودفرى بوايون كانت تنقصه صفات السياسى الناجح ، فدفعه العناد إلى الوقوع أحياناً فى خصومات عنيفة مع زملائه من أمراء الصليبيين ، وفى الوقت نفسه جعلته تقواه يرضخ للكنيسة أكثر مما ينبغى ، مما عرض دولة بيت المقدس الصليبية لخطر التصدع .

وعلى العكس منه كان أخوه بلدوين الأول الذى امتلك من الحصافة وبعد النظر والحكمة ، فضلا عن الشجاعة ، ما جعل منه حاكماً ناجحاً<sup>(١)</sup> . لذلك جاءت وفاة جودفرى وتقويض بلدوين ملكاً على بيت المقدس بمثابة عملية إقحاذ للصليبيين ولدولتهم الوليدة . ومع ذلك فقد كان الطريق أمام بلدوين الأول طويلاً وشاقاً ، ولم تكن المهمة التى أمامه — وهى الخاصة بتدعيم أسس البناء الذى أقامه الصليبيون بالشام — بالأمر الهين ، بسبب الأزمات العديدة التى واجهت الصليبيين فى بداية القرن الثانى عشر<sup>(٢)</sup> .

والواقع إن الأزمة الشديدة التى عاناها الصليبيون عندئذ فى بلاد الشام لم تسكن بسبب قلة الطعام وندرة الزاد ، وإنما كانت فى حقيقة أمرها أزمة فى المقاتلين والرجال . ذلك أن الصليبيين لم يؤسسوا ما أسسوه من إمارات إلا بعد

(1) Cam. Med Hist. vol 5, p. 304,

(2) Runciman: op. cit; II, p. 3.

أن ضحوا بعدد كبير من رجالهم حتى أصيبوا بنقص خطير في الفرسان ، في الوقت الذي كان بقاءهم يتوقف على القتال والحرب <sup>(١)</sup> . ولعل خير دليل على افتقار الصليبيين في ذلك الدور الأول من تاريخهم بالشام إلى الرجال ، أنه حدث عندما أسر بوهيموند أمير أنطاكية ، أن أتباعه لم يجدوا بينهم فارساً يستطيع النهوض بعبء الدفاع عن الإمارة ، فاستنجدوا بابن أخته تنكرد الذي كان عليه أن يختار بين الجليل وأنطاكية . ولم يكذ تنكرد ينتقل إلى أنطاكية حتى أصيب الصليبيون في الجليل بخيبة أمل كبيرة وأحسوا أنهم حرموا من جهود رجل ، والرجال قليل <sup>(٢)</sup> .

حقيقة إن الأساطيل الغربية الوافدة من إيطاليا وبروفانس وغيرها، أخذت تجلب باستمرار حجاجاً من الغرب ، ولكن هذه الأساطيل كثيراً ما تعرضت لإغارات البحرية الإسلامية بشمال إفريقيا ، فإذا وصل الحجاج سالمين إلى يافا ، فإنهم كانوا لا يسمون في كثير من الحالات من إغارات البدو فيما بين يافا وبيت المقدس ، بحيث لا يصل منهم في النهاية إلى المستعمرات الصليبية إلا قلة قليلة <sup>(٣)</sup> . فإذا أضفنا إلى ذلك اتساع مساحة الأراضي التي سيطر عليها الصليبيون بالشام ، أدر كنا في النهاية، خطورة الوضع الذي أضحت فيه الإمارات الصليبية، لأن عدد للدافعين كان لا يتناسب إطلاقاً واتساع الممتلكات الصليبية <sup>(٤)</sup> . هذا في الوقت الذي كانت تلك الإمارات أشبه شيء بحجز منعزلة وسط محيط إسلامي مترامي الأطراف، مما يجعلنا نقرر أن احتفاظ الصليبيين بكيانهم في تلك الظروف لم يكن مرده إلى قوتهم ، بل إلى ضعف القوى الإسلامية في الشرق الأدنى وتفككها

(1) Stevenson op. cit; p. 39.n. 1.

(2) Setton ; op. cit; I, P. 382.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I; p. 218—219.

(4) Grousset : L'Empire du Levant, P. P. 198—199.

وانتسامها على أنفسها<sup>(١)</sup>. ولو أقام المسلمون في الشرق الأدنى — أو على الأقل في العراق والشام ومصر — جبهة متحدة، لاستطاعوا في غير عناء كبير القضاء على تلك الجماعات الصليبية المتناثرة في بلاد الشام وتطهير الوطن العربي منها قبل أن يستفحل خطرهما.

وفي مثل تلك الظروف كان من المتعذر على بلدوين الأول ملك بيت المقدس أن يتبع طريقة الحرب المنظمة مع القوى الإسلامية المجاورة له، كما كان من المستحيل أن يقيم حاميات قوية على أطراف دولته في فلسطين؛ وإنما كان الطريق الوحيد أمامه هو أن يتبع أسلوب الحرب السريعة الخاطفة، وأن يجهل من جيشه وحدة متحركة تنتقل بسرعة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب حسب الحاجة، مكتملها بإقامة نوع من المخافر الصغيرة على الحدود لمراقبة تحركات القوى الإسلامية المجاورة<sup>(٢)</sup>.

ومهما يكن من أمر، فإن الانتصارات السريعة الخاطفة التي حققها الصليبيون في الشام على أيام جودفري، وانتصار بلدوين على دقاق ملك دمشق عند نهر الكلب؛ حققت للصليبيين قسطا من المهابة في نظر القوى الإسلامية المجاورة<sup>(٣)</sup>. ولم يكد يتم تنويع بلدوين الأول ملكا على بيت المقدس حتى قام بمهاجمة قبيلة عربية كبيرة كانت تعبر الأردن في ربيع سنة ١١٠١، فقتل معظم رجالها، وسبق النساء والأطفال أسرى مع الغنائم الوفيرة. وكان من جملة الأسرى زوجة أحد شيوخ القبيلة وهي على وشك الوضع، فلما علم بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادماتها وجمالين وقدر من الزاد. ولم تلبث أن وضعت في الطريق

(1) Runciman, op. cit., II, P. 4—5

(2) Guillaume de Tyr, I, P. P. 414-415.

(3) Runciman : op. cit., II, p. 71.

وعادت إلى زوجها الذى سعى إلى بلدوين لي شكره ويرجو أن يرد له الجليل في يوم من الأيام<sup>(١)</sup>. ويهمنان من هذه القصة الآن أن إغارة بلدوين على تلك القبيلة العربية وما فعله بأفرادها من قتل وأسر، جاءت لتزيد من خطره في نظر جيرانه المسلمين. ولم تلبث الموانئ الساحلية في فلسطين — وهى عسقلان وقيسارية وعكا وصور — أن أرسلت مندوبين عنها في مارس سنة ١١٠١ إلى الملك بلدوين الأول، تحمل إليه الهدايا والجزية، وتطلب منه المهادنة لتتمكن من مباشرة نشاطها الاقتصادى والتجارة مع الفرنجة. وبذلك لم يبق سوى دفاق ملك دمشق السلجوقى الذى أوفد سفارة إلى بلدوين لشراء الأسرى الذين أسره بلدوين في موقعة نهر الكلب، وتم فعلا تسليم هؤلاء الأسرى لدفاق مقابل مبلغ كبير من المال<sup>(٢)</sup>.

### استيلاء بلدوين الأول على أرسوف وقيسارية :

وضع بلدوين الأول عند تنويعه ملكا على بيت المقدس خطة استهدفت ضم جميع شواطئ فلسطين المواجهة لمملكته؛ وذلك لتأمين طريق الحجاج من ناحية ولتنشيط التجارة مع الغرب من ناحية أخرى، مما يوفر للمملكة الصليبية كثيرا من أسباب القوة<sup>(٣)</sup>. وإذا كان تنفيذ تلك الخطة قد تطلب معاونة القوى البحرية الإيطالية، فإن حسن حظ بلدوين أمدّه بأسطول جنوى وصل إلى حيفا عند منتصف مارس سنة ١١٠١، ومنها أبحر إلى يافا في منتصف.

---

(1) Guillaumed de Tyr. p 415.

(٢) ابن القلانسي : ص ١٣٦ — ١٣٧ .

Albert d'Aix, p. p. 541 — 542.

(3) Runciman : op. cit, II. p. 7.]

الشهر التالي<sup>(١)</sup> . وكان أن افترض بلدوين تلك الفرصة المواتية فذهب إلى يافا لمقابلة الجنوية ، واصطحبهم معه إلى بيت المقدس ، حيث احتفلوا جميعا بإحياء عيد الفصح ، ثم بدأت المفاوضات حول الثمن الذي يرتضيه الجنوية لقاء مساعدتهم بلدوين على تحقيق غرضه . ولم يلبث أن تم الاتفاق بين الطرفين على أن يقدم الجنوية معونتهم البحرية مقابل حصولهم على ثلث الغنائم من الممتلكات . فضلا عن شارع من شوارع السوق في كل مدينة يستولون عليها ليتخذونه مركزا يباشرون منه نشاطهم التجاري<sup>(٢)</sup> .

وقد اختار بلدوين أن يبدأ بمهاجمة أرسوف ، ذلك الميناء الذي ظل تابعا للدولة الفاطمية ، والذي لم يستطع الصليبيون الاستيلاء عليه من قبل بسبب افتقارهم إلى المساعدة البحرية . ولم تستطع أرسوف الصمود تلك المرة ، فاستسلمت في أواخر أبريل سنة ١١٠١<sup>(٣)</sup> . وبعد أن ترك بلدوين حامية في أرسوف اتجه براً وبحذاء الأسطول الجنوي في البحر قاصدا قيسارية . وكانت قيسارية أيضا — من الناحية الاسمية على الأقل — تابعة للدولة الفاطمية ، ولكنها لم تستطع المقاومة طويلا فاستولى عليها الصليبيون « بالسيف » في ١٧ مايو سنة ١١٠١<sup>(٤)</sup> . وتشير المراجع الغربية إلى أن الصليبيين أحدثوا مذبحا وحشية في قيسارية قتلوا كثيرا من أهلها الأبرياء ، وأعتب ذلك توزيع الغنائم وفقا للانفاقية المعقودة مع الجنوية<sup>(٥)</sup> . وعندما احتفى بعض أهالي قيسارية بجامع المدينة لاحتفهم الصليبيون وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم دون أن يفرقوا

---

(1) Cafaro ; Liberatio Civit. Orientis ( Hist. Occid. V ).  
p. p 60 - 61.

(2) Guillaume de Tyr, p 419.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩ & Cafaro, p. 62

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٧

(5) Foucler de Chartres, 389 - 390.

بين الرجال والنساء والأطفال ، حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين<sup>(١)</sup> .

### الحملة الفاطمية على الشام سنة ١١٠١ ؛ موقعة الرملة الأولى

على أن استكانة الفاطميين ، والجود الذي انتابهم عقب سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين لم يستمر طويلا . وإنما اختار الوزير الأفضل أن يرسل حملة كبيرة إلى فلسطين في ربيع سنة ١١٠١ ، بقيادة المملوك سعد الدولة القواسي الذي كان جاكم بيروت من قبل<sup>(٢)</sup> . وقد تجمعت هذه الحملة في عسقلان ، التي صارت بمثابة مركز انطلاق لجميع الحملات التي خرجت من مصر ضد الصليبيين في تلك المرحلة . على أن الحملة المصرية أضاعت كثيرا من الوقت في عسقلان ، ففضى الجيش الفاطمي عدة أشهر بلا عمل ، ربما في انتظار إمدادات جديدة ، تأتيه من مصر ؛ مما أتاح فرصة كافية للبلدوين استعدادها وجمع قواته ووضع خطته<sup>(٣)</sup> وأخيرا تحركت الجيوش الفاطمية في أوائل سبتمبر بعد أن وصلتها الإمدادات المطلوبة ، فالتجّفت إلى منطقة الرملة حيث تستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس . وكانت الأخبار قد وصلت بلدوين بأن المسلمين لم يقصدوا مجرد إغارة محلية ، وإنما استهدفوا الوصول إلى بيت المقدس ذاتها ، فأمرع إلى عقد مجلس حربي في يافا في أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ ، وتقرر في ذلك المجلس أن يبدأ الصليبيون بمهاجمة المسلمين فوراً<sup>(٤)</sup> . ومن المرجح أن يكون بلدوين قد أدرك خطر المهمة التي عليه أن يواجهها ، إذ كانت قوته محدودة لم تتجاوز مائتين وستين فارسا وتسعمائة من

(1) Albert d'Aix, P. P. 453—454.

(٢) ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(3) Stevenson ; op. cit; p. p. 44—45.

(4) Runciman : op. cit. II, p. 74

المشاة ، وهى قوة صغيرة بلا شك ، إذا قيس باعداد الجيش الفاطمى الغفيرة من العرب والسودان<sup>(١)</sup> . ولكن بلدوين أخذ يشجع رجاله وذكركم بأنهم إذا ماتوا فأنما سيلحقون بالشهداء والقديسين ، وإذا اقتصروا فسيكونون قد أدوا خدمة للمسيح وكنيسته ليس بعدها خدمة<sup>(٢)</sup> .

وهكذا تقدم الصليبيون يحملون صليب الصلبوت وعلى رأسهم بلدوين ورجال الدين ، حتى التقى الخصمان فى صباح ٧ سبتمبر فى السهل الواقع إلى الجنوب الغربى من مدينة الرملة . ولم يلبث أن تصدع الجيش الفاطمى الكبير فى تلك الموقعة ، وانتصر الصليبيون بفضل تماسكهم ووحدة صفوفهم وإحكام خطتهم . وقد قتل من المسلمين عدد كبير ، فى حين فر الباقون تجاه عسقلان بعد أن سقطا ثلث الحملة . سعد الدولة القواسى — صريعا فى المعركة<sup>(٣)</sup> . واستمر الصليبيون يطاردون المسلمين حتى أسوار عسقلان ، فى حين عاد بلدوين لتوزيع الغنائم — وما أكثرها — ؛ إذ ترك المسلمون خلفهم كل ما معهم من سلاح ومؤن وعدد وآلات (٧ سبتمبر سنة ١١٠١) « فملك الفرنج جميع ما للمسلمين »

ولم يكد بلدوين الأول يفرغ من تحقيق ذلك النصر الكبير ، حتى وصلته الأخبار بأن حملة صليبية خرجت من غرب أوروبا فى طريقها إلى الأراضى المقدسة ، ولكن الأتراك السلاجقة قضوا عليها . وقد وصلت فلول تلك الحملة وبعض

(1) Albert d'Aix, p. 549.

(2) Foucher de Chartres, p. 392.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(4) Albert d'Aix, P. 553 & Guillaume de Tyr. P. 426.

وابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

ويلاحظ أن رواية أبى الحاسن عن هذه الموقعة غير صحيحة ، إذ يقول إن المسلمين ثبتوا « وحملوا على الفرنج فهزموهم إلى قيسارية ، ويقال إنهم هزموا من الفرنج ثلثمائة ألف ، ولم يقتل من المسلمين سوى مقدم عسكرهم سعد الدولة القواسى المذكور ونفر يير . »

(النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٢) .

(5) Runciman. op. cit; I. p. 76.

أمرأها إلى أنطاكية ، ومنها إلى بيت المقدس للحج . وبعد أن احتفل أولئك الصليبيون بإحياء عيد الفصح ( سنة ١١٠٢ ) شرع معظمهم في العودة إلى غرب أوروبا ، في الوقت الذي كان الفاطميون يستعدون لإنفاذ حملتهم الثانية إلى فلسطين <sup>(١)</sup> .

### الحملات الفاطمية الثانية سنة ١١٠٢ ؛ موقعة الرملة الثانية

والواقع أن الوزير الأفضل لم يستطع صبرا على الهزيمة التي لحقت بجيوشه على أيدي الصليبيين ، فأسرع إلى إعداد حملة أخرى كبيرة من العرب والسودان ، واجتمعت هذه الحملة التي بلغت عشرين ألف رجلا في عسقلان في منتصف مايو سنة ١١٠٠ ، تحت قيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل <sup>(٢)</sup> . وقد اتبعت هذه الحملة الطريق نفسه الذي اتبعته الحملة السابقة ، فاتجه الجيش الفاطمي من عسقلان إلى الرملة واللد ويازور ، ومن هناك اتجهوا من جديد لتهديد يافا وبيت المقدس .

وكان الملك بلدوين الأول قد اتخذ اهتمامه ، فحشد في يافا بضعة آلاف من الصليبيين ، ولكن يبدو أنه اغتر بانهضاره السابق واستخف بأمر الفاطميين ، فخرج من بيت المقدس ( ١٧ مايو ) في قسلة من الفرسان تبلغ مائتي فارس ، قاصدا الرملة <sup>(٣)</sup> . وكان بلدوين يسير على رأس رجاله في غير نظام فيما بين يازور والرملة ، عندما تعرضوا لهجوم المسلمين . وربما ظن المسلمون أن تلك الشزيمة من فرسان الصليبيين ليست إلا مقدمة لجيش صليبي كبيرات في أعقاب الملك ، فاختاروا أن يباغتوا الملك ورجاله فورا قبل أن يلحق به بقية جيشه . ولم يكن في استطاعة بلدوين وفرسانه الثبات أمام الهجوم الإسلامية « فانهزم الفرنج وقتل

(1) Guillianme de Tyr, I, p. 428.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 231.



منهم مقتله عظيمة»<sup>(١)</sup> ، وفر بعضهم إلى يافا ، في حين لجأت البقية الباقية — ومن ضمنهم الملك بلدوين نفسه — إلى الرملة (١٧ مايو سنة ١١٠٢)<sup>(٢)</sup> .

والمعروف أن الرملة مدينة صغيرة ضعيفة التحصين ، كان في استطاعة المسلمين أن يستولوا عليها ويدخلوها في غير عناء ليقبضوا على غريمهم ملك بيت المقدس ، ولكن غروب الشمس وحلول الظلام جعلهم يؤجلون ذلك إلى الصباح التالي<sup>(٣)</sup> . وبينما بلدوين يقضى ليلته في الرملة لا يغمض له جفن في انتظار مصيره في الصباح التالي ، إذا بفكرة الهروب في منتصف الليل تراود نفسه . ويقال إن الذي أوحى إليه بهذه الفكرة وساعده في تنفيذها هو شيخ العرب الذي كان بلدوين في العام السابق قد أكرم زوجته الشابة وأطلق مراحها من الأسر ، فحفظ له الشيخ ذلك الجليل وأتى ليساعد بلدوين في محنته<sup>(٤)</sup> . ومهما يكن من أمر فالهم هو أن بلدوين «تسكروا وخرج منها إلى يافا» ، وكان فراره ليلا ، وبذلك استطاع أن يفلت من مطاردة الفاطميين الذين لاحقوه عندما سمعوا خبر فراره<sup>(٥)</sup> . أما الرملة فسقطت في يد الفاطميين في ١٩ مايو سنة ١١٠٢ ، قتلوا معظم من فيها من فرسان الصليبيين الذين كانوا صحبة بلدوين<sup>(٦)</sup> . ويؤكد ابن الأثير أن المسلمين قتلوا داخل الرملة «أربع مائة صبرا وأرسل ثلثماية إلى مصر»<sup>(٧)</sup> .

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(2) Albert d'Aix, P. 593.

ويذكر ابن الأثير في موضع آخر أن بلدوين كان في سبي فارس ، ولم يكن في مائتي فارس كما ذكر المؤرخون الغربيون . كما يذكر أنه عندما حلت الهزيمة بالصليبيين اختفى بردويل في «أجمة قصب» فأحرقها المسلمون ولحقت النار ببعض جسده ففر إلى الرملة .

( السكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ ) .

(3) Setton : op. cit, vol. I, p. 365

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 414-415.

(٥) ابن الأثير السكامل ، سنة ٤٩٥ هـ .

(6) Foucher de Chartres, p. 402.

(٧) ابن الأثير السكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

ولم تلبث الجيوش الفاطمية أن حاصرت يافا في الوقت الذي كانت مطاردة بلدوين تجري على قدم وساق . فعندما سمع بلدوين — وهو في طريقه إلى يافا — خبر تعرض يافا لحصار المسلمين ، اتجه نحو أرسوف شمالى يافا ( ١٩ مايو سنة ١١٠٢ )<sup>(١)</sup> . وكانت فرحة الصليبيين في أرسوف بالغة عندما رأوا أمامهم بلدوين على قيد الحياة ، بعد أن انتشرت الشائعات بخبر مقتله . وسرعان ما بدأت عملية تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الفاطميين ، في حين استطاع بلدوين أن يدخل يافا عن طريق البحر ، ولحقت به كثير من الإمدادات الصليبية<sup>(٢)</sup> . وشاء الصدف أن تصل إلى ميناء يافا في أواخر شهر مايو مائتي سفينة ، تحمل عددا كبيرا من الجند والحجج الإنجليز . وشقت هذه السفن طريقها إلى الميناء مخترة حصار الأسطول الفاطمي ، وبذلك حصل بلدوين في يافا على ما كان يلزمه من معونة عاجلة<sup>(٣)</sup> . وفي ٢٧ مايو سنة ١١٠٢ خرج بلدوين من يافا على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة ، وما هي إلا بضعة ساعات حتى نجح الصليبيون بفضل تنظيمهم في إنزال الهزيمة بالجموع الفاطمية التي ولت الأدبار نحو عسقلان<sup>(٤)</sup> .

ويروى ابن الأثير أنه عندما سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالي ، أسرع بإرسال حملتين ، إحداها برية تحت قيادة المملوك تاج العجم ، وتألفت من

(1) Albert d'Aix, p. 595.

(2) Michaud : op. cit, II, p. 30

(3) Runciman : op. cit, II, p. 79-80.

ويذكر ابن الأثير أن الخلاف دب بين أمراء الجيش الفاطمي عقب النصر الذي أحرزوه على الصليبيين في الرملة ، فرأى فريق منهم الاتجاه إلى يافا « فيناهم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة البيت المقدس ، فبرز بهم بغدوين (بلدوين) للغزو ... » (السكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ ) .

(4) Foucher de Chartres P. P. 404-405 &

Guillaume de Tyr. P. 435.

أربعة آلاف فارس ؛ والأخرى بحرية برآسة القاضي ابن قادوس<sup>(١)</sup> . ولكن الشيء الذى كان ينقص الفاطميين عندئذ لم يكن كثرة الرجال وإنما إحكام الخطط الحربية ؛ إذ رفض تاج العجم معاونة ابن قادوس ، وقال له « ما يمكننى أن أنزل إليك إلا بأمر الأفضل . ولم يحضر عنده ولا أعانه . فأرسل القادوسى إلى قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوما واستدعى تاج العجم فلم يأت ، ولا أرسل رجلا »<sup>(٢)</sup> .

وفى تلك الأثناء أرسل بلدوين الأول رسالة عاجلة إلى تنكرد الوصى على أنطاكية ، وإلى بلدوين دى بورج أمير الرها الجديد ، يطلب منهما إمداده بنجدة سريعة<sup>(٣)</sup> . ولم تلبث هذه النجدة التى بلغت خمسمائة من الفرسان وألف من المشاة أن وصلت يافا فى سبتمبر سنة ١١٠٢ ، وعلى رأسها أمير أنطاكية والرها<sup>(٤)</sup> . وكان من الممكن أن يصبح لتلك التجمعات الصليبية شأن كبير لو أن الفاطميين ثبتوا فى القتال فى معركة فاصلة ضد الصليبيين ؛ ولكن الجيوش الفاطمية عقب هزيمتها أمام يافا آثرت الانسحاب — وفى أعقابها الصليبيون — حتى عسقلان . وفى وسط تلك الأزمة طلب الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المدد ضد الصليبيين ، ولكن دقاق « اعتذر عن ذلك ولم يحضر »<sup>(٥)</sup> .

على أن اجتماع تنكرد وبلدوين دى بورج مع الملك بلدوين الأول أثار عدة مشكل حساسة ، محورها تحديد العلاقة بالضبط بين إمارتى أنطاكية والرها من ناحية ، ومملكة بيت المقدس الصليبية من ناحية أخرى . على أنه يبدو أن أهم

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ

(٢) المرجع السابق

(3) Stevenson : op. cit; I, p. 46.

(4) Albert d'Aix, p. p. 597 & Raoul de Gaen, p. 707

& Rec. Hist. Or, p. 494)

(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر سنة ٤٩٦ هـ .

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

مسألة أثبتت في تلك المناسبة ، كانت رغبة الملك بلدوين في التخلص من دايمبرت بطرق بيت المقدس الذي توج بلدوين مكرها والذي أحاطت الشبهات تصرفاته وسلوكه . وقد أرسل البابا باسكال الثاني مندوبا إلى بيت المقدس للتحقيق في ذلك الموضوع ، وعندئذ أوضح بلدوين للمندوب البابوي سوء تصرفات دايمبرت وتأمره ضد الملك وجشعه. وجاءت هذه الاتهامات مقرونة بالأدلة الدامغة، مما جعل المندوب البابوي يصدر حكمه باعفاء دايمبرت من منصبه ، فغادر دايمبرت بيت المقدس إلى أنطاكية ، حيث عهد إليه تفكر دبرعاية كنيسة القديس جورج (جرجس) في المدينة سنة ١١٠٢<sup>(١)</sup>.

على أن تنكرد انتهاز فرصة حضوره إلى مملكة بيت المقدس في العام نفسه لنجدة الملك بلدوين من جديد ، وأحضر معه دايمبرت ليطالب بإعادته إلى بطرقة بيت المقدس ، كشرط أساسي لاعترافه بالولاء لملك بيت المقدس. وقد عارض بلدوين ذلك الطلب ، حتى انتهى الأمر بعقد مجمع ديني في بيت المقدس أقر عدم صلاحية دايمبرت لشغل تلك الوظيفة الدينية<sup>(٢)</sup> . ولم يلبث أن عاد دايمبرت إلى إيطاليا سنة ١١٠٤ حيث حاول أن يحصل على تأييد البابوية لإعادته إلى كرسي بيت المقدس ، ولكنه توفي في يوفية سنة ١١٠٧<sup>(٣)</sup>.

أما تنكرد وبلدوين دى بورج فقد استاءا لعدم تلبية رغبتهما الخاصة بإعادة دايمبرت إلى كرسيه البطرقى ، وانسحبا إلى إمارتهما في الشمال (حوالى ١٠ أكتوبر سنة ١١٠٢) ، دون أن يعترفا بالتبعية للملك بلدوين .

---

(1) Runciman, op. cit, II, p 81-82.

(2) Richard : Le Royaume Latin, p. 94.

(3) Alb. rt d'Aix, P. P. 598-600.

## بلدوين الأول وفتح عكا

من الملاحظ في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية أنها ظلت دائماً تشعر بحاجة ملحة إلى ربط نفسها بالبحر ربطاً قوياً ، وإلى تأمين اتصالها بالشاطئ ، تأميناً ثابتاً ؛ لأن البحر بالنسبة لها كان بمثابة الرئة التي تتنفس بها تلك المملكة والشريان الذي ربطها بقلب العالم الغربي وتزود عن طريقه بما تحتاج إليه من إمدادات بشرية ومادية . لذلك لم تنفع مملكة بيت المقدس بالموانئ المحدودة التي استوت عليها من المسلمين حتى ذلك الوقت ، وهى يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا ؛ وظلت تطمع في الاستيلاء على بقية موانئ فلسطين العربية مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا ويبروت ، وكلها كانت تابعة للفاطميين<sup>(١)</sup> . حقيقة إن سيطرة الفاطميين على هذه الموانئ صارت شكلية ، ولكن من يدري ، فربما أصبحت سيطرتهم فعلية في المستقبل القريب ، وعندئذ يمكن أن يستغاث المساهمون في طعن مملكة بيت المقدس الصليبية في الصميم عن طريق قطع الشريان الذي يربطها بالغرب الأوربي . ومثال ذلك ما حدث في شتاء سنة ١١٠٢ عندما جنحت على شاطئ الشام بضعة سفن تحمل حجاجاً عائدِينَ إلى الغرب الأوربي ، فأُسرت الساطات الفاطمية في صيدا وعكا وعسقلان من بها من حجاج ، وبيع معظمهم في أسواق الرقيق بالقاهرة<sup>(٢)</sup>

وكان أن شرع الملك بلدوين الأول في ربيع سنة ١١٠٣ يحاصر عكا لأول مرة « وضيق عليها وكاد يأخذها » . ولكن عكا — كما هو معروف عنها في جميع عصور التاريخ — من أحصن موانئ الشام . ولم تلبث أن وصلتها

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 239.

(2) Albert d'Aix, P. P. 600-601.

« النجيدات من سائر السواحل » ، وجاءت إليها السفن الفاطمية من صور وصيدا ، وعندئذ أدرك الملك بلدوين أن الاستيلاء على عكا لن يتم في سهولة ، فرفع الحصار عنها وعاد من حيث أتى<sup>(١)</sup> . ومن الواضح أن عجز بلدوين الأول أمام عكا في تلك المرة إنما يرجع إلى عدم وجود قوة بحرية تسنده وتشد أزر قواته البرية . وقد ظهرت الحاجة إلى القوة البحرية مرة أخرى عندما أرسل الوزير الأفضل حملته البرية — التي سبقت الإشارة إليها — ضد يافا في أغسطس سنة ١١٠٣ . ولكن الخلاف بين القائدين الفاطميين أدى إلى فشل الحملة كما أوضحنا . ثم لم يلبث أن أدى وصول الملك بلدوين الأول إليها في أكتوبر سنة ١١٠٣ إلى رفع الحصار البحري عنها<sup>(٢)</sup> .

وأخيراً أتاحت الفرصة لبلدوين الأول في أوائل مارس سنة ١١٠٤ ، عندما وصلت إلى اللاذقية عمارة جنوية تألفت من عدد كبير من السفن ، مما ضمن للصليبيين سيادة فعلية على شواطئ الشام<sup>(٣)</sup> . وكان ذلك الأسطول الجنوى قد وصل إلى اللاذقية يحمل كثيراً من « التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك » فاستعان به ريموند الصنجيلي في القيام بهجوم فاشل على طرابلس « فلم يروا فيها مطعماً » ؛ وعندئذ انتقل الصليبيون إلى جبيل وحاصروها وقاتلوا حتى طلب أهلها الأمان وسلموا . ولم يف الصليبيون بالأمان والعهد فاعتدوا على أهل جبيل « وأخذوا أموالهم واستنقذوها بالعمويات وأنواع العذاب<sup>(٤)</sup> » . ولم يكف الأسطول الجنوى يفرغ من مهمته في جبيل حتى استعان به الملك بلدوين الأول

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ &

Foucherde Charles, p. 406.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ . &

Albert d'Aix, P. P. 603-604.

(3) Heyd : op cit, I, p. 139.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ . &

Runciman. II. p. 60.

في مهاجمة عكا في أواخر مايو سنة ١١٠٤. وقد دافع عن عكا حاكمها الفاطمي زهر الدولة الجيوشي<sup>(١)</sup>، الذي « قاتل حتى عجز » ولكنه لم يقو على مقاومة الحصار المحكم الذي فرضه الصليبيون على عكا من ناحيتي البر والبحر، فاضطر إلى التسليم « وملك الفرنج البلد بالسيف قهراً<sup>(٢)</sup> ». وتذكر المراجع الصليبية أن الجنوية نقضوا العهد الذي أعطاه بلدوين لأهل المدينة، فاعتدوا على أرواح السكان وممتلكاتهم مما أثار غضب الملك بلدوين ونقمته<sup>(٣)</sup>.

ومهما يكن من أمر، فإن سقوط عكا جعل للصليبيين السيادة على شواطئ فلسطين، بعد أن حرم الأسطول الفاطمي من أهم قواعده بالشام. أما الجنوية فكان بلدوين قد وعدهم بإعطائهم ثلث عكا ليكون حياً تجارياً لهم، وفعلاً نفذ وعده كما منحهم ثلث قيساريه وأرسوف أيضاً<sup>(٤)</sup>. أما عن المسلمين فإن خسارتهم في عكا كانت فادحة، ويبدو ذلك فيما أظهره المؤرخون للمسلمون من أسف عميق لعجز الفاطميين عن حماية موانئ الشام التي أخذت تتساقط واحد بعد آخر في أيدي الصليبيين. من ذلك ما يقوله أبو الحسن عن الخليفة الأمر الفاطمي أنه كان « يتناهى في العظمية ويتقاعد عن الجهاد ... وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه ... ولم ينهض لقتال الفرنج البتة وإن كان أرسل مع الأسطول عسكرياً فهو كلاً شيئاً...!! »<sup>(٥)</sup>.

(١) اسمه بنا، ويعرف بزهر الدولة الجيوشي نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل.  
(٢) هذه رواية ابن الأثير (الكامل، سنة ٤٩٧ هـ). وتذكر بقية الروايات أن الجيوشي طلب الأمان وأنه أجيب إلى طلبه. ولكن يلاحظ أن رواية المؤرخ أبي الحسن تختلف عن الرواية السابقة التي أجمع عليها المؤرخون الغربيون؛ إذ يذكر أبو الحسن أن الجيوشي « طلب الأمان له وللمسلمين فلم يعطوه لما علموا من أهل مصر أنهم لم ينجدوه ». (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٨).

(3) Albert d'Aix: p. 606-607.

(4) Guillaume de Tyr: I, p. 445.

(٥) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٨.

### الحملة الفاطمية سنة ١١٠٥، موقعة الرملة الثالثة :

وفي تلك الأثناء لم يتخل الوزير الأفضل عن فكرة إرسال حملة كبيرة لطرد الصليبيين من الشام . وكان أن قام بمحاولة أخيرة في هذا الصدد في صيف ١١٠٥، فجمع في عسقلان جيشاً كبيراً بلغ خمسة آلاف جندي من المصريين والسودان فضلاً عن الفرسان العرب ، ووضع ذلك الجيش تحت إمرة أحد أبنائه وهو سناء الملك حسين <sup>(١)</sup> . وفي الوقت نفسه استعد الأسطول الفاطمي لمساندة الجيش من ناحية البحر . ولم يتردد الوزير الأفضل في طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السنيين، على الرغم من الخصومة المذهبية بينهم وبين الفاطميين الشيعة ؛ فعرض على طغتكين — الذي آلت إليه السلطة في دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدولة — تنس في صيف سنة ١١٠٤ -- أن يساعده في قتال العدو المشترك . وفعلاً استجاب طغتكين لنداء الفاطميين ، فأرسل إليهم أحد رجاله — وإسمه « اصبهيد صباوا » — ومعه ألف وثلثمائة فارس ؛ وربما كانت هذه أول محاولة عملية يشترك فيها المسلمون في مصر والشام ضد الصليبيين <sup>(٢)</sup> .

وعندما علم بلدوين الأول بتلك الأحداث ترك يافا، وخرج على رأس جيشه إلى الرملة حيث يستطيع من ذلك المكان حماية يافا من ناحية وبيت المقدس من ناحية أخرى . وسرعان ما اجتمع حول بلدوين أفصالة من أمراء الصليبيين ومعهم جيوشهم ، فضلاً عن أرتاش ( بكتاش ) ابن تاج الدولة تنس الكبير المطالب بملك دمشق <sup>(٣)</sup> والذي رافق بلدوين لمساعدته، ومعه مائة من

(١) ابن الأثير : السكامل، حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

(٢) المرجع السابق، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٣) توفي دقاق ملك دمشق في يونيو سنة ١١٠٤، فألقت السلطة الفعلية إلى الأتابك

طغتكين الذي اختار ألا يكشف عن مطامعه، فأعلن قيام تنس الصغير ابن دقاق، مع أن تنس ==



رجاله . ولم يكذب إمبرار بطرق بيت المقدس يأتي ومعه صليب الصلبوت وعدد من الرجال في ٢٧ أغسطس ، حتى دارت المعركة المنتظرة مع المسلمين . وقد انتهت تلك المعركة بتمزيق القوات الفاطمية شر ممزق ، وفرار الدماشقة الذين أرسلهم طغتكين ، وقتل كثير من أمراء الجيش ، من جملتهم جمال الملك أمير عسقلان . هذا مع ملاحظة أن خسائر الصليبيين أيضاً كانت عظيمة في تلك الموقعة ، فقتل منهم كثيرون على رأسهم قائد قوات أرسوف وقائد قوات عكا . وقد عبر ابن الأثير تعبيراً دقيقاً عن نتيجة تلك الموقعة بقوله أنه « لم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى ، فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم <sup>(١)</sup> » . أما الأسطول الفاطمي فقد قفل راجعاً إلى صور وصيدا وطرابلس ، ولكنه تعرض بعد ذلك أثناء عودته إلى مصر لعاصفة هوجاء قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه على المواقي الصليبية ، فأسرها الصليبيون <sup>(٢)</sup> .

والواقع إن حملة الفاطميين سنة ١١٠٥ كانت آخر محاولة كبرى قام بها الفاطميون ضد الصليبيين في تلك الفترة ، هذا وإن ظل الفاطميون يهددون الصليبيين بين حين وآخر ولكن في نطاق محدود . وكان مركز الهجمات الفاطمية دائماً مدينة عسقلان ، ومن هذا المركز أغارت القوات الفاطمية سنة ١١٠٦ على قافلة من الحجاج الصليبيين بين يافا وأرسوف ، كما أغارت سنة ١١٠٧

== كان في العام الاول من عمره . وبعد قليل خلع طغتكين الطفل تنش وأحل محله عمه أرتاش أو بكتاش ، وهو أخو دقاق ، ولم يتجاوز عمره الثانية عشرة . على أن أرتاش خشي خطر طغتكين ففر من دمشق إلى حوران ومنها لجأ إلى بلدوين الاول ملك بيت المقدس طالباً حمايته . وبعد أن اشترك أرتاش في مساعدة بلدوين في موقعة الرملة الثالثة سنة ١١٠٥ ، تخلى بلدوين عن مساعدته فانسحب أرتاش إلى الرحبة على لفورات . انظر :

( ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ — ١٤٩ هـ . &

Runciman : op. cit, II, p. 89.

( ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ ) . &

Gesta Francorum, p. 541.

(2) Foucher de Chartres p. 414

( م ٢٠ — ١ الحرك )

على الخليل ؛ بل إن الفاطميين وصلوا سنة ١١١٠ إلى أسوار بيت المقدس ذاتها<sup>(١)</sup>.

### أمراء الجليل ومرب المسلمين :

وبينما الملك بلدوين الأول يواصل نشاطه وجهوده في المنطقة الساحلية ، ظل فصله هيو فالكنبرج — خليفة تنكرد في حكم طبرية — يعمل على توسيع إمارته في الجليل على حساب المسلمين ، وذلك بالتوسع في الشمال الغربي تجاه صور وفي الشمال الشرقي في إقليم السواد . وكان هدفه الأول جهة البحر الاستيلاء على صور من الفاطميين . ولتحقيق هذا الغرض شيد حصن تبين في مواجهة ساحل صور ، وهو الحصن الذي صار له شأن كبير في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية<sup>(٢)</sup> . أما في الجهة الشرقية من بحيرة طبرية ، فقد دأب هيو على القيام بإغارات في إقليم السواد — سواد طبرية — التابع لدمشق ، فشيد هناك حصن عال على بعض المرتفعات الواقعة إلى الجنوب الغربي من البحيرة .

وقد تم بناء هذين الحصنين — تبين وعال — في خريف سنة ١١٠٥ ، الأمر الذي أزعج طغتكين صاحب دمشق ، لأنه رأى في ذلك تهديداً خطيراً لبلاده<sup>(٣)</sup> . وكان أن انقضت جيوش دمشق على هيو حاكم الخليل في نهاية سنة ١١٠٥ أثناء عودته محملاً بالغنائم من إحدى إغاراته على المسلمين ، فأصيب هيو بجرح خطير مات بسببه ، وتشتت رجاله<sup>(٤)</sup> . ولم يصعب بعد ذلك على طغتكين الاستيلاء على حصن عال « بما فيه من آلات وغيرها » ، في حين عين بلدوين فارساً فرنسياً

(١) Runciman op. cit, II. p.p 90-91.

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٥١ و ٥٢

Guillaume de Try, p. 459.

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٤٩ ؛ وقد أطلق ابن القلانسي على حصن عال اسم «عمال»

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٤٩٩ هـ (P. 530)

اسمه جرفيه Gervais ( جرفاش ) ليكون أميراً على الجليل<sup>(١)</sup> .

وسرعان ما استغل المسلمون في عسقلان وصور وصيدا وبيروت فرصة انشغال بلدوين الأول بأمور الجليل بإغارة على طريق يافا — بيت المقدس. وكان أن خرج سبعة آلاف فارس من الحاميات الفاطمية في تلك المدن في ٩ أكتوبر سنة ١١٠٦ إلى سهل نهر العوجة — بين أرسوف ويافا — وقتلوا قرابة خمسمائة من حجاج الصليبيين كانوا مجتمعين هناك . وبعد ذلك أوغل المسلمون حتى الرملة وقتلوا قوة استطلاعية من بعض الفرسان أرسلهم حاكم يافا الصليبي<sup>(٢)</sup> . وقد استمرت تلك القوة الإسلامية تواصل نشاطها ضد الصليبيين فيما بين يافا وبيت المقدس ، حتى إذا ما أحس المسلمون بأن الملاك بلدوين في طريقه إليهم ، انسحبوا إلى مدنها الساحلية وتحصنوا فيها . وقد أراد بلدوين أن ينتقم من المسلمين بمهاجمة عسقلان ، ولكنه عدل عن ذلك مؤقتاً لعدم وجود سفن كافية تساعده من ناحية البحر<sup>(٣)</sup> .

وهكذا وجدت مملكة بيت المقدس الصليبية نفسها بين نارين ، أمام هجمات الدماشقة من ناحية الشمال وهجمات الفاطميين من ناحية الجنوب . ففي الوقت الذي أخذ طغتكين أتابك دمشق يهاجم إقليم طبرية ، أخذ صاحب صور يشن هجمات عنيفة ضد حصن تبين<sup>(٤)</sup> . ولم يلبث طغتكين أن نصب كميناً للصليبيين في أوائل ماير سنة ١١٠٨ في الجبال القريبة من طبرية ؛ فقتل الصليبيون كثيراً من الضحايا في ذلك الكمين ، ووقع جرفيه ( جرفاش ) أمير الجليل — « وهو من مقدمى الإفرنج المشهورين بالفروسية والشجاعة » — أسيراً في أيدي

ابن أقتلانى ص ١٤٩ هـ (1) Albert d'Aix, p. 635 &

(2) Grousset: Hist. des Croisades. I, pp. 247-248.

(3) Albert d'Aix, pp. 635 - 638.

(4) Setton : op. cit. vol I. P. 386

للمسلمين ، فخلوه إلى دمشق مقيدا بالسلاسل<sup>(١)</sup>. وقد أبدى طغتكين استعداداً لإطلاق سراح جرفيه مقابل ثمن باهظ، هو جلاء الصليبيين عن طبرية وعكا وحيفا. ولكن الملك بلدوين الأول رد عليه بأنه غير مستعد للتنازل عن هذه المدن الثلاث حتى ولو كان الأسرى المطلوب إطلاق سراحهم هم جميع أهل يثته وجميع زعماء الفرنجة . وكان أن أمر طغتكين بقتل جرفيه<sup>(٢)</sup>.

على أن طغتكين لم يلبث أن وجد نفسه في نزاع مع عدد من جيرانه المسلمين، ففكر في عقد هدنة مع بلدوين الأول، في الوقت الذي كان الأخير لا يرجو أكثر من مسالة الدماشقة ، ليتفرغ للخطر المستمر الذي هدد يافا والرملة من جانب الفاطميين . لذلك أرسل طغتكين سفارة من خمسة رجال إلى بلدوين ليعقد هذه الهدنة ، فاستقبلهم بلدوين استقبالا حسنا . وقد تحدث كل من أبي الحاسن وابن الأثير عن هذه الهدنة فذكرا أنها كانت لبضع سنوات ، وأن الطرفين اتفقا فيها على اقتسام السواد وجبل عوف ، بحيث يكون ثلث دخلها للفرنجة والثلث الثاني لسلاجقة دمشق والثلث الأخير للفلاحين العرب<sup>(٣)</sup>. ويصف ابن الأثير مدى أهمية هذه الهدنة للمسلمين ، إذ لولاها « لكان الفرنج بلغوا من المسلمين بعد الهزيمة الآتية ذكراها أمرا عظيما ... »<sup>(٤)</sup>

(١) ابن الجوزي : مرآة الزمان (P 536) & ابن القلانسي ؛ ص ١٦١ &

Albert d'Aix, p. 657.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١ — ١٦٢ &

Guibert de Nogent P 259

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ . ٩

أبو الحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٠ . &

(٤) Stevenson : op. cit. p 50.

### استيلاء الصليبيين على بيروت وصيدا :

وطوال تلك الأثناء لم يتدخل بلدوين مطلقاً عن فكرة الاستيلاء على بقية المدن الساحلية التي مازالت بأيدي الفاطميين ، وهي عسقلان في الجنوب وصور وصيدا وبيروت في الشمال . وقد أدرك بلدوين أن عسقلان وصور على جانب كبير من المناعة والقوة ، وأنه ليس من السهل الاستيلاء عليها دون استعدادات كبيرة . لذلك اختار أن يبدأ بمهاجمة صيدا في ربيع سنة ١١٠٦ مستغلاً فرصة وجود عدد كبير من الحجاج الانجليز والفلمنكيين والدانين عندئذ في بيت المقدس ليساعده في ذلك الأمر . وعندما علم حاكم صيدا بذلك أسرع بإرسال مبلغ كبير من المال إلى بلدوين لشراء مسالمة ، فقبل بلدوين الثمن وكف يده عن صيدا مدة عامين <sup>(١)</sup> .

ثم كان أن وصل إلى شواطئ فلسطين في أغسطس سنة ١١٠٨ عدد كبير من السفن الوافدة من بيزا وجنوا والبندقية وأمالني ، فأراد بلدوين الأول أن يستغل تلك القوة في الاستيلاء على صيدا من الفاطميين ، وشرع فعلاً في حصارها برا وبحرا . وقد بدأ الصليبيون عملياتهم الحربية الأولى ضد صيدا بنجاح ، ولكن لم يلبث أن تغير مجرى الأمور عندما وصلت إلى مياه صيدا عمارة بحرية فاطمية كبيرة استطاعت أن تنزل الهزيمة بالسفن الإيطالية <sup>(٢)</sup> . وكان ذلك في الوقت الذي طلب حاكم صيدا من طغتكين إمداده بقوة برية تساعد على دفع الصليبيين متقابل تعهده بدفع مبلغ كبير من المال ، فلبى طغتكين النداء وأرسل له نجدة كبيرة ، قدرها المؤرخون بخمسة عشر ألف مقاتل . وهنا أدرك بلدوين أن العملية فاشلة ، فأثر الانسحاب ومعه قواته إلى عكا . ولم يكذب ينسحب بلدوين حتى امتنع أهل صيدا عن دفع المبلغ الذي تعهدوا بدفعه لحاكم دمشق ، بل لقد رفضوا أن يسمحوا للدماشقة بدخول المدينة خوفاً من أن تكون هناك مؤامرة دبرها

(1) Albert d'Aix; p.p. 632 — 634.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 253

طغتكين للاستيلاء على صيدا<sup>١</sup> وعندما هدد سلاجقة دمشق باستدعاء بلدوين لمهاجمة صيدا ، رضى صاحبها ودفع مبالغاً يقرب من ثلث الثمن المتفق عليه<sup>(٢)</sup>

وفي صيف سنة ١١٠٩ اتجه بلدوين لمساعدة برتراند - ابن ريموند

الصنجيلى - فى جهوده للاستيلاء على طرابلس ، فسقطت هذه المدينة فى ١٢

يوليو فى أيدي برتراند مما أدى إلى مولد إمارة طرابلس الصليبية ، كما سيلي فيما

بعد . ونكتفى الآن بالإشارة إلى أن برتراند بن ريموند أراد أن يعترف بالجيل

لبلدوين الأول ، فساعدته فى العام التالى فى الاستيلاء على بيروت<sup>(٣)</sup> . وقد استمر

حصار بيروت عدة أشهر — من فبراير حتى مايو سنة ١١١٠ — وعبثاً حاول

الفاطميون خلال تلك المدة إرسال نجذات إلى بيروت عن طريق البحر . وعندما

يئس صاحب بيروت من وصول مساعدات إليه ، فر فى سفينته ليلاً إلى قبرس ،

فاضطر أهل بيروت إلى التسليم لبلدوين بعد أن حصلوا على وعد منه بالأمان<sup>(٤)</sup> .

ومع ذلك فإن الجنوية والبيازنة أحدثوا مذبحة رهيبة فى أهل بيروت المسامين ،

ولم يستطع الملاك بلدوين استعادة الأمن والسلام إلا فى صعوبة بالغة<sup>(٥)</sup> .

ولم يلبث أن وصل عكا فى صيف سنة ١١١٠ أسطول من الحجاج النرويجيين

تحت زعامة سيجورد Sigurd ملك النرويج ، فرحب بلدوين الأول بالملاك

النرويجي ورجاله أجهل ترحيب ؛ ثم رأى — كعادته — أن يستغل تلك القوة

فى تحقيق مكاسب جديدة لمملكة بيت المقدس ، ولينجاة الصليبيون تلك المرة

ضد صيدا التى فشلوا من قبل فى الاستيلاء عليها . وعندما أخذ النرويجيون

يحصرون صيدا بجزراً فى الوقت الذى كان بلدوين الأول يحاصرها براً ( أكتوبر

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٢ & Albert d'Aix ; p. 654 - 655 .

(2) Michaud : op. cit. I, p. 40-44.

(3) Foucher de Chartres p. 51 & Albert d'Aix, P. 671 .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(١١١٠) ، شاء حسن حظ الصليبيين أن يأتي إلى الشام أسطول بندقي كبير تحت زعامة دوج البندقية نفسه ، فاشترك مع الأسطول النرويجي في حصار صيدا ومهاجمتها من ناحية البحر<sup>(١)</sup> . وهكذا أدرك قاضي صيدا وشيوخها أنه لا أمل في النجاة إلا بالتسليم ، فطلبوا الأمان ( ٤ ديسمبر ١١١٠ ) وعندئذ أمنهم بلدين وسمح للقاضي ومعه عدد كبير من الأهالي بالخروج إلى دمشق « وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان »<sup>(٢)</sup> . وبعد ذلك عاد النرويجيون إلى بلادهم ، في حين أنعم بلدين على البنادقة بامتيازات كبيرة في عكا<sup>(٣)</sup> .

### أطماع بلدين الأول في عسقلان وصور :

أما مدينة عسقلان — وهي القاعدة الحربية الرئيسية للفاطميين في فلسطين — فقد أوشكت هي الأخرى أن تدخل تحت حماية الفرنجة . ذلك أن حاكم عسقلان — شمس الخلافة — أرسل إلى بلدين الأول « مالا وعروضا » طالبا منه عمدة اتفاقية دفاعية بين الطرفين ، مع استعداده لدفع الجزية للصليبيين<sup>(٤)</sup> وقد انزعج الوزير الأفضل لتلك الأخبار ، لأن عسقلان بالذات مفتاح فلسطين ، فأرسل حملة تحت ستار محاربة الصليبيين ، ولكنه أعطى تعليمات سرية لتأخذ الحملة السكى يعزل شمس الخلافة ويحل محله في حكم المدينة<sup>(٥)</sup> . على أن شمس الخلافة أوجس خيفة من تلك الحملة . ففرض أن يفتح لها أبواب عسقلان ، كما رفض أن يخرج لمقابلة قائد الحملة ، فعدت أدراجها إلى القاهرة . ويروى ابن الأثير أن

(1) Heyd . op. cit, I, p 142.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٤ هـ &

Guillaume de Tyr, p. 478.

(3) Heyd : op. cit; I, p. 142.

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٥) ابن القلانسي ؛ ص ١٧٢ & Albert d'Aix p p 679—680

شمس الخلافة أخذ يتشكك فيمن حوله من العرب « فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جنداً » <sup>(١)</sup> ؛ الأمر الذى أساء إلى شعور أهل عسقلان، فثاروا على شمس الخلافة وقتلوه ونهبوا داره ، كما قتلوا عدداً كبيراً ممن بالمدينة من الفرنج فى يوليو سنة ١١١١ ؛ وفى الحسب أرسلت القاهرة حامية قوية أعادت الأمور إلى نصابها <sup>(٢)</sup> .

وعندما سمع بلديون بخبر تلك الثورة ضد شمس الخلافة ، أسرع إلى عسقلان ، ولكن بعد أن كان كل شيء قد انتهى ، فلم يسعه سوى العودة « وبذلك قدر لعسقلان أن تظل أربعين سنة أخرى شوكة فى حلق الصليبيين » <sup>(٣)</sup> .

أما مدينة صور فكافت — مثل عسقلان — من المدن التى استعصت على بلديون الأول، لأنها اعتمدت دائماً على الخلافة الفاطمية وتلقّت منها الإمدادات . ولكن أهل صور لم يلبثوا أن أحسوا بحرج موقفهم أمام الإغارات الصليبية المتكررة من ناحية ، وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم فى كثير من الحالات من ناحية أخرى ، ولذلك اتجهوا نحو طغتكين أتاكب دمشق طالبين حمايته بوصفه أكبر قوة إسلامية قريبة منهم . وفعلاً أرسل أهل صور إلى طغتكين يطلبون منه أن يرسل إليهم أميراً من عنده يتولاهم ويحميهم « وإلا سلمنا البلد إلى الفرنج » فأجابهم طغتكين إلى ما طلبوا ، وعين عليهم والياً اسمه مسعود ، وفرق عليهم المؤن والأموال « فطابت نفوس أهل البلد » <sup>(٤)</sup> . وفى الوقت نفسه تم الاتفاق على أن

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ . &

Albert d'Aix, p. 481.

(3) Runciman : op. cit, II, p. 95,

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .



يرسل أهل صور مالدِيهم من ثروات وأموال يخشون عليها إلى دمشق ، حيث تحفظ أمانة لأصحابها . وعندما علم بلدوين — الذى استاء لهذه الاتفاقية — بموعد خروج القافلة التى تحمل ثروة الصليبيين إلى دمشق ، أطبقت قواته عليها ، وغنم الصليبيون تلك الثروة الطائلة<sup>(١)</sup> .

ويبدو أن الحصار الذى فرضه بلدوين على صور فى نوفمبر سنة ١١١١ لم يكن تاماً لعدم وجود أسطول صياحي قوى يحبس المدينة من ناحية البحر ، مثماً كان الحال فى حصار بيروت وصيدا . حقيقة إن بعض السفن البيزنطية وصلت أمام صور ، ولكن هذه السفن كانت على درجة من القلة والضعف حالت دون قيامها بعمل حاسم . وبعد أن حدثت عدة اشباكات محلية لم يوفق فيها الصليبيون ، لجأ بلدوين الأول إلى بناء ثلاثة أبراج من الخشب قرب صور لمهاجمة المدينة منها ، ووضع فى كل برج ألف رجل . ويروى ابن الأثير أن شيخاً من أهل طرابلس أحرق تلك الأبراج ، بعد أن رماها بمحطب « سقاء بالنقط والزفت والكتان والكبريت »<sup>(٢)</sup> .

أما طفتكين فقد استجاب لنداء أهل صور الذين أرسلوا إليه يعرضون تسليمه مفاتيح أبواب المدينة مقابل حمايتهم ، فذهب إليهم حيث تسلم البلد ، وقال لهم « أنا ما فعلت إلا لله تعالى لا لرغبة فى حصن ومال ، وحتى دهمكم عدو جئتكم بنفسى ورجالى »<sup>(٣)</sup> . ثم رحل عنهم وأرسل فرقة قوية من جيشه إلى صور ، مما جعل بلدوين يخط تلك المرة أيضاً من حصار صور ، فانصرف عنها

---

(١) Albert d'Aix, p. 690.

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٣) ابن الجوزى : مرآة الزمان سنة ٥٠٦ هـ — ٥٠٨ هـ .

وأخذ يباشر نشاطه في منطقة طبرية ضد أتابك دمشق<sup>(١)</sup> . كذلك لجأ بلديين الأول إلى تهديد القوافل التجارية بين دمشق والقاهرة ، فكان يهاجمها في وادي موسى جنوبي البحر الميت وينهب ما تحمله من ثروات وبضائع<sup>(٢)</sup> .

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر . ( p 467 )

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥٨ — ٢١٨ &

## الفصل الثالث

### بلدوين الأول والأتراك

هجوم الأتراك على الصليبيين سنة ١١١١، بلدوين الأول وسيزر:

سنعالج الأحداث الصليبية المرتبطة بأنطاكية وعلاقتها بالأتراك في باب آخر مستقل ؛ ولكننا مضطرون هنا إلى التعرض لبعض هذه الأحداث في إيجاز ، لإيضاح الدور الذي قام به الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس فيها .

ذلك أنه بينما كان بلدوين الأول مشغولا بموضوع خروج شمس الخلافة في عسقلان عن طاعة الخلافة الفاطمية في القاهرة واتجاهه نحو مخالفة الصليبيين ، إذا برسالة تصله من بلدوين دى بورج أمير الرها تفيد به بأن الأتراك غزوا إمارته . وكان بعض أهالي حلب قد شكوا إلى الخليفة العباسي وسلطان سلاجقة فارس من سياسة حاكمهم رضوان إزاء الصليبيين واستكاثته لتتكرد حاكم أنطاكية ، وطلبوا الجدد في جهاد الصليبيين<sup>(١)</sup> ، وفي الوقت نفسه وصلت إلى بغداد سفارة من الامبراطور البيزنطي لاستثارة الخليفة والسلطان ضد الصليبيين (تتكرر) « والإيقاع بهم والاجتماع عن طردهم ، وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجدد والاجتماع في الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم »<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن هذه

---

(١) وصف المؤرخ أبو المحاسن رضوان هذا بأنه « كان بخيلا شجاعا قبيح السيرة ، ليس في قلبه رافة ولا شفقة على المسلمين . وكانت الفرنج تغاور وتسبي وتأخذ من باب حلب ولا يخرج اليهم » .

(المنجوم الزاهره ، ج ٥ ص ٢٠٥) .

(٢) ابن القلاسي : ذيل تاريخه شق ص ١٧٣ .

التيارات استنارت المسلمين في بغداد ضد الخليفة العباسي المستظهر والسلطان محمد السلجوقي لماطلتهما في الجهاد ، فهبت الثورة ، وصاح الناس في السلطان «أما تتقئ الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى أرسل إليك في جهادهم !»<sup>(١)</sup> .

وإزاء تلك الثورة العنيفة ، أرسل الخليفة إلى حميه السلطان محمد السلجوقي في أصفهان يستحثه على القيام بعمل ما ضد الصليبيين ، فلجأ السلطان بدوره إلى تكليف مودود أتابك الموصل بجهاد الصليبيين في إبريل سنة ١١١١<sup>(٢)</sup> . وعندما استعان مودود بحيرانه من الترك والأكراد — مثل أمراء ميفارقين ومراغة وأربل وهمدان وغيرهم — أحس بلدوين دى بوج أمير الرها بتلك التجمعات الإسلامية على حدود إمارته ، فشرع في تحصين الرها ، وخزن الميرة والطعام فيها ، مما جعل مودود ينصرف عن حصار الرها إلى ثائي مدن تلك الإمارة الصليبية ، وهي مدينة تل باشر غربي الفرات ( ٢٨ يوليو ) .

على أن أمير تل باشر الصليبي نجح هو الآخر في مقاومة الحصار<sup>(٣)</sup> ، في الوقت الذي طلب أمير شيزر بالشام النجدة ضد تنكرد صاحب أنطاكية ؛ كما أن رضوان ملك حلب تظاهر بالاستقامة فطلب مساعدة المسلمين ضد تنكرد . لذلك فكر مودود في مهاجمة إمارة أنطاكية الصليبية بمساعدة حلب ، وعندئذ كشف رضوان النقباب عن وجهه ، وظهر أنه يخشى خطر سلاجقة فارس أكثر من خشيته خطر الصليبيين ، فأغلق أبواب مدينته في وجه مودود ، ورفض أن يتعاون معه ضد الصليبيين . وهكذا لم يبق أمام مودود سوى طغتكين أتابك

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ .

دمشق ، الذى كان يأمل فى غزو طرابلس بمساعدة مودود ، فالتقى به قرب معرة النعمان ، واتفقا على الاشتراك فى حرب الصليبيين<sup>(١)</sup> . ولكن طفتكين لم يلبث هو الآخر أن تخوف من ذلك الجيش السلجوقى الكبير الذى كان تحت إمرة مودود . ومن يدرى فرما انتهز سلاجقة فارس تلك الفرصة التى أتاحها لهم الحروب الصليبية لانتزاع دمشق منه ! ويرى ابن الأثير أن طفتكين عندما ما اجتمع بالأمير مودود « اطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه ، فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع فى مهادنة الفرنج مرأى<sup>(٢)</sup> » . وهكذا لم تلبث أن باءت جهود السلاجقة بالفشل ، بعد أن أخذ كل أمير منهم يتشكك فى الآخر ، وبقى مودود فى نهر العاصى مع طفتكين ، حليفة غير الوفى<sup>(٣)</sup> .

أما الصليبيون فسرعان ما أظهروا تماسكاً قوياً ، وتناسوا ما بين بعضهم وبعض من خلافات ؛ فانسحب تنكرد من أمام شيزر — التى كان يهاجمها — وعاد إلى فامية مسرعاً ، ومن هناك أرسل إلى الملك بلدوين الأول طالباً مساعدته ضد المسلمين<sup>(٤)</sup> . ولم تلبث أن تجمعت قوات بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية والرها قرب فامية — فى الجزء الأوسط من حوض نهر العاصى — ومن ذلك الموقع بالذات كان يمكنهم الإشراف على شمال الشام ، فضلاً عن شاطئ لبنان وفلسطين . ويبدو أن مودود خشى الالتحام مباشرة مع تلك الحشود الصليبية التى بلغت نحواً من ستة عشر ألفاً ، فدخل على رأس جيوشه مدينة شيزر ومعه طفتكين فى ١٥ سبتمبر سنة ١١١١ ، وذلك للاحتماء بها ، ونصب جنودها خيامهم فوق أسطح

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧ .

ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(٢) ابن الأثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 266

(4) Runciman : op. cit; I. P. 122.

المنازل<sup>(١)</sup>. وكان أن تحركت القوات الصليبية هي الأخرى - وعلى رأسها ملك بيت المقدس وأمراء طرابلس وأنطاكية والرها - إلى شيزر، حيث عسكرت في مواجهة المدينة. ولم تلبث أن ساءت الأوضاع في معسكر المسلمين، إذ أصر طغتكين على أن يستجيب له بتيمة أمراء المسلمين في الزحف جنوباً لمهاجمة طرابلس، وهو أمر لم يقره عليه باقى زعماء القوى الإسلامية المتحالفة. أما برسق أمير شمدان فقد مرض ورغب فى العودة، فى حين توفى فجأة سكران صاحب ميافارقين فانسحبت قواته ومعها جثمانه راجعة من حيث أتت. وكذلك احتار أحمد بك الثانى صاحب مراغة العودة إلى إمارته لبعض المشاغل الداخلية<sup>(٢)</sup>. وهكذا رأى مودود حلفاءه وقد انفضوا عنه، مما جعله لا يتقوى بمفرده على منازلة الجيش الصليبي الكبير الذى ظل متماسكاً مستعداً للمعركة. لذلك لم يتعد الأمر بعض المناوشات التى قام بها فرسان السلاجقة لمنع الصليبيين من الوصول إلى مياه النهر للشرب، ثم عاد مودود إلى الموصل وطفغتكين إلى دمشق<sup>(٣)</sup>.

وإذ كانت تلك الحملة السلجوقية لم تحقق شيئاً للجانب الإسلامى، بل على العكس أظهرت تفكك المسلمين عندئذ وعدم وحدتهم، فإنها حققت الكثير بالنسبة للصليبيين. ذلك أنها جمعت صفوف القوى الصليبية فى شمال الشام وجنوبها، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة والأولوية على بتيمة أمراء الصليبيين<sup>(٤)</sup>. وكفى أن تنكرد - الخصم العتيق لبلدوين الأول - اعترف بتلك الزعامة، وحاكاه فى ذلك بلدوين دى بورج، فصار بلدوين الأول يتصرف

(١) ابن القلانسى، ص ١٧٧.

(2) Runciman : op. cit. I. p. 123.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

ابن القلانسى : ص ١٧٧ - ١٧٨

Albert d'Aix. P. 684.

(4) Setton : op. cit; I, p. 400.

في حملة سنة ١١١١ بوصفه القائد الأعلى لتتوات الصليبيين ، والزعيم الأوحـد الذي دان له بالطاعة أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً — حتى سنة ٨٦١١ — صار الصليبيون في بلاد الشام يؤلفون جبهة متماسكة ، على الرغم من قيام تلك الجبهة على أسس إقطاعية . وبعبارة أخرى فإن النظم والتقاليد الملكية التي وضع أساسها الملك بلدوين الأول نجحت في أن تحقق للصليبيين ببلاد الشام قدراً من الاستقرار السياسي استمر نحواً من خمسة وثمانين سنة<sup>(١)</sup> .

### هجوم المراك سنة ١١١٣ ؛ صوفية الصنيرة

على أنه إذا كانت حملة سنة ١١١١ التي قام بها السلاجقة ضد الصليبيين قد باءت بالفشل وانتهت إلى لا شيء ، فإن هذه النتيجة لا ينبغي أن تقلل من قيمة جهود مودود أتابك الموصل ، وهو رجل عرف بالتقوى والورع وتمسكه بفكرة الجهاد الديني<sup>(٢)</sup> . والواقع إن فشل تلك الحملة إنما يرجع أولاً إلى عدم إخلاص رضوان ملك حلب وطغتكين أتابك دمشق ، وتخوفهما من قوة مودود . لذلك عاد مودود إلى الموصل حزينا كاسف البال ، واكتفى مؤقتاً بمراقبة حدود الجزيرة وممالك الشام ، تحقيقاً لرغبة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي .

ثم كان أن تغيرت الأوضاع في بلاد الشام سنة ١١١٣ ، وكان ذلك عندما دخل طغتكين في صراع مع الملك بلدوين الأول حول صور — كما سبق أن رأينا — مما أثار الحزازات بينهم ممرة أخرى . وعندئذ اتجه طغتكين نحو مودود أتابك الموصل « فأرسل إليه يعرفه الحال ويستنجد به ويحثه على سرعة الوصول

(١) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 268.

(٢) وصف أبو الحسن مودود بأنه « كان من خيار الملوك ديناً وشجاعة وخيراً » . ( النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٢٠٧ ) .

إليه . » <sup>(١)</sup> والواقع إن مودود — لم يكن في حاجة إلى تحريض لمواصلة الجهاد، فعبر الفرات عند منتصف مايو سنة ١١١٣ ، وتبعه بعض أمراء السلاجقة في إقليم الجزيرة . وبعد أن تجمعت الجيوش السلجوقية عند سلمية — إلى الجنوب الشرقي من حماه — اتجهت مباشرة صوب بحيرة طبرية . ولم يلبث مودود وطفلكين أن حاصرا مدينة طبرية المنيعية ، وعندما استعصت عليهما ، أخذ السلاجقة يدمرون وينهبون الممتلكات الصليبية المجاورة حتى جبل الطور <sup>(٢)</sup> . على أن طفلكين ومودود سمعا باقتراب الصليبيين ، فاحتشيا بسرعة في شبه الجزيرة التي يصنعها نهر الأردن مع نهر اليرموك جنوبى بحيرة طبرية ، وهى الجهة التي تعرف بالأقحوانه <sup>(٣)</sup> وكان الملك بلدوين في عكا عندما بلغه نبأ الحملة السلجوقية على إقليم طبرية ، فأرسل في الحال يطلب المساعدة من أمراء أنطاكية وطرابلس . وفى ذلك الوقت كان روجر الصقل Roger de Sicile قد خلف عمه تفكرد — الذى توفى سنة ١١١٢ — فى حكم أنطاكية ؛ فى حين خلف بونز Pons أباه برتراند فى حكم طرابلس ، فقرر الأميران الإسراع لنجدة الملك بلدوين . غير أن بلدوين الذى طلب المساعدة لم يشأ أن ينتظر وصولهما ، فتعجل فى مهاجمة السلاجقة دون أن يعتبر بما سبق أن حل به عند الرملة سنة ١١٠٢ . ولم يكد الملك بلدوين الأول يصل إلى جسر الصنبرة — إلى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية — فى ٢٠ يونيو سنة ١١١٣ ، حتى ذكر مودود وطفلكين فى نصب كمين له <sup>(٤)</sup> . وكان أن وقع بلدوين الأول فى الكمين ، ولم ينتج ومعه البطرق أرنول مالكورن — إلا بمشمة

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

Albert d'Aix, p. 694.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٥٤٦ — ٥٤٧ هـ .

ابن القلانسي : ص ١٨٥ هـ



بالغة ، في حين وقع جميع المشاة ، ومعهم متاع الملك نفسه في أيدي السلاجقة . هذا عدا من غرق من الصليبيين في نهر الأردن أو في بحيرة طبرية<sup>(١)</sup> ؛ حتى قدرت خسائر الصليبيين في تلك الموقعة بألف ومائتين من المشاة وثلاثين من الفرسان (٣٨ يونيو ١١١٣)<sup>(٢)</sup> .

ولم يلبث أن وصل روجر أمير أنطاكية وبونز Pons أمير طرابلس ومعهما رجالهما ، وبذلك « قويت نقوس الفرنج » وأخذت تتجمع القوى الصليبية مرة أخرى لمواجهة السلاجقة . وقد أحس الصليبيون بالتفوق العددي لخصومهم ، ولذلك تحاشوا الاشتباك معهم في موقعة فاصلة ، واكتفوا بالاحتواء ببعض المرتفعات الواقعة غربي بحيرة طبرية ، « فالتجأوا إلى جبل في المنزل » وظلوا قابعين في مكمنهم ستاً وعشرين يوماً « والمسلمون يازأهم يرمونهم بالثياب ، ومنعوا الميرة عنهم ، لعلهم يخرجون إلى قتالهم ؛ فلم يخرج منهم أحد »<sup>(٣)</sup> .

ومن الواضح أن هذه الخطة الجامدة التي لجأ إليها الصليبيون أتاحت الفرصة للسلاجقة ، فغربوا المراكز الصليبية في إقليم الجليل حتى وصلوا إلى بيسان و نابلس « ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة »<sup>(٤)</sup> .

ثم كان أن ازداد موقف الصليبيين حرجاً في ذلك الوقت عند ما قامت حامية عسقلان بهجوم على بيت المقدس نفسها ، مستغلة فرصة جمود الملك بلدوين

---

(١) يذكر ابن الأثير أن الملك بلدون نفسه وقع أسيراً في تلك المعارك ، ولمسكن المسلمين لم يعرفوه فأخذوا سلاحه وأطلقوا سراحه ( الكامل ، سنة ٥٠٧ هـ )

(2) Guillaume de Tyr, I p. 485. &

Foucher de Chartres, p. 426.

وقد قدر صاحب مرآة الزمان عدد قتلى الصليبيين في موقعة الصنبرة « بألفي فارس .

من الشجعان والأبطال » ( p. 547 )

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٦

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ

الأول والجيش الصليبي قرب طبرية<sup>(١)</sup>. وهكذا تقدم الجيش الفاطمي من عسقلان يدمر وينهب ويتغنى أثر الصليبيين حتى وصل إلى أسوار بيت المقدس ولكن حامية بيت المقدس ومن بقي فيها من الفرسان ظلت متيقظة تماماً ، في الوقت الذي كان الجيش الفاطمي الذي خرج من عسقلان صغير العدد لا يستطيع القيام بعمل حربي ضخم ضد المدينة ، مما جعل المسلمين يشرعون في العودة إلى عسقلان في الليلة نفسها التي بلغوا بيت المقدس<sup>(٢)</sup>. ومن الواضح أنه لو كانت هناك عندئذ خطة شاملة توحد جهود القوى الإسلامية ، لأمكن أن تقوم الدولة الفاطمية بعمل حربي كبير يهدد الصليبيين تهديداً خطيراً ويجعلهم بين نارين<sup>(٣)</sup>.

ولم يلبث أن وصل إلى عكا في شهر أغسطس عدد من الحجاج الغربيين ، قدرتهم المراجع بستة عشر ألفاً<sup>(٤)</sup> مما بدل الموقف فجأة لصالح الصليبيين ، لاسيما وأن مودود وطغتكين لم يحاولا إطلاقاً الاستفادة من النصر الذي أحرزاه على بلدوين الأول عند الصنبرة . وكان أن انصرف مودود وطغتكين إلى دمشق ، وهناك أذن مودود لرجال جيشه «في العودة والاستراحة ثم الاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة»<sup>(٥)</sup> . أما مودود نفسه فقد بقي — ومعه بعض خواصه — في دمشق في ضيافة طغتكين ، وذلك لحين استئناف الحرب ضد الصليبيين (أوائل سبتمبر ١١١٣)<sup>(٦)</sup>.

(1) Stevenson : op. cit; p 63.

(2) Foucher de Chartres P. P. 426-427

(3) Grousset : Hist. des Croisades. I. P 274.

(4) Albert d'Aix, P 696 &

Guillaume de Tyr, P. 487.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

(6) Setten : op. cit. P. 402

### مقتل مودود؛ التحالف بين أتاك دمشق والصليبيين :

ولم تمض بضعة أسابيع حتى قتل مودود في الجامع الأموي بدمشق بيد أحد الباطنية ، وذلك عند ذهابه لتأدية صلاة الجمعة<sup>(١)</sup> . وقد اتهم المؤرخون — مثل ابن الأثير وابن القلانسي — طغتكين بالتآمر على ضيقه ومحريض ذلك الباطني على قتله<sup>(٢)</sup> . والواقع أننا لا نستبعد أن يكون وجود مودود في دمشق قد أثار مخاوف طغتكين الذي خشي أن يكون الغرض من حركة الجهاد هو رغبة سلطان السلاجقة في بسط سيطرته على دمشق تحت ستار محاربة الصليبيين . وربما كان في تعجل طغتكين في قطع رقبة التائل في الحال وإحراق جثته دليلا على رغبته في طمس معالم الجريمة والتخلص من أداتها، فضلا عن إظهار استنكاره لتلك الجريمة<sup>(٣)</sup> . ولم ينفرد المؤرخون المسلمون وحدهم بتوجيه ذلك الاتهام إلى طغتكين، بل شاركهم في هذا الرأي أيضا بعض المؤرخين الصليبيين<sup>(٤)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن الصليبيين هم الذين استفادوا من تلك الجريمة ، في الوقت الذي أحس طغتكين باتهام الرأي العام الإسلامي له ، فلم يجد حليفا يطمئن إليه سوى الصليبيين . وهكذا ثبت أن أمراء الشام في ذلك الوقت لم يقدروا المصلحة العليا للعالم الإسلامي ، وأنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة في سبيل الصالح العام ، مما دفعهم إلى مخالفة الصليبيين للاحتفاظ بآماراتهم، خوفا من أن تلتهمها سلطنة السلاجقة في فارس واحدة بعد أخرى<sup>(٥)</sup> .

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٩ .

(٢) « فقول إن الباطنية بالشام خافوه وقتلوه، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله » . ( ابن الأثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

(٤) Guillaume de Tyr, p. 487. &

(٥) Albert d'Aix; p. 700.

(٥) Grousset : Hist des Croisades, I; P 276-277

### صفحة المصوغة سنة ١١١٥:

وكان أن تعرضت الممتلكات الصليبية في شمال الشام والعراق لزلزال عنيف في نوفمبر سنة ١١١٤، دمر بلادهم من أنطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها<sup>(١)</sup>، فرأى السلطان محمد السلاجوقي أن يستغل تلك الظروف وما نجم عنها من تصدع أسوار المدن والقلاع الصليبية لإرسال حملة جديدة إلى بلاد الشام بزعماء برسق؛ لمحاربة الصليبيين فضلاً عن الانتقام من طغتكين أتابك دمشق والتضاء على إيلغازي أمير ماردين<sup>(٢)</sup>. ولم تكد تلك الحملة تعبر الفرات في مايو سنة ١١١٥، حتى أجمع الأمراء — سواء من المسلمين أو المسيحيين — على مقاومتها. فمن الجانب الإسلامي قاوم تلك الحملة إيلغازي بن أرتق أمير ماردين، ولؤلؤ الخادم الوصي على حلب، وطغتكين أتابك دمشق؛ في حين قاومها من الجانب المسيحي، روجر أمير أنطاكية وبونز أمير طرابلس. ومعنى ذلك أنه لم يبق على ولائه من أمراء الشام المسلمين لسلطان السلاجقة سوى بني منقذ في شيزر وابن قراجة صاحب حمص. ومع ذلك فإن برسق لم يبال بذلك العداء الذي صادفه من أمراء الشام على اختلاف أديانهم وملتهم، فمضى في طريقه يهاجم الأمراء المسلمين والمسيحيين جميعاً<sup>(٣)</sup>.

وهكذا استولى برسق على حماء التي كانت تابعة لطغتكين «وبها ثقله» كما هاجم قلعة فامية (أفامية) التي كانت تابعة لإمارة أنطاكية الصليبية<sup>(٤)</sup>، الأمر الذي أدى إلى التقارب بين الأمراء المسلمين والمسيحيين بالشام وجعلهم

---

(1) Archer: op cit P 151

(٢) خرج مع برسق «الإمير جيوش بك والامير كنتندي وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم (السلطان) بالبداية بقتل إيلغازي وطغتكين، فإذا فرغوا منهم قصدوا بلاد الفرنج وقتلواهم وحصروا بلادهم». (ابن الأثير السكامل، سنة ٥٠٩ هـ):

(3) Runciman: op. cit, I, p. 131.

(٤) ابن الأثير: السكامل؛ حوادث سنة ٥٠٩ هـ.

يختلفون على مقاومة العدو المشترك . من ذلك مايرويه ابن الأثير من أن طغتكين وقائد حلب شمس الخواص أسرعا إلى طلب معونة أمير أنطاكية الصليبي ضد برسق<sup>(١)</sup> ، في حين ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن أمير أنطاكية هو الذي بدأ بطلب محالفة طغتكين ضد الخطر المشترك . وسواء صحت هذه الرواية أم تلك فالمهم هو أن حملة برسق أدت إلى نوع من التقارب بين الأمراء المسلمين والصليبيين بالشام ، مما أدى إلى عقد اتفاقية بين أتابك دمشق والوصى على حلب من جهة وبين ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية « وغيرهما من شياطين الفرنج » من جهة أخرى ، واستهدف ذلك الحلف الإسلامي الصليبي الجديد مقاومة سلاجقة فارس ومنعهم من غزو بلاد الشام<sup>(٢)</sup> .

وكان أن احتشدت فعلا قوات دمشق وقوات حلب جنباً إلى جنب مع قوات بيت المقدس وأنطاكية عند أفامية لمواجهة برسق ، الأمر الذي جعل برسق يدرك صعوبة موقفه وأنه من المجازفة الاشتباك مع ذلك العدد الضخم المتحالف من الأعداء ، فآثر الانسحاب إلى الجزيرة . ولم يكذب برسق ينصرف عائداً إلى الجزيرة حتى اعتقد ملك بيت المقدس وأمير طرابلس أن الخطر زال ، فأنصرفا بجيوشهما . ولكن برسق لم يلبث أن عاد بعد قليل وعندئذ واجهه الصليبيون وأنزلوا به الهزيمة عند دانيث في ١٤ سبتمبر ، وقضوا على معظم جيشه « وتفرق العسكر وأخذ كل واحد جهة » . أما برسق نفسه فلم يستطع الفرار إلا في صعوبة ، ويتمال إنه مات بعد عدة أشهر « وقد ندم على الهزيمة » ؛ وعندئذ لم يفكر السلطان محمد السلجوقي في المغامرة بجملة أخرى ضد الصليبيين في بلاد الشام<sup>(٢)</sup> .

---

(١) للرجع السابق

(2) Setton : opcit I PP 404

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٥٠٩ .  
وقد وصف ابن الأثير برسق بأنه كان « خيراً ديناً » .

وفي الوقت الذي كان بلدوين الأول مشغولاً بحملة برسق على شمال الشام «  
عادت حامية عسقلان إلى مهاجمة يافا براً وبحراً ، ولكن حامية يافا الصليبية  
صدت أمام ذلك التهديد . وعندما علم الفاطميون بعودة الملك بلدوين  
من شمال الشام ، أسرعوا بالانسحاب إلى عسقلان دون أن يحققوا غرضهم  
( سبتمبر ١١١٥ ) <sup>(١)</sup> .

## الفصل الخامس

### سياسة بلدوين الأول

#### وصوله إلى البحر الأحمر وغزو مصر:

وبعد أن اطمأن الملك بلدوين الأول من ناحية سلاجقة فارس وانقسام العروة التي كانت تربطهم بامارات الشام الإسلامية ، بدأ يفكر في عدة مشاريع توسعية قام بها في جرأة بالغة . ذلك أن بلدوين الأول عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقي ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبي البحر الميت حتى خليج العقبة ، وهي المنطقة المعروفة باسم وادي عربة . ومن الواضح أنه مع ما لهذا المشروع من أهمية دفاعية ، فإنه يمكن الصليبيين أيضا من عزل مصر عن بقية العالم الإسلامي في الشرق وقطع الطريق البري بينها وبين الشام والعراق والحجاز (١) .

وقد بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادي عربة جنوبي البحر الميت ، ثم شيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على وادي عربة بأكمله (٢) . وفي العام التالي ( سنة ١١١٦ ) خرج بلدوين في حملة أخرى ، ومضى حتى أيلة على ساحل خليج العقبة حيث فر الأهالي من وجهه خوفا . وقد بنى بلدوين في أيلة أيضا قلعة حصينة للتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام (٣) ، كما شيد قلعة أخرى في جزيرة فرعون

(1) Grousset ; L'Empire du Levant, p. 213.

(2) Runciman : op. cit; I. p. p. 97-98.

(3) Setten : op. cit, I, p. 406.

الواقعة قبالة أيلة في خليج العقبة . وبذلك تمكن الصليبيون من الإشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة التي أخذت تحرك في قلوبهم ذكريات ومشاعر دينية عزيزة عليهم . هذا وإن كان رهبان دير القديسة كاترينة في شبه جزيرة سيناء قد رفضوا أن يستضيفوه بديرهم خشية انتقام الفاطميين في القاهرة ، مما جعل بلدوين ينصرف عائداً إلى بيت المقدس (١) .

وبعد أن أبل بلدوين الأول من المرض الذي أصابه أثناء عودته من أيلة إلى بيت المقدس ، قام بمحاولة أخرى للاستيلاء على مدينة صور التي لم يبق للفاطميين غيرها — فضلا عن عسقلان — من موانئ الشام . ويبدو أن صور كانت مركز متاعب كثيرة للصليبيين في الشام ، حيث خرجت منها في تلك الفترة عدة إغارات لمهاجمة الممتلكات الصليبية القريبة ، فضلا عن أنها كانت مركزا بحريا تأوى إليه السفن الفاطمية التي تهدد الأساطيل الصليبية (٢) . ولكن حاجة بلدوين إلى أسطول قوى لم تمكنه من الاستيلاء على صور ، وعندئذ شيد قلعة منيعة جنوبي صور — هي اسكندورنة — لإحكام الحصار على صور ، وكان ذلك سنة ١١١٦ (٣) .

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس الصليبية وصلت سنة ١١١٦ على يد ملكها بلدوين الأول إلى حدودها التاريخية المعروفة ، وذلك باستثناء عسقلان وصور ؛ ولم يبق بعد ذلك أمام بلدوين إلا أن يهاجم الفاطميين في عقر دارهم ليشعرهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم (٤) وربما استهدف بلدوين من مهاجمة الفاطميين أن يضطرهم إلى الاستعانة بحاميتي صور وعسقلان ، فيستولى على هاتين

(١) Albert d'Aix, p. 703.

(٢) Stevenson : op. cit. I p. p. 65-66.

(٣) Guillaume de Tyr p. p. 507

(٤) Grousset ; Hist. des Croisades I; p. 283.



المدينتين في غير عناء<sup>(١)</sup>. على أن بلدوين الأول لم يحاول أن يحشد جميع قوى الصليبيين في الشام لغزو الدولة الفاطمية ، وإنما خرج على رأس مائتين من الفرسان تقريبا وأربعائه من المشاة فقط ، مما يثبت أنه لم يكن ينوى القيام بعمل حربي واسع النطاق<sup>(٢)</sup>.

وكان أن استطاع بلدوين أن يعبر الصحراء الممتدة من غزة حتى العريش والفرما دون أن يتعرض لتهديد من جانب البدو ، الذين خشوا خطر الصليبيين فسهلوا لهم الحصول على مالزمهم من زادوماء<sup>(٣)</sup>. ولم يلبث أن وصل الصليبيون في ٢١ مارس سنة ١١١٨ إلى الفرما واستولوا عليها ، وهي أول المراكز الأمامية في الأراضي المصرية<sup>(٤)</sup>. وكانت دهشة الصليبيين عظيمة عندما دخلوا الفرما فوجدوها خالية بعد أن هجرها أهلها من المصريين وتركوا فيها متاعهم ، مماهايا للغزاة قدراً كبيراً من الغنائم. وبعد أن أحرق بلدوين جامع الفرما ومساجدها<sup>(٥)</sup>، اتجه غرباً نحو مصب النيل . ويروى ابن الأثير أن بلدوين الأول وصل إلى مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة ؛ كما يشير بعض المؤرخين الصليبيين إلى أنه وصل إلى مصب نهر النيل فعلاً<sup>(٦)</sup>.

على أن بلدوين الأول كان لا يستطيع أن يمضى أكثر من ذلك لصغر قوته

---

(1) Archer : The Crusades. p. 140.

(٢) ويلاحظ أن هذا الرأى يتعارض مع ما ذكره ابن الأثير من أن بلدوين في تلك الغزوة إنما كان «قاصداً ملك مصر والتغلب عليها وقوى طمعه في الديار المصرية».

(الكمال ؛ حوادث سنة ٥١٢ هـ) .

(3) Albert d'Aix. p. 705.

(4) Michaud : op. cit; I, p. 52.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧١

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ

Guillaume de Tyr. p. 508.

أولاً ثم لمرضه ثانياً ، وهو المرض الذي لم يلبث أن توفي بسببه قرب العريش في ٢ أبريل سنة ١١١٨ (١) .

### تعمير بيت المقدس بالسريان والأرثوذكس :

ومن الأعمال الداخلية التي قام بها الملك بلدوين الأول قبل أن يقوم بحملته على مصر ، تعمير بيت المقدس بمجموع المسيحيين الشرقيين من الأرثوذكس والسريان . وكان الباعث لبلدوين على هذا التفكير التجربة القاسية التي مر بها أثناء هجوم السلاجقة على إقليم الجليل سنة ١١١٣ ، إذا انتهز المزارعون وأهل الإقليم من المسلمين تلك الفرصة وخرجوا عن طاعة الصليبيين في الوقت الذي هدد الفاطميون بيت المقدس وهي شبه خاوية لتغيب بلدوين ورجاله عنها . وكان من الطبيعي أن يبدأ بلدوين بتعمير بيت المقدس أولاً وهي كبرى مدن المملكة ، فضلاً عما لها من مكانة في قلوب الصليبيين جميعاً (٢) .

والواقع أن بيت المقدس وغيرها من مدن الشام كانت زاخرة بأعداد كبيرة من المسيحيين المحليين ، وذلك عند وصول الصليبيين إلى الشرق . ولكن ما فعله أولئك المسيحيون الشرقيون من الترحيب بالصليبيين ومساعدتهم — وبخاصة في أنطاكية والرها — جعل المسلمين لا يطمأنون إليهم ويطردونهم من بقية المدن

---

(١) ذكر ابن الأثير أن سبب وفاة بلدوين أنه سميح في النيل عند تنيس « فانتفض جرح كان به » (حوادث سنة ٥١٢ هـ) في حين ذكر غيره من المؤرخين أن وفاته كانت بسبب أكلة سمك من بحيرة المنزلة . وذكر أبو المحاسن أنه عند وفاة بلدوين شق أصحابه بطنه وصبروه (حنطوه) ورموا أحشاءه هناك فعرف ذلك المكان حق اليوم بسبخة بردويل أو البردويل (قرب بور سعيد الحالية) واعتاد الناس أن يرجعوا إلى أيام أبي المحاسن (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٧١) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 284.

التي كانت لا تزال تحت سيطرة المسلمين ، وبخاصة بيت المقدس<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن استولى الصليبيون على بيت المقدس وكثير من أقاليم الشام ، فعمدوا بدورهم إلى طرد المسلمين منها . وهكذا أمست بيت المقدس تشكو فراغا ضخما ونقصا كبيرا في السكان بعد أن فقدت معظم أبنائها المحليين من المسلمين والمسيحيين سواء<sup>(٢)</sup> . هذا في الوقت الذي كان الصليبيون أنفسهم قلة ، وتعجل كثير من الحجاج الوافدين من الغرب في العودة إلى أوطانهم بعد زيارة الأماكن المقدسة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الصليبيين الذين استقروا في الشام اشتغلت غالبيتهم بشئون الحرب والحكم ، وأنهم كانوا موزعين على عدد كبير من المدن والمعاقل لحراستها ، أدركنا مدى حاجة مملكة بيت المقدس بوجه خاص إلى سكان نشطين تطمئن إليهم للنهوض بأعباء النشاط العمراني من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها<sup>(٣)</sup> .

ولما كان من المستحيل أن يفكر بلدوين في الاعتماد على المسلمين في هذه المهام ، فإنه لم يبق أمامه سوى المسيحيين المحليين ، وبخاصة المشتتين منهم شرقي نهر الأردن وفي حوران ، وكانت بلاد الشام بوجه خاص تضم طوائف عديدة من المسيحيين المحليين مثل الموارنة في طرابلس والسريان والأرمن في أنطاكية والأرمن والنساطرة في الرها . وعندئذ فتح الملك بلدوين الأول أبواب مملكته أمام هذه الطوائف جميعها واتصل بهم سرا وأغراهم على الهجرة إلى المدينة المقدسة حتى اكتملت بيت المقدس بأعداد من الأرثوذكس والأرمن<sup>(٤)</sup> .

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس قامت على أساس الترابط الشديد بين سكانها من المسيحيين الغربيين الكاثوليك من جهة والمسيحيين

---

(١) Guillaume de Tyr, P 500

(٢) Runciman : op cit II. P. 100.

(٣) Grousset : L'Empire du Levant, p. p 311-312.

(٤) Richard : Le Royaume Latin. p. 124.

الشرقيين من جهة أخرى . وقد استطاع الملك بلدوين الأول أن يوفق بين الجميع رغم اختلاف مذاهبهم، ليعملوا جميعاً في إنعاش الأرض المقدسة وحمايتها. ولتحقيق هذا الترابط شجع بلدوين الأول التزاوج بين المسيحيين الغربيين والشرقيين ، وضرب هو نفسه مثلاً لذلك بزواجه من شرقية . وإذا كان قليل من الأمراء الغربيين قد أقبلوا على الزواج من المسيحيات الشرقيات فإن جمهرة الفرسان الصليبيين وصغار جندهم لم يحدوا غضاضة في ذلك ، الأمر الذي أدى إلى ظهور جيل مولد في بلاد الشام قدر له أن يحمل عبء الدفاع عن الصليبيين فيما بعد عند ما تناقص عدد الوافدين من الغرب<sup>(١)</sup> .

### سياسة بلدوين الأول المدينية :

على الرغم من أن شخصية بلدوين الأول ليس لها الطابع الديني القوي الذي اعتادت الأساطير المعاصرة أن تلصقه بأخيه جودفري<sup>(٢)</sup> ، إلا أنه من الثابت أن بلدوين الأول كان حريصاً على أن يجعل سيطرته على الكنيسة حقيقة واقعة<sup>(٣)</sup> . وقد دفع ذلك الملك بلدوين إلى العمل على محاربة فكرة إقامة حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس، وهي الفكرة التي رأينا مدى حرص دايمبرت على تنفيذها. وإذا

(1) Runciman : op. cit, I, p. 100.

وقد ذكر Thompson أن ثمة زيجات تمت بالشام في عصر الحروب الصليبية بين الصليبيين والعرب، وأطلق على أبناء هذه الزيجات اسم (pullani) أى الأفراخ. كذلك أشار إلى أن الأرثوذكس كانوا أحاط طبقة في المجتمع الصليبي ببلاد الشام ، وقد خشي الصليبيون دائماً تأمرهم مع الدولة البيزنطية أو المسلمين ، ولو أنه لم يكن غنى للصليبيين عنهم ، بسبب معرفتهم باللغات .

( Thompson : Economic & Social Hist of the Middle Ages; vol. I, p. 398 ).

(2) Cam, Med. Hist, vol. 5, p. 304.

(3) Runciman : op. cit, I, p. 100.

كان دايمبرت قد تنازل عن آرائه في إقامة حكومة دينية حتى هذا الموقف بينه وبين بلدوين ، وقام دايمبرت بتتويج بلدوين ملكا في كنيسة بيت لحم سنة ١١٠٠ ، إلا أن النزاع لم يلبث أن تجدد بين الطرفين في مارس سنة ١١٠١ . ويقف المؤرخ ولیم الصوري في ذلك النزاع إلى جانب دايمبرت ، ويؤكد حسن نيته، وأن أرنولف مالكورن — بطرق بيت المقدس السابق — هو المسئول عن إفساد العلاقات بين الملك بلدوين ودايمبرت<sup>(١)</sup> أما المؤرخ ألبرت الآكسي — وهو المدافع دائما عن بلدوين الأول ومبدأ الملكية — فيقول إن الملك بلدوين كان لا يمكن أن يغفر لدايمبرت محاولاته للحيولة دون وصوله إلى حكم بيت المقدس وحرمانه من أن يرث أخاه جودفري ويخلفه في الحكم ، فضلا عن مؤامرة دايمبرت لإعطاء ملك بيت المقدس إلى بيت بوهموند الأنطاكي<sup>(٢)</sup>.

ولعل استياء كل طرف من الآخر وعدم صفاء نياتهما، هو الذي جعل النزاع يطول بين الرجلين ، حتى انتهى الأمر — كما سبق أن أشرنا — بعزل دايمبرت نهائيا سنة ١١٠٢ ، واختيار إبرمار بطرقا جديداً لبيت المقدس . وقد أيد الملك بلدوين هذا الاختيار لما لسه في البطرق الجديد من ورع وتقوى ورغبة تامة في الابتعاد عن الأشتغال بالمسائل السياسية ؛ وهذا كل ما كان يبتغيه بلدوين في الشخص الذي يتولى بطرقية بيت المقدس<sup>(٣)</sup> .

ولكن إبرمار لم يستمر طويلا في منصبه، إذ وصل النزاع حول شغل كرسي بطرقية بيت المقدس إلى البابوية ، فأرسل البابا باسكال الثاني مندوبا اسمه جبلين للتحقيق في الموضوع ، وانتهى الأمر باختيار جبلين نفسه بطرقا على بيت المقدس . سنة ١١٠٨ (٤) . وكان هذا البطرق الجديد متقدما في السن، فلم يلبث أن توفي

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 438 - 439

(2) Albret d'Aix p. p. 538

(3) Idem; p. 622.

(4) Guillaume de Tyr. P. 457.

في أبريل سنة ١١١٢ ، فاختير بعده أرنولف مالكورن بطرقا من جديد على بيت المقدس بعد أن ظل اثني عشرة سنة يترقب تلك الفرصة التي أعادت إليه كرسيه المملوك<sup>(١)</sup> .

وهكذا يبدو أن بلدوين الأول اتبع سياسة دينية انصفت بالمهارة ، ومكنته من الاحتفاظ لنفسه بالسلطان الأعلى في حكومة بيت المقدس ، وتجنب تلك المملكة الناشئة صراعا بين السلطين الدينية والعلمانية . هذا إلى أن إخلاص أرنولف مالكورن للملك بلدوين الأول ، لم يمكن الملك من احكام اشرافه على كنيسة بيت المقدس فحسب ، بل ضمن أيضا لتلك المملكة الناشئة نظاما وراثيا في بيت بلدوين ، مما أتاح لها فرصة الاستقرار والثبات ، وجنبها النزاع والقتال<sup>(٢)</sup> .

وإذا كانت بطرقيّة بيت المقدس قد غدت — بفضل سياسة الملك بلدوين الأول — الحليف الخالص الوفي للملكية ، فإن الملك بلدوين لم يتقاعس من جانبه عن موازنة تلك البطرقيّة وتوسيع اختصاصها الديني ، وزيادة نفوذها على حساب أنطاكية . وكان ذلك عند ما نشب نزاع بين بطرقيّة بيت المقدس وبطرقيّة أنطاكية حول أسقفية بيروت ، وذلك بعد ما استولى بلدوين على هذه المدينة الأخيرة من الفاطميين سنة ١١١٠ . ذلك أن تنظيم الكنيسة البيزنطية كان يقضي بأن يتبع أسقف بيروت رئيس أساقفة صور ، وهذا الأخير يتبع بطرق أنطاكية . ولكن ذلك الوضع صار غير ذي موضوع سنة ١١١٠ عند ما كانت بيروت في أيدي الصليبيين في حين ظلت صور نفسها في قبضة المسلمين . لذلك طالبت بطرقيّة بيت المقدس بأن تكون أسقفية بيروت تابعة لها ، في حين تمسك بطرق أنطاكية بتبعية تلك الأسقفية له<sup>(٣)</sup> .

(1) Besant, Palmer : Jerusalem. p. 248.

(2) Grousset : L'Empire du Levant. p. 97.

(3) Richard : Le Royaume Latin p. 97.

وعندما اشتد الخلاف ، عرض الملك بلدوين الأمر على البابوية فأفتى البابا باسكال الثانى سنة ١١١١ بأن الفتح الإسلامى غير الأوضاع القديمة التى كان معمولاً بها فى الدولة البيزنطية ، وبناء على ذلك فإن البابوية ترى أن تكون السكنايس فى جميع البلاد التى يفتحها بلدوين الأول تابعة لبطرق بيت المقدس<sup>(١)</sup> . ويبدو أن ماحقته الملك بلدوين الأول لنفسه من سيادة على أمراء أنطاكية ، والرها وطرابلس جعله يتمسك بأن تكون بطرقيّة بيت المقدس من جانبها لها الأولوية على بطرقيّة أنطاكية . وهكذا انتهى الأمر عند منتصف القرن الثانى عشر بأن ظلت أسقفيات إمارة طرابلس تابعة لبطرق أنطاكية ، ماعدا بيروت وصور وصيدا وعكا وبانياس فقد أصبحت تابعة لبطرقية بيت المقدس<sup>(٢)</sup> .

### زواج بلدوين الأول :

وثمة ناحية شخصية خاصة بالملك بلدوين الأول ولكنها ارتبطت بالكنيسة ، هى أنه طاق ، زوجة الملكة أردا Arda ، وتزوج من أدليد الصقلية Adelaide de Sicile<sup>(٣)</sup> . أما عن أردا فهى ابنة زعيم أرمنى تزوجها بلدوين أيام أن كان أميراً على الرها لىضمن ولواء الأرمن ، وهم كثيرون فى إقليم الرها . ومن الواضح أن هذا الزواج السياسى كان يحقق كثيراً من النفع لبلدوين وهو أمير للرها ؛ ولكنه لم يلبث أن أحس — بعد أن أصبح ملكاً على بيت المقدس — أنه ليس فى حاجة إلى ولاء الأرمن ، وبالتالي فإنه لم يعد حريصاً على تلك الزيجة السياسية ، لاسيما وأن أردا فقيرة لم تستطع أن تشبع حاجة الملك الجديد إلى المال ، فضلاً عن أنه لم يعيش له منه أولاد يربطونه بها<sup>(٤)</sup> . وكان أن سعى الملك بلدوين سنة

(1) Guillaume de Tyr. p. 502.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 312.

(3) Set on : op. cit; I, p. 102.

(4) Runciman. : op. cit; I. P. 102.

١١٠ الذى كنيسة بيت لحم لإتمام الطلاق من زوجته بعد أن أتهمها بالزنا. ولكن يرى تلك الكنيسة على تأدية هذه الخدمة له أضفى عليها وعلى أسقفها كثيراً من النعم والامتيازات. كذلك استخدم الملك نفوذه لدى بطرق بيت المقدس من ناحية ولدى البابوية من ناحية أخرى لرفع كنيسة بيت لحم إلى أسقفية<sup>(١)</sup> أما أردا فقد طلبت من زوجها السماح لها بزيارة ولديها فى القسطنطينية ، وهناك لم تعبأ ببلدوين أويست المقدس وإنما حاولت أن تشبع نفسها بمباهج العاصمة البيزنطية .

ولم يلبث الملك بلدوين أن أخذ يبحث لنفسه عن صفقة أخرى رابحة ، وعثر على ضالته فى أديليد أرملة روجر الأول صاحب صقلية الذى توفى سنة ١١٠١ وقد استهدف بلدوين الأول من وراء تلك الزيجة تحقيق مكاسب عدة ، سياسية ومالية ، منها ضمان صداقة النورمان فى إيطاليا وصقلية ، وبخاصة الملك روجر الثانى ابن الأميرة أديليد ، ومنها أيضاً كسب الثروة الطائلة التى كانت تملكها تلك الأميرة والتى كانت كفيلة بإفعاش خزانة مملكة بيت المقدس<sup>(٢)</sup> . وبعد أن حصلت أديليد على موافقة ابنها روجر الثانى على تلك الزيجة ، اشترطت على بلدوين الأول أنه فى حالة إذا ما رزقت منه بمولود ذكر ، فإن هذا المولود يرث أباه فى عرش روجر الثانى . وكان أن وافق بلدوين الأول على هذا الشرط ، وأبحرت العروس من صقلية إلى عكا فى بداية أغسطس سنة ١١١٣ فى أسطول كبير يحمل ثروة طائلة ، من الذهب والفضة والتحف وغيرها<sup>(٣)</sup> .

على أن خصوم بلدوين لم يلبثوا أن أثاروا موضوع طلاق أردا وقالوا إن هذا الطلاق لم يكن قانونياً ، وأنه تم بالتواطئ مع صنائع بلدوين من رجال

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 473—474.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5. P. 184

(3) Albert d'Aix, P. 597.



الكنيسة وأولهم أرنولف مالكورن ، ومن ثم أصبح بلدوين متبها بالزواج من امرأتين ، وهي تهمة لها خطورتها في المسيحية<sup>(١)</sup> . ولم تفلح جهود بلدوين الأول أو جهود ريبه أرنولف مالكورن أستف بيت المقدس في دفع هذه التهمة عنه ، إذا أصر البابا باسكال الثاني ومندوبه الذي أرسله إلى بيت المقدس للتحقيق في الموضوع على أن طلاق إردا من بلدوين الأول باطل ، وبناء على ذلك يجب أن يطلق الملك زوجته الصقلية الجديدة . وصادف أن مرض بلدوين الأول مرضا خطيرا في أوائل سنة ١١١٧ ، فاستمر طريح الفراش في عكا بضعه أسابيع بين الحياة والموت ، مما جعله يخشى أن يموت مغضوبا عايمه من الله والكنيسة بسبب زواجه من امرأتين في وقت واحد . وهكذا انتهى الأمر بطلاق أدلياد نعات كسيفة البال إلى صقلية في إبريل سنة ١١١٨<sup>(٢)</sup> .

ولا شك في أن طلاق أدلياد جاء لعنة قوية لإبناها روجر الثاني وجميع الأمراء النورمان في إيطاليا وصقلية . وإذا كان بلدوين الأول قد أراد بتلك النتيجة كسب النورمان في إيطاليا وصقلية وضمان مورد ثابت من الرجال والمال ليغذى مملكة بيت المقدس ، فإن النتيجة جاءت عكسيه بالنسبة للعلاقات بين مملكة بيت المقدس من ناحية ومملكة النورمان في إيطاليا وصقلية من ناحية أخرى .

### ونبات الريعان :

ولم تلبث سنه ١١١٨ أن شهدت وفاة مجموعة من أعيان المسلمين والمسيحيين في الشرق والغرب ، ممن لهم علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحركة الصليبية . ففي

(1) Runciman : op cit, II, p. 104.

(2) Guillaume de Tyr. P. 509.

٢١ يناير سنة ١١١٨. توفى البابا باسكال الثانى فى روما ، وفى ٢ إبريل توفى بلدوين الأول ملك بين المقدس ، وفى ٥ إبريل توفى السلطان محمد السلجوقى فى فارس ؛ وفى ١٦ إبريل سنة ١١١٨ توفيت فى صقلية أدياد زوجة بلدوين الأول والملكة السابقة على بيت المقدس ؛ وبعد ذلك ببضعة أيام توفى أرنولف بطرق بيت المقدس ، وفى ٦ أغسطس توفى الخليفة المستظهر العباسى فى بغداد ، وفى منتصف أغسطس توفى ألكسيوس كومنين امبراطور الدولة البيزنطية بعد مرض طويل (١) .

### بلمروين الاول فى نظر التاريخ :

وبعد ، فان أهميه بلدوين الأول فى التاريخ ترجع إلى أنه لم يكن مثل أخيه جودفرى محاربا صليبيًا فحسب ، بل كان أيضًا سياسيًا ومنظمًا ومؤسسًا لمملكة لها أهميتها فى تاريخ العصر الذى عاش فيه . فبلدوين الأول هو الذى استطاع بمهارته أن يحقق لمملكة بيت المقدس مكانة مرموقة وسط المحيط الاسلامى فى الشرق الأدنى ، وإليه يرجع الفضل فى وضع دعائم تلك السياسة الناجحة التى سار عليها خلفاؤه ملوك بيت المقدس من بعده ، والتى حققت نوعا من التوازن بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية فى الشرق الأدنى (٢) .

هذا إلى أن سياسة بلدوين الأول التوسعية أ كسبته أهمية خاصة فى تاريخ الصليبيين بالشام ؛ إذ تسلم دولة بيت المقدس الصليبية محدودة المساحة ، تكاد لاتتعدى المدينة المقدسة ذاتها وضواحيها القريبة ، فما هى إلا سنوات قليلة حتى حولها إلى مملكة قوية تشمل كل فلسطين تقريبًا ، وتمتع بشاطئ طويل على

(1) Runciman : op, cit, II, p. p. 105-106.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 304

البحر المتوسط مما حقق لتلك المملكة الصليبية اتصالاً آمناً مستمراً مع العالم الأوربي الغربي<sup>(١)</sup>. ثم كان أن توج بلدوين الأول أعماله قبل وفاته بأشهر معدودة بالسيطرة على وادي عربة والضفة الشرقية للأردن، والاستيلاء على أيلة على خليج العقبة، بل لقد أوغل في الأراضي المصرية نفسها شرق الدلتا... كل ذلك ليقطع الصلة بين المسلمين في أفريقية وآسيا، أو بين الدولة الفاطمية من جهة والدولة العباسية من جهة أخرى؛ وهي الصلة التي كانت تهدد بوقوع الصليبيين في الشام بين شقي الرعي. ولا شك في أن سيطرة الصليبيين على ميناء أيلة كان من شأنها أن تمكنهم من قطع طريق القوافل بين القاهرة من ناحية ودمشق وبغداد من ناحية أخرى، فضلا عن تهديد الحجاج المسلمين وهم في طريقهم إلى الحرمين<sup>(٢)</sup>. وكما أن إمارة الرها الصليبية صارت تقف حاجزا بين الامارتين الإسلاميتين الكبيرتين في شمال الشام والعراق — وهما حلب والموصل — فكذلك أراد بلدوين الأول أن يجعل من أيلة وادي عربة حاجزا صليبيا بين القاهرة ودمشق. ولم تلبث تلك الخطة التي وضع أساسها بلدوين الأول أن نجحت في تمزيق أوصال العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، وتمكين الصليبيون في الفترة الواقعة بين سنين ١١١٦، ١١٨٩ من التحكم في المسالك المؤدية إلى الحجاز<sup>(٣)</sup>.

أما عن سياسته الداخلية فإن بلدوين الأول كان لا يقل مهارة في توجيهها عنه في توجيه السياسة الخارجية، مثلما يتضح ذلك في إشرافه على الكنيسة ورجالها، وفي منع رجال الدين من إقامة حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس.

(1) Grousset, Hist. des Croisades, I, p. p. 314-315.

(2) Setton : op. cit; I, p. 406.

(3) Grousset Hist. des Croisades, I, p. p. 315-316.



# مقام إمارة طرابلس

## الباب السادس

« لا يزال بليانهم الذي بنوارية  
في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله  
عليم حكيم » .

[ التوبة : ١١٠ ]



## الفصل الأول

### ريموند الصنجيلي والصليبيون

ريموند الدولة الميرنطية :

رأينا ما أصاب ريموند الصنجيلي Raymond of St. Gilles من خيبة أمل واضحة في الحملة الصليبية الأولى ، إذ ظل يبنى نفسه حيناً بعد آخر بأنطاكية ، أو على الأقل باقتسامها مع بوهيموند ، حتى انتهى الأمر باستئثار بوهيموند بها وحده<sup>(١)</sup> . فلما حاول ريموند أن يؤسس لنفسه إمارة في شمال الشام على حساب سلاجقة حلب — حول البارة ومعرة النعمان — انبرى له بوهيموند مرة أخرى ونافسه في الاستيلاء على معرة النعمان ، مما اضطر ريموند إلى التخلي عنها في يناير سنة ١٠٩٩<sup>(٢)</sup> . وكان أن فكر ريموند في تأسيس إمارة على شاطئ الشام ، فهاجم أنطربوس وعركة إلى الشمال الشرق من طرابلس ، ولكنه نجح في احتلال الأولى في فبراير سنة ١٠٩٩ وفشل في الاستيلاء على معركة مايو سنة ١٠٩٩<sup>(٣)</sup> . وعندما شرح اسمه كما لدولة بيت المقدس الصليبية ، أدى حسد زملائه الأمراء له وتحذيرهم منه إلى ضياع تلك الفرصة من يده . وعندئذ اتجه ريموند إلى مهاجمة الثغور الفاطمية في فلسطين — مثل عسقلان وأرسوف — ولكن عداء جودفري بوايون له لم يمكنه من تحقيق غرضه (أغسطس ١٠٩٩) .

(1) Runciman : op. cit, I, p. p. 249—251.

(٢) ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ . &

Gesta Francorum, p. 172-178.

(3) Raymond d'Agiles, p. p. 279-288.

وأخيراً لم يجد ريموند وسيلة سوى تلاق الدولة البيزنطية وخدمة سياستها وتحقيق أغراضها ومطامعها في بلاد الشام ، والمناداة بحقوقها في أنطاكية وغيرها من أقاليم الشام<sup>(١)</sup> .

وقد أخذت سياسة ريموند هذه تظهر في وضوح عندما استولى على اللاذقية في صيف سنة ١٠٩٨ ، إذ ساهمها للبيزنطيين بعد قليل ، مما قوى الرابطة بينه وبين الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين ، وجعل الأخير يثق إلى حد بعيد في إخلاص ريموند له<sup>(٢)</sup> .

ولم يلبث هذا التحالف بين ريموند والامبراطور البيزنطي أن اتخذ وجهة خاصة ضد بوهيموند صاحب أنطاكية الذي كان وجوده في ذلك الجزء من شمال الشام بالذات مهدداً لأطاع الامبراطور البيزنطي من ناحية وريموند من ناحيه أخرى<sup>(٣)</sup> . ومن أمثلة هذا التعارض بين الطرفين ما حدث في صيف سنة ١٠٩٩ ، إذ بينما تقدم ريموند إلى جانب جودفري صوب بيت المقدس للاستيلاء عليها من المسلمين ، اختار بوهيموند — كما سبق أن أشرنا — أن يبقى حيث هو في أنطاكية لينتهاز فرصة تغيب منافسه ويحاول الاستيلاء على اللاذقية من البيزنطيين بمساعدة الأسطول البيزى تحت زعامة دايمبرت<sup>(٤)</sup> . ولولا رجوع ريموند لسقطت اللاذقية في يد بوهيموند لأن الأخير لم يلبث أن انسحب — وكذلك الأسطول البيزى عند اقتراب ريموند — حتى لا يقع صدام بين القوات الصليبية بالشام ، وبذلك استرد ريموند اللاذقية<sup>(٥)</sup> . وكان أن توسط دايمبرت في الصلح بين ريموند

(1) Vasiliev op. cit; II, p. 409.

(2) Albert d'Aix, P. p. 500-501.

(3) Ostrogorsky : op. cit. p 323.

(4) Stevenscn . op cit; p. 39.

(5) Albert d'Aix, p. p. 502-504



وبوهيموند ، فاجتمع الأميران قرب اللاذقية ، وسويا ما بينهما من خلاف .  
ولكن هذه التسوية ، كانت في الظاهر فقط ، إذ ظل بوهيموند قائماً في أنطاكية  
على كره من الامبراطور البيزنطي ، في حين ظل ريموند يحمل في قلبه حقدا  
دفينا على بوهيموند ، واكتفى مؤقتاً بأن سيطر على اللاذقية وانظرطوس باسم  
الامبراطور البيزنطي<sup>(١)</sup> .

وإذا كان ريموند قد يئس من القضاء على قوة بوهيموند في أنطاكية ، فإنه  
مرعان ما فكر في استغلال تحالفه مع البيزنطيين لإقامة إمارة جديدة لنفسه في  
شمال الشام تنافس إمارة أنطاكية . وهكذا استمرت روح التنافس والكرامية  
تسود العلاقات بين ريموند وبوهيموند . من ذلك أن بوهيموند مر في يناير  
سنة ١١٠٠ باللاذقية أثناء عودته من زيارة بيت المقدس ، وطلب من ريموند  
أن يمهده بالزاد ، فأعذر الأخير بحجة نقص المؤن لديه<sup>(٢)</sup> . هذا بالإضافة إلى الدور  
الذي قام به ريموند لمنع بوهيموند من الاستيلاء على عرش بيت المقدس عتب  
وفاة جودفري بوايون ، إذ سبق أن رأينا كيف استطاعت قوات ريموند في اللاذقية  
أن تمنع الرسالة التي أرسلها دايمبرات إلى بوهيموند مستدعياً إياه ليتولى الحكم في  
المدينة المقدسة ( مايو — أغسطس ١١٠٠ )<sup>(٣)</sup> .

وأخيراً رحل ريموند إلى القسطنطينية في صيف سنة ١١٠٠ للاتفاق مع  
الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين على القيام بعمل حاسم ضد بوهيموند ،  
في أنطاكية<sup>(٤)</sup> . ولم يكد ريموند يصل إلى القسطنطينية حتى جاءت الأخبار بوقوع  
بوهيموند أسيراً في قبضة التركان من بني دانشمند في كبادوكيا . ولكن

(1) Foucher de Chartres, I p 368

(2) Grousset : Hist. des croisades, I, p. 321.

(٣) انظر ما سبق ص ٢٨١

(4) Chaldon : Alexis Comnene p p. 222-223.

هذا الحديث لم يكن له أثر في سياسة ريموند والامبراطور ألكسيوس كومنين تجاه أنطاكية ، لأن تنكرد الذى تولى الوصاية على أنطاكية عند أسر خاله ، لم يقل خطرا عن بوهيموند، فاتبع سياسة العداء نفسها تجاه الامبراطورية البيزنطية ، وبدأ بالاستيلاء على بعض المدن البيزنطية فى قيليقية مثل طرسوس وأذنه والمصيصة<sup>(١)</sup> . ولم يسكد تنكرد يفرغ من ذلك حتى اتجه إلى اللاذقية ، ولكنها قاومته مقاومة شديدة استمرت سنة ونصف حتى استولى عليها فى النصف الثانى من سنة ١١٠٢<sup>(٢)</sup> .

وفى الوقت الذى أخذ ريموند وألكسيوس كومنين يعدان العدة لإرسال حملة ضد تنكرد وإتقاذ اللاذقية ، إذا بحملة صليبية جديدة تصل إلى القسطنطينية وتستأثر بتفكير الامبراطور وحليفه . وكان أن عين الامبراطور البيزنطى حليفه ريموند للإشراف على هذه الحملة وتوجيهها إلى الأراضى المقدسة . ويبدو أن ريموند سر لتلك المهمة ، إذ رأى فى الحملة الصليبية الجديدة أداة صالحة يمكن أن يستخدمها فى تحقيق بعض أطماعه فى الشام<sup>(٣)</sup> .

### ريموند والحملة الصليبية سنة ١١٠١ :

لم يسكد الغرب الأوروبى يعلم بالتوفيق الذى أصابته الحملة الصليبية الأولى فى بلاد الشام ؛ وبنجاح رجال تلك الحملة فى استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين ، حتى تحمس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا فى الحملة الأولى للذهاب إلى الشام ليفوزوا بنصيب من الأسلاب قبل ضياع الفرصة ؛ فضلا عما كانوا يرجونه

(1) Raoul de Caen; p° 706-707.

(2) Idem, p. 708.

(3) Grousset : *Hist. des Croisades*, I, p, 322.

من المشاركة في الحركة الصليبية وثوابها . ولا يخفى علينا أن الصليبيين في الشام كانوا عندئذ في حاجة ماسة إلى تلك المعونة البشرية ، لتعويض النقص في الرجال من جهة ، ولاستئناف سياسة التوسع من جهة ثانية ، ثم لحراسة ممتلكاته من مكاسب ضدائية محاولة انتقامية من جانب المسلمين من جهة ثالثة (١) .

وقد تألفت أول مجموعة من أولئك الصليبيين من المباردين الذين تحرکوا في نهاية سبتمبر سنة ١١٠٠ نحو القسطنطينية عن طريق الدانوب تحت قيادة أنسلم رئيس أساقفة ميلان وألبرت وجيورج وهيو من الأمراء (٢) . ويبدو أن هذه المجموعة من الصليبيين كانت شبيهة بحملة العامة في الحملة الصليبية الأولى ، إذ لم تضم — مع كثرة رجالها — سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين ، في حين تألفت الغالبية العظمى من أفرادها من العامة والنساء والأطفال . هذا إلى أنهم أتوا من أعمال السلب والنهب ما جعل الامبراطور ألكسيوس كومنين يطلب منهم عند وصولهم إلى القسطنطينية في مارس سنة ١١٠١ أن يعبروا إلى آسيا الصغرى (٣) . وقد عارض المبارديون تلك الأوامر الإمبراطورية في أول الأمر بحجة الرغبة في انتظار بقية إخوانهم الوافدين من الغرب ، ولكنهم اضطروا أخيراً إلى الاستجابة لفصيحة الأمير ريموند الصنجيلي ، فعبروا البسفور في أبريل سنة ١١٠١ لينتظروا إخوانهم على الشاطئ الآسيوي (٤) .

ولم تلبث أن وصلت جموع صليبية أخرى من الفرنسيين والألمان ، فعبروا أيضاً البسفور وعسكروا عند نيقية على مقربة من المباردين ، حتى اجتمع الصليبيون جميعاً فبلغت عدتهم نحو مائتي ألف ، ومن ثم بدأوا زحفهم تحت قيادة ريموند

(1) Setton : op . cit , I . pp . 347-348 .

(2) Runciman : op . cit . II , pp . 18-19 .

(3) Chalandon : Alexis Comnene p.p , 224-225 .

(4) Albert d'Aix , p.p 560-562

السنجيلي . وكان الاتجاه الغالب في أول الأمر هو أن يسلك الصليبيون أقصر الطرق للوصول إلى إخوانهم في الشام ، وهو طريق صور ليوم وقونية ، وأيد هذا الرأي الامبراطور ألكسيوس والأمير ريموند نفسه<sup>(١)</sup>. ولكن جموع المباردين أصروا على عدم اتباع ذلك الطريق وأصروا بأن تتجه الحملة ضد بني دانشمند في كبادوكيا للانتقام لبوهيموند وفك سراحه من الأسر<sup>(٢)</sup>. ومن الواضح أن هذا الاتجاه كان خاطئاً لأن الملك غازي كشتكين بن دانشمند كان قد نقل بوهيموند بعيداً في قلعة نيكسار على حدود بلاده ، أي في المنطقة الجبلية الواقعة على حافة البحر الأسود ، الأمر الذي تطلب من الصليبيين المغامرة للوصول إلى تلك الأطراف النائية<sup>(٣)</sup> ولكن المباردين ردوا على ذلك الاعتراض بأنه إن لم يكن الوصول إلى بوهيموند فيكفي الانتقام له بتدمير أماسية وسمواس ، وهما المدينتان الرئيسيتان لبني دانشمند . وهكذا أدى جهل المباردين بطبيعة البلاد وعدم رغبتهم في الاستماع للنصح إلى الانحراف بحملة سنة ١١٠١ عن طريقها الطبيعي ، مما عرضها لكروات بالغة<sup>(٤)</sup>.

وكان أن أذعن البيزنطيون والأمير ريموند الصنجيلي وبقية الصليبيين لرأي المباردين ، فوصلت الحملة إلى أنقرة في أواخر يونيه سنة ١١٠١ واستولت عليها في سهولة ، ومن هناك اتجه الصليبيون في الاتجاه الشمالى الشرقى إلى كنفري ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على هذه المدينة ، فاتجهوا شمالاً للاستيلاء على قسطنطينية على ساحل البحر الأسود . وهناك أخذ التعب يحل بالصليبيين لصعوبة

(١) Runciman : op. cit: II p. 21.

(٢) ذكر ابن الأثير أن هدف تلك الحملة الصليبية كان تخليص بوهيموند من الأسر فقال: «... وصل من البحر سبعة قمامصة من الفرنج وأرادوا تخليص ييمند...» (الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٣ هـ).

(٣) Setton : op. cit. I, P 354

(٤) Grousset : Hist des Croisades, I, P 324-325

البلاد وجذبها وطول الطريق وقلة المؤن ، بعد أن دأب قلعج أرسلان على الانسحاب من أمامهم ، مدمراً كل ما يمكن أن يستفيد منه الصليبيون ، وبخاصة مواد التموين<sup>(١)</sup> .

وفي ذلك الوقت أخذت تتجمع قوى الأتراك المشتتة لمواجهة الخطر الصليبي الجديد ، فأسرع قلعج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ورضوان ملك حلب السلاجوقي لنجدة الملك غازي كمشكين ، واستعد الجميع للمعركة الحاسمة بين أماسية وسمواس<sup>(٢)</sup> . وعندما وقعت الواقعة في أوائل أغسطس سنة ١١٠١ كان للمبارديون — وهم السبب في تلك الكارثة — أول من ولى الأدبار ، وبعثاً حاول الأمير ريموند الصنجيلي وبقية الأمراء الفرنسيين والألمان حثهم على الثبات والمقاومة . وهكذا اضطر ريموند ومعه القوات البيزنطية التي رافقت الصليبيين إلى الانسحاب ، ولم يلبث ريموند أن فر شمالاً نحو البحر الأسود — قرب سينوب — ومن هناك ركب سفينة إلى القسطنطينية<sup>(٣)</sup> .

وكان فرار ريموند بمثابة إعلان نهاية تلك الحملة ، إذ لم يلبث بقية الأمراء الصليبيين أن لاذوا بالفرار واستطاع معظمهم الوصول سالمين إن ميناء سينوب البيزنطي ، ولكن بعد أن تركوا في أيدي الأتراك أتباعهم ونساءهم وأطفالهم ومتاعهم ... ، وبذلك استولى السلاجقة على صفقة رابحة من الأسرى والفنائم . وبعد ذلك أخذ الأتراك في مطاردة فلول الصليبيين ، قتلوا منهم عدداً ضخماً قدره المؤرخون الصليبيون أنفسهم بما يتراوح بين مائة وستين ألفاً ، وخمسين

---

(١) Runciman : op cit; II P 22

(٢) ذكر ابن الأثير أن المسلمين نصبوا كميناً للصليبيين ، حتى إذا ما وصلوا إلى ذلك الموضع بين أماسية وسمواس «خرج السكين عليهم»  
(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ)

(3) Al bert d'Aix PP 569-570 &  
Foucher de Chartres, P. 377

ألفاً<sup>(١)</sup> في حين ذكر ابن الأثير أنه « لم يفلت أحد من الفرنج وكانوا ثلاثمائة ألف غير ثلاثة آلاف هربوا ليلاً وأفلتوا مجروحين<sup>(٢)</sup> ». »

وهكذا محت تلك الكارثة التي حلت بالصليبيين على أيدي السلاجقة الأثر الرنان الذي تركه انتصار الصليبيين على السلاجقة في ضورليوم سنة ١٠٩٧ . وزاد من وقعها أنها لم تسكن الكارثة الأخيرة ، إذ لم يلبث أن وصل إلى القسطنطينية في منتصف يونية سنة ١١٠١ ولیم الثاني كونت نفرز Nevers ( ١٨٩ - ١١٠٤ ) على رأس خمسة عشر ألف من الفرسان والمشاة الفرنسيين<sup>(٣)</sup> . وقد أظهر أولئك الصليبيون الجدد رغبة في اللحاق بإخوانهم للمباردين ، فأدركوا أنقرة في غير صعوبة ، ومن هناك لم يستطيعوا اقتناء أثر المباريين ، فأتجهوا نحو قونية التي وجدوها محصنة تحصيناً قوياً ففشلوا في الاستيلاء عليها<sup>(٤)</sup> . وفي ذلك الوقت كان السلاجقة قد فرغوا من إبادة حملة المباردين السابقة ، فقدم قليج أرسلان والملك غازي بن دانشمند نحو أولئك الصليبيين الجدد ، واستطاعوا أن يبيدوهم إبادة شبة تامة قرب مدينة هرقله في أواخر أغسطس سنة ١١٠١ . ولم يتمكن كونت نفرز من الفرار من مدينة أرمنالك البيزنطية إلا في صعوبة بالغة ، ومنها أخذه بعض البيزنطيين إلى أنطاكية<sup>(٥)</sup> .

وفي الوقت الذي كانت تلك الجموع الفرنسية تسعى إلى حتفها في آسيا الصغرى ، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الحملة المشتومة في أوائل يونيه سنة ١١٠١ إلى القسطنطينية ، وقد تألفت من ستين ألف صليبي بزعامه ولیم التاسع دوق ا كوتين — وهو شاعر التروبادور الشهير — وولف الرابع دوق بافاريا . وعندما عبر

(1) Albert d'Aix, p.p. 571-572.

(٢) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ

Setton : op. cit I P 358.

(4) Runciman ; op cit II P. 26

(5) Albert d'Aix. PP 575-578.

هؤلاء الصليبيون البسفور على سفن بيزنطية ، تعرضوا أثناء عبورهم الأناضول لكثير من المتاعب بسبب صعوبة البلاد ، ونقص الماء وال زاد <sup>(١)</sup> . وقد اتبع الأتراك مع تلك المجموعة من الصليبيين الخطة نفسها التي اتبعوها مع من سبقهم من الصليبيين ، فتركوا المدن مفتوحة أمامهم بعد إخلائها تماماً ، مع إحراق أو إتلاف كل ما يمكن أن يفيد منه الصليبيون من مؤن وخلافه ، حتى إذا وصل الصليبيون في طريقهم إلى أقصى ما يمكن أن يصلوا إليه من جوع وظمأ وإرهاك ، هاجمهم وقضوا عليهم في سهولة <sup>(٢)</sup> . وهكذا وصل الصليبيون إلى قونية ليجدوا المدينة خاوية الوفاض ، فواصلوا زحفهم في الوقت الذي اجتمع قليج أرسلان سلطان قونية والأمير غازي بن دانشمند وقراجا أمير حران ، وتربصوا جميعاً للصليبيين على متربة من هرقة . وعندما انتفض الأتراك على الصليبيين في أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ أبادوا الجيش الصليبي أولاً عن آخر ، ولم يتمكن من النجاة بصعوبة إلا قلة قليلة ، منهم وليم التاسع دوق اكوئين وولف الرابع دوق بافاريا ، فأتجها إلى طرسوس ، ومنها إلى أنطاكية <sup>(٣)</sup> .

وهكذا لقيت حملة سنة ١١٠١ بأقسامها الثلاثة مصيرها المشؤم الذي جرتها إليه جموع المبارديين . ولو كان اللبارديون استمعوا للنصح في أول الأمر ولم يتجهوا إلى شمال شرق الأناضول ، لأمكن لهذه الحملة أن تبدأ بداية طيبة ، وأن تنفادى الكوارث التي حلت بها . ولاشك في أن هذه الحملة كانت لها نتائج خطيرة ، أهمها تقوية الروح المعنوية عند الأتراك بعد أن تمكنوا من إنزال تلك الهزائم المتتالية بالصليبيين ، مما حيا أثر الهزيمة التي حلت منذ سنوات بالسلاجقة في صورليوم <sup>(٤)</sup> . وبذلك انسد طريق آسيا الصغرى مرة أخرى في

(1) Matthieu d'Edesse (Hist Arm I) p 59

(2) Setton : op cit; I pp 361-362

(3) Foucher de Chartres p 399 & Guibert de Nogent p 243

(4) Runciman : op cit I, p ٢٩

وجه الصليبيين؛ بعد أن كانت الحملة الأولى قد نجحت في اقتحامه وفتحه، واستمر هذا الطريق مغلقاً طوال عدة سنوات مقبلة، أى حتى أيام فردريك بربروسا في أواخر القرن الثاني عشر. أما بالنسبة للموقف في بلاد الشام، فإن الكارثة التي حلت بحملة سنة ١١٠١ حرمت الصليبيين في الشام من آلاف عديدة من الرجال كانت الإمارات الصليبية الناشئة — ومملكة بيت المقدس بوجه خاص — أحوج ما تكون إليهم للدفاع عن كيائها، بعد أن تناقص عدد الصليبيين بالشام بصورة ملحوظة<sup>(١)</sup>. وأما بالنسبة للمدن التجارية الإيطالية، فإن انسداد الطريق البرى مرة أخرى إلى الشام جعل اعتماد الصليبيين في الشرق على الطريق البحرى الذى سيطرت عليه الأساطيل الإيطالية، مما ضاعف من مكاسب البندقية وجنوا وبيزا وغيرها من قوى الغرب البحرية<sup>(٢)</sup>.

---

(1) Grousset : *Hist. des Croisades*, I, p. 332-333

(2) Runciman. *op. cit*; I. p. 30.



## الفصل الثاني

### ريموند وتأسيس إمارة في الشام

تنازل ريموند عن مطالبه في أنطاكية واللاذقية :

أتجه بعض أمراء حملة سنة ١١٠١ الصليبية — بعد الكارثة التي حلت بهم — إلى أنطاكية ، في حين استطاع معظم الناجين الفرار إلى القسطنطينية ، حيث أعد لهم الامبراطور ألكسيوس كومنين في أوائل سنة ١١٠٢ سفناً حملتهم إلى الأراضي المقدسة <sup>(١)</sup>. وكان أن صحب ريموند الصنجلي الفريق الأخير إلى الشام ، فوصلوا في غير صعوبة إلى السويدية ، وهو الميناء الطبيعي لأنطاكية ، ولكن ريموند لم يكد ينزل إلى البر في يناير ١١٠٢ حتى قبض عليه أحد الفرسان ، متهماً إياه بخيانة الصليبيين في الأناضول ، مما عرضهم للكارثة التي حلت بهم ، وانتهى الأمر بتسليم ريموند لغريمه تنكرد الذي اعتقله في قلعة أنطاكية <sup>(٢)</sup>. ولم يلبث تنكرد أن وجه إلى ريموند تهمة خيانة الصليبيين الغربيين والتواطؤ مع الدولة البيزنطية ضدهم وضد مصالحهم بالشام . ولكن تنكرد وافق — تحت ضغط الأمراء الصليبيين — على إطلاق سراح ريموند ، بشرط أن يتعهد بالتنازل عن جميع ادعاءاته ومطالبه ، ليس في أنطاكية فحسب ، بل في اللاذقية أيضاً. وعندما وافق ريموند على ذلك وأقسم على التخلي عن جميع المطالب السابقة ، أطلق تنكرد سراحه <sup>(٣)</sup>.

(1) Chalandon : Alexis Comnene, P. 231

(2) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar, I); P. 27

(2) Albert d'Aix, P. P. 582-583.

ولاشك في أن هذه الاتفاقية جاءت فاتحة خير بالنسبة للصليبيين بالشام ، لأنها وضعت حدا للتنافس بين النورمان بزعماء بوهيموند ثم تنكرد من ناحية، وبين أبناء بروفانس بزعماء ريموند الصنجيلي من ناحية أخرى ، وضمنت لإمارة أنطاكية اعترافاً جديداً بوجودها مما ثبت أركانها. هذا فضلاً عن أن ريموند أخذ منذ ذلك الوقت يعمل لحسابه الخاص على ساحل الشام ، بعد أن كان معظم نشاطه السابق مكرساً لخدمة الإمبراطورية البيزنطية وتنفيذ سياستها ، فاتجه نحو تأسيس إمارة لنفسه على حساب المسلمين بدلاً من العمل على تقويض أركان إمارة أنطاكية الصليبية<sup>(١)</sup>. ويبدو أن ريموند أدرك أخيراً أن سياسته في محالفة الإمبراطور البيزنطي لم تأت له بثمره سوى الخسارة الفادحة ، إذ اعتبر الصليبيون هذه السياسة خيانة لهم ؛ في حين اكتشف الإمبراطور البيزنطي في نهاية الأمر أن حليفه ريموند أضعف من أن يقدم له معونة فعالية تخدم مطامع الإمبراطورية ضد الصليبيين بالشام<sup>(٢)</sup>.

### استيلاء ريموند على أنطارطوس :

وعندما اتجهت بقايا حملة سنة ١١٠١ من أنطاكية إلى بيت المقدس للحج ، فكر ريموند الصنجيلي في الاستفادة من تلك البقايا في الاستيلاء على أنطارطوس (طرطوس)، وهي المدينة التي كانت وقت مجيء الحملة الصليبية الأولى تابعة لبنى عمار — أمراء طرابلس — حتى استولى عليها ريموند سنة ١٠٩٩ ثم سنة ١١٠٠. ولكن بنى عمار عادوا فاستردوها أثناء غياب ريموند مع الحملة المباركية في آسيا الصغرى، مما جعل ريموند يحرص على الاستيلاء عليها من جديد. وفعلاً بدأ حصار

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 334-335

(2) Runciman : op. cit; II, p. 56.

انطربوس بمساعدة من معه من زعماء حملة ١١٠١ الفاشلة<sup>(١)</sup> . وصادف في ذلك الوقت وصول أسطول جنوى إلى الشام، فاستعان به ريموند في حصار المدينة من ناحية البحر حتى سقطت المدينة في يده في فبراير سنة ١١٠٢<sup>(٢)</sup> . ولم يكدر ريموند يستولى على انطربوس حتى اتخذها قاعدة لأعماله ومشروعاته المقبلة على ساحل الشام ، وأول هذه المشروعات فتتح مدينة طرابلس ذاتها<sup>(٣)</sup> .

وكان صاحب طرابلس عندئذ هو القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار (١٠٩٩-١١٠٨) الذي سبق أن رأينا سياسته المرنّة تجاه الحملة الصليبية الأولى ، وكيف أنه لم يعاد الصليبيين ، حتى عندما هاجموا عرقة التابعة له ، أو طرابلس ذاتها . كذلك أشرنا إلى أن القاضي فخر الملك هذا حالف بلدوين الأول ملك بيت المقدس، وحذره من السكين الذي نصبه سلاجقة دمشق . والواقع إن فخر الملك لم يأت بجديد في سياسته هذه ، إذ حرص أسلافه دائماً على الاحتفاظ باستقلالهم وسط الزراع بين الفاطميين من ناحية وسلاجقة الشام من ناحية أخرى، وكذلك حرص هو على أن يمسك العصا من الوسط بين الفاطميين والماشقة من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى<sup>(٤)</sup> .

على أن الموقف تبدل عندما استولى ريموند على أنطربوس وأخذ يصر في عناد على الاستيلاء على طرابلس ، فعندئذ أصبح لزاماً على فخر الملك أن يقبل مضطراً مبدأ الحرب دفاعاً عن كيانه ، وأن يلقي بنفسه — مكرهاً أيضاً — بين أحضان القوى الإسلامية القريبة لمواجهة ذلك الخطر<sup>(٥)</sup> . وكان أن أرسل فخر الملك أبو علي بن عمار مستنجداً بملك دمشق دقاق من ناحية ، وبأمير حمص

(1) Albert d'Aix: p. 583.

(2) Heyd : op cit, I, p. 139.

(3) Archer: op, cit P. 156

(4) Grousset : Hist: des Croisades, I; p. 337.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

— جناح الدولة — من ناحية أخرى . وفي ذلك الوقت كان أعوان ريموند من الصليبيين قد اتجهوا نحو بيت المقدس ، ولم يبق معه سوى جيش صغير من ثلثمائة رجل ، استغلهم في مهاجمة الجهات القريبة ، بل لقد بلغت به الجرأة حد مهاجمة طرابلس نفسها بذلك الجيش الصغير<sup>(١)</sup> . وكان من الممكن للمسلمين إذا تعاونوا أن يقضوا على ريموند وهو في تلك القوة الصغيرة ، إذ يذكر ابن الأثير أن فخر الملك أرسل إلى دقاق وإلى صاحب حمص يقول لهما « من الصواب أن نعاجل صنعيل إذ هو في هذه العدة القريبة »<sup>(٢)</sup> .

وكان أن أرسل جناح الدولة صاحب حمص قوة إلى طرابلس ، كما أرسل دقاق ألفي فارس ، واجتمعت تلك الجيوش مع جيش ابن عمار عند أسوار طرابلس حيث بدأت المعركة ضد ريموند . وهنا يروى ابن الأثير كيف ثبت ريموند ، فخصص مائة من رجاله لقتال أهل طرابلس ، ومائة لقتال الدماشقة ، وخمسين لقتال عسكر حمص ، واحتفظ لحراسته بالخمسين الباقين . وبفضل تلك الخطة استطاع ريموند أن ينزل الهزيمة بالمسلمين الذين قتل منهم سبعة آلاف في حين ارتد الباقون داخل أسوار طرابلس<sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة واضحة ، فالذي يهمننا هو أن ريموند لم يشأ أن يضيع ثمرة انتصاره ، وإنما شرع في حصار طرابلس فوراً ، وأقبل لمساعدته المسيحيون من الجهات القريبة مثل الجبل والسواد . ولكن يبدو أن ريموند سرعان ما أدرك صعوبة المهمة التي تنتظره وأن طرابلس ليست بالسهولة التي يظنها ، فتنع بما عرضه عليه صاحب طرابلس من جزية من المال

(١) Raoul de Caen, P. 707

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

والخليل ، وانسحب بعد ذلك إلى أنطربوس ( مارس — أبريل ١١٠٢ )<sup>(١)</sup>

### ريموند وإمارة حمص :

وبعد أن عقد ريموند الهدنة السابقة مع ابن عمار ، خرج في ربيع سنة ١١٠٢ لغزو سهل البقاع حيث كانت ممتلكات أمير حمص تمتد غربا حتى جبل عكار. وقد بدأ ريموند أولا بمهاجمة حصن الطوبان — إلى الشمال الشرق من حصن الأكراد — وذلك لأن ابن العريض مقدم حصن الطوبان أسر فارسا من « أكابر فرسانه » ورفض إطلاق سراحه مقابل مبلغ كبير من المال<sup>(٢)</sup>. وفي السنة نفسها — ١١٠٢ — هاجم ريموند حصن الأكراد أيضا ، وهو حصن يمتاز بموقعه الحربى الفريد حيث أنه شرف على كل الإقليم بين أنطربوس وطرابلس من جهة وحمص من جهة أخرى<sup>(٣)</sup>. وكان ريموند قد سبق أن استولى على حصن الأكراد في يناير سنة ١٠٩٩ ، ولكن أمير حمص عاد فاسترده . وعندما سمع جناح الدولة صاحب حمص أن ريموند عاد إلى تهديد حصن الأكراد سنة ١١٠٢ ، أخذ يستعد ويجمع قواته للدفاع عنه ، عندما دهمه ثلاثة من الباطنية في جامع حمص الكبير أثناء تأديته الصلاة ، وقتلوه بغتة في مايو سنة ١١٠٢<sup>(٤)</sup>.

(١) المرجع السابق & Raoul de Caen, P 707.

ويذكر ابن الأثير أن ريموند عندما انصرف من منطقة طرابلس إلى أنطربوس فتح هذه المدينة الأخيرة . والحقيقة إن فتح أنطربوس سبق زمنياً الموقعة بين ريموند من ناحية وقوات طرابلس وحمص ودمشق من ناحية أخرى.  
(٢) ابن الأثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٥ هـ.

(3) Stevenson op. cit; p. 54.

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (Rec. Hist. Or P.P. 525-526)

وابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ

ويروى صاحب مرآة الزمان أن أولئك الباطنية كانوا من المعجم وأنهم اقتربوا =

ولاشك في أن هذه الجريمة التي خلصت ريموند من ألد خصومه تعطينا فكرة واضحة عن مدى انحلال المحيط الإسلامي في بلاد الشام عندئذ ، مما يمكن الصليبيين من تحقيق أطماعهم ومهل عليهم الحصول على مكاسب كبيرة ، ما كانوا ليحصلوا عليها بتلك السهولة لولا ذلك الانحلال في صفوف خصومهم<sup>(١)</sup> والتاريخ لا يثبتهم في جريمة مقتل جناح الدولة سوى رضوان ملك حلب ، الذي ربطته به رابطة وثيقة . ذلك أن جناح الدولة كان متزوجا من أم رضوان ، ولكن النزاع دب بين الرجلين سنة ١١٠٠ ، مما جعل رضوان يستأجر ثلاثة من الباطنية الفرس لتنفيذ جريمته الوحشية في زوج أمه<sup>(٢)</sup> .

ولم يكد ريموند يسمع بمقتل جناح الدولة صاحب حمص ، حتى أسرع بمغادرة حصن الأكراد واتجه صوب حمص ذاتها ، للاستفادة من حالة الاضطراب والقلق التي غدت فيها المدينة بعد مقتل صاحبها . وفعلوا وصل ريموند إلى حمص « ونازلها وحصر أهلها وملك أعمالها<sup>(٣)</sup> » فأرادت الخاتون - أرملة جناح الدولة - أن تستدعي ابنها رضوان صاحب حلب للدفاع عن حمص ؛ ولكن رجال جناح الدولة عارضوا ذلك الاتجاه ، وفضلوا أن يستنجدوا بدقاق ملك دمشق . وعندما أحس ريموند باقتراب دقاق ، أدرك أن قوته أصغر من أن تستطيع الوقوف بين نارين ، فقفع بما فرضه على حمص من جزية مالية وانصرف عنها .

== من جناح الدولة وهم في زى الزهادوا أخذوا يدعون له ويستحثونه ثم ضربوه بسكاكينهم فمخروا قتيلا .

(١) وصف المؤرخ أبو المحاسن صاحب حمص حسين بن ملاعب جناح الدولة بأنه « كان أميراً مجاهداً شجاعاً يباشر الحروب بنفسه » النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٨ .  
(٢) ذكر أبو المحاسن أن سبب قتل حسين بن ملاعب جناح الدولة « أنه كان عند رضوان بن تنش ملك حلب معجم باطنى ، فندب لقتل جناح الدولة هذا أولئك نفر ، ثم قتل المنجم بعد ذلك بأربعة عشر يوماً » . (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٩)  
أما ابن الأثير فقد قال في صراحة : « وقيل إن الملك رضوان ربيبه وضع عليه من قتله » (للكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ)

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ

وهكذا وضع دقاق يده على حمص ، وأتاب عنه في حكمها أتابسكه طغتكين (أيتكين) <sup>(١)</sup> .

أما عن ريموند الصنجيلي فقد عاد أدراجه لينوم بعملية حربية أخرى ناجحة . ذلك أنه انتهمز فرصة وصول أسطول جنوى إلى اللاذقية في شتاء سنة ١١٠٣ واستغل تلك القوة البحرية في مهاجمة طرابلس . وعندما فشل الصليبيون في الاستيلاء على طرابلس «لم يروا فيها مطعماً» ، اتجهوا جنوباً لمهاجمة جبيل <sup>(٢)</sup> ، وهي قلعة صغيرة تقع على الساحل بين طرابلس وبيروت ، وكانت هي الأخرى تابعة لبنى عمار <sup>(٣)</sup> . ولم تستطع جبيل الصمود في وجه الحصار البحري الذي فرضه الجنوية ، والهجوم البري من جانب ريموند ، فاضطرت إلى الاستسلام في أواخر سنة ١١٠٤ <sup>(٤)</sup> . ويرى ابن الأثير أن الصليبيين لم يفوا بالأمان الذي منحوه لأهالي جبيل ، فأخذوا أموالهم واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب <sup>(٥)</sup> . أما الجنوية فقد كافأهم ريموند بإعطائهم ثلث جبيل ، مما مهد فيما بعد لأن تصبح جبيل ذاتها مستعمرة جنوية لها أهميتها تحت إشراف أسرة أمبريانشي Embriaci <sup>(٦)</sup> .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist, Or. P 591 )

(٢) Heyd : op cit I, P 139

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ ،

(4) Albert d'Aix P. 606,

ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(٥) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(6) Heyd : op. cit. I, PP 139-141; 150 & 158

وكان الاسطول الجنوي الذي ساعد ريموند في الاستيلاء على جبيل بقيادة أمير البحر هيومانشي .

## غامة ريموند الصنجيل :

وبالاستيلاء على انظرطوس في الشمال وجبيل في الجنوب تم وضع الإطار الخارجي لإمارة طرابلس الصليبية ، ولم يبق سوى الاستيلاء على العاصمة الطبيعية لتلك الإمارة ، وهى مدينة طرابلس ذاتها . ولكن هذه المدينة كانت محصنة تحصيناً طبيعياً يجعل من الصعب على ريموند انتزاعها ، إذ أنها قائمة على شبه جزيرة داخلية في البحر ، مما مكن صاحبها ابن عمار من الحصول على ما يحتاج إليه من مؤن عن طريق البحر في حالة حصار مدينته براً . لذلك لجأ ريموند إلى بناء قلعة أسماها المسلمون قلعة صنجيل نسبة إلى ريموند (Saint-Gilles) في مواجهة طرابلس مباشرة ، أى على الجبال المقابلة لها ، وذلك لإحكام الرقابة عليها وقطعها عن العالم الداخلى . وأعانته فى بناء هذه القلعة الامبراطور البيزنطى الذى أرسل له الميرة والأخشاب والمعدات اللازمة لبنائها من جزيرة قبرس<sup>(١)</sup> . وهكذا أصبح موقف ابن عمار فى طرابلس خطيراً ولم يعد أمامه طريق للاتصال بالعالم الخارجى سوى طريق البحر ، فى حين تكاثف المسيحيون المحليون — من الموارنة وغيرهم — مع ريموند لإحكام الحصار المفروض على طرابلس<sup>(٢)</sup> .

وتروى المراجع العربية أن بنى عمار حاولوا هدم قلعة صنجيل (أغسطس — سبتمبر ١١٠٤) وإشعال النار فيها ، ولكنهم لم يحققوا غرضهم<sup>(٣)</sup> . وكل ما هنالك هو أن ريموند أصيب بجروح نتيجة لسقوط بعض أجزاء القلعة المشتعلة

(١) ابن الاثير : السكامل ، سنة ٤٩٩ هـ &

Guillaume de Tyr, I. p. 441.

(٢) المرجعان السابقان .

(٣) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ



عليه . ويشير صاحب مرآة الزمان إلى أن ريموند توفي بعد أن عقد هدنة مع ابن عمار تقضى بأن يكون للأول « ظاهر طرابلس دون أن يقطع الميرة والمسافرين عنها » ولكن هذا الرأي الأخير لا يوجد ما يدعمه في المراجع الصليبية ، فضلا عن بقية المراجع العربية <sup>(١)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن ريموند لم يلبث أن توفي في قلعة صنجيل في نهاية فبراير سنة ١١٠٥ متأثرا بجروحه ، قبل أن يحقق أمنية في الاستيلاء على مدينة كبرى من مدن الشام مثل أنطاكية أو بيت المقدس ، يتخذها مركزاً لإمارة جديدة لنفسه . وإذا كانت مدينة طرابلس ذاتها لم تسقط في يد ريموند ، إلا أنه صاحب الفضل في تأسيس إمارة طرابلس ووضع إطارها العام وتسهيل مهمة الاستيلاء عليها أمام خلفائه .

وقد شاعت الظروف أن تكون طرابلس آخر مدينة كبرى بالشام تسقط في أيدي الصليبيين وآخر إمارة كبرى يؤسسها الصليبيون بعد الرها وأنطاكية وبيت المقدس ، ولكنها في الوقت نفسه كانت آخر إمارة صليبية في بلاد الشام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر . فالرها التي سقطت في أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٨ عادت إلى المسلمين سنة ١١٤٤ ، وبيت المقدس التي استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٩ استردها المسلمون سنة ١١٨٧ ، وأنطاكية التي غزاها الصليبيون سنة ١٠٩٨ استعادها المسلمون سنة ١٢٦٨ . أما طرابلس التي لم تقع في أيدي الصليبيين إلا سنة ١١٠٩ ، فقد ظلت باقية في قبضتهم حتى سنة ١٢٨٩ <sup>(٢)</sup> .

---

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ( P 528 )

(3) Grousset : Hist des Croisades I. PP. 344-345.

## الفصل الثالث

### أعمال ولیم جوردان

ولیم جوردان ومصار طرابلس :

ترك ريموند الصنجيلي ابنه الأكبر برتراند يحكم أملاكه في الغرب الأوربي (تولوز) ؛ في حين اختار أفضال ريموند وفرسانه في الشام ابن خالته ولیم جوردان ليتابع سياسته في الشرق . وكان أن استأنف ولیم سياسة ريموند بجميع أركانها ، فاحتفظ بالعلاقات الطيبة مع البيزنطيين من جهة ، واستمر في إحكام الحصار البري حول مدينة طرابلس عن طريق قلعة صنجيل من جهة أخرى <sup>(١)</sup> . ودليل ذلك كله ما يرويه ابن الأثير من أن الإمبراطور البيزنطي « أمر أصحابه باللاذقية ليحسموا الميرة إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس ، فحملوها في البحر (من قبرس) » <sup>(٢)</sup> . وقد دارت عندئذ معركة بحرية بين السفن البيزنطية وسفن بني عمار ، أسرت فيها سفينة بيزنطية واقتادها المسلمون إلى ميناء طرابلس <sup>(٣)</sup>

على أن ابن عمار وجد نفسه في حاجة إلى معونة خارجية عاجلة لمقاومة حصار ولیم جوردان ، وبخاصة بعد أن ساءت أحوال طرابلس وارتفعت أسعار الطعام فيها ارتفاعاً فاحشاً ، وهجرها الفقراء واقتصر الأغنياء وفشلت جهود نجر الملك بن عمار في تخفيف حدة الأزمة <sup>(٤)</sup> . ولما كان ابن عمار لا يستطيع طلب هذه المعونة

(١) Runciman : op. cit, II. p. 62.

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٢ - ١٦٣ .

من طفتكين أنابك دمشق وحصن بسبب ماوقع بين الطرفين من خلاف وعداء، أو من الفاطميين الذين يرغبون في انتزاع طرابلس لأنفسهم من بني عمار، فإنه لم يبق سوى الأمير الأسبق لبيت المقدس وهو سكان بن أرتق التركاني الذي أصبح عندئذ صاحب حصن كيفا في ديار بكر. وكان أن تحرك سكان فعلا لنجدة طرابلس ولكنه لم يلبث أن توفي في الطريق، وبذلك انقطع آخر أمل تعلق به بنو عمار للحصول على معونة خارجية تمكنهم من إنقاذ طرابلس (سنة ١١٠٥) <sup>(١)</sup>.

وهكذا ضاقت دائرة الحصار حول طرابلس، فاضطر أهلها إلى بيع مالههم «من الحلى والأواني الغريبة» لشراء ما يلزمهم من قوت، في حين أثر بعضهم الفرار إلى صفوف الفرنجة <sup>(٢)</sup>. ومع ذلك فقد استمرت المدينة تقاوم الحصار ثلاث سنوات أخرى بفضل قوة عزيمة ابن عمار من ناحية، وافتقار الصليبيين إلى أسطول بحرى يحكم الحصار على طرابلس من ناحية البحر من ناحية أخرى <sup>(٣)</sup>. ويبدو أن ثراء طرابلس وكثرة ما فيها من ذهب وفضة، ثم استعداد أهلها في محنتهم لدفع الأثمان الباهظة مقابل القليل من الغذاء، ساعد كل ذلك على تهريب المؤن إليها من جزيرة قبرص البيزنطية، بل من إمارة أنطاكية الصليبية «وجزاير البنادقة» <sup>(٤)</sup> وإزاء إصرار الصليبيين على حصار طرابلس، اضطر فخر الملك ابن عمار إلى السفر في ربيع سنة ١١٠٨ إلى بغداد لطلب النجدة من زعيمى العالم الإسلامى في المشرق، وهما الخليفة المستظهر العباسى (١٠٩٤ — ١١١٠) والسلطان محمد السابع (١١٠٤ — ١١١٧) <sup>(٥)</sup>. وقد أناب فخر الملك عنه في حكم طرابلس

(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٨ هـ، ٤٩٩ هـ.

(٢) المرجع السابق، حوادث سنة ٤٩٩ هـ.

(٣) Setton; op. cit; P. 396.

(٤) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٥٠١ هـ.

(٥) ان القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥.

ابن عمه ذو المناقب بن عمار ، ودفع مرتبات الجند لسته أشهر مقبلة ، ثم اتجه إلى بغداد حاملاً معه الهدايا الفاخرة للعاهلين العباسي والساجوقي<sup>(١)</sup> . وتلقى رواية ابن الأثير عن رحلة ابن عمار إلى بغداد ضوءاً ساطعاً على مدى تفكك المسلمين في المشرق عندئذ ، وانحلال الخلافة العباسية ، فضلاً عن السلطنة الساجوقية ، إذ لم يجد ابن عمار من الطرفين سوى الكلمات المعسولة والسؤال « عن حاله وما يعانيه في مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطر في قتالهم » ؛ ولكنه لم ينظر بشيء من المعونة المنشودة<sup>(٢)</sup> .

وهكذا لم يسع ابن عمار سوى أن ينصرف عائداً إلى إمارته في أغسطس سنة ١١٠٨ بخفي حنين ؛ ولكنه لم يكد يصل إلى الشام حتى سمع أن طرابلس نفسها قد طارت من يده أثناء غيابه . ذلك أن أهل طرابلس عندما ضاق بهم الحال أرسلوا إلى الوزير الأفضل الجمالي في القاهرة يطلبون منه حماية الدولة الفاطمية لهم ؛ ويعرضون عليه تسلم المدينة للدفاع عنها ؛ فأرسل إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب والياً سنة ١١٠٨ « ومعه الغلة وغيرها مما يحتاجون إليه أهل البلاد في الحصار . فلما سار فيها قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه وأخذ ما وجد من آلاته وذخائره وغير ذلك وحمل الجميع إلى مصر في البحر » . وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بني عمار وآلت إلى الفاطميين<sup>(٣)</sup> . ولم يبق لابن عمار بعد ذلك سوى جيلة ، وهي قلعة صغيرة على الساحل بين اللاذقية والمرقب<sup>(٤)</sup> .

ولكن إذا كان الفاطميون قد حققوا أمنيتهم في امتلاك طرابلس إلا أنهم

(1) Stevenson *op. cit.*, p. 56.

(٢) سبط ابن الجوزي P 535 &

ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٣) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان P 539

كانوا أضعف من أن يستطيعوا حمايتها . ويمبر أبو المحاسن عن ذلك بالتنديد بعدم اكتراث الفاطميين بالفرنجة « من كل وجه وتقاعدهم عن المسير »<sup>(١)</sup> .

### استيلاء وليم جوردان على عرقه :

ولم يلبث أن كثرت الطامعون في حطام إمارة بني عمار ، فبينما فاز الفاطميون بمدينة طرابلس ذاتها ؛ إذا بطغتكين أتاك دمشق يسعى للاستيلاء على عرقه الواقعة شمالى طرابلس . والمعروف أن حصن عرقه كان « من الحصون المنيعة »<sup>(٢)</sup> ، ويتمتع بموقع حربى هام لأنه بمثابة الباب الشمالى لطرابلس ، ويؤدى استيلاء الدماشقة عليه إلى قطع الطريق على الصليبيين بين أنطربوس ( طربوس ) وطرابلس<sup>(٣)</sup> .

وكان فخر الملك أبو على ابن عمار فى أواخر أيام حكمه قد عهد بقلعة عرقه إلى أحد رجاله ، ولكن هذا « الفلام » طمع فى الاستقلال بعرقه « دعى على مولاه » ؛ وفى الوقت نفسه لم يستطع الصمود فى وجه وليم جوردان فعرض على طغتكين أن يعطيه إياها ، وبعث إليه يقول « أرسل من يتسلم هذا الحصن منى ، قد عجزت عن حفظه ، ولأن يأخذه المسلمون خير لى دنيا وآخرة من أن يأخذه الفرنج » . لذلك أرسل طغتكين على الفور ثلثمائة من رجاله إلى عرقه تحت راسة رجل اسمه اسرائل<sup>(٤)</sup> .

وعندما خرج طغتكين من دمشق فى مارس سنة ١١٠٨ للقيام بعدة هجرات

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة سنة ٥٠٢ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(3) Stovenson : op. cit, p 56.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

على التلاع الصابية القريبة ، ولزيارة حصن عرقه « والاطلاع عليه وتقويته  
بالمساكر والأقوات وآلات الحرب » ؛ تصدى له ولیم جوردان ، فلاذ الدماشقة  
بالفرار ، وعلى رأسهم طفتكين نفسه ، وظل ولیم يطاردهم حتى مشارف حمص ،  
ثم عادهم متجهًا صوب شيزر . وقد حاول الأخوان مرشدو سلطان — أمير اشيزر —  
الايقاع بولیم جوردان وأسرهم ، ولكنه انتصر عليهما<sup>(١)</sup> . وهكذا عاد ولیم بعد  
ذلك النصر المزدوج ليستولى على عرقه التي سقطت بعد حصار ثلاثة أسابيع  
(ابريل سنة ١١٠٨) . وبروى بعض المؤرخين الصليبيين أن حامية عرقه عندما  
يُست من المقاومة فرت ليلا وتركت القلعة خالية ليحتلها الصليبيون في الصباح  
التالي<sup>(٢)</sup> ؛ في حين يؤكد ابن الأثير أن أهل عرقه طلبوا « الأمان » ، فأمنهم  
(جوردان) على نفوسهم<sup>(٣)</sup> .

---

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٥٠ . ويطلق أسامة وابن الأثير على ولیم  
جوردان اسم « السرداني » .

(2) Albert d'Aix, p 663.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

## الفصل الرابع

### برترام وظهور إمارة طرابلس

التنافس بين ولیم جوردان و برترام :

وهكذا ظل ولیم جوردان أكثر من ثلاث سنوات يواصل جهوده الصليبية على ساحل الشام، مؤملاً أن يتوج تلك الجهود بالاستيلاء على طرابلس نفسها . ولكنه قبل أن يتمكن من تحقيق تلك الأمنية تعرض لمنافس خطير وصل إلى الشام لينتزع منه تلك الإمارة الصليبية الجديدة التي أوشكت أن تولد . ولم يكن هذا المنافس سوى برترام ( برتراند ) الابن الأكبر لريموند الصنجيلي ، وصاحب الحق الشرعي في تركة أبيه <sup>(١)</sup> .

وكان برترام قد أعد العدة لرحلته إلى الشرق، وعمل حساب ما قد يواجهه من مصاعب ، فخرج من بلاده - بروفانس - على رأس أربعة آلاف فارس يحملهم أسطول قوى من أربعين سفينة . ويبدو أن برترام أتى إلى الشام وقد وضع في برنامج ضرورة الاستيلاء على مدينة طرابلس ، لأنه حرص في طريقه من الغرب على أن يمر بجنوا حيث أجرى مباحثات عن الشروط التي تقبل بها جنوا مساعدته في تحقيق أغراضه <sup>(٢)</sup> . هذا في الوقت الذي كان ولیم جوردان من ناحية أخرى

---

(١) خلف برترام أباه ريموند الصنجيلي في إمارة تولوز كما سبق أن ذكرنا . ولكن حق برترام في وراثة أبيه كان مزعواً لأنه كان ابناً غير شرعي له . وكان لريموند ابن آخر شرعي صغير السن هو ألفونسو جوردان ، فاستدعاه أهل تولوز وأمروه عليهم ، وتم الاتفاق بين الأخوين سنة ١١٠٨ على أن يرث ألفونسو أباه في ممتلكاته الغربية ، في حين يرث برترام أباه في ممتلكاته بالشام . انظر :

(Runciman : op. cit, I, ps. 61, 64 - 65)

(2) Grousset : Hist. des Croisades. I, p. 352.

قد أدرك ضرورة الحصول على مساعدة إحدى القوى البحرية الإيطالية للاستيلاء على طرابلس ، فأرسل هو الآخر سفيراً إلى جنوا لل غاية ذاتها . ولكن وجود برترام بنفسه في جنوا جعله يكسب الجولة ، فتعهدت له جنوا بأن تساعد في الحصول على تركة أبيه في الشام من ناحية وفي الاستيلاء على طرابلس من الفاطميين من ناحية أخرى ، مقابل تعهد برترام بمنح الجنوية امتيازات تجارية واسعة في طرابلس <sup>(١)</sup> . وهكذا أبحر برترام من جنوا إلى الشرق وبصحبه أسطول جنوى قوى مؤلف من ثمانين سفينة . وعندما مرت هذه الحملة بالدولة البيزنطية ، رحب الامبراطور ألكسيوس كومنين ببرترام ابن حليفه ريموند ، وأكرم وفادته في القسطنطينية وقدم له كثيراً من الهدايا ، وفي مقابل كل ذلك أقسم برترام يمين الولاء للامبراطور ، مجدداً الحلف بين أمراء بروفانس والامبراطورية البيزنطية <sup>(٢)</sup> .

على أن الأسطول البروقسالى — الجنوى لم يتجه نحو أنظرطوس مباشرة ، وإنما اختار برترام أن ينزل في ميناء السويدية حيث قابل تنكرد أمير أنطاكية . وقد طلب برترام من تنكرد إعطائه نصيب أبيه ريموند في أنطاكية ، فأجاب تنكرد بأنه مستعد لبحث هذا الموضوع بشرط أن يساعد برترام في الحملة التي يوشك تنكرد القيام بها ضد مدينة المصيصة في قيليقية ، لاستردادها من البيزنطيين <sup>(٣)</sup> . وعندئذ تذكر برترام عهده للامبراطور البيزنطى ، فرفض للوافقة على هذا الشرط ، الأمر الذى استثار غضب تنكرد ، فطلب منه الرحيل فوراً ، وألا تطأ قدمه بعد ذلك أرض إمارة أنطاكية <sup>(٤)</sup> .

(1) Høvd : op. cit. I, 140.

(2) Albert d'Aix, p. 664.

(3) Runciman : op. cit; II, p. 66.

(4) Albert d'Aix, p.p. 665-666.



وهكذا أبحر برترام ومعه حلفاؤه الجنوية نحو أنظرطوس، التي كانت حتى ذلك الوقت أهم مركز في ممتلكات أسرة ريموند بالشام . وعندما طالب برترام قريبه وليم جوردان بتسليمه تركة أبيه من المدن والبلاد ، رد الأخير بأن هذه البلاد جميعاً من حقه وحده ، لأنه هو الذى ظل يدافع عنها - بعد وفاة ريموند - قرابة أربع سنوات، ولولاه لضاعت تلك البلاد بين المسلمين من ناحية والنورمان في أنطاكية من ناحية أخرى . هذا بالإضافة إلى أنه — أى وليم — ضاعف تلك التركة بالاستيلاء على عرقه وحصن عكار<sup>(١)</sup> . وبذلك تعمد الموقف بين وليم جوردان من ناحية وبرترام من ناحية أخرى ، مما جعل الأول يستنجد بتنكرد بعد أن تعهد بأن يصبح تابعاً له ، فوعده تنكرد بالحضور على رأس قواته إلى أنظرطوس للاشتراك مع وليم في طرد برترام<sup>(٢)</sup> .

على أن برترام لم ينتظر وصول تنكرد ، وإنما ترك أنظرطوس واتجه على رأس قواته وصحبته الأسطول الجنوى - إلى طرابلس ليحاصرها براً وبحراً . وفي الوقت نفسه أرسل برترام رسالة عاجلة إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس يخبره بتحالف وليم جوردان وتنكرد ضده لحرمانه من تركة أبيه ، ويطلب إليه الحضور على عجل لمساعدته ، مع تعهده بالولاء والتبعية لمملكة بيت المقدس<sup>(٣)</sup> .

ولم يكن بلدوين الأول بالرجل الذى يترك تلك الفرصة تفلت من يده ، وهو الحريص على أن يجعل من مملكة بيت المقدس سلطنة عالياً تهيم على جميع الإمارات الصليبية ببلاد الشام . لذلك أسرع بإيفاد رسولين إلى تنكرد ووليم جوردان لإحاطتهما علماً بأن برترام تحت رعاية الملك بلدوين نفسه وحمايته ،

(1) Foucher de Chartres, p. 419.

(2) Setton : op. cit. I, p. 397.

(3) Albert d'Aix, p. 606.

ويحذرهما من القيام بأى عمل عدوانى ضده . ثم اختتم الملك رسالته إليهما بدعوتهما إلى الحضور لمقابله أمام طرابلس للنظر فى رد تركة ريموند إلى ابنه برترام<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن خرج بلدوين الأول على رأس خمسمائة من فرسانه قاصداً طرابلس حيث التقى به برترام ، وأقسم له يمين الولاء . أما وليم جوردان ، فذهب إلى تنكرد وأراد أن يستحثه على القتال ، ولكن الأخير هدأ من ثورته ، وصحبه إلى طرابلس حيث لحق بهما بعد قليل بلدوين دى بورج أمير الرها<sup>(٢)</sup> .

وهكذا التقى جميع زعماء الصليبيين بالشام وشمال العراق فى قلعة صنجيل أمام طرابلس ، حيث عرض النزاع بين برترام وليم جوردان على بساط البحث . وفى ذلك الموقف أظهر الملك بلدوين الأول براعة وحكمة فى تسوية الخلافات بين صفوف الصليبيين ، فتم الصلح بين تنكرد وبلدوين دى بورج ، كاتم الصلح بين برترام وليم جوردان<sup>(٣)</sup> . وقد قام الصلح الأخير على أساس تقسيم تركة الأمير ريموند بين المتنازعين ، فأخذ وليم جوردان عرقه وانظرطوس ، فى حين أخذ برترام قلعة صنجيل وجبيل ، علاوة على طرابلس عندما يتم فتحها . وتقرر أنه إذا مات أحدهما دون ولد فإن الآخر يرثه فى ممتلكاته .

### استيلاء الصليبيين على طرابلس :

وكان النجاح فى الوصول إلى الاتفاقية السابقة إيذاناً بتوجيه جهود الصليبيين ضد طرابلس ، تلك المدينة التى ظلت تقاوم الحصار ست سنوات متواصلة . ولم يكن بوسع طرابلس فى تلك المرة أن تقاوم فرسان بيت المقدس وبروفانس وأنطاكية ،

---

(1) Runciman : op. cit; II. P. 68.

(2) Grousset : op. cit, I, p.p. 355 - 356.

(3) Stevenson : op. cit. p. 57.

(4) Albert d'Aix, p. p. 668 & Guillaume de Tyr, p. 466.

والرها مجتمعين ، فى الوقت الذى أخذ الأسطول الجنوى الكبير يحكم الحصار عليها من ناحية البحر <sup>(١)</sup> . ولو كانت الحكومة الفاطمية قد اتخذت إجراءً سريعاً عندئذ لتموين طرابلس وتزويدها بالرجال والسلاح ، لأمكن للمدينة أن تقاوم ، ولكن الأسطول الذى أعدته القاهرة لنجدة طرابلس ظل منتظراً فى موانئ الدلتا حين صدور تعليمات بشأن الخلاف بين قادته ؛ فلما أزمع الحركة صادفته رياح مضادة عرقلت سيره . وفى تلك الأثناء ساءت أحوال أهل طرابلس « وسقط فى أيديهم ، وذلت نفوسهم ، وزادهم ضعفاً تأخر الأسطول المصرى عليهم بالنجدة والميرة » <sup>(٢)</sup> . وأخيراً أبحرت العمارة الفاطمية نحو طرابلس بعد فوات الأوان ، ولم تسكد تصل إلى مياه طرابلس نفسها « حتى وجدوا البلد قد أخذت ، فعادوا كجأهم !! » <sup>(٣)</sup> .

وهنا يقف المؤرخ أبو الحاسن وقفة قصيرة ليلقى على الفاطميين تبعة سقوط طرابلس ويومهم لعدم اكتراثهم بمحاربة الصليبيين ، ثم يحدد مظاهر عدم الاكتراث بالدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور الأول تقاعدهم عن المسير تلك المدة الطويلة ؛ والثانى ضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة ، لدفع الفرنج من البحر عن البلد ؛ والثالث عدم خروج الوزير الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية . « هذا مع قوتهم ( الفاطميون ) فى العساكر والأموال والأسلحة <sup>(٤)</sup> ! » .

(١) أبو الحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٣) المرجع السابق ؛ ويذكر أبو الحاسن أن الأسطول الفاطمى حضر بعد تأخير « وصار كلما سار نحو البلدة رده الفرنج إلى نحو مصر » حتى تمكن من الوصول إلى طرابلس أخيراً فوجدها قد أخذت . (أبو الحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٩) .

(٤) أبو الحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٩ .

والواقع إن أهل طرابلس عندما وجدوا أنفسهم وحيدين أمام مجموعة من الأعداء، واضطروا إلى التفكير في التسليم، طلبوا أن يكون تسليمهم للملك بلدوين الأول والأمير برترام، بشرط عدم الاعتداء على حياة من يرغب في الخروج من المدينة وعلى ممتلكات من يرغب البقاء فيها<sup>(١)</sup>. وقد قبل الملك بلدوين تلك الشروط، وبذلك دخل الصليبيون طرابلس في ١٢ يولييه سنة ١١٠٩ فاحترموا الشروط السابقة، وسمحوا للتائب الفاطمي — على قول ابن الأثير — بمغادرة المدينة ومعه فريق من رجاله، وأمن الصليبيون طريقهم إلى دمشق<sup>(٢)</sup>. ولكن ذلك لم يمنع ابن الأثير من الإشارة إلى ما ارتكبه الصليبيون داخل طرابلس من حوادث النهب<sup>(٣)</sup>. ولعل تفسير هذا التناقض في مسلك الصليبيين إنما يبدو في أن بلدوين ورجاله دخلوا المدينة من جانب، فاحترموا شروط الصلح ولم يتعرضوا لأموال المسلمين وأرواحهم. ولكن الجنوية دخلوا المدينة في الوقت نفسه من جانب آخر فأتوا من أعمال السلب والعنف ما أشار إليه ابن الأثير<sup>(٤)</sup>.

(١) Guillaume de Tyr, p. 468.

(٢) ابن الأثير : السكامل، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .  
(٣) « إذ نهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال ، وغنموا من أهلها الأموال والامتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحصى ؛ فإن أهلها كانوا أكثر البلاد أموالا ونجارة » .  
(ابن الأثير : السكامل، حوادث سنة ٥٠٣ هـ) .

أما أبو المحاسن فيقول : « ... وهجموا على طرابلس فأخذوها ونهبوا وأسروا رجالها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالها وذخايرها ، وكان فيها ما لا يحصى ولا يحصر ، واقتسموها بينهم » . (النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ١٨٠) .

(٤) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 358.

### الجنوية وامتيازاتهم التجارية :

ولم تسكد طرابلس تسقط في أيدي الصليبيين حتى طالب الجنوية بالثمن ، بعد المساعدة الكبيرة التي قدموها لهم . وقد سبق أن رأينا كيف أعطى ريموند الصنجيلي الجنوية ثلث جبيل مقابل مساعدتهم له ؛ وبذلك أصبحت هذه المدينة الصغيرة مستعمرة جنوية . وقد عين لحكم هذه المستعمرة أحد أمراء الأسطول الجنوى — هو هيو امبرياتشو — الذي لم يلبث أن حصل من جنوا على حق الحكم الوراثي في جبيل ، مع تعهده بدفع المال اللازم للحكومة جنوا<sup>(١)</sup> .

وعندما مات هيو سنة ١١٣٥ تعاقبت سلالة في حكم جبيل . وليست هناك أهمية خاصة لهؤلاء الحكام الجنوية الذين توارثوا تلك المدينة سوى أنهم أخذوا يبتعدون تدريجياً عن أصلهم الإيطالي ونزعتهم التجارية ، ويندمجون في الوسط الفرنجي البروننسي إلى المحيط بهم ، حتى أصبحوا مجرد أفضال تابعين للأمراء طرابلس<sup>(٢)</sup> . وساعد على ذلك أن حكام جبيل من بيت امبرياتشو الجنوى ارتبطوا برباط نسب ومصاهرة مع البيوت الصليبية في المدن المجاورة — مثل نابلس وطرابلس وأنطاكية — مما أدى إلى ذوبان تلك الأسرة الجنوية في المحيط الصليبي الواسع الذي يحف بها . ولا أدل على نسيان حكام جبيل لأصولهم الجنوية وتنكرهم لمصالح جنوا ذاتها ، من أنهم منحوا سنة ١٢١٧ امتيازاً تجارياً للبنادقة في جبيل<sup>(٣)</sup> .

(1) Albert d'Aix, p. 669 & Fulcher de Chartres, p. p. 420.

(2) Heyd : op, cit, I, p.p. 162—163.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 359—360.

## نوميد إمارة طرابلس :

اتخذ برترام لقب أمير طرابلس ، وحرص على تأكيد تبعية الملك بيت المقدس ، وفي الوقت نفسه تنامي وعوده العريضة للامبراطور البيزنطي<sup>(١)</sup> . على أن إمارة طرابلس ولدت ممزقة ، وأخذت تعاني من ذلك التمزيق ما لم تعانيه إمارة أخرى من الإمارات الصليبية ببلاد مشام ؛ لأن معنى استيلاء برترام على مدينة طرابلس واستيلاء وليم جوردان على أنطربوس وعرقه ، هو تقطيع أوصال الإقليم الواحد ، مع ما ينتج عن ذلك من ضعف وحزازات . هذا إلى أن اختلاف اتجاهات الحاكمين وتوزيع ولائهم ما توزيعاً متضاداً زاد من حدة الفقرة والانقسام ؛ لأنه بينما اعترف برترام أمير طرابلس بالتبعية للملك بيت المقدس ، إذا بوليم جوردان صاحب أنطربوس وعرقه يقدم ولاءه لأمير أنطاكية . وجميع تلك الظواهر — وغيرها — كانت بدون شك لا تبشر بخير ، وأنذرت بالصدام بين الرجلين الذين اقسما أملاك بيت ريموند الصنجيلي في الشرق .

ولكن شاء حسن حظ إمارة طرابلس الصليبية أن ينتهي ذلك الوضع بمقتل وليم جوردان بيد أحد رجاله في ظروف غامضة أشارت إليها المراجع الصليبية إشارة مقتضبة غير واضحة<sup>(٢)</sup> . وهكذا ضم برترام جميع الممتلكات البروفنسالية في الشام تحت سيادته ، وأصبحت إمارة طرابلس إمارة كبيرة مترابطة لا تنقل عن إمارة الرها أو أنطاكية في أهميتها ، ويحكمها برترام بن ريموند الصنجيلي مؤسس الإمارة ، وهو الذي ربطته علاقات وثيقة بملك بيت المقدس

(1) Runciman : op. cit; I p. 69.

(2) Albert d'Aix, p. 669 & Foucher de Chartres, p 49

أما تنكرد - الذى « قامر على الحصان الخاسر » - فلم يعد له نفوذ إطلافاً في إمارة طرابلس الجديدة بعد مقتل حليفه<sup>(١)</sup>.

**استيلاء الصليبيين على بانياس وجبله ومعهما الأكراد :**

وسرعان ما أعقب سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين استيلاؤهم على ما تبقى من المعاقل الإسلامية على شاطئ الشام . من ذلك أن تنكرد احتل في طريق عودته من حصار طرابلس مدينة بانياس التي لم تبد سوى مقاومة ضعيفة، مما جعل تنكرد لا يتعرض لأرواح أهاليها<sup>(٢)</sup>.

ومن بانياس زحف تنكرد على جبلة التي أوى إليها أمير طرابلس السابق فخر الملك عمار ، كما سبق أن أشرنا . ولم تستطع جبلة هي الأخرى أن تقاوم حصاراً طويلاً « وكان القوت فيها قليلاً » فاضطر ابن عمار إلى تسليمها في يوليو سنة ١١٠٩ . وقد سمح تنكرد لابن عمار بأن يخرج سالماً إلى شيزر ومنها إلى دمشق ، حيث أشفق عليه طفكتين « وأقطعة الزبداني وأعماله »<sup>(٣)</sup> . وهكذا أصبحت بانياس وجبلة أجزاء من إمارة أنطاكية الصليبية .

أما في داخلية البلاد فيروى لنا ابن القلانسي أن الصليبيين من أتباع برترام زحفوا في السنة السابقة نفسها (١١٠٩-١١١٠) على رمنية شرقي أنطارطوس .

---

(١) Runciman : op cit; I, p. 69.

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ . ع

ابن القلانسي ، ص ١٦٣ - ١٦٤

وقد أخطأ ابن الأثير فقال : إن تنكرد استولى في تلك السنة على جبيل من المسلمين؛ والحقيقة إنها جبلة أماجيل فاستولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤ كما مر بنا، وتم ذلك على يد ريموند الصنجيلي لا تنكرد .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .

على أن طفتكين عندما سمع بذلك أمرع من دمشق للدفاع عن تلك القلعة ، واكتفى مؤقتاً بأن عسكر على رأس قواته قرب حمص لمراقبة الأمور ؛ « فلم يقدروا (الصلبيون) على منازلة رفنيه »<sup>(١)</sup> . وكان أن انتهى الموقف بعقد اتفاق ودى بين طفتكين والصلبيين ، وافق بمقتضاه الطرف الأول على أن يستولى الصليبيون — برترام — على ثلث دخل البقاع ، فضلاً عن حصن المنيطرة وابن عكار<sup>(٢)</sup> . ولا شك في أن استيلاء الصليبيين على هذين الحصنين الأخيرين أمر له أهميته ، لأن المنيطرة تسيطر على الطريق بين جبيل وبعليك ، في حين أن سيطرتهم على حصن ابن عكار تمكنهم من الإشراف على الطريق بين عرقه وحمص . وفي مقابل ذلك كله تعهد برترام أمير طرابلس بعدم الاعتداء على مصياف وحصن الطوفان وحصن الأكراد ، وكان الأخير تابعاً لقراجا صاحب حمص .

على أن الصليبيين لم يحافظوا على كلمتهم مدة طويلة ، إذ لم يلبث تنكرد صاحب أنطاكية أن استولى على حصن الأكراد سنة ١١١٠ أثناء قيامه بغارة على شيزر<sup>(٣)</sup> . ومن الواضح أن حصن الأكراد بحكم موقعه كان يجب أن يتبع إمارة طرابلس لا أنطاكية ؛ ولذلك لم يلبث تنكرد أن تخلى عنه للأمير بونز Pons الذي خاف أباه برترام في حكم طرابلس سنة ١١١٣ . ومنذ هذه السنة ظل حصن الأكراد تابعاً لإمارة طرابلس حتى أعطاه ريموند الثاني أمير طرابلس للفرسان الاسبتارية سنة ١١٤٢<sup>(٤)</sup> .

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ( p. 537 )

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥

سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ( p. 537 )

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧

سبط بن الجوزي ، ( p. 539 )



### سياسة بونز أمير طرابلس :

أما عن العلاقات بين الصليبيين بعضهم وبعض في تلك الفترة ، فأهم ما يميزها التقارب الشديد بين الإمارات الصليبية الأربع في الشرق الأدنى ، وهي الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ، حتى أن تاريخها في الفترة التي أعقب سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين جرى في اتجاه واحد (١) . وقد ظهر ذلك التقارب عندئذ أشد ما يكون وضوحاً بين أمراء طرابلس وأنطاكية حتى أن برترام أرسل ابنه وخليفته بونز إلى بلاط غريمه القديم تنكرد في أنطاكية ، ليتلقى هناك تعاليم الفروسية وآدابها . ويقال إن بونز تعاقب في تلك الفترة بغرام سيسيل — زوجة تنكرد الشابة — حتى إذا مات توفي تنكرد في ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢ ، تزوج بونز من أرملة سيسيل على الفور (٢) . ولا شك في أن هذه الزيجة كان لها أثرها الخطير من الناحية السياسية ، إذ ربطت بين الأسرتين الحاكمتين في طرابلس وأنطاكية .

وفي الوقت نفسه ، لم يتغفل بونز عن علاقته الودية مع ملك بيت المقدس ، فراققه سنة ١١١٥ لصدا الأتابك برسقي عندما هدد الأخير إمارة أنطاكية (٣) .

هذا عن سياسة بونز أمير طرابلس تجاه القوى الصليبية المجاورة . أما عن سياسته تجاه المسلمين ، فقد اتبع الخطة التي وضعها أسلافه بخصوص مهاجمة ممتلكات دمشق وحمص ، وذلك لحدود دولته في الاتجاه الشرقي . من ذلك ما يرويه ابن الأثير من أن الصليبيين استولوا سنة ١١١٥ على رمنية ، وهي

---

(1) Setton : op. cit; I p. 399.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 483 &  
Albert d'Aix, P. 701.

(3) Albert d'Aix, p. 701.

من أملاك طغتكين صاحب دمشق « وبالغوا في تحصينها ». ولكن ابن الأثير يضيف أن طغتكين لم يلبث أن حضر بنفسه واقتحم رمنية واستردها من الصليبيين بعد أن « أخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً فقتل البعض وترك البعض ، وغنم المسلمون من دوابهم وكراعهم وذخائرهم ما امتلأت به أيديهم ، وعادوا إلى بلادهم سالمين » (١) .

أما الحصن الثانى للصليبيين في إقليم البقاع فكان حصن بعرين الذى شيده بونز أمير طرابلس حوالى ذلك الوقت . وهناك إشارات في المراجع الصليبية تفيد أن برسق استطاع أن يستولى على ذلك الحصن من الصليبيين سنة ١١١٥ . على أن الصليبيين لم يلبثوا أن استردوا رمنية وحصن بعرين ، فهاجم بونز رمنية واستطاع أن يستولى عليها بمساعدة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس في نهاية مارس سنة ١١٢٦ وذلك بعد حصار بضعة أيام (٢) . أما قلعة بعرين فقد استولى عليها أيضاً بونز بعد ذلك بقليل ، بدليل ما تواتر في المراجع من أن بعرين كانت سنة ١١٣٢ إحدى القلاع المنيعه التابعة لامارة طرابلس .

و خلاصة القول إن إمارة طرابلس ظلت في نمو حتى بلغت أقصى اتساعها سنة ١١٣٣ عندما صارت تمتد من المرقب شمالا حتى نهر الكلب جنوبا ، ومن شاطئ البحر المتوسط غربا حتى بعرين ورمنية وحصن الكراد وعكار شرقا . ومنذ ذلك الوقت وتاريخ إمارة طرابلس مرتبط إلى حد كبير بتاريخ إمارة أنطاكية من جهة وتاريخ مملكة بيت المقدس من جهة أخرى ، مما يجعلنا نعرض له أثناء كلامنا عن هاتين الودعتين (٣) .

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ( P. S. 555, 557 )

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. P. 652 ) &

Foucher de Chartres p. 480.

(٣) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 367-368.

## الباب السابع

### إمارة أنطاكية والبيزنطيون

﴿ إن هؤلاء لشر ذمة قليلون • وإنهم لنا لغائظون •  
وإننا لجميع حاذرون ﴾ •

[ الشعراء : ٥٤ — ٥٦ ]



## الفصل الأول

### بوهيموند وتأسيس إمارة أنطاكية

مستطنا أنطاكية والارزفة سنة ١٠٩٩ :

رأينا كيف اتجه زعماء الحملة الصليبية الأولى جميعا صوب بيت المقدس في يناير سنة ١٠٩٩ ، عدا بوهيموند الذى ظل باقيا فى أنطاكية ، وبلدوين البولونى الذى استقر فى الرها . ومهما يقال فى أن هذين الأمرين إنما اختارا ألا يصحبا بقيمة الزعماء الصليبيين حرصاً على مصالحهما الخاصة ورغبة فى الاحتفاظ بالمكاسب التى حققتها ، وطمعاً فى إنشاء إمارتين مستقلتين إحداهما فى أنطاكية والاخرى فى الرها ، فإنه ينبغى أن نعترف بأن بقاء هذين الأمرين فى شمال الشام والعراق جاء عظيم الفائدة بالنسبة للصليبيين ، لأنه حتى ظهورهم من خطر السلاجقة أثناء زحفهم على بيت المقدس . ونستطيع أن نتصور مدى الخطر الذى كان من الممكن أن يتعرض له الصليبيون لو أنهم استمروا يستولون على المدن والبلاد الإسلامية لتركوها خلفهم دون حماية كافية ، ويتابعون سيرهم نحو بيت المقدس غير عابئين بالاحتفاظ بسلامة خطوط مواصلاتهم وتأمين ظهورهم . ولا شك فى أن النتيجة الوحيدة لهذه السياسة كانت ملاحقة السلاجقة للصليبيين واستردادهم ما استولى عليه الصليبيون من مدن ، ثم حصر الجوع الصليبية فى نهاية الأمر فى منطقة بيت المقدس والفتك بهم بعد أن يكون الأعداء قد استبد بهم بسبب مشقة الطريق<sup>(١)</sup> . وعندئذ لا يجد الصليبيون مخرجاً أو منفذاً ، فالطريق وراءهم

(١) Grousset : Hist. des Croisades. I, p. 369-370.

قد قطع ، وصحراء سيناء أمامهم ، وبادية الشام عن يسارهم ، والبحر عن يمينهم .  
ولكن بقاء بوهيموند في شمال الشام وبلدوين في شمال العراق جاء بمثابة إقامة  
حراسة صليبية قوية على الأبواب الشمالية لطريق بيت المقدس ، فاستطاع بقية  
الصليبيين بفضل هذه الحراسة أن يزحفوا في اطمئنان نحو المدينة المقدسة ، وأن  
يتفرغوا لما عساه أن يبديه الفاطميون من مقاومة ، دون أن يعملوا حسابا كبيرا  
لظعن السلاجقة لهم من الخلف .

على أنه إذا كان بوهيموند قد ارتاح لابتعاد ريموند الصنجيلي عن أنطاكية<sup>(١)</sup> ،  
فليس معنى ذلك أن بوهيموند اطمأن تماما للملكية أنطاكية . ذلك أن مدينة  
أنطاكية كانت أغنى المدن الصليبية جميعا في الشرق الأدنى ، بفضل ما امتازت  
به من موقع فريد جعلها واسطة التجارة بين حلب وإقليم الجزيرة من ناحية  
والغرب الأوربي من ناحية أخرى ؛ فضلا عما اشتهرت به من صناعات الأقمشة  
والسجاد والزجاج والخزف<sup>(٢)</sup> . لذلك لاعجب إذا اشتد التنافس بين مختلف  
الأطراف المسيحية على امتلاك أنطاكية بالذات . وهنا نلاحظ أن مشكلة أنطاكية  
لم تكن مشكلة داخلية بين زعماء الصليبيين بعضهم وبعض ؛ وإنما كان لها وجه  
خارجي خطير يتعلق بحقوق الإمبراطورية البيزنطية في تلك المدينة ، وهي حقوق  
لها سندها التاريخي والقانوني . ولم يستطع الإمبراطور ألكسيوس كومنين  
أو خلفاؤه المباثرون أن يناسوا حقوقهم في أنطاكية ، مما يجعلنا نقرر أن إمارة  
أنطاكية الصليبية لم تقم رغم إرادة السلاجقة المسلمين وحدهم ، بل أيضاً رغم  
إرادة الإمبراطورية البيزنطية ذاتها<sup>(٣)</sup> . ومع ذلك فقد استطاع النورمان — بما  
هو معروف عنهم من صلابة عود — ، وبفضل قوة ومهارة أميرهم بوهيموند ثم

(1) Albert d'Aix, p. 448.

(2) Runciman : op. cit, II, p. 9.

(3) Brehier : Vie et Mort de Byzance, P.P. 314-315.

تسكرد ، أن يواجهوا عداء السلاجقة والبيزنطيين جميعاً ، وأن يقيموا دعائم إمارتهم في أنطاكية ويحتفظوا بها قائمة في وجه العواصف المضادة التي واجهتهم من قبل أعدائهم<sup>(١)</sup> .

أما مشكلة اللاذقية ، فكانت هي الأخرى لا تقل تعقيداً عن مشكلة أنطاكية . ذلك أنه بعد أن قام أحد القراصنة — ويدعى ونمار البولوى — بالاستيلاء عليها من الأتراك في صيف ١٠٩٧ ؛ لم يلبث أن انزعجها من ونمار بعض البحارة الإنجليز بزعماء إيدجار اثلنج . وهكذا أخذت أيادي المغامرين تتلاقف اللاذقية حتي استولى عليها ريموند الصنجيلي في صيف سنة ١٠٩٨ ، فسلمها بدوره للبيزنطيين<sup>(٢)</sup> .

على أن امتلاك البيزنطيين اللاذقية شكل خطراً كبيراً على إمارة أنطاكية ، إذ كان في استطاعة البيزنطيين أن يشرفوا من تلك المدينة الهامة على وادي نهر العاصى بأكمله ، وبالتالي يهددون مطامع بوهيموند ويحولون بينه وبين التوسع<sup>(٣)</sup> . لذلك لم يكذب بقية الأمراء الصليبيين يستولون على بيت المقدس ، حتى شرع بوهيموند في حصار اللاذقية في صيف سنة ١٠٩٩ . وإذا كانت هذه العملية الحربية في حاجة إلى أسطول قوى لكي تتم بنجاح ؛ فإن الظروف سرعان ما أمدت بوهيموند بالأسطول البيزى الذى وصل - وعلى رأسه رئيس الأساقفة دايمبرت — إلى أنطاكية ، في الوقت المناسب<sup>(٤)</sup> .

ولم يلبث أن تمكن بوهيموند من فرض حصار قوى على اللاذقية بمساعدة

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 370-371

(2) Albert d'Aix, p. 500 &  
Raoul de Caen, p. 649.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 371.

(4) Heyd : op. cit. I, p. 135.

الأسطول البيزى، حتى أوشكت الحامية البيزنطية في المدينة أن تستسلم، في الوقت الذى اقترب ريموند الصنجلى عائداً إليها بعد الاستيلاء على بيت المقدس (سبتمبر سنة ١٠٩٩). وكان ذلك عند جبلة — أى على بعد ثلاثين كيلو مترا من اللاذقية — عندما سمع ريموند بهجوم بوهيموند على اللاذقية، فاستشاط غضباً، وأرسل إنذاراً عاجلاً إلى أمير أنطاكية يطلب منه رفع الحصار فوراً عن المدينة والعودة من حيث أتى<sup>(١)</sup>. وإذا كان بوهيموند قد رفض ذلك الإنذار وأصر على مهاجمة اللاذقية، فإنه كان ينتظر أن يسأله في موقفه دايمبرت زعيم البيازنة؛ ولكن دايمبرت تخلى عنه في تلك اللحظة الحرجة، مما اضطر بوهيموند إلى رفع الحصار عن اللاذقية والعودة إلى أنطاكية. وهكذا دخل ريموند في اليوم الثانى اللاذقية ليرفع رايته — إلى جانب الراية البيزنطية — على قلعتها؛ وتم الاتفاق بعد ذلك على تسوية المسألة بين بوهيموند وريموند في مقابلة ودية<sup>(٢)</sup>.

أما عن دايمبرت، فإن تخليه عن بوهيموند أمام طرابلس لم يؤثر في الصداقة بين الرجاين، وقد تجلت هذه الصداقة في موقف بوهيموند من أطاع دايمبرت للوصول إلى بطريركية بيت المقدس، كما مر بنا.

### فتوحات بوهيموند فيما وراء نهر العاصى :

وبعد أن قام بوهيموند بالحج وزيارة بيت المقدس، أخذ يفكر في توسيع إمارته بالاستيلاء على بعض المواقع الإسلامية القريبة. وكان أن بدأ بالمحجم على قلعة فامية في حوض نهر العاصى. وكانت هذه المدينة تابعة للأمير العربى سيف الدولة خلف بن ملاعب الذى كان في عداوة دائمة مع جيرانه من أرواء

(1) Setton : op. cit; I, p. 374.

(2) Albert d'Aix, p. 504.



المسلمين ، وبخاصة بنى منقذ فى شيزر<sup>(١)</sup>. وربما ظن بوهيموند أن تلك المنازعات بين الأمراء المسلمين — بعضهم وبعض — من شأنها أن تمكنه من تحقيق أطاعه والاستيلاء على فامية فى سهوله ، ولكنه لم يكد يصل إلى تلك المدينة حتى وجد مهمته أصعب مما يظن ، فقلل راجعا بعد أن « أفسد زرعها » ( يونية ١١٠٠ )<sup>(٢)</sup>.

ويروى ابن العديم أن بوهيموند قام فى تلك الفترة بالذات بمهاجمة سلاجقة حلب ، وأن رضوان السلاجوق صاحب حلب طرد النورمان من كلا ، وهو مكان شرق العاصى فى منتصف الطريق بين أنطاكية وحلب . على أنه كان للصليبيين — أى النورمان من أتباع بوهيموند — عدة قلاع فى تلك المنطقة عدا كلا ، مثل زردنا وسرمين ، فخرجت الحاميات الصليبية من تلك المراكز وطاردت الأمير رضوان وأنزلت به الهزيمة فى ٥ يولية سنة ١١٠٠ ، وعندئذ ولّى رضوان الأدبار « واستبيح عسكره وقتل خلق كثير وأسر قريب من خمس مائة نفس ومنهم بعض الأمراء »<sup>(٣)</sup>. وقد ترتب على هذا النجاح أن تمكن النورمان من احتلال برج الحاضر — قرب قنسرين — وكفر طاب شمالى شيزر ، فى منتصف الطريق بينها وبين معرة النعمان<sup>(٤)</sup>.

ولم يسع رضوان ملك حلب — عقب تلك الهزائم التى حلت به — سوى أن يستنجد بالأمير العربى جناح الدولة صاحب حمص ؛ دون أن يتدر مدى ما تسببه استعانتة بذلك الأمير العربى الصغير من مساس بمكانة السلاجقة وهيبتهم . وقد ذهب جناح الدولة إلى حلب فعلا لمساعدة رضوان ، ولكنه

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٥٢ ، ٥٥ .

(٢) ابن الأثير السكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 588)

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III, p. 588)

صادف من المهانة وعدم التقدير ما جعله يعود بسرعة إلى حمص، وهو راغب في الانتقام من رضوان السلجوقي<sup>(١)</sup>.

أما بوهيموند فقد استمر يباشر نشاطه حول حلب، فعسكر في أواخر يولية سنة ١١٠٠ على ضفاف نهر قويق، ومن هناك أخذ يراقب الموقف. ويذكر ابن العديم أن بوهيموند كان ينوى تحويل الكشبان القريبة من حلب — والتي كانت مدافن للمسلمين — إلى حصون تحيط بالمدينة، وبذلك يضمن حصار حلب ومواصلة التضيق عليها حتى تسقط في يده<sup>(٢)</sup>. ولا يخفى علينا أن قوة سلاجقة حلب كانت قد أخذت تنحل سريعاً في ذلك الوقت. وكان من الممكن أن يستولى بوهيموند على تلك المدينة لو أنه واصل الهجوم عليها، ولكنه تركها وغير اتجاهه فجأة صوب ملطية، وذلك عندما علم بهجوم كمشتكين الدافشمند عليها<sup>(٣)</sup>.

ومن هذا يبدو أن بوهيموند ظل يحارب في أكثر من جبهة واحدة، وينازل أكثر من عدو في وقت واحد. ففي الوقت الذي كان يحارب المسلمين — من عرب وسلاجقة — لم يتردد في منازلة البيزنطيين — أعدائه القدامى — ليسترد منهم مدينة مرعش. وكانت هذه المدينة — في جبال طوروس — قد استولى عليها الصليبيون في الحملة الأولى سنة ١٠٩٧ — كما مر بنا — وسلموها للبيزنطيين، ولكن بوهيموند عاد وأصر على استردادها. ولم يستطع بوهيموند في حملته التي قام بها ضد مرعش أن يحقق غرضه، وكل ما استطاعه هو السيطرة على الأراضي المكشوفة المحيطة بها<sup>(٤)</sup>. وربما كانت هذه الحملة في ذاتها لا تهمنا كثيراً إلا

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 277.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Hist. Or. III, 588 — 589 )

(٣) المرجع السابق والصفحة ذاتها.

(4) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar. I,) p. 50.

من ناحية أن أهل ملطية الأرمن ما كادوا يعلمون بوجود بوهيموند على مقربة منهم عند مرعش حتى استنجدوا به ضد الأتراك المسلمين .

أسر بوهيموند :

رأينا أن مدينة ملطية — عند أطراف الفرات — كان يحكمها وقت وصول الصليبيين إلى الشرق أحد زعماء الأرمن ، واسمه جبريل . وقد أفتد وصول الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ جبريل هذا من هجوم قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم . ولكن ملطية سرعان ما وجدت نفسها أمام عدو آخر لا يقل خطورة ، هو الملك غازي كشتكين ( نوشتكين ) ابن الدانشمند — أمير سيواس <sup>(١)</sup> — الذي ظل ثلاث سنوات كاملة يهدد ملطية ويعيث في أراضيها فساداً وتخريباً <sup>(٢)</sup> . وعندما عاد كشتكين إلى مهاجمة ملطية في صيف سنة ١١٠٠ ، استنجد جبريل ببوهيموند ، وتعهد له بتسليمه المدينة إذا هو نجح في إنقاذها <sup>(٣)</sup> .

وكان بوهيموند يدرك تماماً أهمية الأرمن والدور الذي يمكن أن يقوموا به في المسائل المتعلقة بالشرق الأدنى — وبخاصة الأزمة بينه وبين الإمبراطورية البيزنطية — ولذلك حرص على حمايتهم والدفاع عنهم ، واعتمد دائماً أن النورمان والأرمن لهم جميعاً عدوان مشترك كان ؛ هم البيزنطيون والأتراك <sup>(٤)</sup> . لذلك أسرع بوهيموند لنجدة ملطية ومعه خمسمائة فارس فقط ، وهو عدد صغير لم يكن يكف للوقوف به في وجه جموع الأتراك <sup>(٥)</sup> .

(١) كتبه ابن العديم نوشتكين الدانشمند وكتبه ابن الإثير كشتكين بن الدانشمند .

(2) Michel Le Syrien (ed Chabot) III. p. 187.

(3) Maltbieu d'Edesse, p 51

(4) Grousset : Hist' des Croisades, I. p. 378.

(٥) قدر ابن الاثير عدد رجال بوهيموند بخمسة آلاف ، وهو عدد مبالغ فيه ، كما يبدو من تطور الاحداث التي أدت إلى أسره ( الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ ) .

ولم يلبث أن وقع بوهيموند في كمين نصبه الأتراك ، وانتهى الأمر بأسره وذبح رجاله في أوائل أغسطس سنة ١١٠٠<sup>(١)</sup>. ولا شك في أن وقوع بوهيموند في الأمر جاء كارثة على الصليبيين ، نظراً لنشاطه وبلائه في حرب المسلمين ، مما جعل أحد المؤرخين الأرمن — وهو متى الرهاوى — يقول إن إسم بوهيموند كان يثير الرعب في قلوب المسلمين حتى خراسان<sup>(٢)</sup>. أما الملك غازي كمشتكين ، فقد استغل ذلك النصر ليشدد قبضته على ملطية ، فاتجه في اليوم التالي إلى أسوار المدينة ورءوس الفرنجة من اتباع بوهيموند معلّقة على أسنة الرماح ، والأسرى بجانبه مكباين بالأغلال ليثير الرعب في نفوس أهل ملطية ويضطرهم إلى التسليم.

ويقال إن بوهيموند أرسل عند أسره رسالة سرية إلى بلدوين البولوني حاكم الرها — الذي صار بلدوين الأول ملك بيت المقدس فيما بعد — يستنجد به لفك أسره ، فخرج بلدوين على رأس مائة وأربعين فارساً فقط قاصداً ملطية : وكان من الممكن أن يقع بلدوين في المصير نفسه الذي وقع فيه بوهيموند ، لولا أن الملك غازي كان قد غادر ملطية قبل وصوله ، واتجه شمالاً إلى بلاده حيث سجن بوهيموند في قلعة نيكسار قرب شاطئ البحر الأسود<sup>(٣)</sup>.

أما بلدوين فقد استقبل في ملطية استقبال المحرر ، وأعلن جبريل حاكم المدينة تبعيته له . وبعد أن ترك بلدوين خمسين فارساً من فرسانه في ملطية للدفاع عنها ، انصرف عائداً إلى مركز إمارته بالرها . على أن تلك المعونة الصغيرة لم تكف لحماية ملطية من هجمات الملك غازي ، وهي تلك الهجمات التي لم تهدأ إلا باستيلائه عليها « وأسر صاحبها » سنة ١١٠١ أو سنة ١١٠٣ حسب اختلاف الروايات<sup>(٤)</sup>.

(1) Albert d'Aix p. p. 524 &

Matthieu d'Edesse, p. 52.

(2) Matthieu d'Edesse, p. 52.

(3) Albert d'Aix, p. 525.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

## الفصل الثاني وصاية تنكرد على أنطاكية

( ١١٠٠ - ١١٠٣ )

الموقف في أنطاكية بعد أسر بوهيموند :

ترك أسر بوهيموند فراغاً كبيراً في شمال الشام ، لاسيما وأن بلدوين البولوني أمير الرها لم يلبث هو الآخر أن استدعى إلى بيت المقدس ليُريث أخاه جودفري في الحكم .

وبالنسبة لأنطاكية بالذات ، قرر أمراؤها ورجال الدين فيها استدعاء تنكرد للقيام بالوصاية على الإمارة أثناء أسر خاله <sup>(١)</sup> . وقد جاء ذلك العرض على تنكرد في الوقت المناسب بعد أن ساء موقفه مع ملك بيت المقدس الجديد بلدوين الأول ، كما مر بنا . وهكذا ترك تنكرد إقطاعه في الجليل ، واتجه إلى أنطاكية لياشر مهمته الجديدة (أواخر مارس ١١٠١) <sup>(٢)</sup> .

ولم يلبث أن وجد نورمان أنطاكية في تنكرد زعيماً يفيض قوة وحاسة ، ولا يقل عزيمة وبأساً عن سلفه بوهيموند . ثم إن تنكرد حرص على أن يكون أميناً في وصايته على أنطاكية ، فلم يتخذ لنفسه لقب « أمير أنطاكية » ؛ وإن لقبته الوثائق الصليبية المعاصرة بلقب « الأمير الكبير » أو لقب « خادم الله »

---

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 413 &  
Foucher de Chartres p 384.

(2) Setton : op. cit; I, p. 382.

لتمييزه عن سائر أمراء الإمارة . والواقع إنه لم يكن في استطاعة تنكرد أن يتصرف غير ذلك ، نظراً لبقاء أهل إمارة أنطاكية على ولائهم لبوهيموند ، مما كان من المحتمل أن يعرضه لمقاومة شديدة إذا هو حاول أن يعتدى على حقوق بوهيموند في حياته <sup>(١)</sup> .

أما عن سياسة تنكرد فقد سارت في الطريق نفسه الذي رسمه بوهيموند ، فعمل على تنظيم الإدارة وتركيزها ، وصنع كنيسة أنطاكية بالصبغة اللاتينية الكاثوليكية ؛ ثم توسيع حدود إمارة أنطاكية على حساب البيزنطيين والمسلمين جميعاً . وكان أول ما فعله تنكرد لتحقيق ذلك البرنامج ، هو اكتساب ود القوى البحرية الإيطالية ، فعقد اتفاقاً مع الجنوية في صيف سنة ١١٠١ منحهم بمقتضاه ثلث دخل ميناء السويدية ، وشارعاً في أنطاكية يباشرون فيه نشاطهم التجاري . على أن المهم في هذه الاتفاقية هو أن تنكرد وعد الجنوية بإعطائهم نصف دخل ميناء اللاذقية في الوقت الذي كانت اللاذقية نفسها بأيدي البيزنطيين <sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن ذلك يعنى طلب مساعدة الأسطول الجنوى في انتزاع اللاذقية من البيزنطيين . وهكذا يمكن تلخيص البرنامج الذي وضعه تنكرد لسياسة الخارجية خلال وصايته على أنطاكية في شطرين : الشطر الأول الاستيلاء على اللاذقية وقيليقية من البيزنطيين ؛ والشطر الثانى الاستيلاء على الجزء الأوسط من وادى نهر العاصى من سلاجقة حلب وأتباعهم <sup>(٣)</sup> .

(1) Runciman : op. cit, II, ps. 9,32.

(2) Chalandon : Alexis Comhenc. p. 232 & Heya : op cit, I, p. 135.

(3) Grousset : Hist des Croisades I. p. 383.

### مروءة تنكرد ضد البيزنطيين

وإذا كان تنكرد - مثل خاله بو هيموند - حريصاً على حماية إمارة أنطاكية من خطر البيزنطيين الذين لم يغفروا للنورمان استيلائهم على تلك المدينة ، فإن حسن الحظ شاء أن تحول ظروف الامبراطورية البيزنطية عندئذ دون قيامها بأية محاولة ضد أنطاكية ، سواء هجومية أو حتى دفاعية . ذلك أن الكارثة التي حلت بالحملة الصليبية سنة ١١٠١ أضعفت مركز البيزنطيين في آسيا الصغرى وقوت مركز الأتراك ، مما جعل من المتعذر على الإمبراطور البيزنطي أن يرسل حملة في تلك الظروف عبر آسيا الصغرى إلى قيليقية وشمال الشام . وكان أن استغل تنكرد الفرصة ، فلم يكذب بسمع بهزيمة الصليبيين في آسيا الصغرى سنة ١١٠١ حتى فكر في مهاجمة المدن البيزنطية في قيليقية ، عملاً بالحكمة القائلة بأن الهجوم خير وسائل الدفاع (١) .

ولا أدل على ضعف مركز الامبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى في مستهل القرن الثاني عشر من أن تنكرد لم يكذب بسمع بهزيمة الصليبيين في أوائل سنة ١١٠١ حتى استطاع في مدة قصيرة أن يستولى على المصيصة وأذنة وطرشوس - وهي المدن الرئيسية الثلاث في ذلك الاقليم - ، ثم انصرف بعد ذلك ليبدأ حصار اللاذقية (٢) .

على أن اللاذقية امتازت عندئذ بقوة تحصيناتها ، فضلاً عن وجود فرقة من رجال ريموند الصنجيلي داخلها للدفاع عنها وبعض قطع من الأسطول البيزنطي في مياهها ؛ مما تطلب حصاراً طويلاً وجهداً عنيفاً من تنكرد ليستولى عليها .

(1) Runciman : op. cit, II, p. 33.

(2) Raoul de Caen, p. 706 .

ومع ذلك فإن تنكرد استغل وقته أثناء مدة الحصار استغلالاً طيباً ، فقام في تلك الأثناء بمحاولة فاشلة للاستيلاء على جبلة — إلى الجنوب من اللاذقية — ثم شاء حسن حظه أن ريموند الصنجلى لم يكن موجوداً في الشام حينئذ ليدافع عن اللاذقية وعن حقوق الامبراطورية البيزنطية. كما سبق أن دافع عنها سنة ١٠٩٩ - وإنما كان ريموند مشغولاً سنة ١١٠١ بمراقبة الحملة المباردية المشثومة في شمال شرق الأناضول . ولم يكد ريموند ينتهي من أمر تلك الحملة ويعود إلى ميناء السويدية حتى قبض عليه تنكرد واعتقله في قلعة أنطاكية كما مر بنا<sup>(١)</sup>.

ومن الواضح أن حرص تنكرد على اعتقال ريموند إنما كان مصدره تخوفه من أن ينتمز ريموند فرصة أسر بوهيموند، ويحدد النعمة القديمة فيطالب بحقه في أنطاكية فضلاً عن تهديده لمشروع تنكرد الخاص بالاستيلاء على اللاذقية. لذلك لم يطلق تنكرد سراح خصمه سنة ١١٠٢ إلا بعد أن أقسم له على أن يتخلى عن مطالبه وادعاءاته في شمال الشام . وهكذا انصرف ريموند من محبسه ليتجه نحو أنطرسوس (طرطوس) ومر أثناء طريقه باللاذقية فأمر رجاله بالانسحاب منها ومراقبته لتحقيق مشروعه الخاص بتأسيس إمارة لنفسه حول طرابلس<sup>(٢)</sup>.

ولم تلبث الحامية البيزنطية أن وجدت نفسها وحيدة في اللاذقية بعد أن انسحب أتباع ريموند من البروقفساليين ، في الوقت الذي شدد تنكرد هجماته عليها بمساعدة حلفائه الجنوبية من ناحية البحر ، مما أدى إلى سقوط اللاذقية في يده في أواخر سنة ١١٠٢ وأوائل سنة ١١٠٣ . وبذلك حصلت إمارة أنطاكية على واجهة بحرية عريضة ، فضلاً عن ميناء بحرى رئيسى يربطها بالغرب<sup>(٣)</sup>.

(1) Albert d'Aix p. 582.

(2) Runciman : op cit II, p. 34.

(3) Raoul de Caen; p. p. 708 - 709.



ثم إن تلك الحرب ضد البيزنطيين جاءت مصحوبة بتغيير في أوضاع بطرقيّة أنطاكية . ذلك أن الصليبيين عندما فتحوا أنطاكية احتفظوا بالبطرقيّة الأرثوذكسيّة حنا الرابع ، الذي قاسى كثيراً أثناء فترة الحصار ، ومن ثم ازدادت مكانته في نظر المسيحيين جميعاً ، واحترمه الصليبيون الكاثوليك رغم مذهبه الأرثوذكسي (١) . ولكن نظرة النورمان إلى حنا الرابع لم تلبث أن تبدلت أثناء عداوتهم للبيزنطيين ، إذ أخذوا يعتبرون ذلك البطرقيّ رسولاً للبيزنطيين وعينا للامبراطور البيزنطيّ عليهم . لذلك عزل بوهيموند — قبل أسره مباشرة — بطرقيّ أنطاكية الأرثوذكسيّ حنا الرابع ، وعين بدله أحد رجال الدين الكاثوليك ، هو برنارد دي فالنس أسقف ارتاج الذي شغل كرسي بطرقيّة أنطاكية من سنة ١١٠١ حتى سنة ١١٣٥ وقام خلال تلك المدة بدور كبير فعال في النشاط الداخلي والخارجي لامارّة أنطاكية . وقد استأنف تنكرد سياسة خاله إزاء الكنيسة ، فحرص دائماً على استبدال رجال الدين الأرثوذكس بغيرهم من الكاثوليك ، مما أثار غضب الامبراطور البيزنطيّ والكنيسة الأرثوذكسية جميعاً (٢) .

ولا شك في أن الانتصارات التي أحرزها تنكرد على البيزنطيين جعلت له كلمة مسموعة في شئون فلسطين وبيت المقدس ، كما ظهر ذلك في تدخله لدى بلديين سنة ١١٠٢ عقب الكارثة التي حلت بالأخير عند الرملة لإعادة دايبرت إلى كرسي بيت المقدس ، كما سبق أن ذكرنا (٣) .

### انقسام المسلمين :

أما عن جانب المسلمين ، فإن خبر أسر بوهيموند أثار موجة الحماسة

(1) Albert d'Aix p. 433.

(2) Runciman : op. cit, II, p. p. 32—33.

(٣) انظر ما سبق من ٢٩٦ .

المؤقتة بين صفوفهم ، ظهر صداها في النكسة التي منى بها الصليبيون . من ذلك ما نخبنا به ابن العديم من أن النورمان أسرعوا عقب تلك الكارثة إلى الانسحاب من إقليم حلب ، في حين تشجع صاحب حلب رضوان السلجوقي وخرج من مدينته ليهتل مزارع الغلال المجاورة ، متخذاً معسكره قرب سرمين . أما أمير حصص العربي — جناح الدولة — فإنه عقب أسر تنكرد استرد من الصليبيين قلعة أسفونا ، غربي سرمين وشمالي معرة النعمان <sup>(١)</sup> .

على أن انشقاق المسلمين وانقسام صفوفهم وتصدع وحدتهم في ذلك الوقت ، حالت دون قيامهم بعمل حاسم ضد الصليبيين . ذلك أن النزاع سرعان ما دب بين رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حصص ، ليس فقط لأن الأول كان سلجوقياً تركياً والثاني كان عربياً ؛ وإنما أيضاً بسبب الخلاف المذهبي ، لأن رضوان على الرغم من أصله السلجوقي كان متشيعاً اسماعيلياً المذهب ، في حين كان جناح الدولة سنياً <sup>(٢)</sup> . ولعل هذه النعرة المذهبية هي التي دفعت جناح الدولة إلى مهاجمة رضوان في معسكره قرب سرمين ، وعندئذ لاذ رضوان بالفرار ، ووقع وزيره أبو الفضل ابن الموصول أسيراً . وهكذا أخذ المسلمون يهاجمون بعضهم بعضاً بدلا من توحيد جهودهم ضد عدوهم المشترك .

ثم إن عطف رضوان على الباطنية وتشجيعه للتزايد لهم ، سرعان ما أوجد انقساماً بين صفوف المسلمين في حلب ، وهو الانقسام الذي أفاد منه الصليبيون وحدهم . ذلك أن رضوان ساعد دعاة الاسماعيلية في نشر دعوتهم ، وعينهم في المناصب الكبيرة في إمارته ، « وحفظ جانبهم ، وصان لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة ، وصارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه ، وكتبه الملوك في أمرهم

(Hist. Or III, p 589)

(١) ابن العديم : زبدة الحلب

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 386 .

فلم يلتفت ولم يرجع عنهم !!<sup>(١)</sup>. وكان زعيم الباطنية عندئذ هو الحكيم المنجم الباطنى الذى قرب به رضوان إليه ، ومن ثم عمل على إفساد العلاقة بين رضوان وجناح الدولة ، مما أثار استياء كثير من أهل حلب المخلصين .

وقد ذكرنا كيف أن رضوان ملك حلب لم يستطع أن يغفر لتابعه جناح الدولة صاحب حمص — الذى كان متزوجاً من أمه — ماحل به قرب سرمين ، لذلك تظاهر رضوان بمصالحة جناح الدولة ودعاه إلى حلب حيث أكرم وفادته ، حتى إذا مادخل جناح الدولة جامع حلب لتأدية فريضة الجمعة ، انقض عليه ثلاثة أعجام من الباطنية — بإيحاء من زعيمهم الحكيم المنجم الباطنى — ليمزقونه إرباً<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن هذه الجريمة إنما تمت بتدبير رضوان ، الذى لم يكتف بتشجيع الباطنية ، وإنما قتل صاحب حمص بدلاً من أن يؤازره ويشجعه على الصمود فى وجه الصليبيين<sup>(٣)</sup> .

### صمود السلاجقة

ومن الظواهر التى تسترعى الانتباه فى تلك الفترة بالذات — أى فى أوائل القرن الثانى عشر — جهود سلاجقة فارس وأتابكتهم فى الموصل ، بحيث أنهم لم يتحركوا للأحد مع توسع الفرنجة ، على الأقل فى شمال العراق والشام وشرق آسيا الصغرى ، ولم يحاولوا الاستفادة من الموقف السيئ الذى بات فيه الصليبيون عقب أسر بوهموند أمير أنطاكية . ثم إنه حدث فى العام نفسه

& (Hist. Or. III, p. 590)

. (Rec. Hist. Or. p. 525)

. (Hist. Or. III: p. 591)

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب

سبط بن الجوزى : مرآة الزمان

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

تقريبا الذى شهد أمر بوهيموند ، أن أصيبت حملة صليبية كبيرة — هى الحملة المباردية — بهزيمة ساحقة فى شمال شرق الأناضول (سنة ١١٠١). ومع كل ذلك لم يحاول سلاجقة فارس أن يهتبلوا الفرصة لتحويل التيار فى الشرق الأدنى ضد الصليبيين لطاردهم من البلاد التى اغتصبوها. ثم كيف ارتضى سلاجقة فارس لأنفسهم أن تقوم القوى التركمانية الصغيرة — مثل الأراتقة — بمحاربة إمارة الرها ، دون أن يشاركهم عبء الجهاد للتضاء على تلك القوة الصليبية الرابضة فى شمال العراق والتى تهدد سلامة الخلافة العباسية فى بغداد (١) ؟

لا شك فى أن موقف السلاجقة المتسم بالجهود فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر ، إنما مرده النزاع الداخلى بين زعمائهم وقادتهم (٢) . ذلك أن وصول الصليبيين الغربيين إلى الشرق الأدنى وانتصارهم على السلاجقة فى آسيا الصغرى والشام وشمال العراق ، كان له رد فعل عنيف داخل دولة السلاجقة ، إذ انحلت السلطة المركزية وضعفت سيطرة السلطان بركياروق على مختلف حكام الأقاليم التى تألفت منها دولته . ولم يلبث أن اشتد النزاع بين قادة السلاجقة وحكامهم مما أضعف من قوتهم وأضع هيبة السلطان السلجوق نفسه . من ذلك ما يرويه ابن الأثير عن القتال الذى نشب بين زعماء السلاجقة حول حكم الموصل عند وفاة حاكمها كربوغا (كربوقا) فى أواخر سنة ١١٠٢ ، والسلطان السلجوق يسمع ويرى دون أن يتدخل (٣) .

وهكذا صار من المتعذر على سلطان سلاجقة فارس أن يقوم بحرب ضد

(1) Grousset : Hist. des Croisades I. p. 394.

(2) Setton : op cit I, p. p 167-169.

(٣) ابن الأثير . الكاهن ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

الصلبيين في شرق آسيا الصغرى أو في الشام وشمال العراق ، وقادته في شغل  
بالنزاع الداخلي ومقابلة بعضهم بعضاً . وبعبارة أخرى فقد أفاد الصليبيون من  
انقسام دولة ملكشاه وتفتتها ، وما نشأ بين زعمائها وقادتها من خلافات شغلهم  
جميعاً عن محاربة الدخلاء (١) .

---

(1) Archer : *op. cit.* p 144.

## الفصل الثالث

### عودة بوهيموند إلى حكم أنطاكية

إطلاق سراح بوهيموند :

استاء البيزنطيون من الحرب السافرة التي شنها ضدهم تنكرد الوصى على أنطاكية ، وهى الحرب التي أدت إلى استيلائه على مدنى قيليقية واللاذقية . ولما كان من الصعب على الإمبراطور البيزنطى وجيوشه اختراق آسيا الصغرى لمعاقبة النورمان فى تلك الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية سنة ١١٠١ ، فإن الإمبراطور لم يجد وسيلة للانتقام سوى الحصول على شخص بوهيموند نفسه بأى ثمن . ولم تكن محاولة الإمبراطور البيزنطى عندئذ هى المحاولة الأولى مع الملك غازى كمشكين لإطلاق سراح بوهيموند ؛ إذ أخذ بلدوين دى بورج أمير الرها يتخوف عندئذ من أطماع تنكرد وسياسته ، ولم يجد سبيلا لمنع الصدام مع النورمان فى أنطاكية سوى إطلاق سراح بوهيموند وإعادته إلى إمارته<sup>(١)</sup> . لذلك قام بلدوين دى بورج - بالاشتراك مع برنارد بطرق أنطاكية - بمحادثات مع الملك غازى لإطلاق سراح بوهيموند ، وعندئذ تقدم الإمبراطور البيزنطى فجأة بعرض سخى ، إذ عرض على الملك غازى مائتين وستين ألف دينار ثمنا لتسليمه بوهيموند ، وقام حاكم طرابزون بالوساطة بين الطرفين<sup>(٢)</sup> .

وعندما علم قلعج أرسلان سلطان سلاجقة الروم بتلك المحادثات بين الإمبراطور

---

(١) Runciman : op. cit. II, p. 38.

(٢) Albert d'Aix, P. 610.

البيزنطي والملك غازي حول تسليم بوهيموند ، تدخل ليطلب من الملك غازي تسليمه نصف المبلغ السابق مقابل المساعدة التي قدمها للملك غازي سنة ١١٠١ ضد حملة اللمبارديين . ولكن الملك غازي رفض طلب قلعج أرسلان ، فأعلن الأخير الحرب على الأول ، في الوقت الذي كان بوهيموند لا يزال أسيراً في نيكسار .

والواقع إن بوهيموند لم يكن في عزلة تامة عن تلك الحوادث الدائرة بشأن شخصه وتحديد مصيره ، فوصلت إليه الأخبار - في محبسه - بعرض الإمبراطور البيزنطي من ناحية وطلب السلطان قلعج أرسلان من ناحية أخرى ، ثم موقف الأمير التركي الملك غازي من الطرفين . ويقال إن بوهيموند - وهو النورمانى الوسيم - كان على صلة ببعض النساء في حريم الملك غازي ، مما مكنه من متابعة الأخبار الخارجية من ناحية ، ثم من العثور على شفعاء عند الملك غازي من ناحية أخرى<sup>(١)</sup> . وكان أن أرسل بوهيموند إلى الملك غازي يذكره بأن كلام الطرفين الذين يتساوون عليه - الإمبراطور البيزنطي وسلطان سلاجقة الروم - عدو مشترك لبوهيموند والملك غازي نفسه ، وأن مصلحة الملك غازي تتطلب منه أن يطلق سراح بوهيموند دون أن يسلمه لأحد ، وفي هذه الحالة يتعهد بوهيموند بمحاربة الملك غازي ضد أعدائهما المشتركين . أما من ناحية المال فإن معنى إصرار قلعج أرسلان على مقاسمة الملك غازي المبلغ الذي سيدفعه الإمبراطور البيزنطي ، هو أن الملك غازي لن يتسلم سوى مائة وثلاثين ألف دينار ، في الوقت الذي تعهد بوهيموند بدفع مائة ألف دينار عن طريق الصليبيين بالشام .

وفي تلك الأثناء أخذت جيوش الملك غازي تهاجم ملطية ، وعندئذ استنجد

(1) Runciman : op cit; II, 301.

(2) Setton : op. cit; vol. I. p. 388.

(3) Albert d'Aix, p. p 610 - 612.

حاكمها جبريل بزواج ابنته بلدوين دى بورج أمير الرها . ولكن الأخير خشى أن يؤدي تدخله لمساعدة ملطية إلى تعثر المفاوضات الدائرة بشأن إطلاق سراح بوهيموند ، فأصم أذنيه عن نداء جبريل ، مما أدى إلى سقوط ملطية في قبضة الملك غازى ومقتل جبريل نفسه . ولم يلبث الملك غازى أن قبل العرض الذى تقدم به بوهيموند لإطلاق سراحه ، فافتيد إلى ملطية حيث تبادل مع الملك غازى أيمان الإخلاص والتحالف ، وبعد ذلك تم إطلاق سراحه فى أوائل مايو سنة ١١٠٣ أما عن مقدم الفدية المتفق عليه ، فقد اشترك فى جمعة الصليبيون فى الرها وأنطاكية ، فضلا عن الأرمين فى إقليم طوروس ، فى حين دفع المؤخر أتباع بوهيموند فى صقلية<sup>(٥)</sup> .

ومن الواضح أن إطلاق سراح بوهيموند فى ذلك الوقت جاء كارثة على المسلمين ، كما يعبر عن ذلك ابن الأثير ، لأنه «عاد إلى أنطاكية ففويت نفوس أهلها به » . هذا إلى أن إطلاق سراح بوهيموند أوقع الملك غازى فى نزاع مريع مع سلطان سلاجقة الروم ، الذى عز عليه أن يرفض غازى طلبه ويحرمه من مبلغ ضخم . وهكذا تفككت جبهة الأتراك فى آسيا الصغرى ، وهى الجبهة التى أمكنها سنة ١١٠١ أن تقضى على الحملة المباردية ، وأرسل قلاج أرسلان إلى سلاجقة فارس وإلى الخليفة العباسى يستعديهما على الملك غازى التركمانى ، مما زاد من تشقق الجبهة الإسلامية ، وتصدها فى الشرق الأدنى .

أما بوهيموند فقد وصل أنطاكية فى مايو سنة ١١٠٣ ليستقبل استقبالاً رائعاً فى إمارته بعد أن غاب عنها ثلاث سنوات قام فيها ابن أخته تنكرد برعاية

(1) Michael Le Syrien, III, p. 185-189.

(2) Runciman : op. cit II, p. 39.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(4) Albert d'Aix, p. p. 613 — 614.



شئون الإمارة في الداخل والخارج بمهارة فائقة . ولم يسع بوهيموند سوى أن يشكر تنكرد لإخلاصه وأمانته ، وإن كان يبدو وجود قدر من "الخلافات الشخصية بين بوهيموند وتنكرد في تلك الفترة، بسبب رغبة الأخير في الاحتفاظ لنفسه بالفتوحات التي فتحها أثناء قيامه بالوصاية على إمارة أنطاكية"<sup>(١)</sup> . ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الحزازات قدر لها ألا تنكشف ، فاضطر تنكرد إلى مسألة خاله على طول الخط تحت تأثير الرأي العام ، في حين اكتفى أخاه بإقطاعه إقطاعاً صغيراً في إمارة أنطاكية<sup>(٢)</sup> .

### مهرب بوهيموند ضد البيزنطيين والمسلمين :

ولم يسكد بوهيموند يعود إلى أنطاكية حتى افتتح صفحة جديدة في سلسلة عداائه للدولة البيزنطية . ذلك أن الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين جدد طلبه الخاص بتنفيذ اتفاقية سنة ١٠٩٧ بينه وبين أمراء الحملة الصليبية الأولى ، وطالب بإعطائه أنطاكية وغيرها من البلدان البيزنطية التي انتزعها الصليبيون من السلاجقة<sup>(٣)</sup> . ولكن بوهيموند رد على الامبراطور بالرفض ، محتجاً بأن مسلك الامبراطور أثناء صراع الحملة الصليبية الأولى ضد السلاجقة ، يجعل الصليبيين في حل من عدم الالتزام بالاتفاقية السابقة. لذلك أرسل الإمبراطور حملة كبيرة سارت في آسيا الصغرى بحذاء شاطئ البحر المتوسط لاحتلال طرسوس وأذنه والمصيصة ، وانتزعها جميعاً من النورمان . ولكن تلك الحملة لم توفق في مهمتها بسبب موقف أهالي تلك البلاد - وجلهم من الأرمن - مما

(1) Runciman op. cit, II. p. 39.

(2) Setton : op. cit. I. P. 388.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 233.

جعل قائد الجيش البيزنطى يتجه إلى مرعش التى كان حاكما الأرمنى ثاتول Thatoul تابعا للإمبراطور البيزنطى<sup>(١)</sup>.

ولم يكد القائد البيزنطى يعود من مرعش إلى القسطنطينية حتى زحف بوهيموند أمير أنطاكية وجوسلين دى كورتناى — نائباً عن بلدوين دى بورج أمير الرها — على مرعش، فاستولى عليها جوسلين باسم أمير الرها سنة ١١٠٣، فى حين استولى بوهيموند على مدينة الأباستين شمالى مرعش<sup>(٢)</sup>.

وفى الوقت نفسه لم يهمل بوهيموند بعد إطلاق سراحه جانب جيرانه المسلمين، فشرع يحاربهم بشراسته المعروفة، وبدأ بمهاجمة البلدان التابعة لسلاجقة حلب، كما فرض الجزية على قنسرين<sup>(٣)</sup>. ويروى ابن العديم أن الصليبيين فى أنطاكية والرها اشتركوا فى مهاجمة المدينة على نهر قويق شمالى حلب، فمزقوا الأهالى إربا وفرضوا عليهم الأموال الباهظة. وبعد أن قضوا بضعة أيام فى إقليم حلب تم الاتفاق مع صاحبها رضوان الساجوقى على أن يدفع لهم «سبعة آلاف دينار وعشرة رؤوس من الخيل، ويطلقون الأسرى ما خلا من أسروه على المسلمية من الأمراء». ويبدو أن هذه الأموال التى حرص بوهيموند على فرضها على جيرانه المسلمين فى تلك الفترة بالذات إنما كان الغرض منها رد المبالغ التى اقترضها بلدوين دى بورج والطرق برنارد من المسيحيين للحصول على الفداء اللازم لإطلاق سراح بوهيموند<sup>(٤)</sup>. يدل على ذلك ما ذكره ابن الأثير من أن بوهيموند «لم يستقر حتى أرسل إلى أهل العواصم وقنسرين وماجاورها يطالبهم بالإتاوة...»<sup>(٥)</sup>.

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 234.

(2) Raoul de Caen. p. p 710-712.

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(4) Runciman : op. cit. II p.39.

(٥) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

كذلك يروى ابن العديم أن الصليبيين التابعين لإمارة الرها خرجوا بعد ذلك من نل باشر ، ودمروا الأجزاء الشمالية والشرقية من حلب ، وعاثوا فيها فسادا وتحريقا ، ثم اتجهوا إلى قلعة بسرفوث واستولوا عليها ، كما هاجموا قلعة كفر لائنا ، ولكن قبيلة بني عليم تصدت لهم وردتهم عنها فعادوا أدراجهم إلى بسرفوث <sup>(١)</sup> . ولا شك في أن استيلاء الصليبيين على قلعة بسرفوث أمر له أهميته لأن تلك القلعة تتحكم في الطريق بين حلب وأنطاكية <sup>(٢)</sup> .

### موقعة هرايه وأرها في أنطاكية :

وفي ذلك الوقت استغل أمير الرها انقسام السلاجقة على أنفسهم ، والنزاع بين بركياروق ومحمد ابني ملكشاه - كما سيلي فيما بعد - وقام بحملته الشهيرة على حران في ربيع سنة ١١٠٤ . ويهمننا في هذا المقام أن بوهيموند أمير أنطاكية - ومعة تنكرد - لم يترك بلدوين الثاني ( دي بورج ) أمير الرها وحيدا أمام حران ، نظراً لأهمية هذه المدينة ووقوعها على الطريق الموصل إلى بغداد قلب العالم الإسلامي في المشرق . وكان معنى استيلاء الصليبيين على حران أنهم سيتمكنون من قطع الصلة بين المسلمين في العراق وفارس وإخوانهم في الشام ، فضلاً عن أن سقوط حران سيعطي الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل نفسها وتأمين الرها والسيطرة على إقليم الجزيرة .

على أن تهديد الصليبيين لحران على تلك الصورة جعل اثنين من أمراء الأتراك - هما شمس الدولة جكرمش وأتابك الموصل ، ومعين الدولة سكان الأرتقي

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III p. 591)

(2) Grousset , Hist. des Croisades I, p. 401

(3) Runciman : op. cit. II, p. 40.

صاحب ماردین فی دیار بکر ( وهو الذی کان أمیر سروج من قبل ) - یقناسیا  
ما ینهما من حزازات قديمة ، ویتفقان علی مقاومة ذلك الخطر . وهكذا التقى  
الأمیران عند رأس العین علی الخابور للزحف علی الصلیبیین . وکان مع سکان  
سبعة آلاف فارس من التركان ، ومع جکر مش ثلاثة آلاف فارس من الترك  
والعرب والأکراد <sup>(١)</sup> .

ولم تلبث أن دارت المعركة فی مايو سنة ١١٠٤ بین الطرفين علی ضفة نهر  
البلیخ <sup>(٢)</sup> . وفی تلك الموقعة أظهر المسلمون « الانهزام فتبعهم الفرنج نحو فرسخین  
فعاد علیهم المسلمون فقتلواهم کیف شاءوا ، وامتلأت أبدى التركان من الغنائم  
ووصلوا إلی الأموال العظيمة .. » . وهكذا حلت الهزيمة بالصلیبیین ، ووقع أمیر  
الرها - بلدوین الثانی دى بوریج - ومعه جوسلین حاکم تل باشر ، أسیرین فی  
قبضة المسلمین <sup>(٣)</sup> . أما بوهیموند ومعه معظم جيشه فقد لاذوا بالفرار بعد أن  
بلغ بهم الاضطراب والذعر حداً جعل برنارد بطرق أنطاکیة یقطع ذیل فرسه  
ثلاثاً یجذبه منه أحد الأتراك ویفتک به <sup>(٤)</sup> .

وسنقتصر فی هذا الموضع علی علاج أثر تلك الكارثة التی حلت  
بالصلیبیین فی أحوال إمارة أنطاکیة ، علی أن نؤجل الكلام عن أثرها فی إمارة  
الرها إلی الباب الآتی . ذلك أن موقعة حران أو البلیخ أوقفت تقدم الصلیبیین

---

(١) ابن الأثیر : الکامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

Albert d'Aix p. 615.

ویلاحظ أن المراجع الصلیبیة قدرت عدد جيوش المسلمین بثلاثین ألف رجل ، وهو  
رقم مبالغ فیهِ ، ربما قصد به تبریر الهزيمة التی حلت بالجيوش الصلیبیة .

(٢) ابن الأثیر : الکامل ، سنة ٤٩٧ هـ &

Raoul de Caen, p. 170,

(٣) ابن الأثیر : الکامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ . &

Foucher de Chartres, p 409.

4) Runciman : op. cit. p. 43.

وتوسعهم جهة الشرق على حساب المسلمين ، كما أتاح لرضوان ملك حلب السلاجوق فرصة ليثأر لنفسه من نورمان أنطاكية . حقيقة إن رضوان لم يشترك في موقعة حران مع أتابك الموصل وصاحب ماردين ، ولكن رضوان وقف على رأس جيشه قرب الفرات ليتابع سير المعركة . ولم يكذب يعلم بانتصار الأتراك حتى أسرع بالاستفادة من الموقف ، فاسترد القلاع والمدن القريبة من حلب — مثل معرة مصرين وسمرين — وساعده في ذلك أهالي تلك البلاد من المسلمين الذين انتفضوا على حكامهم الصليبيين<sup>(١)</sup> . هذا في الوقت الذي هب شمس الخواص أمير رفية لمهاجمة القلاع الصليبية القريبة ، فاسترد صوران ، شرقي شيزر . وهكذا تلبث الحاميات الصليبية الموجودة في البارة ومعرة النعمان وكفرطاب واطمين أن انسحبت ولاذت بالفرار إلى أنطاكية ، وبذلك انكمشت حدود إمارة أنطاكية الصليبية إلى القويق وبحيرة العمق ، بعد أن كانت تلك الحدود قد قاربت مشارف حلب ذاتها<sup>(٢)</sup> .

وزاد موقف النورمان سوءاً استيلاء رضوان ملك حلب على أرتاح ، وهي القلعة ذات الموقع الهام بالنسبة لأنطاكية . ويؤكد ابن العديم وصاحب مرآة الزمان أن الأرمن في أرتاح ثاروا ضد حكم النورمان ، وأنهم نادوا رضوان لاستلام القلعة ، وذلك « لخور الفرنج » و « لاشملهم جوار الفرنج »<sup>(٣)</sup> . ثم إن بعض المؤرخين يرون أن أرتاح لم تكن المدينة الوحيدة التي ساءلها أهلها من الأرمن المسلمين ، وإنما كانت هناك حالات أخرى مشابهة ، مما مكن المسلمين من استرداد عدة مدن وقلاع في ذلك الإقليم دون أن يتحملوا جهداً أو عناء<sup>(٤)</sup> .

(1) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 315.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 592)

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 529) &

ابن العديم : زبدة الحلب (p. 593)

(4) Stevenson : op. cit, p. 78.

وخلاصة القول ، إن هزيمة البليخ التي حلت بالصلبيين سنة ١١٠٤ ، أضاعت كثيراً من المكاسب التي حققتها إمارتا أنطاكية والرها على حساب المسلمين بالشام .

ثم إن المسلمين لم يكونوا وحدهم الذين أفادوا من تلك الكارثة، بل سرعان ما استفل الإمبراطور ألكسيوس كومنين الفرصة ليثأر من خصمه بوهيموند ويسترد منه بعض الممتلكات البيزنطية<sup>(١)</sup>. ذلك أن الرعايا البيزنطيين في مدن قيليقية — مثل طرسوس وأذنه والمصيصة — ثاروا بدورهم ضد حكم النورمان وساموا مدتهم للبيزنطيين<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن الأرمن في تلك الجهات شاركوا الرعايا البيزنطيين ثورتهم ، بدليل ما نلاحظه من أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين عهد بعد ذلك بقيادة الجيوش البيزنطية في فيليقية إلى قائد أرمني . ولم يلبث أن أرسل الإمبراطور أسطولا بيزنطيا إلى اللاذقية ، استطاع أن يفاجئ المدينة ويستولى على معظمها من النورمان<sup>(٣)</sup>. ولم يكد ذلك الأسطول يفرغ من الاستيلاء على اللاذقية حتى شرع ينزع من النورمان عدة مراكز أخرى على الشاطئ — فيما بين اللاذقية وانطربوس — فضلا عن قلعة المرقب<sup>(٤)</sup>. وهكذا وجد بوهيموند نفسه بين نارين ، وعليه أن يحارب في جبهتين لينقذ إمارته ، فالسلمون عن يمين يهاجمونه على جبهة نهر العاصي ، والبيزنطيون عن يسار يهددون شواطئ أنطاكية . وزاد من حرج موقف بوهيموند أنه لم يجد بين الصليبيين في طرابلس أو أليت المقدس نصيراً يعطف عليه ويساعده في محنته .

---

(1) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 314.

(2) Raoul de Caen p. 712.

(3) Stevenson : op. cit, p. p. 78 — 79.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, 1, p. 414.

## سراية بوهيموند

ولم يكن في استطاعة بوهيموند أن يقف موقف المتفرج على إمارته التي أجهده نفسه في إقامتها ، وهي تنهار لبنة بعد أخرى أمام غزوات البيزنطيين من جهة والمسلمين من جهة أخرى <sup>(١)</sup> . والواقع أنه على الرغم من خطورة إغارات رضوان ملك حلب — الذي بلغت قواته جسر الحديد على نهر العاصي — ؛ إلا أن رضوان لم يكن بالرجل الذي يحرص على الاستفادة فائدة كاملة من الموقف ؛ فلم يلبث أن صرف نظره عن أنطاكية وشغل بأمر دمشق . وكان بوهيموند نفسه يدرك أن رضوان ليس بالخصم الخطير ، وأنه من الممكن أن يصفى موقفه معه في سرعة فيما بعد ، وأن مصدر الخطر الحقيقي الذي هدد أنطاكية عندئذ إنما كان الإمبراطورية البيزنطية <sup>(٢)</sup> ؛ لذلك فكر بوهيموند في القيام بعمل سريع حاسم للانتقام من القسطنطينية وإمبراطورها ، وقرر العودة إلى غرب أوروبا ليثير الرأي العام ضدها ، عليه ينجح في الدعوة لحملة صليبية جديدة يتخذها أداة يثار بها لنفسه من القسطنطينية . وكان تنكرد عندئذ في الزها ، يدير شئونها عقب أسر أميرها بلدوين دى بورج فاستدعاه بوهيموند ، وعهد إليه من جديد برعاية شئون إمارة أنطاكية أثناء غيابه في إيطاليا وفرنسا .

وفي أواخر سنة ١١٠٤ أبحر بوهيموند إلى إيطاليا وبصحبته صديقه القديم البطرق دايبرت ؛ ويقال إنه حمل معه كل ما استطاع حمله من أموال ومجوهرات وتحف ، فضلا عن بضعة نسخ من تاريخ الحملة الصليبية الأولى التي لا يعرف مؤلفها ( *Gesta Francorum* ) ، والتي تعالج تاريخ تلك الحملة من وجهة نظر

(1) Vasiliev : op. cit. II, p. 410.

(2) Stevenson : op cit; p 78.

النورمان (١). وتحتل رحلة بوهيموند إلى غرب أوروبا في ذلك الوقت مكانة هامة في تاريخ الحروب الصليبية ، لأنه لم يقنع بجمع الحاربيين من إيطاليا وصقلية وفرنسا لحرب المسلمين ؛ وإنما أخذ يقوم بدعاية واسعة في تلك البلاد ضد الامبراطورية البيزنطية ، ليصورها للغربيين في صورة حليفة الإسلام والعقبة الكؤود في وجه الصليبيين ؛ وأن القضاء على الامبراطورية البيزنطية هو الضمان الوحيد لاستقرار الصليبيين بالشام .

وهكذا لم يكتف بوهيموند بمحاولة تجديد محاولات أبيه — روبرت جويسكارد — في غزو الدولة البيزنطية (دورازو) فحسب، بل إنه بذل في الغرب الأوربي البذور الأولى لفكرة توجيه جهود الصليبيين ضد القسطنطينية، والدولة البيزنطية ؛ مما يعتبر أساساً للحملة الصليبية الرابعة التي أسقطت القسطنطينية سنة ١٢٠٤ (٢). وقد ساعد على تثبيت دعاية بوهيموند ضد الدولة البيزنطية في عقول الغربيين ، ما حدث من أن الإمبراطور البيزنطي لجأ فعلاً عند تعرضه لهجوم بوهيموند سنة ١١٠٧ إلى طلب المعونة من السلاجقة ، فأمدّه قلعج أرسلان — سلطان سلاجقة الروم — «بجمع كثير من عسكره» ؛ وذكر هذه الحقيقة ابن الأثير وبعض المؤرخين الصليبيين (٣). ولم يلبث أن قدم بوهيموند للغرب الأوربي الدليل المادي على التحالف بين البيزنطيين والسلاجقة ، عندما أسر بعض أولئك السلاجقة في القتال مع البيزنطيين .

ومهما يكن من أمر ، فإن بوهيموند زار البابا باسكال الثاني واستثاره ضد

(1) Raoul de Caen Hist. Occid. III. p. p. 712 — 713 & Guillaume de Tyr I, p. 450.

(2) Vasiliev : op. cit; II, p. p. 410-411.

(3) Ostrogorsky : op cit, p. 324.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٠٠ هـ . &

Albert d'Aix, p. 651.



الإمبراطورية البيزنطية<sup>(١)</sup>؛ ثم انتقل إلى فرنسا حيث استقبله ملكها استقبالا طيبا وسمح له بجمع الحاربيين ، وتمت عدة مصاهرات بين بوهيموند وأسرته من ناحية والأسرة الملكية في فرنسا من ناحية أخرى ، مما قوى رابطة التحالف بين الطرفين<sup>(٢)</sup> . وأخبرا عاد بوهيموند إلى أبوليا في أواخر سنة ١١٠٦ ، ومعهم جموع غفيرة من الصليبيين من مختلف الجنسيات الأوروبية مثل الفرنسيين والإيطاليين والأسبان والإنجليز والألمان الذين شاركوا بوهيموند الرأي في أن تكون الإمبراطورية البيزنطية وجهة حملتهم<sup>(٣)</sup> . وقد اختار بوهيموند أن يهاجم مدينة دورازو ، وهي أقوى قلعة بيزنطية عند مدخل الإدراتيكا وتعتبر مفتاح مقدونيا ( أكتوبر ١١٠٧ ) .

على أن دورازو قاومت مقاومة باسلة في الوقت الذي حضر الإمبراطور ألكسيوس بنفسه ليهاجم النورمان براً وبحراً ، ولم يلبث أن ساء موقف بوهيموند ورجاله أمام دورازو وتعرضوا للجوع والهلاك بسبب افتقارهم إلى القوة البحرية من ناحية وانتشار الأمراض بين صفوفهم من ناحية أخرى . ولم يجد بوهيموند مخرجاً من ذلك الموقف سوى الاستسلام لشروط الإمبراطور التي فرضها في صلح د فول Devol سنة ١١٠٨ . وبمقتضى هذا الصلح تعهد بوهيموند بأن يصبح تابعا أميناً لألكسيوس وخلفائه ، وأن يعاونهم ضد جميع أعدائهم ، وأن يعيد للإمبراطورية كل أراضيها القديمة<sup>(٤)</sup> . ومعنى ذلك أن إمارة أنطاكية قبلت وفقاً لتلك الشروط أن تصبح قاصرة على أنطاكية ومينائها السويدية ، ثم المنطقة الممتدة في الشمال الشرقي حتى مرعش ، مضافاً إلى ذلك ما يستطيع بوهيموند الاستيلاء عليه من الساميين . أما مدن قيليقية والمنطقة الساحلية المحيطة باللاذقية

(1) Vasiliev : op. cit., II, 410.

(2) Runciman : op. cit., II, p. 49.

(3) Vasiliev : op. cit.; II, p. p. 410-411.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. 246

تعود جميعها للامبراطورية البيزنطية ، وليس للصليبيين أى حق فيها . هذا كله بالإضافة إلى موافقة بوهيموند على عزل البطريرك الكاثوليكي في أنطاكية وتعيين بطريرك أرثوذكسى محله . وأخيراً ، فقد تعهد بوهيموند بأن يحارب تنكره ويعتبره عدواً ، إذا هو رفض أن يقبل شروط تلك الاتفاقية التى عقدها خاله مع البيزنطيين <sup>(١)</sup> .

ومن هذا تبدو أهمية اتفاقية دفول فى أنها كشفت النقاب عن موافقة الامبراطورية البيزنطية على مبدأ قيام إمارة أنطاكية الصليبية ، وعلى بناء أنطاكية نفسها فى يد بوهيموند والنورمان ، طالما أنهم يرتبطون برباط التبعية والولاء للامبراطور البيزنطى . هذا إلى ما تكشف عنه تلك الاتفاقية من حرص الامبراطور ألكسيوس كومنين عن مصالح الكنيسة الشرقية ورعاياه من المسيحيين الأرثوذكس ، بحيث يكون تعيين بطريرك أرثوذكسى لأنطاكية ، بمثابة رداً اعتباراً للكنيسة الشرقية . على أن هذه الاتفاقية ظلت من الناحية العملية حبراً على ورق طالما أن بوهيموند كان واثقاً من أن تنكره لن يقبل شروط الاتفاقية شكلاً وموضوعاً <sup>(٢)</sup> .

أما بوهيموند نفسه فكان الموقف مشيناً وسيئاً للغاية بالنسبة له ، بعد أن رأى آماله العريضة تنحطم فجأة وتنتهى إلى ما انتهت إليه سنة ١١٠٨ . وبعد ذلك الاستسلام الفاضح لم يستطع بوهيموند العودة إلى إمارته بالشام ، فذهب إلى إيطاليا حيث قضى حياته محتجباً عن الأنظار إلى أن مات فى مارس سنة ١١١١ <sup>(٣)</sup> .

---

(1) Grousset : *Hist. des Croisades*, I, p. 418.

(2) Runciman : *op. cit.* II p. 51.

(3) Vasiliev : *op. cit.* II, p. 411.

## الفصل الرابع

### الفترة الثانية لحكم تنكرد في أنطاكية

(١١٠٤ - ١١٠٢)

#### تنكرد وسلاطنة حلب :

عندما أُلقي بوهيموند إلى الغرب سنة ١١٠٤ ، ترك تنكرد في موقف لا يمسد عليه ، إذ كان عليه أن يدافع عن أنطاكية أمام عدوين لا يرحمان : هما السلاجقة من الشرق والبيزنطيون من الغرب . هذا فضلا عن أن بوهيموند ترك الخزانة خاوية ، مما أوجد تنكرد أمام مشكلة الحصول على المال اللازم لتجنيد الرجال وإعداد التحصينات . ومن الواضح أن هذه المشكلة الأخيرة كانت تمثل العبء الأساسية التي علي تنكرد أن يبدأ بعلاجها ؛ ولذلك استدعى كبار الأثرياء في أنطاكية - وكانوا خمسة من السريان والأرمن - وطلب منهم تقديم الأموال اللازمة لمواجهة الموقف . وبهذه الأموال استطاع تنكرد أن يستأجر الجنود اللازمين له ، فلم يحل ربيع سنة ١١٠٥ إلا وكان تنكرد على رأس جنده يحاصر أرتاح<sup>(١)</sup> .

وكان أن أسرع رضوان ملك حلب للدفاع عن أرتاح ، مصطحباً معه فرسانه من الأتراك فضلا عن المشاة العرب . وعندما التقى الطرفان عند تيزين - شرقي أرتاح - دارت معركة حادة انتهت بانتصار الصليبيين وهزيمة رضوان ورجاله ،

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 420.

الدين قتل منهم حوالى ثلاثة آلاف رجل « ما بين فارس وراجل ، وهرب من بارتاح من المسلمين »<sup>(١)</sup> .

وهكذا استطاع تنكرد أن يحو بسرعة أثر هزيمة البليخ ، وأن يسترد بارتاح من المسلمين ، وبذلك اقلب الموقف مرة أخرى في جبهة العاصى ، فأخذ الصليبيون يطاردون المسلمين ، ويستردون البلاد التى فقدوها فى العام السابق . ويروى ابن العديم أن الخراب الذى أصاب إقليم حلب عندئذ فاق ما حدث لإقليم كلاسنة ١١٠٠ ، إذ عسكر تنكرد عند تل أغدى — من أعمال ليون عند جبل بركات — أى على الطريق الرئيسى بين أنطاكية وحلب ، وبذلك هدد حلب وما حولها تهديدا مباشرا<sup>(٢)</sup> . ويضيف ابن الأثير أن الصليبيين استردوا فى تلك الفترة مرمين ، وهو مركز هام فى إقاييم الجزر<sup>(٣)</sup> .

ولم يلبث أن استولى تنكرد على فامية من الباطنية بعد أن اشتد الصراع داخلها وقتل حاكمها خلف بن ملاعب بيد جماعة من الباطنية<sup>(٤)</sup> . وعندئذ استنجد أهل الحصن من المسيحيين بتنكرد ، الذى حضر فى سرعة واسكنه لم يوفق أول الأمر فى الاستيلاء على المدينة ، فانصرف عنها بعد حصار بضعة أسابيع . وبعد أشهر حضر إلى أنطاكية مصبح بن ملاعب — ابن الأمير خلف الذى قتل — وطالب من تنكرد معاودة الكرة ضد فامية ؛ فاستجاب له تنكرد وسقطت فامية فى سبتمبر سنة ١١٠٦ . كذلك استرد تنكرد كفر طاب شرق فامية

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (p, 593) &

ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ . &

Albert d'Aix, p. 620.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (III. p. 593)

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٤) المرجع السابق . & Albert d'Aix. 641.

وقد ذكر ابن الأثير أن خلف بن ملاعب عندما استقر فى فامية كان « يخيف السبيل » =

... بين معركة النعمان وشيزر - مما مكّنه من شن إغارات عنيفة وتهديد المدن والقلاع والضياح الإسلامية القريبة، وبخاصة مدينة شيزر سنة ١١٠٨ (١).

### تسكرد والبزنطيين :

ولم يكن تسكرد أقل رغبة في الثأر من البزنطيين ، حيث ظلت اللاذقية دائماً ميدان صدام بين البزنطيين والنورمان في جبهة الشام . ولم يستطع تسكرد أثناء اشتباكات مع المسلمين في حوض نهر العاصي أن يواجه البزنطيين في اللاذقية؛ ولكنه بعد أن حقق انتصاراته على المسلمين - واسترد ارتاح وقامية - بدأ يفكر في طرد البزنطيين من اللاذقية (٢). ويبدو أنه لم يكن للبزنطيين عندئذ حميات قوية في اللاذقية ، لأن الإمبراطور اضطر إلى استدعاء معظم جيوشه من اللاذقية وقيليقية في صيف سنة ١١٠٧ عند ما هدد بوهموند الجبهة الغربية للإمبراطورية (٣). ومع ذلك فقد كان تسكرد في حاجة إلى أسطول قوى يمكنه من محاصرة البزنطيين وطردهم من اللاذقية ، ولذلك استعان بالبيازنة . واستطاع بهذه الطريقة أن يسترد اللاذقية في منتصف سنة ١١٠٨ . وقد كافأ تسكرد البيازنة على ما قدموه له من معونه بإعطائهم شارعا في أنطاكية وحيا في اللاذقية ، فضلا عن أنه كفّل لهم حرية التجارة والعمل في جميع موانئ إمارة انطاكية (٤).

== ويقطع الطريق واجتمع عنده كثير من المفسدين فسكثرت أمواله .

كذلك ذكر ابن الأثير أن أهل سمرين كانوا « غلاة في التشيع »؛ فلما ملك الصليبيون سمرين تفرق أهلها وذهب بعضهم إلى أقاليم حيث دبّروا مؤامرة مع أبي طاهر المعروف بابن الصائغ للفتك بابن ملاعب، ونجحت المؤامرة. ويصف ابن الأثير أقاليم بأنها « من أمنع الحصون ».

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار من ٧٥ — ٧٦ .

(٢) Chalandon : Alexis Comnene, p 250.

(٣) Runciman, op. cit.; I, p. p. 53-54.

(٤) Heyd ; op. cit, I. p. 145-146.

وأخيراً توج تنكرد انتصاراته على البيزنطيين بالقيام بهجوم على قيليقية في أواخر سنة ١١٠٨ وأوائل سنة ١١٠٩. وفي ذلك الهجوم نجح تنكرد في الاستيلاء على المصيصة بعد حصار قصير ، كما استطاع بعد بضعة أشهر أن يبسط سيطرته على أذنه وطرسوس في حين ظلت الأجزاء الغربية من إقليم قيليقية خاضعة للامبراطورية<sup>(١)</sup>.

وهكذا استطاع تنكرد في مدى أربع سنوات أن يسترد معظم ما خسره إمارة أنطاكية عقب هزيمة البليخ ، وأن يحفظ تلك الإمارة من الضياع نهائياً بين المسلمين والبيزنطيين . ولا شك في أنه أفاد في تلك الفترة فائدة عظيمة من الانقسام بين صفوف السلاجقة .

#### تنكرد والامبراطورية :

ظل الأتابكة في شمال الشام وأرض الجزيرة مصدر جميع القلاقل التي شهدتها تلك البلاد عند مطلع القرن الثاني عشر . وإذا كان أولئك الأتابكة في نظر الصليبيين حكاماً مستقلين فإنهم في حقيقة الأمر كانوا — من الناحية النظرية على الأقل — تابعين لسلطين السلاجقة في فارس<sup>(٢)</sup> .

ويطول بنا الأمر لو دخلنا في تفاصيل المنازعات بين أتابكة الشام والجزيرة ، ولكن تكفي الإشارة إلى ما سبق أن ذكرناه من عقد صلح سنة ١١٠٤ بين بركيارق ومحمد ابني ملكشاه ؛ وأن الموصل — بمقتضى ذلك الصلح — صارت من نصيب محمد . على أن جكرمش أتابك الموصل رفض أن يسلم محمد المدينة ،

(١) Guillaume de Tyr I, p. p. 635-636.

(٢) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades p. 24

واعتذر بأنه لن يسلمها إلا لبركيارق نفسه<sup>(١)</sup>. ولم تؤثر وفاة بركيارق في بناير سنة ١١٠٥ في موقف جكرمش، إذ « جدد سور الموصل ورم جميع ما يحتاج إلى الإصلاح » ورفض دفع المال المقرر عليه لمحمد الذي غدا السلطان الوحيد لسلاجقة فارس. ويبدو أن جكرمش اعتمد إلى حد كبير على ولاء أهل الموصل له ومحبتهم « لحسن سيرته فيهم »، الأمر الذي جعل السلطان محمد يزحف على الموصل « باللقاين والدبابات »، ويقاقل أهل الموصل قتالا شديداً، ولكن دون أن يظفر بغرضه<sup>(٢)</sup>.

وأخيراً فكر السلطان محمد في وسيلة لاسترجاع الموصل وديار بكر والجزيرة، فمنح حكمها جميعاً لأحد رجاله — واسمه جاولي سقاوا — وعهد إليه سنة ١١٠٦ بمحاربة الصليبيين في أطراف العراق والشام، وتحت هذا الستار يستطيع أن يقضى على جكرمش. ولم يلبث الأخير أن حلت به الهزيمة، فأسر على ضفاف دجلة، ولكن أهل الموصل رفضوا أن يسموا مدينتهم لجاولي وأقاموا زنكي الصغير ابن جكرمش — وسنه إحدى عشرة سنة — أتابكاً عليهم<sup>(٣)</sup>.

ثم إن أهل الموصل لم يقنعوا بكل ذلك وإنما استنجدوا بتلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم في قونيه، فحضر إليهم ووضع يده على الموصل وتعهد بحمايتهم<sup>(٤)</sup>. أما جاولي فتمدد انسحب إلى سنجار حيث اتصل به إيلغازي بن أرتق، كما اتصل به الملك رضوان صاحب حلب، واتفق الطرفان على طرد

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ — ١٩٨. وقد كتبه ابن العبري « جكرميش ».

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٨ هـ.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١٩٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٠٠ هـ.

قلج أرسلان من الموصل أولاً ، ثم التوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية . وقد انتهت الحرب ضد قلج أرسلان بهزيمة وغرقه في نهر الخابور ، مما مكن جاولي من الاستيلاء على الموصل سنة ١١٠٧<sup>(١)</sup> . على أن جاولي لم يكذب بنجاح في تحقيق ذلك حتى أعلن استقلاله بالموصل ، مما جعل السلطان محمد يعهد سنة ١١٠٨ إلى أحد رجاله — وهو مودود ألثوينكي — بطرد جاولي من الموصل على أن يحل محله في حكمها<sup>(٢)</sup> . وهكذا اضطر جاولي مرة أخرى إلى الفرار من الموصل سنة ١١٠٨ ، حيث التف حوله في الجزيرة جميع أعداء سلطنة السلاجقة ، وعلى رأسهم قبيلة بني مزيد العربية التي طردها السلطان محمد من الحلة سنة ١١٠٨ . كذلك لم يتردد جاولي في مخالفة القوى الصليبية المجاورة ليكون جبهة قوية ضد السلطنة السلجوقية ، مما جعله يطلق سراح بلدوين الثاني دى بورج أمير الرها ، ويعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة ، كما سيلي فيما بعد<sup>(٣)</sup> .

على أن تنكرد الذي كان يسيطر على أمور الرها منذ أربع سنوات رفض أن يسلم المدينة لبلدوين إلا إذا أقسم له يمين الولاء . وكان من المستحيل أن يفعل بلدوين دى بورج ذلك وهو تابع فعلاً للملك بيت المقدس ، فأنصرف غاضباً إلى تل باشر حيث انضم إليه جوسلين وأخذوا يفكران في الاستعانة بجاولي ضد تنكرد<sup>(٤)</sup> . وفي تلك الأثناء كان جاولي يسعى لإقامة إمارة له في الجزيرة ، فلم يجد مفراً من الاعتداء على ممتلكات رضوان ملك حلب . وكان أن أخذ رضوان

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ . &

Runciman op.cit; II, p. 110.

ويذكر أبو المحاسن أن قلج أرسلان « لما رأى المهزيمة عليه ألقىته في نهر الخابور فغرق ، فأخرج وحمل تابوته إلى ميفارقين ودفن بها » .  
(النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩١) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٣) ابن الأثير الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

4) Setton : op. cit; I. p. p. 393-394.



يبحث لنفسه بين صفوف الصليبيين عن حليف ، مثلما اعتمد جلولي على محالفة بلدوين الثاني أمير الرها ، فلم يجد رضوان حليفا سوى خصمه القديم تنكرد صاحب أنطاكية .

وهكذا انقسم المسلمون والصليبيون في شمال الشام والعراق على أنفسهم ، فظهر حلفان الأول من جلولي وبلدوين دى بورج أمير الرها ، والثاني من رضوان وتنكرد حاكم أنطاكية . وقد انتهت المعركة التي دارت بين الطرفين في نهاية سبتمبر سنة ١١٠٨ بهزيمة الفريق الأول وانتصار تنكرد ، ولكن بعد أن خسر الصليبيون جميعاً ألفى رجل <sup>(١)</sup> .

### تنكرد وبقيّة الإمارات الصليبية بالشام :

وقد حاول تنكرد أن يستغل انتصاره السابق على بلدوين دى بورج ليضع يده على إمارة الرها الصليبية ، ولكنه فشل في محاولته هذه بعد أن حصل بلدوين دى بورج على مساعدة جميع أمراء الأرمن في الجهات الواقعة شرق آسيا الصغرى وأطراف الجزيرة . لذلك استجاب تنكرد لنصيحة بطرق أنطاكية ، فسحب نائبه ريتشارد دى سالرنو من الرها، ودخلها بلدوين دى بورج ظافرا حيث استقبل في حماسة بالغة <sup>(٢)</sup> .

أما تنكرد فلم يجد أمامه — بعد أن فشلت خطته في الرها — سوى إمارة طرابلس ليتدخل في شئونها، علّه ينجح في السيطرة على تلك الإمارة . وقد سبق أن ذكرنا كيف حضر برترام بن ريموند الصنجيلي إلى الشام سنة ١١٠٨

---

(١) ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(2) Matthieu d'Edesse p. 87.

(3) Foucher de Chartres, p. p. 477 481.

(م ٢٧ — الحركة)

للمطالبة بحقه في تركه أبيه واستلامها من وليم جوردان . كذلك أشرنا إلى أنه عند وصول برترام إلى ميناء السويدية أسرع تنكرد للملاقاة ، ثم عاد وطرده عندما رفض برترام أن يخالفه في مشاركة العدوانية ضد الدولة البيزنطية <sup>(١)</sup> . وكان أن ألقى وليم جوردان بنفسه بين أحضان تنكرد وأعلن تبعيته له ، فوجد تنكرد في ذلك فرصة طيبة لتحقيق أطماعه في الإمارة الجديدة عن طريق الوقوف إلى جانب وليم . ولكن برترام فوت على تنكرد هدفه عندما استنجد ببلدوين الأول ملك بيت المقدس الذي أعلن وضع برترام تحت حمايته باسم كنيسة بيت المقدس ، كما حذر تنكرد من القيام بأى عمل عدوانى ضد برترام <sup>(٢)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن حضور بلدوين بنفسه ، وتقسيمه ساحل لبنان بين وليم جوردان وبرترام - كما سبق أن ذكرنا - ثم مساعدته برترام في فتح طرابلس واتخاذها قاعدة للإمارة الجديدة ؛ كل ذلك أنقذ إمارة طرابلس من الوقوع تحت سلطان تنكرد . ثم إن برترام لم يعترف وحده بالولاء للملك بيت المقدس ، بل اضطر تنكرد هو الآخر إلى الاعتراف بذلك الولاء ، وبزعامة مملكة بيت المقدس على كافة الإمارات الصليبية في الشام وشمال العراق <sup>(٣)</sup> .

### نوسع تنكرد على حساب المسلمين :

وعندما قنط تنكرد من التوسع على حساب إمارة الرها من جهة وإمارة طرابلس من جهة أخرى ، لم يجد أمامه سوى جيرانه المسلمين ، فاستولى على بانياس في بولية سنة ١١٠٩ ، وهي تقع بين أنطربطوس واللاذقية ، وبذلك

(1) Albert d'Aix, p.p. 665-666.

(2) Setten : op. cit; I, p. 367.

(3) Grousset Hist des Croisades, I, p. p. 445-447.

صارت بمثابة الحد الجنوبي لإمارة أنطاكية على شاطئ البحر . وإلى الشمال من بانياس استولى تنكرد أيضاً على جبلة التي كان فخر الملك بن عمار أمير طرابلس السابق قد أوى إليها . وفي الداخل — في مواجهة جبلة — استولى تنكرد سنة ١١١١ على حصن بكسراثل (١) .

أما في الجبهة الشرقية ، فبعد أن قام تنكرد بمصاحبة بلدوين الأول ملك بيت المقدس في الدفاع عن إمارة الرها ضد مودود أنابك الموصل الذي هاجمها وأوشك أن يقضى عليها سنة ١١١٠ — كما سيلي بالتفصيل — ، عاد تنكرد ليحارب رضوان ملك حلب الذي تنكرد لمساعدة تنكرد له من قبل ضد الرها وحليفه جاولي ، وهاجم تنكرد أثناء حربه الأخيرة ضد السلاجقة دفاعاً عن الرها (٢) . وكان أن هاجم تنكرد النقرة — قرب منبج — فاستولى عليها بعد أن فر أهلها إلى الجزيرة تاركين خلفهم كل ما يملكون من مال ومتاع . ومن هناك اتجه تنكرد لمحاصرة الأتارب إلى الجنوب الغربي من حلب ، على الطريق بينها وبين أنطاكية (٣) .

أما رضوان فقد احتفى بمدينته حلب ، واكتفى بأن عرض على تنكرد مبلغ عشرين ألف دينار ليتخلى عن حصار الأتارب ، ولكن تنكرد تمسك بثلاثين ألف دينار ، فضلاً عن إطلاق سراح جميع من في حلب من أسرى الصليبيين . ولما كان رضوان لا يريد دفع ذلك المبلغ الضخم ، فقد ترك الأتارب تستط في يد تنكرد في نهاية سنة ١١١٠ . ويذكر ابن العديم ومتى الرهاوي أن تنكرد ترك حامية القلعة تخرج من غير سوء ، في حين قال ابن الأثير

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec: Hist. Or. III p. 597 )

أنه قتل ألفين من رجالها وأسر الباقي (١).

والواقع إن سقوط الأتارب التي لا تبعد عن حاب أكثر من ثلاثين كيلومتراً، جاء بمثابة ضربة خطيرة لرضوان. ذلك أن تنكرد صار يستطيع من تلك القلعة مهاجمة حاب نفسها في عصف، فضلاً عن حرمانها من الغلال والغذاء الذي تحصل عليه من السهول المحيطة بها. وبعبارة أخرى فإن تنكرد أصبح في موقف يجعله يئلى إرادته على رضوان الراغب في الصلح، فأصر في تلك المرة على الشروط التي طلبها من قبل، وأضاف إليها الاستيلاء على حصن زردنا، فضلاً عن إطلاق سراح جميع الأرمس المحبوسين في حاب (٢). وكان أن ارتضى رضوان كل هذه الشروط القاسية، فتم الصلح بينه وبين تنكرد، ولكن حاب نفسها غدت في حالة سيئة من المهانة والضعف، لا سيما بعد أن هجرها جزء كبير من أهلها وفروا إلى بغداد. كذلك ساءت أحوالها الاقتصادية بعد أن استولى الصليبيون على معظم مزارعها ودمروا الباقي وانصرف عنها التجار « وأقام الناس ما يحدون شيئاً يقتاتون به، فكثرت اللصوص من الضعفاء، وخاف الأعيان على أنفسهم، وساء تدبير الملك رضوان، فأطلق العوام ألسنتهم بالسب له وتعييبه » (٣).

ثم إن تنكرد الذي أصبح السيد المسيطر على الأطراف الشمالية من بلاد الشام لم يقتنع بفرض كلمته على ملك حلب وإذلاله، وإنما أخذ يسعى لتحقيق مكاسب أخرى على حساب القوى الإسلامية الصغيرة المجاورة. ولم يلبث سلطان بن منقذ أمير شيزرو على الكردي أمير حماه أن تعهدا بدفع « قطعة » طائلة، ثمناً

(1) Matthieu d'Ecasse, I, p. 95 &

ابن الاثير، سنة ٥٠٤ هـ

ابن العديم: زبدة الحلب. 568 (p)

(٢) ان العديم: زبدة الحلب. 599 (p) &

Albert d'Aix, p. 684

(Hist. Or. III, p. 600)

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب

لشراء مسألة تنكرد ، فدفع الأول أربعة آلاف دينار ، ودفع الثاني عشرة آلاف دينار <sup>(١)</sup> .

نهاية تنكرد :

وبعد أن قام تنكرد - بالاشتراك مع بلدوين دى بورج أمير الرها وبلدوين الأول ملك بيت المقدس - بدور ملح ———— ووظ في محاربة سلاجقة فارس ، الذين تجمعوا مرة أخرى سنة ١١١١ تحت قيادة مودود أتابك الموصل ، عاد تنكرد إلى أنطاكية حيث توفي في ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢ <sup>(٢)</sup> ، دون أن يترك وريثا من زوجته سيسيل ، التي لم تلبث أن تزوجت بعد قليل من بونز بن برترام أمير طرابلس ؛ مما أدى إلى تهدة الموقف بين إمارتي أنطاكية وطرابلس كما مر بنا <sup>(٣)</sup> .

ولا شك في أن وفاة تنكرد جاءت خسارة عظيمة للصليبيين في الشام بوجه عام وإمارة أنطاكية بوجه خاص ، الأمر الذي جعل المؤرخ الأرمني متى الرهاوى يرثيه في حرارة بالغة <sup>(٤)</sup> . ذلك أنه يعتبر المؤسس الحقيقي لإمارة أنطاكية ، فاستطاع أن يحتفظ لتلك الإمارة بمكانتها خلال مدة أسره خاله بوهموند (١١٠٠-١١٠٣) ، ثم طوال غييبته في الغرب (١١٠٤-١١١١) كما دافع عن كيان الإمارة ومصالحها ضد البيزنطيين من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى <sup>(٥)</sup> . وأكثر من هذا أن تنكرد هو صاحب الفضل في توسيع إمارة أنطاكية ، والاستيلاء على كثير من

---

(١) أسامة بن منقذ . كتاب الاعتبار ص ١٢٠ - ١٢١ .

(2) Foucher de Chartres, p. 425.

(٣) انظر ما سبق ص ٣٧٧ .

(4) Matthieu d'Edesse p. p. 281-282

(5) Setton : op. cit. I, P 401

الاراكز الهامة من البيزنطيين والمسلمين ، سواء على شاطئ الشام أوفى داخلية .  
أوفى قيليقية . وساعد على تحقيق كل تلك المكاسب شجاعة تنكر دالتى بلغت  
أحيانا حد التهور ، وصلابته فى كثير من المواقف ، وهى صفات ورثها عن  
أسلافه النورمان فى غرب أوربا وجنوبها (١) .

ولم يعرض عام على وفاة تنكرد حتى لحق به حليفة رضوان ملك حلب  
الساجوقى ( ديسمبر ١١١٣ ) ، الذى اعتمد على الصليبيين من ناحية وعلى الباطنية  
من ناحية أخرى فى مقاومة سلاجقة فارس وخلافة بغداد . وقد سبق أن ذكرنا  
أن رضوان أفرط فى الاعتماد على الباطنية حتى ازداد نفوذهم فى حلب « وبأيهم  
خافى كثير على مذهبهم طلبا لجاههم . وكان كل من أراد أن يحمى نفسه من  
قتل أوضيم التيجأ اليهم . » (٢) . وقد ترك رضوان من بعده فى حكم حلب ابنه  
الشاب ألب أرسلان المعروف بالأخرس ، وهو الذى وصفه المؤرخ ابن العديم  
بأنه كان « مهورا قليل العقل » ، فبدأ حكمه بقتل أخويه ملكشاه  
ومباركشاه (٣) . ويبدو أن الباطنية وصلوا عندئذ إلى درجة من خطورة النفوذ  
جعلت السلطان محمد الساجوقى يرسل إلى ألب أرسلان يأمره بقتلهم ، فى  
الوقت الذى ضاق أهل حلب ذرعا بهم واستاءوا من حماية رضوان لهم ، فانقضوا  
عليهم عقب وفاة رضوان وقتلوا زعيمهم أبا طاهر الصايغ وسماعيل الداعى وغيرهم  
من زعماء الباطنية ، فى حين حبسوا كثيرين وفر الباقى « وتفرقوا فى البلاد » (٤) .  
ويقول ابن الأثير أن من استطاعوا النجاة من الباطنية فروا إلى الصليبيين  
واحتموا بهم (٥) . وقد حاول الباطنية الاستيلاء على قلعة شيزر ولكنهم فشلوا

---

(1) Grousset : Hist des Croisades, I: P 476-477

(٢) ابن العديم . زبدة الحلب (Hist Or. III, p. 603)

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 604)

(٥) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

في ذلك ، ولم ينجحوا سوى في الاستيلاء على القلعة قرب بالس والفرات ، على الطريق بين حلب وبغداد . ومنذ تشريد الباطنية في ذلك الوقت أخذوا ينزحون إلى جبال لبنان ويستقرون هناك <sup>(١)</sup> .

أما عن سياسة ألب أرسلان ملك حلب الجديد تجاه الصليبيين فلم تختلف عن سياسة أبيه ، إذ سارع بدفع الجزية إلى روجر الأنطاكي — خليفة تنكرد — للاستعانة به ضد بقية السلاجقة . ولم يلبث ألب أرسلان « أن رأى أن المملكة تحتاج إلى من يدبرها أحسن تدبير » ، فقصده طغتكين أنابك دمشق ، وطلب منه الحضور لاستلام حلب وإدارة شئونها . وقد قبل طغتكين تلك الدعوة وذهب مع ألب أرسلان إلى حلب في نهاية فبراير سنة ١١١٤ <sup>(٢)</sup> . على أن ألب أرسلان انهمك « في المعاصي واغتصاب الحرم والقتل » ، فاستاء طغتكين من مسلكه « ورأى من سوء السيرة وفساد التدبير مع التقصير في حقه والإعراض عن مشورته ما أنكره » ؛ ولذلك عاد طغتكين إلى دمشق بعد قليل .

ولم يلبث أن دبر بدر الدين لؤلؤ اليأيا مؤامرة لقتل ألب أرسلان أثناء زومه . وعندما نجحت المؤامرة أعلن أخوه الصغير سلطان شاه ملكا على حلب . غير أن سلطان شاه كان صغيرا في السادسة من عمره ، فتولى لؤلؤ مع القائد شمس الخواص — أمير رمنية السابق — السيطرة على قلعة حلب وجيشها ، وإن كانت السلطة الفعلية في الإمارة قد آلت إلى أعيان حلب . ولعل ضعف مركز حلب بين جيرانها في ذلك الوقت ، هو الذي دفع لؤلؤ إلى اتباع سياسة رضوان في مخالفة الصليبيين بأنطاكية <sup>(٣)</sup> .

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠ ٩٠

أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٤٦ — ١٥٣ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (P. 004)

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III. P. 505-506 & )

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠ .

## الفصل الخامس

### روجر الأنطاكي

افتتار روجر ما كما على أنطاكية :

ظل تنسكرد يحكم أنطاكية بمقتضى العرف الاقطاعى الغربى حتى وفاة بوهيموند سنة ١١١١ . ومعنى ذلك أن تنسكرد حتى تلك السنة كان نائبا عن بوهيموند فى حكم أنطاكية ، ولم يصبح أميرا على تلك الإمارة إلا بعد وفاة بوهيموند ، لأن الأخير ترك طفلا صغيرا فى الثانية من عمره — هو بوهيموند الثانى — الذى ظل فى إيطاليا بين أحضان أمه . وهكذا كان على تنسكرد أن يفكر فىمن يخلفه فى حكم أنطاكية ، فاختار ابن عمه روجر دى سالرنو ، وأوصى له بالحكم وهو على فراش الموت ، ولكنه اشترط أن يتنازل روجر عن الحكم لبوهيموند الثانى إذا بلغ الأخير سن الرشد وأتى إلى الشرق للحصول على تركة أبيه<sup>(١)</sup> .

وعلى هذا الأساس أصبح روجر دى سالرنو — الذى عرف بالأنطاكي — أميراً على أنطاكية فى نهاية ديسمبر سنة ١١١٢ . وهنا نلاحظ أن روجر هذا كان متزوجا من سيسليا Cecilia أخت بلدوين دى بورج أمير الرها ، كما أن ماري أخت روجر صارت الزوجة الثانية لجوسلين دى كورتنائى ، مما أوجد رباطاً قوياً بين إمارتى الرها وأنطاكية<sup>(٢)</sup> . وعندما أصبح بلدوين دى بورج ملكا

(1) Foucher de Chartres, P. 425 &  
Guillaume de Tyr, p 483

(2) Runciman : op cit; II, p. 126.



على بيت المقدس سنة ١١١٨ ، حظيت إمارة أنطاكية — بفضل علاقة المصاهرة هذه — بتأييد مملكة بيت المقدس ومساعدتها <sup>(١)</sup> .

### حملة السلاجقة سنة ١١١٣ :

وصف أسامة بن منقذ روجر دى سالرنو بأنه كان « شيطانا من الفرنج » <sup>(٢)</sup> ، وذلك لقوته ودهائه ومنابرته على حرب المسلمين والاعتداء عليهم . ولم يسكد روجر يتولى حكم إمارة أنطاكية حتى أتت له فرصة يظهر فيها شجاعته في محاربة السلاجقة الذين قاموا بحملة على بيت المقدس .

ذلك أن مودود بن ألتنتاش <sup>(٣)</sup> — أتابك الموصل — ظل متمسكا بفكرة الجهاد والحرب الدينية ضد المسلمين ، وهي المهمة التي عهد إليه بها محمد ، سلطان سلاجقة فارس . وكان مودود هو الممثل للسلطان الساجوقى في إقليم الجزيرة والشام ، وذلك بوصفه حاكم الموصل . لذلك دعا جيرانه من أمراء المسلمين لمحاربة الصليبيين سنة ١١١٣ ، وانضم إليه بعض زعماء السلاجقة مثل تيمرك صاحب سنجار ، وأياز بن إيلغازى أمير ماردين ، وطفكتكين أتابك دمشق <sup>(٤)</sup> . وكان طفكتكين هو الذى وجه تلك الحملة ضد مملكة بيت المقدس الصليبية للانتقام من الإغارات التى دأب الصليبيون على القيام بها لمهاجمة دمشق وملحقاتها <sup>(٥)</sup> .

وعند ما علم بلدوين دى بورج بنية المسلمين ، أسرع بتحذير بلدوين الأول

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p p. 482-483.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٨ .

(٣) ورد هذا الاسم في المراجع العربية في صور عديدة ، منها « ألتونطاش » و « التون تسكش » .

(٤) ابن الأثير ( السكامل ) حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 484.

ملك بيت المقدس، فاستنجد الأخير بأتباعه في الشام، وخف لنجدته روجر أمير أنطاكية، وبونز أمير طرابلس، في حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته في شمال العراق، أي أنها كانت في مهب العاصفة وفي حاجة إلى حماية خاصة. وبعد أن أنزل المسلمون هزيمة بالملك بلدوين الأول عند الصنبرة، ارتد ملك بيت المقدس مدحورا إلى طبرية. ولم يلبث أن وصل روجر الأنطاكي وبونز لنجدته<sup>(١)</sup>. على أن زعماء السلاجقة لم يلبثوا أن تفرقوا - كما سبق أن ذكرنا - بعد أن أضاعوا بضعة أسابيع في الانتظار غربي طبرية<sup>(٢)</sup>. فاتجه مودود صعبة طغتكين إلى دمشق في أغسطس سنة ١١١٣ حيث قتل مودود بيد أحد الباطنية وبتحريض من طغتكين، كما سبق أن أشرنا<sup>(٣)</sup>. وبذلك استراح الصليبيون من ذلك الرجل الذي آمن بفكرة الجهاد من ناحية، واحتفظ بولائه لسلطان السلاجقة من ناحية أخرى، مما جعله يسبب للصليبيين رعبا كثيرا<sup>(٤)</sup>.

أما عن خليفة مودود، وهو آقسنقر البرسقي، فقد صار لزاما عليه عقب أن عينه السلطان السلجوقي في حكم الموصل أن يستأنف سياسة الجهاد ضد الصليبيين. وقد قام بهجوم سنة ١١١٤ على الرها - كما سيلي في الباب الآتي - ولكنه لم يستطع حصارها أكثر من شهرين، ثم ارتد عنها فاشلا، بعد أن « صبر له الفرنج »<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ. &

Guillaume de Tyr. P. 489.

(٢) ذكر ابن العبري أن مودود أذن للمساكر في العودة والاستراحة، ثم الاجتماع في الربيع « تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩ ».

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

Matthieu d'Edesse. d. p. 107-108.

(٤) Runciman: op cit; II. P. 127

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٠٨ هـ. &

Matthieu d'Edesse. p. p. 282-283.

### صحيفة السلطنة سنة ١١١٥ :

وكان أن تعرضت أنطاكية في أواخر نوفمبر سنة ١١١٤ لزلزال شديد دمر جزءاً كبيراً من مبانيها ، فضلاً عما أحدثه بالمدن والقلاع التابعة لتلك الإمارة <sup>(١)</sup> . وقد تخوف الصليبيون من أن يحاول المسلمون في حلب ودمشق الاستفادة من تلك الكارثة في مهاجمة أنطاكية ، ولكن شيئاً من تلك المخاوف لم يتحقق . والواقع إن الخطر الذي هدد أنطاكية والصليبيين جميعاً في بلاد الشام وأطراف العراق في ذلك الوقت إنما انبعث من الموصل ، حيث تجمعت حملة جديدة ، لاستئناف الجهاد ضد الصليبيين .

وكان السلطان محمد السجوق قد عزل آقسنقر البرسقي من أنابكية الموصل ، ومن زعامة الحرب الدينية ضد الصليبيين بعد فشله أمام الرها ، وأحل محله أحد مماليك الأتراك ، وهو المعروف باسم جيوش بك <sup>(٢)</sup> . وقد أرسل السلطان ابنه مسعود ليتدرب على شئون الحكم عند جيوش بك في الموصل ، في حين عهد السلطان بقيادة الحرب ضد الصليبيين في فبراير سنة ١١١٥ إلى برسقي بن برسقي صاحب همدان وخوزستان ، وهو أحد القادة المعروفين بمهارتهم في شئون الحرب . وتحت قيادة برسقي هذا ، سار جيوش بك ومعه قوات الموصل ، وتميرك صاحب سنجار ومعه قوات الجزيرة <sup>(٣)</sup> .

ويبدو أن سلطنة السلاجقة في أصفهان لم تستهدف من هذه الحملة محاربة

(١) أشار ابن الأثير إلى هذا الزلزال فقال : إنه كان شديداً بديار الجزيرة والشام ، وأنه خرب كثيراً من المدن مثل الرها وحران وسميساط وغيرها « وهلك خلق كثير تحت الهدم » . ( السكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ ) .

2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 465-466

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

الصلبيين فقط ، بل بسط هيمنة السلطنة السلجوقية على كافة الإمارات الإسلامية في الشام وشمال الجزيرة ، حيث استطاع كثير من حكام المسلمين — مثل طفتكين في دمشق ، وبدر الدين لؤلؤ في حلب ، وإيلغازي والأراقة في ديار بكر — أن يستغلوا فرصة الفوضى التي عمت البلاد نتيجة للحرب بين المسلمين والصلبيين لقطع صلتهم بالسلطنة السلجوقية في أصفهان . بل إن بعض أولئك الأمراء — مثل إيلغازي الأرتقي — لم يترددوا في محاربة قوات السلطان محمد ، مما جعل السلطان يعد هذه الحملة بقصد إخضاع أولئك الأمراء ، ثم محاربة أنطاكية والرها وغيرها من القوى الصليبية بعد ذلك <sup>(١)</sup> .

وسرعان ما أحس ذلك النفر من أمراء المسلمين بالخطر ، وكان أكثرهم إحساسا به هو إيلغازي في ديار بكر ، فأرسل بسرعة إلى طفتكين أتابك دمشق يستنجد به ضد الخطر المشترك <sup>(٢)</sup> . ولعله من الواضح مدى الحرج والخطر اللذين أحس بهما طفتكين عقب مقتل مودود ، لأن هذه الجريمة التي اتهمه الرأي العام الإسلامي بتدبيرها ، إنعسا راح ضحيتها زعيم حركة الجهاد في العالم الإسلامي ، فضلا عما فيها من مساس بالسلطان محمد نفسه ، لأن مودود كان أحد رجاله المخلصين <sup>(٣)</sup> . لذلك أخذ طفتكين يعمل حسابا كبيرا لانتقام السلطان محمد ، وأدرك أن محالفة الصليبيين في ذلك الموقف خير له بكثير من مشاركته السلاجقة تحت ستار الجهاد <sup>(٤)</sup> . وفعلا لم يسكد

(١) « وأمرهم (السلطان) بالبداة بقتل إيلغازي وطفتكين ، فاذا فرغوا منها قصدوا بلاد الفرنج وقتلوهم ٥٠٠ » .

(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٨ هـ .

(3) Grousset : His. des Croisades, I, p, 494.

(4) Foucher de Chartres p, 429. &

Guillaume de Tyr, p, p. 493.

إيلغازى يذهب إلى طغتكين لطلب المساعدة ، حتى اتفق الطرفان على محالفة الصليبيين<sup>(١)</sup>.

أما بدر الدين لؤلؤ صاحب حلب فكان على ولائه فى أول الأمر لسلطنة السلاجقة ، ولكنه غير رأيه فى آخر لحظة . وهكذا لم يبق لسلطنة أصفهان غير دعامتين اعتمدت على ولائهما فى بلاد الشام ، هما بنو منقذ فى شيزر الذين أفرعهم تهديد إمارة أنطاكية لقامية وكفر طاب<sup>(٢)</sup>؛ ثم أمير حمص قيرخان بن قيراجا الذى كان يرغب فى الاستيلاء على حماة من طغتكين . وفعلًا لم يكد إيلغازى يفرغ من مباحثاته مع طغتكين فى دمشق ، حتى قبض عليه قيرخان عند الرستن — بين حمص وحماة — أثناء عودته ، وإن كان لم يلبث أن أفرج عنه بعد قليل عندما تأخر ظهور الجيش السلجوقى<sup>(٣)</sup>.

وكان أن تجمعت الحملة السلجوقية أخيراً فى الجزيرة ، ومنها اتجهت صوب حلب ، فخشى « المولى لأمرها » بدر الدين لؤلؤ الخادم غدر السلاجقة . وعندما استنجد بدر الدين لؤلؤ بطغتكين وإيلغازى ، أمرعا لنجدته على رأس ألفين من الفرسان ، ودخلا حلب لينتظروا جميعاً وصول قوات السلطان محمد . أما الصليبيون فلم يكونوا أقل تخوفاً واستعداداً للملاقاة الجيش السلجوقى ، فأمرع روجر الأنطاكي أمير أنطاكية بجمع جيوشه على نهر العاصى — عند جسر الحديد — للدفاع عن أنطاكية من جهة ، ومراقبة تطورات الموقف فى حلب من جهة أخرى . ثم حدث الاتصال بين الجانبين لمواجهة الخطر المشترك ، فاجتمعت قوات الحلفاء جميعاً باللفة اثني عشر ألفاً ، منهم ألفان من الصليبيين وعشرة آلاف من المسلمين ، وتم الاجتماع عند قامية<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن الاثير : السكامل ؛ حوادث سنئ ٥٠٨ ، ٥٠٩ هـ .

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٥ .

(٣) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ .

(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢٠ .

وكان برسق قائد الجيش السلجوقي قد وضع خطته على أساس اتخاذ حلب قاعدة لعملياته الحربية في الشام، فلما وجد أن بدر الدين لؤلؤ الخادم تنكر للسلطان وانضم إلى الجبهة المعادية ؛ اضطر إلى أن يغير وجهته شطر بني منقذ في شيزر وقيرخان في حمص ، وهما اللذان بقيا على ولائهما للسلطان محمد <sup>(١)</sup> .

وقد اختار برسق أن يبدأ بحماة التابعة لطغتكين أنابك دمشق ، فاستولى عليها بمساعدة حليفه قيرخان « ونهبها ثلاثة أيام » أتى فيها من أعمال السلب والتخريب ما جعل المسلمين في الشام يتخوفون من جيوش السلطان محمد ويرغبون في مقاومتها <sup>(٢)</sup> . ثم اتجه برسق بعد ذلك إلى شيزر ، ومن هناك هاجمت قواته كفر طاب التابعة للصليبيين . على أنه يبدو أن وصول بلدوين الأول ملك بيت المقدس وبونز أمير طرابلس على رأس قوات كبيرة ، جعل برسق يدرك أن السلامة في الانسحاب، فراجع فوراً على رأس قواته إلى الجزيرة وتمت عملية الانسحاب بنجاح . وهكذا لم يلبث أن تفرق الحلفاء، فعاد الملك بلدوين الأول إلى بيت المقدس ، وبونز إلى طرابلس ، وطغتكين إلى دمشق ، وشمس الخواص قائد جيش حلب إلى حلب ، وروجر إلى أنطاكية ، وإيلغازي إلى ماردين <sup>(٣)</sup> .

على أن انسحاب برسق لم يكن في حقيقة الأمر سوى خدعة بارعة ، لأنه لم يلبث أن عاد فجأة بجيوشه إلى كفر طاب وحاصرها ، حتى إذا ما استولى عليها في أوائل سبتمبر سنة ١١١٥ ، دمرها وأسر من بقي على قيد الحياة من حاميتها الصليبية ، ثم أعطاها لحلفائه بني منقذ أمراء شيزر . وبعد ذلك اتجه برسق إلى معرة النعمان ومنها أخذ يستعد للاستيلاء على زردنا ، وهي قلعة

(1) Stevenson : op cit; p. 98.

(٢) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

(٣) المرجع السابق .

لصليبيين قرب حلب<sup>(١)</sup> . وفي الوقت نفسه أرسل برسق قوة كبيرة تحت قيادة جيوش بك صوب حلب . على أن هذه العملية الأخيرة لم يكن لها أثر سوى إضعاف قوة برسق من ناحية ، واستثارة روجر الأنطاكي من ناحية أخرى .

وفي الوقت الذي كانت قوات السلاجقة تعسكر غربي سرمين — عند دانيث — إذا بالصليبيين بقيادة روجر الأنطاكي وبلدوين دى بورج أمير الرها ينقضون عليهم فيقتلون منهم كثيرين ، في حين فر الباقيون ، وعلى رأسهم برسق نفسه ( ١٤ سبتمبر ١١١٥ ) ؛ وقد حصلوا على كثير من الغنائم « وأخذ الكفار من هذا ما يقوت الوصف وغنموا من الكراع والسلاح والخيام والدواب والأمتعة ما لا يحصى »<sup>(٢)</sup> . وكان أن قسم أمراء الصليبيين على أنفسهم تلك الغنيمة الضخمة ، فسر أهل أنطاكية سرورا عظيما عندما عاد روجر ومعه تلك الثروة الطائلة في ١٨ سبتمبر<sup>(٣)</sup> .

وهكذا جاء انتصار الصليبيين في دانيث ليضع نهاية لجهود سلاطين سلاجقة فارس لاسترداد الشام . ولم يلبث أن توفي برسق بعد بضعة أشهر متأثراً بعار الهزيمة ، في حين أعرض السلطان محمد السلجوقي عن بذل تضحية أخرى في بلاد الشام<sup>(٤)</sup> . ثم إن هذه الهزيمة كان لها رد فعل قوى في بلاد الشام ، سواء في القوى الحليفة للسلطان السلجوقي أو المعادية له . ومن ذلك أن بني منقذ شيزر أمرعوا إلى إخلاء كفر طاب فاحتلها النورمان أثناء عودتهم إلى أنطاكية بعد الموقعة<sup>(٥)</sup> . أما طفتكين أتابك دمشق — حليف الصليبيين — فقد تشجع وانتزع

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. p. 609. )

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Hist. Or. III; p. p. 609-610 )

(٣) Guillaume de Tyr, p. 498.

(٤) Runciman : op. cit; II, P. 133.

(٥) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٤٤ .

رفعية من أمير حمص<sup>(١)</sup>. ثم إن بنى منفذ في شيزز لم يكتفوا بقسليم كفر طاب  
لروجر الأنطاكي ، وإنما عقدوا معه صلحا لمسالته كما حرصوا على عدم الاعتداء  
على القوافل الصليبية بين أنطاكية وبيت المقدس<sup>(٢)</sup>.

### روجر الأنطاكي والمسلمون بعد موقعة دانيث

استطاع روجر الأنطاكي بعد الانتصار الكبير الذي حققه على السلاجقة  
في موقعة دانيث أن يضفي على نفسه مكانة عظيمة في المحيط الصليبي من ناحية ،  
وفي المحيط الإسلامي من ناحية أخرى ، فأخذت القوى الإسلامية المجاورة تعمل  
حسابا كبيرا لروجر — أوسير جال — كما أسماء المسلمون (Sir Roger)<sup>(٣)</sup>.  
حقيقة إن طمعتين ذهب إلى بغداد في مارس سنة ١١١٦ ليظهر التوبة عن مخالفة  
الصليبيين ، ويطلب العفو من السلطان محمد ، « فرضى عنه السلطان وخلع عليه »<sup>(٤)</sup>  
ولكن كل ذلك لا يحجب وجه الحقيقة الكبرى وهي أن القوى الإسلامية في  
الشرق الأدنى ظلت عندئذ مفككة لا تربطها رابطة ، مما مكن الصليبيين من  
إحراز نصر تلو آخر . ثم إن كل قوة من تلك القوى الإسلامية كانت تعاني خلا  
واضطرابا في جهازها الداخلي ، مما أتاح فرصة طيبة للصليبيين للتدخل في شئونها  
وابتلاع الممتلكات الإسلامية قطعة بعد أخرى<sup>(٥)</sup>.

من ذلك ما حدث في حلب عندئذ من قيام بدر الدين لؤلؤ بقتل ألب

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 610) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 510.

(3) Setton : op. cit, I, P. 404.

(٤) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

(5) Stevenson : op. cit, p. p. 100-101



أرسلان « ابن أستاذه » لينفرد هو بحكم الإمارة ( ١١١٤ — ١١١٧ )<sup>(١)</sup> .  
وعندما أحسن بدر الدين لؤلؤ بضغفه ، وعدم قدرته على الوقوف بمفرده وسط  
العواصف الداخلية والخارجية المحيطة به ، طلب مخالفة طفتكين أتابك دمشق .  
على أن هذه المخالفة لم تنجهم من المصير السيء الذى انتظروه ، إذ قتله بعض أعوانه عند  
رجوعه من قلعة جعبر سنة ١١١٧ وهم يصيرون « الأرنب الأرنب » ليوهموه  
أنهم يتصيدون أرانب<sup>(٢)</sup> .

ويهمنا من تلك الأحداث أن الفرصة أتت لروجر الأنطاكي عندما  
وجد حلب دون ملك يزود عنها ، فغزا أرض حلب « وأخذ ما قدر عليه من  
أعمال الشرقية » على قول ابن العديم . وعندما تولى ياروق تاش ( ياروق تاش )  
— الأرمنى الأصل — الوصاية على حلب ، أسرع إلى استرضاء روجر الأنطاكي ،  
فعمد معه صلحا وتنازل له عن حصن القبة — أوقبة ملاعب — على الطريق بين  
حلب ودمشق — فضلا عن إعطاء روجر الحق فى فرض ضرائب على قوافل  
الحجاج بين حلب والحجاز<sup>(٣)</sup> ،

ولم يكن جيران حلب المسلمين أقل طمعا فى تلك الإمارة المتداعية ،  
فأسرع نجم الدين إيلغازى بن أرتق — أمير ماردين — إلى احتلال بالس على  
الفرات ، وكانت تابعة لحلب . وعندما تقدم طفتكين أتابك دمشق وآقسنتر  
البرسقى أمير الرحبة لاحتلال حلب سنة ١١١٧ — ١١١٨ ، استنجد ابن الملجى  
الوصى على حلب بروجر الأنطاكي الذى أدى ظهوره على المسرح إلى اختفاء  
الأميرين المسلمين<sup>(٤)</sup> .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٠٨ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III. p. 611)

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (p. 559)

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٩ .

ولكن إذا كانت حلب قد غدت منذ سنة ١١١٨ تحت حماية الصليبيين من أهل أنطاكية ، بعد أن فضل الحلبيون هذه الحماية عن الوقوع تحت سيطرة « أحد من الشرق » على قول ابن العديم <sup>(١)</sup> ؛ فإن الأوضاع لم تلبث أن تغيرت عندما تغلب الشعور الديني وسلم الحلبيون بلاءهم للأمير الستر كاني نجم الدين إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر <sup>(٢)</sup> . وهكذا تجدد العداء بين حلب وأنطاكية ، فتقدم النورمان لحصار عزاز — شمالي حلب — ثم زحفوا على بزاع — إلى الشمال الشرقي من حلب — سنة ١١١٩ ، وبذلك بسط وجر الأنطاكي سيطرته على جميع الأجزاء المحيطة بحلب من ناحيتي الغرب والشمال . وجدير بالذكر أن الصليبيين عند استيلائهم على تلك الأجزاء الجديدة لم يدمروها هالوا ويخربوا مزارعها ، وإنما « زرعوا أعمال عزاز وقووا فلاحهم وصار يدخل إلى حلب ما يتبلعون به من القوت » <sup>(٣)</sup> .

ويرجح أنه حوالي ذلك الوقت أيضاً — أي سنة ١١١٧ — ١١١٨ — استولى الصليبيون على حصن المرقب أيضاً إلى الجنوب الشرقي من بانياس ، وذلك استطاعت إمارة أنطاكية — في عهد أميرها روجر — أن تقوم بدورها كاملاً في تدعيم السياسة الصليبية بالشام <sup>(٤)</sup> .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 612)

(٢) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 615) &

Matthieu d'Edesse, P. p. 297-298

(4) Runciman : op. cit; II, p. 135.

## الباب التاسع

### إمارة البرها والمسيحيون الشرقيون

« وقال للذين لا يؤمنون اعملوا على مكاتكم  
إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . »

[ هود : ١٢١ - ١٢٢ ]



## الفصل الأول

### بلدوين دى بورج وإمارة الرها

امراء الرها والدرع :

رأينا فى الأبواب السابقة كيف نجح بلدوين الأول فى تأسيس أولى الإمارات الصليبية فى الرها ، وهى الإمارة التى أصبحت الدرع الواقى للصليبيين بالشام ضد الأخطار التى هددتهم من جانب سلاجقة فارس والعراق . ولم تلبث إمارة الرها أن نمت وامتدت على ضفتى الفرات من راوندان وعين تاب غربا إلى مشارف حران شرقا ؛ ومن بهسنى وكيسون شمالا إلى منبج جنوبا .

على أن إمارة الرها ظلت دائما تعاني من تقطى ضعف واضحتين : أولاها عدم وجود حدود طبيعية تحميها وتزود عنها ونكسبها وقاية ومناعة ؛ والثانية عدم تجانس سكانها ، إذ كانوا خليطا من المسيحيين الشرقيين - السريان والأرمن - والصليبيين الغربيين ، فضلا عن المسلمين الذين تركزوا فى مدن بأكملها داخل تلك الإمارة - مثل سروج . وكان من الصعب على أمراء الرها فى تلك الظروف أن يحكموا إمارتهم حكما مركزيا يضمن لهم إشرافا دقيقا على مختلف أجزاء الإمارة ، ولذلك لجأوا إلى تحصين المدن وللقلاع التابعة لهم ، وجمع الضرائب من المناطق المحيطة بتلك المدن <sup>(1)</sup> .

وإزاء النقص الأخير فى عدد الصليبيين وفرسانهم ، اضطر الأمير بلدوين الأول إلى الاعتماد فى إمارة الرها على الأرمن الذين بلغوا ثلاثة أرباع عدد سكان

(1) Runciman : op. cit. II, p. 10.

الإمارة . وعندما استدعي بلدوين الأول ليتولى حكم بيت المقدس عقب وفاة أخيه جودفري سنة ١١٠٠ ؛ اختار ابن عمه بلدوين دى بورج ليخلفه في إمارة الرها تحت لقب الأمير بلدوين الثاني . وهكذا قدر لبلدوين الثاني هذا أن يتم عمل سلفه في الرها<sup>(١)</sup>، ثم يخلفه بعد سنين طوال ليم عمله أيضاً في بيت المقدس<sup>(٢)</sup> .

على أن بلدوين دى بورج وجد نفسه في مركز لا يحسد عليه حاكم ، بسبب قلة المحاربين وخطر الأعداء ونقص المال . وهنا لم يجد بلدوين دى بورج مفر من اتباع سياسة سلفه بلدوين الأول في الاعتماد على الأرمن ؛ ولكن دون أن يرهقهم أو يتعبت معهم . لذلك عمل على استرضائهم والتقرب إليهم ، وتحقيق نوع من التآلف بينهم وبين الصليبيين الغربيين . ومن الواضح أن هذه السياسة كان من شأنها أن تخفف من الأثر السيء الذي تركه بلدوين الأول في النفوس ، عندما تخلص من سلفه ثوروس الأرمني بطريقة تنم عن الغدر والخيانة . هذا فضلاً عما فرضه بلدوين الأول عليهم من ضرائب باهظة أثقلت كاهل الطبقة البورجوازية . حقيقة إنه قام بحماية الأرمن من خطر السلاجقة ، ولكنه تقاضى ثمنها باهظاً مقابل تلك الحماية<sup>(٣)</sup> .

أما بلدوين الثاني دى بورج فلم يقنع بسياسة تعسفية تجاه الأرمن، وإنما حصل منهم على الأموال والمصاريف اللازمة للدفاع ضد الأتراك، دون أن يلجأ إلى أساليب التعسف والإجحاف . هذا بالإضافة إلى حسن معاملته للكنيسة الأرمنية ورجالها ، مما جعل المؤرخ الأرمني متى الرهاوى يشيد بتلك المعاملة<sup>(٤)</sup> . كذلك يذكر المؤرخ ميخائيل السرياني أن بلدوين الثاني دى بورج قام بحماية مطران اليعاقبة في

(1) Setton : op cit; I. sp. 381-407

(2) Grousset : Hist. des Croisades, p. 388.

(3) Matthieu d'Edesse P. p. 70-71.

الرها<sup>(١)</sup>. ولم تلبث هذه السياسة أن قوت الرابطة بين المسيحيين الشرقيين والصليبيين الغربيين. ولتوثيق تلك الرابطة أيضا ، لجأ بلدوين الثاني دى بوج إلى الزواج من أرمينية — هي مورفيا ابنة جبريل حاكم ملطية — الذى كان تابعا لأمير الرها منذ أن قام بلدوين الأول بالدفاع عن مدينته ضد بني دانشمند سنة ١١٠٠<sup>(٢)</sup>.

ولم يلبث بلدوين الثاني أن وجد سندا كبيرا فى شخص ابن عمته جوسلين دى كورتناى الذى وصل إلى الرها بعد قليل. وقد بلغ من سرور بلدوين بجوسلين أن منحه حكم جميع أراضي إمارة الرها غربى الفرات — بما فيها حصن تل باشر لتكون مركزاً له — ، ودلوك عند مفرق الطرق بين مرعش وحلب والرها ، وعينتاب ( عين تاب ) إلى الجنوب الشرقى من دلوك ، وغيرها . وهكذا أصبح جوسلين دى كورتناى الرجل الثانى فى إمارة الرها بعد بلدوين دى بوج ، وشاركه فى السيطرة على تلك المنطقة ذات الموقع الهام بين سلاجقة حلب وسلاجقة فارس<sup>(٣)</sup>.

#### الحرب ضد الأتراك :

وسرعان ما أدرك بلدوين الثانى دى بوج أنه لى يقوى صلته بملطية ، لا بد وأن يتوسع على حساب الأتراك فى الموصل وديار بكر ، واختار أن يبدأ بالأراتقة فى ديار بكر . وكان بلدوين الأول قد استولى على مدينة سروج — على بعد أربعين كيلو مترا إلى الجنوب الغربى من الرها — من حاكمها الأرتقى بلق بن بهرام أرتقى<sup>(٤)</sup>. ولم تلبث أن أصبحت سروج المدينة الثانية فى

(1) Michel Le Syrien, ed. C habot, II, P. 167.

(2) Guillaume de Tyr, P. P. 347-348.

(3) Seton op, cit I, P. 363.

(٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ

إمارة الرها شرق الفرات، وأقطعها لقارس اسمه فوشيه دى شارتر. ولكن لم يكسد بلدوين الثانى دى بروج يقول حكم إمارة الرها، حتى لجأ ستمان بن أرتق صاحب حصن ككيفا إلى مهاجمة سروج، فتصدى له بلدوين دى بروج وفوشيه دى شارتر<sup>(١)</sup>. وفى القتال الذى دار بين الطرفين، حلت الهزيمة بالصليبيين، وقتل فوشيه فى المعركة (يناير سنة ١١٠١)، واستولى المسلمون على سروج فى حين لم يبق فى قبضة الصليبيين سوى قلعتها. أما بلدوين الثانى فقد انسحب عقب تلك الهزيمة إلى الرها— حيث كان لا يزال يتمتع بمحبة الأرمن وعطفهم— ثم اتجه بعد ذلك إلى أنطاكية لطلب المعونة من تنكرد<sup>(٢)</sup>. وعندما عاد بلدوين الثانى من أنطاكية وجد الأرائقة لا يزالون يهاجمون قلعة سروج. فانقض عليهم، واستطاع— بفضل ما حصل عليه من أنطاكية— أن يمزق شملهم فى أوائل فبراير سنة ١١٠١، ثم دخل سروج نفسها وعاقب أهلها المسلمين لساندتهم الأرائقة، وحمل منهم أسرى كثيرين<sup>(٣)</sup>.

وقد شجع هذا الانتصار لبلدوين الثانى على القيام باغارات على المدن والأقاليم الإسلامية المجاورة التابعة للأرائقة. ومن ذلك ما يرويه المؤرخ متى الرهاوى من أنه قام فى سبتمبر وأكتوبر سنة ١١٠٣ بإغارة على الأرائقة حول ماردین، فأسر منهم كثيرين وحمل قدراً كبيراً من الغنائم<sup>(٤)</sup>. ويذكر ابن الأثير أن بلدوين الثانى قام فى نوفمبر سنة ١١٠٣ بإغارة على مختلف المدن والقلاع الإسلامية فى إقليم الجزيرة، مثل جعبر والركة على الفرات— وكانتا تابعتين للعقيليين (بنى عقيل)— «فأغاروا واستاقوا المواشى وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين»<sup>(٥)</sup>.

(1) Grousset : Hist. des Croisades p. p. 363.

(2) Runciman : op. cit, II, p. 37.

(3) Matthieu d'Edesse (Doc Arm. I.) p. p. 53-54.

(4) Idem, P. 70

(٥) ابن الأثير : السكامل، حوادث سنة ٤٩٧ هـ



### أحوال السلاجقة :

وقد يبدو غريباً أن يتمكن الصليبيون في الرها من مواصلة اعتداءاتهم المتكررة على البلدان الإسلامية في الجزيرة عندئذ ، دون أن يحاول سلاجقة فارس — ونوابهم أنابكة الموصل — التدخل لصد الصليبيين . بل إن أنابكة الموصل لم يحاولوا استغلال الفرصة الذهبية التي أتاحها لهم وقوع بوهيموند أمير أنطاكية في أسر بني دانشمد ( ١١٠٠ — ١١٠١ ) ؛ والفشل الذريع الذي منيت به حملة المباردين الصليبية في الأناضول ؛ وكان في استطاعتهم أن يستغلوا كل هذه الظروف للانفراد بإمارة الرها وإنزال ضربة قاصمة بها .

ولكن نظرة عاجلة نلقيها على أنابكية الموصل في تلك الفترة كفيلاً بأن توضح لنا أن الموقف السلبي لتلك الأنابكية عندئذ إنما يرجع إلى اختلال أحوالها الداخلية اختلالاً جعلها مسرحاً لكثير من الفتن والثورات والمنازعات بين أمراء السلاجقة<sup>(١)</sup> . أما السلطان بركيارق فقد صار عاجزاً عن إخضاع بني جلده السلاجقة في بلاد الروم وحلب ودمشق ، بل إنه عاجز عن ردع نوابه في الأقاليم .

من ذلك أن قوام الدولة كربوقا ( كربوغا ) أنابك الموصل أوصى وهو على فراش الموت سنة ١١٠٢ بأن يخلفه في حكم الموصل أحد رجاله ، واسمه سنقرجه<sup>(٢)</sup> . ولكن موسى التركماني — وهو أيضاً أحد رجال كربوغا — نازع سنقرجه حكم الموصل ، واستطاع موسى هذا أن يقتل منافسه ويفوز بحكم الموصل ، بوصفه نائباً عن السلطان بركيارق . ولم يكد موسى التركماني يهنأ بذلك النصر حتى

---

= ويقول ابن الاثير أن السلطان ملكشاه كان قد سلم سنة ٤٧٩ هـ قلعة جبر والرقعة لسالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب ، وهو من بني عقيل .

(١) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. P. 394—395.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

ظهر له منافس جديد في شخص جكرمش الذى استولى على نصيبين والذى طمع في الموصل أيضاً ، مما جعل موسى يستنجد بسقمان بن أرتق ، وأعطاه حصن كيفا وعشرة آلاف دينار لمساعدته . على أن ذلك لم يغن موسى التركانى شيئاً إذ لم يلبث أن قتل ، وبذلك أصبح جكرمش حاكم الموصل وما حولها<sup>(١)</sup> .

ولعل هذا المثل عما كان يحدث بالموصل في تلك الفترة يعطينا صورة واضحة عن مدى انحلال السلطة المركزية في سلطنة سلاجقة فارس ، مما أتاح للأتابكة أن يتوارثوا مدن الدولة وأقاليمها ويتقائلوا فيما بينهم وبين بعض ، وهم في شغل بكل ذلك عن الصليبيين في الرها وغير الرها<sup>(٢)</sup> . أما سبب ذلك الاضطراب في السلطنة السلجوقية في أوائل القرن الثانى عشر ، فمرجهه — كما سبق أن أشرنا — اختلاف بين بركيارق وأخيه محمد حول تقسيم ملك أبيهما ملكشاه . وإذا كان ذلك الخلاف قد انتهى باتفاق الأخوين سنة ١١٠٤ على أن يأخذ بركيارق فارس وبغداد ويترك لأخيه محمد الأقليم الغربية من الدولة — أعنى ديار بكر والجزيرة والموصل والشام<sup>(٣)</sup> — ؛ إلا أنه من الواضح أن سلطة كل منهما غدت اسمية إلى حد كبير أمام ازدياد نفوذ الأتابكة والحكام المحليين . ولم تغب هذه الحقيقة عن بال الصليبيين الذين رأوا « اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً » فأسرعوا إلى استغلال الفرصة ، بعد أن « تفرقت عندئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتمزقت الأموال<sup>(٤)</sup> » .

(١) المرجع السابق .

(٢) وبعبارة ابن الأثير تعبيراً بليغاً عن أحوال السلطنة السلجوقية في ذلك الوقت فيقول « صارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة ، والبلاذ مخربة ، والقرى محرقة ، والسلطنة مطموعا فيها يحكموها عليها . وأصبح الملوك مهزومين بهد أن كانوا قاهرين وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمتهم وانبساطهم وإدلالهم ٠٠٠ »

(الكمال : حوادث سنة ٥٩٧ هـ) .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ .

(٤) ابن الأثير : الكمال ، حوادث سنة ٥٩٧ هـ .

### سوقه سرامه وأسر بلدوين الثانى :

وكانت إمارة الرها - بحكم تطرفها فى الشمال الشرقى - أكثر إحساساً من غيرها من الإمارات الصليبية فى الشرق الأدنى بأحوال سلاجقة فارس ، وأكثرها رغبة فى الاستفادة من تلك الأحوال. لذلك فكر بلدوين الثانى دى بورج أمير الرها فى الاستيلاء على حران - إلى الجنوب الشرقى من الرها - وهى التى لم تكن أحوالها الداخلية عندئذ أفضل بكثير مما كانت عليه الموصل <sup>(١)</sup> . ذلك أن أحد مماليك السلطان ملكشاه - واسمه قراجة - كان يحكم حران حكماً استبدادياً تعسفياً سنة ١١٠٣ ، عندما انتهز أحد رجاله - واسمه محمد الأصهبانى - فرصة تغيبه عن المدينة وانزع الحكم بمساعدة الأهالى .

ولكن محمد هذا لم يلبث أن قتل ، قتله «غلام تركى يعرف بجاولى» وأعلن نفسه حاكماً على المدينة <sup>(٢)</sup> . وكان ذلك فى ربيع سنة ١١٠٤ عندما وصل بلدوين الثانى دى بورج إلى حران لحصارها ومعه تابعه جوسلين دى كورتناى صاحب تل باشر ، وبوهيموند أمير أنطاكية وابن اخته تنكرد ، فضلاً عن عدد آخر كبير من الأمراء الصليبيين ورجال الدين <sup>(٣)</sup> . ويبدو أن الصليبيين أضعوا وقتاً ثميناً أمام حران ، لأنهم لم يحاولوا اقتحامها واكتفوا بحصارها حتى يضطروا إلى الجوع والتسليم . وفى الوقت الذى أوشكت حران على التسليم ، وقع نزاع بين بلدوين دى بورج أمير الرها وبوهيموند أمير أنطاكية حول أيهما يرفع يده أولاً على المدينة عند سقوطها <sup>(٤)</sup> . وكان ذلك فى مساء عندما ظن الصليبيون أن

---

(1) Setton : op. cit, I, P, 389

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(3) Guillaume de Tyr, I, P, 444.

(4) Runciman : op. cit, p, 42.

للمدينة سقسقط في أيديهم في صباح اليوم التالي . ولم يدر الصليبيون عندئذ أن جيشاً كبيراً من الأتراك في طريقه لإنقاذ حران ، وأن هذا الجيش سيكون على مقربة منهم في الصباح الموعد<sup>(١)</sup> .

ذلك أن هجوم بلدوين على حران ألف بين خصمين متعادين هما جكرمش أتابك الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وحصن كيفا ، « فأرسل كل منهما لصاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لتتلافى أمر حران ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى ونوابه ، وكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه »<sup>(٢)</sup> . ولم يلبث أن جمع هذان الأميران ما يقرب من عشرة آلاف محارب من الترك والعرب والأكراد ؛ وبعد أن تم الاجتماع عند رأس العين — على الخابور — اتجه الزعيمان للقاء الصليبيين . وفي موقعة حران — أو البليخ — التي دارت بين الطرفين على ضفاف نهر البليخ في ٧ مايو سنة ١١٠٤ ، أبيد جيش الرها إبادة شبه تامة ، وقتل من الصليبيين « عشرة آلاف ما بين راجل وفارس »<sup>(٣)</sup> . وقد حاول بلدوين الثاني دى بوج وجوسلين دى كورتناى الفرار ، ولكنهما وقعاً أسيرين في أيدي التركمان . وسرعان ما أوشك النزاع أن يدب بين التركمان من أتباع سقمان الأرتقى والأتراك السلاجقة من أتباع جكرمش حول الاستئثار بتلك الغنيمة الثمينة من الأسرى ، حتى انتهى الأمر بأن أخذ السلاجقة الأمير بلدوين . وبعد أن استولى جكرمش على حران ، اتجه لحصار الرها ومعه أسيره « القمص » ، بلدوين دى بوج<sup>(٤)</sup> .

ولا شك في أن موقعة حران ( البليخ ) كانت لها نتائجها السيئة بالنسبة

(1) Guillaume de Tyr, p. 445-446

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

(٣) سبط ابن الجوزى . p. 527. & p. 615. Albert d'Aix.

(4) Foucher de Chartres P. 409.

(٥) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

لصليبيين بوجه عام وإمارة الرها بوجه خاص . فمعنى انتصار الترك على قوات الرها وأنطاكية ، هو أن مركز الأولى غداً مزعزجاً في حين أن الثانية فقدت الأمل في قرب الاستيلاء على حلب . هذا إلى فشل خطة الصليبيين في عزل المسلمين في الأناضول والعراق والشام بعضهم عن بعض<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت إمارة أنطاكية قد تعرضت لثغفى البيزنطيين بعد موقعة حران ، فإن إمارة الرها تعرضت هى الأخرى لكثير من المتاعب الداخلية ، وبخاصة من جانب الأرمن الذين لم يلبثوا أن أظهروا ضجرهم من حكم الصليبيين : والواقع إن انتصار الأتراك وهزيمة الصليبيين على ضفاف البليخ ، كشفت عن حقيقة شعور الأرمن تجاه حكامهم الصليبيين الغربيين ومدى استيائهم من حكم الفرنجة . حقيقة إن الأرمن تضامنوا مع الصليبيين فى الرها ، وأظهروا ولاءهم لتتكرد عندما أسر أميرهم بلدوين دى بورج ، ولكن ذلك لايفسنا أن الأرمن هم الذين سلموا أرتاح لسلاجقة حلب ، تخلصاً من « جور الفرنج »<sup>(٢)</sup> . ويعمل متى الرهاوى موقف الأرمن هذا بتعسف الصليبيين الغربيين مع الكنيسة الأرمنية وإهمالها بل اضطهاد رجالها فى كثير من الأحيان ، مما دفع الأرمن إلى الاتصال سرّاً بالأتراك<sup>(٣)</sup> .

وهكذا يبدو أنه إذا كانت الرها وغيرها من المعاقل الصليبية قد استطاعت البقاء وسط المحيط الأرمنى شرق آسيا الصغرى وفى أطراف العراق والشام ، فإن الفضل فى ذلك كله إنما يرجع إلى انقسام المسلمين على أنفسهم<sup>(٤)</sup> .

---

(1) Runciman : op. cit, II, p 44.

(٢) ابن العديم . زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. p. 593)

(3) Matthieu d'Edesse. Hist. Arm. I; p. p. 80-81

(4) Crousset : Hist. des Croisades, I, p. 412-413.

## وصاية تنكرد على الرها :

وعندما أتجه جكرمش لحصار الرها ، وجد أهل المدينة من المسيحيين أنفسهم في مأزق خطير بعد أن قضى المسلمون على جيشهم ، وغداً أميرهم بلدوين أسيراً في قبضة جكرمش الذي ألقى به في سجن الموصل ، في حين ظل جوسلين دى كورتناى أسيراً في قبضة سقمان بن أرتق الذى حبسه في قلعة حصن كيفا . ولكن بوهموند وتنكرد اللذين هربا في موقعة البليخ استطاعا الوصول إلى الرها سالمين ( مايو سنة ١١٠٤ ) ليرفعا من الروح المعنوية للأهالى ، ويعدان المدينة للدفاع ضد الهجوم الاسلحى المنتظر<sup>(١)</sup> . وهنا أظهر الأرمن في الرها ولاءهم شديداً لهذين الأميرين الصليبيين ، بل إنهم دعوا تنكرد للقيام بالوصاية على مدينتهم ورعاية شئون الإمارة حتى يتم إطلاق سراح أميرهم بلدوين دى بوج<sup>(٢)</sup> . وهكذا ترك بوهموند ابن أخته تنكرد في الرها ، وعاد هو في سرعة ليرعى شئون إمارته أنطاكية التي تأثرت هي الأخرى تأثراً عميقاً بهزيمة الصليبيين في البليخ<sup>(٣)</sup> .

ولم يكد بوهموند يرحل عن الرها حتى ظهر جكرمش أمام أسوارها . على أن تنكرد لم يجبن أمام آلاف السلاجقة الذين تأهبوا للهجوم على الرها ، وإنما استمر يثبت في الأهالى روح العزيمة ، واكتفى بأن أرسل رسالة سرية إلى خالة بوهموند يطلب منه نجدة عاجلة لانتفاذ المدينة . وفي الوقت الذى وصل بوهموند إلى مشارف الرها لنجدة ، كان السلاجقة قد تراجعوا بعد اشتباك قصير مع أهل الرها<sup>(٤)</sup> . وهكذا انسحب جكرمش بعد أن حاصر الرها أسبوعين

(1) Setton : op. cit. I, p. 339.

(2) Archer op. cit p. 616.

(3) Runciman : op. cit, II, p. 43.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ &

(يونيه — يولية ١١٠٤) دون أن يتمكن من اقتطاف الثمرة الحقيقية لانتصاره في البليخ .

ويقال إن الصليبيين أسروا عندئذ أحد كبار الأمراء السلاجقة، فعرض جكرمش على بوهيموند استمداه لمبادلة ذلك الأمير ببلدين الثانى ، أو دفع مبلغ ١٥ ألف دينار مقابل إطلاق سراح ذلك الأمير السلجوقى . وعندما وصلت أخبار ذلك العرض إلى بيت المقدس ، أرسل الملك بلدوين الأول إلى بوهيموند يطلب منه مبادلة الأمير السلجوقى ببلدوين دى بورج فوراً ، ولكن بوهيموند فضل المال لحاجته إليه ، وبذلك ظل بلدوين الثانى أمير الرها أسيراً <sup>(١)</sup> .

---

(1) Rubciman : op cit; II. p. 45.

## الفصل الاول

### عودة بلدوين الثاني لحكم الرها

الملاحق سراح بلدوين :

وفي تلك الأثناء كانت دولة سلاجقة فارس لا تزال تعاني الكثير بسبب الانقسامات والحروب الداخلية . ومن ذلك ما سبق أن أشرنا إليه في الباب السابق من نجاح جاولي في القضاء على جكرمش وانتزاع الموصل منه ليستقل بها ، ثم ثورة أهل الموصل على جاولي سقاوا ومناداتهم بزنكي - ابن جكرمش - حاكما عليهم ، مما اضطر جاولي إلى الانسحاب من المدينة سنة ١١٠٦<sup>(١)</sup> .

ولكن جاولي لم يلبث أن عاد إلى الموصل وتمكن من استردادها سنة ١١٠٧ ، وعندئذ حاكمي سلفه جكرمش ، وعمل على أن يستقل بتلك الأتابكية متناسيا كل حق للسلطنة السلاجوقية فيها . لذلك أسرع السلطان محمد الساجوق إلى عزل جاولي في العام التالي وأحل محله مودود في حكم الموصل ، فاضطر جاولي إلى الخروج إلى قلعة جعبر على الفرات ومعه أسيره بلدوين الثاني ليبعث عن المال والحلفاء لمحاربة مودود<sup>(٢)</sup> .

وفي ذلك الوقت كان جوساين دي كورتناي حاكم تل باشر قد حصل على حريته سنة ١١٠٧ بعد دفع مبلغ ضخم بلغ عشرين ألف دينار<sup>(٣)</sup> . ولم يكد جوساين ينعم بحريته حتى أخذ يعمل على تحرير سيده بلدوين الثاني دي بورج

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١٩٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(٣) للرجع السابق .



- الذى كان فى قبضة جاولى - من الأسر . والواقع إن بلدوين الثانى كان قد فقد الأمل فى إطلاق سراحه عندما انتقل من قبضه جكرمش إلى قبضة جاولى . ولكن جوساين دى كورتناى استغل الظروف الجديدة التى غدا فيها جاولى ، وحاجته إلى المال من جهة ، وإلى مخالفة الصليبيين ضد السلطنة الساجوقية من جهة أخرى ، وسأومه على إطلاق سراح بلدوين دى بوج<sup>(١)</sup> . وكان أن تم الاتفاق على ذلك مقابل سبعين ألف دينار ، بشرط أن يتعهد بلدوين بإطلاق سراح جميع أسرى المسلمين فى الرها ، وبأن يتف إلى جانب جاولى فى مشاريعه المقبلة ضد السلطنة الساجوقية » وينصره متى أراد ذلك منه بنفسه وعسكره وماله<sup>(٢)</sup> .

وهكذا تم إطلاق سراح بلدوين دى بوج سنة ١١٠٨ ، بعد أن دفع له جوساين دى كورتناى متقدم الفدية المتفق عليها وهى ثلاثون ألف دينار . ثم إن جاولى لم يكتف بإطلاق سراح بلدوين ، وإنما أحاطه - هو وجوساين - بكثير من مظاهر التكريم « وخلع عليه » مما جعل العلاقة بين جاولى من ناحية وبلدوين وجوساين من ناحية أخرى تتحول إلى مخالفة شخصية<sup>(٣)</sup> .

### الفتاع بين بلدوين وتسكردد حول الرها:

وكان أول ما فعله بلدوين دى بوج عقب إطلاق سراحه سنة ١١٠٨ هو أنه توجه إلى أنطاكية ليطلب من تسكردد رد إمارته فى الرها . ولكن تسكردد الذى ظل يحكم الرها أربع سنوات ، يجمع داخلها ويدافع عنها ويدبر أمورها ، عز عليه أن يتنازل عن ذلك السلطان ، فأمد بلدوين ببعض المال والخيول والسلاح، ولكنه

(1) Selton : op cit, I, p. D, 393.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(3) Michel Le Syrien, III, p. 196.

امتنع عن الاعتراف بحقه في استرداد الرها، وأصدر تنكرد أوامره لنائبه ريتشارد دى سالرفو ألا يسلم الرها لبلدوين<sup>(١)</sup>.

ولم يسع بلدوين دى بوج سوى أن يفادر أنطاكية غاضباً ، فاتجه إلى تل باشر حيث اجتمع بجوسلين دى كورتناى . ولكن تنكرد لم يلبث أن لحق بهما « ليحاربهما قبل أن يقوى أمرهما ويجمعاً عسكرياً ويلتحق بهما جاولى وينجدهما » . ويبدو مما ذكره ابن الأثير أن نزاعاً شب عندئذ بين الأمراء الصليبيين الثلاثة ، وإن كان هذا النزاع لم يطل ، فعكف ثلاثتهم على بحث المشكلة عن طريق التفاوض<sup>(٢)</sup> . وعندما فشلت تلك المباحثات في إيجاد حل للموقف ، انصرف تنكرد إلى أنطاكية ، في حين تطلع بلدوين دى بوج وجوسلين دى كورتناى إلى حليفهما جاولى لمساعدتها . وقد بلغ من حرص بلدوين الثانى على استرضاء جاولى ، أن بعث إليه بمائة وستين رجلاً من أسرى المسلمين ، بعد أن حررهم وسلحهم « وكساهم » ليقوموا بدورهم في مساعدة جاولى وبلدوين جميعاً<sup>(٣)</sup>.

ولم يلبث أن ظهر على مسرح الأحداث حليف آخر لبلدوين دى بوج ، ساعده على حل المشكلة واستخلاص إمارته من قبضة تنكرد . أما هذا الحليف الجديد فهو كوغ باسيل<sup>(٤)</sup> - أحد زعماء الأرمن - وكان قد نجح أيام الحملة الصليبية

(1) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar 1) ; p. 86.

ويذكر ابن الأثير أن تنكرد طيب خاطر ببلدوين دى بوج وأعطاه « ثلاثين ألف دينار وخيلاً وسلاحاً وثياباً وغير ذلك » (الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ).

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

وقد ذكر ابن الأثير أن زعماء الصليبيين الثلاثة « كانوا يقتلون ، فاذا فرغوا من القتال اجتمعوا وأكل بعضهم مع بعض وتحادثوا ».

(3) Runciman : op. cit; II, p. 112 &

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(٤) هكذا كتب اسمه جهمرة المؤرخين (انظر ابن العبري، ص ١٩٩).

أما ابن الأثير فقد كتبه (كواسيل).

الأولى في إقامة إمارة مستقلة لنفسه حول كيسوم (كيسون) ، في الجزء الشرقي المواجه للفرات من مرتفعات طوروس. وسرعان ما غدت تلك الإمارة الأرمينية قلعة منيعة ، ومأوى لكثير من الأرمن ومحوراً لآمالهم<sup>(١)</sup>. ذلك أن الأرمن أخذوا ينظرون إلى كوغ باسيل على أنه بطل قومي ، لاسيما بعد أن نجح سنة ١١٠٧ في دفع هجوم الأتراك عن إمارته ، ثم إنزال الهزيمة مرة أخرى في العام التالي — سنة ١١٠٨ — بسلاجة الروم عندما حاولوا الاعتداء على تلك الإمارة . وهكذا بلغ هذا الزعيم الأرمني أوج مجده وقوته عندما قصده بلدوين دى بورج وجوسلين دى كورتناى طالبين منه مساعدتهما على استرداد الرها من تنكرد<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد المؤرخ الأرمني متى الرهاوى أن كوغ باسيل أحسن استقبال الأميرين الصليبيين ورحب بهما ترحيباً كبيراً ، لأنه وجد مصالحه تتفق ومصالحة بلدوين دى بورج بسبب تخوف الأرمن من سياسة تنكرد. ذلك أن تنكرد وضع سياسة استهدفت ضم قيليقية بأجمعها إلى الصليبيين وطبعها بالطابع اللاتيني الغربى ، كما بدا ذلك من استيلائه على المصيصة . وبعبارة أخرى فإن سياسة تنكرد في تلك المنطقة لم تكن موجهة ضد البيزنطيين فحسب ، بل ضد الأرمن أيضاً. هذا فضلاً عن أن تنكرد أناب عنه ابن عمه ريتشارد دى سالرنو في الرها ، وهذا الأخير أساء معاملة الأرمن وعجز عن حمايتهم ، كما فشل في صد جكرمش عندما غزا المنطقة المحيطة بالرها سنة ١١٠٥ . ولعل فشل النورمان في اكتساب محبة الأرمن هو الذى جعل أهل الرها يحنون إلى حكم بلدوين دى بورج ، وهو الأمير الذى تقرب منهم وحافظ على شعورهم وتزوج أميرة أرمينية<sup>(٣)</sup>.

---

(1) Matthieu d'Edesse, I p. 77.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I. P 437.

(3) Matthieu d'Edesse. p. 79 & Albert d'Aix, p. 648.

لذلك كله لم يتردد كوغب باسيل في إعطاء بلدوين دى بورج قوة كبيرة من الحاربيين الأمر من تبلغ ألف فارس وألفى راجل<sup>(١)</sup>. وعندما خرج بلدوين على رأس تلك القوة لاسترداد إمارته دارت مناوشات بينه وبين خصمه، وعندئذ - وقبل أن يشتد القتال - تدخل بطرق أنطاكية لحسم النزاع بين الطرفين. وكان لذلك البطرق - وهو برنارد دى فالنس - مكانة كبيرة في نفوس المسيحيين؛ حتى قال عنه ابن الأثير إنه « كالإمام للمسلمين لايخالف أمره » ، فحكم بأن يأخذ بلدوين الرها ويعود تنكرد إلى أنطاكية ، وتم ذلك في ١٨ سبتمبر سنة ١١٠٨<sup>(٢)</sup>.

ولم يكد بلدوين دى بورج يعود إلى إمارته ، حتى اتبع سياسة مشبعة بالتسامح والأخاء تجاه حليفه جاولى ، فاطلق سراح أسرى المسلمين ، سواء فى الرها أو حران أو غيرها من المدن المجاورة . بل إن رئيس سروج « كان مسلماً قارند ، فسمعه أصحاب جاولى يقول فى الإسلام قولاً شنيعاً فضربوه ، وجرى بينهم وبين الفرنج بسببه نزاع ، فذكر ذلك للقمص ( بلدوين دى بورج ) فقال : هذا لا يصح لنا ولا للمسلمين ، فقتلته ! »<sup>(٣)</sup>

### الاستقرار فى صفوف المسلمين والمسيحيين :

على أن الحل الذى وضعه بطرق أنطاكية لم يمح ما فى النفوس من كراهية وحقد ، وإن كان قد وضع حداً للصراع المسلح بين تنكرد وبلدوين دى بورج. وزاد من اتساع الفجوة بين الرجلين أن كلا منهما وجد من يسانده بين صفوف

(1) Stevenson : The Crusaders p. 85.

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٥٠٢ .

(٣) المرجع السابق

للمسلمين ؛ فبلدوين دى بورج له صديقه جاولى أتابك الموصل السابق ، الذى لم يفتأ منذ طرده من الموصل يعمل على إنشاء إمارة لنفسه فى الجزيرة رغم إرادة السلطان محمد السلجوقى ؛ مما أوقعه فى خلاف وعداء مع رضوان ملك حلب الذى بدأ يتأثر بأطماع جاولى التوسعية <sup>(١)</sup> . من ذلك أن جاولى هاجم فى سبتمبر سنة ١١٠٨ مدينة بالس على الفرات ، وهى لا تبعد أكثر من خمسين ميلا عن حلب ، واستولى عليها حيث قتل أعوان رضوان داخلها . وفى ذلك الموقف لم يجد رضوان بدا من محالفة عدوه القديم تنكرد ؛ وربما وجد الأخير فى ذلك التحالف فرصة للانتقام من بلدوين دى بورج الذى استطاع أن يسترد الرها على كره منه <sup>(٢)</sup> .

وهكذا تألفت جبهتان متعارضتان : الأولى من بلدوين دى بورج وجاولى ، والثانية من تنكرد ورضوان . وفى المعركة التى دارت بين الفريقين قرب منبج - غربى الفرات على الطريق بين حلب والرها - انتصر فريق تنكرد ، وفر جوساين دى كرتناى إلى تل باشرو بلدوين دى بورج إلى دلوك فى أكتوبر سنة ١١٠٨ <sup>(٣)</sup> . وقد تبع تنكرد غريمه بلدوين دى بورج لمحاصرته فى دلوك ، واسكن تخوفه من أن يهاجمه جاولى من الخلف ويقطع عليه خط الرجعة ، جعله يعدل عن خطته وينصرف إلى أنطاكية . وقد قدزت خسارة للسيحيين فى معركة منبج هذه بما يقرب من ألفين <sup>(٤)</sup> .

النتائج السياسية لبلدوين دى بورج ضد العرب :

ولم يلبث ذلك الانقسام فى صفوف الصليبيين أن ظهر له رد فعل عنيف

(١) Setton : op. cit; I, p. p. 393—394.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(٣) Albert d'Aix, P. 649.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Cr. Or III) p. 595

داخل الرها ذاتها . ذلك أن الأرمن في الرها عندما سمعوا بالهزيمة التي لحقت بأميرهم بلدوين دى بورج وتابعه جوسلين دى كورتناى توجسوا شراً ، وتخوفوا من أن يعود إليهم حكم تنكرد وقريبه ريتشارد دى سالرنو ، وهو الحكم الذى ظل يذكره أهل الرها بالسوء والشر . لذلك عقد الأرمن اجتماعا كبيرا في كنيسة القديس حنا بالرها ، ودعوا إلى ذلك الاجتماع رئيس الأساقفة الكاثوليكي . ويبدو أن الأرمن وجهوا بعض الإساءات والالتهامات إلى رئيس الأساقفة ، مما أُنذر بحدوث صدام بين الأرمن والصلبيين داخل المدينة <sup>(١)</sup> .

على أن الأرمن الذى ظنوا أن بلدوين دى بورج وجوسلين دى كورتناى لا بد وأن يكونا قد هلكا وأسرا في الصراع ضد تنكرد ، فوجئوا بالأميرين يدخلان الرها سالمين . ولم يلبث أن علم بلدوين دى بورج بما فعله الأرمن في غيابه ، فأدرك خطورة ذلك الاتجاه على مستقبله ومستقبل إمارته . ومنذ ذلك الوقت انقلبت سياسته تجاه الأرمن رأسا على عقب ، وأخذ ينظر إليهم نظرة الريبة والشك ، ولم يتورع عن اضطهادهم وإذلالهم وسلبهم ممتلكاتهم والاعتداء على حرياتهم الدينية وغير الدينية . هذا فضلا عما وقعه على المذنبين منهم من عقوبات بلغت حد الحبس والطرده وسمل الأعين ، حتى أن الأسقف الأرمني لم يسلم من سمل عينيه إلا بعد أن دفع مبلغا باهظا من المال <sup>(٢)</sup> .

وبعد أن كانت سياسة بلدوين في حكم الرها تقوم على أساس الربط بين الصليبيين والأرمن ؛ إذا به يغير سياسته تغييرا تاما ، فاستبعد الأرمن من حسابه كلية ، واعتمد في حكومته اعتمادا واضحا على رجاله من الصليبيين الغربيين وحدهم . ومن الواضح أن هذه السياسة زادت الموقف سوءا ، لأن الأرمن في الرها ضاقوا

(١) Matthieu d'Edesse p. 268.

(2) Idem; p p. 267—268.

بحكم الصليبيين ، ورأوا فيهم أعداء فاقوا الأتراك المسلمين في تطرفهم<sup>(١)</sup> . ولذلك لم يكن عجبا أن يتصل الأرمن في الرها بمودود أتابك الموصل ، عند قيام الأخير بحماته صد الصليبيين سنة ١١١٢ ، عارضين عليه استعدادهم لتسليمه الرها .

وعندما علم بلدوين دى بوج بتآمر الأرمن مع مودود صده ، جاء انتقامه شديداً في تلك المرة ، إذ طرد من الرها جميع أبنائها الأرمن ، ولم يترك فيها — عدا الفرنجة — سوى السريان واليعاقبة وغيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى<sup>(٢)</sup> .

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 443.

(2) Michel Le Syrien, III, p. 196.

## الفصل الثالث

### مودود وإمارة الرها

محملة مودود أنابك الموصل على الرها سنة ١١١٠ :

سبق أن رأينا كيف أعلن جاولى أنابك الموصل استقلاله بتلك المدينة وقطع كل صله تعبر عن ولائه للسلطان محمد السلجوقي ، الأمر الذي جعل السلطان يعهد إلى مودود بن ألتونتكين بالتضاء على جاولى والقيام بحمله في حكم الموصل <sup>(١)</sup> . وعندما نجح شرف الدولة مودود في مهمته وأصبح أميراً على الموصل سنة ١١٠٩ ، عهد إليه السلطان محمد في العام التالي باستئناف الجهاد ضد الصليبيين . وكان أن أعد مودود حملة كبيرة لمحاربة الصليبيين ، واشترك معه في تلك الحملة سكان القطبي أمير خلاطوميافارقين ، وبجم الدين إيلغازي بن أرتق أمير ماردين في ديار بكر ، ومع الأخير « خلق كثير من التركمان » <sup>(٢)</sup> .

وقد اتجهت تلك الحملة الكبيرة من الأتراك لحصار الرها ( إبريل - مايو سنة ١١١٠ ) ، فأسرع بلدوين الثاني دى بوج إلى إرسال جوسلين دى كورتناى إلى فلسطين للاستنجاد بالملك بلدوين الأول . أما تنكرد الذى لم يعبأ بانقاذ الرها ، فإن بلدوين الثاني دى بوج اتهمه بتحريك تلك الحملة الإسلامية ضد الرها والتآمر مع المسلمين ضده <sup>(٣)</sup> . ولم يستطع بلدوين الأول ملك بيت المقدس الحضور على عجل لأنه كان محاصر يبروت ، وأوشكت المدينة أن تسقط في يده

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩ .

(٢) ابن النديم زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr, III, p. p. 595-596)

(3) Albert d'Aix, p. 670.



عندما بلغته استغاثة بلدوين دى بوج<sup>(١)</sup> . ولم يكد الملك بلدوين الأول يستولى على بيروت في مايو سنة ١١١٠ ، حتى جمع قواته وأتجه صوب الرها ، وصحبته برترام أمير طرابلس على رأس فرسانه<sup>(٢)</sup> . وفي طريق بلدوين إلى الرها انضم إليه قرب سميساط بعض زعماء الأرمن ، وعلى رأسهم كوغي باسيل<sup>(٣)</sup> .

وعندما اقترب الملك بلدوين الأول من الرها ، رفع مودود الحصار عن المدينة وأتجه صوب حران ، حيث انضم إليه طغتكين ومعه قوات دمشق<sup>(٤)</sup> . وقد رأى الملك بلدوين الأول أن يقوم الصليبيون بعمل جامع ضد تلك الحشود التركية الضخمة ، التي أخذت تهدد الصليبيين وتبعثر قواهم . ولذلك أرسل ملك بيت المقدس إلى أنطاكية يستدعى تنكرد وقواته للمشاركة في حرب فاصلة ضد الأتراك<sup>(٥)</sup> . وقد تردد تنكرد أول الأمر في تلبية نداء الملك ، ولكنه عاد وأدرك أن عدم تعاونه مع إخوانه الصليبيين في حربهم الجامعة ضد الأتراك سيؤدي إليه وإلى سمعته في المحيط الصليبي ، فاتجه على رأس ألف وخمسمائة فارس إلى الملك بلدوين ، الذي قام بدور الوسيط لتصفية الخلاف بينه وبين بلدوين دى بوج ، وحشد جميع جهود الصليبيين للمعركة الفاصلة ضد المسلمين<sup>(٦)</sup> . وهكذا «انفق الفرج كلهم وأزالوا ما كانوا بينهم من الشحنة ... فتصافى طنكريد وبغدوين وابن صنجيل بعد النفار ...»<sup>(٧)</sup> .

ويبدو أن الخطة التي وضعها مودود عندما ترك حصار الرها وأتجه إلى حران

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٨ .

(2) Albert d'Aix, p. 672.

(3) Stevenson : op. cit; l. p 88.

(٤) ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٩ — ١٧١ .

(5) Setten : op. cit. I. P. 399

(6) Stevenson : op. cit. p. 88.

(٧) ابن المديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. Or. III. p. 596)

استهدفت استدراج الصليبيين إلى أقصى مكان بعيد عن قاعدتهم في الجزيرة ، ثم الإيقاع بهم ، كما حدث في موقعة اليلخ سنة ١١٠٤<sup>(١)</sup> . وكان في استطاعة الصليبيين - بعد أن وحدوا صفوفهم - أن يلاحقوا المسلمين عند حران ، ولكن الملك بلدوين الأول فطن إلى خطة مودود وأراد أن يسرع بإنزال ضربته بالأتراك قبل أن يتمكنوا من تنفيذ خطتهم . وكان من المحتمل أن ينجح بلدوين في ذلك لولا أن الأحقاد القديمة بين زعما الصليبيين عادت إلى الظهور ، فانسحب تنكرد ومعه قواته إلى سميساط على الفرات ؛ مما اضطر الملك بلدوين الأول إلى الرجوع إلى الرها<sup>(٢)</sup> . وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار تترى على الملك بلدوين بخطورة هجمات الفاطميين على مملكة بيت المقدس ، فلم يعد أمام الملك متسعاً من الوقت ليحاول أن يوفق بين أمراء الصليبيين مرة أخرى . وتم الاتفاق على تحديد الأماكن التي يحشد فيها المسيحيون ليسهل الدفاع عنها — مثل الرها — على أن تحل بتمية المراكز على شاطئ الفرات من سكانها الأرمن واليعاقبة .

### أهمل المزمع عن أرض الجزيرة واسنيهم المسلمين عليها :

وكان أن بدأ الصليبيون تنفيذ الخطة السابقة ، فزودوا الرها بالغذاء والسلاح والمواد اللازمة لمقاومة حصار طويل ، ووضعوا فيها حامية قوية تكفي للدفاع عنها<sup>(٣)</sup> . وبعد ذلك اتجه الصليبيون نحو تطهير ضياع الجزيرة من الأرمن ، وسحب ذلك الفريق من المسيحيين الشرقيين إلى الجهات الشمالية الغربية في اتجاه سميساط ،

(١) ذكر ابن الأثير أن المسلمين «رحلوا عن الرها إلى حران ليطلع الفرنج ويعبروا الفرات إليهم...» (الكامل: حوادث سنة ٥٠٥هـ).

(2) Matthieu d'Edesse. p. 93.

(3) Guillaume de Tyr. p. 463.

أى عبر الفرات ، حيث يمكن أن يأوى أولئك الأرمن فى المناطق الجبلية المحيطة بكيسوم (كيسون) <sup>(١)</sup> .

وفى تلك الأثناء كان مودود ورجاله عند حران ، يرقبون الموقف عن كنب ، ويتحينون الفرصة المناسبة للعمل ، فأخذوا يجتاحون المزارع والضياع والقرى المسيحية ، حتى وصلوا إلى الفرات . وهناك علما أن جيوش الصليبيين قد عبرت الفرات ، فى حين بقيت بضعة آلاف من المهاجرين الأرمن ينتظرون دورهم فى عبور النهر ، بسبب قلة السفن اللازمة لنقلهم إلى الضفة الغربية <sup>(٢)</sup> . وكان أن هاجم الأتراك أولئك اللاجئين وأعملوا فيها السيف ، حتى قتلوا منهم عدة آلاف ، فى حين وقف الجيش الصليبي على الضفة الغربية للنهر لا يدرى ماذا يفعل . وبعد ذلك عاد مودود إلى حران ومعه عدد كبير من الأسرى وقدر هائل من الغنائم <sup>(٣)</sup> .

وهكذا ساء موقف الصليبيين عند أطراف الفرات إلى درجة كبيرة. حقيقة إن الصليبيين ظلوا يحتفظون بالرها وسروج ، وهما أكبر قلعتين فى تلك المنطقة شرق الفرات . ولكن هاتين القلعتين أصبحتا قائمتين وسط أرض خربة مقفرة ، ليس فيها زرع ولا ضرع ولا سكان . أما بلدوين دى بورج فقد عاد إلى الرها ينعى إمارته الخربة ، فى حيث رجع بدون الأول إلى بيت المقدس ، وتنكرد إلى أنطاكية <sup>(٤)</sup> .

---

(1) Grousset ; Hist. des Croisades I; p. 454.

(2) Stevenson : op cit. P. P. 88

(3) Matthieu d'Edesse. p. p. 93-94.

(4) Albert d'Aix; p. 675.

### استيلاء المسلمين والدعوة للجهاد :

على أن الوضع الذي أمسى فيه المسلمون في أوائل القرن الثاني عشر، وشعورهم بسوء موقفهم في الشام وأطراف العراق ، أثار بينهم موجة عامة من الاستياء ، فارتفعت الأصوات تستنكر ذلك الوضع وتنادى بالجهاد . هذا إلى أن سيطرة الصليبيين على كثير من المراكز والمعاقل في أرض الجزيرة والشام ، قطع أوصال العالم الإسلامي في الشرق الأدنى ، وحال دون انتقال القوافل والتجارة بين العراق والشام ومصر والحجاز ، وهو أمر لم يألوه المسلمون منذ حركة الفتوح العربية في القرن السابع للميلاد . ويروى ابن الأثير أن بعض أهالي حلب قصدوا عندئذ بغداد للتعبير عن استيائهم وطلب المساعدة ضد الفرنجة ، وهناك « اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم ، وقصدوا جامع السلطان ، واستغاثوا ، ومنعوا من الصلاة ، وكسروا المنبر ، فوعدهم السلطان إنفاذ العسكر للجهاد »<sup>(١)</sup>. وفي يوم الجمعة التالي قصد جمهور الغاضبين جامع القصر بدار الخلافـة في بغداد حيث كرروا العملية نفسها ، فاقتحموا الجامع وكسروا شباك المقصورة والمنبر ؛ وعندئذ أدرك الخليفة المستظهر خطورة الموقف ، فأرسل إلى السلطان الساجوق « يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه »<sup>(٢)</sup>. وكان أن أخذ السلطان محمد الساجوق يعد العدة لحملة ثانية ، على أن تكون تحت قيادة ابنه مسعود والأمير مودود أتابك الموصل .

يروى ابن القلانسي أنه في ذلك الوقت بالذات ، بلغ العداء أشده بين البيزنطيين والصليبيين ، مما جعل الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٥٠ هـ .

(٢) المرجع السابق .

يرسل مبعوثاً إلى السلطان محمد الساجوق يحضه على محاربة الفرنجة وطردهم من البلاد<sup>(١)</sup> ؛ «وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم !»<sup>(٢)</sup> . وقد وصل المبعوث البيزنطي إلى بغداد قبل وصول وفد حلب ، الأمر الذي جعل المسلمين في بغداد يصيحون في السلطان « أما تتق الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام ، حتى قد أرسل إليك في جهادهم<sup>(٣)</sup> ! » .

### صحة مودود الثانية على الرها سنة ١١١١

وقد أخذت الاستعدادات تجري على قدم وساق في دولة سلاجقة فارس في ربيع سنة ١١١١ لإعداد حملة كبيرة لحرب الصليبيين . وكان أن اجتمع تحت قيادة مودود حاكم الموصل جميع حكام الأقاليم في دولة السلاجقة : سبكان القطبي صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر ، والأميران أيلنسكي وزنكي ابنابرسق — وكانا يحكان همدان وخوزستان — والأمير أحمد بك (أحمديل) صاحب مراغة في أذربيجان . . . . وغيرهم . وكذلك كوتب الأمير أبو الهيجاء صاحب أربل والأمير مودود ؛ فاجتمعوا ، ما عدا إياغازي صاحب ماردين فإنه سير ولده أياز بدله<sup>(٤)</sup> .

وبعد أن اجتمع أولئك الأمراء على رأس قواتهم قرب سنجار اتجهوا لمهاجمة الرها ، وكانت الرها على استعداد منذ العام السابق لمواجهة مثل ذلك الهجوم ، وبها من الزاد والمؤن والسلاح — فضلا عن الحاربيين — ما كان كفيلاً بأن

(١) Chalandon : Alexis Comnene, p. 252.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ .

(٣) ابن الاثير : المكمل ؛ سنة ٥٠٤ هـ .

(٤) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

يمكنها من الصمود . وفعلا لم يلبث أن قنط المسلمون من الاستيلاء على الرها بعد أن « رأوا أمراً محكماً قد قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم وبكثرة المقاتلين عنهم » <sup>(١)</sup> . لذلك رأى مودود أن يعبر نهر الفرات لمهاجمة تل باشر ، وفي الطريق لم يحجم الأتراك عن تدمير كل ماصادفهم من ضياع الصليبيين ومزارعهم <sup>(٢)</sup> .

وقد حاصر المسلمون تل باشر خمسة وأربعين يوماً ، ولكن جوسلين دى كورتناى استطاع الصمود في وجه المسلمين « فرحلوا عنها ولم يبلغوا غرضاً » . ويذكر ابن العديم أن المسلمين كانوا على وشك الاستيلاء على تل باشر ، لولأن جوسلين اتصل بأحمد بك الكردي أمير مراغة « فقتارح جوسلين الفرنجى صاحبها على أحمد بك الكردي ، وحمل إليه مالا ، وطلب منه رحيل العسكر عنه ، فأجابه إلى ذلك ! » . وفي ذلك الوقت كان رضوان صاحب حلب قد أرسل إلى مودود وإلى أحمد الكردي يخبرهم « بأننى قد تلفت ، وأريد الخروج من حلب ، فبادروا إلى الرحيل ! » . وعلى هذا الأساس نجح أحمد بك الكردي في إقناع الأتراك بترك حصار تل باشر والاتجاه إلى حلب لنجدة رضوان <sup>(٣)</sup> . وعندما اطمأن جوسلين إلى ابتعاد المسلمين عن قلعته ، خرج على رأس مجموعة من فرسانه ، واستطاع أن يدهم مؤخرة جيش المسلمين ، ويقتل من الأتراك نحو ألف رجل ، ثم أسرع بالعودة إلى تل باشر محملاً بالغنائم <sup>(٤)</sup> .

ولم يسكد الأتراك يقر بون من حلب لنجدة رضوان حتى فوجئوا بموقف غريب . ذلك أن رضوان طلب مساعدة الأتراك عندما كان هؤلاء بعيدين

(١) المرجع السابق .

(٢) Stevenson : sp cit; p 91.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. p. 599-600)

(٤) Albert d'Aix. p. 681.

عند تل باشر ؛ ولكن اقتراب الأتراك من حلب أثار مخاوف رضوان لكثرتهم وبدأ يحسب حسابا لخطرهم ، وأدرك أن تلك الجيوش التركية الكثيفة وذلك النفر من الأمراء ذوى اللطامع يشكلون خطرا عليه وعلى سلطانه أكثر من خطر تنكرد نفسه<sup>(١)</sup>. وهكذا سرعان ما ظهرت المفاجأة الكبرى ، وهى أن رضوان الذى كان يستعجد بالأتراك ضد تنكرد أغلق فى وجه المسلمين « أبواب البلد ولم يجتمع بهم »<sup>(٢)</sup> ، بل إنه لم يلبث أن تحالف بسرعة مع تنكرد للوقوف فى وجه ذلك الخطر المشترك<sup>(٣)</sup>. ويروى ابن العديم أن أهل حلب لم يرضوا عن مسلك ملكهم رضوان ، فغضبوا ونادوا بالجهاد ؛ وعندئذ أخذ رضوان بعض أنبيائهم رهائن وحبسهم فى قلعة المدينة ، ورتب قوماً من الجند والباطنية لحراسة سور حلب ، ومنع الحلبيين من الصعود إليه ؛ وبذلك ظلت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة فى وجه الجيش الإسلامى المتحالف<sup>(٤)</sup>.

وإزاء ذلك الموقف الذى وقفه رضوان من الأمير مودود وحلفائه ، اتجه الجيش المشترك إلى حوض نهر العاصى لاسترداد الجهات التى استولى عليها تنكرد أخيراً فى إقليم معرة النعمان . وهناك عند معرة النعمان حضر طغتكين أتابك دمشق على رأس جيشه وانضم لحلف الأمراء ، وبذلك اكتملت رابطة الأتراك ولم يعد متخلفا سوى رضوان صاحب حلب الذى « لم يلتفت إلى أخدمتهم »<sup>(٥)</sup>. على أن طغتكين لم يلبث أن « اطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه تخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع فى مهادنة الفرنج سرا »<sup>(٦)</sup>. وهكذا صدق المؤرخ

(١) Setton : op. cit; I, p. 400.

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(٣) Albert d'Aix; p. p. 682.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. III, p. 600 )

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ .

(٦) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ ، التاريخ الباهر ص ١٧ — ١٨ .

ابن العديم حين قال إن أمراء المسلمين في ذلك العصر كانوا يرجون استمرار بقاء الصليبيين ليضمن أولئك الأمراء استمرار بقائهم في مناصبهم ! (١)

وقد عرض طغتكين على أمراء الأتراك أن يتوجهوا جميعاً للاستيلاء على طرابلس ، ولكن بقيمة الأمراء - عدا مودود - عارضوا ذلك الرأي ، واعتقدوا أنه من المجازفة الابتعاد حتى طرابلس من أجل تحقيق مصلحة خاصة لأتابك دمشق (٢) . وعندئذ قرر طغتكين أن يتف موقفا سلبيا من الحملة الإسلامية ، فرفض أن يتعاون مع إخوانه المسلمين في أى عمل يقومون به ضد الصليبيين إلا إذا أطاعوه واتجهوا صحبته إلى طرابلس ، مع ما في ذلك العمل من خطورة بالغة . ولم يلبث الأمير برسق أن اشتد به المرض وأعلن الرغبة في العودة ، في حين كان الأمير سكران القطبي قد توفي فجأة عند بالس وعاد جنده بجثمانه ، في حين انسحب أحمد بك الكردي مسرعا ليطالب من السلطان أن يقطعه ما كان لسكران القطبي من البلاد . وبذلك لم يبق إلى جانب الأمير مودود سوى إياز الأرتقي بن إيلغازي ، فضلا عن طغتكين صاحب دمشق (٣) .

وفي الوقت الذي انفرط عقد الجيش التركي ، أخذت القوى الصليبية تتجمع من جديد « بعد الاختلاف والتباين » لمواجهة الخطر الناجم من اتحاد كلمة أمراء المسلمين . وكان أن أقبل بلدوين دى بورج أمير الرها وجوسلين دى كورتنای صاحب تل باشر وتسكرد أمير أنطاكية لملاقاة بلدوين ملك بيت المقدس ومعه برترام أمير طرابلس ، وغير هؤلاء كثيرون من أمراء

(١) « وكان السبب في ذلك أن المتقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه » ( ابن العديم : زبدة الحلب 607 - 606 p. p )

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Cr. III, p. 601 )

(٣) ابن القلانسی : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٦ - ١٧٧ هـ .

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .



الصلبيين<sup>(١)</sup> . وأخيراً اجتمعت الجيوش الصليبية كلها قرب فامية — على الضفة الشرقية لنهر العاصي — في حين كان طفتسكين ومودود على الضفة الغربية للنهر عند شيزر، حيث اجتمع بهما سلطان بن منقذ صاحب شيزر « وهون عليهما أمر الفرنج وحرصهما على الجهاد » ، (١٥ سبتمبر ١١١١)<sup>(٢)</sup> . وبعد عدة أيام وقف فيها الفريقان وجها لوجه ، عبر الأنراك نهر العاصي إلى الضفة التي عليها الصليبيون ودارت مناوشات بين الفريقين بلغت أحيانا درجة عنيفة ، ثم انسحب بعدها مودود إلى الموصل وعاد كل أمير إلى إمارته<sup>(٣)</sup> .

وهكذا أثبتت تلك التجربة فشل حركة الجهاد الإسلامية طالما أن المسلمين كانوا مفقطين إلى وحدة تنظم صفوفهم . ذلك أن أمراء المسلمين ظلوا منشقين على أنفسهم في الوقت الذي ترابط الصليبيون جميعاً من أطراف العراق وشمال الشام إلى جنوب فلسطين ، تحت زعامة بلدوين الأول ملك بيت المقدس<sup>(٤)</sup> .

---

(1) Grousset : *Hist. des Croisades*, I, p. 469.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(3) Setton : *op. cit.*; I, p. 400.

(4) Runciman : *op. cit.*, II, p. 123.

## الفصل الرابع

### تدهور إمارة الرها

مؤامرة الأرمن في الرها سنة ١١١٢

ومع أن الأمير مودود وجد نفسه وحيدا في حركة الجهاد ضد الصليبيين ، إلا أنه قام في صيف سنة ١١١٢ بمهاجمة الرها فجأة ، فترك قواته تحاصرها قرابة شهرين ، في حين انصرف هو — عندما رأى قوة تحصين الرها وتعذر الاستيلاء عليها في سهولة — إلى سروج ، بوصفها المركز الثاني للصليبيين شرق الفرات<sup>(١)</sup>. على أن جوسلين دى كوتناى استطاع أن يالحق بمودود عند سروج وأنزل به الهزيمة ، وقتل عددا كبيرا من رجاله في يونية سنة ١١١٢ . ويرجع ابن الأثير تلك الهزيمة إلى أن مودود لم يحتفظ بوحدة جيشه كاملة ، وإنما ترك جزءا يحاصر الرها وأتى بالجزء الباقي لمهاجمة سروج ، وبذلك « أهمل الفرنج ولم يحترز منهم ، فلم يشعر إلا وجوسلين صاحب تل باشر قد كبسهم » . ولم يسع مودود في ذلك الموقف سوى التراجع نحو الرها ، فسبقه جوسلين إليها لمساعدة بلدوين دى بورج في الدفاع عنها<sup>(٢)</sup> .

وفي تلك المرحلة بالذات تأمر الأرمن في الرها ضد بلدوين دى بورج واتصلوا بالأتراك طالين مساعدتهم للتخلص من حكم الصليبيين<sup>(٣)</sup> . وقد تم

(1) Stevenson : op. cit; p. 95.

(2) Matthieu d'Edesse. p. 100 &

ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٥٠٦ هـ .

(3) Matthieu d'Edesse. p. 101.

الاتفاق في تلك المؤامرة على أن يساعد الأرمن مودود في الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقي من مدينة الرها ، مما يمكنه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة في سهولة . على أن وصول جوسلين دي كورتناي حال دون تنفيذ المؤامرة ، لأنه عندما علم بها أسرع إلى احتلال القلعة التي كان متروضا أن يبدأ السلاجقة بالاستيلاء عليها ، وهاجم الأتراك الذين أخذوا يتسللون إليها حتى ردهم عن آخرهم ، و بذلك حال دون سقوط المدينة في أبدى السلاجقة (١)

ومع أن تلك المؤامرة باءت بالفشل إلا أنها تكشف النقاب عن مدى انحلال الأوضاع الداخلية في الرها بسبب الانقسام بين شطري السكان المسيحيين : الأرمن والصليبيين الغربيين . وكان أن أدى كشف تلك المؤامرة إلى تطرف بلدوين دي بورج وجوسلين دي كورتناي في معاملة الأرمن معاملة وحشية صارمة ، فاستحلا دماء كثيرين من الأبرياء ، وأمرنا بذبح وإحراق عدد غير قليل من أهل الرها الأرمن . ولم يلبث بلدوين دي بورج بعد ذلك بعدة أشهر أن طرد من الرها عدداً كبيراً من الأرمن بعد أن أدرك أن وجودهم داخل أسوار المدينة يعرض سلامته وسلامة المدينة للخطر (٢) .

ويبدو أن شعور الأرمن في تلك الفترة بالذات صار معبئاً ضد الصليبيين . بوجه عام ، ليس داخل الرها فحسب ، بل في جميع الأقاليم التي انتشر فيها الأرمن شرقي آسيا الصغرى وشمال العراق . وليس أدل على شعور الكراهية المتبادل بين الصليبيين والأرمن في تلك الفترة ، من حقد الصليبيين على كوغ باسيل ( كواسيل ) بسبب ازدياد نفوذ الأخير واتساع ملكه . وكان أن تحالف بلدوين الثاني دي بورج أمير الرها ، وتفكر د أمير أنطاكية ضد كوغ باسيل

---

(1) Michel Syrien p. p. 196.

(2) Matthieu d'Edesse, p. p. 102—105.

الأرمني ، واستطاع تنكرد أن يستولى على رعبان ، واستعد فعلا لمحصرة كيسوم ،  
عندما عقد الصلح بين الطرفين <sup>(١)</sup> .

جمهور بلديون دى جورج فى انقاذ مملكة بيت المقدس سنة ١١١٣ :

أما مودود حاكم الموصل فلم يهدأ ، وظلت فكرة الجهاد تتحكم فى مشاعره  
وأحاسيسه ؛ فأعد حملة جديدة سنة ١١١٣ لغزو بلاد الصليبيين ، واشترك معه  
تميرك صاحب سنجار ، والأمير إياز الأرتقى بن إيلغازى أمير ماردين ، وطفكتكين  
أتابك دمشق . واستطاع الأخير — كما سبق أن أوضحنا — أن يوجه تلك  
الحملة ضد مملكة بيت المقدس <sup>(٢)</sup> .

وكان بلديون دى جورج أمير الرها — بحكم قربه من الموصل — أول من  
أحس بحركة مودود وحلفائه ، فأسرع إلى تحذير الملك بلديون الأول ملك بيت  
المقدس . وعندما أحس الملك بلديون بخطورة الموقف استنجد بأفضاله الأقربين ،  
مثل روجر الأنطاكي وبونز أمير طرابلس . أما بلديون دى جورج أمير الرها ،  
فكان من الواضح أنه يتعرض لخطر شبه دائم من جانب الأتراك ، لذلك لم  
يطلب إليه الملك بلديون الحضور <sup>(٣)</sup> .

وقد سبق أن شرحنا ما حدث لتلك الحملة قرب بحيرة طبرية ، ثم ما كان من  
مقتل مودود فى دمشق فى سبتمبر سنة ١١١٣ ، مما أدى إلى فشلها <sup>(٤)</sup> .

---

(١) Runciman : op cit, II, P. 123.

(٢) انظر ما سبق ص ٣٢٠ — ٤٢٦ .

(٣) Grousset : Hist des Croisades' I, p. 484

(٤) انظر ما سبق ص ٣٢٠ — ٣٢٣ .

### سوء الأحوال الاقتصادية في السرها؛ طرد جوسلين

والواقع إن اتجاه الحملة الإسلامية السابقة صوب إقليم الجليل جاء رحمة للرها التي تعرضت — بحكم تطرفها — لكثير من هجمات السلاجقة ، والتي كانت لا تستطيع المقاومة والثبات أكثر مما قاومت وثبتت. ذلك أن الأتراك خربوا الأراضي المحيطة بها ودمروا ما فيها من أشجار وزرع ، حتى صارت الرها بمثابة قلعة وسط صحراء واسعة مجذبة مليئة بالأعداء من كل جانب . أما الجزء الواقع غربي الفرات من إمارة الرها — أي إقليم تل باشر — فكان على العكس في حالة نسبية من الهدوء ، لأنه لم يتعرض لما تعرضت له الرها من إغارات أتابكة الموصل ، فضلا عن أن نهر الفرات كان يحميها من هجماتهم المتكررة .

وتشير المراجع إلى أن جوسلين دى كورتناى أخذ يتصرف في ذلك الوقت تجاه سيده بلدوين دى بورج تصرفات تدل على عدم اللياقة والإخلاص ، مما أثار حنق بلدوين وشكوكه . ومع أنه لا توجد في الواقع أدلة ثابتة على خيانة جوسلين لبلدوين الثاني ، إلا أنه من المحتمل أن يكون سبب سوء التفاهم بين الطرفين هو حقد بلدوين دى بورج على جوسلين ، لاسيما وأن بلدوين — وسط المتاعب الداخلية والخارجية التي ألمت به وإمارته — أخذ يتشكك في جميع من حوله ؛ فلم يكتف بالشك في الأرمن وإخلاصهم ، وإنما شك أيضا في أقرب أعوانه إليه وهو جوسلين نفسه ، بعد أن وجد أنه محبوب من الأرمن . ومهما يكن من أمر ، فقد انتهى الموقف بأن قبض بلدوين دى بورج على جوسلين وحبسه ؛ ثم أطلق سراحه بعد أن عزله عن حكم تل باشر<sup>(١)</sup> .

ولم يجد جوسلين دى كورتناى أمامه سوى الملائك بلدوين الأول ملك

(1) Runciman. : op cit; II. P 124.

بيت المقدس ؛ فذهب إليه طامعا في عطفه وكرمه . وكان أن أقطع الملك بلدوين جوسلين إمارة طبرية والجليل ، حيث أظهر جوسلين نشاطا واسعا في مهاجمة الاساكين . وبخاصة في إقليم صور . وتدل الشواهد على أن جوسلين لم يحاول — وهو في إمارته الجديدة — أن يسىء إلى بلدوين دى بورج أمير الرها ؛ مما جعل الأخير — عندما تولى عرش بيت المقدس عقب وفاة بلدوين الأول — لا يكتفى بإعادة جوسلين إلى تل باشر ، بل أعطاه إمارة الرها بأكملها سنة ١١١٩ (١) .

### مؤامرة الارمن سنة ١١١٣ لتسليم الرها لمودود :

أما الأرمن في الرها ، فظالوا يضررون البغض وسوء النية لبلدوين دى بورج والصليبيين عموما ، وزاد من كراهيتهم وحقدهم تلك الإجراءات التعسفية التي اتخذها بلدوين الثاني ضد الأرمن سنة ١١١٣ . ولم يلبث استياء الأرمن أن دفعهم إلى التفكير في تسليم الرها للسلاجقة سنة ١١١٣ ، أى في الوقت الذي بدأ مودود حاكم الموصل يتأهب لملته الجديدة ضد الصليبيين . وربما ظن الأرمن أن الظروف مواتية لتسليم الرها لمودود أثناء غياب بلدوين دى بورج في تل باشر ، لأخذ قلعتها بعد طرد جوسلين دى كورتناى منها . ومع أنه لا يوجد دليل ثابت على أن الأرمن تواطأوا فعلا ضد الأتراك في تلك المرة ، إذ ربما لا يبدو الأمر مجرد إشاعة أو دسيسة ، إلا أن تجربة العام السابق جعلت بلدوين دى بورج يسرع إلى اتخاذ إجراءات عنيفة لحماية الرها من جهة وللانتقام من الأرمن من جهة أخرى (٢) .

ولم يلبث أن عهد بلدوين دى بورج إلى أحد رجاله بعقاب الأرمن

(1) Stevenson : op. cit; p. 106.

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 490.

وطردهم من الرها ، فانتشر الصليبيون في المدينة يذبجونهم بالجملة ، كما لجأوا في ١٣ مايو سنة ١١١٣ إلى طرد من تبقى منهم على قيد الحياة خارج المدينة ويصف المؤرخ الأرمني متى الرهاوى حالة الأرمن في ذلك الوقت ، وكيف أنهم مروا بأيام حالكة ليس لها مثيل في تاريخهم ، فكان الأب لا يعرف أبنائه ، والأبناء يفرون من آبائهم ، والكل لا يعينهم سوى النجاة بأرواحهم ، وقد غادروا الرها تاركين خلفهم كل ما امتلكوه من مال ومتاع . أما من بقي منهم داخل منزله وأغلق عايه بابه ، فإن الصليبيين اقتحموا عليه داره وأحرقوه حياً . وهكذا لم يتبق في الرها من أبنائها الأرمن سوى ثمانين رجلاً لا ذوا بكنيسة القديس تيمودور ، حتى تم القبض عليهم فحبسوا في قلعة المدينة تحت الحراسة المشددة<sup>(١)</sup> . وقد اتجه معظم الأرمن المطرودين من الرها إلى المدن والبلاد الأرمنية الأخرى القريبة — وبخاصة سيمساط — في حين صارت الرها مدينة شبه خربة ، فازداد ركودها وضعفها ، بعد أن قتلت عنصراً أساسياً من سكانها المعروفين بنشاطهم ودأبهم .

ولم يلبث أن أحس بلدوين دى بورج بأن طرد الأرمن من الرها عاد عليه وعلى إمارته بالخراسة ، وأن من بقي بالمدينة من المسيحيين الغربيين والسريران لا يكفون للاحتفاظ للرها بنضارتها وقوتها ، فسمح للأرمن في فبراير سنة ١١١٤ بالعودة إلى الرها مرة أخرى<sup>(٢)</sup> .

### استجدار الأرمن بالسلامة :

وإذا كان الأرمن بعد عودتهم إلى الرها قد ركنوا إلى الهدوء التام ولم يحاولوا القيام بأي عمل يسىء إليهم ، إلا أنهم ظلوا مع ذلك — داخل الرها

(١) Matthieu d'Edesse p. p. 104-106.

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, I; P. 491.

وخارجها — لا يستطيعون أن يغفروا للصليبيين سوء معاملتهم واضطهادهم لكفيلتهم.

وكان السلطان محمد الساجوق قد عهد بحكم الموصل بعد مقتل مودود إلى حاكم جديد هو أقسنقر البرسقي ، مع تكليفه — مثل سلفه — بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين . وفي سنة ١١١٤ قام أقسنقر بحملة كبيرة ضد الرها ، وكان صاحبته ابنه عماد الدين زنكي وتميرك صاحب سنجار وغيرها . والمعروف أن أقسنقر كان رجلاً ماهراً ، فبدأ بتدعيم نفوذه والاستيلاء على أعمال الموصل مثل جزيرة ابن عمر ، كما استولى على ماردن من صاحبها إيلغازي ، وبعد ذلك سير إيلغازي ابنه إياز مع أقسنقر لمهاجمة الرها . وقد ظل أقسنقر يحاصر الرها شهرين كاملين ، قاومه طواها الفرنجة « وصبروا له » على قول ابن الأثير<sup>(١)</sup> . ويبدو أن محمود الرها على ذلك الوجه جعل أقسنقر يرفع حصاره عنها ، ويوجه إغاراته ضد الضياع الصليبية المحيطة بها وبسروج وسميساط . وفي تلك المرحلة أرسل حاكم كيسوم ورعبان الأرمني إلى أقسنقر يعرض عليه مخالفته ضد الصليبيين .

وكان كوخ باسيل (كواسيل) الأرمني — حاكم إمارة كيسوم ورعبان — قد توفي في أكتوبر سنة ١١١٢ تاركاً إمارته المستقلة لأرملته وابنها بالتبني ، دغا باسيل . وعندما أحس هذان الأخيران بأن تذكرد أمير أنطاكية يطمع في إمارتهما ، طلبا حماية الأتابك أقسنقر البرسقي واعترفا بتبعيتهما له وسيادته على إمارتهما ؛ وقبل أقسنقر ذلك بعد فرض جزية معينة على تلك الإمارة الأرمينية ، رمزاً لتبعيتهما<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن بعض الأرمن الذين طردهم بلدوين الثاني من الرها

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ

(٢) ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٥٠٨ هـ « في هذه السنة توفي بعض كنود الفرنج ويعرف بكواسيل ، وهو صاحب مرعش وكيسوم ورعبان وغيرها ، =



سنة ١١١٣ نزحوا إلى كيسوم حيث حرضوا دغا باسيل على مخالفة السلاجقة ضد الصليبيين<sup>(١)</sup>.

بلمدوين الثاني دى بوج والتوسع على حساب الأرمن :

على أن الصليبيين اعتبروا ما قام به أمراء كيسوم الأرمن من تحالف مع السلاجقة ، خيانة كبرى في حق المسيحية ، فضلا عما في ذلك التحالف من تهديد صريح للإمارات الصليبية في شمال العراق والشام . لذلك لم يلبث بلدوين دى بوج أمير الرها أن خرج لحصار رعبان سنة ١١١٥ ، وعندئذ استنجد دغا باسيل بأحد حكام الأرمن في منطقة طوروس الجبلية . ولكن الأخير لم يهتم بأمر مساعدة دغا باسيل وانتهاز فرصة بحينه إليه وقبض عليه وسلاه لخصمه بلدوين دى بوج أمير الرها ؛ الذى لم يطلق سراح دغا باسيل إلا بعد أن أجبره على تسليم مدينتي كيسوم ورعبان سنة ١١١٦ ، في حين لجأ دغا باسيل نفسه إلى بلاط القسطنطينية<sup>(٢)</sup> .

ثم إن بلدوين دى بوج لم يكتف بذلك ، وإنما طمع في ضم بقية الإمارات الأرمينية المستقلة في أطراف العراق والشام . لذلك خرج بلدوين في العام التالي ومعه تابعه صاحب سروج المهاجمة إمارة أخرى للأرمن ، هي البيرة ، وكانت بيد زعيم أرميني آخر هو أبو الغريب . والمعروف أن البيرة ذات موقع هام على مجرى الفرات في الطريق بين الرها وعينتاب . وعلى الرغم من أنها دانت بالطاعة لبلدوين الأول سنة ١٠٩٩ ، إلا أنه تركها تتمتع بكيانها كإمارة أرمينية

== فاستولت زوجته على المملكة وتمحصنت من الفرنج وأحسنّت إلى الاجناد وراست آقسنقر البرسقي وهو على الرها واستدعت منه بعض أصحابه لتطعيمه .

(1) Runciman : op. cit; II, p. 129.

(2) Matthieu d'Edesse, p. p. 116-117.

صغيرة<sup>(١)</sup> . وقد استطاعت البيرة أن تقاوم حصار بلدوين دى بوج نحو سنة ، حتى سلمت له أخيراً سنة ١١١٧ ، وهنا يظهر المؤرخ الأرمني متى الرهاوى استيائه ، لأن أمير الرها وجه نشاطه ضد الأرمن المسيحيين بدلا من المسلمين ، واتهم ذلك الأمير بأنه لم يفرق بين السلاجقة المسلمين والأرمن المسيحيين<sup>(٢)</sup> . أما البيرة فقد ظلت بأيدي الصليبيين حتى سنة ١١٤٥

وأخيرا استولى بلدوين دى بوج على قلعة قورس شمالى حاب سنة ١١١٧ ، وبذلك يكون الأرمن فى أطراف العراق والشام قد لقوا على أيدي الصليبيين ما لم يلاقوه على أيدي المسلمين . ومهما يكن من أمر ، فإن بلدوين دى بوج لم يستمر بعد ذلك فى حكم الرها طويلا ليتابع سياسته ضد الأرمن ، إذ توج ملكا على بيت المقدس فى ١٤ أبريل سنة ١١١٨ بعد وفاة الملك بلدوين الأول ، واتخذ لقب الملك بلدوين الثانى . ولم يجد ملك بيت المقدس بلدوين الثانى أكفاً وأشجع من جوسلين دى كورتناى ليحل محله فى حكم الرها ، وينهض بمهمة الدفاع عن الجبهة الشمالية الشرقية للصليبيين . وهكذا عادت المياه إلى مجاريها بين الرجلين ، واتجه جوسلين إلى الرها ليتولى مهام منصبه الجديد<sup>(٣)</sup> .

---

(1) Setton : op. cit. p. 405.

(2) Matthieu d'Edesse, p. 117.

(3) Cam. Med. Hist, vol. 5. p. 301.

## الباب التاسع

### الصلبيين في أوج مجدهم

« فليضعكوا قليلا وليسكوا كثيرا »

جزاء بما كانوا يعملون »

[ التوبة : ٨٢ ] .



## الفصل الأول

### حياة الصليبيين ونظمهم في الشام

#### البناء السياسي :

لم يقدر للصليبيين منذ دخولهم بلاد الشام سنة ١٠٩٧ حتى طردهم منها سنة ١٢٩١ أن يسيطروا على تلك البلاد بأجمعها ، وإنما احتلوا أجزاء متفرقة منها لا تربط بينها رابطة ، وتفصل بينها أراضي ومدن وبلاد إسلامية . ويمكن تشبيه دولة الصليبيين في أقصى اتساعها بشبه منحرف كبير امتد ضلعه في الشمال من أنطاكية غربا إلى الرها شرقا ، وضلعه الأيمن من الرها إلى أيلة على البحر الأحمر ، وضلعه الجنوبي من أيلة إلى غزة ، وضلعه الغربي من غزة إلى أنطاكية . هذا مع ملاحظة مع مافي هذا التشبيه من تجاوز ملحوظ ، إذ امتلك الصليبيون أراضي ومدن عديدة خارج حدود تلك الرقعة ، وفي الوقت نفسه وجدت داخلها مدن كبرى ظلت محتفظة بوضعها الإسلامي دون أن يستطيع الصليبيون الاستيلاء عليها مطلقا ، مثل حلب وحماه ودمشق (١) .

وقد سبق أن رأينا كيف ظهرت النوايا والاطماع السياسية للأمرء المشتركين في الحملة الصليبية الأولى ، وذلك قبل وصولهم إلى بلاد الشام ذاتها ، الأمر الذي جعل من المتعذر قيام وحدة سياسية تضم شمل الصليبيين في الشرق الأدنى . وهكذا قامت إمارة الرها ، ثم إمارة أنطاكية ، ثم مملكة

(1) Thompson ; Economic and Social History of the Middle Ages, p. 396.

بيت المقدس ، وأخيراً إمارة طرابلس <sup>(١)</sup> . وعلى الرغم مما ادعاه كل واحد من أمراء تلك الوحدات الصليبية من استقلال وسيادة ، إلا أن مملكة بيت المقدس الصليبية تمتعت بأولوية ظاهرة ، وذلك بحكم أوضاعها الدينية والتاريخية . ويكفى أن المسيحيين جميعاً نظروا إليها على أنها مدينة المسيح وبها كنيسة القيامة ، مما جعلها مقصد الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحي <sup>(٢)</sup> .

والواقع إن الفضل في بناء مملكة بيت المقدس الصليبية التي قامت في أواخر القرن الحادى عشر ، إنما يرجع إلى الملوك الستة الأوائل الذين تعاقبوا على عرش تلك المملكة ، والذين حملوا أسماء بلدوين وفولك وعمورى . وقد رأينا كيف أن بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ — ١١١٨) جمع من الصفات السياسية والحربية والخاصة والعقلية ، ما جعل منه حاكماً ناجحاً ، استطاع أن يرسى الدعائم الأولى التي قامت عليها مملكة الصليبيين في بيت المقدس . وقد شاء حسن حظ تلك المملكة أن يخلف بلدوين الأول مجموعة من الملوك عرفوا جميعاً بالقدرة والكفاية والحرص على الصالح الصليبي العام بالشام ، وهم بلدوين الثانى ، وفولك الأنجوى ، وبلدوين الثالث ، وعمورى الأول ، وأخيراً بلدوين الرابع (١١٧٣ — ١١٨٥) <sup>(٣)</sup> . ومصدر نجاح هؤلاء الملوك جميعاً هو مقدرتهم على استغلال الظروف ، واختيار الرجال ، والإفادة من المنافسات والحزازات بين الترك والعرب ، وبين السنة والشيعية ، وبين حكام حلب وحكام دمشق . هذا فضلاً عما لجأ إليه بلدوين الثانى من مخالفة الباطنية ، وتمكين تلك الفرقة الهدامة من إشاعة الفوضى في المجتمع الإسلامى بالشام ، وقتل جماعة من أعلام المجاهدين <sup>(٤)</sup> .

(1) Longnon : Les Francais d'Outremer au Moyen Age p. p. 108—109.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 197—199.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. XIV.

(4) Setton : op. cit; I, p. p. 119—120.

## نظم الحكم والإدارة .

وقد طبق الصليبيون بالشام كثيراً من النظم الإقطاعية التي خبروها وعاشوا في ظلها في الغرب الأوربي قبل حضورهم إلى الشرق .

ففي مملكة بيت المقدس كان الملك على رأس الهرم الإقطاعي وتتألف أملاكه الخاصة (الدومين) من ثلاث مدن رئيسية هي بيت المقدس وعكا و نابلس ، ثم أضيف إليها الداروم بعد ذلك <sup>(١)</sup> . وكان يلي الملك أربعة من كبار الأمراء — أشبه بالدوقات في الغرب — هم أمراء يافا والجليل وصيدا وشرق الأردن — ؛ ولكل واحد من هؤلاء الأمراء الأربعة الكبار موظفوه وإدارته ، أشبه بالملك نفسه ، ولكن على مقياس أصغر . وبعد ذلك جاءت مجموعة الأمراء الذين حكموا بقية مدن المملكة ، وعددهم حوالي اثني عشر أميراً أهمهم أمير قيسارية وأمير تبنين <sup>(٢)</sup> وكان على كل فصل من أولئك الأمراء — الكبار والصغار — أن يعترف بالتبعية لسيده الإقطاعي ، ويقدم له الخدمة العسكرية والفرسان المحاربين ، وفقاً للقواعد والأصول الإقطاعية . هذا مع ملاحظة أن الخدمة العسكرية لم تكن محدودة في بلاد الشام بموسم معين أو أيام معدودة في السنة ، كما هو الحال في الغرب الأوربي ، وإنما تطلبت ظروف إقامة الصليبيين في الشام ، وما كان بينهم وبين المسلمين من حروب شبه مستمرة ، أن تكون الخدمة الحربية غير مشروطة إلا من ناحية عدد الفرسان الذين يقدمهم الفصل لسيده الإقطاعي في الحرب <sup>(٣)</sup> .

وكان إقطاع كل أمير ووحدة ممتلكاته من الأرض — مدينة وأعمالها أو حصن

(1) Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem, p. p. 71 — 72.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 302.

(3) من ذلك أن أمراء يافا وصيدا والجليل كان على كل منهم أن يقدم للملك مائة فارس كاملي المعدة في وقت الحرب ، في حين كان على أمير شرق الأردن تقديم ستين فارساً فقط .

أو عدة قرى متلاصقة مثلاً — إلا في حالة أراضي الكنيسة التي آلت إليها عن طريق الإحسان ، أو أراضي هيئات الفرسان — وبخاصة الاستبارية والداوية — التي آلت إليهم عن طريق الفتح والغزو ، فكانت متناثرة في مختلف أنحاء الشام . أما الموارد المالية التي عاش عليها الملك والأمراء فكانت عديدة ، منها ما يتحصل من السلب والنهب عن طريق الإغارة على القرى والضياح والقوافل الإسلامية ، ومنها ما يتحصل من الحقول والمزارع التابعة للصليبيين والمحيطه بهم ؛ وأهمها الضرائب العديدة التي فرضت على الصادرات والواردات والمبيعات والمشتريات ، فضلاً عن الحجاج والموانئ والسفن <sup>(١)</sup> .

أما عن دستور مملكة بيت المقدس فأول ما نلاحظه عليه أنه لم يكن ثابتاً على حال واحد ، وإنما تعرض لكثير من التغيير والتبديل حسب الظروف . ويبدو مما كتبه المتأخرون أن ملك بيت المقدس — على الرغم مما تحقق له من سيادة على أمراء أنطاكية وراهبا وطرابلس — إلا أنه كان محدود السلطان في مدينته أمام سطوة الدين ورجال الدين ، إذ لا ينبغي للملك أن يرفع رأسه في مدينة المسيح . وأمل هذا هو السبب الذي جعل أمراء الحملة الصليبية الأولى — واحداً بعد آخر — يرفضون شرف تولي حكم مدينة بيت المقدس بعد أن فتحها الصليبيون سنة ١٠٩٩ ، حتى إذا ما قبل جودفري ذلك المنصب بعد ضغط شديد ، اشترط عدم تنويجه ملكاً ، اعتقاداً منه بأنه لا يجوز أن يقوم ملك في مدينة المسيح <sup>(٢)</sup> .

وبينما كان أمراء أنطاكية وطرابلس يتوارثون منصب الإمارة وفقاً للقانون الإقطاعي المعروف في الغرب ، إذا بالملكية في بيت المقدس تظل

(1) Runciman : op. cit, II, p. 298

(2) Cam Med. Hist, vol. 5, p. 300



انتخابية من ناحية المبدأ ، وإن كان أمراء المملكة قد أخذوا بعد ذلك بالمبدأ الوراثي ، كما حدث عند تولية بلدوين الرابع ملكاً سنة ١١٧٤ وهو في الثالثة عشر من عمره بعد وفاة أبيه<sup>(١)</sup> . ومهما تعددت سلطات الملك ، فإنه كان مقيداً في كثير من المسائل برأى أمراة فضلاً عن رأى المحكمة العليا ؛ فكان مثلاً لا يستطيع أن يعزل أميراً من إقطاعه إلا بموافقة تلك المحكمة .

وكانت تلك المحكمة العليا في أساسها هيئة قضائية ، ولكن لم يلبث أن اتسع اختصاصها فأصبحت بمثابة هيئة تشريعية لا بد من موافقتها على أى قانون أو تشريع جديد في المملكة ، فضلاً عن الفصل فيما ينشأ بين الأمراء بعضهم وبعض من خلافات ومنازعات ، أو ما يرتكبونه من مخالفات وجرائم<sup>(٢)</sup> . وفوق هذا وذاك ، فقد كان لتلك المحكمة رأى مسموع في توجيه السياسة الدائمة للمملكة ، لأن المحكمة العليا تألفت من أفصال الملك المباشرين — وهم كبار الأمراء — فضلاً عن أنها ضمت ممثلين للكنيسة من كبار رجالها ، وممثلين للجنابيات الأجنبية التي امتاكت أراضي ومدن في المملكة — مثل البنادقة والجنوية والبيزانة — وممثلين لهيئات الفرسان ، مثل الإسبتارية والناوية . ومن الواضح أن ملك بيت المقدس كان لا يستطيع أن يتخذ قراراً سياسياً خطيراً دون الرجوع إلى رأى جميع الفئات السابقة<sup>(٣)</sup> .

وبالإضافة إلى المحكمة العليا التي اختصت بالتشريع والسياسة العليا للمملكة ، والمنازعات والمخالفات بين النبلاء بعضهم وبعض ، وجدت محاكم أخرى في مملكة بيت المقدس تعددت اختصاصاتها وتنوع نشاطها . من هذه المحاكم مثلاً تلك

(١) Roussel : Hist. des Croisades, II, p. 609

(٢) Longnon · op. cit. p. 137.

(٣) Runciman : op. cit; II. P. P. 300 - 301

التي أطلق عليها اسم المحاكم البورجوازية Cours des bourgeois ، وهي خاصة بالفرنجة من غير النبلاء - أى عامة الفرنجة من البورجوازيين - وتفصل فيما يجرى بينهم من معاملات مالية ومدنية فضلاً عما صار لها من نفوذ في القضايا الجنائية<sup>(١)</sup> . وقد قامت هذه المحاكم البورجوازية في كل مدينة من المدن الصليبية الكبرى ، وتولى رأسها فيكونت المدينة يساعده إثناعشر محلفاً يختارهم الأمير الذي تتبعه المدينة . أما المدن الإيطالية أو التي كان للتجار الإيطاليين أحياء بها ، فقد ظهر بها نوع آخر من المحاكم ذات الطابع التجاري : النوع الأول هو محاكم المدن Cours de la fondre وقد قامت في المدن ذات النشاط التجاري ، والنوع الثاني محاكم الموانئ والسفن Cours de la chaine وقد قامت في الموانئ البحرية ، ويتولى رأسها جميعاً القناصل أو وكلاؤهم<sup>(٢)</sup> .

هذا عن المحاكم ، أما الجهاز الإداري في المملكة فكان يشرف عليه مجموعة من كبار الموظفين ، أولهم القهرمان Seneschal وكان يشرف على الاحتفالات الكبرى وعلى الشؤون المالية والخزانة ؛ ويأتى بعده كند اسطبل المملكة Constable وهو قائد الجيش تحت رئاسة الملك العليا ، ويشرف على كل ما يتعلق بتنظيماته وإمداداته ، ويساعده المارشال . وبعد ذلك يأتى الياور Chamberlian ويشرف على القصر الملكي وعلى مالية الملك الخاصة . وهكذا تعدد الموظفون في مملكة بيت المقدس بتعدد الاختصاصات واتساع النشاط الإداري<sup>(٣)</sup> .

ومع أنه لم يصلنا الكثير عن النظم التي كانت سائدة في إمارة الرها ، إلا أنه بدراسة ما وصلنا من نظم إمارتي أنطاكية وطرابلس يمكننا القول بأن

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p 283.

(٢) باركر : الحروب الصليبية ص ٧٨ — ٧٩ .

(3) Runciman : op. cit. II. p. p. 303 - 304.

الإمارات الصليبية شابهت مملكته بيت المقدس في نظمها القضائية والإدارية مع بعض الاختلافات المحلية البسيطة التي نتجت عن الظروف التي أحاطت بكل إمارة من ناحية والعناصر البشرية التي تألفت منها الإمارة من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>. فإمارة الرها مثلاً أدى تطرفها في الشمال الشرقي ، وإحاطة الأرمن والأتراك بها ، وبعدها نسبياً عن التيار الصليبي العام في بلاد الشام ، إلى وقف تطورها الدستوري وإلى اعتماد أمرائها على نسبة كبيرة من الموظفين الأرمن الذين تأثروا بالنظم البيزنطية<sup>(٢)</sup>. وفي إمارة أنطاكية أيضاً نجد روح النورمان ونزعتهم الاستبدادية ورغبة أمرائها في كبت أية معارضة من جانب كبار النبلاء في الإمارة ، كما نجد التأثيرات البيزنطية تبدو في بعض النظم والتشريعات لاسيما تلك الخاصة بالضرائب<sup>(٣)</sup>.

وهكذا كان من المتعذر على الصليبيين أن يتجاهلوا في نظمهم بالشام آثار البيئة والظروف التي أحاطت بهم .

### الكنيسة والرهبات الدينية :

كان من الطبيعي أن يكون للكنيسة أهمية كبرى في مجتمع ادعى أنه قام على أساس الدين ، وزعم أنه يسعى لتحقيق أهداف دينية . ومهما تكن الأسباب التي دفعت البابوية إلى الدعوة للحروب الصليبية ، فالهم هو أن قيام البابوية فعلاً بتلك الدعوة جعل لها هيمنة عليا على الحركة الصليبية من أولها لآخرها ، وعلى الصليبيين جميعاً بالشام ، الكبير منهم والصغير<sup>(٤)</sup>.

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 304.

(2) Longnon : op cit, p 137.

(3) Runciman : op. cit, II, 306—307.

(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. 295.

وإذا كان الملك بيت المقدس نفسه ثمة رئيس أو سيد ، فإن هذا الرئيس كان البابا في روما . وقد سبق أن أوضحنا كيف كان من المتوقع أن تقوم حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس لولا وفاة أدهار المنسوى البابوي في الحملة الصليبية الأولى ، ثم سوء سيرة دايمبرت . هذا إلى أن البابوية رأت من صالحها عدم قيام حكومة دينية في بيت المقدس ، لأن ظهور أحد رجال الدين الأقوياء في مدينة المسيح معناه قيام بابوية جديدة في الشرق ، وفي تلك الحالة يستطيع البابا الجديد في بيت المقدس أن يطالب - بوصفه خليفة المسيح في مدينته - بالسيادة على بابا روما ، الذي لن ينفعه عندئذ أنه خليفة القديس بطرس في كنيسته . ولعل هذه المخاوف هي التي جعلت بابوات روما يؤيدون دايمبرت في خلافه مع ملك بيت المقدس ، ولا يشجعون بأى حال قيام حكومة ثيوقراطية في الأراضى المقدسة<sup>(١)</sup> .

ولعل أول ما يسترعي انتباهنا عن الكنيسة في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية هي أنها فازت بنصيب الأسد ، إذ أنها ربحت كثيراً ولم تفقد سوى القليل . فعند دخول الصليبيين إلى الشام طردوا رجال الدين الأرثوذكس ، واستحوذ أخوانهم الكاثوليك على كل شيء ليظهروا جشعاً كبيراً في امتلاك الأراضى والأموال ، عدا الهبات والهدايا التي انهارت عليهم<sup>(٢)</sup> . وهكذا تميزت الأديرة والسكناس التي أقامها الصليبيون بالشام بوفرة ثروتها واتساع أملاكها التي لم تقتصر على بلاد الشام ، بل امتدت إلى القارة الأوروبية نفسها . ويسكن أن نعرف أن أحد تلك الأديرة - وهو دير جبل صهيون في بيت المقدس - امتلك سنة ١١٧٨ حياً بأكمله في مدينة القدس ذاتها مع تمتعه بحق فتح بوابة في أسوار المدينة . وكانت لذلك الدير أيضاً ممتلكات وأراضى وبساتين وأسواق في عسقلان ويافا ونابلس وقيسارية وعكا وصور وأنطاكية وقيليقية ؛ بل إن

(1) Setton : op. cit. I, p. p. 379 - 383.

(2) Longnon : op. cit. p. 133.

بعض الخيرين من حجاج بيت المقدس وهبوا ذلك الدير بعد عودتهم إلى أوروبا ضياعاً وأملاً كما فصارت له ممتلكات في صقلية وإيطاليا فضلاً عن فرنسا<sup>(١)</sup>. وهذا مثل واحد من أمثلة كثيرة يضيق المقام عن ذكرها ، وإنما سقتناه لتأخذ فكرة عامة عن مدى ثروة الكنيسة ومؤسساتها في الشام على عصر الحرب الصليبية . ويبدو أن تلك الثروة الطائلة التي تمتعت بها المؤسسات الدينية ، أثارت حقد البلاء في بلاد الشام ، لاسيما وأن ممتلكات الكنيسة معفاة من الضرائب ، كما كان رجالها معفيين من الخدمة العسكرية ، مما جعل النبلاء والفرسان يشعرون أن الكنيسة ورجالها يتضخمون على حسابهم ويجمعون الأموال والثروات ، في الوقت الذي يتحملون هم المغارم وعبء الدفاع عن السكبان الصليبي بأجمعه في بلاد الشام .

أما عن التنظيم الكنسي في بلاد الشام ، فيلاحظ أن الوضع جرى منذ القرن الرابع للميلاد على أن يكون بتلك البلاد كرسيان بطرقيان كبيران ، أحدهما في بيت المقدس والآخر في أنطاكية ؛ وقد استمر هذا الوضع سائداً في العصر الصليبي . أما بطرقي بيت المقدس فتدضعف مركزه أمام الملك بعد النشل الذي منى به دايمبرت . وعندما يخلو منصب بطرقيّة بيت المقدس ، كان رجال البطرقيّة ينتخبون اثنين للمنصب ، يختار الملك أحدهما . ويتبع بطرقي بيت المقدس خمسة من رؤساء الأساقفة في صور ، وقيسارية ، والناصرية ، والكرك ، وبصرى . ويتبع هؤلاء تسعة أساقفة<sup>(٢)</sup> . أما بطرقي أنطاكية ، فكانت تتبعه كنائس أنطاكية وطرابلس والرها ، بمعنى أنه كان يتبعه رؤساء أساقفة طرابلس وأنطاكية وطوس وجبلّة والبارّة وطرسوس والمصيصة فضلاً عن الرها<sup>(٣)</sup> .

(1) Thompson : op. cit, p. 406.

(2) Richard : Le Royaume Latin, p. 98.

(3) Runciman : op cit; II p, p. 311-312.

وقد شهدت بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية عديداً من الهيئات الدينية ، أهم ما يعنينا منها هيئات الفرسان ، وبخاصة الاسبتارية والداوية . وقد أشرنا في موضع آخر إلى نشأة هاتين الهيئتين . ويهمننا في هذا المقام أن نؤكد نموها السريع في القرن الثاني عشر وازدياد أملاكهما عن طريق الهدايا والهبات والغزو والنهب ، حتى صارتا على درجة خطيرة من القوة والثروة واتساع النفوذ<sup>(١)</sup> . والواقع أن منظمتي الداوية والاسبتارية سدتا فراغاً ضخماً في حياة الصليبيين بالشام . فمن الناحية الروحية ، كان هنالك كثيرون من الأتقياء الذين عز عليهم أن تحرمهم حياة الزهد والعبادة في ظل الكنيسة أو الدير من المشاركة في محاربة المسلمين ، وهؤلاء وجدوا ضالتهم في تلك المنظمات التي جمع أفرادها بين حياة المتعبد وحياة المحارب . ومن الناحية السياسية قام فرسان الاسبتارية والداوية بمجهود ضخم في حماية الكيان الصليبي بالشام والزود عنه ، وفي محاربة المسلمين وغزو بلادهم ودفع هجماتهم ، في وقت قل عدد المحاربين الصليبيين بالشام نتيجة المرض والوفاة أو العودة إلى الغرب الأوربي<sup>(٢)</sup> . ويشهد تاريخ الحروب الصليبية بالشام على أن فرسان الداوية والاسبتارية كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال وأصلبهم عوداً وأكثرهم صبراً وشجاعة ، وأنه لولا ما قام به أولئك الفرسان من جهود حربية لانهى أجل الكيان الصليبي بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر بمدة طويلة<sup>(٣)</sup> .

ومن الواضح أن نشاط هيئات الفرسان بالشام في عصر الحروب الصليبية لم يقتصر على مأسهموا به من جهد حربي ، وإنما قاموا أيضاً بمجهود كبير في ميدان الخدمة الاجتماعية . من ذلك أن ملجأ الاسبتارية في بيت المقدس كان يتسع

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 291-292.

(2) Cam. Med. Hist. vol.5, p. p. 305-306.

(3) Runciman : op. cit, II, p. 312.

لألف حاج ، فضلا عن الشفى الكبير المخصص لعلاج المرضى والعناية بهم<sup>(١)</sup>. وكان الاستبارة والدواية يوزعون صدقات يومية، على فقراء الصليبيين والمعوزين منهم ، وبلغت هذه الصدقات درجة من السخاء أثارت انتباه الزوار والأغراب. وبالإضافة إلى كل ذلك قام أولئك الفرسان بحراسة طرق الحجاج من يافوعكا إلى بيت المقدس ، وبذلوا فى ذلك جهدا استحق شكر المعاصرين. أما عن نشاطهم المالى والمصرفى فقد بدأ بتقديم تسهيلات ائتمانية للحجاج الوافدين من الغرب ، ولم يتخذ هذا النشاط شكلا استقلالياً إلا بعد ذلك فى أواخر العصر الصليبي، مما أثار ضدهم سخط الكثيرين<sup>(٢)</sup>.

على أن هذه المزايا الضخمة التي حققها هيئات الفرسان الصليبيين قبالها مطالب كثيرة ترتبت على وجودهم . ذلك أن هذه الهيئات كانت مستقلة تماماً في بلاد الشام عن كل نفوذ سياسي، ولا تعترف بالتبعية إلا للبابا في روما مباشرة، مما جعل منها دولة داخل الدولة . وكثيراً ما نجد إحدى الهيئتين تتخذ لنفسها سياسة خاصة معينة في مشكلة من المشاكل ، أو تعتمد صلحاً أو هدنة مع المسلمين دون أن ترتبط أو تتقيد بالسياسة العامة للدولة الصليبية . هذا إلى أنها - مثل الكنيسة - تمتعت بأموال واسعة ، فلم تمتلك ضياعاً وأراضى وأسواقاً ومراعى ومواشى فحسب ، بل امتلكت أيضاً كثيراً من المدن والحصون والقلاع ، وتعهدت بالدفاع عنها ضد المسلمين . ولا شك في أن هذه الممتلكات جاءت على حساب حقبة الفئات الصليبية بالشام (٣) .

(1) King: The Knights Hospitallers, p. p. 64-67.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا الحصور الوسطى ج ١ ص ٢٨٢-٢٨٣

(2) Thompson, *op. cit.*, p. 407.

## الحياة الاقتصادية

امتازت حياة الصليبيين في بلاد الشام بنشاط اقتصادى واسع ، وإن كان الصليبيون أنفسهم لم يسهموا في ذلك النشاط إلا بقسط ضئيل <sup>(١)</sup> . والمعروف أن معظم الأجزاء التي احتلها الصليبيون من الشام وأقاموا فيها مدة طويلة ، فقير مجذب ، حتى أنهم اضطروا عندما انكشفت رقعة بلادهم في المدن الساحلية إلى استيراد القمح من خارج بلاد الشام . ومع ذلك فإن سفوح الجبال والمروج هيأت لهم مراعي طيبة ، فضلا عن بساتين الفاكهة ومزارع الزيتون والخضروات التي أحاطت بالمدن . ومن الثابت أن الصليبيين شرعوا في تصدير بعض تلك الحاصلات مثل الزيتون والمواالح إلى الغرب . أما قصب السكر فتد عرف الصليبيون زراعته في الشام ، كما تعلموا استخراج السكر منه ، فأقاموا مصانع للسكر في عكا وصور وغيرهما من موانئ الشام ، ومنها صدروا السكر بكميات كبيرة إلى الغرب الأوربي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر <sup>(٢)</sup> . كذلك صدر الصليبيون بالشام الأقمشة والملابس الحريرية والتيلية والخملى إلى الغرب . واهتم اليهود في المدن الصليبية — وبخاصة في صور وأنطاكية — بإنتاج الزجاج وتصديره إلى غرب أوروبا ، وإن تعرضوا في هذه الصناعة لمنافسة شديدة من الزجاج المصدر من مصر .

وكان للملوك الصليبيين وأمرائهم دخل كبير من الرسوم التي فرضوها على تجارة المرور ، أى التجارة المارة ببلادهم من الشرق الأقصى إلى الغرب الأوربي ، عن طريق بغداد ودمشق وعكا وغيرها من الموانئ الصليبية . هذا فضلا عما فرضوه على البضائع الواردة إلى بلادهم والمصدرة منها إلى الغرب . ومن الواضح أن الجزء الأكبر من ذلك النشاط التجارى تركز في قبضة التجار الإيطاليين ، وبخاصة

(1) Longnon : op. cit, p. 141.

(2) Heyd : op cit, II, p. p. 680-686.



البنادقة والبيازنة والجنوية ، وهم الذين امتلكوا أحياء بأكملها في كثير من المدن الصليبية بالشام ، وأنشأوا فيها فنادق خاصة بتجارهم ، زدوها بكل ما يجعل الواحد منهم يشعر أنه يعيش في بلده الأصلي<sup>(١)</sup> .

وقد برزت عكا بالذات في النشاط التجارى للصليبيين ببلاد الشام ، وهو النشاط الذى بلغ ذروته في أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر . فابن جبير قال عن عكا عندئذ إنها « قاعدة الإفرنج بالشام ومحط الجوارى المنشئات في البحر كالأعلام » وشبهها بالتسطنطينية في كونها مجتمع السفن « وماتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق »<sup>(٢)</sup> . ذلك أن عكا كانت الميناء لطبيعى لإقليم دمشق ، وإليها يتجه التجار الوافدون من اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية إلى الشام . وقد حكى ابن جبير أنه سافر من دمشق سنة ١١٨٤ « في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلم إلى عكة » ؛ وأشار إلى أن مثل هذه القوافل كانت كثيرة ، كما أظهردهشته لسهولة الإجراءات المتعلقة بالمكوس<sup>(٣)</sup> . هذه إلى أن الحجاج الوافدين من غرب أوربا إلى الشام كانوا يفضلون عادة النزول بعكا بالذات ، ومنها يتجهون إلى بيت المقدس وغيرها من المراكز الصليبية في الداخل .

ومع ذلك فإن صغر ميناء عكا وعجزه في كثير من الحالات عن استقبال عدد كثير من السفن الكبيرة ، جعلها تتعرض لمنافسة شديدة من جانب ميناء صور ، فضلا عن الموانئ الأخرى في شمال الشام ، مثل اللاذقية والسويدية<sup>(٤)</sup> . وهنا نلاحظ أن هذه الموانئ الصليبية لم تستقبل التجار المسلمين فحسب ، بل

(1) Richard : p. cit, I, p. 217-227.

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧٦ ( طبعة بيروت ) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 319-320.

استقبلت أيضاً في عصر الحرب الصليبية كثيراً من التجار المسلمين ، وبخاصة من المغاربة الذين أتوا عن طريق البحر ، وقاموا برحلات داخل الشام حتى دمشق يقصد المتاجرة<sup>(١)</sup> . وكان للتجار المسلمين خانات ينزلون بها في الموانئ الصليبية . وأخيراً ، فإننا نلاحظ على النشاط الاقتصادي في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية عدة ملاحظات نوجزها فيما يلي : —

أولاً : أن السلع التجارية التي كانت محوراً للتجارة عندئذ معظمها يدخل تحت باب الكاليات ، مثل الأقمشة الشرقية الفاخرة والحجارة الثمينة والزجاج المزخرف والعاج والطور وغيرها .

ثانياً : أن النقود المتداولة في بلاد الشام عندئذ تنوعت وتباينت تبايناً شديداً ، لا يقل عن تنوع العناصر والأجناس التي اجتمعت في تلك البلاد . فبالإضافة إلى العملات الغربية التي أحضرها معهم التجار والحجاج الوافدون من غرب أوروبا ، ظلت النقود العربية الإسلامية والنقود البيزنطية متداولة أيضاً في بلاد الشام طوال العصر الصليبي<sup>(٢)</sup> .

ثالثاً : أن ملوك بيت المقدس لم يستفيدوا كثيراً من ذلك النشاط الاقتصادي المحيط بهم في بلاد الشام . حقيقة إنهم فرضوا كثيراً من الضرائب على الصادرات والواردات ، وعلى القوافل المارة بأراضيهم ، فضلاً عن الاحتكارات التي حاكي فيها ملوك بيت المقدس النظم البيزنطية<sup>(٣)</sup> . ولسكن أولئك الملوك دأبوا دائماً

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ .

وقد أظهر ابن جبير دهشته من أن التبادل التجاري يتم بين المسلمين والصليبيين رغم ما بينهما من حروب ، وأن القوافل تنقل بين أراضي الطرفين في سهولة ، فقال : « ومن أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسببهم يدخل إلى بلاد المسلمين » .

انظر رحلة ابن جبير ص ٢٨٠ ( طبعة بيروت ) .

(2) Thompson : op. cit, p. p. 404-405.

(3) Longnon : op. cit, p. 140.

على توزيع تلك الموارد على الكنيسة وهيئات الفرسان ، فكان ريع الضريبة الفلانية يخصص لمساعدة الاستبائية ، وريع المكس الفلاني يخصص للدواية ، ودخل ميناء كذا يخصص للكنيسة الفلانية أو الدير الفلاني . . . . . مما حرم الملكية نفسها من ثروة طائلة . هذا وإن ظل ملوك بيت المقدس أوفر ثروة وأحسن حالا بكثير من بعض ملوك الغرب الأوربي في ذلك الوقت<sup>(١)</sup> .

### الحياة الاجتماعية :

لعل الخلل الاجتماعي وعدم وجود انسجام بين الطبقات المختلفة التي تألف منها المجتمع الصليبي في الشام ، كان من العوامل الرئيسية التي أدت إلى ما لحق بالصلبيين من فشل في نهاية الأمر . ذلك أن الصليبيين الغربيين الذين عاشوا في بلاد الشام ، ظلوا دائماً قلة قليلة ، بعد أن عادت نسبة كبيرة ممن شاركوا في الحملة الصليبية الأولى إلى بلادهم بعد فتح بيت المقدس ، في حين تألفت الغالبية العظمى من سكان دولة الصليبيين بالشام من المسيحيين الشرقيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم . وإذا كانت الأقلية الغربية قد استطاعت أن تحتفظ بنفوذها السياسي في بلاد الشام ، وتجعل من نفسها أرستقراطية حاكمة ، فإنها لم تستطع مطلقاً أن تحتفظ بعاداتها وتقاليدها وأصولها الغربية سليمة نقية ، وإنما اضطرت بحكم قلة عددها وسط محيط شرق واسع أن تفقد كثيراً من صفاتها الأصلية وتكتسب الكثير من التعديلات الجديدة<sup>(٢)</sup> .

ونستطيع أن نحدد الطبقات التي تألف منها مجتمع دولة الصليبيين بالشام على عصر الحروب الصليبية بما يأتي —

(1) Thompson : op. cit, I, p. 406.

(2) Richard : op. cit, p. 122.

(١) الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان ، وهؤلاء كانوا قلة إذ لم يزد عددهم في مملكة بيت المقدس عن ألف من الرجال ومثلهم من النساء والأطفال ، ومثل ذلك العدد أيضاً في إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس مجتمعين . وقد ظلت الطبقة التي كان مفروضاً أن تظل بمثابة العمود الفقري لهذه المجتمع الصليبي بالشام — تعاني نقصاً كبيراً في العدد بسبب كثرة الضحايا في الحرب ، وقلة الوارد من الغرب<sup>(١)</sup> . حقيقة إن جموع الحجاج لم ينقطع وصولهم إلى الشام منذ سقوط بيت المقدس ، ولكن قليل من هؤلاء اختاروا الإقامة في الشام بعد الحج ، وكانت الغالبية العظمى منهم تؤثر العودة إلى غرب أوروبا . ثم إنه إذا كان الصليبيون قد انجذبوا كثيراً من الأطفال في الشام ، فإنه لم يعيش من تلك الذرية سوى نسبة ضئيلة بسبب العوامل الجوية والصحية التي لم يألّفوها . وأخيراً فإنه يلاحظ إنه إذا كانت هذه الأرستقراطية الصليبية الحاكمة قد ظلت تقيم في مملكة بيت المقدس ، فإن الأمر في أنطاكية والرها لم يظل كذلك ، إذ تزوج بعض نبلاء الصليبيين وفرسانهم من الأرستقراطية المحلية ، وبخاصة من عنصر الأرمن<sup>(٢)</sup> .

(٢) طبقة عامة المحاربين من الصليبيين ؛ وهؤلاء عبارة عن عامة الصليبيين الذين لم ينتموا إلى الفرسان والنبلاء ، والذين شاركوا في الحركة الصليبية . وكان هؤلاء العامة من الصليبيين الغربيين يؤلفون فرق المشاة في الجيش الصليبي ، واضطروا بعد استقرارهم بالشام إلى التزاوج مع المسيحيين الشرقيين المحليين — وبخاصة الأرمن — ؛ مما أدى قرب منتصف القرن الثاني عشر إلى ظهور طبقة جديدة هي :

---

(1) Longnon : op. cit, p. p. 153 - 155.

(٢) وخير مثل لذلك ما سبق أن أشرنا إليه من زواج أمراء الرها — بلديين الأول وجوسلين — من أرمنيات .

(٣) طبقة الأفراخ pullani ؛ وهؤلاء نتاج التزاوج بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين الشرقيين المحليين ، من أرمن وسريان وغيرهم . ومن الواضح أنه مع مرور الوقت حلت هذه الطبقة الجديدة محل الطبقة السابقة ، وقامت بدورها في خدمة المجتمع الصليبي بالشام <sup>(١)</sup> .

(٤) طبقة المسيحيين المحليين من أرمن وموارنة وبيزنطيين وسريان ويعاقبة وأقباط وغيرهم . وقد احتقر الصليبيون الغربيون هؤلاء المسيحيين الشرقيين عموماً ، وأحسوا نحوهم بالكراهية نتيجة للخلافات المذهبية . ولعله من الواضح أن فئة البيزنطيين أو اليونانيين كانوا أبغض فئات المسيحيين الشرقيين إلى الصليبيين ، بسبب التخوف دائماً من تأمرهم مع الإمبراطورية البيزنطية ضد مصالح الصليبيين . ومع ذلك فإن الصليبيين لم يطردوهم أو يقضوا عليهم — كما فعلوا مع اليهود — وإنما استبقوهم لمهارتهم اليدوية وقيامهم بالخدمات والأعمال الحثيرة ، التي أنف الصليبيون الغربيون من القيام بها . أما الأرمن فقد كانوا أحسن حالا ، وشجعهم ملوك بيت المقدس على الهجرة إلى أراضي المملكة ومدنها لتعميرها بعد أن هجرتها نسبة كبيرة من سكانها المسلمين . كذلك نسمع عن تولى الأرمن بعض الوظائف الهامة في الدويلات الصليبية بالشام ، فضلاً عما كان هناك من تزاوج بينهم وبين الصليبيين الغربيين <sup>(٢)</sup> .

(٥) التجار الإيطاليون ، وهؤلاء تركزوا في المدن الصليبية وبخاصة المواف الساحلية ، مثل يافا وعكا وقيسارية وأرسوف وصور وبيروت وطرابلس وجبيل واللاذقية والسويدية . وقد ظل هؤلاء التجار يكونون طبقة مستقلة قائمة بذاتها ،

---

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 315 - 316.

(2) Thompson : op. cit, pp. 398 - 399.

يتكلمون الإيطالية ، ولا يختلطون بغيرهم إلا في نطاق المعاملات المالية والتجارية. ويشبه التجار الإيطاليين في وضعهم تجار مرسلين في عكا وبافا وصور وجبيل، وتجار برشلونة في صور (١).

(٦) المسلمون : وهم أهل البلاد الأصليون ، وسكان المدن والبلاد التي احتلها الصليبيون . ومع أن بعض تلك المدن هجرها أهلها من المسلمين عقب الغزو الصليبي ، إلا أنه لا يخفى علينا أن نسبة كبيرة من المسلمين ظلت قائمة وسط المجتمع الصليبي وتؤثر فيه (٢). ومن أهم الجاليات الإسلامية التي ظلت باقية رغم احتلال الصليبيين لبلادها ، الجالية التي سكنت المنطقة الممتدة من بانياس إلى عكا ، والجالية القائمة في حوض نهر العاصي وسهل البقاع . يضاف إلى هؤلاء قبائل البدو الرحل الذين ظلوا يفتلون خلف المرعى من مكان إلى آخر ، معهم قطعانهم من المواشي ، ويتميزون أية فرصة مناسبة للانقضاض على قوافل الصليبيين وممتلكاتهم (٣).

(٧) الرقيق والأقنان : كان لا يمكن للصليبيين بالشام أن يستغنوا عن الرقيق والأقنان ، بعد أن اعتادوا في الغرب وجود تلك الطبقة ليعمل أفرادها في فلاحه الأرض وغيرها من الأعمال الشاقة . وكانت الغالبية العظمى من الرقيق في الشام — على عصر الحروب الصليبية — من الأقنان . وإذا كانت أوضاع العبيد والأقنان قد أخذت تتحسن في القرن الثاني عشر في الغرب الأوربي ، وأصبح في استطاعة كثيرين منهم أن يتحرروا ويمارسوا حقوقهم المشروعة في الحياة (٤) ، فإن الوضع لم يكن كذلك ببلاد الشام . ذلك أن العبيد والأقنان

(1) Runciman : op. cit, II. p- 294.

(2) Richard : Le Royaume Latin. p. p. 123-124.

(3) Thompson : op. cit, p. 398.

(٤) سمعنا عبد الفتاح عاشور : أودبا في العصر العباسي . ص ٢٠٠

قاسوا الكثير من العنت بسبب تعسف الصليبيين وجورهم في بلاد الشام ، مما جعلهم يترحمون على أيام الحكم الإسلامي<sup>(١)</sup> . وتنص قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية على أن « العبيد والفلاحين والأسرى كالمواشي يخضعون لقانون المبيع والشراء ، وأن للسيد أن يفعل ما شاء بعبيده ! »<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

هذا عن البناء الاجتماعي لدولة الصليبيين بالشام ، ومنه يتضح أن ذلك البناء تألف من طبقات متباينة معظمها غير متآلف مع بعضه البعض ، مما عاد بأوخم العواقب على الصليبيين . وكانت اللغة السائدة بين الصليبيين بوجه عام فرنسية الأصل وإن اختلفت لهجاتها ، فاستخدم الصليبيون في أنطاكية ومملكة بيت المقدس اللهجة الشمالية من اللغة الفرنسية ( *Langue d'oeil* ) ، واستخدم الصليبيون في إمارة طرابلس اللهجة الجنوبية من الفرنسية ( *Langue d'oc* ) أما الأقليات الأخرى التي وجدت داخل المجتمع الصليبي ، فاستخدم كل منها لغته الخاصة . ويشهد عصر الحروب الصليبية بالذات على انسياب بعض الألفاظ العربية في اللغات الأوروبية ، وهي ألفاظ اضطر الصليبيون إلى استخدامها بحكم البيئة<sup>(٣)</sup> .

أما العادات والتقاليد ، فإن تناقص أعداد الصليبيين الأصليين في بلاد الشام جعل من المتعذر عليهم الاحتفاظ طويلاً بعاداتهم وتقاليدهم ، القريبة<sup>(٤)</sup> . ويروى لنا أسامة بن منقذ كثيراً من غرائب أخلاق الصليبيين وعاداتهم وتقاليدهم ، وفي الوقت نفسه يحكى لنا كثيراً من القصص الطريفة التي تشهد على مدى تأثير الصليبيين

(1) Thompson : op. cit, I, p, 398.

(2) Besant, Palmer : Jerusalem. p. 226.

(3) Longnon : op. cit; p. p. 155—156.

(4) Runciman : op. cit, II, p. 291.

بالبيئة الشرقية ومحاكاتهم العرب في كثير من عاداتهم<sup>(١)</sup> .

ولم يختلف نظام الأسرة وأوضاعها عند الصليبيين في الشام عما كان عليه الوضع السائد في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى . وكل ما هنالك هو أن طبيعة الحرب الطويلة، ووجود عدد كبير من شباب الغرب الأعزاب الذين طال بعدهم عن بلادهم ، أدى أحياناً إلى شيء من الانحلال الخلقى بين الصليبيين بالشام . وقد ذكر أسامة بن منقذ بضعة ملاحظات على الصليبيين في هذا الشأن فقال : أنه « ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة » ، وقال إن الرجل منهم يمشى هو وامرأة عندما يلتقا صديق له فيأخذ المرأة ويعتزل بها ، ويتحدث معها ، والزوج منتحياً بعيداً ينتظر فراغها من الحديث « فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى !! »<sup>(٢)</sup> .

كذلك يبدو أن الأوضاع التي عاش فيها الصليبيون في الشام أدت إلى ظهور عدة أمراض خلقية ، حتى انحرف بعضهم نحو الشذوذ الجنسي<sup>(٣)</sup> ، الأمر الذي جعلهم ياجأون إلى فكرة جلب نساء من غرب أوروبا وجزائر البحر المتوسط للترفيه عن الجنود المحاربين . من ذلك مايرويه عماد الدين الكاتب والمؤرخ أبو شامة من أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعمكا سنة ١١٨٩ أن « وصلت في مركب ثلثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر ( جزر البحر ) وانتدبن للجزائر ، واغتربن لإسعاف الغرباء ، وقصدن بخروجهن

(١) انظر ما كتبه أسامة بن منقذ عن « طبائع الإفريج وأخلاقهم » .

(٢) كتاب الاعتبار ص ١٣٢ - ١٤١ .

(٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٥ .

(٤) المرجع السابق ص ١٣٦ .



تسبيل أنفسهم للاستقاء ، وأنهن لا يمتنعن عن العزبان ، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان ، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة . . » (١).

---

(١) عماد الدين السكاك : الفتح القسى ١٨٤ ق.  
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٩ .

## الفصل الثاني

### بلدوين الثاني ملك بيت المقدس

#### مخططة الوراثة في مملكة بيت المقدس :

لم يترك بلدوين الأول ملك بيت المقدس ولداً يرثه في الملك ، ولم يعمل حساباً للموت فيوصى في حياته بتعيين شخص معين يتولى عرش المملكة من بعده ، ليتفادى ما حدث في أنطاكية بعد وفاة تنكرد . لذلك اجتمع أمراء المملكة ومعهم البطرق أرنولف مالكورن في اليوم التالي لبحث مشكلة مل العرش <sup>(١)</sup> .

وفي المؤتمر الذي عقده الصليبيون لبحث مشكلة عرش بيت المقدس ، اتجه الرأي أولاً نحو استدعاء الأخ الثالث لجودفري بوايون وبلدوين بوايون ، وهو الأمير إيشتاش البولوني <sup>(٢)</sup> . ولكن البعض اعترض على ذلك الرأي ، ونادى المعارضون بأن أحوال المملكة تتطلب عدم انتظار وصول ذلك الأمير من فرنسا ، فضلاً عن أن المصلحة العامة قضت بأن يكون خليفه بلدوين الأول من الأمراء الذين عاشوا في الوسط الصليبي بالشرق وأحسوا بإحساسات الصليبيين وخبروا حرب المسلمين . وهنا انبرى جوسلين دي كورتناى ينادى بأن هذه الشروط كلها متوافرة في الأمير بلدوين دي بوج أمير الرها ، فضلاً عن أنه ابن عم الملك الراحل ، والوحيد الذي ما زال على قيد الحياة من كبار الأمراء الذين شاركوا في توجيه الحملة الصليبية الأولى <sup>(٣)</sup> .

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 513-516.

(2) Ibid.

(3) Runciman, op. cit., II, p. p. 143-144.

وكان من المستغرب حقاً أن يأتي ذلك الترشيح من جوسلين دي كورتناي بالذات ، وهو الذي طرده بلدوين دي بورج من تل باشر . ولعل جوسلين رأى في ذلك فرصة طيبة لاسترضاء بلدوين دي بورج وإزالة ما في نفسه من رواسب الماضي<sup>(١)</sup> . ثم إن جوسلين دي كورتناي ، صار عندئذ أبرز أمراء مملكة بيت المقدس بوصفه أمير الجليل وطبرية ، فوجد رأيه أذناً صاغية من بقية زعماء الصليبيين ، وبخاصة البطرقي أرنولف . وشاءت الصدف العجيبة أن يكون بلدوين دي بورج في تلك الأثناء في طريقه إلى بيت المقدس للزيارة والحج ، فتم تتويجه ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية في كنيسة القيامة يوم ١٤ أبريل سنة ١١١٨<sup>(٢)</sup> .

ولم يعيش أرنولف مالكورن بطرقي بيت المقدس طويلاً بعد تتويج بلدوين الثاني ملكاً ، فخل محله البطرقي جرموند Germond . أما جوسلين دي كورتناي فقد كافأه بلدوين الثاني على موقعه ووفائه بإعطائه إمارة الرها ، على أن يكون تابعاً له في حكم تلك الإمارة<sup>(٣)</sup> .

وكان أن أخذ بلدوين الثاني يعمل بسرعة في تثبيت سلطانه ، لا داخل مملكة بيت المقدس فحسب ، بل في مختلف الامارات الصليبية ببلاد الشام وشمال العراق . وقد أتت أول عقبة واجهت الملك الجديد من جانب بونز أمير طرابلس ، الذي رفض سنة ١١٢٢ أن يقدم الولاء ويعترف بالتبعية الإقطاعية لبلدوين الثاني ملك بيت المقدس . ولكن بلدوين الثاني اتخذ موقفاً حازماً سريعاً ، لاسيما وأن أراتقة حاب غزوا إمارة أنطاكية — التي كانت عندئذ تحت وصاية بلدوين الثاني — في الوقت نفسه الذي أعلن بونز عصيانه<sup>(٤)</sup> . وبذلك تمكن بلدوين الثاني من

(1) Michaud : Hist des Croisades II, p p. 56—57.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 519.

(3) Stevenson : op. cit, p. 106.

(4) Foucher de Chartres, p. p. 515—516.

إخضاع أمير طرابلس في سرعة ليتفرغ للأرائقة ويردهم عن إمارة أنطاكية ، كما سيلي .

ثم إن بلدوين الثاني حرص في تلك الأثناء على إنعاش الأحوال الاقتصادية في مملكته ، فأصدر قراراً سنة ١١٢٠ بإعطاء جميع الغربيين — من التجار والحجاج والزوار الحرية في نقل البضائع من المملكة وإليها ، كما سمح لجميع المسيحيين الشرقيين — من السريان والأرثوذكس والأرمن — بدخول بيت المقدس والمتاجرة فيها<sup>(١)</sup> .

### الفرسان الاستبارية والداوية :

وفي عهد بلدوين الثاني بدأ نشاط هيئات الفرسان يسترعى الانتباه في الحروب الصليبية ، بعد أن تكونت هيئة الفرسان الداوية ، في حين تحولت الاستبارية من هيئة للعناية بمرضى الصليبيين وعلاجهم إلى منظمة عسكرية .

والواقع إن الهدف الأساسي من قيام هيئات الفرسان — وبخاصة الاستبارية والداوية — بالشام على عصر الحروب الصليبية ، إنما كان العناية بمرضى الصليبيين ورعايتهم . ولكن هذا الهدف لم يلبث أن تحول بعد قليل ، فاتخذت تلك الهيئات طابعاً حربياً ، وصار عليها أن تدافع عن ممتلكات الصليبيين بالشام ، وتحمي أماكنهم المقدسة وتحارب المسلمين ، حتى جاء وقت أصبح فيه الداوية والاستبارية هم حماة السكبان الصليبي بالشام<sup>(٢)</sup> . وساعدت تلك الهيئات على ذلك ما جمعه من ثروة طائلة ، وما استولوا عليه من ممتلكات عديدة ، حتى صارت لهم مدن وحصون ومعقل بأكملها ، يمتلكونها ويزودون عنها .

(1) Guillaume de Tyr, I, p. p. 534—535.

(2) King: The Knights Hospitaliers in the Holy Land, p.I.

وثمة رأى يقول إن جذور هيئة الاسبتارية ترجع إلى ما قبل قيام الحروب الصليبية ، عندما أسس بعض تجار مدينة أمالفي سنة ١٠٧٠ جمعية خيرية في بيارستان قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس ، للعناية بفقراء الحجاج ، ومن ثم أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى Hospitallers التي حرفت بالعربية إلى اسبتارية <sup>(١)</sup> . ولم يلبث أولئك الاسبتارية أن دخلوا تحت لواء النظام الديرى البندكتى المعروف في غرب أوروبا ، وصاروا يتبعون البابا في روما تبعية مباشرة . وعند وصول الصليبيين إلى بيت المقدس وحصارهم لها ، قام أولئك الاسبتارية — بحكم درايتهم بأحوال البلاد — بتقديم مساعدات قيمة للصليبيين <sup>(٢)</sup> . ومنذ ذلك الوقت أخذت هيئة الاسبتارية تقبلور ويصبح لها كيان ثابت مستقل ونظام خاص بها . وقد تعاقب في رئاسة تلك الهيئة بعض الرؤساء المصلحين الذين عملوا دائماً على إكساب منظماتهم أهمية خاصة في النشاط الصليبي <sup>(٣)</sup> . وساعد الاسبتارية على ذلك حصولهم على كثير من الأراضى والإعانات ، فضلاً عن أن كثير من كنائس بيت المقدس خصصت عشر دخلها لمساعدة الاسبتارية على النهوض برسالتهم . وهكذا لم تحل سنة ١١٣٧ إلا وكان للاسبتارية دور فعال في محاربة المسلمين <sup>(٤)</sup> .

أما هيئة الداوية فقد نشأت من أول الأمر على أساس عسكري حربي . ويرجع تأسيس تلك الهيئة إلى سنة ١١١٨ عندما وضع أساسها فارس فرنسي اسمه هيو دى باينز Hugue de Payens . وقد اختار ذلك الفارس جزءاً من هيكل سليمان في المسجد الأقصى ببيت المقدس ليكون مقراً لمنظمته الجديدة ،

---

(1) Delaville Le Roulx : Les Hospitaliers en Terre Saint te en Chypre, p. 29.

(2) Guillaume de Tyr p. p. 822-823.

(3) King: op. cit, p. p. 19-23.

(4) Runciman: op. cit, II, p. 157.

ومن ثم أطلق على أتباعه اسم فرسان المعبد Templars ، التي حرفت في العربية إلى الداوية<sup>(١)</sup> . ولم تلبث هذه الهيئة الجديدة أن تبلورت هي الأخرى ، واتخذت طابعها الخاص ، فذهب رئيسها هيو إلى فرنسا وانجلترا لحث الفرسان على الانضمام لهيئته ، حتى أصبحت هيئة الداوية تضم نخبة ممتازة من الفرسان والنبلاء الذين جمعوا في الأراضي المقدسة بين الحياة الدينية والحياة العسكرية . وكان أول عمل تعهد الداوية بالقيام به هو حماية الطريق بين بيت المقدس وشاطئ البحر ، ثم لم يلبثوا أن أسهموا في كل عمل حربي آخر قام به الصليبيون في بلاد الشام<sup>(٢)</sup> .

ولا شك في أن تأسيس هيئة الداوية من جهة ، وتحول الاستبشارية إلى هيئة عسكرية من جهة أخرى ، قد هيا لمملكة بيت المقدس قوة حربية دائمة ساعدتها في تحقيق كثير من أغراضها . وقد حظيت تلك الهيئات بعطف الملك بلدوين الثاني ومساعدته ، مع أنها ظلت مستقلة عن سلطانه وتتبع البابوية ، لا تدين لغيرها بالولاء<sup>(٣)</sup> . على أننا نلاحظ أنه إذا كانت تلك الهيئات قد استطاعت أن تقوم بدورها كاملاً في أول الأمر ، فإنها لم تلبث أن تحولت عن مبادئها وأغراضها عندما ازدادت امتيازاتها وكثرت ثروتها وأخذت تتدخل فيما لا يعينها . هذا إلى أنها أصبحت كنيسة داخل الكنيسة ، ولم يحجم رؤساؤها عن الدخول في منازعات مع بطرق القسطنطينية نفسه<sup>(٤)</sup> .

### الخصائف بين دمشق والقاهرة :

وكان أخطر ما يهدد مملكة بيت المقدس الصليبية منذ قيامها ، هو نشأة

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 542.

(2) Guillaume de Tyr, p. 520—521.

(3) King ' op. cit, p. p. 31—32.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 544—545.

تحالف بين القاهرة ودمشق ، مما يوقع تلك المملكة بين شقي الرحي ، لذلك حرص بلدوين الثاني على أن يسترضى طغتكين في دمشق ، وأرسل إليه عقب توليه عرش بيت المقدس يطلب تجديد الهدنة بين الطرفين ؛ ولكن طغتكين طلب ثمناً باهظاً لم يوافق عليه بلدوين الثاني « وأظهر القوة » . وكان رد طغتكين على ذلك بمهاجمة الصليبيين في الجليل وطبرية « فنهبها وما حولها » ، ثم اتجه إلى عسقلان (١) .

وفي ذلك الوقت كان الوزير الأفضل الفاطمي قد قام بمحاولة جديدة ضد الصليبيين ، فحشد جيوشه في عسقلان وأرسل أسطوله إلى صور . وقد تمت تلك المحاولة التي قام بها الأفضل الفاطمي لضرب الصليبيين بعد اتفاق مع طغتكين الذي حضر بنفسه إلى عسقلان لقيادة القوات المشتركة ، وعندئذ أخبره المقدم على الجيش الفاطمي أن لديه تعليمات « بالوقوف عند رأي طغتكين والتصرف على ما يحكم به » . وهكذا تمت المعجزة ، فتحالف الدماشقة السنيوية مع الفاطميين الشيعة ضد الصليبيين ، مما أفرز بتهديد مملكة بيت المقدس تهديداً خطيراً (٢) .

ولم يسع الملك بلدوين الثاني في ذلك الموقف الخروج سوى الاستنجد بالصليبيين في أنطاكية وطرابلس ، ثم رابط الملك نفسه شمالي عسقلان حيث تجدد الموقف بين الصليبيين والمسلمين مدة شهرين أو ثلاثة أشهر ، عاد بعدها كل فريق من حيث أتى (٣) . واختار بلدوين الثاني ألا يترك تلك الأزمة تمر دون أن يثار من طغتكين ، فأغار على أذرعات ، واستولى على بعض المواقع شمالي عال وشرقي طبرية ، مثل حصن الحبس المعروف بحصن جلدك (٤) .

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٢ هـ .

(2) Setton : op. cit., I, p. 411—412.

(3) Foucher de Chartres, p. 617—619. & Guillaume de Tyr, p. 518—519.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ .

وفي الوقت نفسه قام جوسلين دى كورتناى — الذى لم يكن قد سافر بعد إلى الرها — بالإغارة سنة ١١١٩ على قبائل العرب في منطقة طبرية ، مثل بنى خالد وبنى ربيعة « فكبس طايفة طى ويعرفون ببني خالد فأخذهم وأخذ غنائمهم ، وسألمهم عن بقية قومهم وأخبروه أنهم بوادى السلالة » . وقد أمرع جوسلين على رأس خمسين فقط من فرسانه للحاق بذلك النفر من الأعراب في وادى السلالة لنهب قطعانهم . ولكن جوسلين ضل الطريق « فسار على طريق آخر » ، وعندئذ أحاط بهم العرب وطعنوا خيولهم ، فقتل من الصليبيين سبعون عدا الأمري . أما جوسلين فاتجه إلى طرابلس حيث جمع بعض القوات أغار بها على عسقلان ، ولكن المسلمين هزموه « فعاد مذلولاً » <sup>(١)</sup> .

### موقعة البطوط سنة ١١١٩ — مقتل روجر الأنطاكي :

رأينا كيف اختلت أحوال إمارة حلب بعد وفاة ملكها رضوان سنة ١١١٣ ، إذ حكم بعده ابنه ألب أرسلان مدة قصيرة ، حتى قتل في سبتمبر سنة ١١١٤ ؛ وعندئذ تولى بدر الدين لؤلؤ الباطي الوصاية على الإمارة ( ١١١٤ — ١١١٧ ) ؛ وبعده تولى يارقتاش ، ثم ابن الملعى . ولم تسكد تحمل سنة ١١١٨ حتى كانت حلب قد صارت تحت رحمة النورمان في أنطاكية ، الأمر الذى جعل الحلبيين يتجهون نحو إيلغازى الأرتقى طالبين حمايتهم من روجر الأنطاكي .

ولم يلبث أن استولى روجر على بزاع سنة ١١١٩ <sup>(٢)</sup> وبذلك صارت حلب محاصرة من نواح ثلاث ، وهو أمر لم يحتمله الحلبيون أو إيلغازى نفسه . لذلك حشد إيلغازى جيوشه من التركان في أبريل سنة ١١١٩ ، وانضم إليه

---

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٣ ٥١٠ هـ

(٢) المرجع السابق .



بعض الأمراء — مثل أسامة بن المبارك بن شبل الكلابي ، والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس وأرزن ، وغيرهم<sup>(١)</sup> . كذلك يرجح أن إيلغازي طلب المعونة من السلطان محمود السلاجوقي — الذي خلف أباه محمد عند وفاته سنة ١١١٨ — ، ولكنه لم يلق ردّاً ؛ في حين رضى طغتكين صاحب دمشق أن يذهب بنفسه لمساعدته ، كما أعلن أبو العساكر سلطان بن منقذ — أمير شيزر — استعداداه لمهاجمة إمارة أنطاكية من الجنوب<sup>(٢)</sup> .

وقد اختار إيلغازي أن يتجه على رأس القوات المتحالفة إلى الفرات أولاً ، فهاجم تل باشر والرها ، ثم عبر الفرات عند بالس واتجه إلى قنسرين لينقذ حلب التي لم تقمّ تستغيث به . وكانت قوة الجيش الإسلامي عندئذ تبلغ أربعين ألفاً ، ومع ذلك استخف روجر الأنطاكي بأمر المسلمين ، لولا أن حثه برنارد بطرق أنطاكية على طلب النجدة العاجلة من بلدوين الثاني ملك بيت المقدس وبونز أمير طرابلس<sup>٣</sup> . وقد أرسل ملك بيت المقدس من طبرية يفيد روجر أنه سيحضر على وجه السرعة ومعه أمير طرابلس ، وفعلًا خرج الملك بلدوين الثاني على رأس جيش بيت المقدس ومعه صليب الصليبوت قاصداً الشمال<sup>(٣)</sup> .

على أن روجر الأنطاكي لم ينتظر وصول الملك بلدوين الثاني إليه ، وإنما تعجل في الخروج — ٢٠ يونية — لصدد المسلمين ومعه قوة بلغت سبعمائة فارس وأربعة آلاف من المشاة ، واستمر في سيره حتى وصل إلى جسر الحديد على نهر العاصي ، قرب أرتاح . وكان أن علم إيلغازي — عن طريق عيونه — بضعف قوة روجر ، فرأى أن يستغل الفرصة ويعاجله بالهجوم قبل وصول النجدة إليه . وفعلًا تقدم إيلغازي من قنسرين صوب الجيوش الصليبية في أواخر

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٣ هـ .

(٢) ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠ .

(٣) Gautier Le Changelier, II, p. 100 - 101.

يونيه ، حيث دارت موقعة البلاط في سهل قريب من أرتاح في ٢٨ يونيه ، وهي الموقعة التي انتهت بتدمير الجيش الصليبي أولاً عن آخر « وأخذهم بالسيف من سائر نواحيهم » ، في حين خر روجر الأنطاكي نفسه ( سرجال ) صريعاً في المعركة (٢) . وقد بلغ من كثرة قتلى الصليبيين أن أطلقوا على السهل الذي دارت فيه المعركة اسم « ساحة الدم » ( Ager Sanguinis ) .

وكان لذلك النصر رد فعل قوى عند المسلمين والصليبيين جميعاً. ولا عجب ، فالموقعة في حقيقة أمرها قررت مصير حلب ، فلما أنف تبقي في قبضة المسلمين وأما أن يسلبها الصليبيون ، لذلك جاءت فرحة المسلمين بالنصر عظيمة ، فنظم شعراؤهم القصائد في مدح إيلغازي ، وأرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسي الخلع « وشكروه على ما يفعله من غزو الفرنج » (٢) . والواقع أن إيلغازي كان يستطيع بعد ذلك النصر المبين أن يجني ثماراً كثيرة لا سيما وأن الطريق إلى أنطاكية صار مفتوحاً أمامه. ولو أسرع إيلغازي إلى أنطاكية عندئذ « لما تمتعت عليه » على قول ابن العديم (٣) .

أما بالنسبة للصليبيين ، فإن الكارثة التي حلت بهم كانت فادحة . ويكفي أن إمارة أنطاكية - وهي الباب الشمالي للأملاك الصليبية ببلاد الشام - صارت فجأة بلا أمير ولا فرسان ولا جيش ، في الوقت الذي أخذ المسيحيون المحليون - السريان والأرمن والأرثوذكس - يتآمرون للخلاص من حكم الصليبيين الغربيين (٤)

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (p. p. 616 - 618) &

Guillaume de Tyr, p. p. 525 - 526.

(٢) ابن الأثير : حوادث سنة ٥١٤ هـ .

ومما قاله الشعراء المعاصرون في مدح إيلغازي في تلك المناسبة قول العظيمي :  
قل ما تشاء وقولك للقبول وعليك بعد الخالق النعويل  
واستبشر القرآن حين نصرته وبكى لفقد رجاله الإنجيل

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 219 - 220)

(4) Stevenson : op. cit, p 104.

ويرجع الفضل إلى بطرق أنطاكية عندئذ — وهو برنارد دى فالنس — في رعاية شئون المدينة وحراسة تحصيناتها ، حتى حضر الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس<sup>(١)</sup> . وكان أن وجد الملك إمارة أنطاكية ، في حال يرثى له ، بعد أن اجتاحت الأتراك أراضيها ودمروا ضواحيها . ولم يكد الملك بلدوين الثانى يقسم الوصاية على إمارة أنطاكية لحين وصول بوهيموند الثانى ابن بوهيموند الكبير مؤسس الإمارة من الغرب — حتى أخذ يعمل بسرعة لتنظيم الأمور وإعادة الثقة إلى الأهالى وإعداد العدة لصد المسلمين<sup>(٢)</sup> .

وكان إيلغازى الأرتقى قد ازداد قوة بعد أن انضم إليه طفتكين أتابك دمشق ، فاتجه الإثنين لمحاصرة الأتارب حتى سقطت في أيديهما ( أغسطس سنة ١١١٩ ) ؛ ثم اتجها بعد ذلك إلى زردنا التى استسلمت أيضاً بعد مقاومة عنيفة . وفى ١٤ أغسطس سنة ١١١٩ دارت المعركة عند دانيث بين المسلمين والملك بلدوين الثانى وانتهت المعركة بهزيمة إيلغازى وطفتكين ، وإن كان انتصار الصليبيين غير حاسم<sup>(٣)</sup> . وبعد ذلك عاد إيلغازى وطفتكين إلى حلب ومعهما عدد كبير من الأسرى ، وهناك أشاعا أنها انتصر على الأعداء ، كما انتما بقتل من بقى من أسرى المعركة السابقة الذين كانوا بحلب<sup>(٤)</sup> .

وقبل أن يستأنف بلدوين الثانى حرب الأتراك ، استرد قلعة علاروز غربى البارة ، وكفر طاب وسرمين ومعرّة مصرين من المسلمين ؛ وكان السامون قد

(1) Gautier Le Changelier, p. 115.

(٢) يذكر ابن العديم عن الإجراءات السريعة التى اتخذها الملك بلدوين الثانى عندئذ فى أنطاكية أنه « قبض على أموال القتلى ودورهم وأخذها ، وزوج نساء القتلى بمن بقى ، وأثبت الحبل ، وجمع وحشد واستولى على أنطاكية ... »

ابن العديم : زبدة الحلب (III, p. 619 - 620)

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Gautier, p. 123 & III, p. p. 620 - 622)

(٤) المرجع السابق .

انتهزوا فرصة الكارثة التي حلت بروجر الأنطاكي واستولوا عليها<sup>(١)</sup>. وبعد ذلك عاد بسرعة إلى أنطاكية لينظم أمورها ثم قفل راجعاً إلى بيت المقدس<sup>(٢)</sup>. على أن الأراقة لم يخلدوا لهزيمتهم السابقة ، وإنما أخذ إيلغازي يحدد هجماته على الصليبيين منذ أواخر مايو سنة ١١٢٠ ، فاجتاح كل المنطقة بين تل باشر وكيسوم (كيسون) حيث قتل كثيراً من الأعداء وخرب ضياعهم وقراهم ، رغم المقاومة الشديدة التي أبداهـا جوسلين دي كورتناي<sup>(٣)</sup>. ثم غادر إيلغازي إقليم سميساط وتل باشر ليستولى على عزاز من إمارة الرها . وعند اقتراب إيلغازي من أنطاكية هرب كثير من أهلها ، وأرسلوا إلى الملك بلدوين الثاني يطلبون النجدة السريعة ، فغف الملك لنجدتهم ومعة صليب الصليبت في يونية سنة ١١٢٠ . وبعد أن انضم إليه جوسلين دي كورتناي ، خرج الملك على رأس القوات الصليبية إلى دانيث للاقـاة الأتراك<sup>(٤)</sup>.

وفي تلك المرة أيضاً حضر طفتكين من دمشق لمساعدة إيلغازي ، ولكن اشتباكاً بين الطرفين لم يحدث ، إذ انتقل بلدوين الثاني إلى الشمال لاسترداد الأجزاء التي استولى عليها إيلغازي في العام السابق حول زردنا والأنارب ، في حين تحرك إيلغازي وطفتكين صوب حلب<sup>(٥)</sup>. وكان أن انتهى الموقف بين بلدوين الثاني وإيلغازي بمقد هـدنة اعترف فيها إيلغازي بحق إمارة أنطاكية في الاحتفاظ بممتلكاتها شرق نهر العاصي ، وهي من الجنوب إلى

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٩ — ١٢٠ .

ابن المديم (p 623)

(2) Setton : op. cit., I, p. 414.

(3) Matthieu d'Edesse, p. 127. &

ابن المديم (p. 623 - 624)

(4) Foucher de Chartres, p. 445 - 446.

(٥) ابن المديم : زبدة الحلب (III, p p. 624 - 625) &

Foucher de Chartres, p. 446.

الشمال كفرطاب ومعرة النعمان والبارة وغيرها<sup>(١)</sup> . وبذلك يكون بلدوين الثاني قد حقق نجاحاً كبيراً للصليبيين بدون حرب ، وبعد ذلك قفل راجعاً إلى بيت المقدس .

على أن العداء لم ينقطع بين الأراقة والصليبيين رغم الهدنة السابقة، إذ دأب حاكم منبج الأرتقي على الإغارة على أراضى الرها، مما جعل جوسلين دى كورتناى يرد عليه بالإغارة على أراضى منبج وإقليم صفين على الضفة الغربية للفرات<sup>(٢)</sup> . بل إنه أوغل في مايو سنة ١١٢١ حتى خرب بزاعه وهاجم الأثارب إلى الجنوب الشرقى من حلب ، وأحدث مذبحة ضخمة في أهلها من المسلمين ، وعندئذ همد إيلغازى إلى ابنه سليمان حاكم حلب بمقد الصلح مع الصليبيين والتنازل لهم عن بعض المناطق القريبة من حلب<sup>(٣)</sup> .

وفي تلك الأثناء لم تنقطع الاشتباكات بين طغتكين أنابك دمشق وبلدوين الثانى ملك بيت المقدس في صيف سنة ١١٢١ في منطقة الجليل والجولان وجبل عجلون<sup>(٤)</sup> . أما الأمير إيلغازى فقد أحاطت به المتاعب عندما أعلن ابنه سليمان عصيانه وخروجه عن طاعة أبيه ، ثم عقد صلحا مع الصليبيين أعطاهم بمقتضاه زردنا والأثارب ، وهى الثمار التى حصل عليها إيلغازى من انتصارته الأخيرة<sup>(٥)</sup> . وقد أفرغت تلك الأخبار إيلغازى ، فأراد أن يعاقب ابنه ويسترد زردنا والأثارب .

(١) للرجع السابق .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤ هـ .

(٣) ابن المديم : زبدة الحلب (III, p. 627)

(4) Guillaume de Tyr p. 535. & Foucher de Chartres, d. 446.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٥ هـ .

ابن المديم : زبدة الحلب (p. 629)

# **الشرق الأدنى في النصف الأول من القرن الثاني عشر** **مختصر**



وفعلًا شرع في مهاجمة زردنا ، مما تطلب عودة الملك بلدوين الثاني إلى شمال الشام في صيف سنة ١١٢٢ .

على أنه لم يحدث صدام مسلح عندئذ بين إيلغازي وبلدوين الثاني ، فعاد الأخير إلى بيت المقدس في سبتمبر سنة ١١٢٢ بعد أن خلص زردنا من الحصار دون إراقة دماء<sup>(١)</sup> . أما في الجزيرة فقد ظلت كفة الصليبيين راجحة في تلك الفترة ، حتى وقع جوسلين دى كورتناى أمير الرها في قبضة ملك غازي بن بهرام الأرتقي صاحب خرتبرت في ١٣ سبتمبر سنة ١١٢٢ ، مما أساء فجأة إلى موقف الصليبيين<sup>(٢)</sup> . وإذا كان بلدوين الثاني قد قام بالوصاية على أنطاكية بعد مقتل أمهرها منذ ثلاث سنوات ، فإن ملك بيت المقدس لم يجد بدلًا من القيام بالوصاية أيضًا على الرها عند أسر جوسلين سنة ١١٢٢ .

ولم تلبث إمارة الأراتقة أن تمزقت بعد ذلك عند وفاة عاھلها إيلغازي في أوائل نوفمبر سنة ١١٢٢ ، فأخذ ابنه شمس الدولة سليمان ميسافارقين — أى الجزء الشمالى من ديار بكر ، وأخذ ابنه الثانى تمرناش ماردين والجزء الجنوبى

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. III, p. 633) ويلاحظ أنه على الرغم من تفوق إيلغازي في حروبه ضد الصليبيين ، إلا أنه كان لا يصبر طويلًا على حروبهم ، وإنما يتعجل في الصلح والعودة . ويعلل ابن الأثير ذلك بأن جيوش إيلغازي كانت مؤلفة من التركان المرتزقة الذين يبتغون الغنيمة السريعة « فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق وشاه ، وبعد الساعات لغنيمة يتعجلها ويعود ؛ فإذا طال مقامهم تفرقوا . ولم يكن له ( إيلغازي ) من الأموال ما يفرقها فيهم » . ( السكامل ؛ حوادث ٥١٤ ) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (p 634) & Matthieu d'Edesse, p. 131. وپروى ابن الأثير أن المسلمين عندما أسروا جوسلين وضعوه في جلد جمل « وخيط عليه » وطلب منه أن يسلم الرها فرفض وعرض الأموال الطائلة لفداء نفسه . ولمكن المسلمين رفضوا إطلاق سراحه وحملوه إلى قلعة خرتبرت ومعه ابن خالته ولیم (كليام) « وجماعة من فرسانه المشهورين » . ( السكامل ، حوادث سنة ٥١٥ ) .

من ديار بكر . أما بلك بن بهرام الأرتقي — وهو ابن أخ إيلغازي — فقد احتفظ بمنطقة خربت في الشمال وأضاف عليها حران في الجنوب ، في حين آلت حلب إلى بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتقي ، وهو ابن أخ آخر للامير إيلغازي <sup>(١)</sup> .

وقد حاول الملك بلدوين الثاني أن يستفيد من تفكك دولة الأرتاقة، فنخف إلى شمال الشام حيث غزا إقليم بزاعه إلى الشمال الشرقي من حلب ، وهاجم بالس إلى الجنوب الشرقي من حلب على الفرات ، واستولى على البيرة شرق حلب ، وبذلك أصبحت حلب شبه محاصرة تماماً بممتلكات الصليبيين وقواتهم <sup>(٢)</sup> . ولما وجد سليمان بن عبد الجبار بن أرتقي صاحب حلب أن الصليبيين « قد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة والتخريب والتعريق ... ولم يكن له بالفرنج قوة وخافهم » فكر في مهادنتهم ، وطلب الصلح من بلدوين الثاني في أبريل سنة ١١٢٣ مقابل رد الأتارب — إلى الجنوب الغربي من حلب — إلى إمارة أنطاكية ، « واستمرت المواجهة على هذا واستقامت أحوال الأعمال من الجانبين » <sup>(٣)</sup> . وبذلك يكون بلدوين الثاني ملك بيت المقدس قد نجح في أقل من أربع سنوات في إعادة حدود إمارة أنطاكية إلى ما كانت عليه سنة ١١١٨ .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. III, p. 632 - 634)

(2) Setton : op. cit, I, 418.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٩

ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥١٧ هـ .

ويذكر ابن العديم عن ذلك الصلح : « فصالحوهم على سرمين والجزر ولبلون وأعمال الشمال على أنها للفرنج وما حول حلب للفرنج منه النصف حتى إنهم ناصفوه في رعا العربية . وعلى أن يهدم تل هراق بحيث لا يبقى للفتنين فيه حكم ؛ وطلبوا الأتارب ، فأجاب إيلغازي الى ذلك ... »

ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 627) &



## وقوع بلدوين الثانى فى الأسر :

ثم كان أن قام بلدوين الثانى ملك بيت المقدس بمحاولة لفتك أسر جوسلين دى كورتناى الذى كان لا يزال حبيس بلك الأرتقى فى خرزبرت<sup>(١)</sup>. ولكن شاءت الظروف أن يقع الملك بلدوين الثانى نفسه أسيراً فى ١٨ أبريل سنة ١١٢٣ أثناء قيامه بتلك العملية ، إذ انقض عليه بلك فجأة عند موضع اسمه أورش بالقرب من قنطرة سنجة ، وحمل الملك أسيراً إلى قلعة خرزبرت ليأتس به جوسلين فى وحدته<sup>(٢)</sup>. ومن الواضح أن أسر الملك بلدوين الثانى جاء خسارة كبرى للصليبيين بالشام ، وإن كانت الأمور فى مملكته استمرت على وضعها الطبيعى بعد أن اختير إيسيتاش جرنيه Eustache Grenier - صاحب قيسارية وصيدا - للوصاية على مملكة بيت المقدس ، والبطرق برنارد دى فالنس للوصاية على أنطاكية<sup>(٣)</sup>. وعند وفاة إيسيتاش فى يونيه ١١٢٣ ، حل محله فى الوصاية وليم دى بور .

أما بلك فيكفيه فخراً عندئذ أنه كان يمسك فى قبضته ملك بيت المقدس وأمير الرها ، الأمر الذى جعله يشهر بالزهر والذى دفعه إلى التفكير فى توحيد ملك الأراتقة من جديد . وكان أن استولى بلك على حران ثم أسرع إلى مهاجمة حلب لانتزاعها من ابن عمه سليمان ، ونجح فى تحقيق ذلك فى ٢٦ يونيو سنة

---

(١) يذكر ابن الأثير أن الغرض من خروج الملك بلدوين لم يكن إطلاق سراح جوسلين من الأسر؛ وإنما الحد من نفوذ بلك بن بهرام الذى حاصر قلعة كركر قرب خرزبرت؛ فأسرع اليه بلدوين «خوفاً أن يقوى بملكها».

(السكامل؛ حوادث سنة ١١٢٧هـ)

(1) Matthieu d'Edesse, p. 133 &

ابن المديم زبدة الحلب (p. 635)

(2) Guillaume de Tyr, p. 538. &  
Foucher de Chartres p. 450.

(م ٣٣ - الحركة)

١١٢٣<sup>(١)</sup>. ومن ذلك المركز الجديد أخذ بك يهاجم أنطاكية ، فاستولى على البارة غربى معرة النعمان ، ثم اتجه لحصار كفر طاب عندما سمع فى ٧ أغسطس أن بلدوين الثانى وجوسلين دى كورتناى قد استوليا على قلعة خرتبرت بمساعدة المسيحيين فى تل باشر<sup>(٢)</sup>.

ذلك أن جوسلين بالذات كان محبوباً من الأرمن ، لا لزوجته من أميرة أرمنية فحسب ، وإنما لأنه أحسن إليهم وأكرم معاملتهم ولم يفعل بهم مثلاً فعل سلفه بلدوين الثانى من اضطهاد وتنكيل . وكانت خرتبرت نفسها تقع فى منطقة أرمنية ، مما جعل الأرمن يدبرون مؤامرة للاستيلاء على القلعة وإطلاق سراحه<sup>(٣)</sup>. وفى الوقت الذى أخذت الخطة تسير بنجاح إذا بالأمر بالملك يعود إلى خرتبرت فجأة ، ولكن بعد أن كان جوسلين قد استطاع الفرار ، وبذلك لم يبق سوى الملك بلدوين الثانى الذى وقع فى أسر غريمه من جديد ( سبتمبر ١١٢٣ )<sup>(٤)</sup>.

وكان المفروض أن يعمل جوسلين على جمع الجيوش لإطلاق سراح بلدوين ، لا سيما وأن بقية الأسرى فى خرتبرت « حلفوه على أنه لا يغير ثيابه ولا يأكل لحماً ولا يشرب إلا وقت القران ، إلى أن يجمع الجوع الفرنجية ويصل بهم إلى خرتبرت ويخلصهم » . ولكن تلك احتاط للأمر ، فنقل الملك بلدوين وبقية الأسرى من خرتبرت إلى قلعة حران ليكونوا بعيداً عن منال الصليبيين<sup>(٥)</sup>.

(١) يذكر ابن الأثير أن سبب شروع ملك بن بهرام فى الاستيلاء على حلب هو استيائه من صاحبها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار ، لأنه سلم قلعة الأتارب إلى الفرنج « فعظم ذلك عليه ، وعلم عجزه عن حفظ بلاده فقوى طمعه فى ملكها » . (الكامل ، حوادث سنة ٥١٧هـ).

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or, III, p. 636)

(٣) Runciman : op. cit, II. p. 163-164.

(٤) Foucher de Chartres, p. 457.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. p. 637)

أما جوسلين دى كورتناى ، فإن أسره ثم فراره ، جعله يتطرق فى الانتقام من المسلمين ، فخرج من تل باشر على رأس رجاله صوب حلب ، واستمر طوال الطريق ينهب ويدمر ويحرق ما يصادفه من قرى المسلمين وضياعهم ، حتى قبورهم لم تسلم من عبثه<sup>(١)</sup> . وهكذا استمر جوسلين دى كورتناى يحمل عبء محاربة المسلمين فى شمال الشام بوجه عام وإقليم حلب بوجه خاص ، طوال المدة التى قضها بلدوين الثانى فى الأسر . وقد اضطر بلك إلى العودة إلى حلب فى أوائل سنة ١١٢٤ ، حيث عقد تحالفاً مع طغتكين أتابك دمشق .

ثم كان أن شغل بلك بعد ذلك بأمر منبج ، فقبض على صاحبها حسان البعلبكي وحصرها ، وعندئذ سار « الفرنج إليه ليرحلوه عنها لئلا يتقوى بأخذها » ولكن بلك تغلب على الفرنج وطردهم . ثم عاد إلى منبج ليستأنف الحصار ، وعندئذ أصابه سهم طائش قتله فجأة فى ٦ مايو سنة ١١٢٤ ؛ فخلفه فى حكم حلب ابن عمه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق . ويصف ابن الأثير الأمير تمرتاش هذا بأنه كان « رجلاً يحب الدعة والرفاهية » ، فأثر أن يترك حلب ويقم فى ماردين « لأنه رأى الشام كثير الحروب مع الفرنج<sup>(٢)</sup> » .

### الفاطميون ومملكة بيت المقدس :

اختار الفاطميون أن يذهبوا فرصة أسر الملك بلدوين الثانى لمعاودة الهجوم على الصليبيين ، وذلك بتجريض من طغتكين وآقستقر البرستى . وكان أن حشد الفاطميون فى مايو سنة ١١٢٣ حملة كبيرة فى غسطلان اتجهت لحصار يافا ، فى

(١) يروى ابن العديم أن جوسلين نبش الضريح الذى يشهد له كدفله يوجد فيه شيئاً

فألقى فيه النار؛ زبدة الحلب (III, p. p. 638—639)

(٢) ابن الأثير: السكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.

الوقت الذى خرج الأسطول الفاطمى لمهاجمته من ناحية البحر<sup>(١)</sup>. وكانت الحامية الصليبية فى يافا صغيرة ، فاشترك نساء الصليبيين مع رجالهم فى الدفاع . وفى الوقت الذى أوشكت يافا على التسليم ، إذا بنجدة صليبية أتت لإتقاذها ، مما جعل القوات الفاطمية تنسحب إلى بينا ، على الطريق بين يافا وعسقلان<sup>(٢)</sup>. وفى المعركة التى دارت فى ٢٩ مايو سنة ١١٣٣ عند بينا بين الفاطميين والصليبيين ، هزم الفاطميون وولوا الأدبار ، واقتفى أثرهم الصليبيون يقتلون ويأسرون وينهبون ما يصل إلى أيديهم<sup>(٣)</sup>.

وفى تلك الأثناء ساء موقف مدينة صور بسبب تعرضها لهجمات الصليبيين بين حين وآخر ، فى الوقت الذى كانت الدولة الفاطمية عاجزة عن إرسال قوة برية كبيرة تحميها من الأخطار . وقد سبق أن ذكرنا كيف اتجه أهالى صور نحو طغتكين أنابك دمشق ، الذى أرسل إليهم سنة ١١١٢ أحد رجاله — واسمه مسعود — « ومعه من يعتمد عليه من العسكر » وقدر كاف من المال والعتاد والميرة<sup>(٤)</sup>. ولم يكن معنى ذلك خروج صور من قبضة الفاطميين ، إذ ظل الدعاء للخليفة الفاطمى فى المساجد ، كما استمرت السكة تضرب باسمه فى صور ؛ وكل ما هنالك هو أن الوزير الأفضل قبل مساعدة طغتكين على ذلك الوجه لإتقاذها من السقوط فى يد الصليبيين<sup>(٥)</sup>.

ولسكن موافقة الوزير الأفضل الفاطمى على السماح لقوة من قبل طغتكين — وهو الأتابك السنى — باحتلال صور ، أثار غلاة الشيعة فى مصر ، مما أدى إلى

(1) Setton : op. cit, I, p. 421.

(2) Foucher de Chartres, p. p. 450-451.

(3) Stevenson : op. cit; p. 114.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 599.

(٥) « وأجروا على الرسم فى إقامة الدعوة والسكة على ما كانت عليه لصاحب مصر ، ولم يغير لهم رسم » . [ابن القلانسى : ص ١٨٢].

مقتل الأفضل في أحد شوارع القاهرة في ٢١ ديسمبر سنة ١١٢١ بيد بعض الباطنية . ويقال إن الباطنية كانوا « يكرهون الأفضل لأسباب منها تضييقه على إمامهم » ؛ وإن كان يغلب على الظن أن الخليفة الفاطمي الأمر كانت له يد في مقتل الأفضل للتخلص من سطوته من ناحية ، وطمعا في ثروته من ناحية أخرى<sup>(١)</sup> .

ويذكر ابن القلانسي أن أهل صور شكوا عندئذ إلى الخليفة الفاطمي من سوء سيرة مسعود « وما يعتمد مع الرعية من الأضرار لهم والمخالفة للعادة » . ولذلك أرسل الخليفة الأمر أسطولا إلى صور سنة ١١٢٢ لعزل الحاكم الدمشقي مسعود ، فقبض عليه وأحضر إلى القاهرة حيث « أكرم وانزل في دار وأطلع له ما يحتاج إليه »<sup>(٢)</sup> . وقد انتقد المؤرخ أبو الحسن الفاطميين في ذلك التصرف ، لأنه حرم صور من الرجل القوي الذي « فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة » . أما الصليبيون فقد ارتاحوا لخروج مسعود وشدوا هجماتهم على صور ، فأرسل إليها إلى مصر يخبر الخليفة الفاطمي أنه لا قبل له بالدفاع عن صور لقلة النجدة والميرة ، فرد عليه الخليفة الأمر قائلا : « قد ردنا أمرها إلى ظهير الدين طفتسكين ليتولى حمايتها والذب عنها » ؛ فكان هذا الرد اعترافا من الدولة الفاطمية بعجزها عن حماية صور وتنازلا عن تلك المهمة لطفتسكين<sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الأوضاع أتاحت فرصة طيبة للصليبيين ليستغلوا الموقف السيء الذي أمست فيه صور من ناحية ، والشقاق بين دمشق

- 
- (١) ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٥١٥ هـ .  
ويروي ابن الأثير أنه « لما توفي الأفضل نقل من أمواله ما لا يعلمه إلا الله ، وبقي الخليفة في داره نحو أربعين يوما والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلا ونهارا . . . »  
(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١١ .  
(٣) أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٢ — ١٨٣ .

والتهاجرة من ناحية أخرى « فتحرك طمعهم فيها وحدثوا نفوسهم بتملكها وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها والمضايقة لها ». وفي الوقت الذي أخذت فتن يبرز حامية صور « ويرتب بها من الجند وغيرهم ما ظن أن فيه الكفاية »<sup>(١)</sup> ، بدأ الصليبيون — بمساعدة الأسطول البندقي — يوجهون جهودهم ضد تلك المدينة بالذات .

### البنادقة في الشرو : سقوط صور :

وكان ذلك عقب موقعة البلاط التي قتل فيها روجر الأنطاكي سنة ١١١٩ عند ما أرسل الملك بلدوين الثاني إلى البندقية طالبا المعونة ضد المسلمين ، وأعلى وجه التعهد ضد الفاطميين ، الذين كانوا يسيطرون على شواطئ الشام . وقد أيد البابا طلب ملك بيت المقدس ، وحث البندقية على المساهمة في مساعدة الصليبيين ، مما جعل دوج البندقية يعد حملة كبيرة من ثلثمائة سفينة تحمل خمسة عشر ألف جنديا للرحيل إلى الشام . هذا وإن كان الإعداد النهائي لتلك الحملة لم يتم إلا بعد مرور ثلاث سنوات ، أي في صيف سنة ١١٢٢<sup>(٢)</sup> .

ولكن سوء حظ الصليبيين شاء أن تشتعل نار الحرب بين البندقية والإمبراطورية البيزنطية عندئذ ، مما جعل البنادقة يوجهون حملتهم الصليبية ضد البيزنطيين ، فهاجموا جزيرة كورفو وقضوا في حصارها ستة أشهر ، في الوقت الذي أخذ الصليبيون في الشام ينتظرون وصول النجدة الموعودة<sup>(٣)</sup> . وأخيرا وقع الملك بلدوين الثاني في الأسر — في ١٨ أبريل سنة ١١٢٣ — فأرسل الصليبيون

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.

(2) Heyd : op. cit., I, p. 142-143.

(3) Brehier \* op. cit., p. 322.

إشارة عاجلة إلى البنادقة يخبرونهم بالكارثة التي حلت بهم ، ويرجون سرعة المعونة . وعندئذ رفع البنادقة حصارهم عن كورفو سنة ١١٢٣ ، وأقامت عمارتهم إلى عسكا لتقديم المساعدة إلى الصليبيين ، في وقت كان هؤلاء أحوج ما يكونون إلى المساعدة بعد مقتل أمير أنطاكية ، وأسر أمير الرها، وملك بيت المقدس . وكان أول ما فعله البنادقة وهم في طريقهم إلى الشام إرسال جزء من أسطولهم إلى عسقلان حيث استطاعوا تدمير الأسطول الفاطمي هناك . وبعد ذلك أغار البنادقة على الشاطئ الجنوبي لفلسطين حتى العريش (مايو ١١٢٣) ، وفي طريق عودتهم إلى عسكا أسروا أسطولا تجاريا إسلاميا من عشر سفن محملة بالبضائع<sup>(١)</sup> .

ولا شك في أن تدمير الأسطول الفاطمي في فلسطين أعطي الصليبيين حرية العمل ضد المعازل والموانئ الفاطمية القليلة التي مازالت باقية للمسلمين على الشاطئ ، وأهمها صور وعسقلان . وهنا انقسم الصليبيون في الرأي حول النقطة التي يبدأون منها : صور أم عسقلان ؛ إذ أيد أمراء الجليل مهاجمة صور ، في حين رأى أمراء بيت المقدس البدء بعسقلان ؛ حتى انتصر الرأي الأول نظرا لأهمية صور الحربية والتجارية<sup>(٢)</sup> . وقبل أن يبدأ البنادقة في مهاجمة صور كان عليهم أن يعرفوا ثمن المساعدة التي يقدمونها للصليبيين ، فعقدوا اتفاقية مع وليم دي بورز Guillaume de Bures الوصي على مملكة بيت المقدس في أوائل سنة ١١٢٤ ، وحقت لهم أكبر قدر من الامتيازات مقابل المساعدة الحربية التي سيقدمونها لمملكة بيت المقدس<sup>(٣)</sup> من ذلك حق البنادقة في الحصول على أحياء كاملة في كافة مدن مملكة بيت المقدس — وبخاصة عسكا — يقيمون فيها مؤسساتهم المختلفة اللازمة لإقامتهم ومباشرة نشاطهم التجاري ، كالفنادق والمخابز والطواحين والحمامات ... بحيث

(1) Foucher de Chartres, p. p 452-453.

(2) Guillaume de Tyr ps. 459-574.

(3) Michaud : op. cit. II, p. 63.

تكون جميع هذه المؤسسات والمرافق معفاة من الضرائب والمكوس تماماً<sup>(١)</sup>. كذلك اشترط البنادقة حقهم في استخدام موازينهم ومقاييسهم ومكاييلهم الخاصة، سواء في المعاملة فيما بينهم وبين بعض أو فيما بينهم وبين بقية رعايا مملكة بيت المقدس. هذا مع إعفائهم من كافة الضرائب الجركية وغير الجركية بحيث يكون التجار البنادقة بعكاً أحراراً تماماً في كافة شئون الاستيراد والتصدير. فإذا تم فتح صور وعسقلان بمساعدتهم، حصل البنادقة على ثلث كل مدينة منها، مع تمتعهم في ذلك الحي بكافة الامتيازات الاقتصادية السابقة<sup>(٢)</sup>.

هذا إلى أن البنادقة حرصوا على ألا يتعرضوا لمنافسة اقتصادية من جانب المدن والجمهوريات الأخرى في غرب أوروبا. فاشترطوا ألا تقوم مملكة بيت المقدس بتخفيض الضرائب المفروضة على بقية الجاليات والهبات إلا بعد موافقة البندقية نفسها. ومع أن بطريرك بيت المقدس — جرموند — أقسم البنادقة على أن ملك بيت المقدس سيموافق على جميع هذه الشروط عند إطلاق سراحه، إلا أن بلدوين الثاني لم يوافق فيما بعد على الشرط الأخير الذي يجعل المملكة وتجارها حكرًا للبنادقة<sup>(٣)</sup>.

ولم يكذبتم عقد الاتفاقية السابقة بين البنادقة ومملكة بيت المقدس، حتى تعاونت جميع القوى الصليبية، على حصار صور في منتصف فبراير سنة ١١٢٤. وكان حكم صور — كما سبق أن أشرنا — قد انتقل أخيراً إلى طغتكين أتابك دمشق، فأمد طغتكين المدينة «بعسكر وسير إليهم ميرة ومالا فرقة فيهم وطلابت نفوس أهل البلد»<sup>(٤)</sup>. ولا ننسى بالإضافة إلى ذلك أن صور مدينة

(1) Ibid.

(2) Heyd : op. cit, I, p. 143-144.

(3) Foucher de Chartres, p. 460.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.



محصنة طبيعياً حتى وصفها ابن جبير في عصر الحروب الصليبية بأنها « مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، لا تلقى لطالبها ببس طاعة ولا استمكانة »<sup>(١)</sup> . ولكن يبدو أن كل ذلك لم يكف لمقاومة الهجوم العنيف الذي شنّه الصليبيون على المدينة من ناحيتي البر والبحر . وقد هبت القوى الإسلامية المجاورة للدفاع عن صور ، أو لمحاولة الضغط على الصليبيين لإجبارهم على التخلي عنها . ومن ذلك ما قامت به حامية عسقلان الفاطمية أثناء حصار صور — من محاولة الزحف على بيت المقدس ومهاجمتها أكثر من مرة في تلك الفترة<sup>(٢)</sup> . كذلك خرج طفتكين أتابك دمشق على رأس جيوشه « إلى بانياس للذب عن صور » ، فعهد الصليبيون إلى بونز أمير طرابلس بالتصدي له .

ولكن جهود القوى الإسلامية المجاورة لم تفلق في إنقاذ صور ، في الوقت الذي توفي بلك الأرتقي صاحب حلب وديار بكر في مايو سنة ١١٢٤ ، عندما كان يستعد للحضور على رأس جيش كبير لإنقاذ صور<sup>(٣)</sup> . وعندما أدرك طفتكين تعذر الاحتفاظ بصور « راسل الفرنج بالملاطفة والمداينة والإرهاب والإرغاب ، إلى أن تقرر الحال على تسليمها إليهم بحيث يؤمن كل من بها ، ويخرج من أراد الخروج من العسكرية والرعية ، بما يقدرون عليه من أموالهم ، ويريد من أراد الإقامة »<sup>(٤)</sup> . وهكذا اضطرت صور إلى التسليم في أوائل يوليو سنة ١١٢٤ « بعد أن أشرف أهلها على الهلاك » ، واحترم الصليبيون شروط الأمان الذي منحوه لأهلها<sup>(٥)</sup> .

(١) زحلة ابن جبير ص ٢٧٧ (طبعة بيروت).

(2) Guillaume de Tyr, p. p. 566, 572.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or, III, p. 642)

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٧ .

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

أبو القدا: المختصر، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

ويصف أبو الحسن عملية انسحاب المسلمين من صور فيقول: « جاء الأتابك بمسكره =

ومن الواضح أن سقوط صور في أيدي الصليبيين جاء حدثاً له أهميته في تاريخ الحروب الصليبية . ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن ضياع صور سبب «وهنا عظيماً على المسلمين» . وفي الوقت نفسه أدى استيلاء الصليبيين على صور إلى تدعيم مركزهم لأنها « من أحسن البلاد وأمنعها »<sup>(١)</sup> ، مما أدى إلى تدعيم مركز الصليبيين بالشام وإمدادهم بقاعدة بحرية من الطراز الأول من ناحية الموقع ذي الأهمية الفائقة في حالتها الهجوم والدفاع جميعاً<sup>(٢)</sup> . لذلك اهتم الصليبيون بتحصين صور وأعدوها « مفزعة لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانهم » ، على قول ابن جبير<sup>(٣)</sup> .

أما البنادقة فلم يهتموا بالحصول على مراكز لهم في المدن الداخلية ، عدا مدينة القدس ذاتها ؛ في حين اهتموا بتركيز نشاطهم في المدن الساحلية وبخاصة عكا ثم صور وصيدا وحيفاً بعد ذلك<sup>(٤)</sup> .

### تهجير الملك بلدوين الثاني واستئناف الحرب ضد المسلمين:

أما الملك بلدوين الثاني فقد ظل أسيراً في قبضة تلك الذي نقله من قلعة حران إلى قلعة حلب ، حتى إذا ما توفي تلك وآلت حلب إلى تمرتاش بن إيلغازي ، وافق الأخير — بفضل وساطة أمير شيزر العربي أبو العساكر سلطان ابن منقذ — على إطلاق سراح الملك بلدوين مقابل مائة ألف بيزانت — أى قرابة

---

= فوق بازاء الفرنج، وركبت الفرنج ووقفوا بازائه وصاروا صفيين، وخرج أهل البلد بمرون بين الصفيين، ولم يعرض لهم أحد» .

(النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٨٣) .

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p 618

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٧٧ (طبعة بيروت)

(4) Heyd : Hist de Commerce. I, p p 148-151.

ثمانين أنف دينار — يدفع منها عشرين ألف دينار مقدماً<sup>(١)</sup> . هذا علاوة عما تعهد به الملك بلدوين — بوصفه وصياً على إمارة أنطاكية — من إعادة عزاز والأثارب وزردنا والجزر وكفر طاب ، إلى إمارة حلب . كذلك تعهد الملك الصليبي بمساعدة تمرناش في إخضاع ديبس بن صدقه ، وهو أمير عربي شيعي نزح إلى الجزيرة بعد أن طرده الخليفة المسترشد العباسي من حكم الحلة بالعراق<sup>(٢)</sup> .

وعلى أساس هذه الشروط تم الإفراج عن الملك بلدوين الثاني في أواخر يونية سنة ١١٢٤ ، أى في الوقت الذي كان وليم دى بورز الوصى على مملكة بيت المقدس يغزو صور بمساعدة البنادقة . وكان من الطبيعي أن يتجه ملك بيت المقدس أولاً صوب أنطاكية حيث أنكر عليه يرنارد دى فالنيس رد المدن والقلاع السابقة للمسلمين ، لأن ملك بيت المقدس بوصفه وصياً على إمارة أنطاكية كان ينبغي أن يرضى الأمانة وألا يفرط في أملاك أنطاكية وأراضيها؛ أو أن يدفع جزءاً من أملاك غيره ثمناً لحريته<sup>(٣)</sup> . ولذلك أرسل الملك بلدوين الثاني رسالة إلى صاحب حلب — أورد نصها ابن العديم — يستعطفه فيها أن يتنازل عن الشرط الخاص بتسليم عزاز وغيرها من القلاع للمسلمين ، ويعلمه أن بطرق أنطاكية معترض على ذلك الشرط<sup>(٤)</sup> .

ولكن المفاوضات طالت بين الطرفين دون الوصول إلى نتيجة ، في الوقت الذي كان بلدوين الثاني يشفق على مصير الرهائن التي قدمها لأمر حلب ضمناً

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢٠ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. III, p. 643.)

(3) Matthieu d'Edesse p. p. 312-313 &

Michael Le Syrien, p. p. 212-225.

(٤) «البطرق الذي لا يمكن خلافه سألني عما بذلت وما الذي استقر، فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها ، أبى وأمرني بالدفع وقال . إن خطيتك تزدمني ، ولا أقدر على خلافه!»

ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. p. p. 644-645)

لتنفيذ شروط الاتفاقية السابقة . ومن هذه الرهائن ابنة الملك بلدوين نفسه وهى طفلة فى الخامسة من عمرها ، وجوسلين الثانى ابن جوسلين دى كورتناى أمير الرها ، ومعهما عشرة من زهرة شباب الصليبيين<sup>(١)</sup> . وأخيراً لم يجد الملك بلدوين الثانى بداً من الاصطدام بصاحب حلب ، فحالف خصمه الأمير العربى الشيعى ديس بن صدقة . ويروى ابن الأثير أن ديس بن صدقة أطمع الصليبيين فى الاستيلاء على حلب « وقال لهم إن أهلها شيعة وهم يميلون إلى لأجل المذهب ، فتى رأونى سلموا البلد إلى »<sup>(٢)</sup> . وفى الوقت نفسه وجد الصليبيون فى ديس خير قوة تمكنهم من الوقوف فى وجه صاحب حلب وإجباره على إطلاق سراح من لديه من رهائن ، فبذلوا له المال ووعدوه بإعطائه ملك حلب<sup>(٣)</sup> .

وهكذا لعب الصليبيون دورهم بمهارة فى تفرقة صفوف المسلمين ، وضرب العرب بالأتراك ، والشيعية بالسنة ، لإضعافهم جميعاً . وفى اكتوبر سنة ١١٢٤ اشترك بلدوين الثانى وجوسلين دى كورتناى مع ديس بن صدقة فى مهاجمة حلب وأعمالها<sup>(٤)</sup> . وقد حرص بلدوين الثانى فى تلك الحرب على أن يؤلف جبهة إسلامية — تحت قيادته — ضد مترناش صاحب حلب التركى ، فاشترك معه بنو مزيد ، وسلطان شاه بن الملك رضوان السلجوقى الذى عزله الأرتقة من ملكه فى حلب<sup>(٥)</sup> .

(١) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ص ١٠٣ .

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨ .

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب (p. 645)

(4) Setton : op. cit. I, p. p. 423 — 424.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب (III, p. 646)

ويروى ابن العديم أن الصليبيين أتوا فى تلك الغزوة مساوياً كثيرة « فنبشوا قبور موتى المسلمين وأخذوا تواييتهم الى الخيم وجعلوها أوعية لطعامهم، وسلبوا الأكفان، وعمدوا الى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله فربطوا فى أرجلهم الحبال ومسحوا بهم مقابل المسلمين، وجعلوا يقولون: هذا نبيكم محمد وآخى يقول: هذا عليكم . وأخذوا مصحفاً من المشاهد بظاهر حلب وقالوا يا مسلم أبصر كتابكم . . . »

ولم يكن تمر تاش في حلب عندئذ ، وإنما كان في ماردين مترقبا وفاة أخيه سليمان حاكم ماردين ليرثه في ملكه ، في حين ترك حلب لنوابه وأعيان المدينة يتأومون الحصار . وعندما رأى أهل حلب عجز « صاحبهم تمر تاش » أرسلوا إلى آقسنقر البرسقي أتابك الموصل « يستنجدونه ويسألونه المجيء إليهم ليسلموا البلد إليه » <sup>(١)</sup> . ويبدو أن آقسنقر — الذي عينه السلطان محمود أتابكا على الموصل وعهد إليه بجهد الصليبيين — وجد فرصة طيبة في تلك الاستغاثة لتحقيق رغبة السلطان الجديد في استئناف حركة الجهاد ضد الصليبيين . لذلك أسرع آقسنقر البرسقي إلى تأليف حلف ، فأنضم إليه في الرحبة طغتكين أتابك دمشق ، وصمصام الدين خير خان بن قراجا صاحب حمص ، واتجهوا جميعاً صوب حلب ، فوصلوها في أواخر يناير سنة ١١٢٥ <sup>(٢)</sup> .

وكان ظهور تلك القوة الجديدة أمام حلب كافياً لإحباط مشروع بلدوين الثاني الخاص بالاستيلاء على تلك المدينة ، فانفض عنه حلقاؤه ، وانسحب ديس ابن صدقة شرقاً ، في حين عاد الملك نفسه إلى بيت المقدس في أوائل أبريل سنة ١١٢٥ بعد غيبة قاربت العامين <sup>(٣)</sup> . أما آقسنقر البرسقي ، فقد خرج إليه أهل حلب « ولقوه وفرحوا به » ، فأقام عندهم بعض الوقت لإصلاح أحوال المدينة ، ثم قفل راجعاً إلى الموصل بعد أن ترك في حلب من يرعى شئونها . وبذلك جمع آقسنقر البرسقي بين ملكي الموصل وحلب ، مما جعله خطراً كبيراً على الصليبيين في شمال العراق والشام <sup>(٤)</sup> .

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١ — ٢١٢هـ.

ابن العديم: زبدة الحلب (IIIp. 649)

(3) Guillaume de Tyr, I, p. 557.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.

على أن الملك بلدوين الثانى كان لا يستطيع البقاء طويلا فى بيت المقدس، فى الوقت الذى كان مسئولاً — بحكم وصايته على أنطاكية — عن حمايتها من ضغط القوى الإسلامية المحيطة بها من ناحيتى الشمال والشمال الشرقى. هذا فضلا عن أن ازدياد نفوذ آقسنتر البرسقى — الذى جمع بين السيطرة على حلب والموصل، وتمتع بتأييد السلطان محمود السلجوقى، واعترف له بالسيادة والزعامة كل من طغتكين أتابك دمشق وخير خان بن قراجا — جعل منه خطراً كبيراً على الصليبيين فى شمال العراق والشام. وزاد من ذلك الخطر أن البرسقى واصل نشاطه فى بلاد الشام، فزار شيزر فى شهر مارس، حيث رحب به أميرها سلطان ابن منقذ وسلمه رهائن الصليبيين، وعلى رأسهم ابنة الملك بلدوين الثانى وجوسلين الصغير ولى عهد الرها<sup>(١)</sup>. وهكذا بدا البرسقى فى صورة زعيم القوى الإسلامية فى بلاد الشام مما مكنه من مهاجمة إمارة أنطاكية، فحاصر كفر طاب واستولى عليها فى أوائل مايو سنة ١١٢٥ قبل وصول بلدوين الثانى. وبعد ذلك شرع فى حصار زردنا<sup>(٢)</sup>.

وعندما استنجدت أنطاكية بالملك بلدوين الثانى، أسرع إليها، ومرفى طريقه بطرابلس حيث استصحب معه بونز أميرها ثم انضم إليهما جوسلين دى كورتناى أمير الرها. وفى تلك الأثناء كان البرسقى وطغتكين وخير خان وبقية حلفائهم قد تركوا حصار زردنا واتجهوا إلى حصار عزار — شمالى حلب على الطريق بين أنطاكية والرها<sup>(٣)</sup> — وعند عراز دارت المعركة بين الصليبيين بقيادة بلدوين الثانى والمسلمين بقيادة البرسقى (أواخر مايو وأوائل يونيه سنة ١١٢٥)؛ فانتصر الجانب الأول انتصاراً كاملاً، وكسر البرسقى كسرة عظيمة واستشهد

(١) Runciman: op. cit; II, p. 173.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب (P. 651) &

Foucher de Chartres, p. 471.

(٣) Guillaume de Tyr, p. 580.

جماعة من المسلمين من السوق والعامّة « (١) . وقد قدر المؤرخون الصليبيون عدد قتلى المسلمين بألفين ، وقد رهم ابن الأثير بأكثر من ألف (٢) . أما بقية الجيش الإسلامي فقد ولى الأديار ، تاركين خلفهم عدداً كبيراً من الأسرى وقد راهاثوا من الغنائم . وبعد ذلك دارت بين الفريقين مفاوضات قصيرة انتهت بتسليم ابنة بلدوين الثانى الصغيرة وابن الأمير جوسلين دى كورتناى ، وغيرهما من الرهائن التى كانت فى حوزة سلطان بن منتدأ أمير شيزر (٣) . ثم عاد بلدوين الثانى إلى بيت المقدس بعد أن عقد صلحاً مع البرسقى احتفظ فيه المسلمون بكفر طاب ، فى حين رجع البرسقى إلى الموصل بعد أن ترك حامية فى حلب (٤) .

على أن الملك بلدوين الثانى لم يهدأ عن حرب المسلمين ، واختار تلك المرة أن يهاجم طغتكين ، فقام بحملة على إمارة دمشق سنة ١١٢٦ . وقد استهدفت خطة بلدوين مهاجمة مدينة دمشق نفسها ، فاتجه إلى حوران ومنها إلى وادى النقرة فوادى مرج الصفر فوادى العجم ، حتى وصل فى منتصف يناير سنة ١١٢٦ إلى الأطراف الشمالية من إقليم شرخوب . وعند تل شتجب — إلى الجنوب الغربى من دمشق — دارت المعركة بين طغتكين وبلدوين الثانى فى ٢٥ يناير سنة ١١٢٦ ، وفيها هزم طغتكين وقتل عدد كبير من رجاله (٥) وعندما انصرف الصليبيون لمطاردة المسلمين ، انقض التركان على المعسكر الصليبي وقد خلا من المدافعين عنه ، فمهبوا « خيامهم وأموالهم وجميع مامعهم » (٦) . أما بلدوين الثانى فقد طارد الدماشقة حتى عتبة شحوا ، ثم عاد إلى بيت المقدس

(١) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 651)

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٩ هـ .

(٣) Guillaume de Tyr, p. 580.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب (p. 651)

(٥) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان (Rec. Hist. Or. p. 506)

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

وقد ذكر ابن الأثير أن هذه المعركة دارت عند قرية شحجا .

حيث استنجد به أمير طرابلس لمعاونته في حصار رمنية<sup>(١)</sup>.

ذلك أنه حدث في مارس سنة ١١٢٦ أن هاجم بونز أمير طرابلس قلعة رمنية التي كانت — مثل حمص — تابعة لأتابك دمشق ، وتتمتع بموقع هام بحكم إشرافها على أطراف وادي نهر العاصي فيما بين حماة وحمص . ولم يرض الصليبيون عن انزعاع المسلمين رمنية منهم سنة ١١١٥ ، بل شيد الأمير بونز صاحب طرابلس فوق مرتفع على مقربة منها قلعة بعين ، لشن إغارات دائمة على رمنية<sup>(٢)</sup> . وعندما هدد بونز رمنية سنة ١١٢٦ وساعده بلدوين الثاني «وضيقوا عليها» ، لجأ حاكم رمنية — شمس الخواص — إلى الاستنجد بطغتكين أتابك دمشق ، والبرسقي أتابك حلب والموصل . على أن رمنية لم تستطع المقاومة حتى تأتيها النجدة ، فاستسلمت بعد حصار ثمانية عشر يوما ، واستولى عليها أمير طرابلس ليشن منها غارات مستمرة على منطقة حمص . هذا إلى أن استيلاء الصليبيين على رمنية أمن الطريق بين بيت المقدس وأنطاكية ، كما أن إمارة طرابلس ذاتها<sup>(٣)</sup>.

وفي ذلك الوقت خرج البرسقي من الموصل إلى بلاد الشام عن طريق منبج فأرسل ابنه عز الدين مسعود إلى حمص لإبعاد الصليبيين عنها ، واتجه هو نفسه إلى إمارة أنطاكية حيث حاصر الأتارب واستولى على بعض أطرافها ، مما جعل الملك بلدوين الثاني يسرع إليه لصدده<sup>(٤)</sup> . ويبدو أن موقف ملك بيت المقدس عندئذ كان حرجا إلى حد كبير ، لأنه في الوقت الذي تعرضت إمارة أنطاكية

(1) Stevenson : op. cit. p. 118.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I D, 641.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦

ابن العديم: زبدة الحلب (p. 652) &

Foucher de Chartres, p. 480.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or III. p. p. 652-953)



لهجوم البرسقي ، قام أسطول فاطمي بمهاجمة موانئ فلسطين الصليبية . على أن خطر البرسقي كان أوضح وأشد قريبا ، ولذلك اتجه بلدوين لإبعاده أولا ، واشترك معه جوسلين دي كورتناي أمير الرها . ويروي ابن العديم أن الملك بلدوين الثاني بعث إلى البرسقي يعرض عليه الصلح ، ويقول له « ارحل عن هذا الموضع وتنفق على ما كنا عليه في العام الخالي ونعيد ريفية عليك »<sup>(١)</sup> . فوجد البرسقي أن هذا العرض مرضي ، لاسيما وأنه كان يخشى أن يحمل بالمسلمين مثلما حدث لهم عند عزاز ، فانسحب وعدل عن حصار الأثارب . ولم تلبث أن تجددت الهدنة بين الطرفين ، وعاد البرسقي من حيث أتى بعد أن قام ببعض غارات محلية في مناطق سرمين ودانيث ، ووصل الموصل يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ حيث قتل في اليوم نفسه بيد أحد الباطنية<sup>(٢)</sup>

أما الأسطول الفاطمي الذي خرج من الاسكندرية ودمياط فقد اتجه إلى العريش ففزة وعسقلان ، ثم أخذ يتسكع بعضاً من الوقت أمام موانئ يافا وقيسارية وعكا وصور وصيدا وبيروت ، على إيجاد فرصة لمباغمة الصليبيين . وأخيراً دت السفن الفاطمية إلى مصر بعد اشتباك قصير مع الصليبيين في مدينة بيروت<sup>(٣)</sup>

### بوهيموند الثاني أمير أنطاكية

لم يهمل تنكرد أو روجر الأنطاكي أو الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس حق بوهيموند الصغير — أو الثاني — ابن بوهيموند الكبير في إمارة أنطاكية ؛ وكل ما هنالك هو أن بوهيموند الثاني كان صغيراً وقت وفاة أبيه ، فظل في

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ( p. 654 ) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ .

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٤ .

(3) Guillaume de Tyr, p. p, 587 — 588.

كنف أمه في إيطاليا حتى بلغ الثامنة عشر من عمره ، وعندئذ خرج من أوترانتو  
على رأس أسطول من أربع وعشرين مركبا مليئا بالمقاتلين والخيول والزاد ،  
واتجه إلى الشام لمباشرة حقه الشرعى فى حكم أنطاكية ، فوصل ميناء السويدية  
فى أوائل أكتوبر سنة ١١٢٦<sup>(١)</sup> . وكان أن استقبله الملك بلدوين الثانى فى  
أنطاكية استقبالا حاراً ليسلمه إمارته ، ثم ليعرض عليه الزواج من ابنته الثانية  
إليس ؛ الأمر الذى تم فعلا فى سبتمبر سنة ١١٢٧ والذى ترتبت عليه تقوية  
الرابطة بين مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية فى عهدىها الجديد<sup>(٢)</sup> .

وسرعان ما أثبت بوهموند الثانى أنه لا يقل تحمساً للهدف الصليبي وبلاءً  
فى محاربة المسلمين عن أبيه ، حتى لقد وصف أسامة بن منقذ مجيئه إلى الشرق بأنه  
« بلية عظيمة » على المسلمين<sup>(٣)</sup> . ولم يلبث أن استرد بوهموند الثانى كفرطاب  
الذى سبق أن انتزها آقسنقر أنابك الموصل وحلب سنة ١١٢٥ من إمارة  
أنطاكية . كذلك قام بوهموند الثانى بعدة هجمات سنة ١١٢٩ على المسلمين ،  
فاستولى منهم على حصن القدموس<sup>(٤)</sup> .

وفى ذلك الوقت ساءت أحوال حلب بعد مقتل البرسقى فى نوفمبر سنة  
١١٢٦ . ويبدو أن حالة الفوضى التى غرقت فيها حلب فى تلك الفترة ، أغرت  
جميع جيرانها الأبعدين والأقربين — من المسلمين والصليبيين سواء — على  
اهتبال تلك الفرصة للاستيلاء على المدينة . من ذلك أن جوساين دى كورتناى  
أمير الرها أسرع إلى حلب سنة ١١٢٧ ، فى الوقت الذى خف إليها أيضا بوهموند

(١) Foucher de Chartres, p. p. 481 - 483.

(٢) Foucher de Chartres, p. 485.

(٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢١ .  
ويطلق أسامة على بوهموند الثانى اسم « ابن ميمون » وعلى أبيه بوهموند الأول  
اسم « ميمون » .  
(٤) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٢٤ .

الثانى أمير أنطاكية ، مما أثار نوعاً من التنافس الشديد ، بل العداء المكشوف بين الأميرين الصليبيين بسبب رغبة كل منهما فى الافراد بالفنيصة وحده <sup>(١)</sup> .  
والواقع أنه ربما كانت هناك عوامل أخرى باطنية سببت النفور بين الأميرين . ذلك أنه يبدو أن جوسلين دى كورتناى كان يأمل أن يفوز فى يوم ما بعرش مملكة بيت المقدس بحكم قرابته من بلدوين الثانى من ناحية ، وبحكم السوابق التى جعلت كلا من بلدوين الأول وبلدوين الثانى يرتقى من أمير للرها إلى ملك على بيت المقدس من ناحية أخرى . ولكن زواج بوهيموند الثانى من ابنة الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، جعلت من بوهيموند منافساً خطيراً لجوسلين فى مطامعه فى عرش بيت المقدس ؛ وهذا هو بعض السرفى النفور بين الرجلين <sup>(٢)</sup> . ومهما يكن من أمر ، فقد أسرع بلدوين الثانى إلى أنطاكية ونجح بمهارته فى تسوية النزاع بين بوهيموند الثانى وجوسلين قبل أن يتفاقم .  
على أن الخطر الذى هدد بوهيموند الثانى وأودى بحياته جاء من ناحية الشمال ، أى من ناحية بنى دانشمند التركان . ذلك أن الأمير الأرمنى ثوروس الأول ( ١١٠٠ — ١١٢٩ ) استطاع أن يؤسس إمارة قوية فى قيليقية ، وانتزع من البيزنطيين سيس وعين زارب ( عين زربة ) . ولكن وفاة ثوروس سنة ١١٢٩ ، ثم وفاة ابنه قنسطنطين مسموماً بعد قليل ، جعلت تلك الإمارة الأرمنية تعاني كثيراً من اللطماع الخارجية والمتاعب الداخلية <sup>(٣)</sup> . وقد جاء الخطر الكبير الذى واجهته تلك الإمارة من جانب الأمير إيلغازى بن الدانشمند — صاحب ملطية — من ناحية الشمال ، والأمير بوهيموند الثانى — صاحب أنطاكية — من ناحية الجنوب . ولم يلبث أن تقابل هذان الخصمان — الأتراك والنورمان —

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 651 .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ .

(3) Iorga : L'Arménie Cilicienne, pp 92 — 93.

في سهل عين زربة ، حيث دارت في فبراير سنة ١١٣٠ معركة انتصر فيها الأتراك وقتل بوهيموند الثاني نفسه لعدم معرفة شخصيته . ويقال إن الأمير إيلغازي عندما عرف رأس بوهيموند أرسلها إلى الخليفة العباسي في بغداد ، ومعها هدايا كثيرة من الخيل والسلاح ( فبراير سنة ١١٣٠ ) (١) .

ولا شك في أن مقتل بوهيموند الثاني وهو في شرح شبابه ولم ، يمس على قيامة في حكم أنطاكية سوى ثلاث سنوات وثلاثة شهور ، جاء كارثة كبيرة للصليبيين ، لأنه كان يبشر بأمل عظيم ومستقبل زاهر في مجال النشاط الصليبي . وهكذا عادت أنطاكية مرة أخرى تحت وصاية الملك بلدوين الثاني . وكان بوهيموند الثاني قد أنجب من زوجته إليس — ابنة الملك بلدوين الثاني — طفلة صغيرة هي الأميرة كونستانس . وهذه الأميرة الصغيرة صارت الوريثة الشرعية لإمارة أنطاكية ، وذلك وفقاً للقانون الإقطاعي الغربي . لذلك حزنّت إليس في قرارة نفسها ، وكان يهمها أن تراث الإمارة بعد زوجها لتذوق طعم السلطان (٢) ولم تحجم إليس في سبيل تحقيق أطامها عن التآمر مع المسلمين ضد المصالح الصليبية ، فأرسلت فرساً مطهما مع رسول يحمل رسالة سرية إلى زنكي — أتابك حلب — تطلب مساعدته ، مقابل تعهدها بالتبعية له (٣) . وقد شاء حسن حفظ الصليبيين ألا تصل هذه الرسالة وإنما وقعت في يد الصليبيين وعلم بها الملك بلدوين الثاني الذي استشاط غضبا من حماقة ابنته ، واتجه فوراً صوب أنطاكية ليحقق بنفسه في الأمر . وهنا تمادت إليس في طيشها فأعلنت الثورة على أبيها ، وأغلقت في وجهه أبواب أنطاكية (٤) . ولم يكن معقولا أن يوافق أعيان أنطاكية وأمرائها

(1) Michel Le Syrien, p. 227.

(2) Setton : op. cit, I, p. 431.

(3) Runciman : op. cit; II, p. 183.

(4) Stevenson : op. cit, p. 129.

على تلك التصرفات من جانب إليس ، فثاروا ضدها وفتحوا للملك ومن معه — مثل جوسلين دى كورتنائى وفولك الأنجوى — أبواب المدينة . وكان أن وضع بلدوين الثانى أنطاكية تحت وصايته إلى أن تسكبر الأمير كونستانس ، فى حين أقطع ابنته إليس اللاذقية وجبله لتعيش فى تلك الجهات الساحلية بعيداً عن أنطاكية وعن الأتراك فى حلب<sup>(١)</sup> .

---

(1) Guillaume de Tyr. p. p. 599 — 601 &

ابن العديم : زبدة الحلب ( III, p. p. 660 — 661 ) .

## الفصل الثالث

### فولك الأنجوى ملك بيت المقدس

#### نهاية بلدوين الثانى :

كان على بلدوين الثانى أن يفكر فى مصير عرش مملكة بيت المقدس من بعده ، حيث أنه لم يرزق من زوجته الأرمينية مورفا سوى أربع بنات ، زوج إحداهن — إليس — للآمير بوهيموند الثانى صاحب أنطاكية سنة ١١٢٦ ، كما مر بنا . غير أن بلدوين الثانى لم يفكر إطلاقاً فى أن يجعل من بوهيموند الثانى وريثاً له فى مملكة بيت المقدس ، وإنما اختار أن يبعث سفارة من رجاله إلى فرنسا سنة ١١٢٨ لاختيار أحد الأمراء المعروفين بشجاعتهم ومقدرتهم ، فرشح لويس السادس ملك فرنسا لتلك المهمة فولك الخامس الأنجوى ، وهو من أقدر أمراء المملكة الفرنسية عندئذ . وكان أن حضر الأمير فولك إلى مملكة بيت المقدس فى ربيع سنة ١١٢٩ ، وبعد قليل تزوج من ميراندا ابنة الملك بلدوين الثانى الكبرى ، ثم أقطع الملك زوج ابنته مدينتى صور وعكا . وهكذا أصبح فولك الأنجوى — بحكم زواجه من وريثة بلدوين الثانى — هو ملك بيت المقدس المقبل <sup>(١)</sup> .

ثم إن بلدوين الثانى أراد أن يعرن خليفته فولك على محاربة المسلمين ، فصاحبه عقب زواجه من ابنته سنة ١١٢٩ فى حملة لمهاجمة دمشق ، التى كان حاكمها

(١) Guillaume de Tyr, I, p. 594.

طفلكين قد توفي في فبراير سنة ١١٣٨ تاركا المدينة في حالة شديدة من الفوضى ، بسبب ازدياد نفوذ الباطنية الذين « قويت شوكتهم وتضاعفت مضرتهم »<sup>(١)</sup> .

وأخيراً توفي بلدوين الثاني في ٢١ أغسطس سنة ١١٣١ بعد أن حكم ثلاث عشرة عاماً ، تاركا خلفه فولك الأنجوى ليخلفه في حكم بيت المقدس . وقد احتفل بتتويجه ملكاً بكنيسة القيامة في ١٤ سبتمبر سنة ١١٣١<sup>(٢)</sup> ،

### أحوال اورشليم الصليبية عند قيام فولك في الحكم:

ولم يكد الملك فولك يتولى حكم مملكة بيت المقدس ، حتى توفي جوسلين دى كورتنای أمير الرها ، تاركا فراغاً كبيراً في المجال الصليبي في شمال العراق والشام . وقد ظل جوسلين يحارب المسلمين — رغم تقدم سنه — حتى آخر لحظة؛ ومن ذلك ما يرويه ابن العديم من أنه اشتبك سنة ١١٣١ — وهي السنة نفسها التي توفي فيها — في حرب ضد الحلبيين شمالى مدينة حلب « وقتل من المسلمين جماعة »<sup>(٣)</sup> .

وكان جوسلين أثناء تلك العملية الحربية الأخيرة يفحص لغماً بثه الصليبيون تحت جدار أحد الحصون في تلك المنطقة ، فانهار الحائط عليه وأخرجه أصحابه بصعوبة وقد تهشمت عظامه ، فنقل إلى تل باشر في حالة سيئة حيث بانث وفاته متوقعة بين لحظة وأخرى<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق س ٢٠ — ٢٢١ .

ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٢٣ هـ .

(2) Guillaume de Tyr, p. p. 601 — 602

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. III, p. 661 )

(4) Michel Le Syrien p. 232.

وينا جوسلين دى كورتناى يعانى آلام الموت البطيء ، جاءت الأخبار بأن مسعود الأول سلطان قونية (١١١٦ - ١١٥٥) أخذ محاصرة قلعة كيسوم فى الشمال الغربى من إمارة الرها ، جنوبى بهسنى . وكانت كيسوم هذه تتمتع بأهمية خاصة عند الصليبيين ، لا لموقعها الحربى الهام فحسب ، بل أيضاً بسبب أهميتها الدينية ، بعد أن انتقل إليها كرمى بطرق اليعاقبة بأنطاكية<sup>(١)</sup> . لذلك خرج جوسلين دى كورتناى — وهو على شفا الموت — لقتال الأتراك ، فحمله إلى كيسوم . ولكنه وجد أن السلاجقة تركوا حصار القلعة وانصرفوا . ولم يلبث أن توفى جوسلين دى كورتناى بعد ذلك ، فى أواخر سنة ١١٣١<sup>(٢)</sup> .

وكان أن خلف جوسلين دى كورتناى — فى إمارة الرها — ابنه جوساين الثانى ، الذى كان جباناً لا يمتلك شيئاً من عزيمة أبيه وحاسته وشجاعته . وسنرى أنه عندما رأى الرها معرضة لتهديد المسلمين المستمر ، أثر أن يتركها ويقيم فى تل باشر لينعم بتسقط من الهدوء ، مما ترتب عليه ضياع الرها من قبضة الصليبيين . وهكذا مرت إمارة الرها بفترة عصيبة دون رجل قوى يذود عنها فى الوقت الذى جمع عماد الدين زنكى بين حكم الموصل وحلب «فاشئت أزر المسلمين بتلك الأعمال وضعفت قوى الكافرين ، وعلموا أن البلاد قد جاها ما لم يكن فى حساب . وصار قصاراهم حفظ ما فى أيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا فى الملك الجميع»<sup>(٣)</sup> .

هذا عن الرها ، أما أنطاكية فكانت أحوالها لا تقل خطورة فى الوقت الذى اعتلى فولك عرش بيت المقدس . ذلك أن إمارة أنطاكية ظلت بلا رائد

(1) Grousset : Hist. des Croisades II, p. 7.

(2) Guillaume de Tyr, p ٤١٠.

(٣) يشير ابن الأثير فى هذا النص إلى بداية انحلال الصليبيين من ناحية ومولد الوحدة الإسلامية على يد زنكى من ناحية أخرى (الكامل؛ حوادث سنة ٥٢٤ هـ) .



عقب مقتل يوهيموند الثانى فى فبراير سنة ١١٣٠ لأن ابنته الوحيدة ووريثته — كونستانس — كانت طفلة صغيرة . ولم تنقطع أم هذه الطفلة — الأميرة إليس — عن تدبير المؤامرات للوصول إلى الحكم فى أنطاكية ، بعد أن توفى والدها بلدوين الثانى الذى أحبط مؤامرتها الأولى <sup>(١)</sup> . وفى تلك المرة لم تحاول إليس الإلتجاء إلى عماد الدين زنكى ، وإنما استطاعت أن تكتسب بمهارتها وكياستها وهداياها ثلاثة من أمراء الصليبيين ، هم ولينم صاحب حصن صهيون على بعد عدة كيلو مترات من اللاذقية ، وجوسلين الثانى أمير الرها ، وبونز أمير طرابلس . وبمساعدة هؤلاء الثلاثة دبرت إليس مؤامرة سنة ١١٣٢ للعودة إلى أنطاكية والتبض على زمام الأمور فيها . على أن فرسان أنطاكية أحسوا بالمؤامرة ، وأدركوا أنه إذا نجحت إليس فى تحقيق أهدافها ، فإن ذلك يعنى القضاء المبرم على الإمارة ، فأرسلوا إلى فولك ملك بيت المقدس يستنجدون به <sup>(٢)</sup> .

وعندما أسرع الملك فولك لإحباط المؤامرة ، لم يسمح له بونز أمير طرابلس بالمرور فى أراضيه ، ولكن فولك نفذ إلى بيروت رغم ذلك ، واختار أن يرجىء انتقامه من بونز إلى وقت آخر <sup>(٣)</sup> . ومن بيروت ركب الملك فولك البحر إلى السويدية ومنها إلى أنطاكية ، حيث رحب به فرسانها ونادوا به وصياً على الأميرة الصغيرة كونستانس بدلا من سلفه بلدوين الثانى . ويبدو أن تلك التطورات لم تعجب بونز ، فتدخل بوصفه حامياً للأميرة إليس ، وساعده بعض الأمراء الصليبيين فى القلاع المجاورة ، حتى اتخذت الحركة شكل ثورة عامة ضد الملك فولك فى شمال الشام <sup>(٤)</sup> . ولكن يبدو أن أولئك الأمراء التأثيرين لم يعرفوا فولك حق المعرفة ، وهو الفارس القوى الذى قضى عشرين سنة فى فرنسا ،

(1) Stevenson : op. cit, n. 131.

(2) Guillaume de Tyr, p. 611.

(3) Michand : op cit, II, p. 85.

(4) Stevenson : op cit, p. 141

عرك فيها حياة الفروسية والإقطاع . لذلك لم يتردد فولك أمام تهديد بونز وحلفائه ، ونازلهم حتى اضطر بونز إلى الفرار ، تاركا عدداً من فرسانه أسرى في قبضة الملك فولك<sup>(١)</sup> . ومع ذلك فإن الملك فولك لم يافع في العفو عن بونز ورفاقه بعد أن لقنهم درساً قاسياً في وجوب احترام سلطة الملك من ناحية ، ومراعاة الآداب والأصول الإقطاعية من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup> .

وبعد أن أقام فولك عدة أيام في أنطاكية نظم فيها أمورها بوصفه وصياً على الإمارة ، وعهد بشئونها الإدارية إلى رينو ماسوير Renaud Masoir ، عاد إلى بيت المقدس .

### فولك واندفاع عن الامارات الصليبية ضد المسلمين :

وقد رأى الأتراك التركمان أن يفيدوا من حوادث الشقاق السابقة بين الصليبيين ، فأنت جموع كبيرة منهم من أرض الجزيرة وعبروا الفرات ، وأغاروا على الأراضي الواقعة شرق نهر العاصي من ممتلكات إدارة أنطاكية ، واتخذوا مناطق معرة النعمان وكفر طاب قواعد لأعمالهم الخربية في تلك الجهات<sup>(٣)</sup> على أن الصليبيين لم يلبثوا أن تناسوا خصوماتهم أمام ذلك الخطر ( أبريل سنة ١١٣٣ ) وطردوا أولئك المغيرين ، وافتهمزوا فرصة تلك المطاردة ليستولوا أيضاً على حصن قبة ابن ملاعب قرب حماة « وخربوا الموضع »<sup>(٤)</sup> .

---

(١) أشار كل من ابن الأثير وابن العديم إلى تلك الأحداث الصليبية . فقال ابن الأثير : « وفيها (سنة ٥٢٧ هـ) وقع الخلف في الشام بين الفرنج ، فقاتل بعضهم بعضاً ، فلم يجر لهم بذلك عادة قبل هذه السنة ، وقتل بينهم جماعة » . أما ابن العديم فقال « وقع بين الفرنج في هذه السنة فتن ، وقتل بعضهم بعضاً ، وقتل صاحب زردنا » . (زبدة الحلب ٦٦٤ p.)

(2) Guillaume de Tyr. p. p. 612 — 613.

(3) Setton : op. cit; I, p. 433

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (٦٦٥ - ٦٦٤ Rec. Hist. Or. III, 664 - 665)

على أنه إذا كان التركمان قد اضطروا إلى الابتعاد عن إمارة أنطاكية ، فإنهم لم يلبثوا أن اتجهوا صوب إمارة طرابلس حيث اعتدوا على الأهالي واستولوا على كثير من ممتلكاتهم . وهنا خرج بونز أمير طرابلس للدفاع عن إمارته ، فاستدرجه التركمان حتى أوقعوا به الهزيمة وأحدثوا مذبحة كبيرة بين الصليبيين ، في حين اضطر بونز نفسه إلى اللجوء إلى قلعة بعين - شرق أنطراطوس - حيث حاصره التركمان ( أكتوبر ١١٣٣ )<sup>(١)</sup>.

وفي تلك الأثناء كان الصليبيون في أنطاكية قد استنجدوا بالملك فولك الذى زحف على الفور صوب الشمال ، في الوقت الذى استطاع بونز الفرار من قلعة بعين . ويذكر وليم الصورى أن التركمان سرعان ما جلاوا عن بعين عندما علموا باقتراب فولك ، في حين ذكر ابن الأثير وابن القلانسي أن التركمان لم يتراجعوا عن بعين إلا بعد معركة حامية بينهم وبين الصليبيين<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن أمن فولك إمارة طرابلس من خطر التركمان ، اتجه صوب أنطاكية . وفي ذلك الوقت قصد سيف الملك بن عمرون - صاحب حصن القدموس السابق<sup>(٣)</sup> - أنطاكية لمخالفة الصليبيين ضد حلب . وقد رحب فولك على الفور بتلك المخالفة ، لا سيما وأن سوار حاكم حلب من قبل زنكي كان يستعد للاشتراك مع التركمان للقيام بغارة على أنطاكية سنة ١١٣٣ . وكان أن دارت معركة بين الطرفين عند قنسرين جنوبي حلب ، انتهت بانتصار فولك

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠

ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٢) « وتوجه بهم نحو التركمان ليرحلهم عن بعين ، فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوا بهم وقتل بينهم خلق كثير ، وأشرف الفرنج على الهزيمة ... »

ابن الأثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٣) يذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٥٢٧ هـ أن الإسماعيلية في الشام اشتروا في تلك السنة قلعة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون :

وهزيمة سوار والتر كان<sup>(١)</sup> ؛ وإن كانت بعض المراجع العربية لم تشر في وضوح إلى تلك الهزيمة<sup>(٢)</sup> . وهكذا استطاع الصليبيون أن يحتفظوا بمكانتهم في شمال الشام بفضل جهود الملك فولك ، على الرغم من الإغارات التي دأب سوار على شنّها على الممتلكات الصليبية مثل الجزر وحصن زردنا ومعرة النعمان ومعرة مصرين سنة ١١٣٤ ، أي بعد عودة فولك إلى بيت المقدس<sup>(٣)</sup> .

وفي تلك الأثناء لم يهمل الصليبيون مملكة بيت المقدس ذاتها ، التي كانت أمورها — أثناء غياب فولك في الشمال — تسير سيراً طيباً بفضل توجيهات البطرق وليم دى مسين . من ذلك ما لجأ إليه الصليبيون من تأمين طريق الحجاج بين يافا وبيت المقدس ، وحمايتهم من إغارات المسلمين الذين كثيراً ما كانوا يخرجون من عسقلان لتهديدهم . ولذلك شيد الصليبيون في أواخر سنة ١١٣٢ وأوائل سنة ١١٣٣ حصن بيت نوبا في منتصف الطريق بين اللد وبيت المقدس<sup>(٤)</sup> . ثم أكمل الملك فولك تلك التحصينات بإقامة بيت جبرين ( جبريل ) سنة ١١٣٧ في منتصف الطريق بين الخليل وعسقلان ، وعهد بحماية تلك القلعة إلى الفرسان الاسبتارية<sup>(٥)</sup> .

---

(١) Guillaume de Tyr, p. 616.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ — ٢٤١ &

ابن الأثير : السكامل ، سنة ٥٢٧ هـ .

وقد ذكر ابن القلانسي عن تلك الواقعة « حمل الافرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة قتلوا فيها من المسلمين تقدير مائة فارس ، فيهم جماعة من القدمين المشهورين المذكورين » .

أما ابن الأثير فقد قال عن تلك الواقعة : « فاقبلوا عند قنسرين فقتل من الظائفين جماعة كثيرة ، وانهمزم المسلمون إلى حلب » .

(٣) ابن المديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. III, p. 667 )

ويذكر الأثير : ( السكامل ، حوادث سنة ٥٢٧ هـ ) « وفيها أغار الأمير سوار مقدم عسكر زنكي بحلب على ولاية تل باشر فغنم الكثير ؛ فخرج إليه الفرنج جموع كثيرة فقاتلوه ، فظفر بهم وأكثرت القتل فيهم » .

(٤) Guillaume de Tyr, I, p. 617.

(٥) King : The Knights Hospital'ers, p. 34.

### متاعب الصليبيين المملوكية :

على أن الأمور لم تنتظم لفولك في سهولة على طول الخط ، إذ واجهته أثناء حكمه متاعب كثيرة ، ومشاكل داخلية هددت جهاز الصليبيين بالشام . ومن هذه المتاعب ما ارتبط بالأطماع السياسية للامراء ، ومنها ما تعلق بالأمور الكنسية . من ذلك الثورة التي قام بها هيومان الثاني حاكم يافا ضد فولك ملك بيت المقدس سنة ١١٣٢ . وكان هيومان هذا على علاقة بالملكة ميراندا ابنة بلدوين الثاني وزوجة فولك — وهي العلاقة التي قواها أن هيومان الثاني كان متزوجاً من أرملة تسكبره بكثير في السن ، في حين أن الملكة ميراندا لم تبادل زوجها فولك الحب لأنه كان بدوره يكبرها بكثير في السن . ولم تلبث أن انفشرت الشائعات بالعلاقة بين هيومان الثاني أمير يافا وملكة بيت المقدس زوجة فولك ، مما أثار غيرة الأخير وحقد الأول . وعندما ساء موقف هيومان اضطر إلى الفرار للاختباء بالفاطميين في عسقلان (١) .

وقد استغل الفاطميون تلك الخيانة — وما نتج عنها من فرقة في صفوف الصليبيين — وأغاروا على إقليم يافا حتى وصلوا إلى مشارف أرسوف في الوقت الذي أصرع أتابك دمشق من جانبه إلى تهديد الممتلكات الصليبية واحتلال بانياس . ولكن الجيوش الصليبية أسرع من بيت المقدس واحتلت يافا لحمايتها من الفاطميين . أما هيومان الثاني فقد حكم عليه بالنفي ثلاث سنوات ، ولكنه قبل رحيله تعرض لاعتداء من أحد فرسان بيت المقدس فأصيب بإصابة خطيرة ، ومهما يكن من أمر ، فإن هيومان الثاني لم يمت ، وإنما أبحر إلى روجر الثاني ملك صقلية الذي منحه إمارة جارجانو ، حيث مات بعد قليل (٢) . وأما ميراندا ملكة بيت المقدس

(1) Besant, Palmer: Jerusalem, p. p. 291—292.

(2) Guillaume de Tyr, p. p. 627—633.

فقد غضبت غضباً شديداً لما حل بعشيتها هيو الثانى ، وأخذت تتحين الفرص للانتقام ، فى حين لم يجد فولك بداً من استرضاء زوجته الشابة بإعطائها مزيداً من السلطان والنفوذ <sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن ظهر نفوذ الملكة واضعاً ، ليس فقط فى شئون مملكة بيت المقدس ، بل أيضاً فى شئون أنطاكية .

ذلك أن المتاعب الداخلية التى واجهت الملك فولك فى تلك الفترة لم تنحصر داخل حدود مملكته فحسب ، بل عمت أيضاً بقية الإمارات الصليبية ، وبخاصة إمارة أنطاكية التى قام فولك بالوصاية عليها وعلى صاحبها القاصر الأميرة كونستانس . ولم يلبث الملك فولك أن واجه فى أنطاكية المتاعب نفسها التى واجهها سلفه بلدوين الثانى ، وهى متاعب مصدرها أطماع البطرق رادلف من جهة والأميرة إليس من جهة أخرى <sup>(٢)</sup> . وكان البطرق رادلف طموحاً ، استطاع بذلك أن يمكن لنفسه فى قلوب الأمراء والعامة فى أنطاكية ، وحاول أن يستغل بشئون كنيسة متجاهلاً سلطة البابوية وحقوقها ، فضلاً عن أنه دأب على التدخل فى الشئون السياسية والحربية <sup>(٣)</sup> .

أما الأميرة إليس فلم تتنازل فى منفاها باللاذقية عن رغبتها فى السيطرة على شئون أنطاكية وانتزاع حقوق ابنها كونستانس ، واستعانت فى تحقيق ذلك بأختها الملكة ميلاند ، زوجة فولك الشابة المدللة <sup>(٤)</sup> . وكان تأثير ميلاند على زوجها قد أخذ يزداد وطأة ووضوحاً ، فرضخ الملك لزوجته ووافق على عودة إليس إلى أنطاكية والقيام بتوزيع المناصب على فرسان الإمارة ، مما جعل إليس — بالاشتراك مع البطرق رادلف — يمثلان السلطة الفعلية الحاكمة فى إمارة أنطاكية <sup>(٥)</sup> .

(1) Runciman : op. cit, II, p. 193.

(2) Setton : op. cit, I, p. 436.

(3) Guillaume de Tyr. I, p. p. 619—620.

(4) Stevenson : op. cit, p. 135.

(5) Guillaume de Tyr, p. 636.

وسرعان مادب التنافس بين إليس والبطرق رادلف في الوقت الذي كان زنكي والمسلمون يرقبون بعين الرضى ضعف إمارة أنطاكية وانحلال أمورها، ثم إن رادلف لم يلبث أن وقع في خلاف مع رجال كنيسته، مما ترك إليس مطلقة اليد في شئون الإمارة. وقد أحست إليس بكره الصليبيين لها بعد أن انكشفت علاقتها بزنكي، فحاولت أن تعتمد على تأييد المسيحيين المحليين، وأرسلت في نهاية سنة ١١٣٥ إلى الإمبراطور البيزنطي تعرض عليه زواج ابنتها كونستانس من ابن الإمبراطور<sup>(١)</sup>. وقد ارتاع أمراء أنطاكية ورجال كنيستها لذلك الاتجاه الذي سيجعل منهم تابعين للدولة البيزنطية وكنيستها الشرقية، فأرسلوا نوراً إلى الملك فولك طالبين منه اختيار عريس مناسب للأميرة كونستانس، ليرعى شئون الإمارة ويحفظها من الفوضى الداخلية والأخطار الخارجية، فوقع اختيار الملك على ريموند ابن الأمير ولیم التاسع أمير بوانيه<sup>(٢)</sup>.

ومع إحاطة ذلك المشروع بالسرية التامة خوفاً من أن تفسده الأميرة إليس أو البطرق رادلف، فقد صادف العريس ريموند دي بوانيه صعوبات كبيرة في طريقه، سواء في صقلية أو في أنطاكية، حتى تم تنفيذ الخطة سنة ١١٣٦ وأصبح ريموند أمير أنطاكية الجديد. وهكذا وجدت إليس نفسها وقد غلبت على أمرها فلم يسعها سوى الانسحاب إلى اللاذقية حيث قضت حياتها في شبه عزلة إلى أن ماتت بعد قليل<sup>(٣)</sup>. أما إمارة أنطاكية فقد وجدت ضالتها أخيراً في شخص ريموند، ذلك الأمير القوي الذي أجمع المؤرخون المسلمون والصليبيون على وصفه بقوة الإرادة والعزيمة<sup>(٤)</sup>.

ولم يلبث أن صادف ريموند أمير أنطاكية الجديد منافسة حادة، بل عداوة

(1) Runciman : op. cit; II, p. p. 198-199.

(2) Guillaume de Tyr, p. 618.

(3) Idem : p. p. 636-637.

(4) Grousset : Hist, des Croisades, II, p. 40.

ظاهراً — من رادلف بطرق أنطاكية . وهنا نجح الأمير ريموند في استمالة بعض رجال الدين في أنطاكية إليه، فضلاعن بعض الأمراء؛ وشكوا جميعاً إلى البابوية سوء تصرفات رادلف مما اضطر الأخير إلى السفر إلى إيطاليا للدفاع عن نفسه (٢) وعند عودة رادلف إلى أنطاكية، وجد أن أعداءه — من رجال الدين وغير رجال الدين — في تزايد مستمر . ولم يلبث أن أدى تفاقم الموقف في أنطاكية بالبابا إلى إرسال مندوب للتحقيق، فعقد ذلك المندوب مجمعاً في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية في ٣٠ نوفمبر سنة ١١٣٩، حضره جمع كبير من زعماء رجال الدين في مختلف الإمارات الصليبية، وانتهى الأمر بعزل البطرق رادلف ثم وفاته مسموماً سنة ١١٤٢ . وبعد قليل أختير أميرى دى ليموج بطرقاً على أنطاكية محل رادلف (٣) .

### فولك والهندا كل الكنيسة :

وبالإضافة إلى المشاكل الداخلية ذات الطابع السياسى التى واجهها الملك فولك أثناء حكمه، صادفته أيضاً بعض مشاكل دينية ارتبطت بالكنيسة . وقد دارت أولى هذه المشاكل حول أسقفية صور . ذلك أن استيلاء الصليبيين على مدينة صور سنة ١١٢٤ أثار مشكلة حول تبعية كرسى صور، وهل يتبع هذا الكرسى بطرقيّة بيت المقدس أم أنطاكية، فوفقاً للنظام الكنسى البيزنطى فى القرن الحادى عشر، كانت صور مركزاً لرئيس أساقفة يتبعه أساقفة عكا وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وأنطرسوس . وكان هؤلاء جميعاً — وعلى رأسهم رئيس أساقفة صور — يتبعون بطرق أنطاكية لا بطرق بيت المقدس (٤) . ولكن

(1) Setton : op. cit, p. 437.

(2) Guillaume de Tyr. I, p. p. 678—686.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 24—25



استيلاء جيوش مملكة بيت المقدس على صور ، ووجود بطرق بيت المقدس على رأس تلك الجيوش التي انتزعت صور من المسلمين ، جعل بطرق بيت المقدس يطمع في أن يجعل صور خاضعة لإشرافه ، للإشراف بطرق أنطاكية . أما رؤساء أساقفة صور أنفسهم فقد رفضوا أن يربطوا أنفسهم بأحد الطرفين المتنازعين ، على أساس أن البابا وحده هو الذى يمتلك حق الفصل فى النزاع ؛ وبذلك ظل رؤساء أساقفة صور يتمتعون باستقلالهم دون أن يعترفوا بالتبعية لبطرق بيت المقدس أو لبطرق أنطاكية<sup>(١)</sup> .

ومن الواضح أن فولك وجد نفسه فى موقف حرج صعب إزاء تلك المشكلة ، بوصفه ملك بيت المقدس من ناحية والوصى على إمارة أنطاكية من ناحية أخرى . وهكذا التزم فولك الحذر الشديد حتى لا يغضب أحد الجانبين ، حتى استطاع البابا أنوسنت الثامن أن يحل المشكلة حلاً موفقاً ارتاح له الجميع<sup>(٢)</sup> .

ويرتبط بالجانب الكهنسى فى سياسة فولك ذلك الجمع الكبير الذى عقد فى بيت المقدس فى أبريل سنة ١١٤٠ . ذلك أن المندوب البابوى الذى حكم بمزل رادلف بطرق أنطاكية ، اتجه بعد ذلك إلى بيت المقدس حيث عقد مجعاً كبيراً حضره زعماء الكنيسة الكاثوليكية فى مختلف الإمارات الصليبية . وترجع أهمية ذلك الجمع إلى أن جريجورى الثالث — رئيس الكنيسة الأرمنية — اشترك فيه ، مما أكسب الجمع أهمية سياسية خاصة . فكما أن ملكية بيت المقدس عملت على جمع شمل القوى الصليبية فى الشرق الأدنى تحت رايتها ، فكذلك عملت الكنيسة الكاثوليكية فى الشام على توحيد المسيحيين الشرقيين تحت زعامتها<sup>(٣)</sup> .

(1) Guillaume de Tyr. I, p. 623—624.

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 26.

(3) Guillaume de Tyr. I, p. 687.

## الفصل الرابع

### القوى الإسلامية في الشام والعراق

#### أحوال سلطنة فارس :

استطاع محمد بن ملكشاه سلطان سلاجقة فارس ( ١١٠٥ - ١١١٨ ) أن يمتد الدولة السلجوقية من الاستمرار في طريق الانزلاق الذي تردت فيه منذ عهد بركيارق، وأن يقوم بنصيب وافر في محاربة الصليبيين في العراق والشام . حقيقة إن بعض المؤرخين العرب مثل ابن الأثير يأخذون عليه عدم خروجه بنفسه للجهاد ، وأنه كان يكتفي بإرسال أتابكة الموصل وهمدان إلى الشام لقتال الصليبيين ، ولكننا يجب أن نتدر الظروف التي أحاطت بالسلطان محمد السلجوقي ، وأنه كان لا يستطيع أن يترك أملاكه في فارس والعراق ليتنازعهها أمراؤه ، فضلا عن تربص العرب بالعراق ورغبتهم في التحرر من سيطرة السلاجقة . ولا أدل على ذلك من ثورة بنى مزيد ، وهي القبيلة العربية التي كانت تنتشر في العراق غربي دجلة في المنطقة من البصرة حتى هيت <sup>(٢)</sup> ، إذ انتهز صدقه بن مزيد ( ١٠٨٦ - ١١٠٨ ) فرصة ضعف دولة السلاجقة للاستيلاء على المنطقة الواقعة حول الحلة ، غربي الفرات . ولم يلبث صدقه أن «عظم شأنه وعلاقده وامتنع جاهد واتسع ، واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم» ، فاتخذ لنفسه لقب «سيف الدولة» ، وأخذ يعمل لإنشاء دولة لنفسه في العراق ، مستقلة عن نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية جميعا ، مما جعل المؤرخ ابن الأثير يطلق عليه لقب «أمير العرب» <sup>(٣)</sup> . كذلك لم يتردد صدقه في مساعدة محمد بن ملكشاه ضد

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٢) المرجع السابق :

أخيه السلطان بركيارق ، مما جعل محمد يكافئه باعطائه واسط ويسمح له باحتلال البصرة . ولكن لم يكد محمد بن ملكشاه يتولى السلطنة حتى تنسكر لصدقة وخشي عاقبة أطاعه ، لاسمياً عندما رفض صدقة إطاعة أوامر السلطان والمسير ضد الصليبيين للجهاد ، بل أنه رفض الاجتماع بالسلطان . هذا إلى أن بنى مزيد كافراً جميعاً من الشعبية ، وصفهم أبو المحاسن بأن « الجميع رافضة » مما أثار حنق السلاجقة — وهم سنيون — عليهم <sup>(١)</sup> . وكان أن انتهى الأمر بأن أرسل السلطان محمد شاه جيوشه ضد صدقة ، فأنزلت به الهزيمة ، وسقط صدقة قتيلاً سنة ١١٠٨ ، وإن كان السلطان السلجوقي قد أكرم أرملة صدقة فأرسل لها أماناً « واعتذر إليها من قتل زوجها » وسمح لابنها ديس بأن يحل محل أبيه صدقة في إمارته <sup>(٢)</sup> .

أما في الميدان الصليبي فقد فشل السلطان محمد السلجوقي في حملاته وجهوده ضد الصليبيين . ومع ذلك فقد نجح في نشر نفوذ السلطنة على الأمراء الأتراك في منطقة الشرق الأدنى . وعند وفاة السلطان محمد سنة ١١١٨ خلفه ابنه محمود الذي كان في الرابعة عشرة من عمره ، فترك شئون الحكم في أيدي وزرائه وعنه سنجار شرف الدين أنوشروان ، في حين انغمس محمود نفسه في اللهو . وفي ذلك العصر بالذات أخذ يبدو بوضوح ضعف السلطنة السلجوقية وتدهور أحوالها <sup>(٣)</sup> ؛ وانعكس ذلك الضعف في العلاقة بين المسلمين والقوى المسيحية في الشرق الأدنى . ذلك أن سنجار وجه كل جهوده نحو الشرق والأجزاء الشرقية من الإمبراطورية ، ولم يعبأ بالشام وما كانت تجري فيه من أحداث بين المسلمين والصليبيين . وكذلك فعل الفرع السلجوقي في الأناضول ، إذ شغلت سلطنة الروم بالمنازعات

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

وقد اتهم البعض الأمير صدقة بأنه اتبع مذهب الباطنية ، ولكن ابن الأثير ينفي هذه التهمة ويقول « إنما كان مذهبه التشيع لا غير » .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 522-523.

بين أمراءها بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين بنى دانشمند حينا والبيزنطيين أحيانا ، وتركوا إخوانهم فى الشام يواجهون الصليبيين وحدهم <sup>(١)</sup> .

### الخطر العباسية والخطر الفاطمية :

أما الخلافة العباسية فكانت فى ذلك الوقت مجرد صورة شكلية ، دون أن يكون للخلفية العباسية أى ظل من السلطان والنفوذ . ولعل ضعف الخلافة العباسية فى ذلك الوقت هو الذى شجع ديبس بن صدقة على مهاجمة بغداد نفسها سنة ١١٢٠ . وكان ديبس — مثل أبيه صدقة — شيعيا ، فلم يحجم عن نهب المدينة وسلبها « وأتى بها من النهب والقتل والفساد ما لم يحجر مثله » ، بل إنه نصب نعيمه فى مواجهة قصر الخلفية العباسية المسترشد بالله ، الذى لم يجد وسيلة لدفع ذلك الخطر سوى الاستنجاد بالسلطان محمود السلجوقى <sup>(٢)</sup> .

وهكذا ظل ديبس يهدد بغداد من مركزه — الحلة — حتى أمر السلطان محمود أحد رجاله — وهو آقسنقر البرسقى أتابك الموصل — بمحاربته ، ولكن الهزيمة حلت بأتابك الموصل على الضفة الشرقية للفرات سنة ١١٢٢ <sup>(٣)</sup> . وقد أدى انتصار ديبس على البرسقى إلى ازدياد نفوذه ، مما جعل الخليفة العباسى يستغيث بالسلاجقة من جديد . وأخيرا حلت الهزيمة بالأُمير ديبس عند المباركة بين بغداد والكوفة — فى ربيع سنة ١١٢٣ ، فنقل ديبس نشاطه إلى البصرة ثم إلى قلعة جعفر فى شمال الشام حيث « التحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب وطعمهم فى أخذها » <sup>(٤)</sup> .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٣ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤ هـ .

(٣) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٦ هـ .

(٤) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٧ هـ .

ولعل في قصة ديس بن صدقة ما يكفي لإيضاح الوضع المؤسف الذى اتحدت إليه القوى الإسلامية في الشرق الأدنى ، في الوقت الذى كان فيه الصليبيون يمكنون لأنفسهم في بلاد الشام وشمال العراق . وكان المفروض في الخلافة العباسية عندئذ أن تزعم القوى الإسلامية لدفع خطر الصليبيين عن البلاد الإسلامية ، ولكن ظهر أنها كانت أضعف من أن تحمى نفسها من المسلمين أنفسهم . ولما أراد الخليفة العباسى المسترشد (١١١٨ — ١١٣٥) أن يكون له كيان سياسى مستقل عن السلطنة السلجوقية ، وطالب بإنشاء جيش للخلافة خاص بها ؛ عارضه السلطان محمود السلجوقى ورأى أن يوقف الخليفة عند حده ، فزحف على رأس جيش كبير إلى بغداد . وكان أن خرج الخليفة ومعه أفراد أسرته إلى الضفة الغربية لنهر دجلة ومن ورائه أهل بغداد ليكون « بكاء عظيما لم يشاهد مثله » . وقد استطاع عماد الدين زنكى — حاكم الموصل من قبل السلطان محمود السلجوقى — أن ينزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط . ثم دخلت جماعة من عسكر السلطان دار الخلافة ونهبوها واعتدوا على الأهالى ؛ في حين اضطر الخليفة إلى الخضوع في نهاية الأمر « واعتذر السلطان مما جرى وعفا عن أهل بغداد جميعهم » (سنة ١١٢٧) (١) .

أما الخلافة الفاطمية — على الجبهة الغربية للصليبيين — فلم تكن أحسن حالا من الخلافة العباسية ؛ إذ جاء مقتل الوزير الأفضل في ٥ ديسمبر سنة ١١٢١ بمثابة بداية النهاية في تاريخ الخلافة الفاطمية . ولم تظهر بعد ذلك في الدولة شخصية قوية تستطيع أن تقوم بما قام به بدر الجالى أو الأفضل من رعاية سياسة الدولة وتدير أمورها (٢) . وهكذا ضمن الصليبيون في الشام قسطنطين الاستقرار في أوائل القرن الثانى عشر أمام تدهور نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية في الشرق

(١) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ص ٢٩ — ٣٠

(2) Wiet, L'Egypte Arabe, p. 268

من ناحية ، وانهلال الخلافة الفاطمية من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>.

### طائفة الإسماعيلية الباطنية :

وثمة طائفة لعبت دوراً خطيراً في تاريخ الشرق الأدنى في عصر الحروب الصليبية وأثرت عن طريق مباشر أو غير مباشر في مجرى وأحداث تلك الحروب ، مما يجعلها تتطلب منا عناية خاصة في هذه الدراسة . وتقصّد بهذه الفرقة الإسماعيلية ، الذين ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ( ت ١٤٥ هـ ) . وقد نجح أتباع إسماعيل هذا في إقامة الدولة الفاطمية ، ومن ثم ظلت هذه الدولة تزعم الدعوة الإسماعيلية التي اشتد ساعدها بصفة خاصة في مصر وفارس والشام . على أنه حدث عند وفاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٨٧ أن تصدعت الدعوة الإسماعيلية ، فانشق أتباعها في فارس والشام وانتموا إلى نزار بن المستنصر ، ومن ثم أطلق على هذا الفريق اسم النزارية<sup>(٢)</sup>.

ومن أهم المبادئ التي أقام عليها الإسماعيلية مذهبهم إيمانهم بأن للعقيدة ظاهراً وباطناً ، وأن الشخص الذي يدرك كنهه الباطن ويتبعه لا يستحق العقاب . وقد أدى بهم هذا الرأي إلى تأويل أحكام الشريعة ، فجعلوا الكل نوع من أنواع العبادة باطناً مما جعل الناس يطلقون عليها اسم « الباطنية »<sup>(٣)</sup> .

وكان أول دعاة الباطنية ، أحمد بن عبد الملك بن عطاش الذي قدمه الباطنية عليهم وألبسوه تاجاً وجعوا له الأموال . وبعد وفاته حل محله الحسن بن الصباح ، الذي وصفه المؤرخون بأنه كان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم . وسرعان ما اشتد ساعد الحسن بن الصباح في فارس ، وساعده على ذلك تفكك

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 530.

(2) Setton : op. cit, I, p. 101-102

(٣) عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص ٧١ .

الدولة الإسلامية وضعف الخلافة العباسية من ناحية ، ثم بعد فارس عن مركز الخلافة العباسية من ناحية أخرى . وقد لجأ الحسن الصباح في نشر دعوته إلى سلاحين : الأول استمالة بعض الزعماء المحليين وأمرأ القلاع في بلاد فارس ، والثاني محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعه لتكون معاقل له ولأتباعه يحتمون بها من مطاردة الخلافة العباسية السنية وحماها من السلاجقة . وكانت أهم هذه القلاع التي استولى عليها الحسن الصباح قلعة الموت في طبرستان قرب قزوین ، وقلعة شاه ذر وقلعة خان ، وهما على جبل أصبهان قرب أصفهان عاصمة السلاجقة عندئذ (١) .

وترجع أهمية الحسن الصباح في التاريخ إلى براعته الفائقة في التنظيم ، إذ نظم جماعته تنظيمًا محكمًا أساسه مبدعان هما : السرية التامة والطاعة العمياء . ولما كان هدف الحسن تأسيس دولة كبيرة ثابتة ، فإنه قسم مراتب الدعوة الزارية إلى خمس :

١ — مرتبة شيخ الجبل ، وهو الحسن نفسه وخلفاؤه من رؤساء الدعوة الذين جمعوا في قبضتهم بين شئون الدين والدنيا ، — أى الدعوة والدولة جميعاً — فكانوا يصدرون تعاليمهم إلى أتباعهم في فارس والشام وغيرهما من البلاد (٢) .

٢ — مرتبة كبار الدعاة ، وكانوا ثلاثة كل منهم يعمل على نشر الدعوة الباطنة في جزء من العالم الإسماعيلي ، على أن يخضع ثلاثتهم للحكومة المركزية الزارية في الموت .

٣ — مرتبة الدعاة ، وهم جماعة من المعروفين بصدق عقيدتهم ، يقبعون دعاة

(١) Setton : op. cit, I, p. p. 108—109.

(٢) طه أحمد شرف : دولة الزارية ص ٨٠ .

الدعاة ويتلقون تعاليمهم في قلعة الموت ، ثم ينشرون الدعوة ويعطون اليهود للمستجيبين لها (١) .

٢ — مرتبة الرفاق ، وهم دعاة تحت التمرين لم يسمح لهم بعد بنشر الدعوة ، ويصل الواحد منهم بالتدريج إلى مرتبة الدعاة بعد امتحانات واختبارات طويلة (٢) .

٣ — مرتبة الفداوية أو الفدائيين : وهم الذين كانوا يضجون بأنفسهم فداء رئيسهم . وصاروا بمثابة الأداة الفعالة التي استخدمها الحسن الصباح وخلفاؤه في قتل خصومهم . ومن الواضح أنه روعى في اختيار أولئك الفداوية الشجاعة التي هي أقرب إلى التهور ، والقوة البدنية الفائقة التي تمكنهم من تأدية المهام الخطيرة الموكولة إليهم (٣) .

ومن التنظيم السابق يبدو لنا أن الفداوية كانوا أهم مرتب التنظيم الإسماعيلي . بوصفهم الأداة العاملة التي فامت فعلا بتنفيذ سلسلة الاعتمادات الشهيرة في عصر الحروب الصليبية . لذلك اهتم الحسن الصباح بتدريب الفداوية تدريباً خاصاً طويلاً يتناول الجانبين الروحي والمادي ويبدأ منذ الطفولة ، فيدرب الأطفال المختارون لتلك المهمة على حياة الزهد والمخاطرة والرغبة في التضحية (٤) . وقد ذكر الرحالة البندقى ماركو بولو (١٢٥٤ — ١٣٢٤) أن شيخ الجبل أنشأ قرب قلعة الموت حديقة حرص على أن يجعل لها جميع صفات الجنة ، من أنهار فيها خمر لذة للشاربين ، ولبن لم يتغير طعمه ، وعسل مصفى ، وفواكه شهية من كل الثمرات ، وفتيات حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون . . وغير

(1) Sykes: History of Persia vol. 2, p. p. 37—38.

(2) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. 2, p. 206.

(3) Ivnosow: An Islamic Ode in Praise of Fidawis, p. p. 63-64

(4) Setton: op cit, I, p. 108.



ذلك من مختلف أنواع المغريات التي جاءت في أوصاف اللجنة . وبعد أن يتسامر شيخ الجبل بعض الوقت مع الفتية الفداوية الذين تم اختيارهم ، يعطيهم مشروباً مخدراً - لعله من نبات الحشيش - مما جعل اسم « الحشيشية » يلصق بتلك الطائفة من الإسماعيلية في التاريخ<sup>(١)</sup> . فإذا ما فقدوا وعيهم حملوا إلى تلك اللجنة ، حتى إذا أفاقوا حسبوا أنفسهم في اللجنة فعلاً<sup>(٢)</sup> . على أنهم لا يتركون في جنتهم طويلاً ، إذ يخذرون مرة أخرى ليحملوا أثناء غيبتهم إلى دار شيخ الجبل حيث كان المجلس الأول . وعندما يفيقون يسألهم أين كانوا فيؤكدون لهم كانوا في اللجنة ، وعندئذ يعدمهم شيخ الجبل بالخود في تلك اللجنة إذا هم قتلوا فلا تافلاً من الأشخاص الذين يحددهم لهم ، بذلك يثير فيهم الحماسة لتنفيذ تعاليمهم . ويشعرون بالرغبة في التضحية بكل شيء في سبيل العودة إلى اللجنة التي سبق أن رأوها وأحسوا بلذة الإقامة فيها<sup>(٣)</sup>

ومن الثابت أن نشاط الباطنية الهدام أخذ يمتد إلى بلاد الشام منذ بداية القرن الثاني عشر . وينقسم الدور الذي قام به الإسماعيلية في عصر الحرب الصليبية إلى قسمين : أولهما : مقاومة المذهب السني والعمل على الفتنك بزعمائه . وثانيهما : مقاومة الصليبيين وقتل بعض زعمائهم . ولم يفرق الإسماعيلية خلال كل ذلك بين المسلمين السنيين والصليبيين والمسيحيين ، وإمسا اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الفريقين جميعاً . وفي سبيل هذه المصلحة الخاصة لم يتحرج

(١) يؤكد بعض علماء اللغويات أن الفعل الإنجليزي *to assassinate* بمعنى يقتل أو يقتل ، الاسم منه *assassin* بمعنى قاتل ، إنما مشتقة من كلمة الحشاشين ، وهم تلك الفئة من الفداوية الذين اشتهروا بالقتل والاغتيال في عصر الحروب الصليبية والذين أطلق عليهم بعض اللراجع العربية اسم الحشيشية لتناولهم الحشيش . وقد جاء في قاموس الكسوفورد أن أصل هذا اللفظ الأوربي هي كلمة « حشاش وحشيشية » العربية . ويدل هؤلاء العلماء على رأيهم بأن ذلك اللفظ لم يظهر بمعناه الحالي في اللغات الأوروبية إلا في عصر الحروب الصليبية .

(2) Michand : op. cit, II. p p. 72 - 73.

(3) Marco Polo : Travele, p p. 49-53.

زعمائهم من مخالفة الصليبيين حيناً أو مهادنة السفين أحياناً . وهكذا أدى اتساع نشاط الباطنية في بلاد الشام بوجه خاص إلى إضافة عامل جديد قوى إلى عوامل التفكك التي تعرضت لها تلك البلاد في عصر الحروب الصليبية<sup>(١)</sup> .

ذلك أنه حدث في الوقت الذي كان المسلمون في حالة دفاع ضد الصليبيين ، أن تعرضوا لطعنات قوية من الخلف من جانب الباطنية ، مما أضعف المسلمين وأحدث ثغرة قوية في جبهتهم ، في حين تماسك الصليبيون وحرص أمراؤهم على شد أزر بعضهم بعضاً . وحسبنا ما فعله الباطنية في حصن شيزر سنة ١١٠٩ ، «إذ ثار جماعة من الباطنية فيه على حين غفلة من أهله . . . فلكوه وأخرجوا من كان فيه » وانزعوه من أصحابه بنى منتد<sup>(٢)</sup> .

وكان القتل هو السلاح الرهيب الذي استغله الباطنية في تنفيذ أغراضهم والتخلص من خصومهم ، بحيث يضيق بنا المقام عن حصر ضحاياهم في عصر الحروب الصليبية بالذات من الأمراء وغير الأمراء . ومن ضحايا الحسن الصباح كان الوزير السلجوقي نظام الملك الذي قتله الباطنية سنة ١٠٩٢ ، فخرت دولة السلاجقة بمقتله شخصية من أعظم الشخصيات التي ارتبط بها تاريخ السلاجقة ، وأسف الناس عليه «لما كان عليه من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن»<sup>(٣)</sup> .

وزاد من نفوذ الباطنية في بلاد الشام منذ بداية القرن الثاني عشر ، عطف رضوان ملك حلب عليهم وحمايتهم لهم . وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 109 - 110.

(٢) أسامة بن منتد : كتاب الاعتبار ص ٧٧ .

ابن الاثير : السكامل ، سنة ٥٠٢ هـ

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

أول زعماء الباطنية بالشام ، وحصلوا على مكانة كبيرة لدى رضوان ، فاستغل الباطنية تلك المكانة وأخذوا يباشرون أعمالهم الإجرامية ضد زعماء المسلمين والصليبيين جميعاً . وقد افتتح الباطنية نشاطهم في بلاد الشام بقتل جناح الدولة أمير حمص سنة ١١٠٣<sup>(١)</sup> ؛ ثم قتلوا خلف بن ملاعب صاحب فامية بعد ذلك بثلاث سنوات « قتلوه قوم من الباطنية تفذهم إليه المعروف بأبي طاهر الصائغ العجمي من حلب<sup>(٢)</sup> » .

ويبدو أن بعض زعماء المسلمين وأمراءهم بالشام وجدوا في الحشيشية أداة طيية للتخلص من منافسيهم وخصومهم . ومن ذلك ما حاوله رضوان ملك حلب سنة ١١١١ من تحريض الباطنية على قتل طغتكين أتابك دمشق<sup>(٣)</sup> ؛ وما لجأ إليه طغتكين أتابك دمشق فعلاً من استخدام بعض الباطنية في قتل ضيفه مودود أتابك الموصل سنة ١١١٣<sup>(٤)</sup> . وعند ما أحس الباطنية أنهم مكروهون في حلب وأن موقفهم صار حرجاً بعد وفاة رضوان ، حاولوا مرة أخرى الاستيلاء على شيزر ، ولكنهم فشلوا في ذلك .

ولم يسكت سلاطين السلاجقة عن عبث الباطنية بمصالح البلاد وأرواح العباد ، ولكن يبدو أن جهودهم لم تكلل بالنجاح التام ، كما أنهم فشلوا في الاستيلاء على قلعة الموت ، ومن تلك المحاولات ما قام به السلطان محمد الساجوق ، « فإن لما علم أن مصالح العباد والبلاد بمحو آثارهم ( الباطنية ) وإخراص ديارهم وملاك حصونهم وقلاعهم ، جعل قصدهم دأبه . وكان في أيامه المقدم عليهم والقيم

(1) Lewis : The Sources for the Hist. of the Syrian Assassins, p. p.] 585 - 486.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

(٣) ابن المديم : زبدة الحلب ( Rec Or, Hist. III p. p. 601 - 602 )

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

بأمرهم الحسن بن الصباح الرازى صاحب قلعة ألموت ؛ فأمر السلطان بعض أمرائه بمهاجمته ، وما زالوا يحاصرونه ويهاجمونه حتى وفاة السلطان . ولكن الحسن الصباح ظل رابضاً فى قلعة ألموت فى خراسان ، ومن ذلك المركز الحصين استمر يوجه تلك الشبك الخطيرة حتى وفاته سنة ١١٢٤ . وطوال تلك السنوات استمر اسم الحسن الصباح يثير الرعب فى قلوب الناس فى الجهات المجاورة « لكثرة إغاراته عليهم وقتله لهم وأسر رجالهم وسبى نسائهم » ، دون أن تستطيع الجيوش السلجوقية الوصول إليه أو القضاء عليه <sup>(١)</sup> .

ثم إن نشاط الباطنية فى الشرق الأدنى فى ذلك الدور لم يقتصر على بلاد فارس وإقليم حلب ، وإنما امتد أيضاً إلى القاهرة ودمشق ، فى القاهرة نسمع من المراجع عن مقتل الوزير الأفضل بيد أحد الباطنية فى أحد طرق القاهرة سنة ١١٢١ . أما فى دمشق فقد ازداد نفوذهم وانتقل إليها مركز نشاطهم بعد أن توفى رضوان صاحب حلب سنة ١١٢٣ وتعرضوا لتنكيل ابنه الملك البارسلان الذى قتل زعيمهم أباطاهر الضائع واما عيل الداعى وأخى الحكيم المنعجم وغيرهم ، مما جعل أتباعهم يتفرقون فى البلاد <sup>(٢)</sup> . ولم يلبث أن وفد على الشام من فارس أحد زعماء الباطنية واسمه بهرام ، فنزل على حلب ثم انتقل إلى دمشق حيث حظى برعاية طغتكين « وأكرم لاتقاء شره وشر جماعته ، وحملت له الرعاية وتأكدت به العناية <sup>(٣)</sup> » . وهكذا أخذ بهرام ينشر الدعوة الإسماعيلية ، حتى « استفحل أمره وعظم خطبه فى حلب والشام ، وهو على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزى واللباس ، بحيث يطوف البلاد والمعازل ولا يعرف أحد شخصه » <sup>(٤)</sup> . على أن بهرام خشى أهل دمشق وهم من السنة ، فما زال يسعى

(١) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٩ هـ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ هـ .

(٤) المرجع السابق .

عند طغتكين حتى منحة بانياس سنة ١١٢٦. وسرعان ما غدت بانياس « حصنا يأوى إليه ومعتلا يحتذى به ويعتمد عليه » <sup>(١)</sup>. ويعبر ابن الأثير عن استيلاء الباطنية على بانياس بأن ذلك جاء كارتاة على البلاد « إذ عظم خطبه (بهرام) وحلت الحنة بظهوره ، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين ، لاسيما أهل السنة ، إلا أنهم لا يقدرون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفا من سلطانهم (طغتكين) أولا ومن شر الاسماعيلية ثانيا ، فلم يقدر يقدم أحد على هذه الحال وانتظروا بهم الدواير ... » <sup>(٢)</sup>. أما ابن القلانسي فيقول إن بهرام لم يسكن يستولى على بانياس حتى « اجتمع إليه أوباشه من الرعاع والسفهاء والفلاحين والعوام وغوغاء الطغام الذين استغواهم بمحاله وأباطيله ؛ واستمالهم بخدعه وأضاليه ، فعظمت المصيبة بهم وجلت الحنة بظهور أمرهم ، وضائق صدور الفقهاء والمتدينين والعلماء وأهل السنة والمقدمين » <sup>(٣)</sup>.

وهكذا لم يستطع الناس الاعتراض على أعمال الباطنية ، نظرا لحماية طغتكين لهم من ناحية ولعنف وسائلهم ووحشية انتقامهم من ناحية أخرى ، إذ « شرعوا في قتل من يعاندهم ، ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال ، ويرافدهم بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير ولا يغفل حد شرهم متقدم ولا أمير ! » <sup>(٤)</sup>. وإذا كانت جهود السلطان محمد شاه السلجوقي في فارس ضد الباطنية قد أسفرت عن محاصرة قلعتهم شاه ذر — المجاورة لأصفهان — وفتحها وقتل من فيها من الباطنية <sup>(٥)</sup> ، فإن هذه الضربة التي حلت بالباطنية في فارس لم تؤثر في نشاطهم بالشام ، حيث

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٢٠ هـ.

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٢٠ هـ ، ابن القلانسي ؛ ص ٢١٥ .

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥١ هـ .

استمروا يدعمون نفوذهم ويوسعون سلطانهم ويضاعفون نشاطهم يوما بعد يوم<sup>(١)</sup>

ذلك أن بهرام أخذ يبعث من بانياس الدعاة والفداوية إلى مختلف أنحاء الشام لنشر الدعوة الاسماعيلية من ناحية ولتنفيذ مآرآه من اغتاليات سياسية من ناحية أخرى . وقد نجح بعض أولئك الأعوان بدورهم في الاستيلاء على حصون جديدة في جبال الشام ، مثل حصن القدموس<sup>(٢)</sup> . وأخيرا أفاق طغتكين إلى خطر الباطنية وأخذ يفكر في التخلص منهم ، ولكنه توفي في فبراير سنة ١١٢٨ قبل أن يتمكن من القيام بأى عمل ضدهم . وعند وفاة طغتكين خلفه ابنه تاج الملوك بورى في حكم دمشق ، فاحتفظ بأبى على طاهر بن سعد المزدقاني (المزدغاني) وزيراً له . وقد أفرط المزدقاني في العطف على الباطنية ، وقرب مندوبهم في دمشق - واسمه أبو الوفاء - الذي وصفه ابن الأثير بأن سلطته في دمشق فاقت سلطة تاج الملوك بورى نفسه « وأن حكمه أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك »<sup>(٣)</sup>.

ثم كان أن قتل بهرام أحد مقدمى وادى التيم - واسمه برق بن جندل - دون سبب ، فأصر قومه على الأخذ بثأره . وفي الاشتباك الذي حدث بين الطرفين سنة ١١٢٨ ، حلت الهزيمة بالباطنية ، وقتل منهم كثيرون ، وقطع رأس بهرام ، وبذلك ضعف شأن الباطنية « وقتل عدتهم وانقصت شوكتهم وانفلت سكتهم »<sup>(٤)</sup> ! وقد خلف بهرام في بانياس رفيقه اسماعيل العجمي الذي حظى هو الآخر بعطف الوزير أبى على طاهر المزدقاني في دمشق « في المساعدة على

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥، ١٥١.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ.

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن القلانسي ؛ ص ٢٢٢ .

مراده والمعاوضة على أغراضه»<sup>(١)</sup>. واستمر الأمر على ذلك حتى وجد ذلك الوزير الفرصة مناسبة لتدبير مؤامرة مع الصليبيين، فعرض عليهم تسليمهم دمشق مقابل إعطائه — هو والإسماعيلية — مدينة صور بدلها<sup>(٢)</sup>. وكان أن أبرمت الاتفاقية، وحدد أحد أيام الجمعة والمساءون في المساجد لفتح أبواب دمشق للصليبيين<sup>(٣)</sup>.

على أن المؤامرة انكشفت قبل موعد تنفيذها، فقتل بوري وزيره الخائن أبو على طاهر المزدقاني وأحرق جثته<sup>(٤)</sup>، وبذلك حانت الفرصة سنة ١١٢٩ للتخلص من الباطنية، «ونادى (بوري) بقتل الباطنية قتل منهم ستة ألف نفس». وهكذا استمر أهل دمشق يذبحون فيهم، فتعقبوهم «وتبعوهم في أماكنهم واستخرجوهم من مكانهم وأفندوهم جميعاً تقطيعاً بالسيف وذبحاً بالخناجر». ولم تلبث أخبار ما حدث للباطنية في دمشق أن وصلت إلى مسامع إخوانهم في بانياس «فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون»، واستنجد إسماعيل العجمي بالصليبيين وعرض عليهم تسليمهم بانياس ليحموه. وهكذا تسلب الباطنية من بانياس إلى البلدان المجاورة وهم «في غاية من اللذة ونهاية من القلة» في حين مات إسماعيل العجمي بعد قليل ودفن في بانياس<sup>(٥)</sup>.

ومع ذلك فقد استمر نشاط الحشيشية الهدام في منطقة الشرق الأدنى بقية عصر الحروب الصليبية. من ذلك أنهم قتلوا في همدان قاضي القضاة زين الإسلام أباسعد محمد بن نصر المروى أثناء عودته من خراسان إلى بغداد، ولم

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٢—٢٢٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢٣هـ.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢٣هـ، ابن القلانسي، ص ٢٢٣.

(٤) النويري: نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٤١ (مخطوط).

(٥) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان (Rec. Hist Or. p. 567).

يجرؤ شخص على أن يقبهم « للخوف منهم »<sup>(١)</sup> . وفي ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ قتلوا البرسقى أتابك الموصل<sup>(٢)</sup> . وفي سنة ١١٢٧ قتلوا المعين وزير السلطان سنجر ابن ملكشاه صاحب خراسان ، وكان ذلك الوزير قد فتك بجاعة منهم وحرص السلطان على « النكاية فيهم وتطهير الأرض منهم »<sup>(٣)</sup> . وفي سنة ١١٣٠ أرسل الباطنية من مركزهم في الموت اثنين من الخراسانية لقتل تاج الملوك بوري أتابك دمشق والانتقام منه لما حل بإخوانهم في دمشق وبانياس . وقد تحايل هذان القاتلان على تنفيذ غرضهما حتى نجحا في الاعتداء على بوري ، ولكن إصابته لم تكن قاتلة فبرأ وفشلت خطة الباطنية<sup>(٤)</sup> . وفي سنة ١١٣٤ نفى السلاجقة الخليفة المسترشد العباسي إلى أذربيجان حيث قتل بواسطة جماعة من الباطنية . وفي سنة ١١٤٠ استطاع الباطنية أن يمتلكوا حصن مصياث ( مصيف ) « بحيلة دبرت عليه ومكيدة نصبت له »<sup>(٥)</sup> . وفي سنة ١١٥٢ قتل بعض الباطنية ريموند الثاني أمير طرابلس . ويطول بنا الأمر لو حاولنا تسجيل كافة اغتيالات الباطنية ولكن يكفي أن نختتم هذه القائمة بالإشارة إلى أنهم حاولوا أكثر من مرة قتل صلاح الدين الأيوبي نفسه — كما سيلي فيما بعد — ولكن الله سلم .

وهكذا ظلت الاسماعيلية مصدراً خطيراً للانحلال السياسي والاجتماعي في بلاد الشام بالذات على عصر الحروب الصليبية<sup>(٦)</sup>

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. III, p. 653 )

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠ .

(٥) للمرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(6) Setton : op. cit; I, p. p. 109 - 110.



### حلب والموصل :

اختار السلطان محمد الساجوق سنة ١١١٨ آقسنقر البرسقى حاكم الموصل ليلي شجنكية بغداد ، أى ينوب عنه فى بغداد لدى الخليفة العباسى المسترشد<sup>(١)</sup> ، ثم عاد السلطان محمود سنة ١١٢٤ فأقطع البرسقى من جديد الموصل وأعمالها مع تكليفه بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين<sup>(٢)</sup> . ولم يلبث البرسقى وهو بالموصل أن تلقى نداء من أعيان حلب لئيجدهم ضد الصليبيين ، فرحب حاكم الموصل بتلك الفرصة التى أتاحت له السيطرة على حلب ، لاسيما بعد أن وافق الحلبيون على تسليمه قلعة المدينة ؛ فخف إليها - وصحبته طففتكين أتابك ، دمشق وصمصام الدين خير خان بن قراجا صاحب حمص - ووصلوا جميعا إلى حلب فى أواخر يناير سنة ١١٢٥<sup>(٣)</sup> .

وهكذا اجتمعت حلب والموصل فى قبضة حاكم مسلم واحد - هو البرسقى - مما يعتبر نواة لتوحيد المسلمين فى أطراف العراق والشام ، ثم تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة فيما بعد . ولا شك فى أن هذا الارتباط بين حلب والموصل كان أخطر ما يخشاه الصليبيون ، نظراً لما يمكن أن ينجم عنه من قطع الصلة بين إمارة الرها من ناحية وبقية الإمارات الصليبية بالشام من ناحية أخرى ، فضلاً عما فى تكتيل القوى الإسلامية نفسها من معانى القوة التى لم يشعر بها الصليبيون حتى ذلك الوقت بسبب تفرق كلمة المسلمين وعدم وحدتهم<sup>(٤)</sup> .

---

(١) أطلق على نائب سلطان السلاجقة أو ممثله لدى الخليفة العباسى فى بغداد لقب شحنة ، وهو لقب فارسى . أما الوظيفة نفسها ، فقد أطلق عليها اسم «شجنكية بغداد» .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(4) Grousset : Hist. des Croisades I. p. 631 .

ثم إن هذه الخطوط التي اتخذها البرسقي زاد من خطرهما أنه كان يتمتع بعطف السلطان محمود الساجوق «لأنه كان ناصحاً له ملازماً له في حروبه كلها»<sup>(١)</sup>. وقد ظل البرسقي محتفظاً بولائه للسلطان الذي عهد إليه بمهمة الجهاد ، وبناء على ذلك فإن البرسقي كان يمثل في تصرفاته وجهوده السلطة السياسية الشرعية الكبرى في الجبهة الشرقية من العالم الإسلامي ، ولاستطيع قوة أخرى من القوى الإسلامية الصغيرة المبعثرة في أطراف العراق أو بلاد الشام أن تقف في وجه البرسقي أو أن تنافسه في مكائده وزعامته . وعلى هذا الأساس أخذ البرسقي يتصرف تجاه القوى الإسلامية المجاورة وتجاه الصليبيين في بلاد الشام وشمال العراق ، طوال سنتي ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، حتى كان مقتله في يوم الجمعة ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٣ بأيدي الباطنية في الموصل<sup>(٢)</sup>.

وقد خلف آقسنقر البرسقي في حكم حلب والموصل ابنه عز الدين مسعود . على أن مسعود لم يلبث أن وقع في خلاف مع طغتكين أتابك دمشق ، ففسد له الأخير السم ، وبذلك توفي مسعود في العام التالي بالرحبة<sup>(٣)</sup> . ولا شك في أن هذه الأحداث أوقعت حلب بالذات في حالة من الفوضى شديدة لاسيما وأن الحلبيين لم يرضوا عن قتلغ ، وهو الذي عينه السلطان محمود سنة ١١٢٧ على حلب بعد وفاة عز الدين مسعود بن البرسقي . لذلك استنجد أهل حلب ببدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، وهو الذي سبق له أن حكم حلب سنة ١١٢٢ - ١١٢٣ ، قبل أن يطرده بلك<sup>(٤)</sup> .

ولا شك في أن تلك التطورات كلها أضعفت من موقف المسلمين وقوت

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨هـ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ١٠ (مخطوط) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢١هـ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٩ (مخطوط) .

موقف الصليبيين ، فتعرضت حلب بالذات لهجمات من جانب بوهيموند الثانى أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها<sup>(١)</sup> . بل إن الملك بلدوين الثانى - ملك بيت المقدس هدد دمشق نفسها سنة ١١٢٩ ، كما سبق أشرنا<sup>(٢)</sup> . وهكذا حتى ظهر على المسرح عماد الدين زنكى ، فبدأت صفحة جديدة فى ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين فى الشرق الأدنى .

### ظهور عماد الدين زنكى :

أما عماد الدين زنكى هذا ، فكان أبوه قسماً للدولة آقسنقر الحاجب ، قائداً من قادة جيش السلطان ملكشاه السلجوقى ، « ومن أعيان دولته وأكابر أمرائه وأخص أوليائه ، واعتمد عليه فى أموره كلها »<sup>(٣)</sup> . وقد كافأ ملكشاه قائده بإعطائه حكم حلب سنة ١٠٩٩ ، ولكن آقسنقر لم يلبث أن قتل سنة ١٠٩٤ ؛ قتله تنش أخو ملكشاه ، فنشأ زنكى بعد أبيه نشأة بعيدة عن النفوذ والسلطان ، ودخل فى خدمة أنابكة الموصل : جاولى ثم البرسقى ، حتى وصل إلى حكم البصرة ، وعندئذ كلفه السلطان محمود السلجوقى بإخضاع الخليفة المسترشد سنة ١١٢٦<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ . &

Gaillaume Tyr p. 590.

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ( 568 - 567 p ) &

ابن القلانسى ؛ ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١ (مطبوع) .

(٤) ولى المسترشد الخلافة العباسية سنة ١١١٨ ، وأراد أن يستغل للنازعات التى غرق فيهاحكام السلاجقة عندئذ ليحرر الخلافة العباسية من سيطرتهم ، الامر الذى جعل السلطان محمود السلجوقى يمهّد إلى زنكى بإخضاع حركة الخليفة سنة ١١٢٦ . ويقول ابن الاثير إن برنقىش التركوى شحنة بغداد هو الذى سار إلى السلطان ، واستناره على الخليفة « وحذر السلطان جانيه وأعلمه أنه قد جمع المساكر عازماً على منعه عن العراق » . ( التاريخ الباهر ، ص ٢٨ - ٢٩ ) .

وكان أن أظهر زنكي همة كبيرة وكفاية عالية في تلك المهمة التي كلفه بها السلطان ؛ فأنزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط وزحف على بغداد ، وانتصر على الخليفة المسترشد الذي اضطر إلى الإذعان للسلطان في يناير سنة ١١٢٧<sup>(١)</sup> . وهكذا لفت زنكي الأنظار إليه بشجاعته ومقدرته ، فولاه السلطان « شحنة العراق » في إبريل سنة ١١٢٧ ، وهو المنصب الذي جعل منه رقيباً على الخليفة<sup>(٢)</sup> . وحوالي ذلك الوقت - أو بعده بقليل - توفي عز الدين مسعود بن البرسقي ، أتاك الموصل وحلب ، فذهب وفد من أعيان الموصل إلى بلاط السلطان السلجوقي في فارس طالبين تعيين حاكم جديد على مدينتهم ، يستطيع الدفاع عنها ضد تهديد الصليبيين<sup>(٣)</sup> .

وكان أن وقع اختيار السلطان على زنكي « لما يعلمه من كفايته لما يليه » ، فعينه أتابكاً على الموصل سنة ١١٢٧ . وبعد أن نظم زنكي أمور الموصل ، استولى على نصيبين من الأراقة ، ثم اتجه إلى حران التي كانت دائماً تحت رحمة الصليبيين وشبه محاصرة بهم ، بسبب تعرضها للهجمات المتكررة من الرها وسروج والبيرة ؛ فاستولى عليها وفرح أهلها بذلك لأنهم اعتقدوا أن مدينتهم صارت في يد أمينة<sup>(٤)</sup> . ثم إن زنكي اختار ألا يبدأ عملية الجهاد ضد الصليبيين.

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ .

(٢) ابن الأثير : التواريخ الباهرة ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) يروي ابن الأثير أن أهل الموصل عندما قابلوا الوزير شرف الدين بن خالد قالوا له : ( قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم فاستولوا على أكثرها . وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ماعدا البلاد الباقية بيد المسلمين . وقد كان للبرسقي مع شجاعته وتجربته واتقياد العسكر إليه مكف بمض عاديتهم وشرهم ، فمذ قتل ازداد طمعهم ، وهذا ولده صغير . ولا بد للبلاد من رجل شجاع ذا رأي وتجربة يذب عنها ويحفظها ويحمي حوزتها . . . ) . وقد أورد ابن واصل أيضاً نصاً مشابهاً ( مفرج السكروب ج ١ ص ٣٢ - ٣٣ ) .

(٤) ابن واصل : مفرج السكروب ج ١ ص ٣٤ - ٣٦ .

إلا بعد أن يضع يده على حلب أولاً وينظم أمور تلك البلاد . لذلك أسرع عقب استيلائه على نصيبين إلى عقد هدنة مع جوسلين أمير الرها <sup>(١)</sup>.

وكانت حلب - كما سبق أن ذكرنا - قد وقعت في حالة شديدة من الفوضى عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن البرسقي ، فأصبحت ميداناً للنزاع بين سليمان بن عبد الجبار الأزقي ، وإبراهيم بن رضوان السلجوقي ؛ في الوقت الذي أراد كل من جوسلين الثاني أمير الرها وبوهيموند الثاني أمير أنطاكية أن يستفيد من تلك الأوضاع للاستيلاء على حلب <sup>(٢)</sup>. ولكن وصول زنكي إلى حلب في ذلك الوقت - سنة ١١٢٨ - أفسد على جميع أولئك الطامعين أغراضهم ، لأن زنكي كان يحمل تقليداً من السلطان بحكم حلب ، وبهذه الصفة الشرعية استطاع أن يتمكن لنفسه في حلب بسهولة ، فدخلها في ١٨ يونيو ١١٢٨ ، حيث استقبله أهل حلب استقبالا رائعا « وأظهروا من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ... ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد (زنكي) لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه » <sup>(٣)</sup>.

وهنا نلاحظ أن الظروف كلها كانت معدة عندئذ لأن يقوم زنكي بشروعه الضخم الخاص بتوحيد القوى الإسلامية في العراق والشام ؛ وذلك بعد وفاة طغتكين أتابك دمشق العتيد في فبراير ١١٢٨ ؛ وهو الرجل الذي حظى بنفوذ قوى فاق نفوذ بتيمة الأمراء المسلمين ببلاد الشام . ولكي يتمكن زنكي من إتمام ذلك المشروع بدأ بخطوتين : الأولى الزواج من خانون بنت الملك رضوان

١) (فهادته مدة يسيرة ، وكان غرضه أن يتفرغ لاصلاح البلد) .

ابن الاثير : للكمال ، حوادث سنة ٥٢١ هـ .

(2) Stevenson : op. cit, p. 110

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٣٧ - ٣٨ .

ابن نقش ملك حلب الساجوقى<sup>(١)</sup> الأسبق؛ وذلك ليثبت مركزه فى حلب ويرث عن طريق تلك الزيجة حقوق بيت رضوان فى شمال الشام . والثانية ذهابه سنة ١١٢٩ إلى بلاط السلطان محمود الساجوقى ، الذى منحه « التواقيع السلطانية بملك الغرب كله »<sup>(٢)</sup> . وبعد ذلك عاد زنكى إلى حلب « فى عسكره عازماً على الجهاد »<sup>(٣)</sup>؛ ومعه « منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما »<sup>(٤)</sup> .

وكانت ممتلكات المسلمين فى بلاد الشام مقسمة عندئذ بين ثلاث قوى؛ الأولى محورها بورى بن طفتكين أتابك دمشق، وكان يسيطر على دمشق وحماه فى الشمال وحوران فى الجنوب . والثانية محورها صمصام الدين خيرخان (قيرخان) ابن قراجا أمير حمص . والثالثة محورها سلطان بن منقذ، وهو الأمير العربى الذى سيطر على شيزر . ولم يستطع خيرخان بن قراجا أو سلطان بن منقذ مقاومة الأتابك زنكى، فأعلنوا ولائهما وخضوعهما له، وبذلك لم يبق أمام زنكى سوى تاج الملوك بورى أتابك دمشق<sup>(٥)</sup> .

والواقع إن بورى الذى تعرض لتهديد الصليبيين وغزوهم سنة ١١٢٩ ، كان يخشى خطراً دائماً من جانب بلدوين الثمانى ملك بيت المقدس ، ولذلك رحب بما عرضه عليه زنكى من محالفته ضد الصليبيين . على أن زنكى لم يلبث أن تنسكرك لذلك الحلف مع بورى ، واتقضى على حماه واستولى عليها فى سبتمبر سنة ١١٣٠ ليبيعها مقابل مبلغ كبير من المال للأمر خيرخان (قيرخان) صاحب حمص<sup>(٦)</sup> . ولم يكده خيرخان يدفع للمبلغ المتفق عليه ويستولى على حماه فى ٢٠ سبتمبر

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٤٠ (مطبوع) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. III, p. 658 )

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٤٠ (مطبوع) .

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٨ .

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ، ( P. 650 )

(٦) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٥٢٣ .

حتى غدر به زنكى ، فانقض عليه هو الآخر فجأة وحبسه بقلعة حلب ، ثم اتجه ليستولى على حمص ذاتها مثلما استولى على حماه<sup>(١)</sup> . ولكن زنكى ظل يحاصر حمص ويهاجمها أربعين يوماً « لم يظفر منها بطايل<sup>(٢)</sup> » ؛ فعاد إلى حلب في أواخر سنة ١١٣٠ . ولا شك في أن فشل زنكى أمام حمص جاء ضربة قوية عرقلت وحدة المسلمين في شمال الشام بضعة سنوات .

على أنه يلاحظ أن زنكى لم يعض في طريقه على الوجه السابق دون أن يصادف معارضة من الأمراء المسلمين المحليين . وقد ظهرت تلك العقبات من جانب الأراقة الذين حكموا حلب في وقت من الأوقات . ذلك أنه عز على الأراقة أن يستأثر زنكى بحكم حلب وأن يزداد نفوذه في شمال الشام والعراق بصورة تهدد مصالحهم ؛ فجمع حسام الدين تمرناش بن إيلغازى صاحب ماردين ، وابن عمه ركن الدولة داود بن معين الدين ستمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وغيرها من أمراء الأراقة في ديار بكر ، قوة تبلغ عشرين ألف من التركان ضد زنكى ؛ ولكن الهزيمة حلت بهم عند مدينة سرجى فيما بين ماردين ونصيبين . ولا شك في أن هذا النصر ضمن لزنكى سيادته على شمال الشام وأطراف آسيا الصغرى<sup>(٣)</sup> . أما عن علاقة زنكى بإمارة أنطاكية الصليبية في تلك الفترة فأهم ما فيها مؤامرة الأميرة إليس ، وطلبها مساعدة زنكى للوصول إلى حكم أنطاكية<sup>(٤)</sup> . وقد سبق أن رأينا كيف أسرع الملك بلدوين الثانى إلى أنطاكية وأحبط المؤامرة ، وبذلك حال دون استفادة زنكى من اضطراب أحوال الصليبيين في أنطاكية

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٢ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. III, p. 660 )

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ . ٩

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٣٥ — ٣٦ .

(4) Stevenson : op. cit., p. 129.

في ذلك الوقت . هذا وإن كان زنكي قد استغل تلك الفرصة وهاجم بعض الحصون القريبة التابعة لإمارة أنطاكية ، مثل الأنارب وحارم ومصرة مصرين . ويقول المؤرخ ابن العديم إن زنكي لم يستطع الاستيلاء على حصن الأنارب إلا بعد خمس سنوات ، أى سنة ١١٣٥ ؛ في حين ذكر ابن الأثير وابن واصل أن زنكي استولى على ذلك الحصن فعلا سنة ١١٣٠ « وجعله دكا وبقي إلى الآن خرابا » (١) .

#### انقراض المسلمين :

على أن زنكي لم يستطع أن يمتدح قدمًا في مشروعه الخاص بتوحيد قوى المسلمين بسبب الأحداث التي قامت في فارس والعراق ، والتي أدى تدخل زنكي فيها إلى صرفه عن ميدان الشام .

ذلك أن وفاة السلطان محمود بن محمد السلجوق سنة ١١٣١ أعقبها انقسام خطير في دولة السلطنة ، إذ تعرض ابنه البكر داود - الذي ورثه في السلطنة - لثورة أعمامه : عمه الأول سلجوق بن محمد صاحب فارس ، وعمه الثاني مسعود ابن محمد ، وعمه الثالث طغرل بن محمد صاحب قزوین (٢) . ولم يلبث أن اشتد الصراع بين هؤلاء الأعمام الثلاثة ، وبخاصة سلجوق شاه ومسعود . وفي إحدى حلقات النزاع ، أيد الخليفة العباسي المسترشد سلجوق شاه ، فاستنجد مسعود بعماد الدين زنكي أتابك الموصل الذي « سار إلى بغداد لقتال الخليفة وسلجوق » ؛

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Ps. 661, 670) & ١

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ ٩

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٤٣ .

وقد نص ابن واصل على أنه أخذ رأيه عن ابن الأثير .

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ، أوراق ١٣، ١٤، ١٥ (مخطوط) .



وبذلك دخل زنكي دائرة الصراع الدائر في العراق وفارس ، مما صرفه مؤقتاً عن الشام وفلسطين<sup>(١)</sup> .

وعندما زحف زنكي على بغداد لمنازلة الخليفة وسلاجوق شاه ، حلت به الهزيمة عند تكريت سنة ١١٣٢<sup>(٢)</sup> . على أن زنكي لم يلبث أن عاد في السنة نفسها لمهاجمة بغداد بعد أن حالفه « ملك العرب » ديس بن صسدة ؛ ولكن الهزيمة حلت بزنكي من جديد « وقتل بينهم خلق كثير » فاضطر إلى الفرار نحو الموصل<sup>(٣)</sup> .

ويبدو أن تلك الهزائم التي حلت بزنكي شجعت الخليفة المسترشد، فزحف على الموصل في صيف سنة ١١٣٣ للاستيلاء عليها في ثلاثين ألفاً ؛ وعندئذ اضطر زنكي إلى الرحيل عنها ، وترك فيها بعض عسكره مع نائبه نصير الدين جقر<sup>(٤)</sup> وفي الوقت الذي كانت جيوش الخليفة تمحاصر الموصل ؛ لجأ أتابك دمشق اسماعيل ابن بوري إلى مهاجمة أملاك زنكي في الشام ، فحاصر حماة « وملك البلد قهراً » سنة ١١٣٣ . وهكذا أخذ البناء الذي أقامه زنكي يتداعى لبنة بعد أخرى على أيدي المسلمين أنفسهم سواء في العراق أو الشام<sup>(٥)</sup> .

ولا شك في أن سوء موقف زنكي أتاح فرصة طيبة للصليبيين الذين شددوا هجماتهم على حلب ، مما أدى إلى الهزيمة التي حلت بالأمير سوار — نائب زنكي

- (١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .  
 (٢) كان حاكم تكريت عندئذ هو نجم الدين أيوب الكردي والد صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية . ويقال إن نجم الدين أيوب حمى زنكي عندئذ وساعده على الفرار والعبور إلى الضفة الأخرى لنهر دجلة ( وكان هذا الفعل من نجم الدين أيوب سبباً للاتصال بعماد الدين ، حتى ملك بنو أيوب البلاد ) . (أبو الفدا : المختصر ؛ سنة ٥٢٧ هـ) .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٤٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٧ .

في حلب — في موقعة قنسرين (١١٣٢ - ١١٣٣) (١).

على أن مجرى الأمور أخذ يتحول في صالح زنكي بعد قليل؛ إذ فشل الخليفة العباسي في الاستيلاء على الموصل بعد حصار ثلاثة أشهر، فارتد إلى بغداد بعد أن « ضاقت الأمور بالعسكر » بسبب قلة الميرة والقوت (٢). هذا في الوقت الذي اضطرت أحوال أتابكية دمشق بعد وفاة بوري سنة ١١٣٣ وقيام ابنه شمس الملوك أبو الفتح اسماعيل في الحكم. وقد بدأ اسماعيل بن بوري حكمه بداية طيبة، فاسترد بانياس من الصاميين، واسترد حصن البوّة والرأس من أخيه شمس الدولة محمد صاحب بعلبك، كما هاجم بعلبك نفسها (٣). ولكنه لم يلبث أن تعسف وتطرف مع رعاياه، وأظهر « دناءة نفس » (٤)، فأمعن في « ارتكاب القبايح والمنكرات »، وإيقاله في اكتساب المآثر والمحظورات الدالة على فساد التصور والعقل، وصداء الحسن، وظهور الجهل، وتبلد الفهم وحب الظلم (٥) وهكذا أصبح كل أحد في دمشق يخشى على حياته من تصرفات اسماعيل بن بوري؛ ولم يسلم من ذلك أهل اسماعيل أنفسهم، إذ قتل أخاه سونج « أشنع قتلة بالجوع في بيت »، وبالع في الأفعال القبيحة والظلم، ولم يقف عند حد (٦). وكان أن دبرت المؤامرات ضد اسماعيل من جميع من حوله، حتى بات يخشى على نفسه من أشد المقربين إليه، فأرسل إلى زنكي يستعين به. ويعرض عليه استلام دمشق « ليمكنه من الانتقام من كل من يكره من المقدمين والأمرء والأعيان بإهلا كههم وأخذ أموالهم وإخراجهم من منازلهم ». ثم إن اسماعيل هدد زنكي بتسليم

(١) أنظر مسبق.

(٢) ابن الاثير: السكامل؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ.

(٣) المرجع السابق.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ٥٧.

(٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٥ هـ.

(٦) المرجع السابق ص ٢٤١ - ٢٤٢.

دمشق للصليبيين وقال له «إن أهملت الجيـء سلمت المدينة إلى الفرنج»<sup>(١)</sup>.

وقد وجد زنكى فى ذلك العرض فرصته التى طالما تمنّاها لتوحيد الشام الإسلامية ، فأسرع من الموصل لاستلام دمشق . على أنه فى الوقت الذى أخذ زنكى يشق طريقه إلى دمشق ، تبدلت الأحوال فجأة ، إذ قتل إسماعيل بن بورى فى مؤامرة دبرتها أمه — صفوة الملك زمرد — (أول فبراير سنة ١١٣٥ ) ، وتولى حكم دمشق أخوه شهاب الدين محمود بن بورى الذى التف حوله أهل دمشق ضد مطامع زنكى والصليبيين جميعاً . ولما راسل زنكى أهل دمشق «لم يحييـوه إلى مطلوبه ، وردوا عليه رداً خشناً يتضمن أن الكلمة قد اتفقت على حفظ الدولة والذب عنها»<sup>(٢)</sup> . وهكذا فشلت جميع الجهود التى بذلها زنكى أمام دمشق لضـم المدينة ، وتزعـم حركة المقاومة ضده أحمد مـاليك طفتـكين واسمه معين الدين أنر ؛ فاضطر زنكى إلى عقد الصلح مع الدماشقة فى منتصف مارس سنة ١١٣٥ والعود إلى حلب ؛ لاسيما بعد أن أرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسى بأمره «بالرحيل عن دمشق وترك التعرض لها والوصول إلى العراق لتولى أمره والتدبير له» . وهكذا ظلت دمشق أمداً طويلاً تمثل عقبة كؤودا فى سبيل إتمام الجبهة الإسلامية ببلاد الشام نقيجة لسياسة حكمها الخوثة<sup>(٣)</sup> .

على أن تحول مجرى الأمور فى العراق لم يلبث أن أدى إلى تعويض زنكى عما فاتته فى دمشق . وذلك أن صحوة الخلافة العباسية على أيام المسترشد (١١١٨ — ١١٣٥) لم تدم طويلاً ، ولا سيما بعد أن هدأت الأمور فى الدولة السلجوقية ، ونجح

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٥٧ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( III, p. p. 668-669 ) &

ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٨ .

ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ .

السلطان مسعود بن محمد (١١٣٤ — ١١٥٢) في التغلب على منافسيه والفوز بالسلطنة<sup>(١)</sup>. وقد حاول الخليفة المسترشد بالله منازلة السلطان الجديد، ولكن الأمر انتهى بهزيمة ونفيه، ثم قتله بأيدي الباطنية في نهاية أغسطس سنة ١١٣٥، حيث مثلوا بجثته تمثيلاً شديداً<sup>(٢)</sup>. ولم يجد خلفاء المسترشد، أعني الخليفة الراشد (١١٣٥ — ١١٣٦) والخليفة المقتفي (١١٣٦ — ١١٦٠) بدءاً من الاستعانة بزنجي «على خلاف السلطان مسعود»، مما قوى نفوذه في شئون الخلافة العباسية ببغداد<sup>(٣)</sup>.

### زنكي والصليبيون:

ولم يسكد زنكي يطمئن إلى جبهة العراق، ويحصل على تأييد الخليفة المقتفي العباسي والسلطان مسعود الساجوقي، حتى انصرف إلى ميدان الشام من جديد<sup>(٤)</sup>. وكان أن بدأ زنكي في ربيع ١١٣٥ بتوجيه هجمات ضد المراكز الصليبية شرق نهر العاصي، ونجح في تلك السنة في الاستيلاء على الأثارب وزردنا وتل أعدي ومعة النعمان وكفر طاب<sup>(٥)</sup>. ثم إن زنكي حرص على

(١) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٥ ورقة ١٧ (مخطوط).

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٥٠.

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٥٣٠ هـ.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ٦٧ — ٧٩.

وبروي ابن واصل أنه عندما صالحت الأمور بين زنكي والخليفة المقتفي لامر الله، أمر الأخير باقطاع عماد الدين زنكي بعض نواحي من أملاك الخليفة الخاصة، كما أمر بأن يزداد في ألقابه «وهذه قاعدة لم يسمح لاحد من زعماء الاطراف أن يكون له نصيب في خاص الخليفة».

(٥) ابن المديم: زبدة العباب (١١٦١ - ١١٦٠).

وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن المديم هو الذي قال بأن عماد الدين زنكي استولى على الأثارب في تلك السنة. في حين قال ابن الأثير — وأخذ عنه ابن واصل — إن زنكي استولى على الأثارب قبل ذلك بخمس سنوات، أي سنة ١١٣٠.

إعادة أهالى تلك المدن من المسلمين إلى بلادهم ورد إليهم أملاكهم ودورهم . وبعد ذلك قام زنكى بإغارات متفرقة فى السنة نفسها على مناطق شيزر وحمص وقنسرين ، حتى عاد إلى الموصل فى خريف سنة ١١٣٥<sup>(١)</sup> .

وبينما زنكى فى الموصل مشغولاً مرة أخرى بالخلافات بين الخلافة العباسية والسلطنة الساجوقية<sup>(٢)</sup> ، إذا بنائبه فى حلب - سيف الدين سوار - ينتهز فرصة الاضطراب الذى كانت تعانى به إمارة أنطاكية عندئذ ويغزو أراضيها فى أبريل سنة ١١٣٦ حتى وصل إلى اللاذقية<sup>(٣)</sup> . وتروى المراجع أن سوار أختار فى تلك الغزوة على مائة قرية صليبية ، وعاد ومعه « ما يزيد على سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي وصبية ، ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل والحمير ... »<sup>(٤)</sup> .

ولم يتعرض الصليبيون لهجمات الحلبين وحدهم فى ذلك الدور ؛ بل قام الدماشقة أيضاً بحملة كبيرة على إمارة طرابلس سنة ١٢٣٧ . وكانت دمشق قد تعرضت لبعض الفتن والاضطرابات ، ظهرت خلالها شخصية أحد المماليك واسمه بزواش ، الذى لم يلبث أن توصل إلى منصب مقدم العسكر فى دمشق « وجعل إليه الحل والعقد »<sup>(٥)</sup> . ويبدو أن هذا الأمير أراد أن يمكن لنفسه ، فسكر فى القيام بحملة ضد الصليبيين تضىف عليه شيئاً من المهابة والأهمية ؛ وشجعه على ذلك النجاح الذى أصابه سوار عندما غزا إمارة أنطاكية فى العام السابق<sup>(٦)</sup> .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ .

(٢) ابن العديم : زبدة العجائب ( Ill, p. 671 )

(3) Stevenson : The Crusaders, p. 134.

ويصف هذا المؤرخ إغارة سوار على إمارة أنطاكية بأنها ليس لها نظير فى عنفها فى تاريخ تلك الإمارة منذ قيامها .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

(٥) المرجع السابق .

(6) Stevenson : op. cit, p. p. 137.

ذلك غزا بزواش إمارة طرابلس « واجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة ومن التركان أيضاً خلق كثير » . وعلى مقربة من قلعة صنجيل ، دارت المعركة بين الدماشقة وبونز أمير طرابلس ، فقتل الأخير في أواخر مارس سنة ١١٢٧ ، وأمر عدد كبير من أتباعه ، فضلاً عن الغنائم الوفيرة التي حصل عليها المسلمون<sup>(١)</sup> . وهكذا ساء موقف الصليبيين في أنطاكية وطرابلس في الوقت الذي عاد زنكي سنة ١١٢٧ من العراق إلى الشام لاستئناف الجهاد<sup>(٢)</sup> .

على أن زنكي آمن دائماً بأن قيام وحدة الإمارات الإسلامية في الشام يجب أن يسبق أية خطوة عملية ضد الصليبيين . لذلك بدأ زنكي في يونية سنة ١١٢٧ بمحاولة جديدة ضد حمص ، التي كان يحكمها معين الدين أنر نائباً عن البوربين في دمشق . وفي ١١ يولية سنة ١١٢٧ علم زنكي أن الصليبيين أتوا لنجدة حمص ، فاضطر إلى أن يترك حصارها وأنجه لمواجهة الصليبيين عند قلعة بعين ( بارين )<sup>(٣)</sup> . وكانت الجيوش الصليبية التي تقدمت لصد زنكي عند بعين بقيادة الملك فولك ملك بيت المقدس والأمير ريموند الثاني أمير طرابلس الجديد . ولم تلبث أن حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين ، فقتل منهم أكثر من ألفين وأمر كثير منهم ، من بينهم ريموند الثاني صاحب طرابلس ، « وحمل عليهم عسكر عماد الدين فكسروهم وحققهم قتلاً وأسرا ، وحصل لهم من الغنائم الشيء الكثير » . أما الملك فولك فقد استطاع الفرار إلى قلعة بعين حيث حاصره زنكي<sup>(٤)</sup> . على أن فولك استطاع أن يرسل طلباً للنجدة السريعة إلى بطرق

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .

Guillaume de Tyr p. 640.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, p. 69.

(٣) ابن المديم : زبدة العجائب ( III. p. p. 672-673 ) &

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨-٢٥٩ :

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .

بيت المقدس وجوساين الثانى أمير الرها وريموند دى بواتيه أمير أنطاكية<sup>(١)</sup>  
ويبدو أن زنكى عمل حسابا لتلك النجدة التى بدأت تشق طريقها صوب بعين<sup>(٢)</sup>  
قلم يمانع فى عقد صلح فى أغسطس سنة ١١٣٧ مع الصليبيين المحاصرين، ينص على  
أن يأخذ المسلمون خمسين ألف دينار مقابل إطلاق سراح الملك وبقية الأسرى،  
كما يستولى المسلمون على بعين فضلا عن المراكز التى سبق أن استولى عليها  
زنكى سنة ١١٣٥ شرقى نهر العاصى، وهى زردنا ومعرة النعمان وكفر طاب<sup>(٣)</sup>

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 644 - 645.

(٢) ذكر ابن واصل أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصر الملك فولك فى بعين  
أرسلوا طالبين النجدة من الامبراطور البيزنطى، والغرب الاوروبى « فدخلت  
القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنصرين على  
المسلمين، وأعلموهم أن زنكى إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع  
بلادهم فى أسرع وقت، وأن همه المسلمين مصروفة إلى فتح بيت المقدس، فشدت  
النصرانية وجمعت وقصدوا الشام مع ملك قسطنطينية ».

( ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٧٣ ) .

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ ،

Guillaume de Tyr, p. 650.651.

## الفصل الخامس

### الامبراطورية البيزنطية والصليبيون في الشام

#### الكسبروس كومننن وإمارة أنطاكية

سبق أن تعرضنا للعداء بين البيزنطيين والصليبيين ، وهو ذلك العداء الذي بدأ يشتد منذ وصول الصليبيين إلى أطراف الشام والعراق ، ورفضهم التقيد بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم للامبراطور البيزنطي بتسليمه كافة المدن والبلاد التي كانت في وقت مامن ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، قبل أن يستولى عليها المسلمون. وقد تركز جزء كبير من العداء بين الطرفين في العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية<sup>(١)</sup> ، لأن مدينة أنطاكية بالذات كانت لها أهمية خاصة — دينية وحربية وسياسية — في نظر الدولة البيزنطية ؛ فضلا عن أنها كانت أكثر الإمارات الصليبية في الشام تطرفا جهة الشمال ، مما جعل الحدود مباشرة بينها وبين البيزنطيين في قلبية . فإذا أضفنا إلى ذلك كله الموقف المتشدد الذي وقفه بوهيموند الأول وتنسكرد في أنطاكية من الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، أدر كنا السر في اتساع شقة الخلاف حتى تحول إلى عداء ظاهر مستحكم بين البيزنطيين من ناحية والنورمان في أنطاكية من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup> .

وقد اتخذ ذلك النزاع بين إمارة أنطاكية والبيزنطيين صوراً متعددة وميادين كثيرة سبق أن تعرضنا لها في مواضع متفرقة من هذا الكتاب ؛ ولا بأس من

(1) Vasiliev : op. cit, II, p. p. 408 , 409.

(2) Chalandon : Alexis Commene, p. 219.



أن نجعلها هنا في إشارة عابرة سريعة تساعد على ربط حلقات ذلك النزاع بعضها ببعض . فمن ذلك مثلاً الخلاف الذي قام بين الطرفين حول اللاذقية ، تلك المدينة التي استولى عليها البيزنطيون سنة ١٠٩٩ ، والتي تتمتع بموقع هام يجعلها عاصمة السكان بالنسبة لإمارة أنطاكية بالذات<sup>(١)</sup> . وإذا كان بوهيموند وحلفاؤه البيازنة لم يتمكنوا من الاستيلاء على اللاذقية عند ماهاجموها سنة ١٠٩٩ بسبب تدخل ريموند دي تولوز ، فإن النورمان في أنطاكية لم يهدوا بعد ذلك إلا عندما استولوا على تلك المدينة سنة ١١٠٢ ، كما سبق أن شرحنا . وقد حاول الإمبراطور البيزنطي أن يرد على ذلك العدوان بإرسال حملة إلى الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى لانتزاع طرسوس وأذنه والمصيصة من النورمان ، ولكن الحملة فشلت في غرضها ؛ بل إن جوسلين دي كورتناي صاحب تل باشر استطاع سنة ١١٠٢ الاستيلاء على مرعش من البيزنطيين<sup>(٢)</sup> .

وهكذا لم يستطع ألكسيوس كومنين سوى أن يتحين الفرصة المناسبة للانتقام من الصليبيين . ولم تلبث أن أتت هذه الفرصة عند ما حلت بالصليبيين كارثة حران سنة ١١٠٤ ، فأرسل الإمبراطور أسطولاً استطاع أن يسترد اللاذقية<sup>(٣)</sup> ويستولى على بعض مراكز قرب الشاطئ فيما بين اللاذقية وانططوس . هذا فضلاً عما قام به الأرمن في قيليقية من طرد الصليبيين النورمان من طرسوس وأذنه والمصيصة ، واستدعاء البيزنطيين ليحلوا محلهم<sup>(٤)</sup> . ولم يستطع بوهيموند إزاء ذلك التهديد من جانب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً سوى الرحيل إلى غرب أوروبا في أوائل سنة ١١٠٥ ، لاستحضار نجده تمكن إمارته من الصمود في وجه الأخطار المحدقة بها . وهناك في الغرب لم يسكتف بوهيموند باستئارة

(1) Albert d'Aix, p. 500. & Raoul de Caen; p. 619.

(2) Ostrogorsky op cit, p. 323.

(3) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 315.

(4) Raoul de Caen p. 271 - 272.

الرأى العام ضد الإمبراطور البيزنطى ودواته ، وإظهارها فى صورة القوة المعادية للصليبيين ، الممثلة للمسلمين ، وإنما عبر بوهيموند عن شعوره العدائى ضد البيزنطيين عمليا ، فقام بحملته على الدولة البيزنطية سنة ١١٠٧ ، وهاجم مدينة دورازو ، مما يعتبر مقدمة لما حدث بعد ذلك بأقل من قرن من اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية نفسها <sup>(١)</sup> .

وإذا كان بوهيموند قد فشل أمام البيزنطيين ، واضطر إلى مصالحتهم كما سبق أن ذكرنا ، فإن تنكرد — خليفة بوهيموند فى أنطاكية — لم يرتبط بذلك الصلح ، وإنما واصل سياسته العدوانية ضد الدولة البيزنطية ، واستطاع أن يسترد اللاذقية من البيزنطيين سنة ١١٠٨ بمساعدة البيازنة <sup>(٢)</sup> . وبهمنامن هذه الأحداث أن الإمبراطور البيزنطى فى صراعة ضد النورمان الصليبيين ، لم يحجم عن الاستعانة بالأتراك السلاجقة ، فاستنجد بسلطان قونية قلىج أرسلان عندما هدد بوهيموند دورازو سنة ١١٠٧ ، وأرسل السلطان السلاجقى فرقة كبيرة من فرسانه لمساعدته ، مما جعل الغرب الأوروبى يميل إلى تصديق التهم الموجهة ضد الدولة البيزنطية ، ويعتقد أن هذه الدولة ترتكب فعلا خيانة كبرى فى حق المسيحية والقضية الصليبية <sup>(٣)</sup> .

والواقع إن الغرب الأوروبى لم يكن مبالغا عندئذ فى سوء الظن بالإمبراطورية البيزنطية ، إذ تشهد المراجع المعاصرة على وجود تمة اتصالات مريبة بين البيزنطيين

---

(1) Setton : op. cit. I, p. p. 391-392-

(2) Stevenson : op. cit. p. 82.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ . &

Albert d'Aix, p. 651.

ويقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٠٠ هـ : « فى هذه السنة كانت وحشة مستحكمة بين ملك الروم صاحب القسطنطينية وبين يمووند القرونجى ... فأرسل ملك الروم إلى الملك قلىج أرسلان صاحب قونية وأقصرا وغيرهما من تلك البلاد فاستنجده ، فأمر بجمع كثير من المسكر فعوى بهم ... » .

والمسلمين ، هدفها استئثار السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية ضد الصليبيين بالشام . من ذلك ما يؤكد ابن الأثير مرة أخرى من مجيء سفارة من قبل الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين إلى السلطان محمد السلجوق سنة ١١١١ تعرض عليه عقد تحالف بين الطرفين لمحاربة الصليبيين وطردهم من الشام . ولعل في هذه الشواهد ما يثبت تأمر البيزنطيين فعلا ضد الصليبيين في الشام بوجه عام والنورمان في أنطاكية بوجه خاص ، وأنهم كانوا يفضلون عودة الشام إلى أيدي السلاجقة المسلمين عن بقائها في أيدي الصليبيين . ويبدو أن عداوة ألكسيوس كومنين للصليبيين عندئذ أنسته ما صادفته دولته من قبل على أيدي السلاجقة ، مما جعله يستغيث بالغرب الأوروبى ضد السلاجقة المسلمين حتى سنة ١٠٩٥<sup>(١)</sup>

### الامبراطور حنا كومنين والأتراك

وفي عهد الامبراطور البيزنطى حنا الثانى كومنين (١١١٨ — ١١٤٣) ؛ دخلت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية من جهة وكل من الصليبيين والمسلمين من جهة أخرى دوراً جديداً . ذلك أن حنا كومنين — الذى تولى العرش بعد أبيه ألكسيوس كومنين مباشرة — كان محاربا قديراً ، قضى معظم سنوات حكمه على رأس جيوشه لتحقيق الأهداف التى وضعها لنفسه ، وهى إعادة الحدود الآسيوية للامبراطورية إلى ما كانت عليه قبل الغزو السلجوقى ، وطردهم سلاجقة الروم من آسيا الصغرى واسترداد قيلقية من الأرمن ؛ فضلا عن إجبار الصليبيين في أنطاكية على الاعتراف بسيادة الأمبراطورية<sup>(٢)</sup> .

وكان أن بدأ الأمبراطور حنا كومنين بمحاربة الأتراك في الأناضول

(1) Grousset : op. cit, I, p. 462.

(2) Ostrogorky : op. cit, p. 335.

للاستفادة من الشقاق الذي دب بين سلاجقة الروم وأمراء بني دانشمند في سيواس ؛ وهو الشقاق الذي اتسعت فجوته عند ما استولى سلاجقة الروم على مدينة ملطية التابعة لبني دانشمند . على أن هذا الشقاق لم يمنع من اتحاد سلطان قونية الساجوق مسعود مع الأمير التركاني غازي بن دانشمند سنة ١١١٩ لمهاجمة حاكم طرابيزون البيزنطي <sup>(١)</sup> . وكان ذلك في السنة نفسها - ١١١٩ - عندما بدأ الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين هجمومه على سلاجقة الروم في الأناضول . وبعد أن استرد منهم الإمبراطور بضعة مواقع ، اضطر إلى العودة إلى البلقان <sup>(٢)</sup> وإلى جانب الخلاف بين سلاجقة قونية وبني دانشمند ، نشب خلاف داخلي بين أمراء السلاجقة داخل قونية . حوالي سنة ١١٢٦ عند ما ثار عرب على أخيه السلطان مسعود ، واضطر الأخير إلى الإلتجاء إلى بلاط القسطنطينية حتى تمكن بمساعدة البيزنطيين من استرداد عرشه ؛ وعندئذ لجأ عرب بدوره إلى الأرمن في قونية ثم إلى الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية <sup>(٣)</sup> وهكذا أدى الشقاق الداخلي في سلطنة سلاجقة الروم إلى إضعاف تلك السلطنة ووقوف الإمبراطورية البيزنطية من أمرائها موقف الحكم والمعين ، في حين ظل الأتراك من بني دانشمند في كبادوكيا محتفظين بقوتهم ويمثلون خطراً على الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى <sup>(٤)</sup> .

لذلك اختار الإمبراطور حنا كومنين أن يواجه في تلك المرة جهوده ضد أولئك التركان ، فقاد حملة ضدهم على شاطئ البحر الأسود ، ونجح في الاستيلاء على مدينة قسطنطين سنة ١١٣٠ - ١١٣٢ <sup>(٥)</sup> . ولم يلبث بعض الأمراء المحليين

(1) Mattnieu d'Edesse p. 33.

(2) Vasiliev : op. cit, II, p. p. 415 - 416.

(3) Michel Le Syrien, p. p. 219-224.

(4) Grousset : op. cit, II. op. 84.

(5) Brehier : op. cit, p. 323.

أن اعترفوا بولائهم للإمبراطور البيزنطى ، مثل ألب أرسلان أمير كنفري وطفعل أمير أماسيا . ثم إن هذه لم تكن آخر حملات حنا كومنين ضد بنى دانيشمنند ، إذ لم يلبث أن عاد إليهم مرة أخرى عندما استولوا على قسطنطيني فاستردها منهم سنة ١١٣٤ ، كما استولى على كنفري <sup>(١)</sup> . وبذلك يكون الإمبراطور حنا كومنين قد استرد للإمبراطورية البيزنطية الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود إلى ما بعد طرابزون شرقا .

### هناكرومين والأرمن :

وكانت الخطوة التالية أمام حنا كومنين هي استرداد إقليم قيليقية في الجنوب الشرقى لآسيا الصغرى من الأرمن ، تمهيداً لاسترداد أنطاكية من الصليبيين . وقد حشد الإمبراطور لذلك الغرض حملة كبيرة ضمت صفوة جنوده وفرسانه ، وسار على رأسها نخترقا آسيا الصغرى حتى وصل إلى مرسين سنة ١١٣٧ ، ثم استولى في غير صعوبة على المدن الرئيسية الثلاث في سهول قيليقية ، وهي طرسوس وأذنة والمصيصة . وبعد ذلك اتجه الإمبراطور نحو الشمال حيث استولى في يولييه سنة ١١٣٧ على عين زربه بعد حصار عنيف ، ثم على بعض الحصون الأخرى المجاورة مثل تل حمدون <sup>(٢)</sup> . أما الأمير الأرمنى ليون الأول ( ابن لاوون ) فقد استمر يقاوم البيزنطيين عدة أشهر حتى سقط أخيراً في يد الإمبراطور البيزنطى سنة ١١٣٧ ، وأرسل وأسرته وأسرى إلى القسطنطينية <sup>(٣)</sup> . ولم يلبث أن استولى حنا كومنين بعد ذلك على الاسكندرونه وحصنها وعمر ميناءها ، وبذلك دخل أراضي إمارة أنطاكية <sup>(٤)</sup> .

(١) Grousset : Hist, des Croisades II, p. 85.

(٢) Cbalandon : Comnenes, II, p. p. 115-116.

(٣) Iorga : L'Arménie (ilicienne p. p. 94.

(٤) (٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .

### هنا كومننين وانطاكية :

كانت دولة الأرمن التي قامت في قيليقية في الربع الأول من القرن الثاني عشر بمثابة حاجز بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية. ولكن اقتطاع هذا الحاجز على يد الإمبراطور حنا كومننين، جعل الحدود مباشرة بين البيزنطيين والنورمان في أنطاكية ، وبالتالي فإن الخطوة التالية أمام الإمبراطور البيزنطي بعد استرداده قيليقية ووصوله إلى مشارف الشام ، ضارت المطالبة من جديد بأنطاكية (١) .

والواقع إن الإمبراطور حنا كومننين كان قد حاول من قبل حل مشكلة أنطاكية حلاسليا ، فأرسل في السنة التالية لاحتلاله عرش الإمبراطورية (سنة ١١١٩) مبعوثا إلى روجر دى سالرنو أمير أنطاكية عندئذ ، يقترح عليه زواج ابنة روجر من أمير من أسرة كومننين ، على أمل أن يؤدي هذا الحل - ولو مع مضي الزمن - إلى عودة أنطاكية إلى حظيرة الإمبراطورية . ويبدو أن روجر كان لا يعارض هذا الرأي ، ولكن حدث قبل أن يبت فيه برأى حاسم أن خر قتيلا في موقعة البلاط سنة ١١١٩ ، ومن ثم قام بلدوين الثاني ملك بيت المقدس بالوصاية على إمارته ليقلب الموقف رأسا على عقب .

على أن فشل ذلك المشروع لم يمنع حنا كومننين من محاولة إعادة الكرة ، وذلك حوالي سنة ١١٣٦ عقب وفاة بوهيموند الثاني ومحاولة أرملة أليس السيطرة على أنطاكية (٢) . ذلك أن الأميرة أليس لم تكف بطلب المساعدة من زنكي وإنما لجأت - كما سبق أن أشرنا - إلى الإمبراطور حنا كومننين فعرضت

(١) Setton : op. cit, I, p. 419.

(٢) انظر ما سبق ص ٥٣٢ .

عليه زواج ابنه وولى عهده مانويل كومنين من ابنتها كونستانس ، الورثية الشرعية لإمارة أنطاكية <sup>(١)</sup>. وقد عقدت اتفاقية سرية فعلا بخصوص ذلك الشأن بين أليس وبلاط القسطنطينية ، ولكن مجيء ريموند دى بواتيه وزواجه من الأميرة كونستانس سنة ١١٣٦ ، قطع الأمل نهائيا فى تنفيذها . وبذلك لم يبق أمام الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين سوى استخدام القوة لحل المسألة الأنطاكية ، فخرج على رأس جيوشه فى يوليو سنة ١١٣٧ قاصدا أنطاكية <sup>(٢)</sup>. ولم يكن لدى ريموند دى بواتيه — أمير أنطاكية عندئذ — من القوة ما يمكنه من الصمود فى وجه الجيوش البيزنطية الضخمة ، فأرسل يستنجد بفولك ملك بيت المقدس وبقية أمراء الصليبيين . ولكن شاء سوء حظ الصليبيين أن تتعرض إمارة طرابلس فى ذلك الوقت — كما سبق أن أشرنا — لهجوم زنكي ، مما جعل الملك فولك يتجه أولا لنجدة قلعة بعين ، على أن يذهب إلى أنطاكية بعد ذلك . ولم يدر فولك عندئذ أنه سيبتلى بالهزيمة وحصار المسلمين له فى بعين . وكان أن انقلب الوضع فاستنجد فولك بأمر أنطاكية ريموند دى بواتيه لينك حصاره ، وعندئذ أسرع ريموند إلى بعين دون أن يبال بالبيزنطيين الذين صاروا على مشارف مدينة أنطاكية نفسها <sup>(٣)</sup>. وعندما عاد ريموند بواتيه إلى أنطاكية فى أواخر أغسطس سنة ١١٣٧ ، كان حنا كومنين قد بدأ فعلا حصار المدينة « وضيق على أهلها » ، ومع ذلك فقد استطاع ريموند دخول مدينته لدفاع عنها <sup>(٤)</sup>.

(١) Chalandon : Comnènes, II. p. 122.

(٢) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 324.

(٣) Guillaume de Tyr p. 646.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٣ هـ

ابن القلائس ، ص ٢٦٣ .

Guillaume de Tyr, p. 645.

وسرعان ما اكتشف حنا كومنين أن اقتحام أنطاكية والاستيلاء عليها بالقوة ليس بالمهمة السهلة . هذا فضلا عن أن الإمبراطور خشي تحطيم قوة الصليبيين في الوقت الذي كان زنكي يعمل في نشاط ضد الصليبيين والبيزنطيين جميعا . لذلك لم تلبث أن تغلبت روح الاعتدال على حنا وريموند جميعا ، فدخل الطرفان في مفاوضات انتهت بعقد اتفاقية وافق فيها مندوبو ريموند على الاعتراف بسيادة الإمبراطورية على أنطاكية ، على أن يحكمها الصليبيون نيابة عن الإمبراطور<sup>(١)</sup> وكان أن قدم ريموند دي بواتيه ولاءه وأعان تبعيته للإمبراطور البيزنطي ، وذلك بعد موافقة الملك فولك الذي رأى هو الآخر أنه من الأفضل كسب ود البيزنطيين ومعاونتهم ضد المسلمين ، وبخاصة زنكي<sup>(٢)</sup> .

وبعد عقد الاتفاقية السابقة ، أقسم ريموند يمين الولاء للإمبراطور ، الذي لم يقشدد بدوره في ضرورة دخول أنطاكية واكتفى برفع العلم الإمبراطوري فوق قلعة المدينة<sup>(٣)</sup> .

ولم يلبث أن أدى تفاهم الصليبيين والبيزنطيين بصدد أنطاكية سنة ١١٣٧ إلى تحالف الفريقين ضد المسلمين ، فتم الاتفاق على تنفيذ مشروع حملة صليبية كبرى في الربيع التالي ، يشترك فيها البيزنطيون والفرنجة ضد مسلمي الشام . وقد تحددت أهداف تلك الحملة في تحطيم قوة زنكي في حلب ، وإمارة بني منقذ في شيزر ، وانتزاع حصص من أتابكه دمشق ، ثم إقامة إمارة صليبية جديدة من الأجزاء السابقة تشمل الجهات الداخلية من بلاد الشام ، بما فيها حلب وشيزر وحماه وحمص . وكذلك تم الاتفاق على أن يعين ريموند دي بواتيه

(1) Vasiliev : op. cit, II, p. 416.

(2) Setton : op. cit, I, p. 439.

(3) Brebier : op. cit, p. 324.



أمير أعلى تلك الإمارة الجديدة ، ويترك إقليم أنطاكية للإمبراطور البيزنطى<sup>(١)</sup>

### هنا كومننن ومجارية المسلمين :

وفى فبراير من العام التالى - سنة ١١٣٨ - نفذت تعليمات الإمبراطور ، فألقى القبض فى أنطاكية فجأة على جميع التجار والرعايا المسلمين الوافدين من حلب والمناطق المجاورة ، حتى لا تتسرب أخبار الاستعدادات الصليبية إلى زنكى<sup>(٢)</sup> . ثم كان أن وصل الإمبراطور البيزنطى حنا كومننن إلى أنطاكية فى أواخر مارس سنة ١١٣٨ ، حيث انضمت إليه القوات الصليبية التابعة لأنطاكية والرها ، ثم زحف الجميع على حلب فى ابريل سنة ١١٣٨ ؛ وفى الطريق استولى المسيحيون على حصن بزاعه ( بزاعا ) بين حلب ومينج<sup>(٣)</sup> .

ولا شك فى أن الوقت الذى أضاعه المسيحيون فى الاستيلاء على بزاعه سبب لهم خسارة كبيرة ، لأنه أفقد حركتهم عنصر المفاجأة والمباغطة ، وأتاح للمسلمين - وزنكى بوجه خاص - فرصة طيبة للاستعداد ؛ « فتحرز الناس وتحفظوا وكتبوا أتابك زنكى بذلك<sup>(٤)</sup> » . وكان زنكى عثذذ على رأس جيشه عند حصن يعمل لطرده الدماشقة منها ، وعند ما علم بحملة الصليبيين أرسل بعض قواته تحت قيادة الأمير سيف الدين سوار لتقوية حلب والدفاع عنها . وهكذا ضاعت على الإمبراطور البيزنطى فرصة أخذ حلب على غرة ، فلم يتنبه إلى غلظته إلا بعد فوات الأوان . وأخيراً أدرك الإمبراطور أن سياسة التباطؤ أتاح لحلب فرصة الحصول على إمدادات قوية من زنكى ، وأنه

(١) Guillaume de Tyr, I, p 652

(٢) Runciman : op. cit, II, p. 215.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. III, p p 675-676 )

لا فائدة بعد ذلك من حصارها ، فانصرف عنها بعد أن أقام عليها ثلاثة أيام ،  
واتجه إلى الأثارب التي هرب من بها من المسلمين بعد أن أشعلوا فيها النار ،  
فاستولى عليها المسيحيون في ٢١ ابريل سنة ١١٣٨<sup>(١)</sup>

وبعد أن حبس الإمبراطور أسرى بزاعة في قلعة الأثارب ، اتجه على  
رأس الجيوش المسيحية صوب معرة النعمان ، ولكن دون أن يترك حامية كافية  
في الأثارب ، مما مكن بعض أسرى المسلمين من الفرار إلى حلب حيث أخبروا  
الأمير سوار نائب زنكي بضعف الحامية المسيحية في الأثارب .  
وهكذا استطاع سوار أن يغير بدوره على الأثارب ، ويطلق سراح بقية أسرى  
المسلمين « فسر أهل حلب بهذه التوبة سروراً عظيماً »<sup>(٢)</sup>.

أما الجيوش المسيحية فقد واصلت زحفها ، فاستولت في ٢٧ أبريل على  
كفر طاب التي كان زنكي قد أخذها من الصليبيين سنة ١١٣٥ ؛ ثم اتجه  
الإمبراطور حنا كومين بعد ذلك على رأس الجيوش المسيحية المتحالفة إلى شيزر ،  
المدينة الإسلامية الكبرى التي تسيطر على أواسط حوض نهر العاصي<sup>(٣)</sup> . وقد  
أخذ المسيحيون يهاجمون شيزر في عتف منذ ٢٩ ابريل سنة ١١٣٨ . فاستجد  
صاحبها — أبو العساكر سلطان على بن منقذ — بزنكي . وكان أن أتى زنكي  
مسرعاً لتجدة شيزر ، فنصب معسكره على ضفة نهر العاصي بينها وبين حماة<sup>(٤)</sup> .  
ولم يشأ زنكي أن يقامر بشن هجوم عام على المسيحيين بسبب تفوقهم العددي .  
فاكتفى بالخروج كل يوم « هو وعسكره ويسيرون إلى شيزر ويقفون بحيث  
يراهم الروم . ويرسل السرايا فتأخذ من ظفر به منهم » . وفي الوقت نفسه تبدو

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ٧٨ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٧٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

عبرتية زنسكى فى تلك المرحلة فى أنه استغل مبادئ علم النفس الحربى أتم استغلال ،  
فعمل على تحطيم الروح المعنوية للصليبيين ، وأخذ يرسل إلى الامبراطور البيزنطى  
يقول :

« إنكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال ، فانزلوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقى ،  
فإن ظفرت بكم أرحمت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم بى استرحتم وأخذتم شيزر  
وغيرها ! » . وهنا يعترف النويرى أن زنسكى « لم تكن له بهم قوة ، وإنما كان  
يرهبهم بهذا القول وأشباهه ! » <sup>(١)</sup> .

وفى تلك الأثناء أيضاً أرسل زنسكى القاضى كمال الدين الشهرزورى إلى  
السلطان مسعود السلجوقى ، فتعاضد السلطان فى أول الأمر ، « وأظهر قلة اهتمام » .  
ولكن ثورة الأهالى فى بغداد ورغبتهم فى الجهاد ، واستغاثتهم وقت الصلاة يوم  
الجمعة « وإسلاماه ! وادين محمداه » ، أخافت السلطان فأمر بإعداد حملة  
سريعة ، كما تعهد الأمير الأرتقى داود بإرسال حملة من الجزيرة من خمسين ألف  
من التركمان <sup>(٢)</sup> .

وفى انتظار وصول تلك المساعدات ، لجأ زنسكى إلى العمل على تفرقة صفوف  
المسيحيين ، وإثارة النفور بين البيزنطيين والصليبيين ، فكاف « يرسل إلى  
ملك الروم ، يوجهه أن فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه لتخلوا عنه ، ويرسل  
إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم إن ملك بالشام حصناً واحداً  
ملك بلادكم جميعها ، فاستشعر كل من صاحبه ! » <sup>(٣)</sup> . وسرعان ما أفلحت سياسة

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٧٢ (مخطوط) ؟

ابن واصل : مغرج السكروب ، ج ١ ص ٨١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ . ؟

ابن واصل : مغرج السكروب ، ج ١ ص ٧٩ — ٨٠ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٥ ورقة ٧٢ ؟

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

زنكي وآتت أكلها ، فلم يلبث أميرالرها وأنطاكية أن غيرا سياستهما وأحجبا على مشاركة الإمبراطور في مهاجمة شيزر . ووقفت قواتهما من الجيوش البيزنطية المحاربة موقف المتفرج (١) .

ويلاحظ أن ريموند بالذات أخذ يعمل حساباً لنجاح خطة الصليبيين وما يترتب على ذلك النجاح من إعطائه حلب وشيزر تنفيذاً للاتفاقية بين الصليبيين والإمبراطور البيزنطي ، مما يجعله في موقف متطرف على خط النار أمام المسلمين ، بعيداً عن أنطاكية وموقعها ؛ في حين كره جوسلين الثاني أن يرى ريموند قريباً منه في حلب (٢) . وهكذا أدى عدم توافر حسن النية بين الصليبيين وبعضهم وبعض من جهة وبينهم وبين البيزنطيين من جهة أخرى إلى نشل الحملة المشتركة ، إذ قبل الإمبراطور حنا كومنين العروض التي عرضها عليه أبو العساكر سلطان صاحب شيزر ، والتي تضمنت دفع مبلغ كبير من المال وجزيرة سنوية رمزاً للتبعية للإمبراطور البيزنطي ، فضلاً عن الهدايا والخيول والمنسوجات الثمينة (٣) . ولم يفته شهر مايو سنة ١١٣٨ إلا وكانت الجيوش البيزنطية قد انسحبت تماماً من شيزر متجهة إلى أنطاكية عن طريق قامية (٤) .

### نفسك الحلف الصليبي البيزنطي :

ولم يستطع الإمبراطور البيزنطي أن يغفر للصليبيين موقفهم منه أمام شيزر ، فرد على ذلك الموقف رداً عملياً بأن دخل أنطاكية ومن حوله جنوده دخول

(1) Guillaume de Tyr. p. 656.

(2) Runciman : op. cit, II. p. 216.

(3) Setton : op. cit, I, p. 440.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ . ابن القلانسي ص ٢٦٦

أسامة بن مقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١١٣ — ١١٤ .

Chalandon : Comnens, II, p. 146.

السيد صاحب الحق الشرعى فى ملكية المدينة ، ثم استدعى أمامه ريموندى بوانيه وجوسلين الثانى ووجهما على موقفهما وتفاعسهما عن الحرب ، وطالبهما بتسليم قلعة أنطاكية<sup>(١)</sup> . وكان أن ساء موقف ريموند ووجد نفسه فى قبضة الإمبراطور البيزنطى الذى سيطرت جيوشه على المدينة ، ولكن زميله جوسلين الثانى أمير الرها أنقذ الموقف ، فانصل سراً بفرسان أنطاكية ، ومن بها وحولها من الفرنجة وأثار نفوسهم ضد البيزنطيين الأرثوذكس ، وخوفهم من نوايا الإمبراطور البيزنطى واتجاهاته ضد الصليبيين<sup>(٢)</sup> . ولم تلبث أن شبت ثورة عارمة فى أنطاكية ضد حنا كومنين ورجاله ، فتجمع الناس فى الطرقات واعتدوا على الجيش البيزنطى الذى أخذ على غرة . ولم يستطع الإمبراطور عندئذ سوى أن يغلق على نفسه أبواب قصره ليحمى نفسه من غضب الجماهير الثائرة ، فى الوقت الذى سمع بأن سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى غزوا قيليقية وأغاروا على أذنه — بإيحاء من زنكى — الأمر الذى جعل الإمبراطور ينسحب من أنطاكية عائداً إلى القسطنطينية بعد أيام<sup>(٣)</sup> .

ولا يخفى علينا أن تلك النهاية الفاشلة التى آل إليها أمر الحملة الصليبية — البيزنطية الفرنجية — سنة ١١٣٨ ، كان لها أثرها بالنسبة للموقف بين المسلمين والصليبيين فى الشام من ناحية وفى تقوية جبهة المسلمين من ناحية أخرى<sup>(٤)</sup> . ذلك أن الخلاف الذى دب بين البيزنطيين والفرنجة أمام شيزر ، وما تبع ذلك من انسحاب الصليبيين ، جعل زنكى يشعر بأنه فى غير حاجة إلى المساعدة التى وعد بها سلطان السلاجقة . والمعروف أن عماد الدين زنكى كان — كما وصفه

(1) Guillaume de Tyr, p. 658.

(2) Brehier : op. cit, p. 324.

(3) Guillaume de Tyr, p. 662 — 665.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. p. 121 — 122.

ابن واصل — « عنده من الدهاء والمكر شيء كثير »<sup>(١)</sup> ؛ فأدرك بسرعة أن مصالحه بالشام تتعارض ومجىء حملة كبرى من قبل السلطان الساجوقى يقوى بها نفوذ السلطان — على حساب زنكى نفسه بالشام . لذلك أرسل زنكى على الفور يابغى طلبه السابق ويعلم عدم حاجته إلى مساعدة السلطان<sup>(٢)</sup> .

ولم يكذب الصليبيون ينسحبون من إقليم شيزر حتى أرسل زنكى قواته فاستولت على كفر طاب (حوالى ٢١ مايو سنة ١١٣٨) <sup>(٣)</sup> وفى شهر سبتمبر من العام نفسه استولى زنكى على حصن بزاعه ، ثم على الأثارب فى أوائل شهر أكتوبر ؛ وبذلك ضاعت جميع المكاسب التى حققتها الحملة البيزنطية الفرنجية<sup>(٤)</sup>

#### نجدد العراء بين هذا كروم صليبيون

على أن الإمبراطور حنا كومنين لم يلبث أن عاد إلى الشام عن طريق قيليقية، ومعه جيش كبير سنة ١١٤٢ ليستولى على أنطاكية استيلاء فعلياً . وعند وصوله فى أواخر سبتمبر إلى قلعة بغرامس — وهى قلعة كانت بيد الداوية تسيطر على الطريق بين قيليقية وأنطاكية — أرسل إنذاراً نهائياً إلى ريموند بواتيه بتسليمه أنطاكية فوراً<sup>(٥)</sup> . وكان هذا الإنذار ضربة قاسية لأمير أنطاكية ، لاسيما فى الوقت الذى لم تفتأ جيوش المسلمين تغير على إمارته<sup>(٦)</sup> . لذلك استشار ريموند فرسانه فى أنطاكية ، فأجمعوا على رفض الإنذار وعدم تسليم أنطاكية

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٩١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. III, p 678 )

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٨٣ .

(5) Guillaume de Tyr, p 689.

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. III, p. 683-684 )

للإمبراطور البيزنطى<sup>(١)</sup> . على أن الشتاء لم يلبث أن أقبل بيرده ، وصار الوقت غير مناسب للقيام بعمل حربي كبير ، فاكتفى الإمبراطور بالإغارة على الأقاليم والقرى المجاورة لأنطاكية ، ثم عاد ليمضى فترة الشتاء في قيليقية قرب المصيصة . وفي فترة الانتظار هذه ، أخذ حنا كومنين يعيد النظر في موقفه من الصليبيين وموقف الصليبيين منه ، وانتهى تفكيره إلى أن حقوق الإمبراطورية البيزنطية في بلاد الشام ثابتة لما سندها التاريخي ، فضلاً عن اعتراف الصليبيين أنفسهم في المعاهدات والاتفاقات التي عقدها مع الإمبراطورية سنة ١٠٩٧ ، ١١٠٨ ، ١١٣٧ . ثم إن الإمبراطورية البيزنطية ليس لها الحق في السيادة على أنطاكية وحدها ، بل على بيت المقدس أيضاً<sup>(٢)</sup> . لذلك فكر الإمبراطور في إثبات سيادته على بيت المقدس ، فأرسل إلى الملك فولك مبعوثاً يخبره بأن الإمبراطور سيأتى على رأس جيوشه للحج<sup>(٣)</sup> . ولكن فولك رد على الإمبراطور البيزنطى رداً لبقاً أنكر فيه أى حق شرعى للإمبراطور البيزنطى في بيت المقدس . وقال إن الأحوال الاقتصادية في المملكة لا تسمح بإيواء جيش الإمبراطور الضخم ، وأنه إذا كانت هناك ضرورة لحج الإمبراطور فليأت على رأس عشرة آلاف فقط من رجاله<sup>(٤)</sup> . ولم يجب ذلك الرد الإمبراطور حنا كومنين ، فأخذ يستعد للقيام بحملة كبيرة شاملة على الشام عندما توفي فجأة في قيليقية في ٨ إبريل سنة ١١٤٣ ، وبذلك تخلص الصليبيون بالشام من خطر جائم<sup>(٥)</sup> .

على أنه يلاحظ أن العداء بين البيزنطيين والصليبيين لم ينته ب وفاة حنا كومنين ،

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 690-691.

(2) Vasiliev : op. Cit, II, p. 416.

(3) Guillaume de Tyr p. p. 691-692.

(4) Brehier : op. cit, II, p. 325.

(5) Runciman : op. cit; II, p. 244.

وإنما استمر طالما قامت للصليبيين قاذمة في الشام . من ذلك أن ريموند أمير أنطاكية أسرع إلى إرسال جيش إلى قيليقية عند سماعه ب وفاة حنا كومنين ، للاستيلاء على المراكز البيزنطية هناك. ولكن الإمبراطور البيزنطي الجديد - مانويل كومنين أرسل جيشاً وأسطولا طرد الصليبيين من قيليقية ، ثم هاجم أنطاكية نفسها وأسر الهزيمة ريموند<sup>(١)</sup> .

وهكذا ساءت العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، مما حال دون اشتراك الطرفين في عمل سريع ضد زنكي ، هذا وإن كان سقوط الرها في يد زنكي سنة ١١٢٤ ، واستفحال قوة الأخير في شمال الشام ، جعل ريموند دى بواتيه يؤمن بأنه من المتعذر الاحتفاظ بأنطاكية في وجه ذلك الخطر الجديد دون محالفة البيزنطيين ومساعدتهم . لذلك ذهب ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية إلى القسطنطينية سنة ١١٤٥ ، ليطالب مساعدة الإمبراطور البيزنطي ، وهناك أعلن توبته وندمه عما بدر منه من قبل ، وزار قبر الإمبراطور الراحل حنا كومنين ليترحم عليه ويشيد بمحاسنه !! وبعد أن أعلن ريموند ولاءه للإمبراطورية البيزنطية وتبعيته للإمبراطور القائم مانويل كومنين ، عفا مانويل عنه ووعد بمساعدته ضد زنكي<sup>(٢)</sup> .

وليس معنى ذلك أن العلاقات عادت صافية بين البيزنطيين والصليبيين بالشام ، وإنما استمر العداء بين الطرفين يختفى حيناً ويظهر أحياناً ، حتى كان استيلاء الصليبيين على القسطنطينية في أوائل القرن الثالث عشر ، كما سنرى فيما بعد .

---

(1) Brehier : op. cit, p. 328.

(2) Michel Le Syrien, III, p. 267.









UNIVERSITY OF ALEXANDRIA  
Bibliotheca Alexandrina



0252171